

تَعْرِيفُ الْقُرَّانِ

إِلَى الْأَذْهَانِ

آيَةُ اللَّهِ الْعُظْمَى الْأَمَامِ

السَّيِّدِ مُحَمَّدٍ الْحُسَيْنِيِّ الشَّيْخِ الْإِسْلَامِيِّ

(أَعْلَى اللَّهِ مَقَامَهُ)

المجلد الأول

الطبعة الأولى
والنقل والتوزيع
دار الفکر بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى
جميع حقوق الطبع محفوظة
١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م



دار اللؤلؤ
للنشر والتوزيع والطباعة

المكتبة : حارة هريك - بئر العبد - شارع السيد عباس الموسوي - الهاتف : ٠١/٥٤٥١٨٢ - ٠٣/٤٧٣٩١٩ - ص.ب : ١٣/٦٠٨٠
المستودع : حارة هريك - بئر العبد - مقابل البنك اللبناني الفرنسي - تليفاكس : ٠١/٥٤١٦٥٠
www.daraloloum.com E-mail : daraloloum@hotmail.com

نَفَرَاتُ الْفِرَاقِ إِلَى الْأَنْهَاءِ

آيَةُ اللَّهِ الْعُظْمَى
الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي
(اعلى الله درجته)

المجلد الأول

الطبعة والنشر والتوزيع
دار الفکر
بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل القرآن وجعله شفاء ورحمة للمؤمنين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد الأنبياء والمرسلين، سيدنا ومولانا أبي القاسم محمد وعلى آله الغر الميامين أهل بيت الوحي، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، ومهبط الذكر والتنزيل، خزان العلم، ومنتهى الحلم، وأصول الكرم، وقادة الأمم، وأولياء النعم، وعناصر الأبرار، ودعائم الأخيار، وأبواب الإيمان، وأمناء الرحمن، وسلالة النبيين، وصفوة المرسلين، وعتره خيرة رب العالمين.

وبعد:

فحيث إن الحكمة الإلهية اقتضت أن يكون الرسل بشراً يوحى إليهم كانت الحاجة إلى آيات ودلائل تبين صدقهم فيما يبلغون عن ربهم، ويهدون، ويعلمون. من هنا كانت المعجزة قرينة الرسالة، ولولا المعجزة لأشكل الأمر على الناس، وخالط الشك اليقين، والتبس الصدق والكذب، وبالتالي تشوشت أفكار الناس في تمييز الصادق من الكاذب، والنبي من المنتحل.

ومن هنا فإن الظاهر أنه لم يرد لفظ المعجزة كاصطلاح إلا في الفترة

المتأخرة عن رسول الوحي ﷺ بعد نزول القرآن، وإنما عبّر عنها في الآيات والروايات بالآية تارة ﴿قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(١) وبالبيّنة تارة ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾^(٢) وبالبرهان تارة ثالثة ﴿فَلْيَايُذِّنْكُمْ بِرُفْعَتَيْنِ مِّن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾^(٣) وبالسلطان رابعة ﴿فَأَتَوْنَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾^(٤) لما في هذه الألفاظ من اندماج بين وحي اللفظ وبصيرة العقل وقوة الحجّة ومنطق البرهان، فتحاكي وجدان الإنسان وقلبه وعقله وفطرته وبصره وبصيرته بما يقطع أمامه سبل الشك، ويزيح ظلمات الوهم.

فالآيات علائم ودلالات ظاهرة، كما أنّ دلالاتها واضحة سواء كانت دلالة عقلية أو حسية، والبرهان إظهار للحجّة بموازين العقل والحكمة، وهو أؤكد الأدلة المحقّزة لكوا من الصدق والتصديق؛ لذلك يقتضي الصدق لامحالة، والسلطان لما فيه من سلطنة وهيمنة على القلب والعقل تدعو إلى الإيمان، وتدفع الشكوك والأوهام، ولا يبعد أن تكون الآية لعموم الناس؛ لأنّ الحب طريقهم إلى الإيمان واليقين غالباً، والبيّنة في مواقع إظهار ما يخفى على الناس معرفته، والبرهان لمن كان من أهل العقول والأفكار، والسلطان لتسلّطه على أهل العلم والحكمة من الناس. هذا من حيث خصوصيات كلّ لفظ منها.

وأما من حيث الهدف والمضمون فالجميع يشترك في تصديق النبي ﷺ، وتثبيت حقانيّة دعواه، واستقامة طريقه، وصحّة أهدافه ونواياه. ولعلّ من هنا اتّفقت الكلمة على انحصار طريق معرفة صدق دعوى الأنبياء ﷺ بظهور المعجز على أيديهم كما يظهر من أقوال المحقّقين كقولهم: «وطريق معرفة صدقه ظهور المعجزة على يده»^(٥).

(٤) إبراهيم: ١١.

(٥) تجريد الاعتقاد: ٢١٤.

(١) الأنعام: ١١٠.

(٢) الأعراف: ٧٤.

(٣) القصص: ٣٣.

وعليه فإنَّ طريق التصديق بالنبوة والإيمان بها ينحصر بالإعجاز الذي يظهره النبي ﷺ شاهداً مطابقاً لدعواه .

ولعل هذا هو المرتكز في أذهان البشر وفطرهم كسبيل قد يعد وحيداً، أو الأكثر قوة، والأسرع أثراً في التصديق والإيمان؛ ولذا كان أول نداء يطلقه الكافرون في مواجهة دعوات الرسل والأنبياء ﷺ هو المطالبة بإظهار الآيات والمعاجز، وكل قوم كانوا يطلبون من رسولهم ذلك حتى وإن أقروا بغيره من الأنبياء السابقين .

قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمَ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾^(١).

ففي الوقت الذي أثبتت الآية التقارن التام بين رسالات الرسل والآيات البيّنة كشفت عن إيمان اللاحقين بدعوات السابقين حتى وإن كذبوا من أرسل إليهم من الأنبياء، فطالבוهم بإظهار الآية .

وكانت هذه الآيات هي الحجّة التي تنهض للمطالبيين الصادقين في دعواهم لجذبهم إلى الإيمان، كما تثبت على المعاندين لو أصرّوا وظلّوا في غيهم يعمهون .

ولعلّ ممّا يشهد لذلك آيات متضافرة في الكتاب العزيز، بعضها ثبت وقوع الإعجاز مقارناً لدعوى النبي ﷺ، وبعضها يبيّن نوع الإعجاز وتفاصيل حدوثه .

وربما يعدّ من الأولى قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْفَقْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُموا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢).

فهي في الوقت الذي تثبت دلائل الأنبياء الكافية في اليقين والإيمان

(١) الأنبياء: ٦.

(٢) الروم: ٤٨.

تهدّد المنكرين الذين عاصروا الرسول الأعظم ﷺ وعایشوه بمصير يشبه مصير السابقين في مواقفهم من الرسل، وقد جمعت هذه الآيات مع الآيات التي في سياقها قبلاً وبعداً بين الدلائل المادّية والمعنويّة، فحيث تحدّثت ما قبلها عن آية الرياح وما لها من آثار هامة ونافعة تقوم عليها حياة الناس حيث إنّها:

١ - تأتي لهم بالسحاب المثلث بالغيث الذي يسقي الأرض العطشى، فينبت رزقهم وكلاً مواشيهم.

٢ - توازن حرارة الجو فتعطيهم برودة في المناطق الحارة ودفئاً في الباردة.

٣ - تنقي الهواء والفضاء من الأوبئة والغازات الضارة.

٤ - تلقح الأشجار فتعطي ثمارها، والأزهار فتعطي أريجها وجمالها، وتنشر البذور من البيادر إلى الأراضي الجرداء فتغدو خضراء ممرعة ترعاها الأغنام والمواشي، وتضفي على الحياة بهجة وروعة.

٥ - تحرّك الفلك والسفن في البحار والأنهار فتربط بين البشر، وتجمع بين حاجاتهم واحتياجاتهم فيتكاملون ويتعاونون.

وغيرها من آيات وبراهين ودلائل تقوم عليها حياة الناس، وتدلّ على سعة رحمة الله عزّ وجلّ وعميم فضله وخيره وعظم بركته؛ ولذا قال سبحانه بعدها: ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).

وأما الدلائل المعنويّة التي هي أيضاً من آثار رحمة الله وخيره وبركته فقد جاءت مقارنة لتلك لتشمل كلّ جوانب الإنسان، وتسدّ كلّ احتياجاته الجسديّة والروحيّة؛ إذ لا يكفي الإنسان أن يعيش ناعماً، يبات شعباناً،

ويغدو وفيراً رويًا، فإنَّ ذلك مهما بلغ وكثر ولد وطاب لا يسدَّ حاجاته الأكبر والأوسع في تحقيق الآمال، واللهفة إلى النجاح في مختلف شؤون الحياة، بل لولا الأمل والنجاح يصبح نهار الإنسان ليلاً، وحلوه مرّاً؛ لقصور الدنيا بما فيها من شهوات وغرائز ولذات ومطائب عن إشباع روح الإنسان وعقله وفكره، فحتى تتمَّ النعمة وتكتمل الحجة ويتمَّ البرهان كان لا بدَّ من إشعال وقدة الأمل في قلبه، وإنارة طريقه على المستقبل والغد الناجح الوفير، فقال سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١).

وعلى خلاف ذلك ما سيلاقيه الكفار المعاندون من أيام شديدة وساعات سوداء مدلهمة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٢).

والمستفاد منها هو أنَّ لكلَّ رسول ونبيٍّ آية قد أحكمها الله تعالى وتولاها بالحق والصدق والثبات في الموقف والغاية، يمتنع عنها الريب، ولا تخالجها شكوك الشيطان وتشكيكاته، وهذه أيضاً تضمّنت آيات الظاهر والباطن، فالأولى تنسف خطط الشيطان، وتعود بالناس إلى الإيمان، والثانية تطمئن الرسل بمستقبل مشرق يعيش فيه الإيمان بأصنافه وشعبه.

(١) الروم: ٤٨.

(٢) الحج: ٥٣.

كيفية الإعجاز

ومن الثانية: آيات متضافرة أيضاً شرحت بوضوح ودقة وعمق كيفية الإعجاز وأنحائه لعل منها:

١ - قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾^(١) وهي اليد والعصا، والحجر، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم دلائل خارقة ظاهرة.

٢ - قوله تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾^(٢).

٣ - قوله تعالى: ﴿وَالِإِذْ نَادَىٰ نَحْمُودُ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوَّرُوا أَبْعَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾^(٣).

٤ - قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾^(٤).

٥ - قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾^(٥) وغير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تعالى قد نصر أنبياءه عليهم السلام بالمعجزة، ولم يوكل عموم الناس الذين يقنعهم بالإيمان عادة الشاهد

(٤) سبأ: ١٣.

(١) الإسراء: ١٠٢.

(٥) الأنبياء: ٧٠.

(٢) آل عمران: ٥٠.

(٣) الأعراف: ٧٤.

المادي الظاهر على صدق الأنبياء أكثر من قدرتهم الروحية وحالاتهم المعنوية والعقلية؛ لأنّ هذا قد لا يدركه عموم الناس كما لم ينحصر لطفه عزّ وجلّ بإخبارات النبيّ السابق عن ظهور نبيّ في اللاحق، وذكره لعلامات النبوة وسيماء النبيّ القادم؛ وذلك لأنّه حتى لو وصلت هذه الإخبارات والعلامات للأمم اللاحقة على نحو التواتر إلّا أنّها قد لا تلزم من لا يتدبّن بدين أصلاً، أو لا يعتقد بنبوة ذلك النبيّ، فلا تتمّ الحجّة عليه.

ولعلّ قوله سبحانه في سورة الحديد: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾^(١) يحاكي أصحاب العقول المتفتحة والآراء المتطلّعة لجمع الدين بالدنيا والفكر والتطبيق حتّى في مثل مجالات السياسة والاجتماع والاقتصاد ونحوها، حيث جمعت بين ثلاثة دلائل واضحة تشكّل العناصر الأساس لقيام أي مجتمع ودولة، وهي:

١ - اليّات كحجج على الإيمان

٢ - الكتاب كحجّة على التقنين والتنظيم

٣ - الميزان كحجّة على التطبيق والممارسة مادياً ومعنوياً.

ومن الواضح أنّ كلّ دولة وأمة تقومان على العقيدة والنظام والسلطة، ويجمعهما الهدف المشترك، وهو العدل، ثم يأتي بعد ذلك الحديد والقوّة لحمايتهما من الاستهانة أو الاستلاب، وبهذا يبني الأنبياء ﷺ حضارة إنسانية رائعة يسودها الأمن والسلام، ويحكمها العدل والنظام في شتى المجالات، وقد جمع هذه جميعاً القرآن الكريم، فاحتوى كلّ رسالات الأنبياء وأهدافهم، فوصفه ربّه ومنزله: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي

هَـ أَقَوْمٌ^(١) ووصفه من حملة وبلغ به وبشر: «هو الدليل يدل على خير سبيل»^(٢) ..

وبالتالي فإن كل حرف وكلمة وجملة وآية وسورة بل كل حركة وسكنة ورفع ونصب فيه يدل على إعجاز وإعجاز وعلو وسمو، فهو كما قالوا عنه: ليست معجزة واحدة فحسب، بل موسوعة معجزات، فاجتماعياته معجزة لعلماء الاجتماع، وسياسياته معجزة للسياسيين، وأخلاقياته معجزة للأخلاقيين، وعسكرياته معجزة للعسكريين، واقتصادياته معجزة للاقتصاديين، وتربوياته معجزة للتربويين، وأدائه معجزة للأدباء، ولكل اختصاصي معجزة في اختصاصه، بل إن القرآن معجزة لكل إنسان في الجانب المنسجم مع أولويات ذلك الإنسان، فهو معاجز بعدد الخلائق، أوليست الطرق إلى الله سبحانه بعدد أنفاس الخلائق؟ فهو معجزة للناس أجمعين.

وفوق ذلك أنه معجزة الفلسفة، فهو كتاب أعطى الفلسفة الكاملة الصحيحة للبشر، فهو كتاب الكون، بل هو عدل الكون؛ إذ الكون كله كلمة من كلمات الله، والقرآن كلمة أخرى من كلمات الله، فهي وتلك كلمتان مترادفتان، الكون قرآن ولكن بشكل، والقرآن كون ولكن بشكل آخر، وبعد ذلك وقبله فإن من القرآن ما فيه شفاء ورحمة للعالمين، ولا يزيد الظالمين إلا خساراً.

كما ستبقى صور الإعجاز وأشكاله تتجلى في كل عصر، ومع كل جيل مهما نضج البشر، وتنامت عقولهم، وتراكت تجاربهم، وتنورت أفكارهم. فإن القرآن يفسره الزمان كما في بعض الأخبار لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي غرائب؛ لأنه كلام الله سبحانه، وفيض من علمه اللامتناهي، وكلامه عز وجل مظهر لعلمه، وعلمه مظهر لذاته، وكلها لامتناهية وفوق ما لا يتناهى،

(١) الإسراء: ١٠.

(٢) أصول الكافي: ج ٢، ٥٩٩، ح ٢.

ككيف يدركه بشر، أو يحيط بكنوزه محيط أو عالم؟ وبهذا يظهر مدى التجافي عن الحقيقة الدامغة فيما يدّعيه بعض أعداء الإسلام من أن القرآن من صنع رسول الله ﷺ، وأن القرآن لم يوح إلى النبي ﷺ بأكمله، بل كان يوحى إليه رؤى قصيرة ووصايا، وأمثال وقصص ذات مغزى، أو أحاديث في أصول العقيدة.

ويكفي في ردّ زعم هؤلاء ما صدع به الحق تبارك وتعالى في قوله عزّ من قائل: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنِي فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَحْكُدُ بِأَيِّتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾^(١).

وقال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «وكفى بالكتاب حججاً وخصيماً»^(٢).

فإن كلمات القرآن وآياته وحروفه وكلّ ما فيه ينطق بآته وحي ممّن خلق الأرض والسموات العلى، وما خلقته عقول بشر، أو فاهت به ألسنتهم.

الإعجاز لغة واصطلاحاً

المعجز في اللغة له أكثر من معنى إلا أن الأقرب منه إلى الفهم العرفي ما ذكر في أقرب الموارد، وهو: أعجز فلان فلاناً أي صيره عاجزاً^(٣).

لكن في مجمع البحرين فسره بالمعنى المصطلح، وكأنه تفسير بالمصداق، فقال: المعجز: الأمر الخارق للعادة المطابق للدعوى المقرون بالتحدي، وقد ذكر المسلمون للنبي ﷺ ألف معجزة منها القرآن^(٤).

وقد فقد عرّف بتعاريف مختلفة بعض الشيء باختلاف قيودها.

(١) العنكبوت: ٥٠.

(٢) نهج البلاغة: ص ١١٢، الخطبة ٨٣.

(٣) أقرب الموارد: ج ٣، ص ٤٨٢، «عجز».

(٤) مجمع البحرين: ج ٤، ص ٢٥، «عجز».

ففي تجريد الاعتقاد: وطريق معرفة صدقه ظهور المعجزة على يده، وهو ثبوت ما ليس بمعتاد أو نفي ما هو معتاد مع خرق العادة ومطابقة الدعوة^(١).

وقريب منه ما في مجمع البيان: وحاصله أن يأتي المدعي لمنصب من المناصب الإلهية بما يخرق النواميس الطبيعية ويعجز عنه غيره شاهداً على صدق دعواه^(٢).

وينبغي إضافة قيد التحدي لهذين التعريفين لينطبق على موازين الحدّ التام المنطقي بداهة دخول الكرامة ونحوها في التعريف، فلا يصبح حينئذ مائزاً بين ما يظهر على أيدي الأنبياء والأولياء عليهم السلام، ولا يبعد أن تكون جميع هذه التعاريف ناظرة إلى أمر واحد وإن كان ربّما لم يستظهر من بيانها، وهو أنّ المعجز أمر خارق للعادة وليس لضوابط العقل؛ إذ لا يمكن الجمع بين النقيضين حتّى بالإعجاز لامتناع الموضوع.

وعليه فليس الإعجاز في تبديل الممتنع بالذات إلى ممكن، بل هو اختصار مراحل الإمكان الاستعدادي للممكن بإرادة الله سبحانه، أو بقوة النبي المعنوية التي منحها الله سبحانه إياه لإيجاده؛ ولذا يسمّى خارقاً للعادة، فيمكن إثمار الشجرة غير المثمرة في آن؛ لأنّ تحقّق الإثمار عادة يتوقف على شرائط لا تتحقّق عادة إلّا بعد مضي زمان، ولكن ربّما تحصل هذه الشرائط فوراً بالإعجاز، وهذا هو معنى خرق العادة أي المعتاد المألوف في الكون أو عند الناس.

هذا وهناك شروط أخرى ينبغي توفّرها في الإعجاز منها: مطابقة المعجزة للدعوى، وأن لا يكون هناك من يعارض مدّعي النبوة فيما يتحدّى

(١) تجريد الاعتقاد: ص ٢١٤.

(٢) مجمع البيان: ج ١، ص ١٥.

به، بحيث يستطيع غيره أن يأتي بمثل ما أتى به؛ إذ لا يكون حينئذ ما أتى به ذلك النبي معجزاً، ومنها غير ذلك ممّا فضّله علماء الكلام.

بعض مزايا القرآن الكريم

ولعلّ من المناسب أن نشير هنا إلى بعض مزايا القرآن الكريم التي اتفق أهل الرأي فيها على أنها إعجاز:

١ - أن القرآن الكريم معجز من حيث اختصاصه بمرتبة عليا في الفصاحة والبلاغة خارقة للعادة لا يمكن لأحد أن يأتي بمثلها أو أن يدانيها.

٢ - من حيث كونه مركّباً من نفس الحروف الهجائية التي يقدر على تأليفها كلّ أحد ومع ذلك عجز الخلق عن تركيب مثله بهذا التركيب العجيب، والنمط الغريب من قوة اللفظ، وسحر البيان، ودقّة المعنى، وسلاسة التعبير، وقوّة الترابط بحيث إنّ كلّ تغيير أو تصرّف فيه يخرجّه عن عدوبته، ويشير إلى وجود خلل في العبارة.

٣ - من حيث امتيازه عن غيره من كلام العرب بامتياز مليح، فإنّ أي كلام في هذه اللغة مهما كان فصيحاً وبلغاً إذا زين بالقرآن الكريم تجد القرآن ممتازاً عنه متفوقاً عليه بما لا يقبل القياس أو التقويم.

٤ - من حيث اتّصافه بنظام فريد، وأسلوب وحيد غير معهود في جميع الأزمنة، لا شعراً ولا نثراً؛ لذلك نسبه أدباء الكفّار إلى السحر؛ وذلك لأخذه بمجامع القلوب واتّصافه بالجاذبيّة الخاصّة.

٥ - بالرغم من سعة مضامينه ووفرة آياته وكثرة سورته فهو خال عن الاختلال والتناقض والتهافت ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(١).

فلا تجد فيه كلمة خالية عن الفصاحة، ولا آية مخالفة لآية أخرى، بل جميعه موصوف بغاية الجودة، ومتّصف بما لم تجر بمثله العادة.

٦ - من حيث اشتمال القرآن الكريم على أحسن الآداب، وأمتن الحكم، وأكمل المواعظ، وأصوب القوانين، وأتم الأحكام في العبادات والمعاملات والمعاشرات في أمور الحياة والأسرة والمجتمع، وفي الحدود والأقضية في السفر والحضر والأمن والخوف والسلم والحرب والعسرة والغلبة وكل ما يحتاجه الإنسان في أصوله وفروعه بشكل ليس فيه أدنى خلل.

فجعل الله تعالى هذا القرآن مشتملاً على كلّ ما تحتاج إليه الأمم، وهادياً إلى التي هي أقوم، كما جعل بيانه وتبينه عند مهابط وحيه وخزان علمه وترجمانه في خلقه النبي الأمين ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم آلاف التحية والثناء تكريساً للاقتداء، وتعظيماً للإمامة وما يترتب عليها من فوائد كبيرة في دنيا الناس ودينهم.

٧ - من حيث ما تضمّنه من الأخبار في قضايا الأمم السالفة، وخفايا القصص الماضية، ودقائق القرون الخالية، مثل أخبار آدم عليه السلام وابنيه، ومسائل نوح عليه السلام، وأمور إبراهيم عليه السلام، وقصة أصحاب الكهف، وقضايا موسى ممّا لم يطلع عليها أحد إلا بعض خواصّ الأخبار والرهبان الذين لم يكن النبي الأعظم ﷺ معاشراً لهم، بل كان بعيداً عن مخالطتهم. فكتاب كهذا من النبي ﷺ الذي لم يتعلّم عند أحد يكشف قطعاً عن كونه من الله العالم بجميع الأمور.

علماً بأنّ ما بيّنه النبي ﷺ من أخبار القرآن لم يكن اقتباساً من كتبهم، بل نقلاً لحقيقة الأمر وواقعه الموجود عندهم، وإلا لكانوا يرمونه بالسرقة من كتبهم وهم غير آبين من توجيه التهمة مع توقّر الدواعي الكافية في ذلك.

٨ - من حيث اشتماله على الأخبار عن ضمائر المنافقين وبواطن

الكافرين ونوايا المشركين الخفية التي لم يطلع عليها أحد حتى إنهم كانوا يحذرون من أن تنزل فيهم آية تفضحهم، وتكشف نواياهم.

بل أخبر عن الأمور المستقبلية والحوادث المقبلة والغيب الصادق والنبأ المطابق مما لم يطلع عليه إلا علام الغيوب مع كمال المطابقة والصدق كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحْهُمْ جَمْعًا وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾^(٢) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة.

هذا مضافاً إلى إخباراته عن الحقائق العلمية التي لم ينكشف السير منها إلا في الآونة الأخيرة والقرون المتأخرة على رغم تطور العلوم والمعارف.

٩ - من حيث خواصه المعنوية وخصائصه الذاتية في التأثير على الأرواح، وشفائه للقلوب والضمائر، وعلاجه للأجسام، وطمأنته للقلوب، وبركاته في النفوس، فضلاً عن الآثار الوضعية الأخرى التي تلازمه في النظر والقراءة والاستشهاد والاحتفاظ ونحو ذلك.

١٠ - من حيث طراوته وحلاوته وعدم الملل منه عند تلاوته وقراءته مهما زادت وتكررت، وبعد كل ذلك فإنه لا يخلق على طول الأزمان، ولا يبلى، بل يستفاد منه في كل قراءة جديدة نكتة جديدة، ويجد القارئ المتدبر فيه إلماعات وإشارات وحقائق ولطائف لم تظهر له من قبل، فهو كلام الله البالغ، وحكمه الساطع، وهو نور لا يطفأ، وسراج لا يخبو كما ورد في خطبة مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة^(٣).

إلى غير ذلك من جهات وأسرار لا يسع المجال لبيانها هنا.

(١) القمر: ٤٦.

(٢) الفتح: ٢٨.

(٣) نهج البلاغة: ص ٣١٥، الخطبة ١٩٨.

الشيعه والاهتمام البالغ بالقرآن الكريم

إنَّ القرآن الكريم أحدث في الحياة البشرية أعظم انقلاب وتغيير شمل كلِّ مناحي الحياة، وامتدَّ شعاعه إلى أبعد الأصقاع، وأذهل أقوى الأدمغة، واكتسح أعظم الحضارات، وأقام فوق ركامها أنظف حضارة وأجمل حياة وأكمل سيادة وسياسة.

هذا وقد كان للشيعه اليد الطولى والسهم العظيم في الاهتمام به، والعمل على دراسته وتفسيره، وبيان معانيه ومضامينه، واكتشاف أسرارهِ وآياته وبيّناته بهدى من أئمتهم عليهم السلام الذين هم عدل القرآن وأهله الذين أنزل القرآن في بيوتهم.

فكتبوا ونشروا وحثّوا أيما حثٍّ على قراءته وحفظه ونشره وتجويده والاستناد إليه في كلِّ حقول المعرفة، وكان السبب في اهتمام الشيعه بالقرآن في الدرجة الأولى هو أهميّة القرآن نفسه وعظمة أمره، ثم الاقتداء بالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل بيته عليهم السلام في ذلك.

فمن ينظر إلى الأحاديث المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام والتي تحدّثوا فيها عن القرآن الكريم يواجه عناية بالغة وكبيرة منهم بهذا الكتاب الإلهي الخالد، ثم من يطلع على بقيّة أحاديثهم في شتى جوانب الدين يجدها مليئة بالاستدلالات من القرآن الكريم ممّا يكشف عن شدّة حرصهم على البقاء إلى جانب القرآن والانطلاق منه والرجوع إليه، ويشهد بذلك ما ألفه علماء الإمامية سدّدهم الله تعالى ورواتهم حول فضل القرآن وخصائصه وعلومه ومزياه وفي شتى المجالات. نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر

ما يلي :

١ - كتاب فضل القرآن ليونس بن عبد الرحمن من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام .

٢ - كتاب فضل القرآن لمحمد بن الحسن الصفار المتوفى سنة ٢٩٠ هـ .

٣ - كتاب نوادر القرآن لعلي بن إبراهيم بن هاشم في القرن الثالث الهجري .

٤ - كتاب فضل القرآن لمحمد بن مسعود العياشي في القرن الثالث الهجري .

٥ - كتاب فضائل القرآن لأحمد بن محمد بن عمار المتوفى سنة ٣٤٦ هـ .

كما عقد جمع من علماء الإمامية أبواباً خاصة حول القرآن في كتب الحديث مثل :

١ - كتاب فضل القرآن في الجزء الثاني من (أصول الكافي) للكليني .

٢ - كتاب فضل القرآن في الجزء الثاني من موسوعة (من لا يحضره الفقيه) .

٣ - كتاب القرآن في الجزء الرابع من موسوعة (وسائل الشيعة) .

٤ - كتاب القرآن في الجزء الأول من (مستدرک وسائل الشيعة) .

٥ - كتاب القرآن في الجزء الثاني والتسعين من موسوعة (بحار الأنوار) .

وهذا يدلّ على مدى اهتمام الشيعة بالقرآن الكريم ، كما أنّ التأريخ يشهد لهم مدى تفانيهم وبذلهم لأرواحهم على مدى التأريخ في سبيل القرآن الكريم والعترة الطاهرة عليهم السلام . وقبل كلّ ذلك كان الإمام أمير المؤمنين عليه السلام

هو أول من سمع القرآن من رسول الله ﷺ وخالجه آياته، وهو أول من جمعه بأمر رسول الله ﷺ وكتب تفسيره وتأويله وشأن نزوله كما في متضاfer الأدلة^(١).

أما في علوم التفسير فكان الشيعة لهم القدم الأول في ذلك، وقد ذكر الشيخ الذهبي من علماء الأزهر في كتابه التفسير والمفسرون عدداً من ذلك بعد أن استعرض بنحو مجمل من كتب في العصر الإسلامي الأول، وعدّ على رأسها تفسير الإمام عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فهو أول من كتب في التفسير، ثم قال في كتابه: وقد عدّ السيوطي في الإتقان من اشتهر بالتفسير من الصحابة وسماهم، ومن سماهم ابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت وغيرهم... ثم قال: أما عليّ بن أبي طالب عليه السلام فهو أكثر الخلفاء الراشدين رواية عنه في التفسير^(٢).

وفي مكان آخر قال: جمع عليّ عليه السلام إلى مهارته في القضاء والفتوى علمه بكتاب الله، وفهمه لأسراره وخفي معانيه، فكان أعلم الصحابة بمواقع التنزيل ومعرفة التأويل، وقد روي عن ابن عباس أنه قال: ما أخذت من تفسير القرآن فعن عليّ بن أبي طالب عليه السلام^(٣).

وليس الذهبي منفرداً في هذا القول، فقد ذكر هذا الكثيرون غيره^(٤).

أما أول من صنف في التفسير فهو ترجمان القرآن عبدالله بن العباس المتوفى سنة ٦٨، ثم تلميذه سعيد بن جبير الذي قتله الحجاج عام ٩٤^(٥)، وقيل: سنة ٩٥ وكان من المشهورين في التفسير، بل روي عن قتادة أن

(١) انظر تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص ٣١٦ - ٣١٧؛ الذريعة: ج ٤، ص ٢٣١.

(٢) التفسير والمفسرون: ج ١، ص ٦٣ - ٦٤.

(٣) التفسير والمفسرون: ج ١، ص ٨٩ - ٩٠.

(٤) بين الجدران: ج ١، ص ١٧ - ١٨؛ دائرة المعارف الإسلامية الشيعية: ج ١١، ص ٥٢.

(٥) الذريعة: ج ٤، ص ٢٣٣.

سعيداً كان أعلم معاصريه بالتفسير^(١). وأسند أبو عمر الكشي في كتاب الرجال عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنه قال: سعيد بن جبير كان يأتهم بعلي بن الحسين عليه السلام، وكان علي بن الحسين عليه السلام يشني عليه. وما كان سبب قتل الحجاج له إلا على هذا الأمر - يعني التشيع - وكان مستقيماً^(٢).

وقد اهتم الشيعة اهتماماً كبيراً بالتفسير، وكتبوا فيه الكثير من الكتب، منها في تفسير كل القرآن، ومنها في بعضه.

القرآن وأهل البيت عليه السلام

إن من يتتبع أحاديث العترة النبوية الطاهرة يجدها تسير جنباً إلى جنب مع القرآن، تتمسك بآياته، وتستدل بإشاراته، كما أن القرآن الكريم نفسه يشيد بمواقفهم وأقوالهم عليه السلام؛ إذ وصفهم بالطهارة من الرجس المعنوي والمادي ذلك الوصف المؤكد الذي يقتضي تنزيههم عن أي خطأ وخطأ، ومخالفة للكتاب، بل يقتضي كونهم مع القرآن في هدف واحد، وعلى جادة واحدة، ولا غرابة إذا قيل: إنهم عليه السلام ورثوا الكتاب وعلمه وفهمه وفقه أسرارهم ومقاصده وأبعاده وبطونه دون غيرهم، فذلك أمر قد جرى بعض منه في الأنبياء السابقين وأوصيائهم كما يصرح القرآن الكريم بذلك.

وقد صرح أئمة أهل البيت المطهرون عليه السلام بهذا الأمر في تصريحات مستقلة، مثلما روي عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام إذ قال:

«نحن الذين اصطفانا الله عز وجل، وأورثنا هذا الذي فيه تبيان كل شيء»^(٣) على أن العقل يحتم مثل هذه الوراثة للكتاب وعلمه وفهمه وفقهه؛ إذ لولا الصفوة التي ترث مسؤولية الحفاظ على الرسالة لضاعت الرسالة،

(١) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية: ج ١١، ص ٥٥؛ انظر الإتيان في علوم القرآن: ج ٢، ص ١٢٣٤؛ تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص ٣٢٤.

(٢) رجال الكشي: ج ١، ص ٣٣٥.

(٣) أصول الكافي: ج ١، ص ٢٢٦، ح ٧.

وضاعت جهود صاحبها، وانتقض الغرض من بعثته ﷺ.

ومن البديهي أن أولى الناس بذلك هو من يرتبط بصاحب الرسالة بوشائج القربى، ويكون على درجة عالية من الطهر والتقوى والورع والذكاء والنبوغ ليزداد حرصه على الرسالة وعلى ميراث صاحبها من العلوم والمعارف؛ ولهذا اختصّ نسب الرسول وذريته ﷺ بعلم الكتاب العزيز، فهم تحمّلوه وحملوه كمسؤولية كبرى، وتجنّسوا في سبيل المحافظة عليه عناء كبيراً ونصباً كثيراً، وقتلوا الناس على تنزيله، ثم قاتلوهم على تأويله، ثم إن البراهين والأدلة العملية التي قدّمها الأئمة ﷺ في مجال تفسير القرآن وفك رموزه وبيان بطونه وأبعاده بنفسها خير شاهد على ذلك، ونذكر هنا جملة من الأحاديث الواردة بهذا الشأن تيمناً وتبركاً:

١ - عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي: كتاب الله وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»^(١).

٢ - عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: أنا أول وافد على العزيز الجبار يوم القيامة وكتابه وأهل بيتي، ثم أمّتي، ثم أسألهم ما فعلتم بكتاب الله وأهل بيتي»^(٢).

٣ - وقال عليه السلام: «هم مع القرآن والقرآن معهم لا يفارقونه حتى يردوا عليّ الحوض»^(٣).

ولا يخفى على اللبيب دلالة (المعية وعدم المفارقة) على التلازم وعدم الافتراق أو الاختلاف في كل شيء حتى يوم القيامة.

(١) مستدرک الوسائل ج ٧، ص ٢٥٤ - ٢٥٥، ح ٨١٨١، باب ٤٧ من كتاب الزكاة؛ بحار

الأنوار ج ٢، ص ١٠٠، ح ٥٩؛ وانظر الإرشاد ج ١، ص ٢٣٣.

(٢) وسائل الشيعة ج ٦، ص ١٧٠، ح ٢، باب ٢ من أبواب قراءة القرآن.

(٣) بحار الأنوار ج ٢٢، ص ١٥٠، ح ١٤٢.

٤ - وعن عليّ عليه السلام قال: «سلوني فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم به واسألوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليّل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل»^(١).

٥ - وعنه عليه السلام قال: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت وأين نزلت... إن ربّي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً»^(٢).

٦ - وعنه عليه السلام قال: «سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن كتاب الله، فما من آية إلا وأعلم حيث نزلت بحضيض جبل أو سهل أرض»^(٣).

٧ - وعن أبي الصباح قال: والله لقد قال لي جعفر بن محمد عليه السلام: «إن الله علّم نبيّه صلى الله عليه وآله التنزيل والتأويل، فعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام قال: وعلمنا والله»^(٤).

٨ - وعن عبد الأعلى مولى آل سام قال: سمعت أبي عبد الله الصادق عليه السلام يقول: «والله إنّي لأعلم كتاب الله من أوله إلى آخره، كأنه في كفي، فيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر ما كان وخبر ما هو كائن. قال الله عز وجل: ﴿تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾»^{(٥) (٦)}.

٩ - وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُورِ الذِّبْرِ أَتُونَا الْعِلْمَ﴾^(٧) قال: هم الأئمة عليهم السلام»^(٨).

(١) الإتيان في علوم القرآن: ج ٢ ص ١٢٢٧؛ وانظر الغدير: ج ٦، ص ١٩٣؛ بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ١٧٩، ح ٦١.

(٢) المناقب: ج ٢، ص ٤٣؛ الإتيان في علوم القرآن: ج ٢، ص ١٢٢٧.

(٣) بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ١٩٠، ح ٧٤.

(٤) الكافي: ج ٧، ص ٤٤٢، ح ١٥؛ التهذيب: ج ٨، ص ٢٨٦، ح ١٠٥٢، وسائل الشيعة: ج ٢٣، ص ٢٢٤، ح ٢٩٤٢٦، باب ١٢ من أبواب كتاب الأيمان.

(٥) النحل: ٩٠.

(٦) أصول الكافي: ج ١، ص ٢٢٩، ح ٤، وفيه «فيه تبيان كل شيء».

(٧) العنكبوت: ٥٠.

(٨) أصول الكافي: ج ١، ص ٢١٤، ح ٢.

وفي رواية أخرى: «هم الأئمة عليهم السلام خاصة»^(١).

١٠ - وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام في تفسير قول الله عز وجل: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٢) قال عليه السلام: «إنما نحن الذين يعلمون، والذين لا يعلمون عدونا، وشيعتنا أولو الألباب»^(٣).

١١ - وعن علي أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إن الله تبارك وتعالى طهرنا وعصمنا وجعلنا شهداء على خلقه، وحبته في أرضه، وجعلنا مع القرآن، وجعل القرآن معنا لا يفارقه ولا يفارقنا»^(٤).

١٢ - وعنه عليه السلام قال: «نحن أهل البيت لا يقاس بنا أحد، فينا نزل القرآن، وفينا معدن الرسالة»^(٥).

١٣ - وعن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٦) قال عليه السلام: «الذكر القرآن، ونحن أهله»^(٧).

١٤ - وعن أبي عبد الله عليه السلام في قوله عز وجل: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَيْنِ﴾^(٨) قال عليه السلام: «الثقلان نحن والقرآن»^(٩).

١٥ - وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن الله جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن»^(١٠).

هذا وقد تواترت الأخبار الدالة على كونهم عليهم السلام عدل القرآن والثقل الذي أوصى به النبي الأعظم عليه السلام، والدال على تلاحمهم المطلق مع القرآن فكراً وقولاً وعملاً، بل هم القرآن الناطق الذي لا ينطق عن الهوى، وقد وردت أكثر من ثلاثين رواية بهذا الشأن عن طرفنا، وأكثر من ست عشرة

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ٢١٤، ح ٥. (٦) النحل: ٤٤.

(٢) الزمر: ١٠. (٧) بحار الأنوار: ج ٢٣، ص ١٨١، ح ٣٧.

(٣) أصول الكافي: ج ١، ص ٢١٢، ح ١. (٨) الرحمن: ٣٢.

(٤) بحار الأنوار: ج ٢٣، ص ٣٤٣، ح ٢٦. (٩) بحار الأنوار: ج ٢٤، ص ٣٢٤، ح ٣٧.

(٥) بحار الأنوار: ج ٢٦، ص ٢٦٩، ح ٥. (١٠) بحار الأنوار: ج ٨٩، ص ٢٧، ح ٢٩.

رواية من طرق العامة تدلّ على ذلك، كما أورده العلامة البحراني^(١) وغيره. ومن هنا اتفق أصحابنا على أنّ تفسير القرآن لا يجوز إلاّ بالأثر الصحيح عن النبي الأعظم ﷺ والأئمة الطاهرين ﷺ، وحرّموا القول فيه بالرأي والاجتهاد، وهذا ما رواه العامة أيضاً عن النبي ﷺ أنّه قال: «من فسّر القرآن برأيه وأصاب الحقّ فقد أخطأ»^(٢) والظاهر أنّهم التزموا به من حيث الكبرى وإن خالف جمع غير قليل من مفسّريهم الالتزام بذلك من حيث الصغرى. خصوصاً ما يتعلّق بالآيات الواردة بشأن أهل البيت ﷺ وبيان فضائلهم ومقاماتهم الربّانية.

ومن الواضح أنّه لا يجوز أن يكون في كلام الله عزّ وجلّ وحججه المعصومة ﷺ تناقض أو تضادّ أو تعارض حقيقي لما فيه من القبح ونقض الغرض وغيرهما من المحالات.

كيف لا وقد عرفت أنّهم ﷺ عدله، بل والناطق من كلماته وآياته، كما أنّه الميزان الذي يفصل بين منطقهم وحديثهم ومنطق وحديث غيرهم، ومما يؤكد ذلك ما روي عن النبي ﷺ والأئمة ﷺ: «إذا جاءكم منّا حديث فاعرضوه على كتاب الله فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالفه فاطرحوه أو ردّوه علينا»^(٣).

ولعلمائنا الأعلام في علمي التفسير والأصول كلام مفصّل في بيان المقصود من التفسير بالرأي وحلّ بعض التشابه البدوي الذي قد يتصوّر البعض تعارضاً واقعاً بين الآيات والروايات بما لا يسعنا المجال لبيانه هنا^(٤).

(١) البرهان في تفسير القرآن: ج ١، ص ٩ - ١٥ و ٢٦ - ٢٨.

(٢) التبيان: ج ١، ص ٤، مقدّمة المؤلّف.

(٣) التهذيب: ج ٧، ص ٢٧٥، ح ١١٦٩.

(٤) من أراد الاطلاع يمكنه مراجعة مجمع البيان: ج ١، ص ٦؛ تفسير الصافي: ج ١، ص ٣٢ - ٣٥؛ البرهان في تفسير القرآن: ج ١، ص ١٧ - ١٩.

هذا مضافاً إلى ما تواتر نقله في كتب العامة فضلاً عن الخاصة من حديث الثقلين الدالّ على تلاحم القرآن وأهل البيت عليهم السلام ، فقد أوردوا في كتبهم من روايته عن الصحابة الذين سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وآله أكثر من ثلاثين صحابياً ، وبقي على ذلك متواتراً في كل عصر إلى العصر الحاضر ، ونصّ الحديث هو قوله صلى الله عليه وآله : «إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا ، كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» ^(١) .

ولا يخفى أنّ لفظ العترة والأحاديث الكثيرة الصحيحة الواردة في تعيين أهل البيت عليهم السلام يعينان المراد من أهل البيت عليهم السلام ، فضلاً عن دلالة الإجماع والعقل .

وقوله صلى الله عليه وآله : «ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا» مع قول صلى الله عليه وآله : «وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» يعينان الأئمة الاثني عشر المعصومين عليهم السلام من عترة الرسول صلى الله عليه وآله وذريته كما ذكره العلامة البلاغي (قده) ولعلّ من دلائل ذلك أيضاً إجماع المسلمين على أنّ من عداهم عليهم السلام ليس معصوماً ، ولا يتّصف بأنّه مثل كتاب الله لا يضلّ من تمسّك به . وهذه أسماء الصحابة السامعين لهذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله : ١ - عليّ أمير المؤمنين عليه السلام ٢ - عبد الله بن عباس ٣ - أبو ذر الغفاري ٤ - جابر الأنصاري ٥ - عبد الله بن عمر ٦ - حذيفة بن أسيد ٧ - زيد بن أرقم ٨ - عبد الرحمن ابن عوف ٩ - ضميرة الأسلمي ١٠ - عاصم بن ليلى ١١ - أبو رافع ١٢ - أبو هريرة ١٣ - عبدالله بن حنطب ١٤ - زيد بن ثابت ١٥ - أم سلمة ١٦ - أم هاني أخت أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ١٧ - خزيمة بن ثابت ١٨ - سهل بن سعد ١٩ - عدي بن حاتم ٢٠ - عقبة بن عامر ٢١ - أبو أيوب الأنصاري ٢٢ -

(١) وسائل الشيعية : ج ٢٧ ، ص ٣٤ ، ح ٣٣١٤٤ ، باب ٦ من أبواب صفات القاضي وما يجوز أن يقضي به ؛ وانظر الخصال : ج ١ ، ص ٦٥ ، ح ٩٧ ؛ سنن الترمذي : ج ٥ ، ص ٦٦٣ ، ح ٣٧٨٨ ؛ مسند أحمد : ج ٣ ، ص ١٤ و ١٧ و ٢٦ ؛ المستدرک علی الصحیحین : ج ٣ ، ص ١٤٨ .

أبو سعيد الخدري ٢٣ - أبو شريح الخزاعي ٢٤ - أبو قدامة الأنصاري ٢٥ - أبو ليلى ٢٦ - أبو الهيثم بن التيهان.

وهؤلاء الذين ذكرنا أسماءهم من بعد أم هاني قد رواه كل منهم منفرداً كمن تقدّمه، وقاموا في رحبة الكوفة مع سبعة من قريش، فشهدوا أنّهم سمعوه من رسول الله ﷺ، فهؤلاء ثلاثة وثلاثون، ورواه أبو نعيم الإصبهاني في كتاب (منقبة المطهرين) مسنداً عن جبير بن مطعم، وأسندته أيضاً عن أنس بن مالك، وأسندته عن البراء بن عازب، ورواه موفق بن أحمد أخطب خوارزم عن عمرو بن العاص. وقلّما يخلو عن رواية هذا الحديث مسند أو جامع أو كتاب في الفضائل لأهل السنة من أول ما أخرج الحديث من الحفظ وصدور الحفاظ إلى صحف المحدثين ولا زالت يروى فيها عن صحابي واحد أو أكثر، وربما روي في واحد منها عن أكثر من عشرين صحابياً إما مجملاً كما في الصواعق، وإما مسنداً مفصلاً كما في كتب السخاوي والسيوطي والسمهودي وغيرهم، ومن أراد الاطلاع فليرجع إلى الجزأين المكتوبين في أسانيد هذا الحديث من كتاب العبقات.

كما ورواه الإمامية في كتبهم وأسانيدهم المتكررة عن الباقر والصادق والكاظم والرضا ﷺ، عن آبائهم ﷺ، عن رسول الله ﷺ وبأسانيد الآخر عن أمير المؤمنين ﷺ وعمر وأبي ذرّ وجابر وأبي سعيد وزيد بن أرقم وزيد بن ثابت وحذيفة بن أسيد وأبي هريرة وغيرهم عن رسول الله ﷺ كما في غاية المرام^(١).

أهل البيت ﷺ عدل القرآن

تضافرت الأدلة من الآيات والروايات بل وهو ممّا يحكم به العقل أيضاً فضلاً عن الإجماع أنّ أهل البيت ﷺ عدل القرآن الكريم، وهما القيمتان

(١) انظر علوم القرآن عند المفسرين: ج ١، ص ٢٠٤.

المتكاملتان والمتلاحمتان في الجوهر والمضمون، ولا يفصل بينهما مكان أو زمان أو رأي أو مفهوم، ولا يوزعهما فكر أو تطبيق، شعاعان من نور واحد، وطريقان في هدف واحد، يشتركان معاً في إضاءة عقل الإنسان وروحه وقلبه، ويوجهانه إلى حيث سعادته وبناء حياته وحضارته الحرة الكريمة، فلولا القرآن لم يكن للحياة هدىً، ولا للإنسان رشد، ولا علق في طرفه نور، ولولا أهل البيت عليه السلام لم يكن للرشد مرشد، ولا للعلم معلم أو تعليم، ولا للنور شعاع أو مصباح. فالقرآن أصل العلم، وأهل البيت عليه السلام معرفته ومعدنه وبيانها؛ ولذا كان أكثر ما نزل به القرآن ما يرتبط بهم عليه السلام من قريب أو بعيد، فبعضه في ولايتهم ومودتهم وطاعتهم عليه السلام، وبعضه في فضح أعدائهم، وبعضه في الأحكام والفضائل التي لا تصل غايتها ولا تقع مقبولة عند الخالق تبارك وتعالى إلا إذا اقترنت بمحبتهم، ووصلت من طرقهم.

فيمن نزل القرآن

١ - عن أبي الجارود قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «نزل القرآن على أربعة أرباع، ربع فينا، وربع في عدونا، وربع في فرائض وأحكام، وربع سنن وأمثال، ولنا كرائم القرآن»^(١).

٢ - عن عبدالله بن سنان قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن القرآن والفرقان قال: «القرآن جملة الكتاب وأخبار ما يكون، والفرقان المحكم الذي يعمل به، وكل محكم فهو فرقان»^(٢).

٣ - وعن الأصبغ بن نباتة قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «نزل القرآن أثلاثاً، ثلث فينا وفي عدونا، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام»^(٣).

(١) تفسير العياشي: ج ١، ص ٩، ح ١. (٢) تفسير العياشي: ج ١، ص ٩، ح ٣.

(٢) تفسير العياشي: ج ١، ص ٩، ح ٢.

٤ - عن محمد بن خالد بن الحجاج الكرخي، عن بعض أصحابه رفعه إلى خيثمة قال: قال أبو جعفر: «يا خيثمة، القرآن نزل أثلاثاً، ثلث فينا وفي أحبائنا، وثلث في أعدائنا وعدوّ من كان قبلنا، وثلث ستّة ومثل، ولو أنّ الآية إذا نزلت في قوم ثمّ مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السماوات والأرض، ولكلّ قوم آية يتلونها وهم منها من خير أو شرّ»^(١).

ولا تنافي بين هذه الأخبار؛ لأنّ بناء هذا التقسيم ليس على التسوية الحقيقيّة، ولا على التفريق من جميع الوجوه، بل على أصل التصنيف، فإطلاقه لا ينفي ما عداه لكونه ليس في مقام البيان، وعليه فلا بأس باختلاف الأخبار بالثلث والتربيع، ولا بزيادة بعض الأقسام على الثلث أو الربع أو نقصه عنهما، ولا دخول بعضها في بعض.

هذا وقد وردت أخبار جمّة عن أهل البيت عليهم السلام في تأويل كثير من آيات القرآن بهم وبأوليائهم وأعدائهم، حتّى إنّ جماعة من أصحابنا صنفوا كتباً في تأويل القرآن على هذا النحو، جمعوا فيها ما ورد عنهم عليهم السلام في تأويل آية آية، إمّا بهم أو بشيعتهم أو بعدوّهم على ترتيب القرآن، وقد روي في الكافي وفي تفسير العياشي وعليّ بن إبراهيم القميّ والتفسير المسموع من الإمام أبي محمد الزكي أخبار كثيرة من هذا القبيل^(٢)، منها ما رواه في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ ﴿١٥﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٦﴾ لِيُنْذِرَ عَنِ الْمُنِينِ ﴿١٧﴾. قال: «هي الولاية لأمير المؤمنين عليه السلام»^(٣). قال: «هي الولاية لأمر المؤمنين عليهم السلام»^(٤).

وفي تفسير الصافي نقلاً عن العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي

(١) تفسير العياشي: ج ١، ص ١٠، ح ٧. (٢) الشعراء ١٩٤ - ١٩٦.

(٢) انظر علوم القرآن عند المفسرين: ج ١، (٤) أصول الكافي: ج ١، ص ٤١٢، ح ١.

جعفر عليه السلام قال: «يا أبا محمد، إذا سمعت الله ذكر قوماً من هذه الأمة بخير فنحن هم، وإذا سمعت الله ذكر قوماً بسوء ممن مضى فهم عدونا»^(١).

وفيه عن عمر بن حنظلة عن أبي عبد الله عليه السلام سألته عن قول الله تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدُهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^(٢).

قال: فلما رأي أن أتبع هذا وأشباهه من الكتاب قال: «حسبك كل شيء في الكتاب من فاتحته إلى خاتمته، مثل هذا فهو في الأئمة عنوا به»^(٣).

وقد أشار الفيض الكاشاني (قدس سره) إلى بعض السر فيه في تفسيره، فقال: إنه لما أراد الله أن يعرف نفسه لخلقه ليعبدوه، وكان لم يتيسر معرفته كما أراد على سنة الأسباب إلا بوجود الأنبياء والأوصياء؛ إذ بهم تحصل المعرفة التامة والعبادة الكاملة دون غيرهم، وكان لم يتيسر وجود الأنبياء والأوصياء إلا بخلق سائر الخلق ليكون أنساً لهم، وسبباً لمعاشهم؛ فلذلك خلق سائر الخلق، ثم أمرهم بمعرفة أنبيائه وأوليائه وولايتهم، والتبري من أعدائهم، ومما يصدهم عن ذلك، ليكونوا ذوي حظوظ من نعيمهم، وهب الكل معرفة نفسه على قدر معرفتهم بالأنبياء والأوصياء؛ إذ بمعرفتهم إياهم يعرفون الله، وبولايتهم إياهم يتولون الله، فكل ما ورد من البشارة والإنذار والأوامر والنواهي والنصائح والمواعظ من الله سبحانه فإنما هو لذلك، ولما كان نبينا سيد الأنبياء ووصيه سيد الأوصياء لجمعهما كمالات سائر الأنبياء والأوصياء ومقاماتهم مع مالهما من الفضل عليهم وكان كل منهما نفس الآخر صح أن ينسب إلى أحدهما من الفضل ما ينسب إليهم لاشتماله على الكل، وجمعه لفضائل الكل، وحيث كان الأكمل يكون الكامل لا محالة؛ ولذلك خص تأويل الآيات بهما، وبسائر أهل البيت عليهم السلام الذين هم منهما ذرية بعضها من بعض، وجيء بالكلمة الجامعة التي هي الولاية فإنها مشتملة

(١) تفسير الصافي: ج ١، ص ٢٣ - ٢٤. (٢) تفسير الصافي: ج ١، ص ٢٤.

(٢) الرعد: ٤٤.

على المعرفة والمحبة والمتابعة وسائر مالا بد منه في ذلك .

وأيضاً فإن أحكام الله سبحانه إنما تجري على الحقائق الكلية والمقامات النوعية دون خصائص الأفراد والآحاد، فحيثما خوطب قوم بخطاب أو نسب إليهم فعل دخل في ذلك الخطاب وذلك الفعل عند العلماء وأولي الألباب كل من كان من سنخ أولئك القوم وطينتهم، فصفاة الله حيثما خوطبوا بمكرمة أو نسبوا إلى أنفسهم مكرمة يشمل ذلك كل من كان من سنخهم وطينتهم من الأنبياء والأولياء وكل من كان من المقرّبين، إلّا مكرمة خصّوا بها دون غيرهم، وكذلك إذا خوطبت شيعتهم بخير أو نسب إليهم خير أو خوطب أعداؤهم بسوء ونسب إليهم سوء يدخل في الأول كل من كان من سنخ شيعتهم وطينة محبيهم، وفي الثاني كل من كان من سنخ أعدائهم وطينة مبغضيههم من الأولين والآخرين؛ وذلك لأن كل من أحبه الله ورسوله أحبه كل مؤمن من ابتداء الخلق إلى انتهائه، وكل من أبغضه الله ورسوله أبغضه كل مؤمن كذلك، وهو يبغض كل من أحبه الله تعالى ورسوله، وكل مؤمن في العالم قديماً أو حديثاً إلى يوم القيامة فهو من شيعتهم ومحبيهم، وكل جاحد في العالم قديماً أو حديثاً إلى يوم القيامة فهو من مخالفهم ومبغضيههم .

وقد وردت الإشارة إلى ذلك في كلام الصادق عليه السلام في حديث المفضل بن عمر، وهو الذي رواه الصدوق طاب ثراه في كتاب علل الشرائع بإسناده عن المفضل بن عمر قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: بم صار علي بن أبي طالب عليه السلام قسيم الجنة والنار؟ قال: «لأن حبه إيمان، وبغضه كفر، وإنما خلقت الجنة لأهل الإيمان، وخلقت النار لأهل الكفر، فهو عليه السلام قسيم الجنة والنار لهذه العلة، والجنة لا يدخلها إلّا أهل محبته، والنار لا يدخلها إلّا أهل بغضه» .

قال المفضل: يا ابن رسول الله فالأنبياء والأوصياء هل كانوا يحبّونه وأعداؤهم يبغضونه؟ فقال «نعم» قلت: فكيف ذلك؟ قال: «أما علمت أنّ

النبي ﷺ قال يوم خبير: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله تعالى ورسوله، ويحبه الله ورسوله، ما يرجع حتى يفتح الله على يده؟» قلت: بلى. قال: «أما علمت أن رسول الله ﷺ لما أوتي بالطائر المشوي قال: اللهم أئتني بأحب خلقك إليك يأكل معي هذا الطير وعنى به علياً؟» قلت: بلى. قال: «يجوز أن لا يحب أنبياء الله ورسله وأوصياؤهم ﷺ رجلاً يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله؟» فقلت: لا. قال: «فهل يجوز أن يكون المؤمنون من أممهم لا يحبون حبيب الله وحبيب رسوله ﷺ وأنبيائه؟» قلت: لا. قال: «فقد ثبت أن جميع أنبياء الله ورسله وجميع المؤمنين كانوا لعلي بن أبي طالب عليه السلام محبين، وثبت أن المخالفين لهم كانوا له ولجميع محبيه مبغضين» قلت: نعم. قال: «فلا يدخل الجنة إلا من أحبه من الأولين والآخرين، فهو إذا قسيم الجنة والنار».

قال المفضل بن عمر، فقلت له: يا ابن رسول الله، فرجت عني فرج الله عنك فزدني ممّا علمك الله تعالى، فقال: «سل يا مفضل» فقلت: أسأل يا ابن رسول الله فعلي بن أبي طالب عليه السلام يدخل محبة الجنة ومبغضه النار أو رضوان ومالك؟ فقال: «يا مفضل، أما علمت أن الله تبارك وتعالى بعث رسوله وهو روح إلى الأنبياء وهم أرواح قبل خلق الخلق بألفي عام؟» قلت: بلى. قال: «أما علمت أنه دعاهم إلى توحيد الله وطاعته واتباع أمره، ووعدهم الجنة على ذلك، وأوعد من خالف ما أجابوا إليه وأنكره النار؟» فقلت: بلى. قال: «أفليس النبي ﷺ ضامناً لما وعد وأوعد عن ربه عز وجل؟» قلت: بلى. قال: «أوليس علي بن أبي طالب عليه السلام خليفته وإمام أمته؟» قلت: بلى. قال: «أوليس رضوان ومالك من جملة الملائكة والمستغفرين لشيعته الناجين بمحبته» قلت: بلى. قال: «فعلي بن أبي طالب عليه السلام إذا قسيم الجنة والنار عن رسول الله ﷺ، ورضوان ومالك صادران عن أمره بأمر الله تبارك وتعالى، يا مفضل، خذ هذا فإنه من مخزون العلم ومكنونه لا تخرجه

إِلَّا إِلَى أَهْلِهِ»^(١).

عن تفسير الإمام العسكري عليه السلام عن الحسن بن علي عليه السلام أَنَّهُ قَالَ :
«مَنْ دَفَعَ فَضْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَقَدْ كَذَّبَ بِالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ
وَصَحْفِ إِبْرَاهِيمَ وَسَائِرِ كُتُبِ اللَّهِ الْمَنْزُلةِ ، فَإِنَّهُ مَا نَزَلَ شَيْءٌ مِنْهَا إِلَّا وَأَهَمُّ مَا
فِيهِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِتَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِقْرَارِ بِالنَّبُوَّةِ الْاعْتِرَافِ بِوَلَايَةِ عَلِيِّ
وَالطَّيِّبِينَ مِنْ آلِهِ عليه السلام»^(٢).

وعن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ : مَا قَبِضَ اللَّهُ نَبِيًّا حَتَّى أَمْرَهُ أَنْ يُوَصِّيَ
إِلَى عَشِيرَتِهِ مِنْ عَصَبَتِهِ ، وَأَمْرِنِي أَنْ أُوصِيَ ، فَقُلْتُ : إِلَى مَنْ يَا رَبُّ ؟ فَقَالَ :
أَوْصِ يَا مُحَمَّدٌ إِلَى ابْنِ عَمِّكَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام ، فَإِنِّي قَدْ أَثْبَتَهُ فِي
الْكِتَابِ السَّالِفَةِ ، وَكُتِبَتْ فِيهَا أَنَّهُ وَصِيكَ ، وَعَلَى ذَلِكَ أَخَذَتْ مِيثَاقَ الْخَلَائِقِ
وَمَوَاقِيقَ أَنْبِيَائِي وَرَسُولِي . أَخَذَتْ مَوَاقِيقَهُمْ لِي بِالرَّبُوبِيَّةِ ، وَلَكَ يَا مُحَمَّدُ
بِالنَّبُوَّةِ ، وَلِعَلِّيَ بْنِ أَبِي طَالِبٍ بِالْوَلَايَةِ»^(٣).

وعن جابر الجعفي عن الباقر عليه السلام فِي رِوَايَةٍ طَوِيلَةٍ قَالَ : «فَنَحْنُ أَوَّلُ
خَلْقِ اللَّهِ وَأَوَّلُ خَلْقِ عَبْدِ اللَّهِ وَسَبَّحَهُ ، وَنَحْنُ سَبَبُ خَلْقِ الْخَلْقِ ، وَسَبَبُ
تَسْبِيحِهِمْ وَعِبَادَتِهِمْ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَدَمِيِّينَ ، فَبِنَا عَرَفَ اللَّهُ ، وَبِنَا وَحَدَّ اللَّهُ ،
وَبِنَا عَبْدَ اللَّهِ ، وَبِنَا أَكْرَمَ اللَّهِ مِنْ أَكْرَمٍ مِنْ جَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَبِنَا أَثَابَ مِنْ أَثَابٍ ،
وَبِنَا عَاقِبَ مِنْ عَاقِبٍ ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿وَلِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ (١٦٦) وَلِنَّا لَنَحْنُ
الْمُسَبِّحُونَ»^(٤). وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبْدِينَ﴾^(٥).
فَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَوَّلُ مَنْ عَبْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَوَّلُ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ لَهُ
وَلَدٌ وَشَرِيكَ ، ثُمَّ نَحْنُ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٦).

فَظَهَرَ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرَ أَنَّ حَقِيقَةَ الدِّينِ وَرُوحَ الْأَحْكَامِ مَعْرِفَتُهُمْ

(١) تفسير الصافي: ج ١، ص ٢٤ - ٢٦. (٤) الصفات: ١٦٦ - ١٦٧.

(٢) تفسير الإمام العسكري: ص ٨٣، ح ٤٦. (٥) الزخرف: ٨٢.

(٣) بحار الأنوار: ج ٢٦، ص ٢٧٢، ح ١١. (٦) بحار الأنوار: ج ٢٥، ص ٢٠، ح ٣١.

وولايتهم، وجميع الخلق راجع إليهم، فجميع آيات الكتاب تكون فيهم وما يتعلق بهم وبشؤونهم في دلالة اللفظية أو اللبية أو النقلية، فتأمل .

لمحة تاريخية عن علوم القرآن

لقد أدركت الطلائع المؤمنة من أصحاب رسول الله ﷺ أهمية العلم، ووعت أن الشخصية الإسلامية عمادها الأساس هو التوحيد، وأن طريق التوحيد هو العلم، فانبرت للعلم تنهله، وترتاد رياضه، وطلبت العلم ليهديها إلى حقائق الكون، ولتبلغ المراتب السامية في مدارج الرقي الحضاري، وتنافست في مصداق قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(١). وتسابقت كسباً للدرجات العليا عند الله تعالى، ونيلاً للرفعة والمنزلة السامية لديه ... يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ^(٢).

وفهم المسلمون الأوائل البون الشاسع بين الجهل والعلم في اعتبارات القرآن حين ثقفوا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٣) في الوقت الذي أشاد الله تعالى بشهادة أهل العلم على وحدانيته: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَالِمًا بِالْقُسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٤).

ولقد كان رسول الله ﷺ النмир العذب والسلسل الرقراق لمختلف العلوم والمعارف، فأحاط به جمع من الصحابة الأجلاء، يقتبسون منه سناء العلم، ويستضيئون بهداه.

غير أن هذه العلوم القرآنية لم تدوّن جميعها عند تدوين القرآن في العهد الرسالي؛ وذلك لأسباب عديدة عذ بعضهم منها ما يلي:

(١) الزمر: ١٠.

(٣) الروم: ٦٠.

(٢) المجادلة: ١٢.

(٤) آل عمران: ١٩.

١ - وجود الرسول ﷺ بين المسلمين يوضح لهم ما أشكل عليهم فهمه، ويبصرهم بحقائق التفسير، ويوجههم نحو المقاصد القرآنية، فهو ﴿... يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ...﴾^(١).

٢ - قدرتهم على الفهم المباشر والاستيعاب الصحيح، لفصاحتهم وبلاغتهم العربية الأصيلة؛ ولأن القرآن الكريم: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾^(٢) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ^(٣) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ^(٤).

٣ - لعسر الكتابة وندرة أدواتها وقلة الكتاب للتعلّم والتعليم، وبعد أن اختار الله سبحانه وتعالى الصادق الأمين ﷺ إلى جواره تبارى المسلمون الغيارى على الدين في تدوين العلوم وتصنيفها حسبما توقّرت لديهم من الوسائل والأدوات، ولعلّ من أهم الأسباب التي دفعتهم إلى التدوين:

أ - الرغبة في أن يكونوا مصاديق تتحقّق فيهم إرادة الله الأزلية في حفظ القرآن وتخليده بالبحث فيما احتواه من علوم وما تضمّنه من معارف لما يترتّب على ذلك من هداية وتعليم وتربية.

ب - خدمة الأمة الإسلامية جيلاً بعد جيل بإشاعة العلم بينها، ونقله لها دون خطأ أو اشتباه بتدوينه، لا سيّما بعد أن اختلط العرب بغيرهم من الأعاجم.

ج - تزكية مآلديهم من العلم بنشره بين المسلمين، فإنّ في نشره زكاة له.

د - نيل الثواب العظيم في طلب العلم ونشره وترويجه، حيث رفع الله سبحانه درجات العلماء في الدنيا والآخرة، وجعل طلب العلم في أعلى مراتب المستحبات والمندوبات، وفي بعض مراتبه من أهمّ الفرائض

(١) آل عمران: ١٦٥.

(٢) الشعراء: ١٩٤ - ١٩٦.

والواجبات، كما ظلل أهل العلم بأجنحة ملائكته، وسخرهم للاستغفار عنهم والدعاء لهم كما هو في متضافر الأخبار على تفصيل لا يسعنا المجال لبيانه.

هذا وقد كان مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الرجل الأول، والمحرز لقصب السبق في مضممار تدوين القرآن وتفسيره وبيان علومه.

قال في الإتيان: أخرج ابن أبي داود من طريق ابن سيرين قال: قال علي عليه السلام: «لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله آليت ألا آخذ علي ردائي إلا لصلاة جمعة حتى أجمع القرآن». وكذلك ابن الضريس في فضائله، وابن أشته في المصاحف من وجه آخر، وفيه أنه كتب فيه الناسخ والمنسوخ^(١).

والجدير بالذكر أن جمع مولانا أمير المؤمنين القرآن لا يعني أنه لم يكن مدوناً، بل كان مدوناً في الرقاع والعصب ونحوها، وقام أمير المؤمنين عليه السلام بتدوينه مصحفاً، وذلك بترتيب (الجزايات) المدون عليها وتوحيدها.

والمشهور أن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أمر أبا الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ) بوضع بعض قواعد اللغة حفاظاً على سلامتها، فكان عليه السلام أول من وضع الأساس لعلم إعراب القرآن.

وأما في مضممار التفسير فقد جاء: أما الخلفاء فأكثر من روي عنه منهم علي بن أبي طالب، والرواية عن الثلاثة نزره جداً^(٢).

وعن نصير بن سليمان الأحمسي عن أبيه عن علي بن أبي طالب أنه قال: «والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيما أنزلت وأين أنزلت، إن ربي

(١) الإتيان في علوم القرآن: ج ١، ص ١٨٣.

(٢) الإتيان في علوم القرآن: ج ٢، ص ١٢٢٧.

وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً»^(١).

وعن الأصبغ بن نباته أنه عليه السلام قال في خطبة له: «سلوني قبل أن تفقدوني، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لو سألتُموني عن أية آية لأخبرتكم بوقت نزولها، وفيم نزلت، وأنباتكم بناسخها من منسوخها، وخاصها من عامها، ومحكمها من متشابهها، ومكيها من مدنيها»^(٢).

وعن ابن الطفيل قال: شهدت علياً يخطب وهو يقول: «سلوني... فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليّل نزلت أم بنهار، أم في سهل أم في جبل»^(٣).

وفتق الإمام أمير المؤمنين عليه السلام سائر العلوم القرآنية وصنّفها، فلقد أملّى ستين نوعاً من أنواع علوم القرآن، وذكر لكل نوع مثلاً يخصّه، وهو في كتاب نرويه عنه من عدة طرق موجود بأيدينا إلى اليوم، وقد أخرج به بتمامه العلامة المجلسي^(٤) (قده) في الجزء الأربعين من بحار الأنوار.

وليس عجباً أن ينال الإمام عليّ عليه السلام هذه المرتبة، وأن يدخر هذه الكنوز العلمية، وأن يبلغ هذا الشأن؛ لأنّه العلم الهادي والحبّة في الخلق.

ومن هنا يرى البعض أنّه لا يصحّ فيه ما اشتهر قوله: إنّهُ عليه السلام أول الصحابة إسلاماً، وأقدمهم إيماناً - لأنّ عليّاً عليه السلام هو وصيّ رسول ربّ العالمين، وحبّة الله على خلقه، ولد مؤمناً مسلماً معيّناً من قبل الله تعالى للوصيّة والخلافة والإمامة قبل أن يخلق الله الخلق - إلاّ على نحو الإضافة أو المجاز على ما هو المستفاد من بعض الروايات، كما أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان

(١) المصدر نفسه.

(٢) الإرشاد: ج ١، ص ٣٥.

(٣) بحار الأنوار: ج ٤٠، ص ١٧٩، ح ٦١.

(٤) هو المحدث الكبير محمد باقر بن محمد تقي الأصفهاني المشهور بالمجلسي (١٠٣٧ -

نبياً قبل أن يخلق في الحياة الدنيا، ومن تلك الأحاديث والروايات التي ذكرت وهي صريحة في عموم أخذ الميثاق للجميع بالنبوة والولاية في عالم الذر^(١). الحديث الشريف: «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين»^(٢). وفي آخر: «كنت حياً وآدم بين الماء والطين»^(٣). وكذلك الحديث القدسي: «لولاك لما خلقت الأفلاك»^(٤). إلى غيرها من الروايات والأحاديث المعتمدة.

وقد ورد في كتاب «إلياء» والذي نشرته دار المعارف الإسلامية في لاهور في باكستان في تموز عام ١٩٥١م تحت عنوان «أسماء مباركة توسّل بها نوح عليه السلام» حيث عثر العلماء السوفيت في منطقة «وادي قاف» على خشبة قديمة قالوا: إنها تعود إلى سفينة نوح عليه السلام مكتوب عليها مجموعة من الحروف باللغة السامانية، وهي أقدم لغات العالم، وترجم حروف هذه اللوحة إلى اللغة الإنجليزية العالم البريطاني «إيف ماكس» أستاذ الألسن القديمة في جامعة مانشستر، ولا يخفى أنّ «إيليا» و «شبر» و «شبير» هي أسماء باللغة السامانية، ومعناها بالعربية «علي» و «حسن» و «حسين» وقد جاء في دعاء النبي نوح عليه السلام بعد ترجمته: «إلهي بلطفك ورحمتك وبالذوات المقدسة محمد إيليا شبر شبير فاطمة خذ بيدي، فإن هؤلاء الخمسة عظماء يجب احترامهم، ومن أجلهم خلق الله تعالى هذه الدنيا، إلهي فأمدني ببركة أسمائهم وأنت قادر على هدايتنا جميعاً»^(٥).

إن أمير المؤمنين عليه السلام كان حافظاً ومستودعاً لعلوم رسول الله ﷺ حيث قال عليه السلام: «كنت أدخل على رسول الله ﷺ كل يوم دخلة، وكل ليلة دخلة، فيخيلني فيها أدور معه حيثما دار، وقد علم أصحاب رسول الله ﷺ

(١) انظر أصول الكافي: ج ٢، ص ٨، ح ٢٠١. (٤) مفاتيح الغيب: ص ١٤.

(٢) عوالي اللآلي: ج ٤، ص ١٢١، ح ٢٠٠. (٥) موسوعة أهل البيت (ع) الكونية: ج ١،

(٣) عوالي اللآلي: ص ١٢٤، ح ٢٠٨. ص ٢٣٣.

أنه لم يصنع ذلك بأحد غيري . . . وكنت إذا سألته أجابني ، وإذا سكت وفنيت مسألتي ابتدأني ، فما نزلت على رسول الله ﷺ آية من القرآن إلا أقرأنيها وأملاها عليّ ، فكتبتها بخطي ، وعلمني تأويلها وتفسيرها ، وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها ، وخاصها وعامها ، ودعا الله أن يؤتيني فهمها وحفظها»^(١) .

وعن عبدالله بن مسعود قال : استدعى رسول الله ﷺ علياً ﷺ فخلا به ، فلما خرج إلينا سأله : ما الذي عهد به إليك ؟ فقال ﷺ : «علمني ألف باب من العلم ، فتح لي كل باب ألف باب»^(٢) .

ولقد أبان القرآن الكريم عن منزلة أمير المؤمنين ﷺ ومقامه في آية المباهلة في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾^(٣) .

فقد أجمع المفسرون على أن المقصود من الأبناء في الآية الشريفة هم الحسنان ﷺ ، والنساء فاطمة ﷺ ، والأنفس رسول الله ﷺ وعلي ﷺ إلى غيرها من الآيات الشريفة والروايات المتواترة كما في حديث الثقلين^(٤) والمنزلة^(٥) .

(١) الخصال : ج ١ ، ص ٢٥٧ .

(٢) الإرشاد : ج ١ ، ص ٣٤ .

(٣) آل عمران : ٦٢ .

(٤) قوله ﷺ : «إني تارك فيكم الثقلين أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ، وإني لئن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض» انظر مستند أحمد : ج ٣ ، ص ١٤ .

(٥) قوله ﷺ : «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» انظر الكافي : ج ٨ ، ص ١٠٧ ، ح ٨٠ .

بعض مفسري الشيعة

من الصحابة الأوائل في التفسير والتأويل عبدالله بن عباس بن عبد المطلب (ت ٦٨هـ). وهو أول من أُملي في تفسير القرآن الكريم، وقد حكى عن أبي الخير قوله في طبقات المفسرين عند ذكره ابن عباس: فهو ترجمان القرآن وحبر الأمة، ورئيس المفسرين^(١).

وقال الزركشي: وصدور المفسرين من الصحابة عليّ ثم ابن عباس، إلا أنّ ابن عباس كان قد أخذ عن عليّ عليه السلام^(٢).

وقال أيضاً كان لعليّ عليه السلام فيه - التفسير - اليد السابقة قبل ابن عباس، وهو القائل: «لو أردت أن أُملي وقرّ بعير عن الفاتحة لفعلت».

وقال ابن عطية فأما صدر المفسرين والمؤيد فيهم فعليّ بن أبي طالب، ويتلوه ابن عباس رضي الله عنهما^(٣).

وقد ورد أنّ رسول الله ﷺ دعا لابن عباس بقوله: «اللهم فقّهه في الدين»^(٤) فخرج بحراً في العلم وحبراً للأمة.

ومن المفسرين جابر بن عبدالله الأنصاري (ت ٧٤هـ) الذي عدّه أبو

(١) انظر تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص ٣٢٢، الذريعة: ج ٤، ص ٢٣٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ج ٢، ص ١٥٧.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ج ١، ص ٨.

(٤) مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ٨٤.

الخير في طبقات المفسرين من الطبقة الأولى^(١)، ومنهم عبدالله بن مسعود، ومنهم الصحابي الجليل أبي بن كعب، وهو أول من صنف في فضائل القرآن، وهو سيد القراء، وعده أبو الخير في الطبقة الأولى من المفسرين، وهو ممن جمع القرآن على عهد النبي ﷺ^(٢)، ومنهم سعيد ابن جبير التابعي، وهو أعلم التابعين في التفسير، وقال قتادة: كان سعيد ابن جبير أعلمهم بالتفسير^(٣)، وقال خصيف فيه: كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب، وبالحج عطاء، وبالحلال والحرام طاووس، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير^(٤).

وممن اهتموا بعلوم القرآن وعنوا بها: أبان بن تغلب (ت ١٤١هـ)، فهو أول من صنف في القراءة، ودون علمها، وأول من صنف في معاني القرآن، وأول من صنف في غريب القرآن، ومنهم طاووس بن كيسان (ت ١٠٦هـ)، وهو من أصحاب الإمام علي بن الحسين ﷺ، عده ابن تيمية من أعلم الناس بالتفسير، ومنهم محمد بن السائب الكلبي من أصحاب الإمام محمد الباقر ﷺ، وهو أول من صنف في أحكام القرآن (ت ١٤٦هـ)، وهو صاحب التفسير الكبير، ومنهم أبو حمزة الثمالي صاحب الإمام زين العابدين ﷺ وقد ذكر تفسيره ابن النديم.

ومن المشاهير المهتمين بعلوم القرآن الفراء يحيى بن زياد فقد صنف في معاني القرآن، ومنهم علي بن إبراهيم القمي، وله كتاب تفسير القرآن،

(١) انظر تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص ٣٢٣.

(٢) انظر تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص ٣١٩ - ٣٢٣.

(٣) انظر تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص ٣٢٢ فما بعدها؛ مجمع البيان: ج ١، ص ٧؛ التفسير والمفسرون: ج ١، ص ١٠٢ - ١٠٣.

(٤) التفسير والمفسرون: ج ١، ص ١٠٢ - ١٠٣.

وعليه المعول إلى اليوم؛ لأنه تفسير بالمأثور عن أهل البيت عليهم السلام، عاصر الإمام الحسن العسكري عليه السلام وهو من أعيان القرن الثالث.

ومنهم محمد بن أحمد بن جنيد، وهو من الفقهاء الأعظم، ألف في الفقه المقارن، وهو أول من صنف في أمثال القرآن. ذكر ابن النديم في الفهرست ما لفظه: كتاب الأمثال لابن الجنيد. وله مصنفات كثيرة، وهو من معاصري والد الشيخ الصدوق، ومنهم العياشي محمد بن مسعود، فله ما يقرب من مائتي مصنف، منها كتاب التفسير المعروف بـ«تفسير العياشي». والحسن بن علي بن فضال، له كتاب «الناسخ والمنسوخ» وكان من خواص الإمام الرضا عليه السلام، وتوفي سنة (٢٢٤هـ) ومحمد بن العباس بن علي المعروف بابن الحجاج، له في كل علوم القرآن كتب مفردة، وله كتاب «ما نزل في أهل البيت عليهم السلام من القرآن» وهو ألف ورقة.

ومنهم أبو علي الكوفي (ت ٣٤٦هـ) له كتاب «فضائل القرآن» ومنهم ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) وتفسيره مشهور باسمه.

ومنهم ابن عقدة أبو العباس، وهو وحيد دهره في حفظ الحديث (ت ٣٣٣هـ) له كتاب في تفسير القرآن من طريق أهل البيت عليهم السلام.

وفي هذا القرن ازداد ازدهار المؤلفات، وكثرت المصنفات، فظهر منها «البرهان في علوم القرآن» و«البيان في علوم القرآن» للشيخ المفيد محمد بن النعمان (ت ٤٠٩هـ) وقيل (ت ٤١٣هـ) وكتاب «تلخيص البيان في مجازات القرآن» للسيد الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ) وكتاب «التبيان في تفسير القرآن» للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥ - ٤٦٠هـ) ومنهم الشيخ رشيد الدين محمد بن علي بن شهر آشوب (ت ٥٨٨هـ) له كتاب «أسباب النزول» وكتاب «متشابه القرآن»، ومنهم الشيخ أبو الفتوح الرازي له كتاب «روض الجنان في تفسير القرآن» في عشرين مجلدًا، ومنهم أمين الدين الطبرسي (ت ٥٤٨هـ) وقيل (ت ٥٦١هـ) صاحب «مجمع

البيان في تفسير القرآن»^(١).

ثم استمرّ العلماء في إغناء المكتبة الإسلامية بصنوف المؤلفات والأبحاث المتعلقة بالقرآن الكريم أمثال زبدة البيان للمقدّس الأردبيلي، وكنز العرفان للفاضل المقداد، وتفسير الصافي للفيض الكاشاني، والميزان للسيد الطباطبائي، وغيرها الكثير الكثير المصنّف في هذا الشأن بنحو جامع شامل أو مختصّ بباب أو مجال من المجالات. ولا يزال البحث والتأليف مستمراً في أصقاع العالم الإسلامي، والعلماء عاكفين على دراسة ما في القرآن الكريم من أصناف المعارف والعلوم، حيث ظهرت بدائع المؤلفات ونفائس المصنّفات التي كشفت عمّا في القرآن الكريم من ذخائر وكنوز المعرفة والعلم، وهو يمدّ البشرية بأنوار الهداية والرشاد، ويدلّهم على الطريق المستقيم والحياة الحرّة السعيدة الكريمة.

علم التفسير أساس علوم القرآن

التفسير في اللغة الكشف والإظهار والإبانة، وفي الاصطلاح بيان معاني الآيات القرآنية وشأنها وظروفها بلفظ يدلّ عليه دلالة ظاهرة^(٢).

وأما التفسير بوصفه علماً فهو علم يبحث فيه عن القرآن الكريم بوصفه كلاماً لله تعالى^(٣).

فالنظر في القرآن الكريم من حيث كونه كلاماً له دلالة ومعنى ولله تعالى فيه غرض وقصد، ومن أجل بيان هذه الدلالة وشرح المعنى وإيضاح القصد والإفصاح عن الغرض نشأ علم التفسير الذي تكفل بتلك الغايات.

(١) لمزيد الاطلاع راجع كتاب تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام؛ مجمع البيان لتفسير القرآن، مقدّمة الكتاب.

(٢) أنظر لسان العرب: ج ٥، ص ٥٥، «فسر»؛ مجمع البيان: ج ١، ص ١، كلمة في التفسير؛ دائرة المعارف الإسلامية الشيعية: ج ١١، ص ٤٧.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية: ج ١١، ص ٤٩.

ولعلّ على هذا المعنى جاء قوله سبحانه: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾^(١) وبذلك يختلف عن التأويل؛ لأنّ التأويل من الأول؛ أي الرجوع إلى الأصل كما في مفردات الراغب^(٢)، والتفسير أعمّ منه، كما وأنّ أكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ والتأويل في المعاني، كتأويل الرؤيا، كما أنّ التفسير أكثره يستعمل في المفردات بينما التأويل في الجمل، مضافاً إلى أنّ التأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهية، بينما التفسير قد يستعمل في الأعمّ، ولا يخفى عليك أنّ تفسير القرآن والعلم بتأويله من أشرف الصناعات وأسمى المعارف، وذلك لما ثبت في المنطق من أنّ الصناعات الحقيقية إنّما تتشرف بأحد ثلاثة أمور:

الأول: شرف موضوعاتها، وهو المشهور الغالب في مختلف العلوم، كما قالوا بأشرفيّة علم الكلام على الفقه، والثاني على الأصول؛ لكون الأول يبحث في موضوع المبدأ والمعاد، وهما يعودان إلى الخالق تبارك وتعالى، وفي العرف يقولون: الصياغة أشرف من الدباغة؛ لأنّ موضوعها الذهب والفضّة، وهما أشرف من جلد الحيوان المذكى أو الميتة الذي هو موضوع الدباغة.

الثاني: شرف أغراضها وغاياتها، كما شرف علم الطب على غيره؛ لكونه يهدف إفادة صحّة الإنسان وسلامته، والإنسان أشرف مخلوقات الله سبحانه، وكما شرف علم الفقه على غيره؛ لكونه يهدف الرفعة بالإنسان إلى الكمالات المعنوية العالية. وفيه قد قيل:

موضوعه فعل المكلفينا غايته الفوز بعلينا^(٣).

الثالث: شرف معلومه، وبعضهم أضاف شدة الحاجة إليه؛ لوقوع مسائله كثيراً في محلّ حاجة العالم واستنفاد أغراضه.

(١) الفرقان: ٣٤.

(٣) انظر الذريعة: ج ٧، ص ٢١٣.

(٢) مفردات الراغب: ص ٩٩، «أول».

وهذا ما حازه جميعاً علم التفسير؛ وذلك لأن موضوعه كلام الله سبحانه وتعالى الذي هو ينبوع كل حكمة، ومعدن كل فضيلة، ومخزن العلوم والمعارف، وغرضه هداية الناس إلى التي هي أقوم في الدنيا والآخرة.

كما أن معلومه ما أودعه الله سبحانه من قوانين ومعاني وأسرار في عالمي التكوين والتشريع، فعلم التفسير هو من أجل العلوم قدراً؛ لأنه الموصول إلى فهم مراد الباري عز وجل في كتابه، ومعرفة أحكامه في وحيه وتنزيله، وما فرضه على عباده، وهذه الغاية من أشرف الغايات وأحسن الطرق لنيل السعادات.

هذا وقد نشأت للتفسير أساليب ومذاهب، ودونت للمفسرين شرائط وآداب، وصار المفسرون طبقات.

ولأهمية الدور الذي يمارسه علم التفسير صار هذا العلم أساساً لكافة العلوم وأهمها، وما من علم إلا ويعول عليه، ولقد بين العلماء الشروط التي يجب توفرها في العالم ليكون قادراً على التفسير، ولعل من أهمها ما يلي:

١ - اللغة: ليعرف بها شرح المفردات ومدلولاتها بحسب الوضع، فلا يكفي معرفة اليسير منها.

٢ - النحو: بما أن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب فلا بد من وجود الإعراب لتحديد المعنى المراد من التركيب بناءً على معرفة إعرابه.

٣ - التعريف: وبه يعرف المفسر أبنية الكلم وموازينها وصيغها، فإذا وجد كلمة مهمة استطاع تصريفها، فاستطاع معرفة مادتها ومعناها.

٤ - الاشتقاق: وهو معرفة المصدر الذي صدرت عنه الكلمة، فالاسم إذا كان من مادتين مختلفتين اختلف معناه باختلافهما، كالمسيح مثلاً: أهو من السياحة أم من المسح؟.

٥ - علوم البلاغة: وبها يعرف المفسر طريق المعاني، وخواص التراكيب.

٦ - علم القراءات: وبه يعرف كيف ينطق بالقرآن، وبه كذلك يرجح بعض وجوه التفسير المحتملة على بعض آخر؛ لتواتر قراءة، أو شهرتها، أو شدوها.

٧ - أصول الدين: وهي قواعده المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله والإيمان به وما إلى ذلك، وبهذا العلم يستدل المفسر على ما يستحيل بحقه تعالى، وما يجب، وما يجوز.

٨ - أصول الفقه: وبه يستطيع أن يدرك وجه الاستدلال على الأحكام فيه.

٩ - أسباب النزول: إن معرفة أسباب النزول توضح إلى حد بعيد مرامي تلك الآية ومدلولها.

١٠ - الناسخ والمنسوخ: يعلم به الآيات المحكمة والآيات المنسوخة وما بطل العمل به وما بقي وهكذا.

١١ - الحديث النبوي: وما حديث الرسول ﷺ إلا تفسير للقرآن والشرعة، فكم من حديث فسر القرآن، وكم من مغلط فتحه.

١٢ - علم الموهبة: وهو علم يورثه الله لمن عمل بما علم، كما ربما يستفاد من بعض الأخبار.

١٣ - علم المنطق: وهو علم مهم للغاية يحتاجه المفسر طريقاً إلى الفهم الصحيح، لكونه ضابطاً للتفكير.

إضافة إلى كل هذا يجب أن يكون المفسر أديباً، ذكياً، واسع العقل، كبير القلب، تقياً، صالحاً، يخشى الله في السر كما يخشاه في العلانية؛ لأن هذه تهيب في نفسه الاستعداد لشروق الروح وصفاء الضمير، فيفيض الباري

عز وجل عليه من أنواره وعناياته وألطافه .

أنواع التفسير

ربما ينقسم التفسير إلى نوعين أساسيين :

الأول: تفسير لفظي لا يتجاوز غالباً حلّ الألفاظ وإعراب الجمل وبيان ما يحتويه نظم القرآن من نكات بلاغية وإشارات فنيّة، وهذا النوع أقرب إلى التطبيقات اللغوية والبلاغية منه إلى التفسير وبيان مراد الله سبحانه من هداياته .

الثاني: تفسير المعنى وهو يجاوز اللغة، ويجعل هدفه الأعلى تجلية معاني القرآن وتعاليمه، وحكمة الله تبارك وتعالى فيما شرّع للناس في كتابه العزيز على وجه يزكي الأرواح، ويفتح القلوب، ويرفع النفوس إلى الاهتداء بهديه، وهذا هو الأصل فيه .

هذا وللمفسرين في مساعيهم مذاهب مختلفة ترجع إلى اختلاف الهدف أو الجهة التي أراد كلّ مفسّر أن يستنطق القرآن ويستهدي بهديه فيها، ولعلّ من أبرز هذه المذاهب ما يلي :

١ - التفسير بالمأثور

٢ - التفسير بالدراية، والمراد بالدراية هنا الاجتهاد بعد معرفة المفسّر كلام العرب وأساليبهم في القول، وبعد وقوفه على أسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه ونحوها من مسائل وفنون مختلفة .

٣ - التفسير الباطني

٤ - التفسير العقلي الفلسفي أو الكلامي

٥ - التفسير الفقهي

٦ - التفسير العلمي، ويقصد به التفسير الذي يتحدّث عن

الاصطلاحات العلميّة في القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء القائمة على الأسس الفلسفيّة منها، أو العلوم التجريبية.

٧ - التفسير الاجتماعي

٨ - التفسير الأدبي

٩ - التفسير التدبري الذي يعتمد غالباً على الفهم العميق والإدراك المركّز لمعاني الألفاظ القرآنيّة بعد إدراك مدلول العبارات القرآنيّة وفهم دلالاتها فهماً عميقاً ودقيقاً، ثم ربطها بواقع الحياة البشريّة، وفهم أبعادها وجوانبها المختلفة في الآمال والآلام والطموحات والمشاعر والتفكرات.

١٠ - التفسير الشمولي، وهو الذي يجمع بين كلمات الله سبحانه وكلمات حججه الطاهرة عليه السلام بما لهما من ظلال وتطابق وتكامل في آن واحد، ويجعل من كلّ منهما ميزاناً ومفسّراً للآخر؛ لأنّ القرآن والسنة نور واحد ورسالة واحدة تجلّى أحدهما في كلمات الوحي الإلهي والآخر في كلمات رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة الطاهرين عليهم السلام.

مضافاً إلى اعتماده في ذلك على تجارب الحياة وعبقريّة البشر وطاقاته العقلية وتدبّره في مختلف المسائل والشؤون؛ وذلك للتطابق الجوهرية بين النقل والعقل لكونهما يرجعان إلى خالق واحد ونظام واحد ورؤية واحدة.

وبالتالي فإنّ ما يبينانه من مفاهيم ومعان هي عين الحق والصواب لا يخالجه خطأ أو جهل أو قصور، ولعلّ هذا أفضل أنواع التفسير وأكمل وأدقّه لما له من خصوصيّة فهم القرآن في أصل معناه أو حدوده أو مصداقه الأكمل على ميزان أهل البيت عليهم السلام ورؤيتهم، كما أنّ القرآن الميزان الذي يميّز كلامهم عليهم السلام من غيره المشتبه على الناس في السند أو في الدلالة، وهذا ما قد نجده جليّاً في تفسير المرجع الديني الإمام السيّد محمّد الحسيني الشيرازي (أعلى الله مقامه) حيث جمع بين اللغة والعقل والنقل الوارد عن المعصومين عليهم السلام في فهم معاني الآيات وكشف مضامينها.

هذا ولا يخفى عليك أن إعجاز القرآن لا ينحصر بالفاظه وظواهره، بل في رموزه وإشاراته ولطائفه وحقائقه، ففي كل سورة بحار من المعارف، وتتجلى في كل آية منه أنوار من الحقائق والهدايات، وكيف لا يكون كذلك وقائله عز وجل لا نهاية لعلمه وكماله، ولا حد لعظمته وجلاله، وما حصل من التحديدات إنما هو من مقتضيات الاستعدادات لطفاً بالعباد، لا أن يكون تحديداً منه.

وربما يتوصل من يراجع مختلف أنحاء التفاسير أنه فسر كل صنف من العلماء القرآن بما هو المأنوس عندهم، فالفلاسفة والمتكلمون فسروه بمذاهبهم من الآراء الفلسفية والكلامية، والعرفاء والصوفية على طريقتهم، والفقهاء فسروا ما يرتبط بغرضهم في فقه الأحكام والمسائل، والمحدثون فسروه بخصوص ما ورد من السنة الشريفة من الآيات، كما أن الأدباء فسروه من زاويتهم الأدبية، وهكذا أهل المعارف والعلوم الإنسانية والطبيعية.

ومع كل ذلك يظهر العجب في أنه كلما كثر في هذا الوحي المبين والنور العظيم من هذه البيانات والتفاسير فهو على كرسي رفعة لا ينقص، وجماله يزداد على مر العصور تالألواً وجلالاً، فما نجده من مزايا وخصوصيات لبعض التفاسير إنما هي قضية نسبية تعتمد على ذكاء المفسر وسعة اطلاعه وطول باعه في العلوم المختلفة، وهذا ما امتاز به الإمام الشيرازي (قدس سره)؛ إذ له في كل فن معرفة، وله في مختلف مجالات الثقافة والفكر رؤية ومنهج، ومن هنا كانت له إشراقات وإلهامات ربما لم يصل إليها قبله مفسر أو يسبقه إليها ذهن عالم أو أديب، كما ستجد ذلك جلياً من خلال مطالعتك لهذا السفر القيم.

الطريقة الجديدة في تفسير القرآن الكريم

إن مفسري القرآن وبالأخص القدامى منهم أبلوا بلاءً حسناً في تفسير الآيات الشريفة المتعلقة بالعقائد والأحكام، وخصوصاً مواضيع التوحيد والشرك والنبوة والإمامة ونحوها، والتي تشكل جوهر الإسلام، والعنصر الذي اتفقت عليه الشرائع الإلهية، لكن الملحوظ أن منهج القدماء قام على أساس التسلسل السوري في القرآن؛ إذ أخذوا في تفسيرهم سورة بسورة وآية بآية؛ لذلك لم يبحثوا مجموع الآيات الواردة حول موضوع واحد دفعة واحدة إلا نادراً، مما أدى إلى توزيع الكثير من المضامين والمعاني في الشيء الواحد على مختلف السور والآيات، فصار الطالب يحتاج إلى المزيد من الجهد والتتبع حتى يحصل على الحقيقة كاملة جليلة على الرغم من وجود نقاط قوة عديدة في هذا النهج.

أما طريقة التفسير الجديدة فهي جاءت تكملة لجهود المتقدمين وإغناء لتجاربهم ودراساتهم لتعطي لنا صورة بالغة الوضوح ومكملة لما أعده السابقون من المفسرين، وهذا التفسير يسمى «التفسير الموضوعي» وهو يعني بتفسير آيات القرآن الكريم حسب الموضوعات والمفاهيم، أي حسب التوبيع والتقسيم الموضوعي للقرآن الكريم.

وتتلخص هذه الطريقة في جمع الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد في مكان واحد، ثم تصنيفها على حسب التسلسل الموضوعي، ثم القيام بعملية جمع بين الأصناف لاستنباط نظرة واحدة متكاملة وفكرة جامعة شاملة من مجموع هذه الآيات، خصوصاً أن القرآن الكريم ﴿يَبَيِّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١) كما أننا نستفيد فائدة أخرى من هذا الجمع لمجموع الآيات المتعلقة بموضوع معين بالإضافة إلى فائدة الوقوف على النظرة القرآنية المتكاملة، وهي أننا

ربّما يصعب علينا فهم آية ما من الآيات، أو معرفة الهدف منها لابتعادنا عن عصر الوحي وعدم اطلاعنا على ملابسات نزول تلك الآية بنحوها الكامل والقرائن الحالية أو المقاميّة ونحوها السائدة في المجتمع الإسلامي آنذاك، فيأتي أسلوب «جمع الآيات إلى جانب بعضها» ليساعدنا على رفع بعض الغموض وإزالة شيء من الإبهام، وتتكشف لنا بسبب هذا الجمع ملامح الحقيقة من خلال غيوم الاحتمالات وسحب الأوهام التي قد تكتنف آية من الآيات؛ ولهذا قيل: «إنّ القرآن يفسّر بعضه بعضاً»^(١) وورد عن مولانا أمير المؤمنين عليّ عليه السلام تأكيداً لذلك: «كتاب الله تبصرون به وتنطقون به، وتسمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض»^(٢).

هذا والتفسير الشريف الذي نتحدّث عنه وإن كان قد جرى طرق القدامي في نهجه وطريقته إلّا أنّه حاول فيه المصنّف (أعلى الله مقامه) أن يقترب بعض الشيء إلى الطريقة الجديدة، فسعى إلى إيجاد ربط بين الآيات المختلفة، وأشار إلى الجهات الأخرى المكملّة لمعاني الآيات المفسّرة في موردّها، وفي بعضها أشار إلى عنوانها، وبذلك يكون قد سهّل على القارئ الوصول إلى بعض الحقيقة كاملة، وكان موفقاً في ذلك؛ لأنّ من أصعب ما يجده الكاتب في مثل هذا النوع من الكتابات أن يجمع المعاني المتعدّدة في عبارة موجزة ومختصرة، خصوصاً وأنّه يفسّر القرآن.

القرآن يفسّره الزمان

إنّ تطور الزمن وتقدّم العلوم أكسب المحقّقين والمفكرين نمطاً جديداً من الرؤية، حيث تتأكد هنا أهميّة وضرورة التفسير الموضوعي، فقد أصبح كلّ فريق من هؤلاء المفكرين والمحقّقين وبالاعتماد على هذا النوع من التفسير يستخرج من القرآن الكريم مفاهيم وأموراً علميّة جديدة تطابق

(١) بحار الأنوار: ج ٥٤، ص ٢١٨، تبين.

(٢) نهج البلاغة: ص ١٩٢، الخطبة ١٣٣.

اختصاصه، فالاستفادة من القرآن الكريم على الأصعدة الاجتماعية والسياسية والأخلاقية في تصاعد واتساع مستمرين.

وقد استخرج المحققون الإسلاميون المعاصرون بفضل ما أوتوا من الطرق الحديثة المبتكرة في البحث العلمي والدراسة والتحليل حقائق مهمة من القرآن الكريم ربما لم تخطر على بال المفكرين والمحققين القدامى، فأضافوا على علوم القرآن الكثير، كما اكتشفوا من المعاني والمضامين الشيء الكثير.

إن القرآن الكريم كتاب أبدي خالد ينطوي على أبعاد مختلفة، وبطون متنوعة، بحيث يمكن للعقل البشري المتطور أن يكتشف في كل مرة معنى جديداً فيه، وبحيث يمكن لدارسيه من أهل التحقيق أن يكتشفوا في كل عصر بعداً جديداً من أبعاده في شتى مجالات المعارف الإنسانية، ومن هنا اتفقت الكلمة على أن الاستفادة من القرآن الكريم لا تنحصر بالعرفاء والفقهاء والفلاسفة وأرباب العلوم القديمة والإلهيات خاصة.

إن استنباط نكات دقيقة وجديدة من القرآن من قبل علماء الطبيعة والرياضيين ورواد العلوم الإنسانية كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم فلسفة التاريخ خير دليل وأفضل شاهد على أن هذه المعجزة الخالدة تنطوي على بطون عديدة وأبعاد متنوعة، وأنها تتسع لمفاهيم واسعة كثيرة يضيق عن استيعابها أو تحصيلها أي تصوّر بشري وذهن إنساني وبرنامج ثقافي عادي مهما ادّعى من الشمولية والغزارة والإحاطة.

إن مرور الزمن وتقدّم العلوم لم يمنح علماء الطبيعة وحدهم إمكانية استنباط حقائق وأبعاد مهمة وجديدة عن القرآن في حقول علوم الطبيعة وخلقة الإنسان والأرض والسماء وغيرها من الظواهر الطبيعية، بل ومكنا المفسرين أيضاً من استخراج حقائق مهمة وجديدة من هذا السفر الإلهي الخالد جنباً إلى جنب مع توسع العلوم واتساع نطاق المعارف وتفتحها وظهور المناهج العلمية الإنسانية الجديدة.

والآن نحن نشاهد شروع التحقيقات العلمية حول القرآن من طريق أجهزة الحاسوب (الكمبيوتر) وقد كشفت للأجيال الحاضرة والقادمة الكثير من الحقائق والآفاق التي عجز العقل والذهن البشري العادي عن اكتشافها والتوصل إليها بمجرده، فبواسطة هذا الجهاز العجيب تمكن العلماء من إزالة الكثير من نقاط الإبهام التي دارت سابقاً حول مضامين بعض الآيات والروايات بسبب قصور الناس عن دركها، وسيأتي زمان أيضاً يفسر لنا الكثير من الغوامض فيهما التي ربما تصوورها بعض الناس أنها شيء من الغريب أو المستهجن، فإن للقرآن الكريم معاني ودرجات وصوراً وحقائق، وحينما يتصل عقل الإنسان بنور الوحي يزداد انشراحاً وبهاءً وتألقاً ومعرفة، فتفتح له من العلم أبواب وأبواب.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(١) وقال عز من قائل: ﴿هَذَا بَصِيرَتِي لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾^(٢) وجاء في الحديث الشريف عن الصادق عليه السلام: «كثرة النظر في العلم يفتح العقل»^(٣) وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «سلوني عن القرآن فإن في القرآن علم الأولين والآخرين، لم يدع لقائل مقالاً، ولا يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم»^(٤) وروي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «إن الله تعالى لم يدع شيئاً تحتاج إليه الأمة إلى يوم القيامة إلا أنزله في كتابه، وبينه لرسوله ﷺ»^(٥) لكن المشكلة في البشر أنفسهم لعجزهم وقصورهم أو تقصيرهم في الإمعان فيه واكتشاف أسرارهِ وغوامضهِ، لكن كلما سعى البشر في فهمهِ ودراستهِ وصل إلى

(١) العنكبوت: ٤٤.

(٢) الجاثية: ٢١.

(٣) بحار الأنوار: ج ١، ص ١٥٩، ح ٣٢.

(٤) بحار الأنوار: ج ٢٤، ص ١٧٩، ح ١١.

(٥) بحار الأنوار: ج ٨٩، ص ٨٤، ح ١٦؛ تفسير الصافي: ج ١، ص ٥٠.

مطلوبه؛ لأنّ القرآن كتاب هدى ونور، ومن الهدى الإيصال إلى المطلوب.

ولعلّ ممّا يؤيّد ذلك ما ورد في بعض الأخبار من أنّ القرآن الكريم يفسّره الزمان، والذي قد يكون من معانيه أمور:

١ - أنّ القرآن الكريم صالح لكلّ عصر وزمان، ويتناسب مع أيّ تطوّر حضاري وعلمي وتاريخي، بل هو الأساس في دعم أيّ حضارة وأيّ مدينة مؤمنة بأهداف إنسانية، ويعطيها الروح والديمومية.

٢ - أنّ تطوّر العلم والتكنولوجيا الحديثة كشف الكثير من الحقائق القرآنية، ولعلّ من ذلك أنّ الشمس وردت في القرآن الكريم (٣٣) مرّة وبمعان فلكية رائعة تحكي الحقيقة العلمية بكلّ وضوح، ولعلّ أهمّها تلك الآيات التي تتحدّث عن حركتها أو حركاتها الكثيرة وبأسلوب علمي جمالي يخلب الألباب... وتلك الآيات التي تتحدّث عن هرم الشمس وشيخوختها وموتها في آخر الأمر كبقية المخلوقات التي نشرها الله تعالى في كونه الكبير... وردت الشمس كما وردت بقية الأجرام الكونية والظواهر السماوية الأخرى ضمن أسلوب وهدف القرآن ككلّ، وهو الهداية وإخراج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم والحياة؛ ولأنّ القرآن ليس كتاباً علمياً خاصاً لم يتعرّض إلى قطرها، ولا إلى حجمها، ولا إلى كثافتها، ولا إلى درجة حرارتها أو جاذبيتها، ولا لأيّ رقم علمي محدّد ممّا تتعرّض له الدراسات الكونية المعاصرة. ولكن يمكن لقارئ القرآن والباحث في الآيات الكونية أن يحصل على معلومات ممتازة عن الشمس لكن في حدود، ويمكن أن يأتي باحث آخر ويلتقط معلومات أخرى وضمن حدود معينة أخرى، ويبقى الباحثون الجادون غائصين في بحر القرآن كلّ يلتقط ما يستطيع من لآئه، مستفيدين من علوم عصرهم، فهي أضواء إضافية تنير الطريق للغوص في طرق الشمس والآيات الكونية الأخرى الزاخرة في القرآن

الكريم^(١). فإنّ ما يتوصّل إليه العلماء في مجال الفلك في هذا العصر الحديث المليء بالاكتشافات الباهرة حول هذا الجرم السماوي هو يؤكد ويؤيد يوماً بعد آخر ما ذكره ديننا الإسلامي حول الشمس في جميع خصوصياتها.

٣ - أنّ عقول البشر في تطوّر ونموّ، والحياة سائرة نحو المزيد من العلم والمعرفة، والتجارب تتراكم على كشف الكثير من الأسرار، وكلّما تطوّر الإنسان توصّل إلى مراقي وآفاق جديدة في القرآن لم يكن قد وصلها من قبل، بل لم يكن يدركها لقصوره وعجزه، فكّلما تطوّر الزمن وتطوّر معه الإنسان توصّل إلى حقائق وأبعاد جديدة في فهم الآيات، واستنار بهديها، فكلّ جيل منهم يختلف عن السابق كما سيختلف عن اللاحق حتّى تكتمل العلوم باكتمال الإنسان في عصر ظهور ولي الله الأعظم (عجل الله فرجه الشريف)، فحينئذ يصل إلى درجات سامية من المعرفة والفهم والإدراك.

هذا التفسير

مهما كانت الدوافع الكامنة وراء كتابة التفسير وضمن الشروط التي ذكرناها فيما تقدّم والتي يجب أن تتوفّر في المفسّر فإنّ ما كتب في هذا المجال يعدّ إنجازاً علمياً له خصائصه ومميّزاته، حيث إنّ كلّ تفسير كتب - وضمن الشروط الموضوعية والمقرّرة لذوي الاختصاص - يضيف معلومات جديدة وفتاً وذوقاً آخر لهذا العلم الذي لا ينضب، لكن تبقى لمن اتّخذ أهل البيت (عليهم السلام) نهجاً وطريقاً ومدرسة وتألّفاً وعلوّاً وارتفاعاً فيما يستنبط من آراء ويبنى من أفكار ويؤسّس من رؤى السمة العليا في ذلك، وهذا ما اتّسم به السيّد الراحل أعلى الله مقامه، وتميّزت به كتبه الوفيرة، وخصوصاً هذا

(١) موسوعة أهل البيت الكونية: ج ٢، ص ٣٥٢.

التفسير، حيث زانته من ضمن ما زانته اعتماده المطلق على ما ورد منهم عليه السلام، مسلماً لهم، منقاداً إليهم فيما يقولون ويعملون ويهذبون، وهذه سمة لا ينالها إلا الفائزون الناجحون، والعالمون الصادقون؛ لأنهم صلوات الله عليهم باب الله الذي منه يؤتى، وهم عيبة علمه، وحبله المتين، وصراطه المستقيم، وعندهم عليه السلام جوامع الكلم والعلم كما ورد عن ابن عباس أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أعطاني الله خمساً، وأعطى علياً خمساً، أعطاني جوامع الكلم، وأعطى علياً جوامع العلم»^(١).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «إننا أهل بيت عندنا معادل العلم وأبواب الحكم وضياء الأمر»^(٢).

وعن الصادق عليه السلام قال: «عندنا أهل البيت أصول العلم وعراه وضيأوه وأواخيه»^{(٣)(٤)}.

فالاعتماد عليهم صلوات الله عليهم يكشف الكثير من الحقائق والمعارف مع تطوّر الزمن والاكتشافات؛ حيث أشاروا صلوات الله عليهم وبيّنوا جميع الأمور للبشرية، وبقي علينا أن نجد أكثر ونسعى لإظهار هذه الحقائق والاعتراف من منهلهم العذب، وهذا لا يأتي إلا بالمعرفة التامة لأهل البيت عليه السلام، معرفة المؤمنين بهم وبمقاماتهم السامية والمستسلمين في مدرستهم بكل خشوع وانقياد؛ وذلك لأن العلم نور يقذفه الله سبحانه في قلب من يشاء، وليس ذلك إلا من تنور بمحبتهم عليه السلام، وتواضع لعظمتهم، واقتدى بهم، وتعلّم في مدرستهم، وقد ورد عن الصادق عليه السلام: «فمن عرف

(١) بحار الأنوار: ج ٨، ص ٢٨، ح ٣١.

(٢) بحار الأنوار: ج ٢٦، ص ٣٠، ح ٤٢.

(٣) الأخية والأخية - بالمد والتشديد - واحدة الأواخي: عود يُعرّض في الحائط، ويدفن طرفاه فيه، ويصير وسطه كالعروة تشدّ إليه الدابة. أي بنا يشدّ ويستحكم أمر الدين ولا يفارقنا علمه. انظر لسان العرب: ج ١٤، ص ٢٣، «أخا»؛ بحار الأنوار: ج ٢، ص ٢١٤، ح ٣.

(٤) بحار الأنوار: ج ٢٦، ص ٣١، ح ٤٤.

من أمة محمد ﷺ واجب حق إمامه وجد طعم حلاوة إيمانه، وعلم فضل طلاوة إسلامه؛ لأنّ الله تبارك وتعالى نصب الإمام علماً لخلقه، وجعله حجة على أهل مواده وعالمه، وألبسه الله تاج الوقار، وغشاه من نور الجبار، يمدّ بسبب إلى السماء... إلى أن قال: حجج الله ودعائه ورعائه على خلقه، يدين بهديهم العباد، وتستهلّ بنورهم البلاد، وينمو ببركتهم التلاد... فليس يجهل حقّ هذا العالم إلّا شقي، ولا يجحده إلّا غوي، ولا يصدّ عنه إلّا جريّ على الله جلّ وعلا^(١).

وفي حديث رسول الله ﷺ قال: «يا سلمان، من عرفهم حقّ معرفتهم واقتدى بهم... فهو والله منّا، يرد حيث نرد، ويسكن حيث نسكن...»^(٢) وإلى ذلك أشار الإمام الصادق عليه السلام بقوله: «ما جاءكم منّا ممّا يجوز أن يكون في المخلوقين ولم تعلموه ولم تفهموه فلا تجحدوه، وردّوه إلينا»^(٣).

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «هم والله نور الله الذي أنزل، وهم والله نور الله في السماوات وفي الأرض»^(٤).

وعن أبي ذرّ (رضوان الله عليه) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خلقت أنا وعليّ بن أبي طالب من نور واحد»^(٥).

وفي رواية أنّهم جميعاً عليهم السلام من نور الله الأعظم^(٦).

كما أنّ علمهم عليهم السلام ورثوه من النبيّ الأعظم ﷺ، فعن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ عليّ بن أبي طالب كان هبة الله

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ٢٠٣ - ٢٠٥، (٤) أصول الكافي: ج ١، ص ١٩٤، ح ١.

(٢) ح ٢. (٥) بحار الأنوار: ج ١٥، ص ١١، ح ١٢.

(٢) إلزام الناصب: ج ٢، ص ٣٣٣. (٦) انظر إرشاد القلوب: ج ٢، ص ٤٠٤.

(٣) بحار الأنوار: ج ٢٥، ص ٣٦٤، ح ١.

لمحمد، وورث علم الأوصياء وعلم من كان قبله»^(١).

وعن أبي عبد الله عليه السلام في حديث جاء فيه: «ورب الكعبة ورب البيت - ثلاث مرات - لو كنت بين موسى والخضر عليه السلام لأخبرتكما أنني أعلم منهما، ولأنبأتكما بما ليس في أيديهما؛ لأن موسى والخضر عليه السلام أعطيا علم ما كان ولم يُعطيا علم ما هو كائن، وأن رسول الله ﷺ أعطي علم ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة، فورثناه من رسول الله ﷺ وراثته»^(٢).

فمن هنا كانت مدرسة أهل البيت عليه السلام هي الأولى والأخيرة في هداية البشر ونقلهم إلى شاطئ الأمان، والتأريخ هو خير دليل وشاهد على ذلك. وأعظم مدرسة للإسلام كانت مدرسة الإمام الصادق عليه السلام حيث كانت جامعة كبرى شملت كل العلوم والفنون والمعارف، وقد خرّجت الكثير من العلماء الذين قدّموا للبشرية والحضارة الإنسانية بكل إخلاص وتفانٍ الشيء الكثير. والإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام هو سادس أئمة أهل البيت عليه السلام، وقد تهَيّأت له الظروف السياسية في نشر علومهم وتأسيس دعائم العلم في مختلف المجالات حتى أقام تلك الجامعة العظيمة التي لازالت إلى يومنا هذا تخرّج الفطاحل من العلماء ممّن ينتسبون إليها.

فإنّ الذي يتتبع كتب الرجال وتأريخ الأعلام يجد أنّ لعلماء الشيعة الذين ورثوا علوم أهل البيت عليه السلام دوراً أساسياً ومهماً في تأسيس فنون المعرفة، حيث تقدّموا في تأسيس العلوم في الصدر الأوّل، وبرعوا، وسادوا في حضارتهم وعلمهم على جميع المعاهد والجامعات، وعلومهم مبنية على أسس الأخلاق ومكارمها التي ورثوها عن آل محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وكما يقال: إنّ المحروم من حرم منهم عليه السلام.

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ٢٢٤، ح ٢.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٧، ص ١٤٤ - ١٤٥، ح ٣٢.

السيد صاحب التفسير أعلى الله مقامه

إنَّ الأُممَ الحَيَّةَ والشُّعوبَ اليَقْظَةَ في كُلِّ عَصْرٍ من عَصُورِ التَّأْرِيخِ وَعَلَى امْتِدَادِ الأَرْضِ المَعْمُورَةِ تُعَرَفُ بِتَقْدِيرِهَا لِلْعِلْمِ واحْتِرَامِهَا لِلْعُلَمَاءِ والأَخْذِ عَنْهُمْ والاعْتِرَافِ مِنْ مَنَاهِلِهِم العَذْبَةَ الرُّوِّيَّةَ، فَهَمَّ المَقْيَاسُ الحَقُّ لِحَيَاةِ الأُمَمِ والشُّعُوبِ أَوْ مَوْتِهَا. وَأُمَّتُنَا الإِسْلَامِيَّةُ أَشْرَفُ الأُمَمِ، وَيَزْخَرُ تَأْرِيخُهَا بِالمَكَانَةِ السَّامِيَةِ الَّتِي يَحْتَلُّهَا العُلَمَاءُ فِي نَفُوسِ النَّاسِ، وَالمَنْزِلَةُ الرُّفِيعَةُ الَّتِي بَلَّغُوهَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَبِالأَخْصِ العُلَمَاءُ الَّذِينَ تَخْرُجُوا مِنْ تِلْكَ المَدْرَسَةِ العَظِيمَةِ الَّتِي بَنَى أُسَاسُهَا الإِمَامُ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصَّادِقُ عليه السلام، كَمَا وَجَدَ القُرْآنَ الكَرِيمَ يُعْطِي العُلَمَاءَ مَنْزِلَةً تُجْعَلُهُمْ فِي مَصَافِّ المَلَائِكَةِ المُنزَّهِينَ فيقول:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَكِيمُ﴾^(١) كَمَا نَرَاهُ جَلَّ وَعَلَا يَمْنَحُهُمْ مَنْزِلَةَ الخَشْيَةِ مِنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى سَبِيلِ الحَصْرِ، فيقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٢).

وهو بعد هذا وذاك يرفعهم درجات فيقول: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(٣) إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الآيَاتِ القُرْآنِيَّةِ الَّتِي تَكْشِفُ عَنْ مَكَانَةِ العُلَمَاءِ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وهكذا برز العلماء، وخَرَّجَتِ الحُوزَاتُ العِلْمِيَّةُ المَقْدَسَةُ الفُطَاخِلَ مِنْهُمْ الَّذِينَ تَرَكُوا أَثَاراً وَتَرَاثَاً اسْتَقْوَاهُ مِنْ فِكْرٍ وَنَهْجٍ أَهْلُ البَيْتِ عليهم السلام، يَنْبِرُ البَشَرِيَّةُ جَمْعَاءَ، وَمِنْ بَيْنِ هَؤُلَاءِ النُّوَادِرِ الَّذِينَ أَثَرُوا المَكْتَبَةَ الإِسْلَامِيَّةَ بِمُؤَلَّفَاتِهِمْ وَعِلْمِهِمْ صَاحِبُ هَذَا التفسير العظيم «تقريب القرآن إلى الأذهان» المَرْجِعُ الدِّينِي الكَبِيرُ الإِمَامُ السَّيِّدُ مُحَمَّدُ الحُسَيْنِيُّ الشَّيرَازِيُّ (أَعْلَى اللَّهُ

(٣) المجادلة: ١٢.

(١) آل عمران: ١٩.

(٢) فاطر: ٢٩.

درجاته)، المولود في عام ١٣٤٧هـ والمتوفى في شوال عام ١٤٢٢هـ، فهو (رضوان الله عليه) من أجلى مصاديق قول النبي الأعظم ﷺ «إذا مات المؤمن الفقيه ثلم في الإسلام ثلمة لا يسدها شيء»^(١) وما ذاك إلا لأن العالم في الأمة كالروح من الجسد، وما هو إلا المثل الصالح في زهده وورعه وتقواه والسمات الإسلامية الفاضلة والصفات الحميدة، جليل القدر، عالي المنزلة، جمع إلى جانب العلم الغزير الأخلاق الفاضلة، والسلوك الحسن، والسيرة العطرة، وحب الناس، وعلو الهمة، ومكارم الأخلاق.

وبعد ذلك كله فهو حامل هموم المسلمين وهدفة الإسلام، وقرنها بشجاعة وإقدام فائقين يعجز عن بلوغهما الأبطال الأشاوس في مختلف المجالات والأصعدة. لقد تميّز الإمام الشيرازي (قدس سرّه) بفكره المعطاء الغني المختمر بالتجارب، والمفعم بالنضج والنظرة الواقعية إلى الأمور، والأصيل المستلهم من الكتاب الكريم والسنة المطهرة، والذي يعالج شتى القضايا الحيوية ومشاكل العصر.

ورغم الحياة الصعبة والقاسية جداً التي كان يعيشها الإمام الراحل (قدس سرّه) طوال حياته الشريفة والظروف التي ألّمت به من كلّ حذب وصوب من البعيد وربما القريب كان كما قالوا عنه: نادرة التأليف في التاريخ وسلطان المؤلفين^(٢)، حيث عرف بكثرة الإنتاج والعطاء الفكري والعلمي والتربوي، حيث تنوّعت مؤلفاته من حيث المادّة العلميّة، وبلغت ألفاً وثلاثمائة كتاب وكتيب وموسوعة، فشملت الفقه والأصول والفلسفة والكلام والبلاغة والنحو وسائر العلوم الحوزوية من جهة، والسياسة والاقتصاد والاجتماع والنفس والحقوق والإدارة والقانون والبيئة والأخلاق والتاريخ والطب وإدارة

(١) أصول الكافي: ج ١، ص ٣٨، ح ٢.

(٢) لقب أطلقه عليه الاتحاد العام للكتاب العرب بدمشق الشام خلال الحفل التأييني الذي أقيم في سوريا في الحوزة الزينية (مجلة النبأ العدد ٦٦ - ١٤٢٣هـ ص ١٦٨).

الدولة الإسلامية وسائر العلوم الإنسانية المستحدثة من جهة أخرى، حتى عجزت أصابعه عن الإمساك بالقلم من كثرة ما كتب .

فكان أعلى الله مقامه يستعين أحياناً بجهاز التسجيل ليحفظ ما يريد كتابته، ثم بعد ذلك يكتب على الورق، وكان (طاب ثراه) لا يضيع لحظة واحدة من عمره الشريف دون الاستفادة منها، ولا يبالغ من يقول: إنه كان يعمل في اليوم أكثره، ومن العمر كله أو جلّه؛ إذ كان طاقة متفجرة من النشاط والحيوية والعمل، ولا يعرف الكلل أو الملل، ولا يعيقه عن ذلك مرض أو هم أو ألم، وأرقى ما في ذلك كله أنه كان مجاهداً مخلصاً، وأبياً نزيهاً، لا يطلب فيما يقدم أو يعطي وجود إلا رضا الله سبحانه ورضاً أوليائه الطاهرين عليه السلام .

وفي ذلك قال عنه أخوه المرجع الديني سماحة آية الله العظمى السيد صادق الحسيني الشيرازي (دام ظله) الذي رافقه في جلّ حياته، وشاركه في همومه ومهامه في كلمته التي ألقاها بعد رحيله: وكان رحمته الله يمتاز بخصائص جمّة أهمّها خصلتان بارزتان كانتا في حياته (رضوان الله عليه)، وكنت ألسهما بشكل دقيق:

الأولى: هي إخلاصه التام والمطلق لله تعالى ولأهل البيت عليه السلام، وخير مثال للواقع العملي لذلك تأسيسه العشرات من المؤسسات والمساجد والحسينيات والمدارس والمكتبات ودور النشر وفي مختلف أنحاء العالم، ولم يسمَ أياً من هذه باسمه، وقد أصرّ الكثيرون من الذين تبرّعوا أن يذكروا اسمه، فكان يرفض ذلك رفضاً شديداً ويقول: أنا ذاهب والله سبحانه وأهل البيت عليه السلام باقون، فالأفضل أن تسمى هذه المراكز جميعاً باسمهم عليه السلام؛ ولذلك فإنه قد سمى جميع هذه المراكز والمؤسسات والحسينيات ودور النشر وغيرها بأسماء الله سبحانه وأسماء أهل البيت عليه السلام .

الثانية: نشاطه المتواصل وروحانيته العالية، حيث إنّ المرحوم

الراحل (قدس سرّه) كان قبل وفاته بلحظات مليء بالحيويّة والنشاط رغم مرضه، ولم يتوانَ عن أيّ شيء، وإذا أردنا تشبيهه بالبركان فإن ذلك فيه خطأ؛ لأنّ البركان ينفجر ثم يبرد ويهدأ، أمّا بالنسبة للمرحوم الإمام (قدس سرّه) فقد كان لم يهدأ لحظة، فكان يمسك القلم حتّى إبان لحظات عمره الأخيرة، ويستفيد من أيّ فرصة تسنح له بالتأليف والكتابة وتشجيع الآخرين على أعمال الخير والاستفادة من فرص الحياة، وكان حتّى في كتابته يستخدم الدقّة في انتخاب نوع القلم الذي يسهل معه الكتابة اختصاراً للوقت^(١).

وكان (قدس سرّه) بارعاً بعلوم التفسير، ومطلعاً على ما كتب في هذا المضمار، وقد نقل عن بعض تلامذته^(٢) أنّه كان حاضراً في مجلس مع الإمام الراحل (قدس سرّه) ووجه إليه أحد الحاضرين سؤالاً مفاجئاً حول تفسير إحدى آيات كتاب الله العزيز، فأجابه الإمام الراحل (قدس سرّه) ذاكرةً عشرة آراء لعشرة كتب من أشهر التفاسير الموجودة من دون استعداد أو تحضير مسبق، وقد حدث مثل هذا كثيراً للسيد (قدس سرّه).

وهذا الكتاب الذي بين يديك هو حصيلة جهد مبارك قام به السيّد المؤلّف (قدس سرّه)، حيث ساهم به في إغناء التراث الحضاري والمكتبة الإسلاميّة، ولا يبالغ من يقول فيه: إنّ قليل النظر في خصوصيّاته ومزاياه، ممّا سيّجعله مصدراً كبيراً، من أهمّ مصادر التفسير في مختلف شؤون المعرفة، وقد تحدّث السيّد (قدس سرّه) عن كتابه للمرحوم آية الله السيّد أحمد الإمامي (طاب ثراه) قائلاً:

عندما كنت في كربلاء وحينما كنت مشغولاً في كتابة تفسيري هذا «تقريب القرآن إلى الأذهان» رأيت في المنام نوراً يخرج من بيتنا، ويسطع في السماء، وحينما استيقظت أيقنت أنّ هذا النور هو تفسير القرآن الكريم،

(١) مترجم عن كتاب قصص وخواطر (باللغة الفارسيّة): ج ١، ص ١٠٨.

(٢) الناقل فضيلة الخطيب الشيخ علي حيدر المؤيد دام عزّه.

ففرحت وسألت الله عزّ وجلّ أن يتقبّل منّي العمل .

قلنا فيما تقدّم: لكلّ تفسير مزاياه وخصوصيّاته، لكن امتاز هذا التفسير الشريف بجملته أمور قلما حظي بها غيره منها:

أولاً: أنّ السيّد المؤلّف (قدس سرّه) إضافة لكونه مرجعاً وزعيماً دينياً متميّزاً فإنّه يُعدّ أحد رجالات الفكر المعاصرين الذين نظّروا للعالم البشري في مجالات مختلفة، وطابقت تنظيراته ورؤاه الواقع في العديد من الموارد والحقول، وهذا ما يجده المتتبّع في كتبه القيّمة من رؤى حديثة تناسب مع التطوّر الحضاري والفكري المعاصر، حيث إنّهُ (طاب ثراه) جمع بين الفكر الجديد والقديم في التفسير، فانعكس ذلك على فهمه للآيات الشريفة في بيانه وشرحه لمضامينها، جامعاً بين أصالة الأُمس وحدثة اليوم وتطلّعات المستقبل، وقد وُفق في ذلك إلى حدّ كبير، وهذا أحد دواعي خلود هذا التفسير وعظّمته التي ستكشفها الأيام.

ثانياً: اعتمد السيّد المؤلّف (قدس سرّه) بشكل أساسي في تفسيره على منهجية أهل البيت (عليهم السلام)، وعلى الأخبار والآثار المروية عنهم (عليهم السلام)، فنأى بعيداً عن شبهة التفسير بالرأي، ونزّه كلام الله عن آراء البشر.

ثالثاً: وضوح في الرؤية ونضوج في الأفكار، وردّ للشبهات التي أُثيرت أو قد تثار بما يملأ الخافقين علماً و يقيناً هنا وهناك، وخصوصاً ما يتعلّق بالآيات الواردة بشأن أهل البيت (عليهم السلام).

رابعاً: أنّ أسلوب الكتاب وطريقة بحثه تمتاز بأنّها بعيدة عن العبارات المنمّقة والاصطلاحات المعقّدة، حيث إنّهُ بيّن المعاني بأسهل الألفاظ والكلمات، كما أنّه امتاز بالاختصار وشموليّة المطلب، وهذه الصفات جعلته سهل الفهم على جميع المستويات، فكان سهلاً ممتنعاً على ما يعبّرون، ممّا سمح لكلّ بيت وأُسرة مهما كان مستواها ومستوى أفرادها أن تتخذة مناراً ومعلّماً ومرتبياً يغنيها عن الكثير من المصادر والكتب.

خامساً: التعرّض في تفسير الآيات الكريمة إلى الدقائق العلمية والأحكام المتعلقة بها وبيان مفرداتها بشكل دقيق ومفصل، كما أنه اعتمد على جانب التدبّر في الآيات واستنباط النتائج وقراءة ما وراء الألفاظ بالاعتماد على نهج أهل البيت عليهم السلام، وهذه سمة هامة قلّما أتسم بها تفسير.

سادساً: الربط الوثيق بين القرآن والحياة في مختلف المجالات الشخصية والعامة والعبادية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، وهذه محاولة كبيرة تعيد الناس إلى القرآن، كما ترتفع بتعامل الناس معه إلى ما أَرادَه الله سبحانه له أن يكون نوراً وهدى وقائداً ومرشداً ومرتبياً ومعلماً في مختلف المجالات والأصعدة، حيث دعا السيد المؤلّف (قدس سرّه) إلى:

١ - الأمة الواحدة لتحرير بلاد المسلمين من التفرقة العنصرية والقومية والإقليمية مستنداً في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢) وعلّل أفضليّة الأمة الإسلامية وأسباب رقيّها بخصال ثلاث هي:

أ - الأمر بالمعروف

ب - النهي عن المنكر

ج - الإيمان بالله سبحانه إيماناً صحيحاً.

بلحاظ أنّ المجتمع إذا خلا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يهوي نحو السفلى؛ لما جبل عليه من الفساد والفوضى والشغب، فإذا تحلّى

(١) الأنبياء: ٩٣.

(٢) آل عمران: ١١١.

المجتمع بهذين الأمرين أخذ يتقدّم نحو مدارج الإنسانية والحضارة الحقيقية حتى يصل إلى قمة البشرية، ويلحظ أنّ الصحيح رأس الفضائل لكونه إدراكاً لأعظم حقيقة كونية من جهة، وكونه محقّقاً شديداً نحو جميع أنواع الخير، ومنفرداً قوياً من جميع أصناف الشرّ من جهة أخرى، وهذه في مجموعها تكون أهمّ العناصر التي تقوم عليها سعادة البشرية وأمنها وسلامها.

٢ - الأخوة الإسلامية ليزيد في أواصر المجتمع الواحد، ويرفع الحواجز الطبقيّة أو الفئويّة ونحوها، مستنداً إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١) وكذلك قوله سبحانه: ﴿فَأَصْبَحُكُمْ بِرَبِّهِمْ إِخْوَانًا﴾^(٢).

٣ - الحرّية الإسلامية لكونها غاية البعثة وهدف الرسل والأنبياء ﷺ، وخصوصاً خاتمهم وسيدهم ﷺ، مستنداً إلى قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(٣) فإنّ النبيّ الأعظم ﷺ خلّص الناس من أغلال الاستبداد والجاهليّة بصورها المختلفة، وفي هذا قال (قدس سرّه): أغلال: جمع غلّ، وهو ما يقيد الإنسان يده أو رجله أو غيرهما، فإنّ من خواصّ الإسلام أنّه يطلق الحرّيات المعقولة، فالسفر والإقامة والتجارة والزراعة والصناعة والبيع والاشتراء والكلام والكتابة والتجمّع وغيرها كلّها مباحة لا قيود لها إلّا بعض الشرائط الطفيفة التي هي في صالح المجتمع والفرد، ولا يعلم مدى ذلك إلّا بالمقايسة إلى الأنظمة والمناهج الدنيويّة التي كلّها كبت واستعباد واستغلال^(٤).

٤ - الشورى على مختلف الأصعدة والمجالات ابتداءً من الأسرة إلى

(١) الحجرات: ١١.

(٢) آل عمران: ١٠٤.

(٣) الأعراف: ١٥٨.

(٤) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ٩، ص ٦٢، ذيل الآية ١٥٨ من سورة الأعراف.

الدولة ونظام الحكم وبالنحو الإسلامي الخاص، مستنداً إلى قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَنْبَغُ﴾^(١) وقد ردّ الطرق الغربيّة ونحوها القائمة على أساس غير عادل في الانتخاب^(٢).

٥ - اللاعنّف طريقاً ومنهجاً للتعامل مع الآخرين من أهل الإسلام أو غيره من الأديان والمذاهب، مستنداً لقوله سبحانه: ﴿أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً﴾^(٣) وقوله عزّ وجلّ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾^(٤).

ومن الواضح أنّ هذه هي الأسس البارزة لتكوين الحضارة الصحيحة والدولة الناجحة والمجتمع السعيد. والظاهر أنّ هذا الربط والتكامل والتطابق بين القرآن والحياة العامة قلّما يلحظ في كتب التفسير حتّى الجديدة منها.

سابعاً: أنّ من خصائص هذا التفسير كذلك والتي تضيف عليه طابعاً متميّزاً آخر هو:

أ - في تفسيره للكلمات والحروف المقطّعة في القرآن الكريم، حيث أجرى استقراء لهذه الحروف وقال في مستهلّ تفسيره عنها: يأتي زمان يدرك الناس هذا الكنز المعنوي، كما أنّه لا يمرّ زمان إلّا ويدرك الناس كنوزاً كونية، فإنّ العلوم كلّها قوانين وضعها الله في الكون، مثل: قانون جاذبيّة الأرض، وقانون أرخميدس في الماء، وقانون الأطياف في النور وغيرها، وإذا كان رمزاً لم يلزم أن يعرفه الكلّ، فإنّ الرموز بين رؤساء الحكومات وكبار أعضاء الدولة في صلاح الناس وإن كان كلّ

(١) الشورى: ٣٩.

(٢) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ٢٥، ص ٤٧، ذيل الآية ٣٩ من سورة الشورى.

(٣) البقرة: ٢٠٩.

(٤) آل عمران: ١٦٠.

الناس لا يعرفونها، وفي ذلك يقول (قدس سرّه): وهذا رمز بين الله ورسوله والراسخين في العلم^(١).

وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يقف عند هذا السرّ العظيم بين الله سبحانه ورسوله ﷺ، بل حاول أن يظهر في كلّ مورد من موارده بعض غموضه، أو يسلط الضوء على بعض لغزه، فمثلاً في سورة يونس: فسّر حروفها المقطّعة بالتحدي والإعجاز؛ لكون «المر» التي تفتح بها السورة تركّب منها القرآن المعجز، فإنه من جنس كلام البشر لكنه معجز لا يتمكّن أحد أن يأتي بمثله، كما أنّ من جنس المعادن والنبات يتركّب الإنسان لكن لا أحد يقدر على أن يأتي بمثله، وكذلك جميع صنع الله سبحانه... على الاختلاف في أوائل السور^(٢).

وفي سورة هود قال عنها أيضاً: إنّها رموز بين الله والخلق^(٣).

وفي سورة يوسف فسرها بالأخصّ من ذلك، فقال عنها: رمز بين الله والرسول ﷺ كالرموز بين رؤساء الحكومات وسفرائها^(٤).

وفي سورة الرعد ذكر أنّ الأقوال في بيان معاني الحروف في فواتح السور تبلغ أربعة عشر قولاً^(٥)، لكنه قال (قدس سرّه): الظاهر أنّه يمكن الجمع بين كثير منها^(٦)، ولعلّ جامعها هو الرمزية التي مال إليها بين الله والرسول ﷺ، فإنه المتيقّن من المعاني.

ب - امتاز تفسيره (قدس سرّه) بالترابط الموضوعي بين معاني الآيات،

(١) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ٢٦، ص ١٨، ذيل الآية ٢ من سورة الأحقاف.

(٢) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١١، ص ٦٤، ذيل الآية ٢ من سورة يونس.

(٣) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١١، ص ١٦٠، ذيل الآية ٢ من سورة هود.

(٤) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٢، ص ١١٠، ذيل الآية ٢ من سورة يوسف.

(٥) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٣، ص ٧٠، ذيل الآية ٢ من سورة الرعد.

(٦) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٤، ص ١٤، ذيل الآية ٢ من سورة الحجر.

وهذه ميزة قلما فعلها مفسر أو وردت في تفسير إلا في موارد قليلة، فمثلاً:

* الآيات (٢٠٥ - ٢٥٤) من سورة البقرة، تعرّضت إلى مواضع عديدة بعضها يرتبط بأحكام الحج، وبعضها بصفات الجاهلين وتعصّبهم، وبعضها بالمنافقين، وبعضها بالمجاهدين، وبعضها بحركة الأنبياء ﷺ في داخل المجتمع وعلاقة الناس بهم، وبعضها تعرّض إلى عود الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بدرجات الآخرة، وبعضها إلى أسئلة وجهها المشركون إلى رسوله الأعظم ﷺ، وبعضها تضمّن السؤال عن جملة من المحرّمات، وبعضها تعرّض إلى جملة من أحكام الأسرة وأحكام النساء وأحكام الولادة والإرضاع، وبعضها إلى حقيقة الموت والحياة، وبعضها إلى القتال والجهاد في سبيل الله، وبعضها إلى الإنفاق، وبعضها إلى غير ذلك. هذه العناوين والمواضيع المختلفة التي قد لا تتراءى للناظر بدواً بينها ترابط وثيق يجمعها السيّد (قدس سرّه) بسياق واحد، فيجمع سابقها بلحقها وبالعكس حتى يحصل من الكلام حديث عن صورة واحدة بكلّ ما يحتفّ بها من قرائن وشواهد تكمل المعنى وتثير الغرابة والإعجاب^(١).

* والآيات (٦٣ - ٦٥) من سورة المائدة، تعرّضت إلى صفات المنافقين وأهل الكتاب وآثارهم السلبية على المجتمع، وقد امتاز في تفسيره لها، حيث يوضح ظاهرة الازدواجيّة الثقافيّة عندهم، والصفات الانحرافيّة الأخلاقيّة الأخرى، وأوجه التشابه بينهم. وكذلك الربط بين قيام الدول وهزيمتها وقوّة التلاحم والتفاهم وضعف التفرّق والاختلاف في آيات سورة الأنفال كقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُكُمُوتُ وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ﴾^(٢) قال (قدس سرّه): إنّ التنازع يوجب تبديد القوى المعنويّة بالإضافة إلى تبديده

(١) ولمزيد الاطلاع يمكنك ملاحظة الربط العميق في آيات سورة الحجرات ودور الإيمان في تكوين المجتمع المؤمن. انظر سورة الحجرات: الآية ٢ - ١٩.

(٢) الأنفال: ٤٧.

وإضاعته للقوى المادية، وتذهب ريحكم أي دولتكم، فإنّ الريح بمعناها لغة، وشبّهت بها الدول؛ لأنّ الدولة تشبه الريح لهبوبها وسيطرتها على الأشياء ونفوذ أمرها. يقال: هبت ريح فلان إذا نفذ أمره، والتنازع ليس يقسم القوى إلى سلب وإيجاب فقط، بل فوق ذلك يضعف القوى الإيجابية، فلو فرضنا أنّ طاقة زيد تقدّر بألف مقاتل فإذا خالفه عمرو قدّرت طاقته بخمسمائة حتّى إنّه لو كان وحده بدون مخالف لكان قدر على الألف؛ وذلك لأنّ الخلاف يحدّ من النشاط، ويضعف من القوى، بخلاف التجمّع فإنّه يزيد الطاقة الألفية إلى الألفين؛ ولذا ثبت في علم النفس أنّ الإنسان إذا رأى خلافاً فالأفضل أن يصمّ عن المخالف حتّى يبقى على قواه الذاتية، ولا تحدّ من نشاطه الطاقة المناوئة^(١).

ومضافاً إلى ذلك كلّهُ أوجد ترابطاً موضوعياً بين تفسير أوّل سورة وآخر سورة من القرآن الكريم، والترابط بين السور المتسلسلة والآيات المتسلسلة يجعل سور القرآن وآياته منظومة واحدة مترابطة كجملة واحدة نظمت في غاية الإعجاز في اللفظ والمعنى والإحكام والإتقان^(٢).

ثامناً: أورد السيّد المؤلّف (قدس سرّه) أسباب تسمية السور قبل الشروع في تفسيرها، ثمّ بيّن الجو العامّ للسورة والمحور الكلّي الذي تدور حوله آياتها، فعبر عن بعضها أنّها بشأن التوحيد، وأخرى بشأن الأسرة، وثالثة بشأن العقيدة، وهكذا، ثم ذكر مائة وعشرين معنى للبسملة في تفسيره هذا، حيث يضيف إليه امتيازاً بارزاً آخر، فمثلاً: في سورة الحمد فسرها بالاستعانة، وفي سورة البقرة علّلها بفرض التعليم والتربية على الابتداء في كلّ عمل أو نشاط بالاسم المبارك؛ لما له من الأثر البالغ في الصبر

(١) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٠، ص ١٩، ذيل الآية ٤٧ من سورة الأنفال.

(٢) انظر التسلسل والربط بين سور الممتحنة والصفّ والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق والتحريم والملك والقلم والحاقة، وهكذا بين سور النساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال والتوبة.

والاستقامة والنجاح^(١). وفي سورة الأنفال شرحها بالعلاقة على إحكام ما قبلها وافتتاح ما بعدها من الآيات^(٢). وفي سورة يونس علّلها بتلطيف الجور وإعطاء الإنسان الأمن والطمأنينة؛ لأنّ الناس اعتادوا أن يروا الظلم والجور من الكبراء فكيف بأكبر الكبراء؟ لكنه سبحانه ليس كذلك؛ لأنّه رحمان بعباده، رحيم بالمؤمنين منهم، فلا خوف من ظلمه، ولا خشية من جوره^(٣).

وفي سورة النحل جعلها الحد الفاصل بين الإيمان والكفر والمؤمن والكافر، حيث يفتح المؤمن باسم الله خالق كلّ شيء، الجامع لجميع الصفات الكمالية، خلافاً للكفار ومواليهم، حيث يفتحون كتبهم بشيء في غير لونه، أو يفتحون بأسامي الأصنام، وقد جرت عادة من بهرتهم المدنية الحديثة أن يقتدوا أثر أولئك، فلا يفتحون الكتاب إلّا بالمقدمة أو الإهداء أو الفصل بدون ذكر لاسم الله سبحانه إطلاقاً^(٤).

وفي سورة هود علّلها بما في الاسم المبارك من الخواصّ المعنوية على نفس القارئ، ويجعله في حصن وثيق من مساوئ الشياطين وفضائل الأخلاق ومحاسنها؛ ولذا نرى أنّ سماع اسم المحبوب يزيد الإنسان نشاطاً، كما أنّ سماع اسم المكروه يزيد الإنسان انقباضاً بالإضافة إلى أنّ اسم الله سبحانه يطرد الشياطين، ويوجب عناية الله عزّ وجلّ للذي ذكره، وتركيزاً لصفة الرحمة في نفوس الناس، إنّهُ هو الرحمن الرحيم، فليتخلّق الإنسان بأخلاقه سبحانه^(٥).

(١) انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: تفسير سورة الحمد والبقرة.

(٢) انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ٩، ص ١٠٩، تفسير سورة الأنفال.

(٣) انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١١، ص ٦٣، تفسير سورة يونس.

(٤) انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٤، ص ٦٥ - ٦٦، تفسير سورة النحل.

(٥) انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١١، ص ١٥٩، تفسير سورة هود.

وفي سورة الرعد علّل الابتداء بالاسم دون الذات؛ لأنّ الله سبحانه لا يبتدأ به وإنّما يبدأ باسمه. إنّ الله الرحمن الرحيم الذي أظهر صفاته الرحمة والتفضّل لا الانتقام والعقاب والقوّة والعذاب^(١).

وفي سورة الحجر قال عنها: نستعين بالله الرحمن الرحيم في أمورنا، ونجعله بدء أعمالنا؛ ليكون عوناً لنا في ختم العمل، وأن يطع بطابعه، فإنّ ما لمسته رحمة الله العظيم لا يكون إلّا صالحاً باقياً موجباً للسعادة، ولنستمطر شأيب رحمته فيرحمنا بلطفه وإحسانه^(٢).

وهكذا يذكر معاني عديدة لأصل البسملة، أو بياناً لفوائدها وأغراضها، وهذه ميزة أخرى من مزايا هذا التفسير العظيم الذي قلّما يحظى بمثله تفسير، حيث يكتفى غالباً بذكر بعض معانيها في أول سورة الحمد ثم يوكل إليه في تفسير سائر السور.

تاسعاً: تصدّى أعلى الله مقامه للإجابة عن جملة من الشبهات التي قد يثيرها البعض تجاه الإسلام في العقائد أو في الأحكام، ولم يتوقّف على بيان المعاني الظاهرة للآيات، وهذا نهج جديد قلّما نجده في التفاسير، وهو أن يتخذ المفسّر نهج الدفاع والذود عن الشبهات وإبطال الادّعاءات الباطلة؛ ليجعل من التفسير معلماً ومرتبياً ومحامياً في آن معاً، فمن باب المثال: في بيان معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾^(٣) تعرّض إلى فلسفة الحكم بنجاسة الكفار، فبيّنها واختصرها في أمور ثلاثة:

١ - الوقاية الفكرية من الخرافة.

٢ - الحماية الاجتماعية من التأثير بسلوكه.

(١) انظر تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٣، ص ٦٩، تفسير سورة الرعد.

(٢) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٤، ص ١٣، تفسير سورة الحجر.

(٣) التوبة: ٢٨.

٣ - تحفيزه لترك عقيدة الكفر والالتزام بالإسلام.

يقول (قدس سرّه): النجاسة في الشريعة هي القذارة التي توجب الغسل للشيء الذي يباشره برطوبة، وهذه النجاسة قد تكون لأضرار خارجية كالبول والغائط، وقد تكون لأضرار معنوية كالكافر، فإنه وإن كان نظيف الجسم إلا أن معتقده السخيف أوجب الحكم بنجاسته، وذلك خير وقاية للمسلمين من أن يعاشروه فيتلوّثوا بعقيدته الفاسدة، فإنهم إذا عرفوه نجساً وإنه مهما باشر شيئاً برطوبة تنجس فوراً منه اجتنبوه في المأكّل والملبس، فلا يتعدّى إليهم ما انطوى عليه من العقيدة الباطلة، وهو بدوره إذ يعرف أنه عند المسلمين كذلك لا بدّ وأن يسأل عن السبب، ويريد إزالة هذه الوصمة، ولدى تحقيق ذلك تظهر له خرافة معتقده ممّا يسبب تركه له واعتقاده بالعقيدة الصحيحة.

وهناك بعض المتفلسفين يقولون: كيف يحكم بنجاسة إنسان ولزوم الاجتناب عنه لمجرد انحراف عقيدة وهذا مناف لحرية الآراء؟

والجواب: أنه كيف يحكم بالاجتناب عن إنسان لمجرد أنه مصاب بالجدام ونحوه لمجرد انحراف مزاج، وهذا مناف لكرامة الإنسان. فإذا كان الخوف على الجسم يبيح الاجتناب فالخوف على الروح أولى بالإباحة^(١).

ومن ذلك أيضاً ما أجاب به أعلى الله مقامه عن بعض مزاعم العامة في فضل الأوّل استناداً إلى آية الغار من سورة التوبة، وأبطل الدعوى، وعلّل تصديّه لذلك بالدفاع عن حريم القرآن لكيلا يقحم فيه مالميس منه، وجّر الآيات إلى الأنظار والأفكار جزأً بدون دلالة أو برهان بعد أن ورد الذمّ لمن فسر القرآن برأيه^(٢).

(١) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٠، ص ٧٣، ذيل الآية ٢٨ من تفسير سورة التوبة «بتصرف».

(٢) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١٠، ص ٨٩، ذيل الآية ٤٠ من تفسير سورة التوبة.

وفي سورة العلق ردّ مزاعم من نسب جمع القرآن إلى الأول والثالث بما ينفي الشكّ ويزيل الإبهام بعد تصريح القرآن بأنّ الذي جمعه وربّه هو رسول الله ﷺ^(١).

عاشراً: وبعد ذلك كلّه فإنّ من سمات هذا التفسير الضخم هو التواضع والإقرار بالعجز أمام كتاب الله سبحانه، ابتداءً من عنوانه إلى آخر ما ذكر مصنفه الكبير (قدس سرّه) في هذا المجال.

فعنوانه تقريب القرآن إلى الأذهان وليس تفسيره، وهو دالّ على إعظام وإجلال وإكبار للقرآن وتنزيه له من أن تناله عقول البشر؛ ولذا هم بحاجة إلى تقريب لما في التقريب من اعتراف بالقصور عن درك معانيه.

وقد تكرّر من السيّد المؤلّف نفسه (قدس سرّه) في أكثر من مرّة بأنّ ما يذكره من مضامين مجرّد معانيّ محتملة وليست بتفسير^(٢)، وهذا منطق من التزم الحقيقة العارف بقدره الإنسان وحدوده ومده، والعارف بكلام الله سبحانه اللامحدود في مضامينه ومعانيه الذي يستحيل أن يحيط به المحدود، وفي مقدّمة مصنفه الشريف هذا قال (قدس سرّه) في توجيه ما ورد في بعض الأخبار: من أنّ القرآن الكريم له ظاهر وباطن، ولا يعلم تفسيره ولا ظاهره ولا باطنه ولا تأويله إلّا الله سبحانه... إنّ فهم كلّ ظواهر الأشياء وبواطنها كذلك، فإنّ البشر لا يعلم إلّا بعض السطحيات، مثلاً ما هي حقيقة اللحم والدم؟ وما هي حقيقة الماء والكهرباء؟ وإلى غير ذلك، فإذا رأى الإنسان سيّارة لا يعلم ما هي؟ فإنّه لا يعلم هل هي حديد أو نحاس (ظاهرها)، ولا يعلم ماذا في ماكنتها (باطنها)، ولا يعلم ما نفعها (تفسيرها)، ولا يعلم إلى أيّ شيء يكون أولها (تأويلها)، وكذلك القرآن لا يعرف المراد الكامل من

(١) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ٣٠، ص ١٨٧ - ١٨٨، تفسير سورة العلق.

(٢) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ٣، ص ٤٩، تفسير سورة آل عمران، حيث قال في معنى (آلم): «تقدّم ما يحتمل أن يكون تفسيراً له».

ظاهره ولا من باطنه، كما لا يعرف الفائدة الكاملة منه حالاً، ولا أول القرآن للمستمسك به والتارك له .

والسؤال هنا: إذا كان لا يعلم ظاهرها ولا باطنها ولا تفسيرها ولا تأويلها فما فائدة ذلك؟

والجواب: الإشارة والتلميح وإن كانت الحقيقة مخفية .

مثلاً: إنك إذا سمعت من إنسان ما لاقاه من الأحوال في حرب ضروس، وأراك بعض التصاوير التي التقطها من تلك الحرب، فإن الكلام والصورة لا شك يلمحان إلى حقيقة، لكن هل تدرك بذلك هول تلك الحرب وانفعالات أولئك المحاربين؟ إن نسبة ما نفهم من القرآن إلى حقيقته كنسبة الصور والكلام إلى حقيقة تلك الحرب، وللحرب ظاهر هي المعركة، وباطن هو الاستعمار الذي يريد التسلط مثلاً، وتفسير هو ما تنتجه الحرب الآن من غلاء الأسعار وانسداد الطرق، وتأويل هو ما يترتب من الأثر على هذه الحرب من سقوط إمبراطورية ودخول إمبراطورية أخرى إلى الحياة^(١).

أقول: وفي الختام فإن ما امتاز به تفسير التقريب (تقريب القرآن إلى الأذهان) عن غيره من التفاسير الشيء الكثير. أشرنا نحن إلى بعض مزاياه وخصوصياته، وسيجد القارئ الكريم الكثير منها أثناء تتبعه وقراءته .

وفي الختام أشكر دار العلوم الموقرة والقائمين عليها على اهتمامها بطباعته طباعة جديدة منقحة، وأسأل الله سبحانه لها مزيد التوفيق والتسديد في ترويج معارف القرآن والشريعة الغراء آمين يا رب العالمين .

كما وأسأله سبحانه وتعالى أن يتغمّد السيّد مؤلف هذا السفر القيم برحمته الواسعة، ويجعل القرآن رفيقه ومؤنسه ونوره، وأن يتقبله منه بقبول

(١) تقريب القرآن إلى الأذهان: ج ١، ص ٢٤ - ٢٦، المدخل.

حسن، وأن يدّخره له في ضمن الباقيات الصالحات التي قام بها في دنياه لأُخراه، كما ونسأله سبحانه أن يعفو عن زلّاتنا، ويتقبّل ما كتبناه في هذه السطور أداء لبعض حقوقه الكثيرة والكبيرة التي له طاب ثراه في رقابنا، وأن يهدي ثواب ما بذلناه إلى وليه الأعظم وحجّته على الأُمم سيّدنا ومولانا صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف، وأن يرضيه عنا بحقّ محمّد وآله الطاهرين.

فاضل الصفّار

٢٠ - جمادى الثانية من عام ١٤٢٣ هجرية

في جوار عقيلة الرسالة السيدة زينب عليها وعلى آبائها آلاف التحيات والصلوات
الحوزة العلميّة الزينبيّة

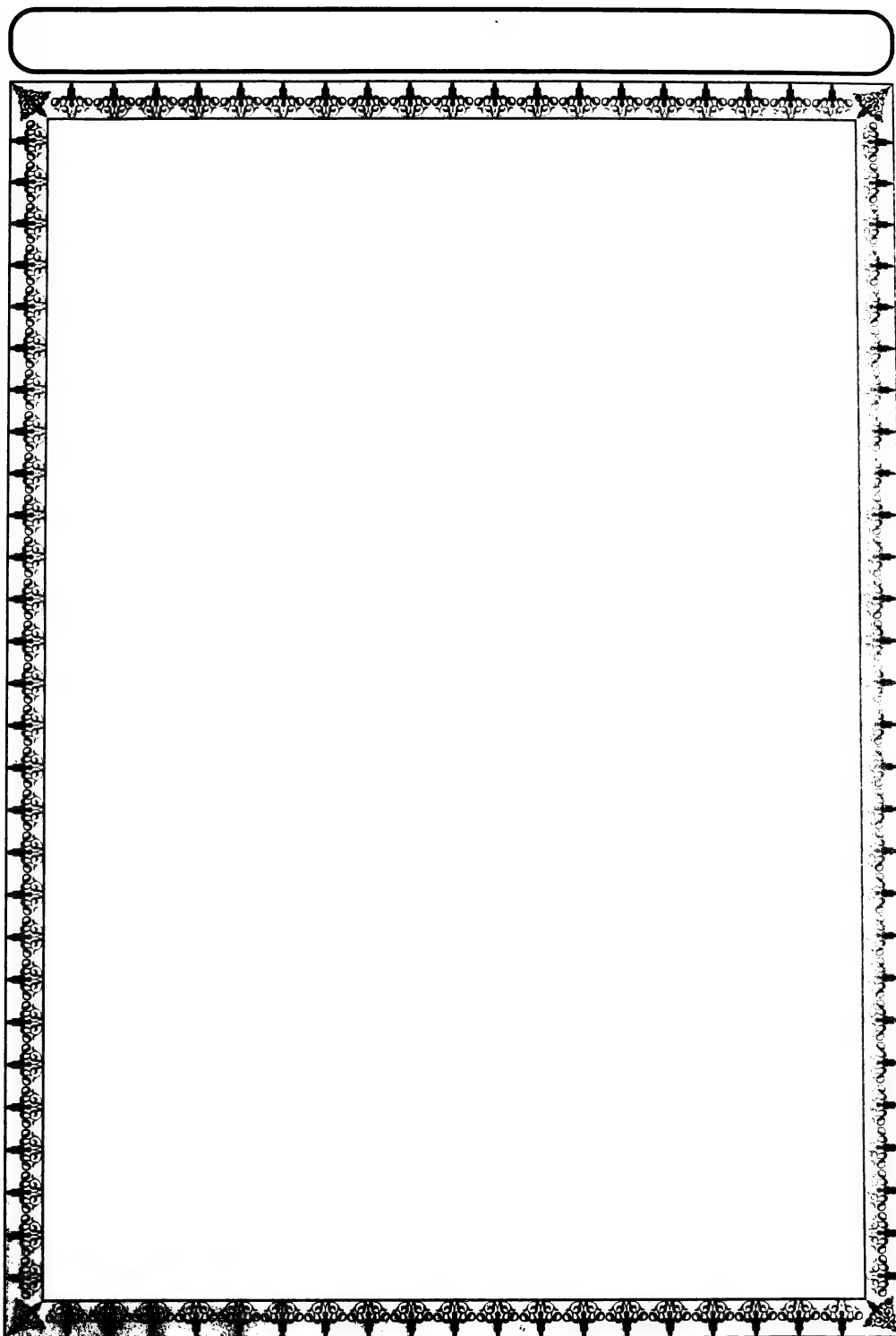
المصادر

- ١ - الإتقان في علوم القرآن: لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، دار ابن كثير، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.
- ٢ - اختيار معرفة الرجال المعروف بـ«رجال الكشي»: للشيخ أبي جعفر الطوسي، مؤسسة آل البيت عليه السلام، ١٤٠٤ هـ.
- ٣ - الإرشاد: لأبي عبدالله محمد بن محمد بن النعمان العكبري البغدادي، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.
- ٤ - إرشاد القلوب: لأبي محمد الحسن بن محمد الديلمي، مؤسسة الأعلمي - بيروت، الطبعة الرابعة ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.
- ٥ - إلزام الناصب: للشيخ علي اليزدي الحائري، مؤسسة الأعلمي - بيروت، الطبعة الخامسة ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.
- ٦ - الأصول من الكافي: لأبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، دار صعب ودار التعارف - بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠١ هـ.
- ٧ - أقرب الموارد: لسعيد الخوري الشرتوني اللبناني، دار الأسوة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٣٧٤ هـ ش - ١٤١٦ هـ ق.
- ٨ - بحار الأنوار: للشيخ محمد باقر المجلسي، مؤسسة الوفاء - بيروت، الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

- ٩ - البرهان في تفسير القرآن: للسيد هاشم البحراني، مؤسسة الوفاء - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٣م - ١٤٠٣هـ.
- ١٠ - البرهان في علوم القرآن: لبدر الدين محمد بن عبدالله الزركشي، دار إحياء الكتب العربية - القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٦.
- ١١ - بين الجدران: للسيد محمد السويج، دار البيان العربي، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ١٢ - تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: للسيد حسن الصدر، شركة النشر والطباعة العراقية المحدودة.
- ١٣ - التبيان في تفسير القرآن: لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ١٤ - تجريد الاعتقاد: للشيخ أبي جعفر محمد بن محمد بن الحسن نصير الدين الطوسي، مركز النشر - مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ق.
- ١٥ - تفسير تقريب القرآن إلى الأذهان: لآية الله العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي، مؤسسة الوفاء - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- ١٦ - تفسير الصافي: للفيض الكاشاني، مؤسسة الأعلمي - بيروت، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ١٧ - التفسير والمفسرون: للدكتور محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة، الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ - ١٩٧٦م.
- ١٨ - تفصيل وسائل الشيعة: للشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، مؤسسة آل البيت عليه السلام لإحياء التراث - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
- ١٩ - تهذيب الأحكام: لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، دار صعب

- ودار التعارف - بيروت، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ٢٠ - الجامع الصحيح «سنن الترمذي»: لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، المكتبة الإسلامية.
- ٢١ - خواطري عن القرآن: للشهيد السيد حسن الشيرازي، دار العلوم - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- ٢٢ - دائرة المعارف الإسلامية الشيعية: لمحسن الأمين، دار التعارف - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ٢٣ - داستانها وخاطراتي: لآية الله العظمى السيد محمد الحسيني الشيرازي، انتشارات سلسلة، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ.
- ٢٤ - الذريعة إلى تصانيف الشيعة: للشيخ آغا بزرك الطهراني، مؤسسة إسماعيليان - قم.
- ٢٥ - علوم القرآن عند المفسرين: لمركز الثقافة والمعارف الإسلامية، مكتب الإعلام الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٦ق - ١٣٧٤ش.
- ٢٦ - عوالي اللآلء العزيزية: لمحمد بن علي بن إبراهيم الأحسائي، مطبعة سيد الشهداء - قم، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ٢٧ - الغدير: لعبد الحسين أحمد الأميني النجفي، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثانية ١٣٦٦هـ.
- ٢٨ - الفروع من الكافي: لأبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، دار صعب ودار التعارف - بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ.
- ٢٩ - كتاب التفسير: لأبي النضر محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي المعروف «بالعياشي»، المكتبة العلمية الإسلامية - طهران.
- ٣٠ - كتاب الخصال: للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين ابن بابويه القمي، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية - قم.

- ٣١ - لسان العرب: لابن منظور، نشر أدب الحوزة - قم، ١٤٠٥هـ - ١٣٦٣ق.
- ٣٢ - مجمع البحرين: لفخر الدين الطريحي، مؤسسة الوفاء - بيروت، الطبعة الثانية المصححة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ٣٣ - مجمع البيان: للشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٣٧٩ق - ١٣٣٩ش.
- ٣٤ - المستدرک علی الصحیحین: لأبي عبدالله الحاكم النيسابوري، دار المعرفة - بيروت.
- ٣٥ - مستدرک الوسائل: للميرزا حسين النوري الطبرسي، مؤسسة آل البيت (عليه السلام) لإحياء التراث - بيروت، الطبعة الثالثة ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ٣٦ - مسند أحمد بن حنبل: لأحمد بن حنبل، دار صادر - بيروت.
- ٣٧ - مفاتيح الغيب: لصدر الدين محمد بن إبراهيم الشيرازي، مؤسسة مطالعات وتحقيقات فرهنگي، الطبعة الأولى ١٣٦٣.
- ٣٨ - مفردات ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهاني، الدار الشامية - بيروت، ودار القلم - دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- ٣٩ - مناقب آل أبي طالب: لأبي جعفر رشيد الدين محمد بن علي بن شهر آشوب السروي المازندراني، مؤسسة انتشارات العلامة - قم.
- ٤٠ - موسوعة أهل البيت الكونية: لمجموعة من المؤلفين، بإشراف فاضل الصقّار، سحر للطباعة والنشر - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- ٤١ - نهج البلاغة: ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية الدكتور صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني ودار الكتاب المصري، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.



مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين. لعل سبحانه يوفقني لشرح ألفاظ من القرآن الحكيم، ليسبب تسهلاً على الطالب، ويفتح لي سبيل فهم كتابه، الذي هو سبب سعادة الدنيا والآخرة. ويتقبله بقبول حسن، ليكون مصداقاً لـ: «كتب علم ينتفع بها» في الدنيا، وموجباً للأجر والثواب في الآخرة.

هذا ما يرجوه «محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي» عند افتتاح كتابه التفسير، المسمى بـ: «تقريب القرآن إلى الأذهان» والله الموفق، وهو المستعان.

كربلاء المقدسة ٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٨٣ هجرية.

المدخل

كتاب كل عصر ومصر

قد اشتهر عند أتباع المستعمرين من المسلمين الجدد أصحاب الثقافات الشرقية والغربية، أن القرآن لا يلائم العصر من جهة وجود أحكام فيه تصلح لعهد البداوة، مثل قطع يد السارق وجلد الزاني ورجمه، وتقرير الاستعباد والقصاص وحرمة الربا والمكس والحريات الكثيرة والأحكام الخاصة بالمرأة، ومن جهة عدم وجود أحكام فيه يتطلبها العصر، مثل أحكام السياسة والاقتصاد والأمن وما أشبه ذلك، ثم قالوا بأن الإسلام حيث ينطلق من القرآن فالقرآن أيضاً لا يصلح للعصر الحديث، فاللازم فصل الدين عن الدولة، وهذه الفكرة إن لم تعم كافة المثقفين فهي بلا شك تعم أكثرهم، وحيث أن الاستعمار الفكري يستتبع الاستعمار العسكري، فبلاد الإسلام تعيش في استعمار عسكري صريح أو مغلف، والواجب الاهتمام لتغيير هذه الفكرة بمختلف وسائل التغيير، فإن الله سبحانه ﴿لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾^(١) ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾^(٢) فإنهم إذا لم يغيروا ما بأنفسهم من أسباب الضعف والانحطاط أراد الله بهم سوءاً إرادة تكوينية تابعة لخلق المسببات بعد أسبابها.

(١) الرعد: ١٢ .

(٢) الرعد: ١٢ .

والكلام حول رد هذه الإشكالات طويل نكتفي بالتلميح إليه فنقول :
أما الجهة الأولى فيرد على إشكال قطع يد السارق ، أن الإسلام لا يقطع يد السارق إلا بعد توفير أوليات العيش المتوسط له ، وإذا وفر له أوليات العيش المتوسط فهل الأفضل أن يردعه - إذا سرق - بعقاب صارم يجعل المجتمع في أمن بعد توفر زهاء عشرين شرطاً في السرقة يشترط بها القطع؟ أو أن يحبسّه أو ما أشبه الحبس؟ مما لا يكون رادعاً، بل أحياناً يكون مشجعاً كما لا يخفى على من طالع أحوال المجتمعات الغربية والشرقية .

وعلى إشكال جلد الزاني ، إن الإسلام لا يجلد إلا إذا اضطر ، وإذا عرفنا أن الإسلام يوفر المناخ الملائم للعفة برفع الاضطراب إلى اقتراف الجنس حراماً ، كان زنى الرجل أو المرأة خرقاً للعفاف الاجتماعي وتعريضاً له إلى الانهيار في أقدم روابطه وهدماً للعائلة ، وأيهما خير العقاب الصارم المناسب للذة الزنى - إذ الجلد إيلاء يناسب ما اقترفه الزاني من الإثم - أو عقوبة خفيفة لا تسد هذا الباب الخطر؟

أما الرجم فهو للزاني المحصن ، وكل إنسان عاقل يعترف بأنه إذا كانت له زوجة يشبعها جنسياً ثم خانته كان اللازم إنزال أشد العقوبات بحقها ، وكذلك العكس وإلا لزم انهيار المجتمع وانهدام العائلة وعدم الأمن وكثرة الطلاق وقلة النكاح واختلاط الأنساب وكثرة الأمراض الجنسية وتوسيع المجال للمستهترين ، إلى غيرها من المفاصد التي وقع فيها الشرق والغرب وقد رفع عقلائهم أصواتهم بوجوب وضع حد لهذه الاستهتارات .

وعلى إشكال تقرير الاستعباد ، إنه أفضل حل لمشكلة أسارى الحرب ، بعد الوضوح أن الإمام مخير بين الأسر وبين السجن وبين الفدية وبين الإطلاق كل منها حسب ما يراه من المصلحة ، فلنفرض أن المصلحة عدم القتل ، لأنه تضييع لقوى بناءة يحتاج إليها المسلمون ، وعدم السجن ، لأنه إرهاب لكاهل الدولة ، وعدم الإطلاق بمال أو بدون مال ، لأنه يخشى

من تأمرهم على الدولة الإسلامية، فماذا يكون الحل المعقول غير استعبادهم بتسليمهم إلى سادة يكونون تحت إشرافهم دائماً مع عدم إضاعة قدراتهم البناء؟ ومن السهل نقد الإسلام في تقريره قانون الرقة، لكن من المحال إيجاد حل أفضل منه، ولذا نرى أن الذين انتقدوا الإسلام في هذا القانون، لما جاء دور العمل أخذوا يقتلون مناوئهم بالملايين لا الألوف، ففرنسا قتلت مليوناً أو مليوني جزائري، وأمريكا قتلت خمسة ملايين فيتنامي، وإنكلترا قتلت عشرين مليون صيني، وألمانيا قتلت ما يقارب الخمسين مليون في الحرب العالمية الثانية، وروسيا قتلت خمسة ملايين فلاح في نظام المزارع الجماعية - على ما ذكرت كل ذلك الكتب والجرائد والإذاعات -.

ثم نظام التعذيب الذي اخترعه الغرب والشرق أبشع بكثير من نظام الرق بل هو نظام استعباد الشعوب الكامل تحت غطاء الاستعمار مما أوقع العالم كله في دوامة الثورات والحروب.

وعلى إشكال القصاص، إنه أمر طبيعي، فهل يشفي غيظ من فقاً عينه عمداً أن يأخذ المال في قبال عينه التالفة؟ وهل من الإنصاف أن يترك مثل هذا الإنسان الجاني يعبث بالمجتمع بدون عقاب صارم يردعه ويردع غيره من العابثين؟ خصوصاً إذا كان الجاني غنياً لا يهتم بالمال، فقد أجاز الإسلام ذلك في صورة طلب المجني عليه، مع إنه أعطى الحق له في أن يعفو، وأن يأخذ الدية مع إعطاء الصلاحية للحاكم الإسلامي في تعزيره بما يؤلمه، لأنه خرق حق الله سبحانه. بما يسمى في الإصطلاح بحق الادعاء العام.

نعم قد لا يكون للقصاص مجال في الحي، أو في الميت، كما في من قطع عضو ميت، حيث أفتى الإمام الصادق عليه السلام بأن ديته كدية الجنين، فيمن قطع رأس ميت - لوضوح اشتراكهما في أنهما إنسانان لا روح لهما -

في قصة مشهورة^(١) وحينذاك يرجع الأمر إلى الدية والتعزير إن صدرت الجناية عن عمد، وإلى الدية فقط، إن لم يكن عمد في البين.

و أما إشكال حرمة الربا، فإنه وإن أورد عليها أن الربا حق معقول، لأن أمر صاحب المال دائر بين أن يتاجر بماله فيربح، وبين أن يدفعه قرضاً فيربح من ورائه، ولذا قالوا ﴿إِنَّمَا أَلْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾^(٢) لكن هو إشكال غير وارد، لا لما أورد عليه الشيوعيون بأن تجارة غير الدولة سرقة لأتعب العمال، إذ أي حق للتاجر أن يستربح ثم يأخذ لأجل ماله شيئاً من أتعب وجهود الكادحين؟ فكل من الربا والاتجار المربح حرام.

و لا لما أورد عليه بعض الاقتصاديين الجدد بأن الاتجار مطلقاً «سواء كان من الدولة، كما في الشيوعية، أو من غير الدولة، كما في الرأسمالية» حرام، إذ في كلا الحالين استفاد من لم يتعب ممن تعب فهو سرقة تحت اسم القانون، إذ يرد عليهما أنه لا بد من مخزون مالي للقيام بخدمات المجتمع، وأفضل طريق الخزن هو جمع المال عند التجار لئلا يجتمع المال والسلاح والقوة في مكان، فيكون الظلم والديكتاتورية كما نشاهداهما بأبشع صورهما في البلاد الشيوعية. . مع لزوم مراقبة الدولة لأجل إعطاء الناس ما يحتاجون من مسكن وأثاث، حتى لا يبقى فقير، ولأجل عدم إفساد الرأسمالي - كما في النظام الإسلامي - .

بل لأن الربا على إطلاقه ظلم، إذ ليس كل تجارة مربحة، وليس كل إعطاء للمال يستحق المعطي أن يأخذ شيئاً في مقابل الإعطاء وتوضيح ذلك أن لمال التاجر أربع صور:

(١) الكافي: ج ٧ ص ٣٤٩ .

(٢) إشارة إلى سورة البقرة: ٢٧٦ .

الأولى: أن لا تكون هناك تجارة يتمكن ماله من التقلب فيها.

الثانية: أن تكون تجارة غير مربحة إطلاقاً، أو مربحة بقدر أقل من التعب، أو بمقدار التعب.

الثالثة: أن يصرف المال في الحوائج الضرورية، لا في التجارة.

الرابعة: أن يصرف المال في تجارة مربحة ربحاً أزيد من التعب، والربا أخذ التاجر المال ممن أعطاه المال في كل الصور الأربعة، مع أنه في الثلاثة الأولى ظلم.

أما في الصورة الأولى: فلوضوح أن قول المستشكل «إن أمر صاحب المال دائر بين أن يتاجر بماله فيربح، وبين أن يدفعه قرضاً فيربح» غير تام، إذ المفروض أنه لا يمكن الاتجار بالمال في هذه الصورة.

و أما في الصورة الثانية: فإن المال ربح بقدر التعب - على أحسن الفرضين - والأحق بهذا الربح من تعب لا من لم يتعب.

و أما في الصورة الثالثة: فإن أخذ التاجر الربح خلاف الإنسانية، لأنه استغلال لحاجة الإنسان في تدميره، فالمفترض أخذ المال لأجل قوته، أو دواء مريضه، فهل يحق لصاحب المال أن يستغل هذه الحاجة في إنماء ماله؟ وتبقى الصورة الرابعة فقط مما يحق لصاحب المال أن يأخذ بعض الربح «أخذاً لأجل وجود المخزون المالي الذي هو لأجل المجتمع أيضاً - كما تقدم -» وحل الإسلام له بالمضاربة التي هي أقرب إلى العدالة بالنسبة إلى التاجر والمضارب، أفضل من الربا الذي قد يكون الترجيح فيه لصاحب المال، وقد يكون الترجيح للعامل وكلاهما اعتباطاً لا يقره العقل والمنطق.

و يرد على إشكال حرمة المكس، أن غاية ما يقال لتبرير المكس أمران:

الأول: إنه إذا رفع المكس أضر ذلك بالاقتصاد، إذ الدولة تجني من وراء المكس مقادير كبيرة من المال تساعد في إدارة شؤون الدولة.

الثاني: إنه إذا رفع المكس لزم تحطيم الاقتصاد الوطني، لأن البضائع الأجنبية ترد في البلاد بما يوجب تحطيم الاقتصاد، ولا يخفى أن هذين الأمرين وإن تمّا في الجملة، إلا أن الحرمة الذاتية للمكس لا ترتفع بهما، بل اللازم للدولة الإسلامية أن تلاحظ الأهمية وتأخذ بالأهم في البين، فكل من المكس وتحطيم الاقتصاد «المذكور في الأمرين» حرام، فإذا دار الأمر بين الحرامين يجب الأخذ بأقلهما حرمة من باب قاعدة الأهم والمهم.

و منه يعلم أن حرمة المكس ليست مطلقة حتى يستشكل على الإسلام بأنه حرم المكس، وأن الحرمة لا تلائم الدول الحديثة.

ويرد على إشكال الحريات الكثيرة، أن توهم أن الإسلام يعطي حريات تضر بالإجتماع باطل، وجه التوهم أن الإسلام يعطي حرية البناء وحرية الحركة، وحرية السكنى، وحرية التجارة، إلى غير ذلك، وبذلك يختل النظام، فكل أحد يبني ما يضر الطريق، وكل أحد يترك بدون ملاحظة قوانين المرور، ولمليون مسلم مثلاً، أن يأتوا للسكنى في بلد بحيث يضيق بهم هذا البلد، وللتاجر أن يصدر كل بضائعه بحيث يقع أهل البلد في ضيق، إلى غير ذلك.

و الجواب: أن الإسلام إنما يعترف بالحرية المسؤولة «أي غير الضارة» لا الحرية غير المسؤولة، فليس لأحد أن يستفيد من الحرية الضارة بالآخرين، ويجب على كل مسلم احترام قوانين الدولة الإسلامية الموضوعة تحت نظر المجتهد الجامع للشرائط وإن أضررت القوانين بمصالحه الخاصة، فإذا رأت الدولة أن استيراد هذه البضاعة مثلاً تضر بالاقتصاد الإسلامي فمنعت عن ذلك ليس لأحد أن يستورد هذه البضاعة، إلى غير ذلك.

لا يقال: فأى فرق بين مثل قوانين أمريكا، وبين قوانين الدولة الإسلامية، إذ كل منهما توضع حسب المصلحة؟

لأنه يقال: الفرق أن قوانين الدولة الإسلامية توضع في الإطار الإسلامي، بخلاف قوانين مثل أمريكا، فالفرق بينهما كالفرق بين قوانين أمريكا، حيث توضع في الإطار الرأسمالي وقوانين روسيا، حيث توضع في الإطار الشيوعي، مع أن كلتا الدولتين تدعي أنها تلاحظ مصالح بلادها.

و يرد على إشكال الأحكام الخاصة بالمرأة أن المنطق والبرهان دلاً على صحة تلك الأحكام الخاصة، بحيث إنها لو تساوت مع الرجل في الأحكام كان خباله مثل تساويها معه في خصوصيات الجسم، فكما أنه لو كان كل البشر رجلاً كان ذلك من أبشع الفساد، كذلك لو كان كل البشر متساوين في كل الحقوق والواجبات كان ذلك من أبشع الفساد، وقد فصلنا بعض أسباب الاختلاف بينهما في جملة من الأحكام في كتاب «في ظل الإسلام»^(١) وفي «الفقه: الحكم في الإسلام»^(٢) وغيرهما.

و يرد على إشكال القصاص، أنه حكم إنساني رادع كما تقدم، والإنسانية والردع لا توجدان في الغرامة والسجن، مع أن الإسلام جعل اختيار العفو وأخذ الغرامة بيد المجني عليه، رخص القصاص، بما إذا كان الجاني عامداً - كما هو واضح - .

أليس من الحق أن جانباً عامداً إذا قطع يد إنسان كان جزاءه أن تقطع يده، فيما إذا أراد المجني عليه ذلك؟ وإذا لم يكن هذا من الحق، لنا أن نسأل الفرق بين المال والنفس، فإذا أخذ السارق منك ديناراً كان لك أن

(١) للمؤلف.

(٢) راجع موسوعة الفقه المجلد ٩٩ .

تأخذ منه ديناراً، وإن قيل فلماذا لا يقتص في العرض؟ فإذا زنى زان بزوجة زيد كان لزيد أن يزني بزوجة الزاني، قلنا الفرق واضح، إذ يكون ذلك اعتداء على بريء هو زوجة الجاني بخلاف القصاص، فإنه رد اعتداء على نفس المعتدي، هذا كله بالنسبة إلى الجهة الأولى.

أما الجهة الثانية فالقول بأن الإسلام ليس فيه اقتصاد وسياسة وأمن، كلام بلا دليل، فالاقتصاد الإسلامي ليس فيه مضار الاقتصاديات الثلاثة الرأسمالية والشيوعية بفرعيها الاشتراكية والفوضوية «التي تدعي أن لكل نتاجه، ومن كل عمله» بينما فيه الاقتصاد المعتدل الذي يعطي كل ذي حق حقه، كما أن السياسة في الإسلام أفضل سياسة، حيث تجمع بين حكم الله سبحانه والشورى في انتخاب الحاكم، والأمن موجود في الإسلام لا للكبت بل لجمع المعلومات وإرصاد المخربين وإيقاف المفسدين عند حدهم، وقد ذكرنا طرفاً من هذه المسائل الثلاثة «الاقتصاد والسياسة والأمن» في كتاب «الفقه: الحكم في الإسلام» ولذا فلا نعيد التفاصيل.

وحيث أن القرآن مصدر لكل هذه الأحكام، حيث بين فيها الخطوط العريضة للحياة السعيدة، فالقرآن هو الكتاب الوحيد الصالح لتطبيقه في العصر، وكل كتاب وقانون غير القرآن ليس له هذه الصلاحية، والظاهر أن العالم أخذ أخذاً حثيثاً نحو السير إلى القرآن وأحكامه، لأنه الكتاب الوحيد الصالح للتطبيق بعد أن ظهر فشل ما عدها في تأمين الحياة السعيدة، فهو مثل الكهرباء بالنسبة إلى النفطيات، حيث إنها تعطي مكانها للكهرباء - تلقائياً - طال الزمان أو قصر، ولذا قال سبحانه ﴿لِيُظْهِرُوا عَلَى الَّذِينَ كُفَرُوا﴾^(١).

تطبيق الفكر والعمل على القرآن

يجب تطبيق الفكر والعمل على القرآن، وذلك ببيان مقدمات:

الأولى: إن الله سبحانه خلق الكون الواسع بما فيه الدنيا والآخرة والحياة وغير الحياة على كيفية خاصة من الحقائق والأبعاد والحدود والمزايا والخصوصيات وهذا واضح لا يحتاج إلى الدليل.

الثانية: إنَّ القرآن هو الكتاب الوحيد الذي بقي مما أنزله الله سبحانه في أيدي البشر، أما سائر الكتب المنزلة فقد حرفت وبدلت، كما قال سبحانه: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾^(١) و﴿فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾^(٢) بل قامت الضرورة منا على عدم تمامية الكتب الباقية، كالتوراة والإنجيل، بالإضافة إلى فقدان بعض الكتب المنزلة من أساسها بحيث لم يبق منها عين ولا أثر، بالإضافة إلى أنه لم يعلم أن سائر الكتب المنزلة كانت لأجل الهداية الكاملة المستوعبة للفكر والعمل بصورة مطلقة.

الثالثة: إنَّ القرآن نزل بقصد توجيه الفكر وتوجيه العمل، والمراد بالعمل أعمال الجوارح كلها بما فيها اللسان، وقد دلت الأحاديث المتواترة على أن الهداية خاصة بالقرآن - أن من طلب الهداية في غير القرآن أضله الله - أي كان ضالاً والنسبة إلى الله سبحانه باعتبار أن الآلة منه سبحانه، ولذا نسب

(١) المائدة: ١٤ .

(٢) المائدة: ١٥ .

كل شيء إلى نفسه .

قال سبحانه : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾^(١) .

و قال : ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٢) .

و قال : ﴿أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾^(٣) .

و قال : ﴿كُلُّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾^(٤) .

وقال : ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٥) على فرض أن يراد به كل عمل الإنسان حتى المعصية باعتبار أن الآلة منه سبحانه - وإنما كان يضل من طلب الهداية في غير القرآن ، لأنه لا هداية فيما عداه ، مثل أن يكون الطريق إلى البلد الفلاني خاصاً بطريق واحد فيقال : أن من سلك غير هذا الطريق ضل ، فإن وجهه أنه لا طريق غيره .

الرابعة : أن ظرفية البشر في عالم الدنيا ليست أكثر من القرآن ، فإنه وإن احتمل أن يكون الكون - بمعناه العام - أكبر من المقدار المذكور في القرآن ، إلا أن المقدار الذي يستوعبه الإنسان من الكون - استيعاباً في فكره وفي عمله - ليس أكثر مما أرشد إليه في القرآن ، مثلاً إذا كانت صحراء بمقدار مائة فرسخ ، لكن زيداً لا يتمكن من عمران أكثر من عشرين فرسخاً منها ، كان مقتضى الحكمة أن يكون المنهاج الذي يضعه مربى زيد بقدر تعمير عشرين فرسخاً فقط ، إذ الزائد لغو لا يصدر من الحكيم ، ويؤيد أوسعية الكون عن مقدار ظرفية الإنسان قوله ﷺ : « ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » إلا أن يقال أن هذا لا يدل على أوسعية الكون عن القرآن ، لأن

(٤) النساء : ٧٩ .

(٥) الصفات : ٩٧ .

(١) الأنفال : ١٨ .

(٢) الرعد : ٢٨ .

(٣) الواقعة : ٦٥ .

للقرآن بطوناً، ولأنه لا تغنى غرائبه كما في الحديث، فلعله سبحانه جعله يتدرج في الظهور كما جعل حقائق كونه، في الدنيا وفي الآخرة تتدرج في الظهور.

و كيف كان فيدل على المقدمة الرابعة عدم وجود الهداية في ما عدا القرآن كما نص بذلك متواتر الروايات، فلو كان البشر أوسع للزم وجود الهداية في ما عدا القرآن الأزيد من القرآن لا بد وأن يكون له طريق مستقيم وطريق غير مستقيم، ومعرفة البشر الطريق المستقيم في المقدار الأزيد هداية، والمفروض أنه لا هداية في ما سوى القرآن.

إذا تحققت هذه المقدمات الأربع قلنا: ثبت أن فكر البشر في أحوال المبدأ والمعاد والمعاش بكل أصنافه من عبادة ومعاملة بأقسام المعاملات، وأخلاق وغيرها لا يعدو القرآن كما ثبت أن أعماله بكل أنواعها لا تعدو القرآن، فاللازم تطبيق فكره وعمله في إطار القرآن إذ القرآن مرماة للكون والبشر مأمور بفهم هذا الكون والعمل على طبق ذلك الفهم، فمثلاً إذا فرضنا أن المريض كان مأموراً بشفاء نفسه ووصف المرض ووصف الدواء كان مكتوباً بكتاب، وقال الأمر: أفهم داءك ودوائك وأعمل لشفائك، كان اللازم على المريض أن يفهم الكتاب والآ يبقى مريضاً.

و عليه فإذا أفرغ البشر فكره وعمله في إطار القرآن هدى، وإلا ضل عن سواء السبيل، وللتوضيح نقول: حقيقة المبدأ وحقيقة المعاد وحقيقة المخلوقات، أي خلق السماوات والأرض والجبال والرعد والبرق والجنة والنار والموت والحياة وغيرها، شيء ثابت مسلم سواء فهمها البشر أم لا.

كما أن سعادة البشر في الصلاة والصيام والزكاة والبيع والنكاح والحرية والحدود والقصاص وغيرها، والواقع في باب الفهم وأسلوب العمل المسعد في باب العمل في القرآن الحكيم، فإن صب البشر فكره في

قالب فهم القرآن أدرك الحقائق وإن صب البشر عمله في قالب العمل الذي أرشد إليه القرآن سعد، وإلا أخطأ في فكره وشقى في عمله مثلاً قال القرآن: الإله واحد، وقال: أقيموا الصلاة، فإن لم يصب البشر فكره وعمله في هذين، لقال بأن الإله اثنان، ولم يصل، والأول يوجب انحراف فهمه عن الواقع، والثاني يوجب شقائه حتى في الدنيا، لأنه كما قال سبحانه: ﴿أَلَا يَنْذِرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(١) وقال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(٢).

ثم أن هنا ثلاثة أمور:

الأول: إن للقرآن ظهراً وبطناً، ولبطنه بطن وهكذا، وإذا لاحظنا ذلك في التكوينات التي خلقها الله سبحانه ظهر نوع شبه لفهم المقصود بذلك، فمثلاً التفاح له ظهر هو قشره، وبطن هو لبه، ولبطنه بطن هو نواته، ولنواته بطن هو مخه، وهكذا الإنسان له ظهر هو جلده المرئي منه، وله بطن هو لحمه، ولبطنه بطن هو القلب والكبد والكلية، وكل بطن بمنزلة مخ النواة، وفي القرآن مثلاً قال سبحانه: ﴿وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَكُنُودَهُمَا مِنْهُمَا مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾^(٣) فظهره هؤلاء الثلاثة في قبال موسى عليه السلام، وبطنه أمثالهم في قبال محمد ﷺ ثم أمثالهم في قبال علي عليه السلام وهكذا، ويؤيد هذا المعنى ما ورد من أن القرآن كالشمس تجري كل يوم، فله إنطباق في كل زمان على أفراد وأعمال وحالات.

ثم أن من الطبيعي أن يكون القرآن كذلك، لأنه كتاب اللفظ في قبال كتاب الكون، فاللازم انطباق هذا الكتاب على ذلك الكتاب، وإلا لم يكن كامل الإنطباق.

(١) الرعد: ٢٩.

(٢) طه: ١٥.

(٣) القصص: ٧.

الثاني: ورد بالنسبة إلى بعض أساميهِ سبحانه أنه لا يعلم ظاهرها ولا باطنها ولا تفسيرها ولا تأويلها إلا الله سبحانه، كما في دعاء السمات، وقد يظهر من بعض الروايات أن القرآن كذلك كما ذكر في قصة بلوهر مع يوذاسف.

وهنا سؤالان:

السؤال الأول: أنه ما معنى ذلك؟

و الجواب: أن فهم كل ظواهر الأشياء وبواطنها كذلك، فإن البشر لا يعلم إلا بعض السطحيات، مثلاً ما هي حقيقة اللحم والدم؟ وما هي حقيقة الماء والكهرباء؟ وإلى غير ذلك، فإذا رأى الإنسان سيارة لا يعلم ما هي؟ فإنه لا يعلم هل هي حديد أو نحاس «ظاهرها» ولا يعلم ماذا في ماكنتها «باطنها» ولا يعلم ما نفعها «تفسيرها» ولا يعلم إلى أي شيء يكون أولها «تأويلها» وكذلك القرآن لا يعرف المراد الكامل من ظاهره ولا من باطنه، كما لا يعرف الفائدة الكاملة منه حالاً ولا أول القرآن للمستمسك به والتارك له.

السؤال الثاني: إذا كان لا يعلم ظاهرها ولا باطنها ولا تفسيرها ولا تأويلها فما فائدة ذلك؟

و الجواب: الإشارة والتلميح وإن كانت الحقيقة مخفية، مثلاً أنك إذا سمعت من إنسان ما لاقاه من الأحوال في حرب ضروس، وأراك بعض التصاوير التي التقطها من تلك الحرب، فإن الكلام والصورة لا شك يلمحان إلى حقيقة، لكن هل تدرك بذلك هول تلك الحرب وانفعالات أولئك المحاربين؟ إن نسبة ما نفهم من القرآن إلى حقيقته، كنسبة الصور والكلام إلى حقيقة تلك الحرب، وللحرب «ظاهر» هي المعركة و«باطن» هي الاستعمار الذي يريد التسلط مثلاً، و«تفسير» هو ما تنتجه الحرب الآن من

غلاء الأسعار وانسداد الطرق و«تأويل» هو ما يترتب من الأثر على هذه الحرب من سقوط امبراطورية ودخول امبراطورية أخرى إلى الحياة.

الثالث: قد ورد في باب القرآن أنه لا تنقضي غرائبه والمراد بذلك، إما بعض حقائقه التي لا نعلم بها، أو أن الطريق الذي أرشد القرآن البشر إليه طريق لا تنقضي غرائبه، مثلاً أرشد القرآن البشر إلى السير في الأرض والنظر والعبرة وهكذا يؤدي دائماً إلى اطلاع البشر على معلومات جديدة غريبة واكتشافات حديثة مذهشة، والله سبحانه العالم.

فلسفة كاملة عن الحياة

حيث أن القرآن الحكيم فلسفة كاملة للحياة ولا فلسفة كاملة غيره، لا بد وأن يسيطر على الحياة، إن عاجلاً أو آجلاً، فإنه إنما يسيطر إذا عرف البشر هذين الأمرين:

إنه فلسفة كاملة ولا فلسفة كاملة غيره:

إذ البشر بحاجة إلى فلسفة كاملة ليسعد، والسعادة هي الغاية المتوخاة لكل بشر، وليس وراءها مقصد، فإن الذاتي لا يعلل بغيره.

أما أن القرآن فلسفة كاملة، فلأنه يعطي شؤون الروح، ويعطي متطلبات الجسد ويستند إلى ما لا يتغير، وهذه العناصر الثلاثة هي التي تشكل السعادة الكاملة لأن الإنسان روح وجسد، ولكل واحد منهما متطلبات، ثم إذا كان متطلباتهما غير مستندة إلى قوة أزلية لا تتغير، كانت محلاً للتغير، مما يسلب الثقة، وسلب الثقة ينتهي إلى الشقاء، فهو مثل أن تراجع طبيياً لا تثق به أو تركب طائرة أو سفينة لا تثق بهما حيث أن في الكل احتمال العطب الذي يوجب الشقاء النفسي وشقاء النفس كسعادتها، تسريان إلى الجسد للتفاعل بين الروح والجسد، ولذا كان القلق يوجب قرحة المعدة، وأمراضاً أخرى، ولذا كان أيضاً المرض الجسدي يوجب اضطراب العقل، ومنه قيل: «العقل السليم في الجسم السليم».

وعلى هذا فإذا لم تكن المتطلبات مستندة إلى قوة أزلية توجب الثبات والاستقرار، كان الإنسان يعيش في ألم وعذاب، وحيث أن من طبيعة

الإنسان الفرار من الألم كان لا بد له أن يتطلب فلسفة صحيحة ليدفع بها ألمه، وينتهي به المطاف إلى فلسفة القرآن، التي هي الفلسفة الصحيحة للكون والحياة، بكلا شقي الحياة: الروح والجسد، بالإضافة إلى أنها مستندة إلى الله سبحانه، الذي لم يزل ولا يزال ولا تتبدل قوانينه ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾^(١).

إذا ثبت هذا قلنا: أمهات الفلسفات الموجودة في عالم اليوم خمسة:

١- فلسفة الإسلام، ٢- فلسفة اليهود، ٣- فلسفة النصارى، ٤- فلسفة الرأسمالية، ٥ - فلسفة الشيوعية، وما عدا الإسلام من سائر الفلسفات ليست صالحة للحياة، فلا تبقى إلا فلسفة الإسلام، التي ينتهي البشر في آخر المطاف إليها.

ولذا قال سبحانه: ﴿يُظْهِرُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾^(٢) فهو بالإضافة إلى كونه غيبياً، يؤيده المنطق والبرهان.

أما عدم تمكن الفلسفة اليهودية والنصرانية من الصمود أمام الحياة، فلوضوح أنهما مشوبتان بأبشع أنواع الخرافة، والعقل إن سبت ساعة لا يسبت إلى قيام الساعة، ولذا بمجرد أن ترجم كتابيهما بعض المترجمين، وعرف الغرب والشرق ما يحتويان من الخرافة لفظوهما، بالإضافة إلى أنهما كانا مصادر لمحاكم التفتيش وما أشبهها، مما اصطدم بالعلم حين نهوض العلم، فانسحبا عن الميدان بعد مجازر بشرية رهيبة - هذا أولاً - بالإضافة إلى أن اليهودية والنصرانية لا تشتملان على قوانين الإنسان في معاملاته وأحواله الشخصية وسائر شؤونونه، بل منطقهما: «دعوا ما لقيصر لقيصر، وما

(١) فاطر: ٤٤ .

(٢) التوبة: ٣٣ .

لله الذي يعيش تحت مظلتهم، لا بد له من وضع قوانين لحياته، وحيث أنها ليست مستندة إلى قوة أزلية لا تصلح للإسعاد «كما تقدم بيان ذلك»، وهذا ثانياً.

وقد ظهرت آثار انهزام اليهودية والنصرانية في هذا القرن بما لا يرجى في بقائهما وإن حققتا بآثار الحضارة الحديثة، فالخشبة اليابسة لا تحيي، وإن سقيت بألف كر من الماء.

وأما عدم تمكن فلسفة الشيوعية والرأسمالية من الصمود أمام الحياة، فلأنهما أولاً: ناقصتان من حيث عدم وفائهما بجانب الروح، وإنما تتعرضان لجانب الجسد فقط، ولذا كان الغرب القائل بالروح اضطر إلى التثبت باليهودية والمسيحية لأجل إملاء الروح، ولكنهما لم ينفعاه أيضاً، لخواء ما فيهما من الروحيات، وأسوأ الاثنين هي الشيوعية التي لا تعترف بالروح أصلاً.

وثانياً: لا يستمدان قوانينهما الجسدية من قوة أزلية، وقد عرفت أن القانون المستمد من الإنسان ونحو الإنسان، مترجرج، ولا ينفع استقرار الإنسان وثقته.

أما أمثال القومية، والبعثية، والوجودية، والديمقراطية والاشتراكية، ونحوها، فهي ليست فلسفات أصلاً، وإنما هي فكر منحرفة لبقعة صغيرة من بقع الحياة، فالقومية معناها جمع القوم، والبعثية معناها بعث القوم، والوجودية إفراط في الفردية مقابل إفراط الماركسية في الدولة، والديمقراطية حكم الشعب، والاشتراكية توزيع قسم من الثروة، ومن الواضح أن أيّاً منها ليست فلسفة للحياة، هذا مع الغض مما سبب جملة منها من المآسي للإنسان، إذ... لم يبق في الميدان إلا القرآن، ففي أي وقت اجتهد حملته في إيصاله إلى العالم، استقبله العالم بكل ترحاب، كما استقبله العالم بكل حفاوة إبان ظهوره.



سورة الفاتحة

مكية - مدنية / آياتها (٧)

سميت السورة باسم «الفاتحة» لافتتاح المصاحف بكتابتها ولقراءتها في الصلاة فهي فاتحة لما يتلوها من السور وتسمى بـ «الحمد» ومن أسمائها «سبع المثاني» و«الواقية» و«الكافية» وذكروا لها أسماء أخرى وهي مكية وقيل إنها مدنية ولعلها نزلت مرة في مكة ومرة في المدينة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[١] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ أي استعين بالله، وإنما لم يقل «بالله» تعظيماً، فكأن الاستعانة بالإسم، والله علم له سبحانه، والرحمن والرحيم صفتان تدلان على كونه تعالى عين الرحمة، فلا يرهب جانبه، كما يرهب جانب الطغاة والسفاكين، وتكرير الصفة للتأكيد.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٣﴾
 مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ
 نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

[٢] ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ فإنه هو الذي يستحق الحمد، لأن كل جميل منه، وكل خير من عنده، وهو رب العالمين، الذي أوجدهم ورباهم. والتربية تطلق على الإنشاء والاستمرار، والعالمين إشارة إلى عوالم الكون، من جن وملك، وإنسان وحيوان، ونبات وجماد، وروح وجسد، وغيرها.

[٣] ﴿الرحمن الرحيم﴾ تكرار للتأكيد، لإفادة أن الرب ليس طاغياً، كما هو الشأن في غالب الأرباب البشرية.

[٤] ﴿مالك يوم الدين﴾ الدين هو الجزاء، فيوم الدين: «القيامة»، والله مالك ذلك اليوم، لا يشرك فيه أحد (وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى) ^(١).

[٥] ﴿إياك نعبد﴾ أي عبادتنا وخضوعنا لك، وقدم «إياك» لإفاده الحصر. ﴿وإياك نستعين﴾ أي نطلب الإعانة، فإنه هو الذي بيده كل شيء، فالاستعانة منه، والإتيان بالتكلم مع الغير، لإفادة كون المسلمين كلهم منخرطين في هذين السلكين: سلك العبادة لله، وسلك الاستعانة به.

[٦] ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ غير المنحرف، والهداية هو إرشاد الطريق،

صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

=====

فإن الإنسان في كل آن يحتاج إلى من يرشده ويهديه، وإن كان مهدياً،
وحيث لم يذكر متعلق الصراط المستقيم، دلّ على العموم، فالمسلم
يطلب منه سبحانه أن يهديه الصراط المستقيم، في العقيدة، والعمل،
والقول، والرأي، وغيرها.

[٧] ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ إنه تفسير لـ: «الصراط المستقيم» أي إن
الصراط المستقيم هو صراط الذين أنعمت عليهم، بهدائيتهم من النبيين
والأئمة عليهم السلام والصالحين ﴿غير المغضوب عليهم﴾ فإن من أنعم الله
عليه بالهداية، لا يكون مغضوباً عليه ﴿ولا الضالين﴾ أي الضال
المنحرف عن الطريق، والضال يمكن أن يكون مغضوباً عليه إذا كان
عن تقصير، ويمكن أن يكون غير مغضوب عليه إذا كان عن قصور،
والمسلم يطلب من الله تعالى أن لا يكون من هؤلاء ولا هؤلاء.



سورة البقرة

مدنية / آياتها (٢٨٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سميت السورة باسم «البقرة» لاشتمالها على قصة البقرة وهي مدنية .

[١] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ابتدأت السورة باسم الله تعالى، لتكرر الإستعانة به، وليتعلم المسلم كي يبتدئ جميع أعماله بهذا الاسم المبارك، وليتركز هذا الاسم الكريم في الأذهان، فإن للتكرار أثراً بالغاً.

أَلَمْ يَكُنْ لَكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾
 الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا
 رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ
 إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ

=====

[٢] ﴿أَلَمْ﴾ أي من جنس هذه الحروف المقطعة: «أ»، «ل»، «م».

[٣] ﴿ذلك الكتاب﴾ والإشارة بالبعيد، للإشارة إلى كون القرآن سامي المقام، عالي المنزلة ﴿لا ريب فيه﴾ أي ليس محلاً للريب، وإن ارتاب فيه الكفار، كما أن النهار لا ريب فيه، وإن ارتاب فيه السوفسطائيون، و«لا ريب فيه» صفة للكتاب ﴿هدى للمتقين﴾ صفة بعد صفة، أي أن هذا القرآن هداية لمن اتقى، وخاف من التردّي، فإنه هو الذي يهتدي بالقرآن، وإن كان القرآن صالحاً، لأن يهدي الكل.

[٤] ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ صفة للمتقين، والمراد بالإيمان الاعتقاد به، والغيب هو الذي غاب عن الحواس الظاهرة، أي ما وراء الطبيعة، فالروح غيب، وأحوال القبر غيب، والله سبحانه غيب، وهكذا ﴿و يقيمون الصلاة﴾ إقامة الصلاة، الإتيان بها دائماً على الوجه المأمور بها، ولذا تدل على معنى أرفع، من معنى «صل» ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ والرزق أعم من المأكول، والملبوس، والمسكون، والعلم والصحة، وغيرها، وإنفاق كل شيء بحسبه.

[٥] ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك﴾ من الوحي والقرآن ﴿وما أنزل من

قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٥﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

=====

قبلك ﴿٥﴾ فإن من شرائط الإيمان، الإيمان بكل الأنبياء ﷺ (لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ) ^(١) ﴿٦﴾ وبالآخرة هم يوقنون ﴿٥﴾ واليقين بالآخرة هو الاعتقاد بها، والعمل بمقتضاها، وبعض هذه الأمور، وإن كانت داخلية في «الإيمان بالغيب»، لكنها ذكرت لزيادة الاهتمام بها، وذكر الخاص بعد العام.

[٦] ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي على بصيرة، وهذه البصيرة أتت إليهم من ناحية الله سبحانه ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الناجحون، فهم في الدنيا على بصيرة، وفي الآخرة في زمرة الناجين، ثم أن القرآن لما ذكر المؤمنين، ثنّاهم بذكر الكافرين، ثم ثلّثهم بذكر المنافقين، فإن كل دعوة، لا بد وأن ينقسم الناس أمامها إلى ثلاثة أقسام: مؤمن بها وكافر بها، ومذبذب بين ذلك يجامل الطرفين.

[٧] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والكفر هو الستر، كأن الكافر يستر الحقيقة، ولا يبيدها ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ والمراد بـ «الذين كفروا» هنا هم المعاندون منهم، لأنهم المصدق الأجلي للكافر، وإلا فالذين آمنوا بالرسول ﷺ من الناس كانوا كفاراً ثم

خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً
وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٨﴾

آمنوا، ومن المعلوم أن المعاند يتساوى في حقه الإنذار وعدمه، نعم
يجب إنذاره إتماماً للحجة، وهذا تسليّة للنبي ﷺ، حتى لا تذهب
نفسه عليهم حسرات.

[٨] ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ طبعها بالكفر، أي جعلها بحيث يصعب
إيمانها، لأنها اعتادت الكفر، وعدم الاستماع إلى الحق، وإنما ختم
الله، لأنها لم تقبل الهداية، كمن يطرد ولده عن داره بعد ما أرشده
مرات، فلم يفد فيه النصح، كما قال تعالى (طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا
بِكُفْرِهِمْ)^(١) أي بسبب كفرهم، وإنما فسرنا «الختم» بـ «يصعب»
لبداهة أن الإنسان ولو كان معانداً، لا يخرج عن قابلية القبول
والإهداء ﴿وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ بمعنى إنهم لا يستفيدون من السمع،
كالأصم، لأن في سمعهم خلل ﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً﴾ تشبيه
للغشاوة المعنوية بالغشاوة الظاهرية، فكما أن من على بصره غشاوة،
لا يرى المحسوسات، كذلك من يعاند يكون على بصره مثل
الغشاوة، وهو تنزيل لفاقد الوصف منزلة فاقد الأصل، كما تقول لمن
لا ينتفع بالعلم، هو جدار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة،
فإن من ينحرف عن قوانين الله تعالى، يكون (لَهُ مَعِيشَةٌ ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَغْمًى)^(٢).

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتِيَوْمَ الْآخِرِ وَمَا هُمْ
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٩﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ
إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ
اللَّهُ مَرَضًا

=====

[٩] ﴿ومن الناس﴾ المنافقون، وهم القسم الثالث، فهو ﴿من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر﴾ قولاً باللفظ فقط ﴿وما هم بمؤمنين﴾ حقيقة، فلا يعملون أعمال المؤمنين، وإن كانت قلوبهم أيضاً متيقنة بحقائق الإيمان.

[١٠] ﴿يخادعون الله﴾ أي يفعلون مع الله تعالى، فعل المخادع، الذي يريد الخديعة، فيظهر ما لا يريده، ويريد ما لا يظهره ﴿والذين آمنوا﴾ فيرونهم خلاف ما يضمرونه، لكن عملهم هذا ليس خدعة حقيقية لله وللمؤمنين، فإنهما يعلمان نواياهم، فلا ينخدعان بهم، بل ﴿وما يخدعون إلا أنفسهم﴾ إذ يجري عليهم أحكام المؤمنين ظاهراً، ولا يشتركون معهم في أسرارهم، كما لا يشتركون معهم في آخرتهم، فهم مخدوعون من حيث ظنوا أنهم خادعين ﴿وما يشعرون﴾ بأنهم خدعوا أنفسهم، لا أنهم خدعوا الله والمؤمنين، إذ لو شعروا بأنهم يخدعون أنفسهم، لم يقدموا على ما ظنوه خدعة لغيرهم، والحال أنها خدعة لهم حقيقة وواقعاً.

[١١] ﴿في قلوبهم مرض﴾ فإن قلب المنافق ملئ، ونفسه معوجة، لا تريد الاستقامة ﴿فزادهم الله مرضاً﴾ إذ نزول الآيات، ونصب الرسول،

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١٣﴾ أَلَا
إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ

=====

أوجب أن يزيدوا في التوائهم، لئلا يسلط النور عليهم، فيعرفوا
﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي مؤلم ﴿بما كانوا يكذبون﴾ أي بسبب
كذبهم، بمخالفة ظاهرهم لباطنهم، فإنه نوع من الكذب، وإن كان
كلامهم مطابقاً للواقع، لكنهم حيث أخبروا عن إيمانهم - ولم يكونوا
مؤمنين - كان ذلك كذباً.

[١٢] ﴿وإذا قيل لهم﴾ أي للمنافقين ﴿لا تفسدوا في الأرض﴾ فإن النفاق
يلازم الإفساد، إذ يعمل المنافق ضد الدعوة، ويؤلب عليها، وهو
إفساد حينما تريد الدعوة الإصلاح والتقدم ﴿قالوا إنما نحن
مصلحون﴾ فإنهم يظنون أن الدعوة إفساد، وأنهم بوقوفهم ضدها
يصلحون في الأرض.

[١٣] ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ لأنهم بوقوفهم النفاقي ضد الإسلام،
يكونون مفسدين إفساداً بالغاً أكثر من إفساد الكفار، ولذا قال تعالى في
آية أخرى (هُمُ الْعَدُوُّ) ^(١) على نحو الحصر ﴿و لكن لا يشعرون﴾
بذلك، بل يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

[١٤] ﴿وإذا قيل لهم﴾ أي للمنافقين، والقاتل هم جماعة من المؤمنين

ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا
 إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ
 ءَامِنُوا قَالُوا ءَامِنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ
 إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٥﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ

الذين لا يخافونهم ﴿آمنوا كما آمن الناس﴾ إيماناً لا يشوبه نفاق
 ﴿قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء﴾ يعنون بالسفهاء المؤمنين الحقيقيين
 ﴿ألا إنهم هم السفهاء﴾ وأية سفاهة أعظم من كون الإنسان حائد عن
 طريق الحق مع كونه متصفاً بصفة النفاق الرذيلة ﴿ولكن لا
 يعلمون﴾ إنهم هم السفهاء، لأنهم يظنون أن طريقتهم النفاقية،
 أصلح الطرق.

[١٥] ﴿وإذا لقوا﴾ من «لقى» أي التقى المنافقون بـ ﴿الذين آمنوا قالوا﴾ لهم
 ﴿آمننا وإذا خلوا إلى شياطينهم﴾ أي أشباههم من المنافقين ﴿قالوا﴾
 لهم ﴿إننا معكم﴾ يريدون بذلك إرضاء الجانبين ﴿إنما نحن
 مستهزءون﴾ بالمؤمنين، في إظهار الإيمان لهم، وهذا هو دليل
 نفاقهم، وإلا لو كان الأمر بالعكس، بأن أظهروا الكفر تقية لم يزيّدوا
 على إظهاره.

[١٦] ﴿الله يستهزئ بهم﴾ أي يفعل لهم فعل المستهزئ، فيجري عليهم في
 الدنيا أحكام الإيمان، وفي الآخرة يجازيهم جزاء الكفار، وفي بعض
 الأحاديث إنه يستهزئ بهم في الآخرة في النار ﴿ويمدهم﴾ إمداد الله
 سبحانه وتعالى، بعدم الضرب على أيديهم كما يقال: الملك يمد

فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ
 بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبَحَتِ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٧﴾
 مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ
 ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ

=====

قطاع الطريق حيث لا يستأصلهم ﴿في طغيانهم يعمهون﴾ الطغيان تجاوز الحد، والعمه التحير، فإن المنافق، كالشخص المتحير، وإنما يمدهم الله سبحانه، لأن الدنيا دار اختبار وامتحان، فلا جبر ولا إلقاء.

[١٧] ﴿أولئك﴾ المنافقون ﴿الذين اشتروا الضلالة بالهدى﴾ فكأنهم أعطوا الهداية، وأخذوا مكانها الضلالة، أو كأنهم أعطوا أنفسهم بدل الضلالة، بينما كان الذي ينبغي أن يعطوا أنفسهم بدل الهداية، كما قال الشاعر:

أنفاس عمرك أثمان الجنان فلا

تشري بها لهباً في الحشر تشتعل

﴿فما ربحت تجارتهم﴾ المعنوية، بل خسروا رأس المال الذي هو أنفسهم ﴿وما كانوا مهتدين﴾ في هذه التجارة والإشراء.

[١٨] ﴿مثلهم﴾ أي مثل هؤلاء المنافقين ﴿كمثل الذي استوقد ناراً﴾ استوقد بمعنى أوقد، أو بمعنى طلب الوقود الذي هو الحطب ونحوه، والمعنى أشعل ناراً ليستضيء ويدفأ بها ﴿فلما أضاءت﴾ النار ﴿ما حوله﴾ وانتفع بها ﴿ذهب الله بنورهم﴾ بأن أرسل ريحاً فأطفأها

وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٨﴾ ضُمُّكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا
يَرْجِعُونَ ﴿١٩﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ

﴿وتركهم في ظلمات لا يبصرون﴾ ما حولهم وإنما كان هذا مثلاً لهم، لأن المنافق بإيمانه الظاهري، يعبد لنفسه سبيل الحياة، وينور في طريقه، فإن الإيمان نور، وسبب لهداية الإنسان إلى الحق والعدل والخير، فإذا قبض الله أرواحهم تركهم، كسائر الكفار في نار وعذاب، حين يقبض الله أرواح المؤمنين، إلى نور أوسع ورحمة أكبر، فهو لاء المنافقون:

[١٩] ﴿صم﴾ جمع أصم، لأنهم لا ينتفعون بالحق، فهم والأصم سواء
﴿بكم﴾ جمع أبكم، وهو الأخرس، لأنهم لا يقولون الحق فهم
والأبكم سواء ﴿عمى﴾ جمع أعمى، لأنهم لا يبصرون الحق، فهم
والأعمى سواء ﴿فهم لا يرجعون﴾ عن غيهم وضلالهم، و«ف»،
للإشارة إلى أنهم حيث صموا وأبكموا وعموا لم يرج فيهم الخير،
فإنه (وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ)^(١).

[٢٠] ﴿أو كصيب من السماء﴾ مثال آخر لحال المنافقين، والفرق بين
المثاليين، إن المثال الأول، كان مثلاً للمنافق نفسه، وهذا المثال مثال
الحق الذي يغمر المنافق، لكنه لا ينتفع به والصيب هو المطر، فالحق
الذي يغمر هؤلاء كمطر ينزل من السماء ﴿فيه ظلمات﴾ ظلمة
السحاب وظلمة المطر، لأنه يحول بين الضياء وبين الأرض، وظلمة

وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٢١﴾ يَكَادُ الزَّبْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٢﴾

سحاب فوق سحاب ﴿وورعد وبرق﴾ من الأمور المخوفة ﴿يجعلون﴾ أي من ابتلى بهذا الصيب ﴿أصابهم في آذانهم من﴾ خشية ﴿الصواعق﴾ فإن الصاعقة إذا نزلت، قرعت الأسماع بصوتها الشديد ﴿حذر الموت﴾ فإن الصوت الشديد يوجب انخلاع القلب، فيموت الشخص، لكن هؤلاء المنافقين الذين هم كفار في الباطن لا يظنون أنهم يتمكنون الفرار من بأس الله تعالى ﴿والله محيط بالكافرين﴾ إحاطة علم وقدره.

[٢١] ﴿يكاد البرق﴾ اللماع في السحاب ﴿يخطف أبصارهم﴾ أي أبصار من ابتلى بالصيب، وخطف البصر كناية عن عماه ﴿كلما أضاء لهم﴾ بأن أبرق، ورأوا طريقهم ﴿مشوا فيه﴾ أي في البرق - بمعنى استفادتهم من نوره فيمشون ﴿وإذا أظلم عليهم﴾ بأن لم يبرق ﴿قاموا﴾ في أماكنهم - أي وقفوا - ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم﴾ بسبب صاعقة قوية فتصمهم ﴿وأبصارهم﴾ بسبب برق قوي، إذ النور إذا قوي أوجب ذهاب البصر ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فلا يمنعه أن يحتمي الإنسان بإصبعه، أو بغمض بصره عن أن يذهب بسمعه

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢٢﴾

=====

أو بصره، وهذا توضيح المثال بتطبيقه على المورد أن «الصيب» هو الحق النازل على الرسول ﷺ و«البرق» هو تقدم المسلمين، وما يسبب لهم إنارة الطريق، و«الرعد والصاعقة» إيعادات الرسل، والأهوال المكتنفة بالدعوة، والمنافقون كمن ابتلى بهذا الصيب في الصحراء، فالحق كالمطر فيه الحياة، لكن فيه ظلمات غلبة الكفار، وذهاب الأنفس والأموال والثمرات، وفيه برق ينير طريق الحياة السعيدة، وفيه رعد وصاعقة مواعيد الرسول، وفضيحة المنافقين، وهؤلاء المنافقون تكاد سرعة تقدم المسلمين، تعميهم، فإن العين إذا نظرت إلى ما لا يسرها اضطربت ودمعت، كلما أضاء لهم، بأن غلبوا في الحرب، وحصلوا على الغنائم، اتبعوا الرسول، وإذا أظلم عليهم، بأن غلب عليهم الكفار، وقفوا وقاموا في مكانهم، لا يعلمون ولا يتقدمون وهم يخافون من الفضيحة، إن نزلت آية في شأن المنافقين، فيجعلون أصابعهم في آذانهم، حتى لا يسمعونها، أو يتغافلون عنها، كي لا يرى أثر الانهزام في وجوههم، فإن الإنسان المجرم إذا سمع ما يمس إجرامه ظهرت الصفرة وأثار الانهزام على وجهه، لكن الله قادر على إماتتهم، كما هو قادر على فضحهم والذهاب بسمعهم وبصرهم، فليسوا هم في راحة من نفاقهم - كما زعموا - بل هم في أشد ابتلاء ومحنة .

[٢٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾﴾ وكان السبب في الخلق ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي خلقكم للتقوى

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا
لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا
نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ

=====

والعبادة، كما قال تعالى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)^(١).

[٢٣] ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ كالفرش الذي يكون راحة للبدن وزينة وجمالاً ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ أي مبنياً، وهذا يلائم كون السماء طبقة تحطم القذائف إلى الأرض، فإن البناء ليس المراد منه أن يكون المبنى من جسم كثيف ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ والمراد من السماء هنا جهة العلو، أو المراد من تلك الناحية ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ أي بسبب الماء ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ فإذا كان الخلق وسائر النعم من الله سبحانه ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ شركاء من الأصنام أو غيرها ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنها باطلة، وأنه ليس لله شريك.

[٢٤] ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد بن عبد الله ﷺ، وتزعمون أنه ليس من الله سبحانه ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ واحدة ﴿مِثْلِهِ﴾ أي من مثل هذا المنزل، ولو كان قصر سورة نحو (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)^(٢) أو (إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ)^(٣) ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ الذين يشهدون

(٣) الكوثر: ٢ .

(١) الذاريات: ٥٧ .

(٢) الإخلاص: ٢ .

مَنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٤﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا

معكم، أن محمداً ﷺ ليس بنبي ﴿من دون الله﴾ أي كائن ما كان غير الله سبحانه، كما يقال ما دون الله مخلوق ﴿إن كنتم صادقين﴾ في ربيكم وزعمكم، أن محمداً ليس بنبي، وأن القرآن ليس منزلاً من عند الله تعالى، إذ لو لم يكن محمداً ﷺ نبياً، لكان إنساناً عادياً، فيمكن الإتيان بمثل كلامه.

[٢٥] ﴿فإن لم تفعلوا﴾ ولم تأتوا بسورة من مثل هذا القرآن ﴿و لن تفعلوا﴾ هذا إخبار بأنهم لن يفعلوا ذلك أبداً، إذ القرآن معجز، فلا يمكن الإتيان بمثله ﴿فاتقوا﴾ عاقبة تكذيبكم، لرسول الله، ولكتاب الله، التي هي ﴿النار التي وقودها﴾ أي حطبها، وما يسبب إيقادها ﴿الناس والحجارة﴾ جمع حجر ولعل المراد بها أصنامهم، كما قال تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾^(١) وتخصيص الحجارة بالذكر للتهويل، إذ الحجارة لا تفنى، فتكون النار دائمة ﴿أعدت﴾ هذه النار ﴿للكافرين﴾ هذه عاقبة من يكذب.

[٢٦] ﴿وبشر﴾ يا رسول الله ﴿الذين آمنوا﴾ بقلوبهم وألسنتهم ﴿وعملوا

الضَّالِّحَتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

الصالحات ﴿بجوارحهم﴾ أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴿الجنة باعتبار كونها بستاناً ذات أشجار ونخيل، تكون أرضها﴾ من تحتها ﴿فالأنهار جارية من تحت الجنة على أرضها﴾ كلما رزقوا ﴿أي رزق المؤمنون﴾ منها ﴿أي من الجنات﴾ من ثمرة رزقاً ﴿بأن أتى لهم بفاكهة وثمره﴾ قالوا هذا الذي رزقنا من قبل ﴿فإنهم يألفون تلك الثمار لما رأوا منها في الدنيا، وليسوا كأصحاب الجحيم الذين لا يألفون طعامهم الذي من ضريع، ولا شرابهم الذي من حميم﴾ وأتوا به ﴿أي بذلك الرزق﴾ متشابهاً ﴿يشبه بعضه بعضاً في الجودة والجدة، لا كأثمار الدنيا، بعضها ناضج، وبعضها غير ناضج، وبعضها جيد، وبعضها رديء﴾ ولهم فيها ﴿أي في الجنات﴾ أزواج مطهرة ﴿من القذارات الخلقية، كالأوساخ والدماء، والقذارات الخلقية، كالسب والشتم والحسد، ونحوها﴾ وهم فيها ﴿أي في تلك الجنات﴾ خالدون ﴿أبدلاً لا يموتون، ولا يتحولون عنها، وحيث قسم الله الناس إلى أقسام ثلاثة، مؤمن ومنافق وكافر، ومثل للمنافق، ثم أمر الناس عامة بالعبادة، ودعاهم إلى حضيرة الإيمان، وذكر لهم فوائده، واحتج على من أنكر الرسالة، أجاب عن سؤال سألته الكفار ومن إليهم تعنتاً،

إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا
فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا
الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا
يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ

وهو: أن الله لماذا يضرب المثل، كما مثل للمنافق هنا، ومثل في سور
أخرى بالعنكبوت ونحوها؟ فإن المثل أوقع في النفوس، وموجب
لتقريب المطلب إلى الأذهان.

[٢٧] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾ فإن الحياء من الأشياء
القبیحة، أو نحوها، وليس في تمثيل الله الكبير بالأشياء الصغيرة
الحقيرة، في النظر حياء، أي مثل كان، وهذا معنى قوله «ما» أي
شيئاً من الأشياء، ﴿بَعُوضَةً﴾ وهي البقرة ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ ولعل
ذكر البعوضة هنا لأنها أصغر حيوان متعارف يراه كل أحد ﴿فَأَمَّا
الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي المثل ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وأتى به
لغرض التوضيح والتبيين ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ﴾ معترضين
﴿مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ ومثلاً تمييز في معنى «بهذا المثل» ولماذا
يأتي الله بهذا المثل - غير المناسب لجلال الله - ف ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا
وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ ويوجب انقسام الناس، ومن المحتمل أن يكون
«يُضِلُّ...» جواباً عن اعتراضهم، أي أن المقصود من المثل
الإضلال والهداية، لكنه ينافي السياق، فإن المقصود بالمثل
ليس ذلك، وإنما التوضيح والتقريب ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ﴾ أي بالمثل

إِلَّا الْفَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٨﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٩﴾

﴿إِلَّا الفاسقين﴾ الذين فسقوا أي خرجوا عن طاعة ربهم ومقتضى عقولهم، ثم بين الفاسقين بإبراز سماتهم بقوله:

[٢٨] ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ الميثاق ما وقع التوثيق به، وميثاق الله هو ما أخذ عليهم في الكتب السالفة من الإيمان، أو هو ما أودع فيهم من الفطرة بعرفان الحق ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ من صلة الأرحام، أو صلة الرسول والمؤمنين ﴿ويفسدون في الأرض﴾ بالكفر والنفاق وإتيان المحرمات ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ الذين خسروا أعمارهم، فذهبت دنياهم ضنكاً وآخرتهم عذاباً وناراً.

[٢٩] ثم عاد سبحانه إلى حال الكافر، ووجه الخطاب إليه مستدلاً على بطلان كفره بقوله: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً﴾ لا روح فيكم، فإن أصل الإنسان التراب، ثم يكون نباتاً، ثم يكون حيواناً وما أشبهه، فيأكله الإنسان، فيتولد منه المني، ثم يصير إنساناً، ثم يموت ويرجع تراباً، ثم يعاد يوم القيامة إنساناً ﴿فأحياكم﴾ نباتاً أو حيواناً أو إنساناً ﴿ثم يُمِيتُكُمْ﴾ وقت موتكم ﴿ثم يحييكم﴾ يوم القيامة ﴿ثم﴾ بعد الحياة الثانية ﴿إليه ترجعون﴾ لتساقون إلى المحاكمة الكبرى، وكون

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ
إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ
وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ ﴿٣٠﴾

الرجوع إليه، مع إن الإنسان في جميع الأحوال، بدءاً وختاماً، تحت سلطة الله وقدرته وعلمه، باعتبار محاسبته تعالى للإنسان.

[٣٠] ﴿هو الذي خلق لكم﴾ لمنفعتكم ﴿ما في الأرض جميعاً﴾ فمن خلقها غيره، وكون الخلق للإنسان، لا يدل على تحليل كل شيء، بل كل شيء بحسبه، فالأسماك المحرمة، والحيوانات المفترسة لتمتع السمع والبصر، لا للأكل ونحوه وهكذا ﴿ثم استوى﴾ أي توجه بالخلق والأمر ﴿إلى السماء فسواهن سبع سماوات﴾ مدارات للنجوم السيارة، فإن السماء في اللغة بمعنى المدار- هذا إذا قلنا بالنظر الفعلي حول السماوات- ويؤيده حديث عن الإمام الرضا عليه السلام - كما في «الهيئة والإسلام»^(١) - ﴿و هو بكل شيء عليم﴾ فلا يغيب عنه شيء، فمن كفر كان الله مطلعاً عليه لا يفوته ذلك، ولا يخفى أن خلق الأرض كان أولاً، ثم خلق السماء، ثم دحو الأرض، كما قال (وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا)^(٢).

[٣١] وحيث ذكر سبحانه قصة خلق السماء والأرض، وثم البناء، توجه الحديث إلى من استخلف فيها ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ قال ربك للملائكة﴾ الذين هم مخلوقين في الملأ الأعلى لا يرون بالعين إلا لمن شاء الله

(١) للعلامة الشهرستاني.

(٢) النازعات: ٣١.

إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ
فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ
إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾

﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ يخلفني في الأمر والنهي والإرشاد، وهذا الحوار إنما كان لأجل إظهار كوامن، وبيان حقائق ﴿قالوا أتجعل فيها﴾ أي في الأرض ﴿من يفسد فيها ويسفك الدماء﴾ وهذا استفهام حقيقي، يريدون بذلك استيضاح السبب، ولعلمهم إنما علموا بذلك، لما كانوا يدرون من كدرة الأرض وثقلها الموجبة للفساد والتكدر، أو لما رأوا من فعل بني الجان سابقاً ﴿ونحن نسبح بحمده﴾ ففينا الكفاية، وليس هذا تزكية، بل كقول العبد المطيع لمولاه: إني أقوم بخدمتك فلماذا تأتي بغيري الذي لا يقوم بالواجب، ومعنى التسبيح التنزيه، وكان المراد من التسبيح بحمده، التنزيه المقترن بالحمد، مقابل التنزيه غير المقترن به، كتزويه الجوهرة الثمينة عن النقائص، لكن التنزيه فيها لا يقتصر بالحمد، إذ ليس ذلك باختيارها بخلافه تعالى المقترن أفعاله وأعماله بالإرادة ﴿ونقدس لك﴾ أي أن تقديسنا وتنزيهنا لأجلك لا يشوبه رياء وسمعة ﴿قال﴾ الله تعالى في جواب الملائكة السائلين عن السبب ﴿إني أعلم ما لا تعلمون﴾ فإن في استخلاف البشر، مصالح أهم من الفساد الواقع منهم، كما أن استخلافهم أهم من استخلافكم فإن منهم من الأخيار والصالحين من لا يلحقه الملك المقرب، بالإضافة إلى أنه خلق يظهر من عظمة الصانع نوعاً جديداً.

[٣٢] وإذا أراد الله تعالى إعلام الملائكة ببعض مزايا البشر، وإنه من جنس

عَلَّمْتَنَّا^ط إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٣﴾ قَالَ يَتَّادُمُ أَنْبِئُهُمْ
بِأَسْمَائِهِمْ^ط فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ
غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ

=====

علمتنا ﴿﴾ فليس لنا هذا العلم الذي لآدم مما هو قابل له ، ولسنا قابلين
له ﴿إنك أنت العليم الحكيم﴾ والحكيم هو الذي يفعل الأشياء عن
حكمة ، بمعنى وضع الأشياء في مواضعها اللاتقة بها .

[٣٤] ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي بأسماء ما عرضهم على الملائكة
﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ وعرفت الملائكة كون قابلية آدم فوق قابليتهم
﴿قَالَ﴾ الله تعالى لهم ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ ما غاب عن إدراككم ﴿وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ﴾ أي تظهرون ﴿وَمَا
كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ من حسد بعضكم - وهو الشيطان - لآدم ﷺ : ثم
أن مقتضى اللطف العام والرحمة الواسعة أن يخلق الله تعالى أنواع
المخلوقات الممكنة ، التي لا يمنع عن خلقها مانع ، ولذا خلق
الملائكة دون البشر ، وخلق بعض كل من الصنفين أرفع من البعض
الأخر ، فلا مجال للتساؤل ، فلماذا لم يجعل الله تعالى هذه القابلية
البشرية في الملائكة؟ وثم خلق آدم ﷺ ، وانتهى كل شيء .

[٣٥] ﴿وَأَذْكُرُ﴾ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴿﴾ إما بأن يكون هو قبلتهم
ويكون السجود لله سبحانه ، وإما أن يكون السجود لآدم ، ولا دليل
عقلي على إنه لا يجوز لغير الله تعالى ، نعم ورد الشرع بذلك بالنسبة

فَسَجِدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٥﴾
 وَقُلْنَا يَتَادُمُ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ
 شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٦﴾

إلى المسلمين ﴿فسجدوا إلا إبليس﴾ هو الشيطان ﴿أبى واستكبر﴾ أي
 امتنع وأنف ﴿وكان من الكافرين﴾ التفات، كما نقول نحن «كان أبو
 جهل كافراً» وليس حكاية، عطفاً على «أبى» حتى يستلزم كونه كافراً
 من قبل ذلك.

[٣٦] ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك﴾ حواء عليها السلام ، قال لهما ذلك،
 بعد ما خلق حواء أيضاً، خلقاً كخلق آدم ابتداءً من غير أب وأم
 ﴿الجنة﴾ الجنة هو البستان، وقد كانت لله تعالى جنة أسكنها آدم
 وحواء ﴿وكلا منها رغداً﴾ أكلاً واسعاً، بلا زحمة وتكلف ﴿حيث
 شئتما﴾ من أطراف الجنة ﴿ولا تقربا هذه الشجرة﴾ فقد نهوا عن
 شجرة واحدة، اختباراً وامتحاناً، وكانت الشجرة على قول جمع
 «الحنطة» وقد كان النهي إرشادياً، كنهى الطبيب مريضه أن لا يأكل ما
 يضره، وقد كانت فائدة عدم أكلهما لها أنهما يبقيان في الجنة، كما
 قال سبحانه (إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا
 وَلَا تَصْحَى) ^(١) ﴿فتكونا من الظالمين﴾ فإن الإنسان إذا حرم نفسه من
 الخير، كان ظالماً لها، إذ الظلم بمعنى وضع الشيء في غير موضعه،
 كما إن العدل معناه وضع الشيء موضعه.

(١) طه: ١١٩ و ١٢٠ .

فَازْلَهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ
﴿٣٧﴾ فَلَقِيَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَتٍ فَلَبَّ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ
الرَّحِيمُ ﴿٣٨﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا

﴿٣٧﴾ ﴿فأزلهما الشيطان عنها﴾ أي حمل الشيطان آدم وحواء على الزلة عن الجنة، بسبب إنه حملهما على الأكل من الشجرة ﴿فأخرجهما مما كانا فيه﴾ من النعيم ﴿وقلنا اهبطوا﴾ الخطاب لآدم وحواء والشيطان، والهبوط إما حقيقي، إن كان محل أعلى إلى أسفل، أو رتبي ﴿بعضكم لبعض عدو﴾ فإن الشيطان عدوهما، وهما عدوان له ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ محل القرار ﴿ومتاع﴾ أي استمتاع ﴿إلى حين﴾ إلى حين انقضاء الدنيا، أو موت كل أحد، وإذ ارتكب آدم خلاف الأولى بأكل الشجرة، وأهبطه الله تعالى من الجنة تداركته الرحمة.

﴿٣٨﴾ ﴿فلقى﴾ أي أخذ ﴿آدم من ربه كلمات﴾ تسبب التوبة والرجوع عن الزلة، وكان ذلك بتعليم الله تعالى له أن يجري تلك الكلمات على لسانه، فأجراها ﴿فتاب﴾ الله ﴿عليه﴾ أي على آدم ﴿إنه هو التواب﴾ أي كثير القبول للتوبة ﴿الرحيم﴾ بعباده.

﴿٣٩﴾ ﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً﴾ إنما كرر الأمر بالهبوط توطئة لموضوع آخر، وهو أمر الهداية، بعد ذكر المقر والمتاع، كما يقال: قلت له اذهب تريح، قلت له اذهب تسلم ﴿فإمّا﴾ أصله «إن» الشرطية، و«ما»

يَأْتِيَنَّكُمْ مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا
 هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ
 أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٠﴾

الزائدة، دخلت عليها لتصحيح نون التأكيد، يعني فإن ﴿يأتينكم﴾ أيها
 البشر الذي في صلب آدم ﴿مني هدى﴾ يهديكم إلى الحق ﴿فمن تبع
 هداي فلا خوف عليهم﴾ في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ولا هم يحزنون﴾
 إذ الخوف الكامل، إنما يكون من أمر مكروه، ولا يعوض، وكذلك
 الحزن ومصائب المؤمنين تعوّض، فلا خوف كامل منها، والفرق بين
 الخوف والحزن: أن الأول لأمر مترقب، والثاني لأمر حادث - غالباً -
 ولا مانع من الخطاب إلى المعدوم إذا كان المقصود منه الوصول إليه
 بعد وجوده، هذا مع الغض عن عالم الذر، كما لا مانع من الجمع
 بين «إن» و«نون التوكيد» إذ المعنى إن أتاكم إتياناً قطعياً مقابل الإتيان
 المظنون.

[٤٠] ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فلم يؤمنوا بعد أن تمت عليهم
 الحجة، ولعل هذا سر قوله «كذبوا» بعد «كفروا» إذ الكفر لا يلازم
 التكذيب، إذا كان عن قصور ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها
 خالدون﴾ أبداً ولا يخفى أن المقصر المعاند خالد أبداً أما غيره
 فيمتحن هناك.

[٤١] ولما أتم القرآن الكريم قصة «آدم» واستخلافه في الأرض، وجه الكلام
 إلى «بني إسرائيل» الذين هم نموذج للجنس البشري، وقد أنتهم

يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي
أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِئْتِي فَارْهَبُونَ ﴿٤١﴾ وَءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ
مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ

الأنبياء ﷺ «هدى» وأنعم عليهم الله تعالى، فكفروا بالنعمة، وقتلوا
الأنبياء، ليكون فذلقة لقصة آدم، ودرساً لأمة محمد ﷺ «يا بني
إسرائيل» هم اليهود، وإسرائيل اسم يعقوب النبي ﷺ، نسبوا إلى
أبيهم الأعلى، كما نسب البشر إلى أبيهم الأعلى، في قوله (يا بني
آدم) ^(١) «اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم» وحيث لم يذكر المتعلق
أفاد العموم، فيشمل كل نعمة مادية أو معنوية «وأوفوا بعهدي»
وحيث لم يذكر المتعلق أفاد كل عهد عهده، سواء كان ذلك وقت
أخذ موسى ﷺ عنهم العهد بالإيمان بالرسول ﷺ، أم كان وقت
أخذ الله عنهم العهد في عالم الذر، ثم أودع فيهم الفطرة دليلاً عليه
«أوف بعهدكم» بإعطائكم الدنيا والآخرة، فإن الله سبحانه ضمن لمن
وفى بعهده، أن يعمر دنياه وآخرته «وإياي فارهبون» الرهبة هي
الخوف، يعني يجب أن يكون الخوف من الله، لا من الناس.

[٤٢] «وآمنوا بما أنزلت» من القرآن «مصدقاً لما معكم» من التوراة، فإن
التوراة الأصلية، كانت مصدقة، حتى في زمان النبي ﷺ إلا ما نسخ
منها، والنسخ ليس إبطالاً لها، كما أن نسخ بعض الأحكام في

وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِنِّي
فَاتَّقُونَ ﴿٤٢﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكُنْهُمَا الْحَقُّ
وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ ﴿٤٣﴾

القرآن - على القول به - ليس إبطالاً له ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ أي أول من يكفر بما أنزلت، وإنما كانوا أول كافر، لأنهم بسبب علمهم كانوا مرجعاً للجهال، فيكون كفر الجهال بمرتبة ثانية ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ أي بمقابل آياتي، بأن تعطوا الآيات - بمعنى عدم الإيمان بها - في مقابل ثمن قليل، هو رئاسة الدنيا وكونها قليلاً لانقطاعها ﴿ولإياي فاتقون﴾ فالتقوى يجب أن تكون منه تعالى، لا أن يكون الإتياء من غيره، لأن الله بيده النفع والضرر دون غيره، كما قال تعالى ﴿قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾^(١).

[٤٣] ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل﴾ اللبس هو التعمية، أي لا تخلطوا الحق بالباطل، فتأخذوا ببعض التوراة الذي هو في نفعكم، وتركوا بعضها الذي يضركم وهو بعض الأحكام التي تركوها، ومنها التبشير بمحمد ﷺ ﴿و﴾ لا ﴿تكتموا الحق﴾ الذي هو أوصاف النبي ﷺ وبعض الأحكام الآخر، كما قال سبحانه ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّورَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢) ﴿وأنتم تعلمون﴾ بصنعكم وأنه تلبس المحق بالباطل، وكتمان الحق.

(١) النساء: ٧٩ .

(٢) آل عمران: ٩٤ .

وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٤﴾
 أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ
 أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا

=====

﴿٤٤﴾ «و أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة» كما يأمر الإسلام «و اركعوا مع
 الراكعين» الذين هم المسلمون.

﴿٤٥﴾ «أتأمرون الناس بالبر» استفهام إنكاري، أي لم تأمرون الناس
 بالأعمال الخيرية «وتنسون أنفسكم» فلا تعملون بها والنسيان كفاية
 عن عدم العمل لشبهه به في النتيجة، كما قال سبحانه (نَسُوا اللَّهَ
 فَنَسِيَهُمْ)^(١) فقد كان اليهود يخالفون أحكام التوراة، ويرتشون
 ويفسدون ويكذبون «وأنتم تتلون الكتاب» جملة حالية، أي والحال
 أنتم تقرأون كتاب الله، فاللزام أن تكونوا أول العاملين به «أفلا
 تعقلون» أي ألا تعلمون أن ما تأتون به قبيح؟.

﴿٤٦﴾ «واستعينوا» في رجوعكم عن دينكم والغائكم لرؤسائكم - بما يجز
 ذلك عليكم من سلب بعض دنياكم - «بالصبر» فإنكم إذا صبرتم على
 ما تكرهون من اتباع النبي ﷺ عاد ذلك عليكم بخير مما أنتم فيه
 «والصلاة» فإن الصلاة توجب تهدئة النفس، واطمئنان خاطر (أَلَا
 يَذْكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ)^(٢) «وإنها» أي الاستعانة بالصبر والصلاة

(١) التوبة: ٦٧ .

(٢) الرعد: ٢٩ .

لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٦﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ
وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٧﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي
أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٨﴾

=====

﴿لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ فإن الصبر ليس أمراً هيناً، والصلاة
الكاملة ليست عملاً سهلاً، وإنما قيدنا الصلاة بالكاملة، لأنها هي التي
يستعان بها، أو أن المراد الصلوات اليومية، وهي صعبة جداً إلا على
الذين يخشون الله سبحانه.

[٤٧] ثم فسر الخاشعين بأنهم ﴿الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم﴾ الظن إما
بمعنى اليقين، وإما بمعنى الرجحان، ولعل السر في هذا التعبير دون
اليقين، للإشارة إلى أدنى مراتب الرجحان يوجب الخشوع، فإن من
يظن أنه يلاقي الملك لبعثه ذلك على التهيئة، فكيف بمن يظن أنه
يلاقي مالك الملوك، وملاقة الله كناية عن الحضور للمحاسبة، وإلا
فالله سبحانه ليس أدنى إلى الناس في القيامة منه إليهم في الدنيا ﴿و
أنهم إليه راجعون﴾ والرجوع إليه معنوي كما تقدم.

[٤٨] ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ تكرار للتركيز
والإلفات، فإن الإنسان ربما كان غافلاً حين التذكير الأول، فيذكر
ثانياً وثالثاً، بالإضافة إلى أن النفس، إذا كررت عليها الموعظة،
رسخت فيها ﴿و أني فضلتكم على العالمين﴾ التفضيل على عالم
زمانهم لا على كل العوالم، فإن الظاهر من هكذا تفضيلات هو
الاختصاص، فلو قيل أن «الدولة الفلانية أقوى الدول» لم يفهم منه إلا

وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ
وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ
مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ

=====

الإقوائية من الدول المعاصرة لها، لاكل دولة أتت أو تأتي، ثم أن
تفضيلهم على العالمين إنما كان لأجل إيمانهم بموسى عليه السلام، بينما
كان العالم بين كافر به عناداً، كفرعون ومن تبعه، أو جهلاً كمن كان
في البلاد البعيدة التي لم تبلغهم دعوة موسى فكانوا قاصرين.

[٤٩] ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ أي لا تغني، فلا تدفع
نفس عن نفس مكروهاً، وإنما الأمر كله لله، حتى أن الشفاعة تكون
بإذنه، والمراد بذلك اليوم - القيامة - ومعنى التقوى منه الاستعداد له
﴿وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا﴾ أي من النفس ﴿شَفَاعَةً﴾ إلا إذا أذن الله للشفيع ﴿وَلَا
يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ أي من النفس ﴿عَدْلٌ﴾ أي فدية، وإنما سميت الفدية
عدلاً، لأنها تعادل المفدى ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فإن طريق الخلاص
في الدنيا إحدى هذه الأربعة، وليست شيء منها في الآخرة، إلا إذا
أذن الله في الشفاعة، وعدم الاستثناء من «شفاعة» لأجل أن المراد منها
الشفاعات الارتجالية، كما هو المعتاد في الدنيا.

[٥٠] ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل نعمة أنعمناها عليكم ﴿إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ
فِرْعَوْنَ﴾ ومن المتعارف، أن ينسب الشيء المرتبط ببعض الأمة إلى
جميعها، إذ يجمعهم العطف والهدى والانتصار، فيقال بنو تميم قتلوا
فلاناً، وإنما قتله بعضهم، أو عشيرة فلان شجعان، وإنما جماعة منهم
كذلك، ولذا قال سبحانه «نجيناكم» وقد كانت التنجية بالنسبة إلى

يَسْؤُمُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ
وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ
الْبَحْرَ

أسلافهم، والمراد بآل الرجل قومه وخواصه وإن لم تكن بينهم قرابة، كما يقال «آل الله» لأهل البيت عليه السلام ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ وسامه خسفاً عذاباً بمعنى ألفاه فيه، ثم فسر سوء العذاب بقوله ﴿يذبحون أبناءكم﴾ الذبيح هو التكثير في الذبح ﴿ويستحيون نساءكم﴾ أي يدعونهن أحياء، فإن فرعون ملك القبط، لما علم من الكهان، أنه يولد في بني إسرائيل - الذين كانوا طائفة خاصة من آل يعقوب عليه السلام - أمر بذبح الأولاد وإبقاء النساء للاسترقاق والنكاح ﴿وفي ذلكم﴾ «كم» خطاب فقط، و«ذا» إشارة، فإذا كان طرف الخطاب واحد يقال «ذلك» وإذا كان اثنين يقال «ذلكما» وإذا كانوا جماعة يقال «ذلكم» و«ذا» هنا اسم إشارة إلى سوء العذاب ﴿بلاء من ربكم عظيم﴾ أنها كانت بالنسبة إلى الله تعالى، لأنه لم يحل بين فرعون، وبين هذا العمل، كما يقال، إن الأب أفسد ولده إذا لم يحل بينه وبين عمله الفاسد، وعدم حيلولة الله تعالى، لأجل الامتحان والاختبار - كما تقدم - والإنجاء، إنما كان بإهلاك فرعون وقومه.

[٥١] ﴿و﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إذ فرقنا بكم البحر﴾ أي جعلنا فواصل في البحر، حتى صارت بين الماء شوارع، وكان عملنا هذا بسببكم ولأجلكم، والمراد بالبحر - البحر الأحمر في مصر - وقد كان طول

فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥١﴾ وَإِذْ
وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ

=====

الشوارع التي أسفرت عنها الماء ما يقرب من أربعة فراسخ، فإن موسى ﷺ وبني إسرائيل فروا من فرعون فوصلوا إلى البحر وعقبهم فرعون وقومه، فأمر الله موسى ﷺ أن يضرب بعصاه البحر، فضرب فانحسر الماء عن الشوارع حتى عبر بنو إسرائيل، وأتبعهم فرعون وجنوده ولما توسطوا الماء، وخرج موسى ﷺ وقومه، رجع الماء إلى حالته الأولى، فأغرق فرعون وقومه ﴿فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾ من عدوكم ﴿وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ مع فرعون، ولم يذكر تغليبا للآل عليه ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ كيف أغرقناهم لأجلكم، ولا يخفى أن الإعجاز هين بالنسبة إلى الله سبحانه، فتأويل بعض الناس للمعاجز انهزام مادي غربي.

[٥٢] ﴿وَاذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ إِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ واعد بمعنى وعد، وإن موسى ﷺ قبل، ولذا جيء بصيغة المفاعلة، ولا ينافي كون الوعد هنا أربعين ليلة، وفي آية أخرى ثلاثين، فإن هذه الآية بالنسبة إلى الوعدين، وفي الآية الأخرى بالنسبة إلى الوعد الأول، فقد كان الله سبحانه وعد موسى أولاً ثلاثين، ثم مدده وأضاف عشراً، والوعد كان لإعطاء الثروة التي فيها أحكام الله، وتنظيم أمور بني إسرائيل الذي هو نعمة عظيمة ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ﴾، أي من بعد موسى ﷺ أي وقت ذهابه إلى الطور للوعد، فإنهم بعد ما ذهب موسى ﷺ، لميقات ربه صنعوا عجلاً من ذهب، وجعلوه إلهاً لهم وسجدوا له، فقابلوا نعم الله عليهم بالكفران، وعبادة العجل.

وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥٢﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَتَقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ
أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا
أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ

=====

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ جملة حالية، والمراد ظلمهم بأنفسهم.

[٥٣] ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ عبادتكم للعجل ﴿من بعد ذلك﴾ الاتخاذ ﴿لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ﴾ نعمنا عليكم، فتعملوا بأوامرنا.

[٥٤] ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ نبيكم ﴿الكتاب﴾ وهو
التوراة ﴿وَالْفُرْقَانَ﴾ أي الفارق بين الحق والباطل، فهو أهم من
الكتاب ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ولعل ليس ترجياً من الله سبحانه بل بمعنى
عاقبة الترجي.

[٥٥] ﴿وَ﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ الذين عبدوا
العجل وقت ذهب موسى إلى الطور لتلقي التوراة والأوامر من الله
سبحانه ﴿يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ﴾ إلهاً فإن اتخاذه
موجب للغضب والذلة في الحياة الدنيا والآخرة ﴿فَتُوبُوا﴾ توبة ﴿إِلَى
بَارِيكُمْ﴾ الذي برءكم وخلقكم وهو إلهكم ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ بأن
يقتل من لم يعبد العجل من عبده ولو كان قريباً له، فإنه كفارة للقاتل
حيث سكت ولم يتكلم، وللمقتول حيث عبد العجل ﴿ذَلِكُمْ﴾ القتل

خَيْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَارِيكُمْ فَنَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ
 ﴿٥٥﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً
 فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٦﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ

﴿خير لكم﴾ إذ الألم القليل خير من عذاب النار الدائم ﴿عند باريكم﴾ متعلق بخير، أي إن هذا العمل خير عند الله تعالى، وفي حكمه وإرادته، وذلك مقابل الخير عند الناس الذي هو بالبقاء والعيش في الدنيا ﴿فتاب عليكم﴾ بعدما سمعتم الأمر بأن تبتنم، وقتل بعضكم بعضاً، ومعنى تاب عليكم، قبل توبتكم ﴿إنه هو التواب الرحيم﴾ بكم، فلم يغضب حتى لا يقبل توبتكم أبداً.

[٥٦] ﴿و﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك﴾ بأن لنا إلهاً خلقنا وبيده أمورنا، أو لن نؤمن لك بأنك نبي مبعوث من قبل الله سبحانه ﴿حتى نرى الله جهرة﴾ أي علانية وعياناً، فيخبرنا بذلك، وذلك أن موسى عليه السلام اختار من قومه سبعين رجلاً يحضرون معه إلى الميقات، لما طلبت بنوا إسرائيل منه ذلك، ولما جاءوا طلبوا رؤية الله تعالى ﴿فأخذتكم الصاعقة﴾ وهي نار تنزل من السماء، أو مادة مذابة من المعدن ونحوه، فتصيب الإنسان فتقتله، فإنهم لما طلبوا رؤية الله سبحانه، نزلت صاعقة من السماء فقتلتهم جميعاً ﴿وأنتم تنظرون﴾ حال نزولها، وسبب موتكم، فكان ذلك دليلاً لكم على ذنبكم وخطاكم ولم يكن موتاً لم يعرف سببه حتى تقولوا إنه أمر طبيعي .

[٥٧] ﴿ثم بعثناكم﴾ أي أحييناكم لما طلب موسى عليه السلام ذلك لثلاثين

مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ
الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلَوى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا
رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِذْ
قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ

=====

الباقى من بني إسرائيل، إنه ﷺ قتلهم في الطور ﴿من بعد موتكم﴾
بسبب الصاعقة ﴿لعلكم تشكرون﴾ نعمنا عليكم .

[٥٨] ﴿و﴾ اذكروا يا بني إسرائيل، إذ كنتم في «التيه» حين أمرتم بحرب
العمالقة فعصيتهم فبقيتهم في الصحراء مدة مديدة، وكنتم تتأذون من حر
الشمس، ولم يكن لكم مأكل ف ﴿ظللنا عليكم الغمام﴾ بأن جعلناه
سترة لكم تقيكم حر الشمس وبرد القمر ﴿وأنزلنا عليكم المن
والسلوى﴾ المن شيء يشبه «الترنجبين» مادة حلوة، كانت تقع على
أشجارهم فيأكلوها والسلوى طير السمانى، وإنزال السمانى، إما يكون
هذا الطير، كان كثيراً في التيه، فكانوا يصطادونه، أو بأنه كان ينزل
عليهم الطير المشوي، وقلنا لكم ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ طيب
مذاقاً، وحقيقة لكونه حلالاً، لكنهم كفروا بعد كل هذه النعم ﴿و ما
ظلمونا﴾ بكفرانهم، فإنهم لن يضرروا الله شيئاً ﴿و لكن كانوا أنفسهم
يظلمون﴾ لأنهم أورثوا لأنفسهم ذلة في الدنيا وعذاباً في الآخرة .

[٥٩] ﴿و﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إذ قلنا﴾ لكم بعد أن خرجتم عن التيه
﴿ادخلوا هذه القرية﴾ بيت المقدس، أو «أريحا» وهي بلدة قريبة من
بيت المقدس ﴿فكلوا منها حيث شئتم﴾ من الأماكن أو المأكلات

رَعْدًا وَاَدْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرَ لَكُمْ
 خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٩﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا
 قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا
 مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ
 لِقَوْمِهِ

﴿رَعْدًا﴾ واسعاً ﴿و ادخلوا الباب﴾ أي باب القرية ﴿سجداً﴾ جمع ساجد، أي في حال كونكم ساجدين ﴿و قولوا حطة﴾ أي سجدنا لله حطة لذنوبنا، ومحو لسيئاتنا، فإن فعلتم ذلك ﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ السالفة ﴿و سنزيد المحسنين﴾ منكم من خير الدنيا وخير الآخرة على ما يستحقون، كما قال سبحانه (لِيُؤْفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ) ^(١).

[٦٠] ﴿فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم﴾ فقالوا «حنطة حمراء خير لنا» عوض «حطة» كما إنهم دخلوا بأستاهم عوض أن يدخلوا سجداً ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ فيما فعلوا ﴿رجزاً من السماء﴾ الرجز العذاب ﴿بما كانوا يفسقون﴾ أي بسبب عصيانهم.

[٦١] ﴿و﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إذ استسقى موسى لقومه﴾ أي سأل موسى ﷺ من الله تعالى أن يسقيهم، وذلك حين كانوا في التيه،

فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ط فَاَنْفَجَرَتْ مِنْهُ اِثْنَتَا عَشَرَ
 عَيْنًا ط قَدْ عَلِمَ كُلُّ اُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ط كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ
 رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ
 يٰمُوسَىٰ لَنْ نُّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا
 مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا
 وَبَصَلَهَا ط

=====

ولم يكن لهم ماء فظمئوا ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ وعصاه
 هي التي صارت ثعباناً، والحجر، إما كان حجراً خاصاً، أو مطلق
 الحجر ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ بعدد أسباط بني
 إسرائيل، فإنهم كانوا اثنتي عشرة قبيلة، فكانت تجري لكل قبيلة
 عين ﴿قد علم كل أناس﴾ أي كل قبيلة ﴿مشربهم﴾ أي موضع
 شربهم ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ أكلهم المن والسلوى، وشربهم
 ماء العين المنفجر ﴿ولا تعثوا في الأرض﴾ الفساد ﴿مفسدين﴾
 حالة مؤكدة.

[٦٢] ﴿وإذ قلتم يا موسى﴾ حين كنتم في التيه، وينزل عليكم المن
 والسلوى ﴿لن نصبر على طعام واحد﴾ أي قسم واحد من الطعام،
 ولو كان ذي لونين، فالمراد بالوحدة التكرار في كل يوم ﴿فادع﴾ أي
 فاسأل ﴿لنا﴾ أي لأجلنا ﴿ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض﴾ أي من
 نباتها ﴿من بقلها﴾ البقل أنواع الخضر ﴿وقثائها﴾ الخيار ﴿و
 فومها﴾ الحنطة ﴿وعدسها وبصلها﴾ حتى نتقوت بها ونأكلها عوض

قَالَ اسْتَبْدِلُوا الَّذِي هُوَ أَذْنَبُ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبِطُوا
مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ
وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا
يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ

=====

المن والسلوى ﴿قَالَ﴾ لهم موسى ﷺ ﴿اسْتَبْدِلُوا الَّذِي هُوَ أَذْنَبُ
بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ أي تتركوا ما هو الأفضل مما اختاره الله لكم، إلى
ما هو الأدون مما ترغبون إليه، وكونها أفضل وأدون، أما باعتبار
السهولة والصعوبة، أو باعتبار الطعم واللذة، أو باعتبار التقوية
والتغذية، وعلى أي حال، دعى موسى واستجاب الله دعاءه، وقال
لهم ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ من الأمصار ﴿فَإِنَّ لَكُمْ﴾ في المصّر ﴿مَا
سَأَلْتُمْ﴾ من الأطعمة ﴿وَلَكِنِ الْيَهُودَ بِسَبَبِ تَمَرْدِهِمْ وَعَصِيَانِهِمْ
وَلِجَاجَتِهِمُ الْمُسْتَمِرَّةِ﴾ ضربت عليهم الذلة ﴿فَهُمْ أَذِلَّةٌ فِي الْأَرْضِ
لَا حُكُومَةَ لَهُمْ مُسْتَقِلَّةٌ وَلَا عِزَّةَ لَهُمْ عِنْدَ النَّاسِ﴾ والمسكنة ﴿فَإِنَّهُمْ
مَعَ ثُرُوتِهِمْ أحياناً لا يفارقون المسكنة، حيث إنهم دائمو
التشكي لمخافتهم من الفقر، وهذه الآية من معاجز القرآن الكثيرة،
فإن اليهود لم تقم لهم حكومة من تاريخ القرآن إلى هذا اليوم،
إلا بحبل من الناس، واتصال بالحكومات القوية﴾ وباءوا بغضب
من الله ﴿بَاءَ أَي رَجَعَ، والمراد أنهم بعملهم السيئ غضب الله
عليهم﴾ ذلك ﴿المذكور من ضرب الذلة والمسكنة،
والرجوع بالغضب﴾ بـ ﴿سَبَبِ﴾ أنهم كانوا يكفرون بآيات
الله ﴿المنزلة على موسى ﷺ﴾ حيث لم يكونوا يطيعون

وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ

=====

تقدم مكان أخذ العهد ﴿و رفعنا فوقكم الطور﴾ وذلك أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة لم يقبلوها، فقطع جبرائيل عليه السلام قطعة من جبل طور ورفعها فوق رؤوسهم مهدداً، إنهم إن لم يقبلوا التوراة قذفها على رؤوسهم، فقبلوا قبول التوراة مجبرين، وقلنا لكم ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي بجدة ويقين وشدة لا تحيدوا عنه ﴿و اذكروا﴾ أي احفظوا واعملوا بـ ﴿ما فيه﴾ أي في «ما آتيناكم» وهو التوراة ﴿لعلكم تتقون﴾ أي كي تخافون، فإن العامل بأوامر الله سبحانه يكون خائفاً متقياً.

[٦٥] ﴿ثم توليتم﴾ أي أعرضتم أيها اليهود ﴿من بعد ذلك﴾ الميثاق الأكيد، فلم تعملوا بما في التوراة، ولم تتمثلوا بأوامرنا ﴿فلولا فضل الله عليكم﴾ حيث تفضل عليكم بالتوبة ﴿و رحمته﴾ بأن رحمكم فلم يؤاخذكم بسيئات عملكم ﴿لكنتم من الخاسرين﴾ في الدنيا والآخرة، فإن من ينسلخ عنه الإيمان يكون من أخسر الناس.

[٦٦] ﴿و لقد علمتم﴾ أي عرفتكم أيها اليهود ﴿الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ أي جاوزوا حدود الله فيه، وذلك أنهم حرم عليهم اصطیاد السمك في السبت فكانت الأسماك تأتي وتجتمع في هذا اليوم

فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٦﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ

=====

لشعورها بأمنها في هذا اليوم، فكان اليهود يحتالون لأخذها بإيصال الماء إلى أحواضهم، فلما تأتي إليها الأسماك يوم السبت سدوا طريقها، ثم يصطادونها يوم الأحد، وكان هذا خرقاً لحرمان الله ﴿فقلنا لهم﴾ أي للمعتدين ﴿كونوا قردة خاسئين﴾ أي مبعدين عن الخير دنيا وآخرة، فإنكم أيها اليهود الذين شاهدتم هذا المسخ بالنسبة إلى المعتدي منكم كيف تعملون خلاف أوامر الله سبحانه .

[٦٧] ﴿فجعلناها﴾ أي جعلنا المسخة التي مسخوا بها، والعقوبة التي عوقبوا فيها ﴿نكالاً﴾ أي عبرة ﴿لما بين يديها﴾ أي من كان في زمانهم من سائر اليهود والأمم ﴿وما خلفها﴾ الذين يأتون من بعدهم مما يسمعون بأخبارهم، أو يكون معنى «نكالاً» «عقوبة» فالمعنى جعلنا المسخة عقوبة للمعاصي التي ارتكبوها مما كانت بين يدي المسخة، وهو «الاعتداء» وما خلف المسخة من سائر المعاصي التي كانوا يرتكبوها بعد اعتدائهم في السبت ﴿و﴾ جعلناها ﴿موعظة للمتقين﴾ لئلا يرتكبوا خلاف أمر الله سبحانه .

[٦٨] ﴿و﴾ اذكروا أيها اليهود قصة البقرة، وهي أنهم وجدوا قتيلاً لم يعرفوا قاتله، فرجعوا إلى موسى ﷺ، فأمرهم الله تعالى، أن يذبحوا بقرة، ثم يضربوا القتل بها ليحيى القتل ويخبرهم بالقاتل، وكان هذا اختباراً لإيمانهم، حيث أن كون ضرب ميت بميت موجباً للحياة مما لا يصدق ضعفاء الإيمان، ولهذا جعلوا يسألون أسئلة تافهة من موسى ﷺ حول البقرة ﴿إذ قال موسى

لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُؤًا
 قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا
 رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا
 بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمُرُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا
 ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْهَاهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا

=====

لقومه ﴿ بني إسرائيل ﴾ إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴿ لإحياء القتيل ﴾
 ﴿ قالوا أنتخذنا هزوا ﴾ أي أتسخر منا وتتخذنا سخرية ، فما الربط
 بين القتيل ، وبين ذبح البقرة ، أو كيف تكون البقرة الميتة سبباً
 لإحياء القتيل ﴿ قال ﴾ موسى ﷺ ﴿ أعوذ بالله أن أكون من
 الجاهلين ﴾ الذين يستهزئون بالناس ، فإن السخرية من شأن
 الجاهل والسفهاء .

[٦٩] ﴿ قالوا ادع لنا ﴾ أي اطلب من أجلنا ﴿ ربك يبين لنا ما هي ﴾ أي ما هي
 البقرة ، من حيث سنها وعمرها ﴿ قال ﴾ موسى ﷺ ﴿ إنه ﴾ تعالى
 ﴿ يقول إنها ﴾ أي البقرة يلزم أن تكون ﴿ بقرة لا فارض ولا بكر ﴾
 الفارض الكبيرة الهرمة والبكر الصغيرة ﴿ عوان ﴾ أي وسط العمر ﴿ بين
 ذلك ﴾ أي المذكور بين الصغير والكبير ﴿ فافعلوا ما تؤمرون ﴾ من ذبح
 هكذا بقرة .

[٧٠] ﴿ قالوا ادع لنا ربك ﴾ أي اسأل من ربك لأجلنا ﴿ يبين
 لنا مالونها ﴾ أي ما لون البقرة التي أمرنا بذبحها
 ﴿ قال ﴾ موسى ﷺ ﴿ إنه ﴾ تعالى ﴿ يقول إنها ﴾

بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٧١﴾ قَالُوا أَدْعُ
لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ
اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٢﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ
الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ

=====

بقرة صفراء اللون ﴿فاقع لونها﴾ أي حسنة الصفرة لاتضرب إلى
السواد لشدتها، ولا إلى البياض لقلتها ﴿تسر الناظرين﴾ إليها أي
تعجب الناظرين وتفرحهم بسبب حسن لونها.

[٧١] ولما بين سبحانه سن البقرة ، ولونها سألوا عن صفتها ﴿قالوا﴾ يا
موسى ﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ البقرة، أكون من العوامل، أو
من السوائم التي لا تعمل، ف ﴿إن البقر﴾ الذي أمرتنا بذبحه ﴿تشابه﴾
أي اشتبه ﴿علينا﴾ وإنه كيف ينبغي أن يكون ﴿وإنا إن شاء الله
لمهتدون﴾ إلى صفة البقرة بتعريف الله سبحانه لنا كيف يجب أن
يكون، وفي الحديث عن النبي ﷺ : إنهم لما شددوا على أنفسهم،
شدد الله عليهم، ولو لم يستثنوا ما بينت لهم إلى
آخر الأبدي^(١).

[٧٢] ﴿قال﴾ موسى ﷺ ﴿إنه﴾ سبحانه ﴿يقول إنها﴾ أي البقرة التي أمرتم
بذبحها ﴿بقرة لا ذلول﴾ يذلها العمل ﴿تثير الأرض﴾ أي تعمل
وتكرب لإثارة الأرض ﴿ولا تسقي الحرث﴾ الحرث الزرع، فلا

(١) مستدرک الوسائل: ج ١٦ ص ٥٤، باب حکم الحلف علی ترک الطیبات.

مُسْلِمَةً لَا شَيْءَ فِيهَا قَالُوا أَلَكُنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبْحُوهَا وَمَا
كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَءْ ثُمَّ فِيهَا وَاللَّهُ
مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٣﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ
يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ

تسقيه بالناعور، والدلاء، والمعنى أن لا تكون عاملة ﴿مسلمة﴾ أي سالمة لانقص فيها فهي بريئة من العيوب ﴿لا شية﴾ من الوشي بمعنى اللون ﴿فيها﴾ أي لا لون فيها يخالف لونها، وهذا ليس تأكيد لما سبق، إذ كونها صفراء، لا تدل على عدم الوشي فيها ﴿قالوا﴾ لموسى عليه السلام ﴿الآن﴾ وبعد هذه التوضيحات لصفات البقرة ﴿جئت بالحق﴾ الواضح، أو بما هو حق الكلام مقابل الإجمال الذي قاله عليه السلام سابقاً بقوله «إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة» ﴿فدبحوها﴾ أي ذبح اليهود تلك البقرة المأمور بذبحها ﴿وما كادوا يفعلون﴾ أي كاد، أن لا يذبحوا تلك البقرة لغلاء ثمنها، فإنها انحصرت في بقرة واحدة، لم يعطها صاحبها إلا بثمن فاحش.

[٧٣] ﴿و﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها﴾ ادارأتم بمعنى اختلفتم، وأصله تدارأتم ﴿و الله مخرج ما كنتم تكتمون﴾ من أمر القاتل، وإنه من القاتل، ولماذا قتل.

[٧٤] ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ﴾ أي اضربوا القتيل ﴿بِبَعْضِهَا﴾ أي ببعض البقرة المذبوحة التي أمروا بذبحها ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل هذا الإحياء ﴿يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ في يوم القيامة، فإن القتيل لما ضرب بالبقرة قام حياً وأوداجه تشخب دماً، وأخبر بسبب قتله، وبالذي قتله ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ في

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشْقَقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ

الكون وفي أنفسكم، أو بمعنى يريكم معجزاته ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي كي تستعملوا عقولكم، ولعل وجه تأخير آية «و إذ قتلتم» على الآيات السالفة، مع إن النظم يقتضي تقديمها، أن السياق لبيان لجاجة اليهود، وعدم إطاعتهم الأوامر، فكان المقتضى تقديم ما يدل على ذلك.

[٧٥] ﴿ثم﴾ من بعد ما رأيتم هذه الآيات أيها اليهود ﴿قست قلوبكم﴾ أي غلظت ﴿من بعد ذلك﴾ المذكور من آيات الله تعالى، أو من بعد ذبح البقرة، وما رأيتم من إحياء الله الميت ﴿فهي كالحجارة﴾ في القسوة للمعقول بالمحسوس ﴿أو أشد قسوة﴾ وبين سبب أشدتها قسوة، بقوله ﴿وإن من الحجارة لما﴾ اللام للتأكيد، و«ما» موصولة، أي الحجر الذي ﴿يتفجر منه الأنهار﴾ فيكون مبعثاً للخير نافعاً، بخلاف قلوبكم التي لا يأتي منها إلا الشر ﴿وإن منها لما يشقق﴾ أصله تشقق ﴿فيخرج منه الماء﴾ فيكون عيناً، وإن لم يجز، وبهذا يفترق عن السابق، وهو ما يتفجر منه الأنهار ﴿وإن منها﴾ أي من الحجارة ﴿لما يهبط﴾ أي ينزل من الجبل ويسقط ﴿من خشية الله﴾ فإن كل حجارة تسقط، لا بد وأن تكون سقطتها بإذن الله، ومن خشيته خشية واقعية

وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٥﴾ أَفَنُظْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ
وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ
مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِذَا لَقُوا

=====

أو تشبهه، كالذي يخشى كثيراً فيسقط على وجهه، وقلوبكم أيها اليهود أقسى من تلك الحجارة، إذ لا تخشى من الله سبحانه، ولا تتواضع لعظمته ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ أيها اليهود، فيجازيكم بسيئات أعمالكم.

[٧٦] ﴿أَفَنُظْمَعُونَ﴾ أيها المسلمون ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ أي يؤمن اليهود ﴿لكم﴾ أي لنفعكم، إذ كل من آمن يكون في نفع المؤمنين السابقين، أو بمعنى الإيمان بمبادئكم، وهذا استفهام إنكاري، أي لن يؤمن هؤلاء اليهود بالإسلام ﴿وقد كان فريق منهم﴾ أي من هؤلاء، وهم أسلافهم، وإنما صحت النسبة إليهم، لأن الأمة الواحدة، والقبيلة الواحدة، تكون متشابهة الأعمال والأفعال والأقوال ﴿يسمعون كلام الله﴾ الذي يتلوه الأنبياء عليهم ﴿ثم يحرفونه﴾ بالزيادة والنقصان لفظاً أو معنى، كما هو المتعارف عند من يريد نقل كلام لا يرضيه، فإنه إما أن ينقص فيه أو يزيد - لو وجد إلى ذلك سبيل - وإما أن يفسره بغير ما أراد المتكلم ﴿من بعدما عقلوه﴾ وفهموه ﴿وهم يعلمون﴾ فكيف يؤمن هؤلاء الذين كانوا يعملون بكلام الله بعد تعقل هذا العمل.

[٧٧] ﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ من الملاقاة، أي لقي اليهود وكانت هذه خصلة بعضهم نسبت إلى الجميع، كما هو المتعارف من نسبة ما يقوم به البعض إلى

الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَ بِعَظْمُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا
 اتَّخَذُوا لَهُمْ سَمَاءً مِّثْلَ مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُم لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ
 أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٧﴾ أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ
 وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٨﴾

الجميع ﴿الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ بأن محمداً ﷺ هذا موجود في كتبنا بوصفه وحليته، ولم يقصدوا الإيمان الحقيقي كسائر المسلمين، ولا الإيمان الظاهري كالمنافقين، وإنما أريد الإيمان بمعناه اللغوي، وهذا ذم لهم، حيث إنهم اتصفوا بصفات المنافقين ﴿وإذا خلا بعضهم إلى بعض﴾ وجمع هؤلاء اليهود وغيرهم من سائر اليهود، مجلس خال من المؤمنين ﴿قالوا﴾ أي قال من لم يكن يظهر الإيمان لمن أظهره ﴿أتحدثونهم﴾ أي لماذا تحدثون المسلمين ﴿بما فتح الله عليكم﴾ أي بما عرفكم الله في كتابكم، بأن محمداً ﷺ حق، يقال فتح عليه باب العلم إذا أرشده إليه وعلمه به ﴿ليحاجوكم به عند ربكم﴾ أي إذا أظهرتم أنتم أيها اليهود للمسلمين، أن في كتابكم صفات محمد ﷺ حاجوكم يوم القيامة عند الله فيقول المسلمون لليهود المظهرين أنتم ذكرتم أن في كتابكم صفات النبي، فلم لم تؤمنوا به ﴿أفلا تعقلون﴾ أيها اليهود المظهرون للمسلمين، أن إظهاركم سبب لغلبة المسلمين عليكم في الحجة عند الله.

[٧٨] ﴿أو لا يعلمون﴾ يعني اليهود المنافقون ﴿أن الله يعلم ما يسرون﴾ يسر بعضهم إلى بعض ﴿وما يعلنون﴾ وما الفائدة في أن لا يظهروا صفات

وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يُظُنُّونَ ﴿٧٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ
يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ
لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ

النبي، فإن الله يعلم أنهم يعلمون صفاته، ولا يؤمنون به عناداً.

[٧٩] ﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي من اليهود ﴿أُمِّيُونَ﴾ منسوب إلى الأم، بمعنى من لا يقرأ ولا يكتب كأنه نشأ تحت تربية أمه، لا تحت تربية المعلم ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾ الأمانى جمع أمانة، كالأغاني جمع أغنية، والأمانى الأحاديث المختلفة، أي أنهم لا يعرفون ما في التوراة من صفات النبي ﷺ وغيرها، وإنما هم جهلاء، يأخذون أمور الكتاب عن علمائهم محرفة مختلفة، فلا يميزون بين الحق والباطل ﴿وَأِنْ هُمْ﴾ أي ما هم ﴿إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ بصحة ما يسمعون، ولا يتيقنون لأنهم لم يطالعوا الكتاب بأنفسهم، حتى يعرفون ما فيه.

[٨٠] ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ﴾ أي لعلمائهم الذين ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ﴾ أي التوراة ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ كناية عن أنها غير منزلة، وإنما مكتوبة مبعثها الأيدي لا الوحي والإلهام ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا﴾ المكتوب ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وإنه منزل منه ﴿لِيَشْتَرُوا بِهِ﴾ أي بما يكتبونه ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لأنهم لو كانوا يظهرهم ما في التوراة حقيقة رجع مقلدوهم إلى النبي ﷺ، فلم يكونوا يبذلون لهم الأموال والاحترام ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ﴾ أي للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ﴿مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ فإنه يوجب عذاباً، لأنه تحريف

وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٨٠﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا
 أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلَفَ
 اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ بَلَى
 مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ
 أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

لكلام الله تعالى ﴿وويل لهم مما يكسبون﴾ من الأموال إزاء
 تحريفاتهم، فإن ثمن الحرام حرام آخر، وذلك موجب للعذاب فإنه
 أكل للأموال بالباطل، والويل أصله الهلاك والعذاب، ثم استعمل في
 كل واقع في الهلكة.

[٨١] ﴿وقالوا﴾ أي قال قسم من اليهود ﴿لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة﴾
 فلن نعذب في جهنم إلا سبعة أيام أو ما أشبه، على تقدير كفرنا
 وعصياننا، فلماذا نترك رئاسة الدنيا خوفاً من عذاب قليل ﴿قل﴾ يا
 رسول الله لهم ﴿أتخذتم﴾ أي هل اتخذتم ﴿عند الله عهداً﴾ بذلك
 ﴿فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله﴾ كذباً وزوراً ﴿ما لا
 تعلمون﴾ ومن أدراكم أن العذاب أيام معدودة.

[٨٢] ﴿بلى﴾ ليس الأمر كما قالوا ولكن ﴿من كسب سيئة﴾ لم ينقلع عنها
 بل ﴿أحاطت به خطيئته﴾ كالإنسان الذي يقع في دخان حيث يحيط به
 الدخان، حتى لا يتنفس ولا يبصر ولا يسمع إلا في الدخان، وكذلك
 المشرك المنحرف في الخطيئة ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها
 خالدون﴾ إلى الأبد.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٤﴾

[٨٣] ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم وألسنتهم ﴿وَعَمِلُوا الصالحات﴾ التي أمر بها الإسلام ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ بها لا انقطاع لها ولا زوال.

[٨٤] ﴿وَاذْكُرُوا يَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿عَهْدَهُم﴾ الْاَكِيدَ عَلَى لِسَانِ أَنْبِيَائِهِمْ، بِأَنْ ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ وحده ﴿وَأَنْ أَحْسِنُوا﴾ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴿وَلَا تَسِيئُوا إِلَيْهِمَا﴾ ﴿وَأَحْسِنُوا إِلَى ذِي الْقُرْبَى﴾ أَقْرَبَائِهِمْ ﴿وَالْيَتَامَى﴾ الَّذِينَ مَاتَ وَالِدُهُمْ ﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ الْفُقَرَاءَ ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ وَذَلِكَ يَشْمَلُ جَمِيعَ أَنْوَاعِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْإِرْشَادَ وَرَدَّ الْعِتْدَاءِ بِالْحَسَنِ ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ وَهُمَا فِي سَائِرِ الْأُمَمِ، لَمْ يَكُنَا بِهِذَا الشَّكْلَ الْمَوْجُودَ فَعَلًا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَعْرَضْتُمْ ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ الَّذِينَ عَمِلُوا بِأَمْرِنَا ﴿وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ تَأْكِيدًا لِقَوْلِهِ «تَوَلَّيْتُمْ».

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ
 أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٥﴾ ثُمَّ
 أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ
 دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ
 أُسْرَى تَفْذُوهُمْ وَهُمْ حُرْمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ

=====

[٨٥] ﴿و﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إِذْ أَخَذْنَا ميثاقكم﴾ عهدكم الأكيد على
 لسان الأنبياء ﴿لَا تَسْفِكُونَ دماءكم﴾ أي لا يسفك بعضكم دماء بعض
 ﴿و لا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ أي لا يخرج بعضكم بعضاً من
 الديار، بأن يسفرهم ويبعدهم ﴿ثم أقررتم﴾ بذلك الميثاق، بأن
 أعطيتمونا العهد بذلك ﴿و أنتم تشهدون﴾ أيها اليهود، بوقوع هذا
 الميثاق بيننا.

[٨٦] ﴿ثم﴾ بعد ذلك الميثاق ﴿أنتم هؤلاء﴾ الذين ﴿تقتلون أنفسكم
 وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم﴾ مخالفة لأوامرنا ﴿تظاهرون﴾ أنتم
 أي يتعاون بعضكم مع بعض في إخراجكم لهم تظاهراً ﴿عليهم بالإثم
 والعدوان﴾ لا إخراجاً بالحق ﴿و﴾ الحال ﴿إِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْذُوهُمْ
 وَهُمْ حُرْمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾ أي كيف يخرج بعضكم بعضاً، ويقتل
 بعضكم بعضاً، مع أنكم إذا وجدتم بعضكم أسيراً في أيدي غيرهم،
 تعطون الفدية لخلاصهم، فإن كان بينكم عدا، فما هذه الفدية، وإن
 كان بينكم ودا، فما هذا القتل والإخراج. روي عن ابن عباس: أن
 قريظة والنضير، كانا أخوين، كالأوس والخزرج، فافترقوا فكانت

[illegible]

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٢٠ ص ١٦٦ .

يُخَفِّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابَ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٨٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا
 مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى
 ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ
 رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا
 تَقْتُلُونَ ﴿٨٨﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ

=====

يخفف عنهم العذاب ﴿و لا هم ينصرون﴾ هناك .

[٨٨] ﴿و لقد آتينا موسى الكتاب﴾ أعطينا التوراة إياه ﴿و وقفينا﴾ أي
 أردفنا وأتبعنا بعضهم خلف بعض ﴿من بعده﴾ أي بعد موسى
 ﴿بالرسل﴾ رسول يتبع رسولا ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البيّنات﴾
 جمع بينة، أي الدلالة الواضحة، وهي المعجزات التي أعطيت
 لعيسى ﷺ من إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى ﴿و أيدناه
 بروح القدس﴾ التأييد التقوية، وروح القدس، إما جبرئيل ﷺ ،
 أو روح قوية من الله سبحانه فيه تقوية على التبليغ والإرشاد مع
 كثرة أعدائه ﴿أفكلما جاءكم﴾ أيها اليهود ﴿رسول بما لا تهوى
 أنفسكم﴾ ولا يمثل إليه من الأحكام ﴿استكبرتم﴾ وتكبرتم عن قبول
 أحكام الله سبحانه ﴿ففريقاً كذبتم﴾ كعيسى ومحمد صلوات الله
 عليهما ﴿و فريقاً تقتلون﴾ كزكريا ويحيى ﷺ ؟ وهذا استفهام
 إنكاري عليهم .

[٨٩] ﴿و قالوا﴾ أي قالت اليهود للنبي ﷺ ﴿قلوبنا غلف﴾ جمع أغلف،
 بمعنى إنها في غطاء وغلاف عن هدايتكم، فلا تصل الهداية إليها،

بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ
كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ
يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَّا عَرَفُوا
كَفَرُوا بِهِ

=====

كما في آية أخرى (وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَةٍ) ^(١) ﴿بل﴾ ليس كذلك، وإنما
﴿لعنهم الله﴾ وأبعدهم عن الخير ﴿ب﴾ سبب ﴿كفرهم﴾ فإنهم لما
كفروا ولم يمثلوا بأوامر الله، أبعدهم الله عن الخير، كمن لا يسمع
شخصاً أمره فيتركه ولا يعتني به ﴿فقليلًا ما يؤمنون﴾ لما ران على
قلوبهم، وأظلمت نفوسهم بالكفر.

[٩٠] ﴿و لما جاءهم﴾ أي اليهود ﴿كتاب من عند الله﴾ هو القرآن
﴿مصدق لما معهم﴾ أي الكتاب الذي مع اليهود، وهو التوراة، فإن
القرآن يصدق التوراة الحقيقي المنزل على موسى ﷺ (إِنَّا أَنْزَلْنَا
التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ) ^(٢) ﴿و كانوا﴾ أي اليهود ﴿من قبل﴾ أي قبل
أن يأتي الرسول ﷺ أو ينزل القرآن ﴿يستفتحون﴾ أي يطلبون الفتح
من الله ﴿على الذين كفروا﴾ فإنهم كانوا يدعون الله، أن يبعث
الرسول، حتى يكونوا أرجح كفة من الكفار ﴿فلما جاءهم ما
عرفوا﴾ أي الرسول ﷺ الذي عرفوه بصفاته ومزاياه ﴿كفروا به﴾
وأخذوا يحاربوه، بل فوق ذلك أنهم كانوا يرجحون الكافرين على

(١) فصلت: ٦ .

(٢) المائدة: ٤٥ .

فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٩٠﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ
 أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَنْ يُنَزَلَ اللَّهُ مِنْ
 فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ

الرسول والمؤمنين قائلين (هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً) ^(١)
 ﴿فلعنة الله على﴾ اليهود ﴿الكافرين﴾ بمحمد ﷺ وبالقرآن، وهم
 يعرفون ذلك.

[٩١] ﴿بئسما اشتروا به أنفسهم﴾ أي بئس الشيء الذي باع اليهود بذلك
 أنفسهم، فأعطوا أنفسهم للعذاب الأبدي، واشتروا الكفر ﴿أن يكفروا
 بما أنزل الله﴾ بدل «ما» أي بئس الكفر الذي أخذه مقابل أنفسهم،
 وذلك تشبيه، فكأن الكفر والإسلام، سلعتان فمن أختار أحدهما باع
 نفسه بذلك الشيء، إذ يصرف نفسه في سبيل ذلك، فإذا باع نفسه
 مقابل الإسلام كان نعم ما اشترى به نفسه، وإذا باع نفسه مقابل الكفر
 كان بئس ما اشترى به نفسه، واشترى هنا بمعنى البيع، كما قال (وَمَنْ
 النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ) ^(٢) ﴿بغياً﴾ أي حسداً، وهو
 علة لإشترائهم السيئ، أي كان سبب شرائهم الكفر الحسد، الذي كان
 فيهم لمحمد ﷺ، حيث أنه من ولد إسماعيل، لا من ولد جدهم
 إسحاق عليه السلام ﴿أن ينزل الله﴾ الدين ﴿من فضله على من يشاء من
 عباده﴾ وأن ينزل، متعلق بـ «بغياً» أي أن الحسد من جهة نزول القرآن

(١) النساء: ٥٢.

(٢) البقرة: ٢٠٨.

فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩١﴾
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ
عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ
قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿٩٢﴾

على محمد ﷺ دون غيره ﴿فباءوا﴾ أي رجع اليهود ﴿بغضب على غضب﴾ فإنهم كانوا مغضوبين عليهم من جهة تعدياتهم في زمان موسى وعيسى، وسائر الأنبياء ﷺ، فغضب الله عليهم مرة أخرى من جهة كفرهم بمحمد ﷺ ﴿ولللكافرين﴾ الذين من أظهر مصاديقهم اليهود ﴿عذاب مهين﴾ وهو العذاب الذي يدل صاحبه ويهينه.

[٩٢] ﴿وإذا قيل لهم﴾ أي لليهود ﴿آمنوا بما أنزل الله﴾ على محمد ﷺ ﴿قالوا نؤمن بما أنزل علينا﴾ من التوراة ﴿ويكفرون بما وراءه﴾ أي وراء ما نزل عليه من كتاب عيسى ﷺ ومحمد ﷺ ﴿وهو﴾ أي ما وراء كتابهم ﴿الحق مصدقاً لما معهم﴾ والجملة حالية ﴿قل﴾ إنكم تكذبون في قولكم «نؤمن بما أنزل علينا» فإنكم لستم بمؤمنين، حتى بالتوراة وإلا ﴿فلم تقتلون أنبياء الله من قبل﴾ في السابق ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ بالتوراة، فإن كتابكم حرم قتل الأنبياء، فأنتم لستم بمؤمنين، لا بكتابكم، ولا بما بعد كتابكم من الإنجيل والقرآن.

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَايَا مُّرْكُم بِهِ إِيْمَانُكُمْ

=====

[٩٣] ﴿و﴾ كيف تقولون «نؤمن بما أنزل علينا» وعملكم، يدل على خلاف ذلك، ف ﴿لقد جاءكم موسى بالبينات﴾ أي بالحجج الواضحة ﴿ثم اتخذتم العجل﴾ إلهاً لكم ﴿من بعده﴾ أي بعد رواحه إلى الطور ﴿و﴾ الحال ﴿أنتم ظالمون﴾ لأنفسكم في عبادة العجل، فلو كنتم مؤمنين بما نزل عليكم، لم تتخذوا العجل إلهاً ؟.

[٩٤] ﴿و﴾ اذكروا يا بني إسرائيل ﴿إذ أخذنا ميثاقكم﴾ عهدكم الشديد، بالعمل بالتوراة ﴿و رفعا فوقكم الطور﴾ أي قطعة من جبل الطور - كما تقدم - وقلنا لكم ﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي بشدة، بمعنى العمل، بكل ما في الكتاب عملاً مستمراً قوياً ﴿واسمعوا﴾ أوامر الله سبحانه ﴿قالوا سمعنا وعصينا﴾ حكاية حالهم، ويحتمل أنهم قالوه بلفظهم استهزاء ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ فكما أن من شرب الماء يدخل الماء في جوفه، كذلك اليهود، دخل العجل - أي حبه - في قلوبهم ﴿ب﴾ سبب ﴿كفرهم﴾ بالله سبحانه ﴿قل﴾ يا رسول الله ﷺ لهم ﴿بئسما يأمركم به إيمانكم﴾ الذي قلت «نؤمن بما أنزل علينا» فإن الإيمان الذي يأمر باتباع العجل، ليس إيماناً، وإنما هو كفر.

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٤﴾ قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ
 الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ
 أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٦﴾

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وهذا استهزاء لهم، ثم إنه إنما كرر «رفع الطور»
 للدلالة، على أنهم عكسوا الميثاق الذي أخذ منهم، حال الرفع، بل
 اتخذوا العجل إلهاً.

[٩٥] ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهؤلاء اليهود، الذين يقولون أن الآخرة هي لهم
 وحدهم لا يشركون فيها غيرهم من النصارى والمسلمين وغيرهما
 ﴿إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ﴾ عند الله
 صفة للدار الآخرة، أي الدار التي هي عند الله، ومن دون الناس صفة
 لخالصته، أو لقوله «لكم» ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ لأن من يدري أن مصيره
 الجنة، لا بد وأن يتمنى الموت، حتى يخلص من آلام الدنيا وأتاعها
 ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في مقالكم وكنتم تعتقدون ما تقولونه بألسنتكم.

[٩٦] ثم أخبر سبحانه بأنهم ليسوا صادقين ﴿و﴾ الدليل على ذلك أنهم ﴿لَنْ
 يَتَمَنَّوَهُ﴾ أي الموت ﴿أَبَدًا﴾ في حين من الأحيان ﴿بِ﴾ سبب ﴿مَا
 قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ من المعاصي والمنكرات والكفر، وإنما نسب التقديم
 إلى اليد لأنها الآلة الظاهرة في تقديم الأشياء المحسوسة غالباً ﴿وَاللَّهُ
 عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فلا يغترون بمقالهم، أن لهم الآخرة، وأنهم أحباء
 الله دون سواهم.

وَلَنَجْذَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوَةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا
يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزٍهُ مِنَ
الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ قُلْ مَنْ
كَانَ عَدُوًّا

=====

[٩٧] ﴿و﴾ كيف يتمنون الموت، والحال أنك يا رسول الله ﴿لنجدنهم
أحرص الناس على حياة﴾ فإنهم أشد حرصاً من سائر الناس على
البقاء في الدنيا، لأنهم يعلمون أن آخرتهم إلى النار والعذاب ﴿و﴾
حتى أنهم أحرص ﴿من الذين أشركوا﴾ إذ المشرك، يزعم أنه لا شيء
وراءه، فيكون حريصاً على البقاء لئلا يفنى، وهؤلاء حيث يعلمون
العقاب، فهم أحرص من المشركين ﴿يود﴾ أي يحب ﴿أحدهم﴾ أي
كل واحد منهم ﴿لو يعمر﴾ ويطول عمره ﴿ألف سنة﴾ حتى لا يذوق
العذاب عاجلاً ﴿و﴾ الحال ﴿ما هو﴾ أي ليس التعمير ألف سنة
﴿بمزحزحه من العذاب﴾ زحزحه أي نحاه، وقوله ﴿أن يعمر﴾ بدل
«هو» أي ما التعمير بمزحزحه من العذاب، فما الفائدة في البقاء ألف
سنة لمن عاقبته النار ﴿و﴾ الله بصير بما يعملون ﴿من الكفر والسيئات،
فيجازيهم عليها يوم القيامة بالنار والعذاب.

[٩٨] ﴿قل﴾ يا رسول الله ﷺ لليهود الذين جاءوك وقالوا لك لو أن الملك
الذي يأتيك ميكائيل لآمنا بك فإنه ملك الرحمة يأتي بالسرور والرخاء
وهو صديقنا وجبرائيل ملك العذاب ينزل بالقتل والشدة والحرب
وهو عدونا فإن كان ينزل عليك جبرائيل لا نؤمن بك ﴿من كان عدواً

لِجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٨﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَدَلْ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٩﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٠﴾

لجبريل فإنه ليس سبباً فيما يعمل حتى تتخذونه عدواً بل إنه ﴿نزله﴾ أي القرآن ﴿على قلبك بإذن الله﴾ لا من عند نفسه ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ أي للكتاب الذي قبله وهو التوراة ﴿وهدى وبشرى للمؤمنين﴾ فأى ذنب لجبريل عليه السلام حتى تتخذونه عدواً ولا تؤمنون بالكتاب الذي يأتي به .

[٩٩] ﴿من كان عدواً لله﴾ أي يفعل فعل المعادي من الإتيان بما يكرهه سبحانه ﴿وملائكته ورسله وجبريل وميكال﴾ وإنما خصهما بالذكر لأنهما موضع البحث مع اليهود ﴿فإن الله عدو للكافرين﴾ إذ كل من يعادي أحد هؤلاء يكون كافراً والله عدو لمن كفر أي يفعل معه فعل المعادي من الإهانة والتعذيب والعقاب .

[١٠٠] ﴿ولقد أنزلنا إليك﴾ يا رسول الله ﷺ ﴿آيات بينات﴾ واضحات ﴿وما يكفر بها إلا الفاسقون﴾ الفاسق هو الخارج عن طاعة الله سبحانه .

أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ
مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾
وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنٌ

=====

[١٠١] ﴿أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا﴾ أي اليهود ﴿عَهْدًا نَبَذَهُ﴾ أي نقضه ﴿فريق منهم﴾ أي جماعة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا إنكار عليهم في نقضهم عهود الأنبياء السابقين بإطاعتهم ونقضهم عهود رسول الله ﷺ في قصة نضير وقريضة والمراد بالإيمان: إما الإيمان بالعهود وإما الإيمان بالله ورسوله وإما الإيمان بالرسول ﷺ ، وإنما قال أكثرهم لأن بعضهم آمن كعبد الله بن سلام .

[١٠٢] ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي اليهود ﴿رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ كعيسى ﷺ ومحمد ﷺ ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ من التوراة ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ﴾ أي جماعة ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود الذين آتاهم الله التوراة ﴿كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ وتركوا أوامره باتباع الأنبياء ﷺ من بعد موسى ﷺ ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي من أحكام التوراة الإيمان بالأنبياء واتباع الرسل .

[١٠٣] ﴿وَاتَّبَعُوا﴾ عوض الكتاب - السحر - فنبدوا الكتاب وراء ظهورهم وراحوا يتعلقون به ﴿مَا تَتْلُوا﴾ وتقر ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ والسحرة ﴿عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ﴾ بن داود ﷺ حيث أن الشياطين على لسان السحرة على

وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ

زمان سليمان كانوا يتلون السحر للناس و«على» بمعنى «في» كما قال ابن مالك «على للاستعلاء ومعنى في وعن» أي أن اليهود أخذوا يتعلمون بالسحر الذي كان في زمان سليمان يريدون بذلك جلب الأموال والتقرب إلى الناس وكانوا يقولون أن سليمان عليه السلام إنما أوتي الملك العظيم بسبب أنه كان يعمل بالسحر فرد الله عليهم بقوله ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ فإن السحر موجب للكفر ولا يخفى أن الكفر على نوعين: كفر في العقيدة وكفر في العمل، فالكفر في العقيدة هو إنكار أصول الدين، والكفر في العمل هو ترك واجب أو فعل، ولذا شاع استعمال الكفر على ترك الأوامر وفعل النواهي كقوله تعالى (وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)^(١) في قصة الحج وقوله (وَلَيْتَ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ)^(٢) في باب الشكر وقول النبي ﷺ «كفر بالله العظيم من هذه الأمة عشرة» وعذّب منها النمام ونحوه وعلى أي حال فسليمان ما كان ساحراً ولم ينل مانال بالسحر وإنما بالنبوة والموهبة الإلهية.

﴿ولكن الشياطين كفروا﴾ بعملهم بالسحر وتعليمهم للناس إياه والشياطين أرواح شريرة تلقي الشر في النفوس كما ثبت في العلم الحديث أيضاً وغيره في باب التحضير والتنويم المغناطيسي ﴿يعلمون الناس السحر﴾ والسحر أمور غير طبيعية تأتي بعلاج خفي ومنه التصرف

(١) آل عمران: ٩٨ .

(٢) إبراهيم: ٨ .

وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعْلِمَانِ
مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ
مِنْهُمَا مَا يَفْرِقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ

في العين وفي النفس وفي العقل فيوجب عداوة بين الناس ومرضاً وما
أشبه ﴿وما أنزل على الملكين﴾ عطف على قوله «ما تتلوا» أي أن اليهود
تركوا الكتاب واتبعوا سحر الشياطين وسحر الملكين ومن قصتهما أن
بعد نوح عليه السلام كثرت السحرة فأنزل الله ملكين في «بابل» على نبي ذلك
الزمان حتى يعلمان الناس إبطال السحر فكانا يقولان للناس «هذا السحر
وهذا إبطاله» كالطبيب الذي يكتب كتاب الطب فيصف الدواء وما يسببه
والدواء المزيل له فيقول مثلاً إن الشيء الفلاني سم ودواؤه كذا فكان
الملكان يعلمان السحر وإبطاله ويحذران الناس أن يعملوا بالسحر وإنما
يصران أن يبطلوا السحر فإذا تعلم منهما الناس أخذ بعضهم بالسحر كما
أن الشخص يقرأ كتاب الطب فيسقي الناس السم لم يكن ذلك من ذنب
المؤلف للطب وإنما هو من العامل بما يضر الناس .

فقد ترك اليهود كتاب الله وأخذوا بالعلم الذي أنزل - أي أنزل
الله - على الملكين الذين نزلا ﴿ببابل﴾ وهما ﴿هاروت وماروت﴾
ولا يظن أحد أنهما كيف يعلمان السحر للناس وهما ملكان من قبل الله
تعالى ﴿و﴾ ذلك لأنه ﴿ما يعلمان من أحد﴾ أي ما يعلمان أحد السحر
﴿حتى يقولا﴾ له ﴿إنما نحن فتنة﴾ وامتحان لك وكان تعليم للعلاج
لا للإضرار ﴿فلا تكفر﴾ بأعمال السحر ﴿فيتعلمون﴾ أي الناس
﴿منهما﴾ أي من الملكين ﴿ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ وما

وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ

=====

يوجب العداوة والبغضاء بين الزوجين مما يؤول إلى الفراق والطلاق ﴿و﴾ لا يتوهم أن الأمر خرج من يد الله سبحانه كلا بل إنما شاء الله أن يختبر عباده كما أنه حين يخلق العنب ويعطي القدرة للبشر فيعصره خمراً لا يخرج الأمر من يده سبحانه بل إنما ذلك للامتحان والابتلاء ولهذا قال سبحانه ﴿ما هم﴾ أي الملكان ومتعلم السحر منهما ﴿بضارين به﴾ أي بسبب السحر ﴿من أحد إلا بإذن الله﴾ فإن شيئاً لا يؤثر في شيء إطلاقاً إلا بإذن الله ومعنى إذنه أنه يخلي بين المؤثر والمتأثر ولو لم يخل كان عالم الجبر وبطل الامتحان والاختبار والمراد بهذه الجملة أن شيئاً لا يخرج من إرادة الله سبحانه حتى أن يتمكن من الردع لكنه لا يردع.

﴿ويتعلمون﴾ أي يتعلم الناس من الملكين ﴿ما يضرهم﴾ أي الشيء الذي يضرهم في دنياهم ودينهم ﴿ولا ينفعهم﴾ أكد بذلك رداً لزعمهم أن السحر ينفعهم حيث يوصلهم إلى أغراضهم ﴿ولقد علموا لمن اشتراه﴾ أي علم المتعلمون للسحر أن من اشترى السحر وباع دينه ﴿ما له في الآخرة من خلاق﴾ أي من نصيب ﴿وللبئس ما شروا به أنفسهم﴾ فإنهم أعطوا أنفسهم للنار مقابل اشتراء السحر الذي زعموا

لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا
 لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾
 يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا
 وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٥﴾

إنه ينفع دنياهم ﴿لو كانوا يعلمون﴾ نزل العالم بالشيء منزلة الجاهل
 حيث لم يعمل بعلمه فإن من لا يعمل بعلمه هو والجاهل سواء .

[١٠٤] ﴿ولو أنهم﴾ أي اليهود بدل اتباع السحر ﴿آمنوا﴾ حقيقة ﴿و اتقوا﴾
 عن فعل المعاصي ﴿لمثوبة﴾ أي ثواب ﴿من عند الله خير﴾ لهم في
 دنياهم وآخرتهم ﴿لو كانوا يعلمون﴾ لكنهم حيث لا يعملون بذلك
 فكأنهم لا يعلمونه .

[١٠٥] ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا﴾ للرسول حين كلامكم معه ﴿راعنا﴾
 فإن راعنا في اللغة العربية من المراعاة والرعاية ، ولكنها في لغة اليهود
 بمعنى «أسمعت لا سمعت» فهو سب ودعاء على المخاطب وقد
 كانت اليهود اغتنمت هذه الكلمة المتشابهة لسب النبي ﷺ بهذا
 العنوان فكانوا يأتون إلى الرسول ﷺ ويقولون له «راعنا» يريدون
 بذلك سبه ﷺ فنهى الله المسلمين عن هذه اللفظة حتى لا يتمكن
 اليهود من التكلم بهذه الكلمة ﴿وقولوا﴾ عوض ذلك ﴿انظرننا﴾ أي
 انظر إلينا بنظرتك الرحيمة ﴿واسمعوا﴾ أيها المؤمنون أوامرنا وأمر
 الرسول ﷺ ﴿ولللكافرين﴾ من اليهود الشاتمين للنبي ﷺ تحت
 ستار لفظة «راعنا» ﴿عذاب أليم﴾ أي مؤلم في الآخرة .

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
 أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
 بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٦﴾ مَا
 نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ
 تَعْلَمْ

[١٠٦] ﴿ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب﴾ من اليهود والنصارى
 والمجوس ﴿ولا﴾ من ﴿المشركين أن ينزل عليكم من خير من﴾ قبل
 ﴿ربكم﴾ سواء كان خيراً معنوياً كالنبوة والإرشاد والوحي أو مادياً
 كالغلبة والنصر والمال ﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾ فليس إرادة
 الله تبعاً لإرادة الكفار والمشركين ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ فليس
 فضله خاصاً بقوم من الكفار كما كانت اليهود تزعم أن النبوة فيهم دون
 غيرهم.

[١٠٧] ﴿ما ننسخ من آية﴾ بأن نرفع حكمها ونجعل مكانه حكماً آخر ﴿أو
 ننسها﴾ بأن نرفع رسمها ونبلي عن القلوب حفظها، والنسيان لا يقع
 بالنسبة إلى القرآن الكريم وإنما بالنسبة إلى الكتب السالفة ولذا لا يوجد
 كثير منها فعلاً، أما النسخ فإنه وقع بالنسبة إلى القرآن - على الأشهر -
 وإلى غيره ﴿نأت بخير منها أو مثلها﴾ وإنما يقع النسخ والإنشاء فيما
 يؤتى بالمثل لأن المثل أصلح من المنسوخ والمنسي، فمثلاً إذا سقطت
 ورقة مالية عن الاعتبار فيأتي الحاكم بورقة أخرى مثلها في القيمة، كما
 أنه قد يأخذ درهماً من زيد ليعطيه بدله ديناراً ﴿ألم تعلم﴾ أيها اليهودي

أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٧﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا
نَصِيرٍ ﴿١٠٨﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ
مُوسَى

المنكر للنسخ ﴿أن الله على كل شيء قدير﴾ فإن اليهود كانوا يلقون الشبهة بأنه كيف يمكن نسخ كتابهم بالقرآن وأنه إن كان كتابهم صالحاً فلماذا ينسخ وإن لم يكن صالحاً فلماذا أنزله الله تعالى، وقد كان الجواب إن عدم النسخ إما لعدم مثل أو أصلح وإما لعدم قدرة الله تعالى على النسخ وكلا الأمرين مفقودان، فالمثل والأصلح موجودان والله على كل شيء قدير.

[١٠٨] ﴿ألم تعلم﴾ أيها المنكر للنسخ ﴿أن الله له ملك السماوات والأرض﴾
فيتصرف فيما يشاء من الأوضاع والأحكام كيف يشاء ﴿وما لكم من
دون الله﴾ أي غير الله ﴿من ولي﴾ يلي أموركم ﴿ولا نصير﴾ ينصركم
فهو سبحانه يرى صلاحكم في النسخ والإنشاء فإن المصالح تختلف
حسب اختلاف الأعصار والأشخاص، ولقد كان شأن آيات الله أن
تنهض بالبشر مرتبة فمرتبة حتى وصلت النوبة لرسالة الإسلام وهذه
بدلت بعض جزئياتها قبل تمامها وكمالها تحقيقاً للتناسق بين الرسالة
وبين العصر، حتى إذا كملت لم يبق مبرر أو تحويل بل تبقى إلى الأبد.

[١٠٩] ﴿أَمْ تَرِيدُونَ﴾ أيها المعاصرون للرسول ﷺ من مسلم وكتابي ومشرِك ﴿أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ﴾ أسئلة تغت ولجاجة ﴿كَمَا سَأَلَ مُوسَى

مِنْ قَبْلُ ۖ وَمَنْ يَتَّبِدِ الْكُفَرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ
الْطَّبِيلِ ﴿١٠٩﴾ وَكَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ
يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ
أَنفُسِهِمْ

من قبل ﴿﴾ حيث كانوا يقترحون عليه اقتراحات ويسألونه محالات
كقولهم لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، فإن المعاصرين كانوا
يسألون ما لا يعنيههم أو ما أشبه كقولهم (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ
عَلَيْنَا كِسْفًا) ^(١) فقد زجرهم الله سبحانه لهذه الأسئلة التي لا ترتبط
بمقام الرسول والرسالة من بعد ما تبين لهم الهدى، وقوله «رسولكم»
لا يختص بالمؤمنين إذ يكفي في الإضافة أدنى ملابسة ﴿و من يتبدل
الكفر بالإيمان﴾ بأن يأخذ الكفر ويترك الإيمان الذي من مصاديقه
الأسئلة التعنتية إذ إنها من سمات الكفر والانحراف ﴿فقد ضل سواء
السبيل﴾ أي وسطه الموصول إلى المطلوب.

[١١٠] ﴿ود﴾ أي أحب ﴿كثير من أهل الكتاب﴾ اليهود والنصارى
والمجوس ﴿لو يردونكم﴾ أيها المسلمون ﴿من بعد إيمانكم كفاراً﴾
فتكونون مثلهم ﴿حسدا﴾ لكم كيف صرتم إلى حضرة الإيمان
وتقدمتم في الحياة وهذا الحب ليس من جهة أنهم متدينون فيأسفون
عليكم لماذا تركتم الإيمان بل الحب ﴿من عند أنفسهم﴾ تشبيهاً

مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ
 اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١١﴾ وَأَقِيمُوا
 الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ
 عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَقَالُوا لَن
 يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ

=====

وحسب أهوائهم أي أن مبدأ الحب هوى النفس لا الدين ﴿من بعد ما تبين لهم الحق﴾ فليس ذلك لجهلهم بدينكم وحقيقتكم ﴿فاعفوا﴾ أيها المسلمون عنهم ﴿واصفحوا﴾ عن أعمال الكفار ولا تقابلوا إساءتهم بالمثل ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ فيأذن لكم في المباراة والمقاتلة والمقابلة بالمثل ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فيأتي يوم يجعلكم أقوياء فتتمكنوا من محاربة هؤلاء الكفار فيأذن لكم في المباراة معهم.

[١١١] ﴿و﴾ أما إذا لم يأت الله بأمره فـ ﴿أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ ولا تبارزوا ﴿وما تقدموا لأنفسكم﴾ من إعطاء الزكاة وسائر الخيرات التي هي لأنفسكم لأنها تعود إليكم في الدنيا بالآلفة وفي الآخرة بالثواب ﴿من خير تجدوه عند الله﴾ يوم القيامة و﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ فلا يضيع شيء يصرف في وجهه ولا عمل يؤتى لأجله.

[١١٢] ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ قالت اليهود: لن يدخلها إلا اليهود، وقالت النصارى: لن يدخلها إلا النصارى، وهود جمع هائد، كعود جمع عائد ﴿تلك﴾ المقالة

أَمَانِيَهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١٢﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ

=====

﴿أمانيتهم﴾ جمع أمانة أي رغبتهم الكاذبة ﴿قل﴾ يا رسول الله ﷺ لهم ﴿هاتوا﴾ أي احضروا وجيئوا ﴿برهانكم﴾ ودليلكم على ما تدعون ﴿إن كنتم صادقين﴾ في مقاتلكم .

[١١٣] ﴿بلى﴾ جواب سؤال تقديره أفليس يدخل الجنة أحد ومن هو؟ فقيل ﴿من أسلم وجهه لله﴾ وخص الوجه لأنه أشرف الأعضاء فإذا أسلمه الشخص فقد أسلم جميع جوارحه ﴿وهو محسن﴾ في عمله ﴿فله﴾ أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿فهو يدخل الجنة سواء كان يهودياً في زمان موسى أو نصرانياً في زمان عيسى أو مسلماً في زمان محمد أو من سائر الأمم في زمان أنبيائها ﷺ﴾ .

و هذا كلام معه دليله إذ معيار الدخول في الجنة الإيمان والعمل الصالح فلا يقال لمن يقول ذلك : هات برهانك .

[١١٤] ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء﴾ وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ﴿من دين وإيمان وتقوى فكل طائفة تجعل نفسها الناجية وغيرها الهالكة﴾ ﴿والحال إن﴾ هم يتلون الكتاب ﴿والتالي

كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٤﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ
مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا
أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ

للكتاب لا يحق له أن يقول مثل هذه المقالة إذ كل منهم يعلم أن صاحبه على بعض الشيء، فإن اليهود يعرفون أن النصارى لهم إيمان في الجملة وكذلك النصارى يعرفون أن اليهود لهم إيمان في الجملة ﴿كذلك﴾ القول ﴿قال الذين لا يعلمون﴾ من الكفار ﴿مثل قولهم﴾ وهذا تأنيب للطائفتين حيث صاروا كمن لا كتاب له وهو جاهل فإن الجاهل يمكن أن يقول ليس اليهود أو النصارى على شيء لأنه يزعم بطلان كليهما ﴿فالله يحكم بينهم﴾ جميعاً ﴿يوم القيامة﴾ وهناك يتبين لكل طائفة إنه على شيء أم لا ﴿فيما كانوا فيه يختلفون﴾ ولعل تخصيص الحكم بهناك لأن هناك لا تبقى شبهة في الحكم بخلاف حكمه سبحانه في الدنيا فإن من لا يؤمن بالاسلام لا يعترف بحكمه .

[١١٥] ﴿و من أظلم ممن منع مساجد الله﴾ وهي عامة لكل مانع وإن كان ينطبق على أهل مكة الذين منعوا الرسول ﷺ عن المسجد الحرام وبخت نصر الذي منع عن بيت المقدس ﴿أن يذكر فيها اسمه﴾ أي لا أحد أظلم من هكذا شخص والحصص المستفاد من الآية إضافي وإلا فمن قتل الأنبياء أظلم ﴿و سعى في خرابها﴾ خراباً معنوياً بمنع المصلين عنها أو خراب العمارة والبناء ﴿أولئك ما كان لهم أن

يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي
 الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا
 تُولُوا فَشَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٦﴾ وَقَالُوا
 اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا

يدخلوها إلا خائفين ﴿ من عذاب الله سبحانه، فمن يسعى في خراب
 المساجد كيف يدخلها آمناً أو خائفين من المسلمين أن يعاقبوه ﴾ ﴿لهم
 في الدنيا خزي﴾ بالعقاب الإسلامي لمن فعل ذلك أو إخبار بخزي
 عن الله سبحانه ينزل بمن يسعى في خراب المساجد ﴿و لهم في
 الآخرة عذاب عظيم﴾ حيث يذوق النار مهاناً ولعل هاتين الآيتين أيضاً
 تلميح إلى فعل اليهود بمنعهم عن المساجد .

[١١٦] ﴿و لله المشرق والمغرب﴾ فكلتا الجهتين له سبحانه خلقها وهما
 ملك له وحده ﴿فأينما تولوا﴾ وجوهكم ﴿فشم وجه الله﴾ وجه الله جانبه
 أي أن الله سبحانه محيط بالعلم والقدرة على كل ناحية فإذا توجه
 الإنسان إلى المشرق فقد توجه إلى الله وإذا توجه إلى المغرب فقد توجه
 إلى الله، وليس الله جسماً حتى يكون له مكان معين يلزم التوجه إليه ﴿إن
 الله واسع﴾ علماً وقدرة لأنه محيط بجميع الجهات ﴿عليم﴾ بما يفعله
 الإنسان من التوجه إلى أية ناحية، وربما قيل بأنها نزلت في رد اليهود
 الذين قالوا كيف انصرف محمد ﷺ عن قبله بيت المقدس إلى الكعبة .

[١١٧] ﴿وقالوا﴾ اليهود عزيز ابن الله والنصارى قالوا المسيح ابن الله
 والمشركون قالوا الملائكة بنات الله ﴿اتخذ الله ولداً﴾ أما بأن أولده

سُبْحَنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُونَ ﴿١١٧﴾
 بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ
 كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ
 أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ

=====

كما زعم بعضهم أو أتخذ بعنوان التبني ﴿سبحانه﴾ أي أنزهه عن ذلك
 تنزيهاً ﴿بل له ما في السماوات والأرض﴾ فكيف يكون المملوك ولداً
 إذ الولد ليس ملكاً للوالد، ثم إن المملوك تحت التصرف فالتبني
 لماذا... ؟ ﴿كل﴾ أي كل من السماوات والأرض ﴿له﴾ تعالى
 ﴿قانتون﴾ أي خاضعون ومطيعون.

[١١٨] ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي مبدعهما ومنشئهما وخالقهما وهذا
 تأكيد لما في الآية السابقة من أنه «له ما في السماوات والأرض» ﴿و
 إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ وأرادهُ ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ﴾ أي لذلك الأمر المراد ﴿كُنْ﴾
 أي يأمره بأن يوجد ﴿فَيَكُونُ﴾ أي فيوجد عقيب أمره فالكون بهذا
 النحو طوع وإرادته وأمره.

[١١٩] ﴿و﴾ بعد ذكر اختلاف أهل الكتاب ومنعهم وسائر المشركين عن
 المساجد، وشركهم في باب التوحيد، تعرض القرآن الحكيم حول
 كلامهم بالنسبة إلى الرسالة، فقال، و﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ موازين
 الوحي والرسالة ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ أي هلاً يكلمنا ربنا، بأن يأمرنا
 بأوامره، بدون احتياج إلى وسيط، أو يكلمنا بأنك نبي ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾
 ومعجزة حسب اقتراحنا ﴿كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ لأنبيائهم ﴿مِثْلَ

قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٩﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١٢٠﴾ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ

قولهم ﴿لموسى عليه السلام﴾ أرنا الله جهرة ﴿تشابهت قلوبهم﴾ في الإنكار وفي الاقتراح والتعنّت ﴿قد بينا الآيات﴾ فلا حاجة إلى تكليم الله، ولا إلى الإتيان بخوارق اقترحوها، إذ لو كان مرادهم بيان الحق والبرهان، فقد فعلنا ذلك، وإن كان مرادهم غير ذلك فليس على الله إلا إتمام الحجة ﴿لقوم يوقنون﴾ إنما خصهم لأنهم الذين يستفيدون منها ويتنفعون بها.

[١٢٠] ﴿إنا أرسلناك﴾ يا رسول الله ﴿بالحق﴾ تأكيد للإرسال، إذ كل إرسال الله تعالى بالحق ﴿بشيراً﴾ تبشر المؤمنين المطيعين ﴿ونذيراً﴾ تنذر الكافرين والعاصين، فأنت رسولنا، وإن كانوا يشكون في رسالتك، ويسألونك عن أشياء تافهة ﴿ولا تسأل﴾ أنت ﴿عن أصحاب الجحيم﴾ فلست أنت مكلفاً عنهم، وإنما عليك التذكير فقط.

[١٢١] ﴿و﴾ حيث أن من طبيعة الحال أن كل صاحب مبدأ ليستميله الخصماء إلى ناحيتهم، ويعدونه الرضا عنه، إذا مال نحوهم بين الله تعالى لنبيه، أن ذلك سراب خادع ويجب أن لا يغتر به الإنسان، إذ ﴿لن ترضى عنك اليهود ولا النصارى﴾ إلى الأبد ﴿حتى تتبع ملتهم﴾ وتدخل في طريقتهم، إذ كل ذي طريقة لا يرض عن شخص إلا

قُلْ إِن هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ
 الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٧١﴾
 الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ
 وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٢﴾ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ
 أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ

بدخوله في طريقته تماماً وكمالاً ﴿قل﴾ يا رسول الله ﷺ ﴿إن هدى الله﴾ الذي هو الإسلام ﴿هو الهدى﴾ فقط دون ما سواه من اليهودية والنصرانية ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ إشارة إلى أن دينهم ليس إلا هوى أنفسهم، وليس من عند الله سبحانه ﴿بعد الذي جاءك من العلم﴾ بالإسلام وشرائعه و بطلان اليهودية والنصرانية ﴿مالك﴾ أي ليس لك ﴿من الله﴾ أي من طرف الله ﴿من ولي ولا نصير﴾ أي فلا يلي الله تعالى أمورك ولا ينصرك.

[١٧٢] ﴿الذين آتيناهم الكتاب﴾ التوراة والإنجيل الموصوفين بكذبهم ﴿يتلونهم﴾ حق تلاوته ﴿بالعمل بما في الكتاب﴾ ﴿أولئك يؤمنون به﴾ أي بالنبي ﷺ أو بالقرآن أو بالإسلام أو بكتابهم إيماناً صحيحاً، لا كإيمان المعاندين الذين يأخذون ببعض الكتاب دون بعض ﴿ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون﴾ في الدنيا وفي الآخرة، أما في الدنيا، فلأن منهاج الله سبحانه هو المنهاج المسعد في الحياة، فإذا عرض عنه الإنسان، كانت معيشته ضنكاً، وأما في الآخرة، فللعذاب المعد للكافرين.

[١٧٣] ﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ من إرسال

وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٣﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذْ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ

الرسول إليكم، وإهلاك عدوكم، وجعلكم ملوكاً وتوسيع الدنيا لكم ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ في زمانكم، التي هي من أعظم النعم - وقد تقدم الكلام في مثل هذه الآية -.

[١٢٤] ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا﴾ أي يوم القيامة، الموصوف بأنه ﴿لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ هناك وإنما ترى كل نفس جزاؤها العادل، فلا يحمل أحد وزر أحد ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾ أي فدية تعادله، فيفك نفسه بالفدية والمال ﴿وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةُ﴾ بدون رضى الله سبحانه ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ فلا ينصر أحد أحداً، وقد تقدمت مثل هذه الآية، لكن أريد الانتقال إلى موضوع آخر كرر المطلب السابق تذكيراً وتركيزاً.

[١٢٥] ﴿و﴾ حيث تم بعض الكلام عن اليهود والنصارى والمشركين، إنتقل السياق للكلام حول إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام وبناء البيت مما يشترك فيه الجميع، وإن تاريخهم قبل تاريخ اليهودية والنصرانية، وقد اعتاد أن يتكلم المتكلم عن الظروف المعاصرة، ثم ينتقل إلى التواريخ الغابرة، واذكر يا رسول الله ﴿إِذْ ابْتَلَىٰ﴾ امتحن ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ عليه السلام ﴿رَبِّهِ﴾ فاعل ابتلى، أي امتحن الله إبراهيم ﴿بِكَلِمَاتٍ﴾ أي بأمور، فإن الكلمة تقال للأمر، ولا يبعد أن يكون المراد بالكلمة نفس معناها العرفي، فالمعنى ابتلاه بكلمات تكلم الله أو الملك معه عليه السلام حولها لينفذها، ويأتي بمعناها، ولعل الكلمات كانت حول ذبح

فَاتَمَّهَنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا
يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ
وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى

إسماعيل عليه السلام ، أو حول مجابهة نمرود الطاغي ﴿فاتمهن﴾ بأن أطاع
الأمر كاملاً غير منقوص ﴿قال﴾ الله تعالى بعد إتمام الكلمات ﴿إني
جاعلك﴾ يا إبراهيم ﴿للناس إماماً﴾ والإمام هو المقتدى، وحيث أن
«الناس» كالجمع المحلى باللام أفاد العموم، ولا منافاة بين كونه عليه السلام
سابقاً نبياً ورسولاً، ولم يكن إماماً عاماً، ثم صار كذلك جزاء إتمام
الكلمات ﴿قال﴾ إبراهيم عليه السلام سائلاً الله تعالى ﴿و من ذريتي﴾ هل
تجعل يا رب إماماً؟ وهذا طلب المتأدب يأتي به في لسان الاستفهام
﴿قال لا ينال عهدي﴾ بالإمامة ﴿الظالمين﴾ وهذا جواب مع زيادة، إذ
المفهوم منه، نعم أجعل بعض ذريتك، لكن غير الظالم منهم، وإنما
خص هذا بالذكر، لبيان عظم مقام الإمامة.

[١٢٦] ﴿و﴾ اذكر يا رسول الله ﷺ ﴿إذ جعلنا البيت﴾ الحرام بمكة
المكرمة ﴿مَثَابَةً﴾ بمعنى مرجعاً فإن الناس يرجعون إليه كل عام،
و الرجوع بمناسبة مجموع الناس، وإن لم يرجع إليه كل فرد ﴿للناس
وَأَمْنًا﴾ فلا يحل القتال فيه، وإن من التجأ إليه يكون آمناً، فلا يجري
عليه الحد، ثم صار في الكلام التفات إلى الخطاب قائلاً ﴿و اتخذوا﴾
أيها المسلمون ﴿من مقام إبراهيم﴾ وهو الحجر الذي كان يضعه
إبراهيم عليه السلام تحت رجله لبناء أعالي الكعبة، الذي هو الآن بالقرب
من الكعبة ﴿مُصَلًّى﴾ أي محل للصلاة، فإنه تجب الصلاة للطواف

وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ
وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ
اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ
بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا

=====

حول مقام إبراهيم في الحج ﴿و عهدنا﴾ أي ذكرنا ﴿إلى إبراهيم وإسماعيل﴾ : الأب والابن ﴿أن طهرا بيتي﴾ طهارة معنوية، بعدم السماح لنصب الأصنام فيه وطهارة ظاهرية بالنظافة ﴿للطائفين﴾ أي الذين يطوفون حول البيت ﴿و العاكفين﴾ الذين يعتكفون في المسجد الحرام، وللاعتكاف مسائل وأحكام مذكورة في كتب الفقه^(١) ﴿و الركع﴾ جمع راعٍ ﴿السجود﴾ جمع ساجد، أي المصلين.

[١٢٧] ﴿و﴾ اذكر يا رسول الله ﷺ ﴿إذ قال إبراهيم﴾ في دعائه لله تعالى ﴿رب اجعل هذا﴾ البلد وهو مكة، التي بنى فيها البيت ﴿بلدًا آمنًا﴾ عن الأخطار، أو محكوماً بحكم الأمن حكماً شرعياً، وإن كان السياق يؤيد الأول ﴿و ارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر﴾ فإن دعاء إبراهيم ﷺ كان خاصاً بهم ﴿قال﴾ الله سبحانه في جواب إبراهيم ﷺ ما يدل على استجابة دعائه مع الزيادة، وهي ﴿و من كفر﴾ من أهل هذا البلد، لا تقطع عنه الثمار بل ﴿فأمتعه﴾ أي أعطيه المتاع من الحياة والرزق والأمن، وسائر الأمور ﴿قليلاً﴾ فإن

(١) راجع موسوعة الفقه ج ٧٧ ص ١٥١، في أحكام الاعتكاف.

ثُمَّ اضْطَرْهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيَبْسُ الْمَصِيرُ ﴿١٢٧﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ
إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ
أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ
ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا

عمر الدنيا قصير ، وأمدّها قليل ﴿ثم اضطّره﴾ أي أدفعه إلى النار
باضطرار منه ، فما من أحد يرضى بالنار ﴿إلى عذاب النار ويبس
المصير﴾ أي يبس المأوى والمرجع .

[١٢٨] ﴿و﴾ أذكر يا رسول الله ﷺ ﴿إذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت﴾
أي كان يبني أساس البيت الحرام ، ويرفعه من الأرض ، ويعاونه في
ذلك ﴿وإسماعيل﴾ ابنه ، وهما يقولان في حال البناء ﴿ربنا تقبل منا﴾
بناء البيت ﴿إنك أنت السميع﴾ دعاءنا ﴿العليم﴾ بما نعمله ونقصده .

[١٢٩] ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك﴾ في جميع أمورنا ، والدعاء بالإسلام ،
لا ينافي كونهما كذلك قبل الدعاء إذ الإسلام كسائر العقائد ، والأعمال
بحاجة إلى الاستمرار ، مما لا يكون إلا بهداية الله وتوفيقه ، فكما أن
الابتداء لا يكون إلا بعونه سبحانه ، كذلك الاستمرار ، كما في (أهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) ^(١) ﴿و﴾ اجعل ﴿من ذريتنا﴾ وأولادنا ﴿أمة مسلمة
لك﴾ والإسلام هو تسليم الأمور إلى الله سبحانه في الاعتقاد والقول
والعمل ﴿وأرنا﴾ أي عرفنا ﴿مناسكنا﴾ جمع منسك ، أي المواضع التي

وَتُبَّ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٩﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ
 فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٣٠﴾

تتعلق النسك بها، والنسك العبادة، يقال رجل ناسك، أي عابد، وقد
 استجاب الله دعاءهما، حيث أراهما جبرائيل عليه السلام موضع الصلاة،
 والوقوف، وغيرها ﴿وتب علينا﴾ أي أرجع إلينا بالمغفرة والرحمة،
 فإن التوبة بمعنى الرجوع، ولذا يقال الله «التواب» أي كثير الرجوع إلى
 عبده، ومن ذلك تعرف أنه لا دلالة للآية، على أنهما عليهما السلام، كانا قد
 أذنبنا ﴿إنك أنت التواب﴾ بعبادك ﴿الرحيم﴾ بهم.

[١٣٠] ﴿ربنا وابعث فيهم﴾ أي في الأمة المسلمة - التي طلبناها منك -
 ﴿رسولاً منهم﴾ من نفس الأمة، لا من سائر الأمم، حتى يكون لهم
 الشرف بكون الرسول منهم ﴿يتلو عليهم آياتك﴾ دلائلك، وبراهينك،
 وأحكامك ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ إما المراد: القرآن، أو المراد:
 «كتابك» على نحو الكلبي ﴿والحكمة﴾ هي وضع كل شيء موضعه
 والمراد بتعلمهم إياها، تعليمهم العلوم الكونية والتشريعة، فإن الجاهل
 لا يتمكن، من وضع الأشياء مواضعها لجهله بها ﴿ويزكيهم﴾ أي
 يطهرهم من الأدناس والقذارات الأخلاقية والأعمالية ﴿إنك أنت
 العزيز﴾ حقيقة، فإن العزة لا تكون إلا بقلّة الوجود، وكثرة الاحتياج،
 والله واحد لا شريك له، وجميع الاحتياجات إليه وتخصيص العزة هنا
 بالذكر، للتلميح إلى كون الاحتياج إليه ﴿الحكيم﴾ فأفعالك صادرة عن
 حكمة، وما طلبناه إنما كان عين الحكمة.

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ
 فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣١﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ
 أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣٢﴾ وَوَصَّى بِهَا

=====

[١٣١] هذه هي طريقة إبراهيم عليه السلام ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي من يعرض عن هذه الطريقة في التوحيد والتسليم وسائر ما ذكر مما يدل على أنها من أفضل الطرق ﴿إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي لا يترك هذه الملة، إلا من ضرب نفسه بالسفاهة والحمق، وهل هناك طريقة أفضل من هذه الطريقة؟ والاستفهام في قوله «من يرغب» استنكاري ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ﴾ جملة حالية، أي إنا بسبب هذه الطريقة المستقيمة، التي كانت لإبراهيم عليه السلام اخترناه نبياً ﴿فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الفائزين بالدرجات الرفيعة.

[١٣٢] ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ﴾ هذا متعلق بقوله «اصطفيناه» أي اخترناه لما قلنا له ﴿أَسْلِمْ﴾ في جميع أمورك لله ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وحده لا شريك له، ومعنى أسلم استقم على الإسلام، واثبت على التوحيد، كقوله تعالى (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرِ) (١) وكما يقول أحدنا لمن كان جالساً في مكان: أجلس هنا حتى الساعة العاشرة - مثلاً -.

[١٣٣] ﴿وَوَصَّى بِهَا﴾ أي بالملة والطريقة التي كانت لإبراهيم عليه السلام

إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَنْبِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي

﴿إبراهيم بنيه﴾ أولاده، وخصهم بالذكر، مع أن دعوة إبراهيم ﷺ كانت عامة، إشارة إلى لزوم دعوة الأهل بصورة خاصة إلى الحق، كما قال سبحانه (قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) ^(١) ﴿و﴾ وصى بها ﴿يعقوب﴾ حفيد إبراهيم من إسحاق، بنيه أيضاً وخص يعقوب لأنه جد اليهود، وكانت الوصية ﴿يا بني﴾ أي يا أبنائي، فهو جمع ابن، وأصله بنيني ﴿إن الله اصطفى﴾ أي اختار ﴿لكم الدين﴾ حتى تكونوا متدينين، ومعنى اختار الله الدين لهم، أنه سبحانه أعطاهم الدين، وأراد ذلك منهم مقابل بعض الأمم الوحشية الذين تركوا شأنهم، فلم تبلغهم دعوة الأنبياء ﴿فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ أي لا تتركوا الإسلام، فيصادفكم الموت على تركه، وإنما خص الموت، لأنه لو كان غير مسلم قبل ذلك، ثم أسلم ومات مسلماً لم يكن عليه بأس.

[١٣٤] ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ﴾ أيها المدعون إن الأنبياء كانوا يهوداً أو نصارى، فإن اليهود كانوا يقولون أن يعقوب النبي ﷺ أوصى بنيه باليهودية، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك بأنكم لم تكونوا حضوراً ﴿إذ حضر يعقوب الموت﴾ واقترب من الوفاة ﴿إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي﴾ على طريقة الاستفهام التقريري

قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٤﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ
خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٣٥﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ إبراهيم
جد يعقوب و إسماعيل عمه وإسحاق أبوه، وقدم إسماعيل لأنه كان
الأكبر سنًا، والأعلى منزلة، وسمى العم أبًا تغليبا، ولأن العرب
تسمى العم أبًا والخالة أمًا ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ بغير شريك ﴿وَنَحْنُ لَهُ
مُسْلِمُونَ﴾ فكان دينهم الإسلام، والإسلام هو دين جميع
الأنبياء ﷺ، لأن معناه التسليم لله في أوامره ونواهيه ونفي الله
سبحانه كون دين الأنبياء اليهودية أو النصرانية، يراد به نفيها بالمعنى
المتداول عند أهل الكتاب، وإلا فلا يهم الاسم، كما لا يخفى.

[١٣٥] ثم بين الله حقيقة هي أن الأمة الماضية ليست تهمكم، أيها
المعاصرون للرسول ﷺ وإنما المهم أعمالكم، فكيف كانت تلك
الأمة، فإنها قد ذهبت وفنت ﴿تِلْكَ﴾ أي إبراهيم وأولاده ﷺ ﴿أُمَّةٌ
قَدْ خَلَتْ﴾ أي ذهبت ومضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ فإن أعمالها ترتبط بها
لا بكم ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ فإن أعمالكم ترتبط بكم لا بهم ﴿وَلَا
تُسْأَلُونَ﴾ أنتم ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فأصلحوا أعمالكم.

[١٣٦] ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ أي قالت اليهود كونوا يهوداً وقالت
النصارى كونوا نصارى ﴿تَهْتَدُوا﴾ للحق وترشدوا ﴿قُلْ﴾ يا رسول

بَلْ مَلَّةٌ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٦﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٧﴾

=====

الله ﷻ ﴿بل﴾ نتبع ﴿ملة﴾ أي دين ﴿إبراهيم﴾ الصافي من شوائب اليهودية والنصرانية، وإنما هي الإسلام المصفى، وإن كان فرق بين الإسلام وبين دين إبراهيم ﷺ في بعض الخصوصيات التشريعية، فالمراد نفي النصرانية واليهودية ﴿حنيفاً﴾ أي مستقيماً عن الاعوجاج ﴿وما كان﴾ إبراهيم ﴿من المشركين﴾ كما أتم أيها اليهود والنصارى مشركون، إذ تقولون عزيز ابن الله، أو المسيح ابن الله، وعلى هذا فالمراد بإتباع ملة إبراهيم ﷺ إتباعها في التوحيد.

[١٣٧] ﴿قولوا﴾ أيها المسلمون، ما يجب عليكم أن تعتقدوا به، وما هي خلاصة الأديان السابقة واللاحقة، التي تعين زيف العقائد النصرانية واليهودية وغيرهما ﴿آمنا بالله و﴾ آمنا بـ ﴿ما أنزل إلينا﴾ من القرآن الحكيم ﴿وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ أحفاد يعقوب فإن كثيراً منهم كانوا أنبياء ﷺ نزلت عليهم الصحف ﴿و﴾ آمنا بـ ﴿ما أوتي موسى وعيسى و﴾ آمنا بـ ﴿ما أوتي النبيون﴾ قاطبة ﴿من ربهم لا نفرق بين أحدٍ منهم﴾ أي من الأنبياء ﷺ، فإننا نعتز بالجميع ﴿ونحن له﴾ أي لله سبحانه ﴿مسلمون﴾ فإن دين الأنبياء، ﷺ كلهم يتلخص في أصول وفروع

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ
وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٤٠﴾ أَمْ نَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى

لأغلبه من الشركاء الذين أنتم تعبدونها مع الله، أو من دون الله، وربما
يقال إن وجه التسمية بـ «الصبغة» أن النصارى كانوا يصبغون أولادهم بماء
أصفر يعمدونهم فيه، والآية من المشابهة كقوله سبحانه (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي
وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) (١).

[١٤٠] ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهؤلاء اليهود والنصارى وغيرهم ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾
أي تباحثون معنا ﴿في﴾ دين ﴿الله﴾ وإنه لم أنسخ أديانكم، ولم اختر
من العرب رسولا، ولم أفعل كذا وكذا؟ ﴿وهو ربنا وربكم﴾ أي أن
الله ليس ربا لكم فقط حتى يكون معكم وحدكم إلى الأبد ﴿ولنا
أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ فليس عملنا غير منظور إليه عند الله، وعملكم
منظور إليه، كما كانوا يزعمون قائلين نحن شعب الله المختار، ونحن
أبناء الله وأودائه ﴿ونحن له مخلصون﴾ إذ لا نشرك به أحدا بخلافكم
حيث جعلتم له شريكا.

[١٤١] ﴿أَمْ﴾ تباحثون معنا في أمر الأنبياء ﷺ و﴿تقولون إن إبراهيم
وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ أحفاد يعقوب الذين كانوا
أنبياء ﷺ ﴿كانوا هودا﴾ أي يهودا ﴿أو نصارى﴾ وهذا اشتباه منهم إذ
اليهودية والنصرانية، تولدتا بعد إبراهيم ﷺ، فكيف يكون إبراهيم

قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً
عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ تِلْكَ
أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ
عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٢﴾

أحدهما، كما قال سبحانه (وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ) ^(١) ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﷺ لهؤلاء المدعين بيهودية هؤلاء الأنبياء، أو نصرانيتهم ﴿أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ﴾ فالله سبحانه يقول لم يكونوا يهوداً ولا نصارى، وأنتم تقولون كانوا ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي لا أحد أظلم ممن يكتُم الشهادة التي عنده من الله سبحانه، فإن اليهود كانوا يكتُمون ما أنزل إليهم من البينات والهدى حول الأنبياء السابقين وحول نبي الإسلام ﴿وَمَا اللَّهُ﴾ أي ليس الله ﴿بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فإنه يعلم أعمالكم التي منها كتمانكم للشهادة، ثم يجازيكم عليها.

[١٤٢] ﴿تِلْكَ﴾ الأنبياء ﷺ وما كانوا يعملون ويتدينون لا يرتبطون بكم أيها المعاصرون للرسول، فإنها ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ ومضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ من الأعمال والأفعال ﴿وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ من الخير والشر ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ﴾ أنتم ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فلم هذه المباحثة والمحااجة والمجادلة.

نَفِثَ الْفِيلُ إِلَى الْإِثْلَاقِ هَا

الجزء الثاني

سورة البقرة

من آية (١٤٣) إلى (٢٥٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على
أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى
وعترته الطاهرين.

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبَلِهِمُ آلَتِي كَانُوا
عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٣﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا

[١٤٣] ﴿سيقول السفهاء﴾ جمع سفيه، وهو الغر والجاهل، وناقص العقل
﴿من الناس ما ولاهم﴾ أي أي شيء صرف المسلمون ﴿عن قبلتهم﴾
السابقة ﴿التي كانوا عليها﴾ يتوجهون في صلاتهم، وهي بيت
المقدس، فإن الرسول ﷺ والمسلمون كانوا يصلون إلى بيت
المقدس، وهو قبة اليهود، ثم في المدينة حولت القبلة إلى الكعبة،
وكان السبب الظاهر لذلك أن اليهود عابوا النبي بأنه يصلي إلى
قبلتهم، فحوله الله عنها إلى الكعبة، فأخذ اليهود يهرجون حول
تحويل القبلة ﴿قل﴾ يا رسول الله ﷺ ﴿الله المشرق والمغرب﴾ فمتى
شاء وجه عبده إلى حيث يشاء، وليست القبلة احتكاراً حتى لا يمكن
تحويلها ﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ وكما كان الصراط
المستقيم قبلاً بيت المقدس حال التوجه، كذلك صار الصراط
المستقيم، فعلاً الكعبة.

[١٤٤] ﴿و كذلك﴾ أي كما أن الله المشرق والمغرب، وأنه لا مناقشة في
ذلك ﴿جعلناكم﴾ أيها المسلمون، وفي التأويل، إن المراد بالخطاب
الأئمة عليهم السلام ﴿أمة وسطاً﴾ متوسطاً، والإطلاق وإن كان يفيد الوسطية
في كل شيء في العقيدة، فلا جمود ولا إلجاء، وفي المكان فهم
متوسطون بين شرق الأرض وغربها، وفي التشريع، فليس ناقصاً ولا
مغالياً، وهكذا إلا أن ظاهر قوله سبحانه بعد ذلك ﴿لتكونوا

شُهِدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا
جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ
مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ

شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴿ يفيد أن المراد بالتوسط الوسيلة بين الرسول وبين سائر الناس ، فالأمة تأخذ من الرسول - ويشهد الرسول عليهم بأنهم أخذوا منه ، حتى لا يقولوا ما عرفنا - وسائر الناس يأخذون من الأمة - وتشهد الأمة عليهم بأنهم أخذوا منها ، حتى لا يقول الناس لم نعرف - وهذا هو الظاهر من «لام» العلة في قوله «لتكونوا . . ويكون» ولعل ارتباط هذه الآية بما سبقها من حكم القبلة ، وما لحقها بيان أن المسلمين لهم مكان القيادة ، لأنهم الآخذون عن الرسول المبلغون للناس فالذي ينبغي أن تكون لهم سمة خاصة في شرائعهم ، حتى لا يرمون بالذيلية ، والإنباع لقبلة الآخرين ، ثم رجع السياق إلى حكم القبلة فقال سبحانه ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها﴾ وهي بيت المقدس الذي كان النبي ﷺ يتوجه نحوه في الصلاة ، طيلة كونه في مكة المكرمة ، ومدة بعد الهجرة ﴿إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾ معنى «لنعلم» أن يتحقق علمنا في الخارج ، بأن يظهر المتبع من المخالف ، فإنه قد يقال لنعلم ، ويراد به حصول العلم للمتكلم ، وقد يقال لنعلم ، والمراد به وقوع المعلوم في الخارج ، وفي بعض التفاسير أن قوماً ارتدوا على أدبارهم لما حولت القبلة^(١) ، فظهر

(١) مجمع البيان: ص ٤١٨ .

وَأِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٤﴾
قَدْ نَرَى

إنهم لم يكونوا يتبعون الرسول ﷺ حقيقة وإنما حسب الأهواء، والعقب مؤخر القدم، والمعنى التشبيه لمن يرتد كافراً، بمن يرجع الفهقرى ﴿وإن كانت﴾ مفارقة القبلة الأولى إلى قبلة أخرى ﴿لكبيرة﴾ إذ هو خرق لاعتقاد قديم مترکز ﴿إلا على الذين هدى الله﴾ إياهم بأن قوى قلوبهم بالإيمان ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أيها المسلمون الراسخون الذين اتبعتم النبي ﷺ، وهذا تقدير لهم في ثباتهم، ووعد لهم في الجزاء على إيمانهم الكامل، ويحتمل أن يكون جواباً عن سؤال وقع من بعضهم، وهو إنه كيف تكون حال صلواتهم السابقة التي صلوها إلى بيت المقدس، وإن كان الظاهر من كلمة «إيمان» المعنى الأول ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ فلا يضيع أتعابهم وأعمالهم.

[١٤٥] وبعد ما بين الحكم، وأن القبلة تحولت، بين الله سبحانه قصة التحويل، فإنها كالعلة للحكم المتقدم، والعلة دائماً تأتي متأخرة في الكلام، وإن كانت سابقة في التحقيق، كما يقال إنه إنسان طيب لأن تربيته حسنة ﴿قد نرى﴾ «قد» هنا للتحقيق نحو ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾^(١) وإن كان الغالب في «قد» الداخلة على المضارع، أن تكون بمعنى التقليل، ولعل سر دخولها، إشراب الفعل معنى التقليل، حيث لا يريد المتكلم

تَقَلَّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

إظهار العلم بالبت، مثله (وَأَنَا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى) ^(١) ﴿تقلب وجهك﴾ يا رسول الله ﴿في السماء﴾ أي في ناحية السماء، فإن الرسول ﷺ كان يقلب وجهه في أطراف السماء، فينتظر الوحي حول القبلة، وإن اليهود عيروهم ﷺ قائلين له أنك تابع لقبلتنا فلما كان في بعض الليل خرج ﷺ، يقلب وجهه في آفاق السماء، فلما أصبح صلى الغداة، فلما صلى من الظهر ركعتين، جاء جبرائيل عليه السلام بهذه الآية، ثم أخذ بيده فحول وجهه إلى الكعبة، وحول من خلفه وجوههم، حتى قام الرجال مقام النساء، والنساء مقام الرجال ﴿فلنولينك قبلة ترضاها﴾ إذ الرسول كان يحب الكعبة التي هي بناء جده إبراهيم عليه السلام وعندها موطنه ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ الشطر الجزء، أي حول وجهك نحو جزء من المسجد الحرام، والمسجد لكونه محيطاً بالكعبة يكون المتوجه إليه متوجهاً إليها إذا كان من بعيد ﴿وحيث ما كنتم﴾ أيها المسلمون ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾ وذكر «الوجه» في المقامين، لأنه الشيء الذي يتوجه به في جسد الإنسان ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب﴾ من اليهود والنصارى الذين يستشكلون عليكم قائلين إن كانت القبلة

لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٥﴾
 وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا قِبَلَتَكَ
 وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبَلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبَلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنْ
 اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ

=====

السابقة حقاً، فهذه باطلة، وإن كانت هذه حقاً، فتوجهكم في السابق إلى بيت المقدس باطل ﴿ليعلمون أنه الحق من ربهم﴾ أي تحويل القبلة أو هذه القبلة حق من قبل الله، فإن الله سبحانه يعبد عبادَه كيف يشاء، فمن الجائز أن يعبد الأمة بتشريع إلى مدة، ثم يعبدهم بتشريع آخر ﴿وما الله بغافل عما يعملون﴾ أي يعمل أهل الكتاب من الإرجاف وبث الأباطيل حول تحويل القبلة وسائر الأمور المرتبطة بالنبي ﷺ .

[١٤٦] ﴿ولئن أتيت﴾ يا رسول الله ﷺ ﴿الذين أُوتوا الكتاب﴾ من اليهود والنصارى ﴿بكل آية﴾ من الآيات الدالة على أن قبلتك حق ﴿ما تبعوا قبلتك﴾ لأنهم معاندون، والمعاند لا ينفع معه الدليل ﴿وما أنت﴾ يا رسول الله ﷺ ﴿بتابع قبلتهم﴾ بعد ما تعلم أن قبلتهم منسوخة، كقوله تعالى (لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ)^(١) ﴿وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾ اليهود لا يتبعون قبلة النصارى، والنصارى لا يتبعون قبلة اليهود ﴿ولئن اتبعت﴾ يا رسول الله ﷺ ﴿أهواءهم﴾ في باب القبلة وسائر التشريعات ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ بأن

إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٦﴾ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ
يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿١٤٧﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٨﴾

طريقتهم باطلة ﴿إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذه الجملة، وإن كانت موجهة إلى الرسول، لكن المقصود منها العموم، ولا تنافي العصمة، فإن الاشتراط يلائم المحال، كقوله تعالى (إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ)^(١) وقد تقرر في المنطق أن صدق الشرطية إنما هو بوجود العلية ونحوها، لا بصدق الطرفين.

[١٤٧] ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي الرسول، أو هذا الحكم، أعني كون تغيير القبلة بأمر الله سبحانه، وإن كان الأول أقرب إلى سياق التشبيه ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ﴾ ممن لم يؤمن بالرسول ﴿لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فليس عذر هؤلاء جهلهم، حتى يرجى زواله، وإنما العناد الذي لا علاج له.

[١٤٨] ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يا رسول الله ﷺ، أي هذا هو الحق من عند الله ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي الشاكرين فيه، فإن المحق إذا كثرت عليه التهجمات ورمي بأنه على غير حق، يكاد يشك فيه، ولذا يثبت الله الرسول ﷺ، كما قال تعالى (وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا)^(٢).

(١) الزخرف: ٨٢.

(٢) الإسراء: ٧٥.

وَلِكُلِّ وِجْهَةً هُوَ مُوَلِّيُّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ
بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ
خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

[١٤٩] ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةً﴾ أي لكل أمة من الأمم طريقة ﴿هو﴾ أي الله سبحانه
﴿موليها﴾ أي أمرهم بالتوجه إليها، فلا غرابة أن يكون للمسلمين وجهة
خاصة في قبلتهم ﴿فاستبقوا﴾ أي سارعوا إلى ﴿الخيرات﴾ تنافسوا
فيها، فإن الله موليكم هذه الطرائق، ولا تبقوا جامدين على طريقة
منسوخة، فإن ذلك انصراف عن الخير إلى الشر، ومن المحتمل أن
يكون «هو» راجعاً إلى «كل» أي لكل فرد أو أمة، طريقة في العمل
والتفكير فذلك الشخص مولى وموجه نفسه إياها، فليكن هم كل فريق
وفرد أن يسابق غيره في الخيرات ﴿أين ما تكونوا﴾ من بقاع الأرض
﴿يأت بكم الله جميعاً﴾ يوم القيامة، حتى يجازيكم على أعمالكم ﴿إن
الله على كل شيء قدير﴾ فيتمكن من جمعكم، ولا يفوته شيء

[١٥٠] كان لتحويل القبلة نحو الكعبة أسباب وعلل، العلة الأولى: رغبة
الرسول ﷺ في أن تحول القبلة لما عيرته اليهود، العلة الثانية: أن
التحويل كان للحق، وأن يكون للمسلمين ميزة خاصة يمتازون بها عن
سائر الأمم، حتى في اتجاه الصلاة، العلة الثالثة: أن التحويل كان
لقطع حجة الناس، الذين كانوا يتعجبون من كون المسلمين، يدعون
ديناً جديداً، ومع ذلك يتوجهون إلى قبلة بني إسرائيل، وتبعاً لهذه
العلل، تكرر الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام، وقال سبحانه ﴿وَمِنْ
حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ للسفر من البلاد ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾

وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٠﴾ وَمِنْ
 حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا
 كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ
 إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي

فإنه قبله في السفر كما هو قبله في الحضر، وفي هذا فائدة ثانية
 للتكرار ﴿وإنه﴾ أي توجيه الوجه نحو المسجد الحرام ﴿للمحق﴾ الذي
 جاء ﴿من ربك وما الله بغافل عما تعملون﴾ فمن أعرض عن هذه القبلة
 كان جزاءه سيئاً، ومن اتبعها كان جزاءه حسناً.

[١٥١] ﴿و من حيث خرجت﴾ للسفر من البلاد ﴿فول وجهك شطر
 المسجد الحرام﴾ هذا للسفر ﴿و حيث ما كنتم فولوا وجوهكم
 شطره﴾ وهذه الآية، جمع بين الآيتين السابقتين «و من حيث
 خرجت، الآية: ١٥٠» «و حيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره، الآية:
 ١٤٥» وقد عرفت إنه كرر لفائدة العلة المذكورة في الآية ﴿لئلا يكون
 للناس عليكم حجة﴾ أي إن تحويل القبلة، إنما هو لنقطع احتجاج
 الناس عليكم حيث يقولون: كيف إن المسلمين يدعون إلى دين جديد
 وقبلتهم هي قبله أهل الكتاب ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ فإن هؤلاء
 لا ينفعهم المنطق، فالمعاند لا تفيده الحجة ﴿فلا تخشَوْهم و اخشوني﴾
 فالخشية، إنما تكون ممن بيده النفع والضرر، وهؤلاء ليس بيدهم شيء
 منهما، وإنما كل ذلك بيد الله سبحانه، ولا يخفى أن الاستثناء منقطع
 كقولك: إنما فعلت الفعلة الفلانية ليعرف الناس بالأمر، إلا من يريد

وَلَا تَمَنَّاهُ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥١﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا
فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ
وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا
تَعْلَمُونَ ﴿١٥٢﴾

=====

العناد ﴿و﴾ بعد ذلك فتحويل القبلة إنما كان ﴿لأنتم نعمتي عليكم﴾
بتمييزكم عن أهل الكتاب وقطع تعبير اليهود، وإرجاعكم إلى بناء
جدكم إبراهيم الذي هو إحياء لذكراكم ﴿و لعلمكم تهتدون﴾ إلى الحق
إهتداء كاملاً، فإن في تشريف الإنسان بشرف سبباً لتقريبه إلى الهداية
الكاملة.

[١٥٢] وقد أتممنا النعمة عليكم بتحويل القبلة ﴿كما﴾ أنعمنا عليكم قبل
ذلك بنعمة عظمتي ف ﴿أرسلنا فيكم﴾ أيها المسلمون ﴿رسولاً منكم﴾
لا من غيركم، فاخترتكم لأن تكون رسالتي بيد واحد منكم ﴿يتلو﴾
عليكم آياتنا ﴿وقرأنا تلاوة﴾ ﴿ويزكيكم﴾ يطهركم من أدناس الجاهلية
والقذارات الخلقية، والنجاسات البدنية - بإرشاده إياكم إليها -
﴿ويعلمكم الكتاب﴾ ومن المعلوم أن التلاوة غير التعليم، فرب تالٍ
غير معلم، بالإضافة إلى أن التعليم فيه معنى التركيز والتثبيت
﴿والحكمة﴾ يرشدكم بمواضع الأشياء ومواقع الخطأ والصواب،
فالحكمة - كما عرفت - وضع كل شيء موضعه ﴿ويعلمكم ما لم﴾
تكونوا تعلمون ﴿بصورة عامة، فيشمل القصص والتواريخ المفيدة
وأحوال الأنبياء، وأحوال المعاد مما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٣﴾ يَتَأْتِيهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ
﴿١٥٤﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ

=====

[١٥٣] ﴿فاذكروني﴾ أيها المسلمون بالطاعة والعبادة، وتنفيذ الأوامر
﴿أذكركم﴾ بالنعمة والإحسان والجنان ﴿واشكروا لي﴾ بإظهار النعمة
والحمد عليها ﴿ولا تكفرون﴾ كفرأ في الاعتقاد، أو كفرأ في العمل
بأن لا تعملوا بأوامري.

[١٥٤] ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا﴾ في أموركم التي تريدونها سواء كانت
تحت اختياركم، أم لم تكن كالصحة والغنى ﴿بالصبر﴾ وتحمل
النفس، فإن كثيراً من الأمور تتنجز بعد حين، فإذا صبر الإنسان
تنجرت أموره ونعم براحة البال، واطمئنان النفس، وإذا لم يصبر
جرى القدر، وهو مضطرب البال كئيب ﴿والصلاة﴾ فإن الصلاة
توجب توجه الإنسان إلى الله سبحانه، والانصراف عن الدنيا مما يشع
في النفس الهدوء والسكينة، وعدم الاهتمام بمكافه الدنيا ﴿إن الله مع
الصابرين﴾ باللطف والعناية والرحمة والأجر والثواب، وهكذا يهذب
الإنسان والأمة ويرشداهم إلى مهمتهم العظيمة، ويمرّتهم على الصبر
والتحمل، ولذا يخطو القرآن الحكيم خطوة أخرى معهم بعد الصبر
والصلاة، قائلاً: إنكم لا بد وأن تتحملوا مشاق القيادة من القتل
وسائر أنواع المصائب التي تتعرض لمن أراد الإصلاح والإرشاد، ولذا
يقول سبحانه:

[١٥٥] ﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات﴾ فالميت من لا تأثير له

بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٥﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٧﴾

في الحياة ولا امتداد، وهؤلاء ليسوا كذلك ﴿بل أحياء﴾ حياة واقعية في الدنيا بتأثيراتهم وأمتداداتهم، وفي الآخرة، لأنهم في نعيم مقيم، ﴿ولكن لا تشعرون﴾ أنتم بحياتهم، إذ الحياة في نظركم الحس والحركة، مع إنها معنى سطحي للحياة.

[١٥٦] ﴿ولنبلونكم﴾ أي نمتحنكم أيها المسلمون ﴿بشيء من الخوف﴾ وكونه شيئاً، إما باعتبار أنه لا يمتد، وإنما الخوف في زمان يسير، وإما باعتبار أنه لا يبلغ الخوف - غالباً - أشده ﴿والجوع﴾ ولم يذكر العطش لأن الماء غالباً متوفر ﴿ونقص من الأموال﴾ المبدولة في الحرب، أو ما ينهب منها في التصادم، أو الضيق الاقتصادي، أو ما أشبه ﴿ونقص من الأنفس﴾ ممن يقتل في سبيل الله ﴿ونقص من الثمرات﴾ بسبب النهب، أو الحصاد قبل أوانه من أجل الأعداء، كما وقع في قصة الخندق حيث أمر النبي ﷺ المسلمين أن يحصدوها، لئلا ينتفع بها المشركون - كما في بعض التواريخ - أو بأسباب آخر ﴿وبشر﴾ يا رسول الله ﷺ ﴿الصابرين﴾ في هذه المكاره.

[١٥٧] ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله﴾ أي إنا مملوكون له سبحانه ﴿وإنا إليه راجعون﴾ فهو مرجعنا ومعه حسابنا وجزاؤنا، وفي هذه

أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ
 الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ
 الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ

الجملة تسلية للمصاب، إذ اعتراف الإنسان بأن كل شيء له إنما هو
 لله، يهون ذهاب بعضها، فإن صاحب المال أخذه، كما أن اعتقاد
 الشخص، بأن الله هو الذي يجازي يهون الأمر، فإن ما فقده سوف
 يُعوّض ولذا من كرر هذه الجملة في المصيبة عارفاً معناها متوجهاً إلى
 الله سبحانه، في التسليم والرضا، يجد برد الإطمئنان في قلبه.

[١٥٨] ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ والصلوات هي العطف، فإن
 صلى بمعنى عطف، وهي من الله التوجه بالبركة والإحسان ﴿و
 رحمة﴾ ترحم في الدنيا والآخرة ﴿و أُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ الذين
 اهتدوا إلى واقع الأمر مما ينفع دنياهم وعقباهم، فبدلوا ما بذلوا في
 سبيل الله راضين مرضيين.

[١٥٩] وحيث ألمع سابقاً إلى الجهاد، أتى الإلماع إلى الحج، فإنهما
 صنوان في التعداد والمشقة - في الجملة - فقال سبحانه ﴿إِنَّ الصَّفَا وَ
 الْمَرْوَةَ﴾ وهما جبلان قرب المسجد الحرام ﴿مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ جمع
 شعيرة، وهي مشتقة من اللباس الملتصق بشعر البدن، فكل شيء
 مرتبط بشيء ارتباطاً وثيقاً يدل عليه يكون من شعائره، فالمراد أن
 هذين الجبلين من الأمور المرتبطة بالله سبحانه، حيث جعلهما محلاً
 لعبادته بالسعي بينهما ﴿فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ﴾ أي قصد البيت الحرام،
 والحج القصد ﴿أَوْ اعْتَمَرَ﴾ والعمرة هي الزيارة أخذ من العمارة، لأن

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ

الزائر يعمر المكان بزيارته، والحج والعمرة عملان من أعمال الحج ﴿فلا جناح عليه أن يطوف بهما﴾ أي يسعى بينهما، وإنما عبر بـ «لا جناح» لأن المسلمين تخرجوا من الطواف بهما ظناً منهم أنه من عمل المشركين، حيث كان على الصفا صنم يسمى «أساف» وعلى المروة صنم يسمى «نائلة» فهو ترخيص في مقام توهم الحصر، ومن المعلوم أن الإباحة في مقام توهم الحصر، والنهي في مقام توهم الوجوب، لا يدلان على مفادهما الأولية، لأنه لإثبات أصل الطرف الآخر، لا خصوصيته الإباحية والتمويمية ﴿و من تطوع خيراً﴾ أي أتى بخير من الأعمال والأفعال تطوعاً، والتطوع التبرع بالشئ من الطوع بمعنى الانقياد ﴿فإن الله شاكر﴾ لعملهم ومعنى شكره تقديره وجزائه للعامل ﴿عليم﴾ بأعمالهم، فلا يفوته شيء منها.

[١٦٠] لعل ارتباط هذه الآية بما ورد قبلها، أن اليهود والنصارى لم يفعلوا مثل ما فعل الرسول ﷺ حول الصفا والمروة، فالرسول أبطل كل شيء حول الحج، وأقام كل حق فيه، فالصفا والمروة، حيث كانا حقاً أثبتهما الرسول ﷺ، وإن ظن الناس أنهما من الباطل، لكن أهل الكتاب حشروا كل ما أتى به الرسول ﷺ - مما عرفوه حقاً - في زمرة الباطل، ولذا صار الكلام السابق، فاتحة للتعريض بهم، فهو مثل أن يقول أحد أنا اعترفت بالحق، لكنه لم يعترف بما علم من الحق، والله أعلم بموارده ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات﴾ فيخفون الأدلة

وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ ۖ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ
 اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِنُونَ ﴿١٦١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا
 وَبَيَّنَّاهُمْ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٢﴾
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ ۖ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ
 وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٣﴾

الدالة على حقية الإسلام، مما نزلت في الكتب السالفة ﴿و الهدى من بعدما بيناه للناس في الكتاب﴾ أي يكتمون الهدى الذي يرونه، وإن لم يكن منزلاً وبيئاً ﴿أولئك يلعنهم الله﴾ يبعدهم عن الخير في الدنيا وفي الآخرة، بتضييق الأمور عليهم هنا والعذاب هناك ﴿و يلعنهم اللاعنون﴾ الذين يأتي منهم اللعن من الناس والملائكة والجن .

[١٦١] ﴿إلا الذين تابوا﴾ منهم واتبوا الحق وأظهروه ﴿و أصلحوا﴾ ما فسد من عقائدهم وأعمالهم ﴿و بينوا﴾ للناس ما أنزله الله من الهدى والبيئات ﴿فأولئك أتوب عليهم﴾ فالتوبة معناها الرجوع، ورجوع الله بمعنى إعادة الإحسان والرحمة عليهم بعد انقطاعها عنهم بسبب كفرهم وكتمانهم ﴿و أنا التواب﴾ أي كثير الرجوع، فإن العاصي إذا عصى ألف مرة ورجع ألف مرة قبلت توبته، إذا تاب توبة نصوحاً ﴿الرحيم﴾ بالعباد .

[١٦٢] ﴿إن الذين كفروا﴾ ولم يتوبوا ﴿و ماتوا وهم كفار﴾ بالعقائد الصحيحة ﴿أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ فإن الكل يلعنون الظالم، والكافر ظالم، فإنه وإن لم يقصده اللاعن

خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٣﴾
 وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٤﴾ إِنَّ
 فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
 وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
 مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ

=====

بالذات، لكنه داخل في عموم اللعن.

[١٦٣] ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي في تلك اللعنة، إذ لعنة الدنيا تتصل بلعنة الآخرة
 ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ إذ لا أمد لعذاب الله بالنسبة إلى الكافرين
 ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ فلا ينظر أحد إليهم نظرة رحمة وإحسان، أو
 ليمهلون للاعتذار، أو لا يؤخر عنهم العذاب.

[١٦٤] ولما تقدم حال الكافر صار السياق لبيان التوحيد، والأدلة على
 الوحدانية ﴿وَإِلَهُكُمْ﴾ أيها الناس ﴿إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا
 هُوَ﴾ الموصوف بـ ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ لا كما يصور الإله بعض الكتب
 السماوية من أنه إله انتقام وغضب وعذاب.

[١٦٥] ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ﴾ بهذا النظام البديع والترتيب الرائع ﴿وَالْأَرْضِ﴾
 بهذا الأسلوب المنظم المتكامل ﴿وَفِي﴾ اختلاف الليل
 والنهار ﴿يَأْتِي أَحَدُهُمَا عَقِبَ الْآخَرِ﴾ خليفة، لتنظيم الحياة على الأرض
 بأجمل صورة ﴿وَفِي﴾ الفلك ﴿السَّفِينَةِ﴾ التي تجري في البحر بما
 ينفع الناس ﴿فِي أَسْفَارِهِمْ وَتِجَارَتِهِمْ﴾ ﴿وَفِي﴾ ما أنزل الله من
 السماء ﴿جِهَةِ الْعُلُوِّ﴾ ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾ ببيان «ما» ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ﴾

بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ
وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿١٦٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا
يُحِبُّونَهُمْ

=====

بالإنبات ﴿بعد موتها﴾ أي جمودها وركودها ﴿وبث﴾ أي نشر وفرق
﴿فيها﴾ أي في الأرض ﴿من كل دابة﴾ تدب وتتحرك على وجه
الأرض، وكلمة «بث» عطف على «أحيا» أي كان المطر سبباً لإحياء
الأرض، وانتشار الحيوانات فيها، إذ لولا المطر لم يكن للحيوان
ماء، ولا طعام فيهلك، ولم يبق له نسل ﴿و﴾ في ﴿تصريف الرياح﴾
أي صرفها ونقلها من مكان إلى مكان لتروح وتذهب بالأمراض
والعفونات، وتنقل السحاب من هنا إلى هناك، ولو كانت الرياح راكدة
لم تنفع أي شيء ﴿و﴾ في ﴿السحاب المسخر بين السماء والأرض﴾
فإنه بما يكونه من أطنان من الماء، يبقى معلقاً بين الجهتين، ويسير
إلى كل ناحية ﴿لآيات﴾ وعلامات دالة على الله، ووحدته وسائر
صفاته ﴿لقوم يعقلون﴾ ويعملون عقولهم في استفادة النتائج من
المقدمات والمسبب عن الأسباب، وينتقلون من العلم بالمعلول إلى
العلم بالعلة.

[١٦٦] ﴿و من الناس﴾ أي بعضهم ﴿من يتخذ من دون الله﴾ أي غير الله
﴿أنداداً﴾ جمع ند، بمعنى الأشباه، والمراد بذلك آلهة يجعلها شبيهة
للله في أنه يعبدها، وهي الأوثان ﴿يحبونهم﴾ أي يحب هؤلاء الناس

كُحِبَّ اللَّهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرْوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٦﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ

تلك الآلهة، وإنما أتى بجمع العاقل لكونها ردت مع الله سبحانه، والقاعدة تغليب الرديف على رديفه كقوله تعالى (مَنْ يَمْشِ عَلَى بَطْنِهِ)^(١) وقوله (وَازَكِّي مَعَ الرَّائِعِينَ)^(٢) ﴿كُحِبَّ اللَّهُ﴾ أي كحبهم لله، أو حباً شبيهاً بما يستحق الله، وعلى الأول، فالمراد بهم المشركون الذين يعتقدون بالله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ من حب هؤلاء لأوثانهم، فالمؤمنين حيث يعرفون أن كل خير من الله يحبونه حباً بالغاً ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ يعني لو يرون هؤلاء المشركين يوم القيامة كون القوة جميعاً لرأوا مضرة فعلهم، وسوء عاقبة شرهم، وحذف جواب لو، تهويلاً للأمر، كما تقول لعدوك: لو ظفرت بك ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ عطف على «أَنَّ الْقُوَّةَ».

[١٦٧] إِنْ الرُّؤْيَا مِنَ الظَّالِمِ لِلْعَذَابِ، إِنَّمَا يَكُونُ ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ مِنَ الْقَادَةِ ﴿مَنْ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ وَهُمْ التَّابِعُونَ لَهُمْ ﴿وَرَأَوْا﴾ جَمِيعاً الْعَذَابِ

(١) النور: ٤٦ .

(٢) آل عمران: ٤٤ .

وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا
 كَرَّةً فَفَتَبَرْنَا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّوْا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ
 أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٨﴾
 يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا

=====

وتقطعت بهم أي فيما بينهم ﴿الأسباب﴾ فما كان في الدنيا يسبب
 وصلة بعضهم لبعض من المال والرياسة والقرابة والحلف وأشباهها،
 تنقطع هناك، فلا داعي لنصرة الرؤساء أتباعهم الذين كانوا يتبعونهم
 في الدنيا.

[١٦٨] ﴿وقال الذين اتبعوا﴾ أي التابعين لرؤسائهم ﴿لو أن لنا كرة﴾ أي يا
 ليت لنا عودة إلى دار الدنيا ﴿فنتبرأ منهم﴾ أي من هؤلاء الرؤساء
 ﴿كما تبرءوا منا﴾ هنا في القيامة حال حاجتنا إلى العون ﴿كذلك﴾ أي
 هكذا ﴿يريههم الله أعمالهم﴾ أي أعمال كل من التابعين والمتبوعين
 ﴿حسرات عليهم﴾ فإن صلاتهم وأعمالهم، كلها ذهبت أدراج الرياح،
 فيتحسرون لماذا لم يعملوا بأوامر الله سبحانه ﴿وما هم بخارجين من
 النار﴾ فإن المشرك يبقى في النار إلى الأبد، إن تمت عليه
 الحجة وعانده.

[١٦٩] وإذا تم الكلام حول العقيدة، توجه إلى الحياة التي هي مقصد
 الإنسان، وإليها يرجع كثير من حركته وسكونه ﴿يا أيها الناس كلوا
 مما في الأرض﴾ من نباتها وحيوانها ومائها ومعدها ﴿حلالاً طيباً﴾ أي
 في حال كون المأكول حلالاً طيباً، إلا ما حرم منه، وفي قوله «طيباً»

وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٩﴾
 إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا
 نَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ
 مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
 شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧١﴾

إشارة إلى أن كل حلال طيب، وليس فيه خبث يوجب انحراف
 الصحة، أو انحراف الخلق ﴿و لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ فكان
 الشيطان يخطو نحو الآثام، ومن أثم كأنه تتبع خطواته إذ مشى خلفه
 ﴿إنه﴾ أي الشيطان ﴿لكم عدو مبين﴾ أي عدواً ظاهراً.

[١٧٠] ﴿إنما يأمركم بالسوء﴾ أي الأعمال السيئة ﴿و الفحشاء﴾ وهي
 الأعمال السيئة للغاية، فهو مشتق من الفحش، بمعنى التعدي ﴿و أن
 تقولوا على الله﴾ أي تنسبوا إلى الله ﴿ما لا تعلمون﴾ من العقائد
 والأحكام، وعدم العلم هنا أعم من العلم بالعدم، كما قال سبحانه (أَمْ
 تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ) ^(١).

[١٧١] ﴿و إذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله﴾ من الأحكام وسائر الوحي ﴿قالوا
 بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ أي وجدنا عليه آباءنا من التقاليد، فأنكر
 الله ذلك عليهم بالاستفهام الإنكاري، بقوله ﴿أو لو كان آباؤهم لا
 يعقلون شيئاً﴾ من أمور الدين والدنيا ﴿و لا يهتدون﴾ إلى الحق فإذا

وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا
 دُعَاءَ وَنِدَاءَ صُمُّ بُكُمْ عُمَىٰ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧٢﴾ يَتَأَيَّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ
 إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ
 الْمَيْتَةَ

ظهر لكم أن آباءكم لا يعلمون، فكيف تتبعونهم.

[١٧٢] ثم بين الله سبحانه، أن هؤلاء الكفار لعنادهم وتعصبهم، قد غلقت منافذ السمع والبصر عنهم، فلا يفيد فيهم وعظ ولا تذكير ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعد ما يروا الآيات، ويسمعوا نداءك يا رسول الله ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ أي يرفع صوته ﴿بِمَا﴾ أي بالحيوان الذي ﴿لَا يَسْمَعُ﴾ ولا يفهم الكلام، وإنما يسمع ﴿لِلدُّعَاءِ وَنِدَاءِ﴾ فالحيوان، إذا صحت به، لا يفهم من كلامك إلا مجرد الدعوة والنداء، فهؤلاء الكفار كذلك، إذ لا ينتفعون بكلامك أبداً، فهم ﴿صُمُّ﴾ جمع أصم ﴿بُكْمُ﴾ جمع أبكم ﴿عُمَى﴾ جمع أعمى، فإنهم ولو كانت لهم آذان وألسنة وعيون، لكنها كالمعطلة، لأنها لا تؤدي وظيفتها ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾

[١٧٣] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ تكراراً لما تقدم لإلحاق مسألتَي الشكر والمحرمات به ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ ولا تشكروا سائر الآلهة، كالمشركين الذين يزعمون أنهم يمتطرون بالأنواء، ويرزقون بالآلهة المزعومة.

[١٧٤] ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ وهي التي لم تذبح على النحو الشرعي

وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنِزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ أَضْطَرَّ
غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٤﴾
إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ

=====

﴿والدم﴾ وهو وإن كان مطلقاً، إلا إنه مقيد بالمسفوح لقوله سبحانه (إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا) ^(١) ﴿و لحم الخنزير﴾ وخص اللحم بالكلام، وإن كانت جملته محرمة، لأن اللحم هو المعظم المقصود في الغالب ﴿وما أهل به لغير الله﴾ الإهلال في الذبيحة رفع الصوت بالتسمية، وقد كان المشركون عند ذبحهم، يرفعون أصواتهم بتسمية الأوثان، فنهى الله سبحانه عن أكل ذبيحة ذكر غير اسم الله عليها ﴿فمن اضطر﴾ بصيغة المجهول، فإن «اضطر» متعد من باب الإفتعال، وحيث لم يكن المقصود، سبب الاضطرار، ذكر مجهولاً ﴿غير باغ﴾ أي لم يكن باغياً وطالبا للذة في أكله وشربه ﴿ولا عاد﴾ أي متعد في الأكل والشرب، عن حد الضرورة، أو غير باغ على إمام المسلمين، ولا عاد بالمعصية طريق المحققين ﴿فلا إثم عليه﴾ في تناول هذه المحرمات ﴿إن الله غفور﴾ يستر العصيان إذا اضطر إليه، فغفر بمعنى ستر، وستر العصيان، عدم المؤاخذه به ﴿رحيم﴾ بكم، ولذا جاز تناول المحرم في حال الاضطرار.

[١٧٥] ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ وهم اليهود والنصارى الذين كانوا يكتُمون العقائد الحقّة الموجودة في كتابهم، وينسبون إلى

وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا
النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ

الكتاب أحكاماً لم توجد فيه، كما قال سبحانه (قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ
فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)^(١) ولعل ارتباط هذه الآية بما قبلها من جهة
الأمر التي كانوا يحرمونها، ولم يكن في كتبهم تحريم لها ﴿و
يشترى به﴾ أي بهذا الكتاب ﴿ثمناً قليلاً﴾ من رئاسة الدنيا وأموالها،
فإنها قليل بالنسبة إلى الآخرة ﴿أولئك ما يأكلون في بطونهم﴾ أي
لا يجرون إلى بطونهم ولعل ذكر في بطونهم للاحتراز عن الأكل في
بطن الغير، فإن العرب تقول شبع فلان في بطنه، إذا أكله بنفسه،
وتقول شبع فلان في بطن غيره، إذا أكله من يتعلق به ﴿إلا النار﴾ فإن
ما أكلوه ينقلب ناراً تحرق بطونهم في جهنم ﴿ولا يكلمهم الله يوم
القيامة﴾ فيهملمهم ليزوقوا الهوان جزاء ما فعلوا ﴿ولا يزكّيهم﴾ أي
لا يطهرهم عن الآثام، فإن البطن إذا ملئ حراماً يقسو، فلا يهتدي
حتى يتزكى الإنسان ويتطهر ﴿و لهم عذاب أليم﴾ مؤلم.

[١٧٦] ﴿أولئك﴾ الذين يكتمون ما أنزل الله هم ﴿الذين اشتروا الضلالة
بالهدى﴾ أي عوض الهداية، فكأن نفس الإنسان ثمن لأحد أمرين
الضلالة والهداية، فهم أعطوا أنفسهم، واشتروا الضلالة عوض أن

وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٦﴾ ذَلِكَ بِأَن
 اللَّهُ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ
 لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٧﴾ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ
 وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

يشتروا الهداية ﴿و﴾ اشتروا ﴿العذاب بالمغفرة﴾ فعوض أن يشتروا
 المغفرة لأنفسهم اشتروا العذاب ﴿فما أصبرهم على النار﴾ تعجب عن
 صبرهم على النار التي هي عاقبة عملهم، أي كيف أنهم يصبرون على
 النار حينما فعلوا ما عاقبته النار.

[١٧٧] ﴿ذلك﴾ العذاب، إنما توجه إليهم ﴿ب﴾ سبب ﴿أن الله نزل
 الكتاب﴾ أي التوراة ﴿بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب﴾ بكتمان
 بعضه وإظهار بعض ﴿لفي شقاق﴾ وخلاف عن الحق ﴿بعيد﴾ فهم
 إنما استحقوا العذاب، لأنهم خالفوا الحق، وكتموا ما لزم إظهاره،
 ومن المحتمل أن يكون المراد بالكتاب «القرآن» أي أن عذابهم بسبب
 كتمانهم كون القرآن حقاً واختلافهم فيه، بأنه سحر وكهانة أو كلام
 بشر.

[١٧٨] ﴿ليس البر﴾ كل البر أيها اليهود المجادلون حول تحويل القبلة
 الصارفون أوقاتكم في هذه البحوث العقيمة ﴿أن تولوا وجوهكم قبل
 المشرق والمغرب﴾ فإن ذلك أمر فرعي مرتبط بتكليف الله سبحانه،
 وقد كلفنا أن نصرف الوجوه إلى الكعبة ﴿ولكن البر﴾ فعل، أي
 ولكن ذا البر ﴿من آمن بالله واليوم الآخر﴾ فذلك هو الأصل الذي

وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ

يتفرع عليه أحكام الصلاة وغيرها ﴿و﴾ آمن بـ ﴿الملائكة والكتاب﴾ المنزل من عند الله على أنبيائه ﴿و﴾ آمن بـ ﴿النبیین﴾ كلهم أولهم وأوسطهم وآخرهم ﴿و﴾ آتى المال ﴿أي أعطاه وأنفق﴾ على حبه ﴿أي مع أنه يحبه﴾، أو على حب الله تعالى ﴿ذوي القربى﴾ أي قراباته وأرحامه ﴿و﴾ اليتامى ﴿الذين مات أبوهم﴾ و﴿المساكين﴾ الذين لا يجدون النفقة لأنفسهم وأهليهم ﴿وابن السبيل﴾ الذي انقطع في سفره، فلا مال له يوصله إلى أهله ومقصده، وسمي ابن السبيل لعدم معرفة أبيه وعشيرته ﴿والسائلين﴾ من الفقراء الذين يسألون الناس ﴿و﴾ آتى المال ﴿في﴾ فك ﴿الرقاب﴾ أي اشتراء العبيد أو إعتاقهم، حتى يتحرروا عن ربك العبودية ﴿و﴾ أقام الصلاة ﴿أي أداها على حدودها﴾ و﴿آتى الزكاة﴾ الواجبة والمستحبة ﴿و﴾ الموفون ﴿الذين يفون﴾ بعهدهم إذا عاهدوا ﴿سواء كان عهداً مع الله كالنذر والبيعة، أو مع الناس كالعقود، وهذا عطف على قوله «من آمن»﴾ و﴿الصابرين﴾ عطف على من آمن على طريق القطع بتقدير المدح، كما قال ابن مالك:

واقطع أو اتبع أن يكن معيناً
بدونها أو بعضها اقطع معلناً

فِي الْبُأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۗ
وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٨﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا كُنِبَ عَلَيْهِمُ
الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ

وارفع أو انصب إن قطعت مضمراً
مبتدأً أو ناصباً لن يظهر
فإن عادة العربي أن يتفنن بالقطع رفعاً ونصباً إذا طالت الصفات
تقليداً للكل وتنشيطاً للذهن بالتلون في الكلام ﴿في البأساء﴾ البؤس
الفقر ﴿و الضراء﴾ والمضر الموجه والعلة وكل ضرر ﴿و حين
البأس﴾ أي الصابرين حين القتال ﴿أولئك﴾ الموصوفون بهذه الصفات
هم ﴿الذين صدقوا﴾ في نياتهم وأعمالهم، لا من يجادل في أمر
كتحويل القبلة ﴿و أولئك هم المتقون﴾ الخائفون من الله سبحانه،
وفي هذه الآية الكريمة إلماح إلى حال كثير من الناس حيث يتركون
المهام ويناقشون في أمر غير مهم عناداً وعصيةً.

[١٧٩] وحيث ذكر سبحانه ما هو البر عقبه ببعض الأحكام التي ينبغي لأهل البر المؤمنين بالله واليوم الآخر المتصفين بتلك الصفات أن يلتزموا بها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ﴾ ومعنى كتابته تشريعه إذ الشرائع تكتب ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ جمع قتيل، فقد ورد أنها نزلت في حين من العرب لأحدهما طول على الآخر، وكانوا يتزوجون نساءً بغير حلال، وأقسموا لنقتلن بالعبد منا الحر منهم، وبالمرأة منا الرجل منهم، وبالرجل منا الرجلين منهم، وجعلوا جراحاتهم على الضعف من جراح أولئك، حتى جاء الإسلام، وأبطل تلك الأحكام، فـ

الْحَرْ بِالْحَرْ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عَفَى لَهُ مِنْ
 أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ
 مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٩﴾
 وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ

﴿الحر ب﴾ مقابل ﴿الحر﴾ يقتل لا مقابل العبد ﴿و العبد بالعبد
 والأنثى﴾ تقتل ﴿ب﴾ مقابل ﴿الأنثى﴾ لا الذكر يقتل في قبال الأنثى
 ﴿فمن عفى له من﴾ قبل ﴿أخيه شيء﴾ بأن عفى الأخ الولي للمقتول
 عن قتل القتال، وبدله بالدية، أو عفى عن بعض الدية، وبقي بعضها
 الآخر ﴿ف﴾ الواجب على الطرفين، مراقبة الله في الأخذ والإعطاء،
 فمن طرف الولي للمقتول ﴿اتباع﴾ للقاتل ﴿بالمعروف﴾ بأن لا يشدد
 في طلب الدية، ومن طرف القتال ﴿وأداء إليه﴾ أي إلى العافي
 ﴿بإحسان﴾ من غير مطل وتصعيب ﴿ذلك﴾ الحكم في باب القتل
 بالمماثلة، أولاً، والتخيير بين القتل والدية والعفو ثانياً ﴿تخفيف من
 ربكم﴾ عليكم ﴿و رحمة﴾ منه بكم، وفي المجمع أنه كان لأهل
 التوراة القصاص أو العفو، ولأهل الإنجيل العفو والدية ﴿فمن
 اعتدى﴾ عن الحكم المقرر ﴿بعد ذلك﴾ الذي قرره من الأحكام
 ﴿فله عذاب أليم﴾ مؤلم في الدنيا والآخرة.

[١٨٠] ﴿و لكم في القصاص﴾ في باب القتل، بأن يقتل القتال عمداً
 ﴿حياة﴾ للمجموع، لأن كل من افتكر إنه لو قُتل قُتل ارتدع إلا
 النادر، وأيضاً إن القصاص يوجب عدم تعدي أولياء المقتول على

يَتَأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٠﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا
 حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ
 وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨١﴾

=====

أقرباء القتال، بأن يقتلوا منهم عدداً كثيراً، كما كان هو المتعارف في
 زمان الجاهلية، حتى ربما فנית القبيلة لأجل قتل واحد ﴿يا أولي
 الأبواب﴾ جمع لب، بمعنى العقل، أي يا أصحاب العقول ﴿لعلكم
 تتقون﴾ القتل، أي شرع القصاص، حتى تتقون من القتل.

[١٨١] و حيث ألمح القرآن الحكيم إلى حكم القتل، أشار إلى ما يرتبط به
 من الوصية، فقال ﴿كتب عليكم﴾ كتابة راجحة، فإن الكتابة تشمل
 الواجب والمندوب، والوصية مندوبة، إلا إذا وجبت بالعارض ﴿إذا
 حضر أحدكم الموت﴾ بأن رأى مقدماته من مرض وهرم ونحوهما
 ﴿إن ترك خيراً﴾ أي مالا فإذا لم يترك الخير، لا داعي للوصية وإن
 كانت مستحبة أيضاً، لكنها ليست مثل تأكيد من ترك الخير
 ﴿الوصية﴾ نائب فاعل «كتب» ﴿للووالدين والأقربين﴾ أي الأقرباء
 ﴿بالمعروف﴾ بأن يوصي لوالديه وأقربائه، ولو كانوا وراثاً، شيئاً من
 الثلث، وهذا يوجب نشر الألفة والمحبة أكثر فأكثر، وإنما قيده
 بالمعروف، حتى لا يوصي بما يوجب إثارة الشحناء، كأن يترك
 الأقرب، ويوصي للأبعد، أو يفضل بعضاً على بعض بما يورث
 البغضاء، والمراد بالمعروف، الذي يعرف أهل التميز، إنه لا جور
 فيه ولا حيف، وهذه الوصية تكون ﴿حقاً على المتقين﴾ الذين
 يؤثرون التقوى.

فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨٢﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ

[١٨٢] ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ أي بدل الإيصاء وغيره وزوره ﴿بعد ما سمعه﴾ أي علمه ، فالسمع يستعمل بمعنى العلم ﴿فإنما إثمهم﴾ أي إثم التبديل ﴿على الذين يبدلونه﴾ وليس إثم على الذي يأكل المال إرثاً بغير علم ، والذي يأكله زيادة على حصته ، من غير علم فإن الغالب ، أن يبدل الجيل الأول ، ويتصرف سائر الأجيال ، بلا علم منهم بالتبديل ﴿إن الله سميع﴾ لوصاياكم وأقوالكم ﴿عليم﴾ بنواياكم وتبديلكم ، أو تنفيذكم للوصية ، ولعل هناك نكتة أخرى في قوله «فإنما إثمهم على الذين يبدلونه» هي أن كثيراً من الناس لا يوصون خوفاً من أن يلحقهم إثم التبديل من بعدهم ، لأنهم بوصيتهم أعانوا من بدل ومهدوا الطريق له ، كما رأيت ذلك متعارفاً في كلام كثير من الناس ، حيث يقولون من أوصى ألقى ورثته في المعصية ، فيكف بعضهم عن الوصية ، فأشار سبحانه إلى كون هذا الحكم غلطاً ، فإن الموصي فعل خيراً ، وإنما المغير هو الذي يتحمل الإثم .

[١٨٣] ثم استثنى سبحانه عن حرمة تبديل الوصية ، بأنه إنما يكون حراماً ، إذا كان تغييراً من حق إلى باطل ، أما إذا كان من باطل إلى حق ، فلا إثم في التغيير ﴿فمن خاف﴾ وخشي ﴿من موصٍ﴾ أي الذي يوصي ﴿جنفاً﴾ أي ميلاً عن الحق إلى الباطل ، بأن أوصى أزيد مما يحق له الإيصاء به ﴿أو إثمًا﴾ بأن حرم ورثته بإيصائه ، وفي الحديث أن الإثم الخطأ عن عمد ، والجنف الخطأ لا عن عمد ﴿فأصلح بينهم﴾ أي بين الورثة والموصي ، والموصى له ، بأن رد الزائد إلى الورثة ، وأبطل ما

فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٤﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ
مِنْكُمْ مَّرِيضًا

=====

فيه الإثم ﴿فلا إثم عليه﴾ أي على المبدل للوصية ﴿إن الله غفور رحيم﴾ بمن يأثم، فكيف بمن لا يأثم، وقد ثبت في الشريعة إن الوصية بما زاد على الثلث لا تنفذ إلا برضى الورثة^(١).

[١٨٤] ثم انتقل السياق إلى حكم آخر من أحكام الإسلام - لما ذكرنا من أن القرآن الحكيم، بعد بيان أصول التوحيد، ذكر جملة من الأحكام - فقال سبحانه، ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام﴾ فإنه مفروض عليكم، فيجب عليكم أن تصوموا ﴿كما كتب على الذين من قبلكم﴾ فلستم أنتم وحدكم أمرتم بالصيام، بل كان الصوم شريعة في الأديان السابقة أيضاً ﴿لعلكم تتقون﴾ النار بصيامكم، فالصائم حيث يحس بالجوع والعطش والضعف يتذكر الله سبحانه فيخبت قلبه وتضعف فيه قوى الشر، وترق نفسه وتصفو روحه، وكل ذلك سبب للتقوى وترك المعاصي.

[١٨٥] ﴿أياماً﴾ أي إن الصيام في أيام ﴿معدودات﴾ أي محصورات، فليست أيام كثيرة لا تعد، وإنما هي ثلاثون يوماً فقط - وفيه تسلية للصائم - وليس الصيام على كل أحد ﴿فمن كان منكم مريضاً﴾ مرضاً

(١) راجع موسوعة الفقه: ج ٨٢ و ٨٣ .

أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ
فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَن
تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾

يضره الصوم ﴿أو على سفر﴾ فقد شبه السفر بمركوب لغلبة الركوب فيه، وحد السفر معين في الشريعة ﴿فعدة من أيام أخر﴾ أي فليصم في أيام أخر غير شهر رمضان، قضاء لما فات به بالمرض أو السفر ﴿و على الذين يطيقونه﴾ أي يطيقون الصيام، بأن يكون آخر طاقاتهم وذلك موجب للعسر، كما لا يخفى، إذ آخر الطاقة عسر، أو أن الذي يطيق الصوم كان في أول الشريعة مخيراً بين الصيام والإطعام، ثم وجب الصوم وحده، وذلك للتدرج بالأمة ﴿فدية﴾ أي الواجب عليهم الفداء بدل الصوم ﴿طعام مسكين﴾ واحد وهو مد من الطعام ﴿فمن تطوع خيراً﴾ بأن زاد على طعام المسكين ﴿فهو خير له وأن تصوموا﴾ أيها المطيقون، الذي يبلغ الصوم طاقتكم ﴿خير لكم﴾ من الإطعام، فالإنسان إما أن يضره الصوم ضرراً بالغاً، وهو الذي تقدم أن يفطر ويأتي بعدة من أيام أخر، وإما أن يشق عليه إلى حد العسر، وهو الذي يبلغ منتهى طاقته، وهذا يخير بين الصيام والإطعام وإن كان الصيام خيراً، وإما أن لا يشق عليه وهو الذي يجب عليه الصيام معيناً مما بين في الآية التالية ﴿إن كنتم تعلمون﴾ لعلمتم أن الصيام خير لما فيه من الفوائد التي ليست في الإطعام، وليس مفهومه، إن لم تكونوا تعلمون، فليس الصوم خير، بل المفهوم إن لم تكونوا تعلمون، لم تعلموا إن الصوم خير.

شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ
وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ
فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ
أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ
الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى

[١٨٦] الأيام المعدودات المفروض فيها الصيام هي ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن﴾ مما زاد في عظمته وحرمة، إذ صار زماناً لنزول أعظم دستور للبشرية إلى الأبد في حال كون القرآن ﴿هدى للناس﴾ يهديهم إلى الحق وإلى صراط مستقيم ﴿وبينات﴾ أي أمور واضحة ﴿من﴾ جنس ﴿الهدى﴾ فليس هدى غامضاً يحتاج إلى إثبات ودليل، بل واضح لائح، ومن الهدى بيان لبيانات، إذ يمكن أن يكون شيئاً بيناً من حيث الشهادة، أو المعاملة أو نحوها ﴿و﴾ من ﴿الفرقان﴾ أي يفرق بين الحق والباطل والضلال والرشاد ﴿فمن شهد﴾ أي حضر ولم يغب بالسفر ﴿منكم الشهر﴾ أي شهر رمضان ﴿فليصمه﴾ إيجاباً، ولما كان الحكم عاماً استثنى منه بقوله ﴿و من كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام آخر﴾ وإنما كرر تمهيداً لقوله ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ ولذا أمركم بالإفطار في السفر والمرض ﴿و﴾ إنما شرع عدة من أيام آخر ﴿لتكملوا العدة﴾ أي عدة الشهر، فإن في صيامه فوائد لا يدركها إلا من أكملها، فإن لم يتمكن من إكمالها في نفس شهر رمضان أكملها خارجه ﴿و﴾ إنما شرع الصوم ﴿لتكبروا الله على

مَا هَدَانَا رَبِّي إِلَى قَرِيبٍ قَرِيبٍ أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿١٨٧﴾
 فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٨﴾

ما هداكم ﴿١﴾ أي تعظموه بسبب هدايته لكم إلى دينه وشريعته، فالصيام سبب قرب النفس إلى الله سبحانه، فيأتي منها التكبير عفواً، وفي التأويل، المراد به تكبير ليلة الفطر ﴿٢﴾ ولعلكم تشكرون ﴿٣﴾ فالصوم نعمة تستحق الشكر لما فيه من صلاح الدنيا والدين.

[١٨٧] وحيث أن من عادة القرآن الحكيم أن يخلل الأحكام نفحة موجهة نحو الله تعالى، ليرتبط الحكم بالخالق، وليشع في النفس النشاط والعزيمة، أتت آية استجابة الدعاء هنا، بعد طول من بيان الأحكام، ثم يأتي بعدة آيات ترتبط بالأحكام ثانية، بالإضافة إلى أن استجابة الدعاء تناسب شهر رمضان، فإنه شهر دعاء وضراعة، وقد ورد أن سائلاً سأل النبي ﷺ كيف ندعوا، فنزلت ﴿١﴾ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴿٢﴾ إليهم، قرب العلم والإحاطة والسمع والبصر، لا قرب الزمان والمكان والجهة، فإنه سبحانه منزّه عن كل ذلك ﴿٣﴾ أجيب دعوة الداع ﴿٤﴾ الذي يدعوني ﴿٥﴾ إذا دعان ﴿٦﴾ ولعل في هذا القيد إفادة أن الإجابة وقت الدعوة مباشرة فإن «إذا» ظرف، ويفيد تكرار كلمة «دعا» لتركز في الذهن تركيزاً ﴿٧﴾ فليستجيبوا لي ﴿٨﴾ أي يطيعوني في أوامري ونواهي، إذ من يجيب الدعاء، يستحق أن يستجيب له الإنسان ﴿٩﴾ وليؤمنوا بي ﴿١٠﴾ إيماناً بذاتي وصفاتي ﴿١١﴾ لعلهم يرشدون ﴿١٢﴾ أي لكي يصيبوا الحق ويهتدوا إليه.

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ

=====

[١٨٨] ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ الطيبات أيها الصائمون ﴿لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ التي تصومون غدها ﴿الرَّفَثُ﴾ أي الجماع ﴿إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ وإنما عدى بـ «إلى» لتعليم معنى الإفضاء، أي الانتهاء إلى زوجاتكم بالجماع. وقد روي عن الصادق عليه السلام في سبب نزول هذه الآية أنه قال: كان الأكل محرماً في شهر رمضان بالليل بعد النوم، وكان النكاح حراماً بالليل والنهار في شهر رمضان، وكان رجل من أصحاب رسول الله ﷺ يقال له مطعم بن جبير، أخو عبد الله بن جبير الذي كان رسول الله ﷺ وكله بفم الشعب يوم أحد في خمسين من الرماة، وفارقه أصحابه وبقي في أثني عشر رجلاً، فقتل على باب الشعب، وكان أخوه هذا مطعم بن جبير شيخاً ضعيفاً، وكان صائماً فأبطأت عليه أهله بالطعام، فنام قبل أن يفطر، فلما إنتبه قال لأهله: قد حرم عليّ الأكل في هذه الليلة، فلما أصبح حضر حفر الخندق فأغمي عليه، فرآه رسول الله ﷺ فرق له، وكان قوم من الشباب ينكحون بالليل سراً في شهر رمضان، فأنزل الله هذه الآية، فأحل النكاح بالليل في شهر رمضان والأكل بعد النوم إلى طلوع الفجر^(١). ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ فكما أن اللباس يقي البدن وكما أنه ملاصق بالبدن ومحرم عليه، كذلك كل من الزوجين بالنسبة إلى الآخر ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ﴾ أيها الصائمون ﴿كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ﴾ من الخيانة

حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ لِلنَّاسِ
لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٨﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ
وَتَذْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا

الصيام^(١) وغيرها ﴿حدود الله﴾ التي جعلها لأفعال العباد من الفعل فلا يجوز تركه، والترك فلا يجوز إقحامه كحدود المدينة والدار ونحوهما ﴿فلا تقربوها﴾ نهى عن الاقتراب، مبالغة في النهي عن الاقترام والمخالفة كقوله تعالى (وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ)^(٢) ﴿كذلك﴾ أي مثل هذا البيان الواضح الذي بين أحكام الصيام وغيره ﴿يبين الله آياته﴾ دلالة وأحكامه ﴿للناس لعلهم يتقون﴾ أي لكي يتقوا معاصيه.

[١٨٩] ثم انتقل السياق إلى تشريع آخر له مناسبة ما بـ «الأكل» الذي دار الحديث حوله في مسألة الصيام ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ بالغصب وما أشبهه، وكان وجه ذكر كلمة «بينكم» أن الآكلين للغصب ونحوه يتآمرون بينهم في خفاء حتى يبرروا أكلهم ﴿وَتَدْلُوا﴾ الإدلاء أي الإلقاء والإفضاء أي تلقوا ﴿بِهَا﴾ أي بتلك الأموال ﴿إِلَى الْحُكَّامِ﴾ جمع حاكم، بمعنى القضاة بعنوان الرشوة والهدية ليأخذوا جانبكم في أكل المال بالباطل ﴿لَتَأْكُلُوا﴾ علة لتدلو أي علة إعطائكم الرشوة أن تأكلوا ﴿فَرِيقًا﴾

(١) راجع موسوعة الفقه: ج ٣٧ ص ٢٥١ .

(٢) الأنعام: ١٥٣ .

مَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٩﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ
الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ

أي قسماً ﴿من أموال الناس بالإثم﴾ بدون حق ﴿و أنتم تعلمون﴾
بأن أكلكم وإرشاءكم باطل وإثم.

[١٩٠] مرت أحكام كلها تحتاج إلى التوقيت من صيام واعتكاف ومحاكمات
وغيرها فناسب أن يأتي تشريع الأهلة هنا مع الغض عما تقدم من أن
المقصود بيان جملة من الأحكام بعد بيان أصول التوحيد ﴿يسألونك﴾
يا رسول الله ﷺ ﴿عن الأهلة﴾ وعن سبب اختلاف الهلال في كل
شهر من الهلال إلى البدر ثم إلى الهلال حتى المحاق أو عن فائدة هذا
الاختلاف ولماذا لم يكن القمر كالشمس في الانتظام ﴿قل﴾ يا رسول
الله في جوابهم ﴿هي مواقيت﴾ جمع ميقات بمعنى الوقت والزمان
﴿للناس﴾ في عباداتهم ومعاملاتهم ﴿و﴾ ل ﴿الحج﴾ فمن أقرض إلى
شهر أو باع ليقبض الثمن، أو يدفع الثمن بعد شهرين، أو أراد الصيام
والإفطار أو الحج في أشهره لا بد وأن يكون له معلم يستند إليه
ولذلك جعل الله الأهلة، وهذا الجواب ينطبق على السؤال بناء على
الوجه الثاني في معنى «يسألونك» وأما بناء على الوجه الأول وسؤالهم
كان عن سبب اختلاف الأهلة، فإن القرآن أعرض عن جوابهم لأن
عقولهم ماكانت تتحمل الجواب الفلكي، ولذا عبر عن ذلك إلى فائدة
الأهلة التي هم أحوج إليها، كما في آية أخرى (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ
قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّهِ الدِّينُ)^(١) حيث أعرض عن جواب ماهية

وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ
مَنْ اتَّقَى وَأَتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٩٠﴾ وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ
يُقَاتِلُونَكُمْ

=====

المنفق أي محل الإنفاق لأن هذا هو الذي يترتب عليه الفائدة وهم
بحاجة إليه ، وحيث ذكر الحج في الكلام انتقل السياق إلى ما كان يفعله
الجاهليون من أنهم إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها وإنما
يدخلونها من ظهورها ، فنهى عن ذلك ، وفي هذا تلميح بأن السؤال عما
لا يهتمكم من الأهلة ، مثل إتيان البيوت من ظهورها وكالأكل من القفا
﴿وليس البر بأن تأتوا﴾ تدخلوا ﴿البيوت من ظهورها﴾ بأن تنقبوا البيوت
وتدخلونها من النقب ﴿ولكن البر من اتقى﴾ من الله سبحانه بإتيان أوامره
واجتناب نواهيه ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾ ولو في حال الإحرام
﴿واتقوا الله﴾ في أوامره ونواهيه ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي لكي تفلحوا
بالوصول إلى السعادة الدنيوية والأخروية .

[١٩١] وهنا حكم آخر من أحكام الإسلام الكثيرة وهو القتال والجهاد ، ولقد
كان بين هذا الحكم وبين «الحج» المتقدم مناسبة ، إذ المشركون قد
منعوا الرسول ﷺ عن الحج عام الحديبية ، فكان على المسلمين أن
يستعدوا للجهاد إن اقتضت الظروف ﴿وقاتلوا﴾ أيها المسلمون ﴿في
سبيل الله﴾ لا لحب السيطرة والغلبة كما هو شأن ملوك الدنيا وزعمائها
بل في سبيل إعلاء كلمة الله التي فيها سعادة البشر ﴿الذين يقاتلونكم﴾

وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩١﴾
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمُ وَالْفِتْنَةُ
أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوهُمْ

لا كل آمن، فمن ألقى سلاحه، وسكن إلى محله، فإن في قتاله إيجاد
فوضى واضطراب لا داعي إليهما ﴿ولا تعتدوا﴾ إذا قاتلتم من قاتلكم فإن
القتال قتال دفاع، فلا معنى للاعتداء وأنتم مرتبطون بالله الذي تقاتلون
لأجله فلا يصح الاعتداء من أمثالكم ﴿إن الله لا يحب المعتدين﴾ فهو
الذي يأمر بالعدل والإحسان، فكيف يحب من اعتدى وبغى؟

[١٩٢] ﴿واقتلوهم﴾ أي الذين يقاتلونكم ﴿حيث ثقفتموهم﴾ أي
وجدتموهم ﴿وأخرجوهم من حيث أخرجوكم﴾ أي أخرجوهم من
مكة كما أخرجوكم منها، فمن قاتلكم قتلتموه ومن أخرجكم من
دياركم أخرجتموه جزاءً وفاقاً ﴿والفتنة﴾ التي أثارها الكفار بتفتين
المسلمين عن دينهم وإلقاء الارتياب والشك في قلوبهم ليجلبوهم إلى
خطيرة الكفر بعد أن هداهم الله ﴿أشد من القتل﴾ فالقتل يوجب ذهاب
الدنيا والفتنة توجب ذهاب الدين، فمن تقاتلونهم لا يستحقون عليكم
أن يهرجوا بأن المسلمين يشهرون السلاح فانهم يستحقون القتل لأنهم
بدأوا بالقتال لأنهم فتنوا، وروي أنها نزلت في مسلم قتل كافراً في
الشهر الحرام فعاثوا المؤمنين بذلك^(١)، فبين سبحانه أن الفتنة التي
تصدر من الكفار أشد من القتل ﴿ولا تقاتلوهم﴾ أي لا تقاتلوا

(١) مجمع البيان: ج ٢ ص ٣٠.

عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقْتَلُوا فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ
كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩٣﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٣﴾
وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا
عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٤﴾

الكافرين أيها المسلمون ﴿عند المسجد الحرام﴾ أي في الحرم ﴿حتى يقاتلوكم فيه﴾ ويبدؤوا بالقتال ﴿فإن قاتلوكم﴾ بدءوكم بالقتال في الحرم ﴿فاقتلوهم﴾ هناك ﴿كذلك﴾ الذي مر من وجوب قتال الكفار حيث وجدوا إلى آخر ما ذكر ﴿جزاء الكافرين﴾

[١٩٣] ﴿فإن انتهوا﴾ عن الكفر بأن أسلموا ﴿فإن الله غفور﴾ يغفر سيئاتهم حتى التي ارتكبوها قبل إسلامهم من القتال فالإسلام يجب ما قبله ﴿رحيم﴾ بعباده المؤمنين .

[١٩٤] ﴿واقتلوهم﴾ أي الكفار الذين يقاتلوكم لأجل القصاص فقط بل ﴿حتى لا تكون فتنة﴾ بأن لا يفتن المسلمون عن دينهم ﴿و يكون الدين﴾ والطريقة ﴿لله﴾ فلا يبقى منهج لسواه بأن ينتصر الحق على الباطل وهذان هما الغاية من إيجاب الدفاع ﴿فإن انتهوا﴾ عن الكفر ﴿فلا عدوان﴾ أي تعدي بالدفاع والقتال ﴿إلا على الظالمين﴾ الباقين على كفرهم ، أي إذا انتهى المعتدون عن الفتنة والتعرض لدين الله والتعرض للمسلمين بالأذى والقتال فلا قتال معهم لأن القتال لا يكون إلا مع الظالمين ، وسمي «عدواناً» تشبيهاً كما قال سبحانه في الآية المقبلة : «فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» .

الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى
 عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ
 وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا
 تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٦﴾

=====

[١٩٥] ﴿الشهر الحرام﴾ وهو ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب سميت
 هذه الأشهر حراماً لتحريم القتال فيها ﴿بالشهر الحرام﴾ أي بمقابل
 الشهر الحرام فمن انتهك حرمة الشهر الحرام بالقتال فيه لم يحرم قتاله
 بل يقاتل ﴿والحرمان قصاص﴾ كما أن الجروح قصاص فمن انتهك
 حرمة اقتص منه في نفس الشهر أو المكان الذي انتهكت حرمة ولذا
 يحارب المحارب في الحرم وفي الشهر الحرام ﴿فمن اعتدى عليكم
 فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ لا أزيد من ذلك وسمي اعتداءً
 لأنه مثل الاعتداء فالتسمية إنما هي بالمجانسة ﴿واتقوا الله﴾ فلا
 تتجاوزوا الحدود ولا تبالغوا في القسوة والانتقام ﴿واعلموا أن الله مع
 المتقين﴾ فيأخذ بأيديهم في الدنيا ويسعدهم في الآخرة.

[١٩٦] ﴿وانفقوا في سبيل الله﴾ فإن الجهاد يحتاج إلى الإنفاق في تجهيز
 الجيش وهو من أعظم السبل ﴿ولا تلقوا بأيديكم﴾ أي لا تلقوا
 أنفسكم بأيديكم ﴿إلى التهلكة﴾ بترك الإنفاق للجهاد حتى يتسلط
 عليكم العدو ﴿وأحسنوا﴾ في إنفاقكم وجهادكم وسائر أموركم ﴿إن
 الله يحب المحسنين﴾.

[١٩٧] ثم يرجع السياق إلى أحكام الحج الذي ألمح إليه فيما سبق، لأن

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمِن تَمَنَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ

الحج كان في مقام صلح الحديبية وحج النبي ﷺ ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ أي اتوا بها تماماً وكاملاً بإتيان مناسكهما قربة إلى الله تعالى لا لأجل رياء أو سمعة أو نحوهما ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ بأن منكم مانع عن الحج بعدما أحرمتكم ﴿فَ﴾ عليكم إذا أردتم التحلل عن الإحرام أن تقدموا أو تذبحوا ﴿مَا اسْتَيْسَرَ﴾ أي ما أمكنكم ﴿مِن الْهَدْيِ﴾ الذي قدمتموه إلى الله، والهدي هو البقر أو الإبل أو الغنم ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ وهو كناية عن التحلل عن الأجسام أي لا تحلقوا ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ الذي قرر في الشريعة من محل الحصى أو مكة أو منى كما فصل في الفقه ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا﴾ لا يتمكن من أن لا يحلق ﴿أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ﴾ كأن قمل رأسه فيتأذى من هوائه فلا يتمكن من عدم الحلق ﴿فَ﴾ عليه إذا حلق قبل أن يبلغ الهدي محله ﴿فِدْيَةٌ﴾ يقدمها بدل حلقه ﴿مِّن صِيَامٍ﴾ ثلاثة أيام ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾ لستة مساكين ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ أي شاة يذبحها لأجل تعجيله في الحلق ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ من العدو الصاد وكذلك شفيتم من المرض وزال المانع ﴿فَمِن تَمَنَعَ﴾ أي استمتع بالطيب والنساء وسائر الملذات التي يحرمها الإحرام ﴿بِ﴾ سبب إتيانه ﴿الْعُمْرَةِ﴾ فإن العمرة تنتهي سريعاً فتحل المحرمات ﴿إِلَى الْحَجِّ﴾ أي يكون تمتعه بالملذات إلى أن يحرم

فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ
إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٧﴾

=====

للحج ﴿ف﴾ عليه ﴿ما استيسر﴾ أي ما تمكن عليه ﴿من الهدى﴾ إبل
أو بقر أو شاة يجب عليه ذبحها في منى أيام العيد ﴿فمن لم يجد﴾
الهدى ﴿ف﴾ عليه ﴿صيام ثلاثة أيام في﴾ أيام ﴿الحج﴾ من ذي الحجة
﴿وسبعة﴾ أيام ﴿إذا رجعت﴾ إلى بلادكم ﴿تلك عشرة كاملة﴾ تكون
بدلاً عن الهدى ﴿ذلك﴾ التمتع الذي يكون عمرته مقدمة على حجه
فرض ﴿لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ من كان في
أطراف الحرم من كل جانب اثني عشر ميلاً أو نحوه على خلاف، أما
من كان أهله حاضري المسجد الحرام بأن كان محله عند أقل من ذلك
ففرضه القرآن أو الأفراد وفي كليهما يقدم الحج على العمرة، والفرق
بينهما أن القارن يعقد إحرامه بسوق الهدى دون المفرد ﴿واتقوا الله﴾
في أحكامه أيها المسلمون ﴿واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ فلا
تخالفوا أوامر ونواهيه. والحج يشتمل على فرضين: (عمرة) هي:
«الإحرام والتلبية»، «الطواف بالبيت»، «صلاة الطواف»، «والسعي
بين الصفا والمروة»، «والتقصير». و(حج) هو: «الإحرام»، «و
الوقوف بعرفات»، «الوقوف بالمشعر»، «الإفاضة إلى منى»، «رمي
جمرة العقبة»، «نحر أو ذبح»، «حلق أو تقصير»، طواف الحج
وصلاته وسعي وتقصير وطواف النساء وصلاته «طواف النساء»،
«صلاة طواف النساء»، «السعي بين الصفا والمروة»، «طواف

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ

الزيارة»، «صلاة طواف الزيارة»، «المبيت بمنى ليلة الحادي عشر والثاني عشر»، «رمي الجمار الثلاث يومي الحادي عشر والثاني عشر»، وقد أشار الشيخ البهائي إلى هذه الأعمال في بيته المشهور

أطرسن للعمرة اجعل نهج

أو أرنحط رسطرمر: لحج^(١)

[١٩٨] ﴿الحج﴾ في ﴿أشهر معلومات﴾ أو أشهر الحج أشهر معلومات وهو شوال وذو القعدة وذو الحجة فلا يجوز تأخيرها منها كما كان الجاهلون

(١) الألف: الإحرام للعمرة التمتع عن حجة الاسلام.

الطاء: طواف العمرة.

الراء: ركعتان صلوة طواف للعمرة التمتع.

السين: السعي بين الصفا والمروة عن عمرة التمتع.

التاء: التقصير عن عمرة التمتع لحجة الاسلام فهناك اعمال العمرة لحج التمتع.

الألف: الإحرام لحج التمتع.

الواو الاول: الوقوف بعرفات في ٩ من ذبحة لحج التمتع.

الواو الثاني: الوقوف في مشعر الحرام ليلة العيد الى الصبح لحج التمتع.

الالف: الإفاضة إلى منى يوم العيد.

الراء: رمي جمرة للعقبة في يوم العيد لحج التمتع.

النون: نحر إبل أو ذبحة لحج التمتع.

الحاء: الحلق في يوم العيد لحج التمتع.

الطاء: الطواف عن حجة الاسلام.

الراء: رمي الجمرات الثلاثة في يوم الحادي عشر من ذي حجة عن حج التمتع.

السين: السعي بين الصفا والمروة لحج التمتع.

الطاء: طواف النساء.

الراء: رمي الجمرات الثلاثة في يوم الثاني عشر من ذي حجة عن حج التمتع.

الميم: المبيت في منى ثلاثة ليال عن حج التمتع.

ولا يخفى أنَّ جملة (مزلحج) التي أتى بها البهائي (رحمه الله) تكون لتكملة الشعر فلا تدخل فيما

أردناها من المناسك.

فَمَنْ فَرَضَ فِيهِكَ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ
 فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا
 فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴿١٩٨﴾
 لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ

=====

يفعلون حيث يؤخرون الحج، ونزل فيهم (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ) ^(١) ﴿فَمَنْ فَرَضَ﴾ على نفسه ﴿فِيهِن﴾ أي في هذه الأشهر ﴿الحج﴾ ف﴿ليعلم أنه﴾ ﴿لَا رَفَثَ﴾ وهو الجماع ﴿وَلَا فُسُوقَ﴾ وهو السباب والمفاخرة ﴿وَلَا جِدَالَ﴾ قول لا والله وبلى والله ﴿فِي الْحَجِّ﴾ أي في حال الإحرام ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ في الحج وغيره ﴿يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ ولعل ذكره هنا لكثرة احتياج الحجاج بعضهم إلى بعض في مختلف الشؤون فأريد التنبيه بأن كل خير يصدر من الإنسان إنما هو بعلم الله سبحانه فيجازيه على ذلك ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ من الحج زاداً للروح ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ وهو يحصل بكثرة هائلة في الحج حيث التجرد والكف عن الملذات ومقامات الشدائد والصعوبات، ويحتمل أنها نزلت فيمن لم يكن يأخذ الزاد للحج بادعاء أنه ضيف الله ثم ليستعطي في الطريق فأمر بأخذ الزاد فإنه قرين بالتقوى دون الاستعطاء الذي فيه منقصة وذلة وحرمة أحياناً ﴿وَاتَّقُونِ﴾ أي خافوني في أعمالكم فلا تغفلوا ولا تتركوا واجباً ﴿يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ أي يا أصحاب العقول.

[١٩٩] كانوا يتأثمون بالتجارة في الحج فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ

تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِّنْ
عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمَنِ
الضَّالِّينَ ﴿٢١٩﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ
وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ فَإِذَا
قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ

=====

تبتغوا فضلاً من ربكم ﴿﴾ بالانجار فإنه ليس بمحرم ﴿﴾ فإذا أفضتم ﴿﴾ منها
كما يندفع الماء نحو الوهاد فإن الحجاج يندفعون كالسيل ﴿﴾ من عرفات
فاذكروا الله عند المشعر الحرام ﴿﴾ وهو الموقف الثاني ووقته بين طلوع
الفجر وطلوع الشمس من يوم العيد ﴿﴾ واذكروه كما هداكم ﴿﴾ أي بإزاء
هدايته سبحانه إياكم لدينه وما يسعدكم في الدنيا والآخرة ﴿﴾ وإن كنتم
من قبله ﴿﴾ أي قبل الهدى ﴿﴾ لمن الضالين ﴿﴾ عن دينه .

[٢٠٠] ﴿﴾ ثم أفيضوا ﴿﴾ من المشعر إلى منى ﴿﴾ من حيث أفاض الناس ﴿﴾ من
قبلكم إبراهيم عليه السلام وذريته ﴿﴾ واستغفروا الله ﴿﴾ اطلبوا غفرانه وعفوه
﴿﴾ إن الله غفور رحيم ﴿﴾ هكذا يقتضي نظم الآية، لكن ورد أن قريشاً
لا يقفون بعرفات ولا يفيضون منه ويقولون نحن أهل حرم الله فلا
نخرج منه فيقفون بالمشعر ويفيضون منه ، فأمرهم الله أن يقفوا بعرفات
ويفيضوا منه كسائر الناس .

[٢٠١] ﴿﴾ فإذا قضيتم مناسككم ﴿﴾ أي أدبتم أعمالكم فالمناسك جمع منسك

فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا
فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ
فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ﴿٢٠١﴾ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ رَبَّنَا
آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا
عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠٢﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا

وهو مصدر ميمي بمعنى العمل ﴿فأذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً﴾ فإن أهل الجاهلية كانوا إذا فرغوا من الحج يجتمعون هناك ويعدون مفاخر آبائهم ومآثرهم ويذكرون أيامهم القديمة وأيديهم الجسيمة فأمرهم الله أن يذكروه عوض ذكرهم آبائهم، بل يجب أن يذكروه أكثر وأحسن من ذكر آبائهم فهو المنعم الحقيقي الذي بيده كل شيء ومنه كل خير، وهنا يكون المجال واسعاً لبيان نموذجين من الناس منهم من يريد الآخرة ومنهم من يريد الدنيا ولذا قال تعالى: ﴿فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا﴾ أي أعطنا من نعيمها ورفاهها وسعادتها ولا يسأل نعيم الآخرة لأنه غير مؤمن بها إذ كان الحج قبل الإسلام عامّاً للمعتقد والمنكر ﴿وما له في الآخرة من خلاق﴾ أي نصيب.

[٢٠٢] ﴿ومنهم﴾ أي من الناس ﴿من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا﴾ من وقى يقي أي احفظنا من ﴿عذاب النار﴾ فهو يسأل نعيم الدنيا ونعيم الآخرة ويتعوذ بالله من النار.

[٢٠٣] ﴿أولئك﴾ يسألون خير الدنيا والآخرة ﴿لهم نصيب مما كسبوا﴾ لأنهم يستحقون ثواب أعمالهم بخلاف الطائفة الأولى فإن كفرهم يمنع

وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٣﴾ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

عن ثوابهم ﴿والله سريع الحساب﴾ فلا يظن الإنسان أن الآخرة بعيدة فإنه لا تمر الأيام والليالي إلا والشخص دفين في التراب وإن طال عمره في الدنيا .

[٢٠٤] ﴿واذكروا الله﴾ أيها الحجاج ﴿في أيام معدودات﴾ وهي أيام التشريق في منى ﴿فمن تعجل﴾ النفر إلى مكة من منى ﴿في يومين﴾ بأن نفر يوم الثاني عشر ﴿فلا إثم عليه﴾ فإنه يجوز النفر بعد زوال الثاني عشر ﴿ومن تأخر﴾ في النفر فنفر في الثالث عشر ﴿فلا إثم عليه﴾ فيجوز كل من الأمرين ﴿لمن اتقى﴾ الصيد في إحرامه وإلا فإن صاد وجب عليه النفر الثاني فلا يجوز أن ينفر في الثاني عشر ﴿واتقوا الله﴾ فيما أمركم ونهاكم ﴿واعلموا أنكم إليه تحشرون﴾ الحشر هو الجمع والمعنى تجمعون إلى حكم الله وجزائه يوم القيامة .

[٢٠٥] ثم يلتفت السياق إلى الإنسان طالحه وصالحه، ويبين خصائص البشر، ليعطي درساً لمن أراد الصلاح والرشاد فيقول سبحانه: ﴿ومن الناس من يعجبك قوله﴾ للباقة وفصاحته وكلامه المعسول فتستحسن كلامه وتصغي إلى بيانه ﴿في الحياة الدنيا﴾ أما متعلق بـ «قوله»، أي

وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٧﴾

=====

قوله في شؤون الدنيا معجب، أو متعلق بـ «يعجبك» أي أن إعجابك إنما هو في الدنيا، والأول أقرب ﴿ويشهد الله على ما في قلبه﴾ كما هو شأن المنافقين أبداً فإنهم حيث يرون نفاقهم يظنون أن الناس مطلعون على سرائرهم فيؤكدون بأنهم مخلصون وأن ما في قلبهم يطابق ما على لسانهم ﴿وهو ألد الخصام﴾ الألد هو شديد الخصومة والخصام جمع يعني أنه من أكبر خصمائك في الباطن.

[٢٠٦] ﴿وإذا تولى﴾ وأدبر وذهب من عندك ﴿سعى في الأرض﴾ من هنا إلى هناك كما هو شأن المشاغب المفسد ﴿ليفسد فيها﴾ بإثارة الفوضى والاضطراب ﴿ويهلك الحرث﴾ أي الزراعة ﴿والنسل﴾ أي الأولاد والذرية فإن إثارة الفوضى يوجب خراب الزراعات لاشتغال أهلها بالكفاح، وفناء النسل إذ الشباب دائماً يقدمون على الحرب والجلاء ﴿والله لا يحب الفساد﴾.

[٢٠٧] ﴿وإذا قيل له اتق الله﴾ في عملك فلا تفسد ﴿أخذته العزة بالإثم﴾ أي حملته عزة وحمية الجاهلية بأن يآثم لأنه لا يرضخ للحق ولا يعتني به ﴿فحسبه جهنم﴾ أي تمكنه جهنم جزاء له ﴿ولبئس المهاد﴾ أي محل القرار، وهذه الآيات نزلت في المنافقين أو في فرد خاص منهم يسمى

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ
لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٩﴾

=====

الأخنس بن شريق، كان يظهر المحبة للنبي ويبطن الفساد والنفاق، ولعل وجه ارتباط هذه الآيات بالحج أن الكلام انتهى هناك حول من يفتخر بالآباء اعتزازاً بالنفس وهذا مثلهم في الاعتزاز والاعتزاز.

[٢٠٨] ﴿ومن الناس﴾ أي بعض الناس ﴿من يشري﴾ أي يبيع فإن كلا من البيع والشراء يجيء بمعنى الآخر ﴿نفسه ابتغاء مرضات الله﴾ أي لأجل طلب رضا سبحانه ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ يرأف بهم فيجازيهم لعملهم الحسن، ولعل ذكر الرأفة لأجل أن هذا البيع يحتوي على أخطاء وأضرار، ففيه تنبيه إلى أن الله رؤوف يجنب البائع الأضرار والأضرار، وهذه الآية نزلت في الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام حين نام في فراش الرسول ﷺ ليلة الهجرة.

[٢٠٩] وحين ذكر أن من الناس من هو منافق ناسب الإرشاد العام فقال سبحانه ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ باللسان ﴿ادخلوا في السلم﴾ مع الله ورسوله في جميع أموركم ﴿كافة﴾ أي جميعاً فاستسلموا للدين في جميع شؤونكم ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ بأن تخالفوا أمر الله سبحانه وتبعوا أمر الشيطان وما يوحي اليه الهوى ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ أي عدو ظاهر لأنه يأمر بالمفاسد التي ترجع إلى ذهاب دينكم ودنياكم.

فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ
 اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢١٠﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ
 فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ
 الْأُمُورُ ﴿٢١١﴾ سَلْ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَاهُمْ مِّنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ

=====

[٢١٠] ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ تشبيه للذنوب بمن يزل له قدم ﴿من بعدما جاءكم البينات﴾
 الأدلة الواضحة على الحق ﴿فاعلموا أن الله عزيز﴾ فلا يمتنع عليه العذاب
 والعقاب بمن زل ﴿حكيم﴾ في فعله ليعفوا عمن يشاء ويعذب من يشاء .

[٢١١] وهنا يعود السياق إلى من تأخذه العزة فيقول سبحانه ﴿هل ينظرون﴾
 النظر بمعنى الانتظار أي هل ينتظر هؤلاء المنافقون ﴿إلا أن يأتيهم
 الله﴾ حتى يؤمنوا ويقلعوا عن نفاقهم وكفرهم ﴿في ظلل من الغمام﴾
 ظلل جمع ظلة وهي ما يستظل به من الشمس وسمي السحاب ظلة لأنه
 يستظل به من الشمس ، والغمام هو السحاب وقد كانت اليهود تزعم أن
 الله ينزل في ظلل من الغمام وكذلك الملائكة معه ولذا قال :
 ﴿والملائكة﴾ عطفاً على «الله» ﴿وقضي الأمر﴾ أي يوم تغيير الكون
 عن وضعه لا يبقى بعد مجال للتكليف إنما هو يوم القيامة ﴿وإلى الله
 ترجع الأمور﴾ ويكون ذلك اليوم يوم حساب وعقاب وثواب ، لا يوم
 عمل وشغل ، فالآية تشير إلى أساطير أهل الكتاب متهمكماً ساخرأ ، ثم
 يهدد ويوعد بأن الأمر يقضي فلا مجال بعد التكليف .

[٢١٢] وحيث أشير إلى أسطورة إسرائيلية ، توجه السياق إلى تأنيب بني
 إسرائيل الذين كانوا يعاندون في إنكارهم للآيات ﴿سل بني إسرائيل
 كم آتيناهم من آية بينة﴾ أي أعطيناهم أدلة واضحة ومع ذلك عاندوا

وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١٢﴾
 زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا
 وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ
 حِسَابٍ ﴿٢١٣﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ

ولم يؤمنوا ﴿ومن يبدل نعمة الله﴾ كفراً فلا يؤمن بآياته ﴿من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾ فليهيئ نفسه لعقابه .

[٢١٣] ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا﴾ أي الحياة القريبة مقابل الحياة البعيدة وهي الآخرة والتي زينها لهم هي مجموعة عوامل بعضها حق وبعضها باطل فإن الحياة التي خلقها الله جميلة تزين نفسها كما أن الشيطان والنفس والهوى تزين الحياة لتصرف الناس عن الآخرة ﴿ويسخرون من الذين آمنوا﴾ حيث يرونهم منصرفين عنها مقبلين إلى الآخرة - التي لا يعتقد هؤلاء الكفار بها - ﴿والذين اتقوا﴾ من المؤمنين ﴿فوقهم﴾ أي فوق هؤلاء الكفار منزلة ومقاماً ورتبة ﴿يوم القيامة﴾ لأنهم عملوا لها فأدركوا خيرها والكفار لم يعملوا فيبقون هناك سائلين ﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ فالرزق في الدنيا ليس بالكفر والتوجه إليها حتى يحرم أهل الآخرة منها بل الرزق يصيب الكافر والمؤمن، فالمؤمن منعم في الدنيا وفوق الكافر في الآخرة.

[٢١٤] إن كل حركة إصلاحية لا بد وأن تشق صفوف الناس المتصافقة على الفساد وهكذا كان بعث الأنبياء ﷺ فقد ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث

اللَّهُ الْبَيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٤﴾

الله النبيين مبشرين ﴿للمن آمن وأصلح﴾ ﴿ومنذرين﴾ ﴿للمن كفر أو عصى﴾ ﴿وأُنزل معهم الكتاب بالحق﴾ قيد توضيحي إذ كل إنزال من الله بالحق وإنما أكد لمقابلته لسائر الكتب التي ترسلها رؤساء الحكومات إلى رعاياها فإن منها ما هو حق ومنها ما هو باطل ﴿ليحكم﴾ ذات الكتاب ﴿بين الناس فيما اختلفوا فيه﴾ من أمور معاملاتهم وسائر معاشراتهم والاختلاف هنا لا ينافي كون الناس أمة واحدة إذ وحدة الأمة تجتمع مع هذا النوع من الاختلاف ثم صار نفس الكتاب محلاً لاختلاف الأمة فيه، لكن هذا الاختلاف ليس عن واقع وشك، لأن الكتاب واضح بل عن حسد وبغي وطمع ﴿وما اختلف فيه﴾ أي في الكتاب بأن فسرته كل حسب نظره وهواه ﴿إلا الذين أُوتوه﴾ أي الأمة التي أعطيت الكتاب ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي الأدلة الواضحة على معاني الكتاب ﴿بغياً بينهم﴾ أي الاختلاف إنما نشأ من البغي والظلم والحسد الحاصل بينهم ﴿فهدى الله الذين آمنوا﴾ حقيقة وأرادوا اتباع أحكام الله واقعاً ﴿لما اختلفوا فيه من الحق﴾ أي للشيء الذي اختلفت الأمة فيه ﴿بإذنه﴾ أي بلطفه بهم حيث هداهم ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ إما

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ
 قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٥﴾

معناه الإيصال إلى المطلوب وهو ليس بواجب بالنسبة إلى الجميع وإما
 معناه إراءة الطريق ومعنى من يشاء إنه لو لم يشأ لا يهدي أحد، إذ الهداية
 لا تكون إلا بإرسال الرسل، والأول أنسب بالسياق.

[٢١٥] ثم يسأل الله المؤمنين الذين وقعوا في متاعب هذا الخلاف حيث
 يحاربونهم الكفار لأجل أنهم اهتدوا بهدي الله ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أي بل
 حسبتم وظننتم أيها المسلمون ﴿أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ اعتباطاً وبلا مشقة
 وخرج ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا﴾ أي مضوا ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي لم
 يأتكم بعد امتحان مثل امتحان الأمم المؤمنة السالفة الذين ثبتوا وصبروا
 تجاه الأحزان والكوارث وإنما قال «مثل» لأنهم صاروا مثلاً للصبر
 وتحمل المكاره ﴿مَسَّتْهُمُ﴾ أي لمستهم ﴿الْبَأْسَاءُ الْفَقْرُ وَالضَّرَاءُ﴾
 المرض والخرج وأشباههما ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ أي حركوا بأنواع المحن
 والبلايا ﴿حَتَّى﴾ وصل الحال إلى أن ﴿يَقُولَ الرَّسُولُ﴾ لتلك الأمم
 ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ﴾ استعجالاً للنصر الموعود وتمنياً
 للخلاص من الشدائد والمحن، فاستدرك الأمر وأجيب سؤالهم بأنه
 ﴿أَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ وهذا جواب طبيعي يقوله الرسول ﷺ
 والمؤمنون كلما رأوا البلاء والمحن، وفي الآية تعبير المؤمنين وأنها
 إنما يفوزون بسعادة الدنيا والآخرة بعد مثل هذه الكوارث والمتاعب.

[٢١٦] ويأتي هنا دور أسئلة وجهت إلى الرسول ﷺ أجاب عنها القرآن

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ
وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ
خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٦﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ
كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ

الكريم يجمعها الإقلاع عن الملذات والصبر على الطاعة وبهذا يرتبط السياق بما قبله حيث كان الكلام في معرض التضحية في سبيل العقيدة والإيمان وما يأتي نوع من التضحية ﴿يسألونك﴾ يا رسول الله ﴿ماذا ينفقون﴾ في سبيل الله من أقسام الأموال ﴿قل﴾ ليس لهم الإنفاق فإنه أي شيء كان يقبل إذا كان المنفق عليه أهلاً كما أنه لا يقبل إذا كان المنفق عليه غير أهل فمعيار الإنفاق ليس ماهية المنفق وإنما شخص المنفق عليه ف ﴿ما أنفقتم من خير ف﴾ اللازم أن يكون ﴿للوالدين والأقربين﴾ أقربائكم ﴿واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ وأشباه ذلك مما يقصد به وجه الله سبحانه ﴿وما تفعلوا من خير﴾ إنفاق أو غيره ﴿فإن الله به عليم﴾ فيجازيكم بالخير خيراً. وروي أنها نزلت في عمرو ابن الجموح، وكان شيخاً كبيراً كثير المال فقال يا رسول الله بماذا أتصدق؟ وعلى من أتصدق فأنزل الله هذه الآية^(١).

[٢١٧] ثم رجع السياق إلى الآية السابقة التي فيها ذكر التضحية والزلازل ﴿كتب عليكم القتال﴾ مع من تعدى عليكم أو على العقيدة الصحيحة أو على الناس ﴿وهو كره لكم﴾ تكرهونه ﴿وعسى﴾

أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ
 شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٧﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ
 الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ
 اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ

بمعنى «قد» وما بعده فاعله ﴿أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾
والقتال من ذلك فإنه يوجب سيادتكم وسعادتكم ﴿وَعَسَى أَنْ تَحْبُوا
شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ وترك القتال كذلك لما فيه من راحة الجسم
وعدم اضطراب القلب لكنه شر لما فيه من زوال السيادة والعزة
وتسلط الكفار والأجانب ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ﴾ ما فيه خيركم وشركم
﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

[٢١٨] بعث رسول الله بسرية فاتفق أن قاتلت في شهر رجب وهي تتردى في أن اليوم الذي حاربت فيه من جمادى أو رجب، وشهر رجب من الأشهر الحرم، ولذا كثر صخب المشركين وإنه كيف يقاتل الرسول في شهر حرام وأتى وفدهم إلى المدينة يسألون الرسول ﷺ عن ذلك فنزلت هذه الآية ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدل شهر أي يسألونك يا رسول الله عن القتال في الشهر الحرام ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ﴾ أي في الشهر الحرام ﴿كَبِيرٌ﴾ في نفسه لا يجوز ﴿وَلَكِنْ لَيْسَ كَبْرُ ذَنْبِهِ مِثْلَ عَظَمِ ذَنْبِ مَا تَفْعَلُونَ﴾ أنتم أيها المشركون ف ﴿صَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي المنع عنه بأن لا يسلم أحد ﴿وَكُفِّرْ بِهِ﴾ أي بالله سبحانه ﴿وَصَدَّ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ لثلاثي يحج المسلمون ﴿وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ﴾ أي أهل المسجد الحرام ﴿مِنْهُ﴾ كما فعل المشركون بالنبي والمسلمين ﴿أَكْبَرُ

عند الله **﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** **﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾**

عند الله **﴿**كيف تؤاخذون المسلمين بذنوبهم عظم وتنسون ذنوبكم التي هي أعظم منه **﴿والفتنة﴾** التي أنتم تقيمون عليها من تفتين المسلمين عن دينهم وإغرائهم بالكفر بعد الإسلام **﴿أكبر من القتل﴾** الذي صدر من المسلمين، فالقتل يفسد دنيا المقتول والفتنة تفسد دين المفتن وأخراه **﴿ولا يزالون﴾** أي لا يزال الكفار **﴿يقاتلونكم﴾** أيها المسلمون **﴿حتى يردوكم عن دينكم﴾** إلى الكفر **﴿إن استطاعوا﴾** أن يردوكم **﴿ومن يرتدد منكم﴾** أيها المسلمون **﴿عن دينه﴾** إلى الكفر **﴿فيمت وهو كافر﴾** في مقابل من أرتد ورجع حتى مات مؤمناً **﴿فأولئك حبطت أعمالهم﴾** والحبط هو الإبطال والإفناء فلا حسنة لهم ولم ينتفعوا بإيمانهم السابق على الكفر **﴿في الدنيا﴾** فليس لهم احترام المسلم وحقوقه **﴿والآخرة﴾** فلا يجزى بالجنة والثواب **﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾** إلى الأبد.

[٢١٩] وهناك ظن أناس أن القاتل في رجب إن سلم من الإثم لم يكن له أجر لأنه انتهك حرمة الشهر الحرام فأنزل الله **﴿إن الذين آمنوا والذين هاجروا﴾** بأن قطعوا ديارهم وأهليهم وخلفوا أموالهم لأجل أن يكونوا

وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٩﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ
 فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا
 وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ

=====

مع الرسول ﷺ ﴿وجاهدوا﴾ أي أوقعوا أنفسهم بالجهد والتعب،
 وأوضح أفراده المقاتلة ﴿في سبيل الله﴾ لكسب مرضيه ﴿أولئك﴾
 يرجون رحمة الله ﴿يأملونها في الدنيا والآخرة﴾ والله غفور ﴿يغفر لمن﴾
 زل و﴿رحيم﴾ بعباده المؤمنين فلا ينقص أجورهم وإنما قال:
 «يرجون» لأن الإنسان لا يدري ما حاله في المستقبل وإنه هل يبقى
 على الإيمان والصلاح حتى يثاب أم يفتن في دينه حتى يحبط عمله.

[٢٢٠] ﴿يسألونك﴾ يا رسول الله ﴿عن الخمر﴾ وهي كل مسكر وأظهر
 أفراده المسكر المتخذ من العنب ﴿والميسر﴾ وهو القمار بجميع
 أصنافه والسؤال كان عن حكمهما ﴿قل﴾ يا محمد ﴿فيهما إثم كبير﴾
 أي وزر عظيم لما فيهما من الفساد الكبير ﴿ومنافع للناس﴾ فإن الخمر
 تفيد اللذة والطرب وفي الاتجار بها ثمن وربح والقمار فيه لذة لللاعب
 وربح للفائز ﴿وإثمهما أكبر من نفعهما﴾ إذ الفساد الذي يسببانه في
 البدن والعقل والمال أكبر من اللذة والربح الذي يحصل بسببهما
 بالإضافة إلى العقوبة الأخروية التي تصيب الإنسان من جرائها.

﴿ويسألونك﴾ يا رسول الله ﴿ماذا ينفقون﴾ وهنا جاء الجواب طبق
 السؤال وإنه «ماذا» لا إنه «لمن» فقال ﴿قل﴾ يا محمد ﴿العفو﴾ أي الزائد
 من المال على النفقة فإن ما بقدر نفقة النفس والأهل لا ينفق تقديماً

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٢٠﴾ فِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمَىٰ قُلُوصَاصِلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ
وَأِنْ تَخَالَطُوهُمْ

لواجبي النفقة على غيره وهذا الإنفاق مستحب لما دل على حصر الحقوق
الواجبة في أمور معدودة ﴿كذلك﴾ أي هكذا يا رسول الله فإن كذا تشبيه
وإشارة والكاف الملحق بها اللام للخطاب ﴿يبين الله لكم الآيات﴾
الأدلة المرتبطة بالتشريعات ﴿لعلكم تتفكرون﴾ أي لكي تتفكروا.

[٢٢١] ﴿في﴾ أمر ﴿الدنيا و﴾ أمر ﴿الآخرة﴾ فتجمعوهما في التفكير ثم ترون
جمال الأحكام إذ التفكير في الدنيا فقط يوجب شلل قسم من الأحكام
فلماذا ينفق الإنسان - مثلاً - وهو بحاجة إلى المال، كما إن التفكير في
الآخرة فقط يوجب شلل قسم آخر من الأحكام فلماذا لا ينفق الإنسان
جميع أمواله لتحصيل أجر الآخرة وهكذا سائر الأحكام فلا يعرف
جمالها إلا إذا افترس الإنسان في كلتا الحياتين وعرف المصلحتين
﴿ويسألونك عن اليتامى﴾ كيف يعاشروهم فقد ورد أنه لما نزل (وَلَا
تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) ^(١) ذهب كل من عنده يتيم ليعزل
اليتيم في مأكله ومشربه عن نفسه لئلا يبتلي بماله واشتد ذلك عليهم
فسألو النبي ﷺ فنزلت ﴿قل﴾ يا رسول الله ﴿إصلاح لهم خير﴾ بأن
يصلح الإنسان أموال اليتيم ويعاشره معاشرة المصلحين بدون أجرة
وعوض خير من عزلهم وطردهم ﴿وإن تخالطوهم﴾ بأن تخلطوا أموالهم

فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢١﴾ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَ
حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَا أُمَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ

=====

بأموالكم وتشاركون معهم بالنسبة وحفظ المقدار ﴿ف﴾ هم ﴿إخوانكم﴾ في الإيمان والأخ يعاشر الأخ بالإصلاح والغبطة ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ فهو عارف بنية المخالطين للأيتام وإنهم يريدون بالمخالطة الإفساد وأكل مال اليتيم أو الإصلاح والتحفظ على اليتيم حتى يبلغ ويرشد ﴿ولو شاء الله لأعنتكم﴾ أي أوقعكم في العنت والمشقة بالنسبة إلى اليتيم بأن يوجب الاجتناب عن أموالهم واعتزال أموالكم عن أموالهم فحيث أنه لم يفعل ذلك رحمة بكم فلا تأكلوا أموالهم فساداً وطمعاً ﴿إن الله عزيز﴾ فهو يقدر - بعزته - من إعناتكم ﴿حكيم﴾ لا يفعل إلا الإصلاح وما تقتضيه الحكمة .

[٢٢٢] ثم انتقل السياق إلى فئة من أحكام الأسرة في النكاح والطلاق وشؤونها ولعل الارتباط العام بين هذه الآيات والآيات السابقة أنها انتهت إلى حكم اليتيم، فاللازم بيان العش الذي يتربى فيه فراخ الإنسان، وإنه كيف يلزم أن يكون لينشأ الأولاد صالحين أصحاباً جسماء وعقلاً وعاطفة ﴿ولا تنكحوا﴾ أيها الرجال المسلمون النساء ﴿المشركات﴾ سواء كن أهل كتاب أم لا فأهل الكتاب أيضاً مشركون كما قال سبحانه (تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) ^(١) ﴿حتى يؤمن﴾ ويدخلن في الإسلام ﴿ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾ تلك

وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ۖ وَيُبَيِّنُ ۖ ءَايَاتِهِ ۖ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ

المشركة لجمالها أو مالها أو حسبها أو نسبها ﴿ولا تنكحوا المشركين﴾ بناتكم أيها المسلمون ﴿حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن﴾ تزوجوه بنتكم ﴿خير من مشرك ولو أعجبكم﴾ ذلك المشرك ﴿أولئك﴾ المشركات والمشركون ﴿يدعون إلى النار﴾ إما بالتبليغ إلى الشرك وإما بحكم دينهم فإن جليس الإنسان إذا كان غير متدين لا بد وأن يسري إلى جليسه ﴿والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة﴾ أي غفران الذنوب ﴿بإذنه﴾ فالمسلمات والمسلمون حين أخذوا مبادئهم عن الله سبحانه لا بد وأن يدعون بلسانهم أو بحكم دينهم إلى الجنة ﴿ويبين آياته﴾ أحكامه ودلائله ﴿للناس لعلهم يتذكرون﴾ أي لكي يتذكروا ويتعظوا ويرشدوا.

[٢٢٣] ﴿ويسألونك﴾ يا رسول الله ﴿عن المحيض﴾ الحيض والمحيض بمعنى واحد وأنه هل يجوز مقاربة النساء في حالة الحيض أم لا ﴿قل﴾ يا محمد ﷺ ﴿هو﴾ أي المحيض ﴿أذى﴾ قذر نجس أو مشقة ﴿فاعتزلوا النساء في المحيض﴾ والاعتزال هو الابتعاد عنهن ﴿ولا تقربوهن﴾ بالجماع ﴿حتى يطهرن﴾ وينظفن عن الدم ﴿فإذا تطهرن﴾ عن الدم ﴿فأتوهن﴾ جامعوهن

مَنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٣﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شِئْتُمْ وَقَدِمُوا أَنْفُسَكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٤﴾

﴿من حيث أمركم الله﴾ بمقاربتهم من الفرج الذي هو محل الدم ﴿إن الله يحب التوابين﴾ الذين يرجعون كثيراً عن ذنوبهم إلى الندم والاستغفار بمعنى أنهم كلما أذنبوا تابوا ورجعوا واستغفروا ولعل ذكر التواب بمناسبة أن من زل فقارب في المحيض يقبل الله توبته وإن تكرر منه إذا ندم ندماً حقيقياً وتاب توبة نصوحاً ﴿ويحب المتطهرين﴾ بالماء عن الأقدار الباطنية والظاهرية أو بالاستغفار عن الذنوب.

[٢٢٤] ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ أي مزرعة ومحترث فكما يحترث الحرث البذر في الأرض كذلك يحترث الرجل في زوجته ﴿فأتوا حرثكم﴾ وزرعكم ﴿أنى شئتم﴾ «أنى» إما زمانية بمعنى أي وقت شئتم، باستثناء أيام الحيض التي سبق أنها لا يجوز وسائر ما استثنى من حال الصوم والإحرام وشبههما، وإما مكانية أي إتيانها في قبلها من خلفها أو قدامها أو جانبيها، أو بمعنى الكيفية بركة ونائمة وقائمة، أما أن يراد سياق السبيلان فبعيد عن سياق الآية ﴿وقدموا لأنفسكم﴾ بالولد فإنه يبقى ذخراً لكم، أو قدموا لأنفسكم بالطاعة حيث ذكرت أوامر ونواهي ﴿واتقوا الله﴾ في أوامره ونواهيهِ ﴿واعلموا أنكم ملاقوه﴾ والملاقة هنا بمعنى أنه عليكم حساب الملاقى لملاقية ﴿وبشر المؤمنين﴾ بأنهم

وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا
وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ
اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٦﴾

يفوزون بكل كرامة .

[٢٢٥] وناسب قصة النساء حلف بن رواحة حين حلف أن لا يدخل على ختنه ولا يكلمه ولا يصلح بينه وبين امرأته فكان يقول: إني حلفت بهذا فلا يحل لي أن أفعله، فنزلت الآية مما ناسب قصة العائلة والنساء التي سبقت، وتأتي، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً﴾ أي معرضاً ﴿لِأَيْمَانِكُمْ﴾ بأن تحلفوا به ﴿أَنْ تَبَرُّوا﴾ أي لثلاث تبرؤا، أي تريدون بالحلف عدم البر ﴿وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ أي وعدم التقوى وعدم الإصلاح، فإن هذه اليمين فاسدة لا تنعقد ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأيمانكم وأقوالكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم ونياتكم .

[٢٢٦] ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ﴾ ولا يعاقبكم ﴿بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ جمع يمين، ويمين اللغو هو ما يجري على عادة الناس من قول: لا والله وبلى والله من غير عقد على يمين يقطع بها مال ولا يظلم بها أحد ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي بحث يمين نويتم اليمين الحقيقية حين إجرائها ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ يغفر الذنب ﴿حَلِيمٌ﴾ يحلم عن العصاة لعلمهم يتوبوا، وتكرار كلمة غفور في كثير من الآيات لفتح باب التوبة أمام العصاة الذين هم كثيراً ما يعصون عن شهوة ونزوات وهوى، فإن

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ
 غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٨﴾
 وَالْمُطَلَّقَتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ

=====

الله سبحانه لا يسد عليهم باب التوبة وإن تكررت منهم المعاصي
 والذنوب.

[٢٢٧] ثم يرجع السياق إلى أحكام الأسرة مع مناسبة للحكم مع الحلف
 فيقول سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ﴾ والإيلاء هو الحلف على
 ترك وطى المرأة على وجه الإضرار بهن ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ مبتدأ
 لقوله «لِلَّذِينَ» أي توقف أربعة أشهر جائز للذين يؤلون من نسائهم
 وذلك لأن للرجل أن لا يطأ زوجته أربعة أشهر وبعد ما تم أربعة أشهر
 خيره الحاكم بين الوطى والكفارة وبين الطلاق وإن امتنع عن الأمرين
 حبسه ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ ورجعوا إلى زوجاتهم بالوطى بعد الأشهر الأربعة
 ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر لهم بهذا الحلف ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم.

[٢٢٨] ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ فطلقوا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ للطلاق ﴿عَلِيمٌ﴾
 بالضمائر والنيات.

[٢٢٩] ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ أي يصبرن ﴿بِأَنفُسِهِنَّ﴾ أي يحفظنها عن
 الزواج ونحوه ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ جمع قرء وهو من ألفاظ الضد يطلق على
 الحيض وعلى الطهر والمراد هنا الطهر فإذا طلقت المرأة في طهر لم
 يواقعها فيه الرجل كان هذا الطهر وطهران آخران بينهما حيض موجباً
 لانتظار العدة فإذا رأت الدم الثالث انقضت عدتها ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ

يَكْتُمَنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَيُعُولَهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي
عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٩﴾

=====

يكتمن أي يخفين ﴿ما خلق الله في أرحامهن﴾ من الولد ودم الحيض حتى يبطلن حق الرجعة في الطلاق الرجعي أو يستعجلن العدة ﴿إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ يوم القيامة، فمن آمن بهما لا بد وأن تستقيم حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله، لأنه يعلم أن الله مطلع عليه وأنه سوف يحاسبه ﴿وبعولتهن﴾ أي أزواج المطلقات الرجعيات ﴿أحق بردهن﴾ إلى أنفسهم ﴿في ذلك﴾ أي زمان التربص ﴿إن أرادوا﴾ أي البعولة بردهن ﴿إصلاحاً﴾ لا إضراراً، وذلك أن الرجل كان إذا أراد الإضرار بامرأته طلقها واحدة وتركها، حتى إذا قرب انقضاء عدتها راجعها وتركها مدة ثم طلقها أخرى وتركها مدة كما فعل في الأولى ثم راجعها وتركها مدة ثم طلقها أخرى، وهذا العمل حرام وإن كان يثبت حكم الرجعة به ﴿ولهن﴾ أي حق النساء على أزواجهن ﴿مثل الذي﴾ للأزواج ﴿عليهن﴾ فلكل على الآخر حقوق تتكافأ ﴿بالمعروف﴾ من العشرة وسائر الأمور ﴿وللرجال عليهن﴾ زيادة ﴿درجة﴾ فإن بيده الطلاق وله عليها الطاعة ﴿والله عزيز﴾ ينفذ أوامره ﴿حكيم﴾ جعل أحكامه على طبق المصلحة والصلاح، ومن المحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿ولهن مثل الذي عليهن﴾ بيان حال العدة أي أن لكل من الزوج والزوجة حقاً على الآخر في حال العدة مع أن الرجل له فضيلة على المرأة بأن الاختيار إلى الزوج فقط.

الطَّلُقُ مَرَّتَانٍ فَإِمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣٠﴾

[٢٣٠] ﴿الطلاق مرتان﴾ فإن للرجل أن يطلق زوجته تطليقتين ﴿ف﴾ الواجب إذا راجعها بعد التطليقتين ﴿إمساك﴾ وحفظ لها في حبالته ﴿بمعروف﴾ بالعشرة الحسنة ﴿أو تسريح﴾ وطلاق ثالث ﴿إحسان﴾ بإعطائها حقوقها وعدم التعدي، وفوق ذلك إنه يحسن إليها جبراً لخطاها المكسور.

﴿ولا يحل لكم﴾ أيها الأزواج ﴿أن تأخذوا﴾ في حال الطلاق والاستبدال ﴿مما﴾ أي من الذي ﴿آتيتموهن﴾ وأعطيتموهن من المهور ﴿شيئاً إلا أن يخافا﴾ أي الزوجان ﴿ألا يقيما حدود الله﴾ من حقوق الزوجية ﴿فإن خفتن﴾ أيها الحكام ﴿ألا يقيما حدود الله﴾ من حقوق الزوجية ﴿فلا جناح﴾ ولا حرج ﴿عليهما﴾ أي على الزوجة في البذل وعلى الزوج في قبول البذل ﴿فيما﴾ أي في الذي ﴿افتدت﴾ الزوجة ﴿به﴾ من المال ﴿تلك﴾ الأحكام المذكورة هي ﴿حدود الله﴾ وأوامره ونواهيه ﴿فلا تعتدوها﴾ ولا تجاوزوها بالمخالفة ﴿ومن يتعد﴾ منكم ويتجاوز ﴿حدود الله﴾ ويخالف أوامره ونواهيه ﴿فأولئك هم الظالمون﴾

فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَنْفَضُوا أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ

=====

[٢٣١] ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ طلاقاً ثالثاً ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ﴾ الطلاق الثالث فإنها تحرم عليه ﴿حتى تنكح﴾ المرأة المطلقة ثلاثاً ﴿زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ ويسمى هذا الزوج محللاً ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أي طلق المرأة الزوج الثاني وانقضت عدتها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أي على الزوجة والزوج الأول الذي طلقها ثلاث طلاقات ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا﴾ أي الزوجان ﴿أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ في حسن الصحبة والمعاشرة وإن لم يظنا صح الرجوع لكنه سبب للمعصية، والحاصل أن الحكم الوضعي الصحة وإن كان الحكم التكليفي الحرمة كمن يغسل يده النجسة بالماء المغصوب الذي يوجب طهارة يده لكنه فعل حراماً ﴿وَتِلْكَ﴾ المذكورات في باب الطلاق والنكاح ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ أوامره ونواهيه ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الأمور فإنهم هم الذين يتفهمون بهذه الأحكام.

[٢٣٢] ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَنْفَضُوا أَجَلَهُنَّ﴾ أي قاربن تمام العدة وإنما عبر بهذا التعبير لأن انقضاء العدة يعبر عنه بانقضاء الأجل فما يقابله بلوغ الأجل إذا قاربه، إذ البلوغ الدقي خارج عن محاوراة العرف ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ أي احفظوهن في حبالكم بالرجوع إليهن في عدة الرجعة ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ الذي يعرفه العقلاء والمشرعون من القيام بحقوق

أَوْ سَرِحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تَمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّنَعْتِدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ
 ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا نَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوعًا وَادْكُرُوا
 نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
 يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣٣﴾
 وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجَلَهُنَّ

الزوجة ﴿أو سرحوهن﴾ أي اتركوهن حتى تنقضي عدتهن
 ﴿بمعروف﴾ بإعطاء حقوقهن كاملة من غير إيذاء لهن ﴿ولا
 تمسكوهن﴾ بأن ترجعوا إليهن ﴿ضراراً﴾ بقصد الإضرار بهن لتطويل
 العدة أو التضييق في النفقة - كما تقدم - ﴿لتعتدوا﴾ عليهن وتظلموهن
 ﴿ومن يفعل ذلك﴾ الإمساك بقصد الإضرار ﴿فقد ظلم نفسه﴾ لأنه
 أساء بسمعته عند الناس وعرض نفسه لعذاب الله وسخطه ﴿ولا
 تتخذوا آيات الله﴾ أحكامه وأوامره ونواهيه ﴿هزواً﴾ سخرية بأن
 تستخفوا بها ﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ حيث أنعم عليكم بكل
 نعمه، التي منها نعمة الزوجة التي تسكنون إليها وتقضون مآربكم
 بسببها ﴿و﴾ اذكروا ﴿ما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾ فشرفكم
 بتعلمكم الأحكام وإرشادكم إلى ما يصلحكم ويهيئ لكم حياة سعيدة
 ﴿يعظكم به﴾ أي بذلك الكتاب، وهذا إما صفة للكتاب أو جملة
 مستأنفة ﴿واتقوا الله﴾ في أوامره ونواهيه ﴿واعلموا أن الله بكل شيء
 عليم﴾ فلا يفوته عملكم ونيتكم فلا تتعرضوا لسخطه وغضبه.

[٢٣٣] ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي انقضت عدتهن - وذلك

فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ
 ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكُمْ
 أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٣﴾ وَالْوَالِدَاتُ
 يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ

=====

بقرينة: أن ينكحن - ﴿فلا تعضلوهن﴾ أي لا تمنعهن ظلماً ﴿أن ينكحن أزواجهن﴾ إلى الزوج السابق أو من تريد الزواج به فعلاً وسمى زوجاً للأول وربما قيل في وجه النزول أن معقل بن يسار عضل أخته جملاء أن ترجع إلى الزوج الأول وهو عاصم بن عدي حين طلقها وخرجت من العدة ثم أراد أن يجتمعا بنكاح جديد فمنعهما من ذلك، ولو كان كذلك كان المراد بأزواجهن بالمعنى الأول فإنه لا يحق لأحد أن يمنع المرأة الثيبة في الرجوع إلى زوجها بنكاح جديد ﴿إذا تراضوا بينهم بالمعروف﴾ مما أباحه شرع الإسلام من شروط النكاح وآداب العشرة ﴿ذلك﴾ المذكور من تحريم العضل ﴿يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ فإن المؤمن يجتنب سخط الله ويبتغي رضاه ﴿ذلكم﴾ الذي ذكرنا في باب الزواج ﴿أزكى لكم﴾ أنمي لكم ﴿وأطهر﴾ لنفوسكم فإن في الزواج النسل والتحصن وسير الحياة إلى الأمام ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ فاتبعوا أوامره وانتهوا عن زواجه.

[٢٣٤] ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ فإن الأم ترضع ولدها سنتين تامتين أربعة وعشرين شهراً ﴿لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ التي

وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ

ندب إليها الإسلام ومن العلماء من أوجب ذلك ﴿وعلى المولود له﴾ أي الأب، وإنما عبر بهذا التعبير إثارة للعاطفة، له فإن الأب قد ولد له الولد فاللازم أن يحنو عليه ﴿رزقهن﴾ الأدام والطعام ﴿وكسوتهن﴾ اللباس ﴿بالمعروف﴾ لدى الشرع والعرف من اللائق بحالها فإن على الأب أن يقوم بهذه الشؤون ما دامت الأم في الرضاع، وقد استفاد أكثر المفسرين من هذه الجملة كون الكلام حول الأم المطلقة وإلا فالرزق والكسوة على الزوج لأجل النكاح لا لأجل الرضاع ﴿لا تكلف نفس إلا وسعها﴾ فكل من الأب والأم يؤدي واجبه في حدود طاقته فلا تتحمل الأم الرضاع بلا بدل ولا ينتفع الأب بولده في المستقبل مجاناً فسعة هذه أن ترضع ببدل، وسعة ذاك أن يدفع الأجر لما يعود نفعه إليه ﴿لا تضار والدته بولدها﴾ بأن ترضع مجاناً وبلا عوض باستغلال الأب عاطفة الأم للولد فلا ينفق عليها، أو بمعنى أن الوالدة لا يؤخذ منها الولد ليعطى للأجنبية غيظاً من الأب عليها فتضر بفراق ولدها ﴿ولا﴾ يضار ﴿مولود له﴾ أي الأب ﴿بولده﴾ بأن تستغل الأم عاطفة الأب نحو الولد فتكلفه أكثر من الكسوة والرزق قبال رضاعها، أو لا يضر الأب بولده بأن يأخذه من الأم ويعطيه للأجنبية، فإن لبن الأم أوفق بالولد، والأول أقرب إلى السياق ﴿وعلى الوارث﴾ للأب إذا مات الأب ﴿مثل ذلك﴾ الرزق والكسوة للأم في حال رضاعها للولد،

فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوهُمَا أُولَدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا ءَاتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٤﴾
وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ

ولا يخفى أن أجر رضاع الصبي مما يرثه الصبي من أبيه لدى موت الأب ﴿فإن أرادا﴾ أي الأب والأم ﴿فصلا﴾ للولد عن الرضاع بأن يقطعهما قبل الحولين ﴿عن تراضٍ منهما وتشاور﴾ بأن تشاور الأبوان وتراضيا في فطام الولد قبل العامين وذلك لئلا يتضرر الصبي إذا استقل أحدهما بالفطام فإن الرضا المتعقب للمشورة لا يكون إلا إذا كان الانفصال صلاحاً ﴿فلا جناح عليهما﴾ أي على الأبوين في هذا الفطام ﴿وإن أردتم﴾ أيها الآباء ﴿أن تسترضعوا أولادكم﴾ بأن تستأجروا لهم مرضعات غير أمهاتهم ﴿فلا جناح﴾ ولا حرج ﴿عليكم﴾ في ذلك ﴿إذا سلمتم﴾ إلى المرضعات ﴿ما آتيتم﴾ ووعدتم لهن من الأجر ﴿بالمعروف﴾ أي تسليماً بالمعروف بدون نقصان ومطل ومن، وهذا شرط تكليفي لا وضعي، كما هو كثير في القرآن الحكيم، لغاية الإلفات إلى لزوم كون الأعمال عن صدق وإخلاص وتقوى ﴿واتقوا الله﴾ في أعمالكم التي منها الأحكام السالفة حول الرضاع ﴿واعلموا﴾ أن الله بما تعملون بصير ﴿فلا يغيب شيء عنه ولا تخفى عليه خافية، فلتكن أعمالكم حسب مرضيه وأوامره.

[٢٣٥] ﴿والذين يتوفون منكم﴾ أي الرجال الذين يموتون ﴿ويذرون﴾

أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٥﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ

أزواجاً أي يخلفون زوجاتهم ﴿يتربصن بأنفسهن﴾ أي يحفظن أنفسهن عن الزواج ولعل في قوله إشارة إلى أن النفس ولو كانت تطمح نحو الزواج لكن الواجب اصطبارها والتحفظ عليها ﴿أربعة أشهر وعشراً﴾ ففي هذه المدة يجب عليها الحداد بترك الزينة والخطبة ﴿فإذا بلغن أجلهن﴾ وانقضت المدة ﴿فلا جناح عليكم﴾ أيها المسلمون ﴿فيما فعلن في أنفسهن﴾ من الزينة أو الخطبة أو النكاح فإنها ترجع إلى نفسها والناس مسلطون على أنفسهم ﴿بالمعروف﴾ بأن لا تعمل منكراً ينافي الإسلام ﴿والله بما تعملون خبير﴾ فيطلع على أعمالهم، ولا يفوته شيء من إطاعتكم ومخالفتكم.

[٢٣٦] ﴿و﴾ إذا كانت المرأة في العدة فـ ﴿لا جناح عليكم﴾ أيها الراغبون في الزواج منهن ﴿فيما عرضتم به من خطبة النساء﴾ بأن تلمحوا إلى رغبتكم في الزواج منهن وتعرضوا على ذلك تعريضاً وإشارة من طرف خفي، لا تصريحاً فإن ذلك خلاف الجو الذي يحيط بالمرأة المعتدة من الربط الباقي بينها وبين زوجها الأول ﴿أو أكننتم في أنفسكم﴾ بأن أضمرتم إرادة زواجهن بدون أن تصرحوا أو تلمحوا بذلك فإن الكناية

عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ
تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى
يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ
فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٦﴾

اللفظية والإضمار القلبي لا جناح فيهما ﴿علم الله أنكم﴾ أيها الرجال
﴿ستذكرونهن﴾ وهن في العدة إرادة للزواج بهن ﴿ولكن﴾ لا تصرحوا
بالخطبة و﴿لا تواعدوهن سرًّا﴾ في الخلوة فتبدوا رغبتكم في الزواج
بهن في منأى من الناس ﴿إلا أن تقولوا قولاً معروفاً﴾ بالكناية والتلميح
لأبالتصريح وذكر ما يباح ذكره كما كانت عادة بعض الناس .

﴿ولا تعزموا﴾ أي لا تقصدوا ﴿عقدة النكاح﴾ أي إجراء الصيغة
التي هي كعقدة تعقد النكاح بين الجانبين ، وقد نهى عن العزم على ذلك
مبالغة ، كقوله : (وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ) ^(١) ﴿حتى يبلغ الكتاب﴾ الذي
كتبناه في باب العدة من أربعة أشهر وعشراً ^(٢) ﴿أجله﴾ أي أمده ، بأن
تنقضي العدة ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم﴾ من عزم النكاح
ككيف بما تسرون به من نكاح المعتدة سرّاً ﴿فاحذروه﴾ أن تخالفوه
﴿واعلموا أن الله غفور﴾ يستر عاجلاً فلا يغرنكم ستره ﴿حليم﴾ عليم
فلا يعجل بالعقوبة فلا يسبب ذلك جرأتكم على انتهاك حرماته .

(١) الأنعام : ١٥٣ .

(٢) راجع موسوعة الفقه : ج ٧٠ .

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ
فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا
بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٧﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ
تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ

=====

[٢٣٧] وبعد بيان حكم موت الزوج، يأتي حكم الطلاق، والطلاق إن كان قبل الدخول ولم يذكر في العقد مهر فللمرأة المتعة، وإن كان قبل الدخول وذكر المهر فللمرأة نصف المهر ﴿لا جناح عليكم﴾ أيها الأزواج ﴿إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن﴾ بالدخول ﴿أو تفرضوا لهن فريضة﴾ «أو» بمعنى الواو، أي لم يكن شيء من الأمرين لا المس ولا المهر، ويسمى المهر فريضة لأنه يجب إذا سمي، والمعنى أنه يباح الطلاق قبل المس والفرض، فلا يتوهم أحد أن النكاح لأجل الوطي فكيف يصح الطلاق قبله ﴿ومتعوهن﴾ أي أعطوهن المتعة وهي ما تتمتع به المرأة ويوجب تعويضاً يجبر خاطرها الكسير ﴿على الموسع﴾ أي الغني يقال أوسع الرجل إذا كثر ماله ﴿قدره﴾ من دار أو خادم أو نحوهما ﴿وعلى المقتتر﴾ أي الفقير يقال أقتر الرجل إذا افتقر ﴿قدره﴾ كخاتم أو درهم أو نحوهما ﴿متاعاً بالمعروف﴾ ليس فيه إسراف ولا تقصير ﴿حقاً على المحسنين﴾ الذين يحسنون طاعة الأوامر والإنهاء عن الزواجر.

[٢٣٨] ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ طلاقاً قبل الدخول ﴿وقد فرضتم لهن فريضة﴾ بأن عينتم في النكاح المهر ﴿ف﴾ عليكم أن تدفعوا إلى المرأة ﴿نصف ما فرضتم﴾ نصف المهر، هذا هو الحكم

إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ



الواجب ﴿إلا أن يعفون﴾ أي تعفي المرأة عن نصفها فلا تأخذ شيئاً وتهب مالها إلى الزوج ﴿أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ يمكن أن يراد به الزوج بأن يعفو عن نصفه فيعطي للمرأة جميع مهر المرأة، وروي أن المراد عفو ولي الزوجة، فيما إذا كان لها ولي مفروض كالصغيرة، أو موكل من قبلها في الكبيرة ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ فإن من يترك حق نفسه تبرعاً أقرب إلى التقوى بأن تبقى معصية الله فلا يطلب ما ليس له ﴿ولاتنسوا الفضل بينكم﴾ بأن يتفضل بعضكم على بعض فيتنازل عن حقوقه لأجل صاحبه ولعل الفرق بين العفو والفضل أن العفو هبة جميع حقوقه والفضل هبة بعضها ﴿إن الله بما تعملون بصير﴾ فيجازيكم على أعمالكم إن حسناً وإن سيئاً.

[٢٣٩] إن القرآن الحكيم دائماً يلطف أجواء الأحكام بتلميح إلى قدرة إله الكون وعظمته ورحمته وغفرانه ونحوها ليسمو بالنفس ويربط الحكم بالخالق حتى يكون أقرب إلى التنفيذ، ولما طالت آيات الأحكام وبالأخص ما له جو كابت حزين من طلاق وموت ونحوهما أتت آيات الصلاة متداخلة بينها لتشع في النفس الطمأنينة والهدوء (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)^(١) مع مناسبة لهذه الآيات مع الجو العام لما قبلها

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ
قَانِتِينَ ﴿٢٣٩﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ
فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٤٠﴾
وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا

وبعدها حيث تعرضت لصلاة الخوف والمطاردة، هذا ما أحتمله أن يكون سبباً لذكر هذه الآيات هنا متوسطة أحكام الموت والطلاق ﴿حافظوا على الصلوات﴾ كلها ﴿والصلاة الوسطى﴾ خاصة وهي صلاة الظهر لأنها تتوسط بين النهار فإن الرسول ﷺ كان يصليها بالهجرة في مسجد مكشوف فكانت أثقل صلاة عليهم ولذا لم يكن يحضرها إلا الصف والصفان فقط، كما ورد عن بعض الصحابة ﴿وقوموا﴾ أيها المسلمون ﴿لله قانتين﴾ أي داعين فإن القنوت هو الدعاء، ومنه القنوت في الصلاة والمراد إما القنوت في الصلاة أو مطلقاً.

[٢٤٠] ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فلم تتمكنوا من المحافظة على الصلاة بشرائطها وأدائها، حيث ابتليتم بالعدو الذي لا يسمح لكم بالصلاة الكاملة ﴿ف﴾ صلوا ﴿رجالاً﴾ جمع راجل أي مشاة ﴿أو ركباناً﴾ جمع راكب أي على ظهور دوابكم ﴿فإذا أمنتكم﴾ من الخوف ﴿فاذكروا الله﴾ صلاة كاملة ﴿كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ من أمور دينكم وديناكم.

[٢٤١] ثم رجع السياق إلى تنمة الأحكام السابقة، بعدما ما أشعت في النفس الاطمئنان وندى الجو بذكر الصلاة ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً﴾ «يتوفون» مجازاً بالمشاركة، فإنه كثيراً ما يعبر عن شارف

وَصِيَّةٌ لِأَزْوَاجِهِمْ مَّتَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ
 خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ
 مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤١﴾ وَلِلْمُطَلَّقَتِ مَتَعٌ
 بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤٢﴾

=====

أمراً بالداخل فيه، كما يعكس كثيراً فيعبر عن الداخل بالمشارف، نحو «لاتقربوا مال اليتيم» و«لا تعزموا عقدة النكاح» فالمراد الذين يقاربون الوفاة، ولهم زوجات فمن الأفضل أن يوصوا ﴿وصية لأزواجهم﴾ بأن يمتعن الوصي ﴿متاعاً إلى الحول﴾ فيعطي النفقة والكسوة إليهن إلى سنة كاملة ﴿غير إخراج﴾ أي في حال كونهن غير مخرجات إخراجاً عن بيوت أزواجهن ﴿فإن خرجن﴾ عن رغبتهن ﴿فلا جناح عليكم﴾ أيها الأولياء ﴿في ما فعلن في أنفسهن من معروف﴾ بالزواج والزينة بعد انقضاء عدة الوفاة - وهي أربعة أشهر وعشراً - فإن قبل ذلك لا يكون معروفاً، بل منكراً ﴿والله عزيز﴾ فيحكم بمقتضى عزته وسلطته ﴿حكيم﴾ لا يحكم اعتباطاً بل عن مصالح وعلل، وهذه الآية حسب ما ذكرنا لها من المعنى لا تكون منسوخة بآية «أربعة أشهر وعشراً».

[٢٤٢] ﴿وللمطلقات متاع﴾ يمتعن الأزواج بشيء سواء كن واجبة النفقة أم لا ﴿بالمعروف﴾ فإن ذلك يسبب رفع الغضاضة ﴿حقاً على المتقين﴾ الذين يتقون مخالفة أوامر الله سبحانه إيجاباً كانت أو نداءً.

كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٣﴾
 أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ
 الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو

=====

[٢٤٣] ﴿كذلك﴾ الذي بين الله لكم الأحكام ﴿يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ أي لكي تعقلوا آياته وأحكامه .

[٢٤٤] ومن جو الأسرة وامتدادها وانقطاعها ينتقل السياق إلى قصة الحياة والموت التي تشبه قصة الأسرة في كونها امتداداً للحياة العائلية وانقطاعاً لها في قصة عجيبة هي: أن أهل مدينة من مدائن الشام كانوا سبعين ألف بيت هربوا من الطاعون فمروا بمدينة خربة قد جلا أهلها عنها وأفناهم الطاعون فنزلوا بها فأماتهم الله من ساعتهم جميعاً وصاروا رميمًا يلوح، فمر بهم نبي من أنبياء بني إسرائيل يقال له «حزقيل» فبكى واستعبر وقال: يا رب لو شئت لأحييتهم الساعة كما أمتهم، فعمروا بلادك وولدوا عبادك وعبدوك مع من يعبدك، فأوحى الله إليه أن يقول الاسم الأعظم فقال عليه فعادوا أحياء ينظر بعضهم إلى بعض يسبحون الله ويكبرونه ويهللونه ﴿ألم تر﴾ استفهام تقرير أي ألم تعلم فإن الرؤية تأتي بمعنى العلم كقول الشاعر: «رأيت الله أكبر كل شيء» وقد يستفهم بمثل هذا الاستفهام لإيجاد العلم ﴿إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف﴾ سبعون ألفاً كما تقدم ﴿حذر الموت﴾ وفراراً من الطاعون ﴿فقال لهم الله موتوا﴾ فأماتهم حيث ظنوا الهرب ﴿ثم أحياهم﴾ بدعاء النبي حزقيل عليه السلام ﴿إن الله لذو

فَضِّلْ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٤﴾
 وَقَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٥﴾
 مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا
 كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٦﴾

فضل على الناس ﴿كلهم بخلقهم ورزقهم وتدبير أمورهم﴾ ولكن
 أكثر الناس لا يشكرون ﴿نعمه وفضله عليهم بل يقللون فضله
 بالعصيان.

[٢٤٥] ﴿و﴾ إذ علمتم أن الهروب من الموت لا ينفع ف ﴿قاتلوا في سبيل
 الله﴾ ولا تهربوا خوف الموت ﴿واعلموا أن الله سميع﴾ لأقوالكم
 ﴿عليم﴾ بنياتكم وأعمالكم.

[٢٤٦] إن القتال بإعطاء المال والنفس في سبيل الله ليس هدراً وإنما المقاتل
 والعامل للبر، يقرض الله بما يذهب منه ثم يرجعه سبحانه إليه ف ﴿من
 ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً﴾ أي أي شخص ذاك الذي يقرض الله
 وينفق نفسه وماله في سبيله قرضاً حسناً لا لرياء وسمعة ولا بمن
 وإكراه وسائر ما يشين القرض ﴿فيضاعفه له أضعافاً كثيرة﴾ ربما بلغت
 الملايين وعماداً تخافون في قرض أموالكم هل من الفقر؟ ﴿والله
 يقبض﴾ فيفقر ﴿ويبسط﴾ فيغني فلا ينفعكم البخل ولا يضركم القرض
 والسخاء، أم تخافون في قرض أنفسكم لله من الموت؟ ﴿والله
 ترجعون﴾ فيعطيكُم أفضل مما أخذ منكم، قال الإمام أمير

[illegible]

المؤمنين عليه السلام لأحد أولاده «أعر الله جمجمتك»^(١).

[٢٤٧] وهنا قصة حياة أو موت أخرى تناسب القصة السابقة ﴿الم تر﴾ أي ألم تعلم - كما تقدم - ﴿إلى الملاء﴾ أي الجماعة ﴿من بني إسرائيل من بعد موسى﴾ النبي ﴿إذ قالوا لنبي لهم﴾ هو أشموئيل وبالعبية إسماعيل ﴿ابعث لنا ملكاً﴾ أي سلطاناً ﴿نقاتل في سبيل الله﴾ تحت لوائه حيث أذلهم الجبابرة وأخرجتهم من بلادهم وقتلتهم وسبيت ذراريهم ونسأئهم وكان النبي في ذلك الزمان ينظم أمور الدين والملك وينظم أمور الجيش والسلطة ﴿قال﴾ النبي ﴿هل عسيتم﴾ أي لعلكم ﴿إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا﴾ أراد بذلك أخذ العهد عليهم في المقاتلة إن عيّن ملك لهم ﴿قالوا﴾ أي قال الملاء في جواب النبي ﷺ ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله﴾ أي ليس بإمكاننا أن نترك القتال ﴿وقد أخرجنا من ديارنا﴾ أخرجنا الأعداء من بلادنا ﴿وأبنائنا﴾ أي إخراجنا من أبنائنا حيث قتل بعضهم وسبي البعض،

(١) نهج البلاغة: ص ٦٤ .

فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ
 عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ
 لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ
 عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ
 الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي
 الْعِلْمِ

=====

فسأل النبي ﷺ من الله ذلك، فاستجاب الله دعاءه وعين لهم ملكاً
 وكتب عليهم القتال ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا﴾ أدبروا وكرهوا
 القتال ﴿إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين﴾ الذين فروا من الجهاد
 بعد طلب منهم وإلحاح.

[٢٤٨] ﴿وقال لهم نبيهم﴾ أشموئيل ﴿إن الله قد بعث لكم﴾ وعين عليكم
 ﴿طالوت ملكاً﴾ وكان من أبناء «بن يامين» أخي يوسف ﷺ ولم يكن
 من سبط النبوّة ولا من سبط المملكة، فإن النبوّة كانت في أولاد
 «لاوي» ابن يعقوب ﷺ، والمملكة كانت في أولاد «يهوذا» ابن
 يعقوب ﷺ ﴿قالوا أنى﴾ أي كيف ﴿يكون له الملك علينا﴾ ويجعل
 سلطاناً وملكاً لنا ﴿ونحن أحق بالملك منه﴾ لأننا من أسباط النبوّة
 والمملكة ﴿ولم يؤت سعة من المال﴾ فهو فقير لا مال له والملك
 يحتاج إلى المال ليدبر شؤون السلطة ﴿قال﴾ النبي ﷺ في جوابهم
 ﴿إن الله اصطفاه عليكم﴾ والله لا يصطفي إلا من هو الأصلح بحال
 عبادته ﴿وزاده بسطة﴾ أي سعة وزيادة ﴿في العلم﴾ والمملكة تحتاج

وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٨﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ

إلى علم الملك ليتمكن به من إدارتها ﴿والجسم﴾ فهو رجل سمين يهابه الناس، شجاع يخافه الأعداء وهذه الأمور هي مقومات الملك لا المال فإن العلم والشجاعة والهيبة تأتي بالمال، وليس بالعكس ﴿و﴾ ليس كونه من «بن يامين» نقصاً فكما جعل الله الملك في بيت «يهودا» سابقاً يجعله في «طالوت» حالاً فإن ﴿الله يؤتي ملكه من يشاء﴾ وليس احتكاراً على أحد ﴿والله واسع﴾ قدرة وعطاء فيهب الملك لمن يشاء ﴿عليم﴾ بمصالح العباد فلا يجعل شيئاً إلا إذا كان صالحاً.

[٢٤٩] ﴿وقال لهم نبيهم﴾ أشموئيل زيادة في الدلالة على جعل الله «طالوت» ملكاً عليهم ﴿إن آية ملكه﴾ وأن الله تعالى جعله ملكاً ﴿أن يأتيكم التابوت﴾ وهو تابوت أنزله الله على أم موسى فوضعت موسى فيه حين ألقته في البحر وكان بنوا إسرائيل يتبركون به فلما حضر موسى الموت وضع فيه الألواح ودرعه وما كان عنده من آيات النبوة وأودعه يوشع وصيه فلم يزل التابوت بينهم حتى استخفوا به وكان الصبيان يلعبون به في الطرقات فلم يزل بنوا إسرائيل في عز وشرف ما دام التابوت بينهم فلما عملوا بالمعاصي واستخفوا بالتابوت رفعه الله عنهم ثم جعل رد التابوت عليهم دليلاً على أنه جعل الله طالوت ملكاً ﴿فيه سكينة من ربكم﴾ تسكنون

وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ
 الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ
 مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٩﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ
 اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي

إليه وتعلمون أنكم منصورون بسببه ويكون دليلاً على ملك طالوت
 ﴿وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾ عصا موسى ﷺ والألواح
 وطست خاص بالأنبياء ﷺ وأشياء أخرى، فإنها وصلت بالإرث إلى
 آل هذين النبيين المعظمين وهم جعلوها في التابوت ﴿تحمله
 الملائكة﴾ حملاً واقعياً أو حملاً ظاهراً بأن رأى بنو إسرائيل
 الملائكة بين السماء والأرض أتت بالتابوت ﴿إن في ذلك﴾ التابوت
 الذي رجع إليكم بعد فقده ﴿آية لكم﴾ على كون طالوت ملكاً
 ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ مصدقين، أي إن كنتم مؤمنين قلباً،
 تصدقون ذلك.

[٢٥٠] ﴿فلما﴾ رأى بنو إسرائيل التابوت صدقوا وانضوا تحت لواء
 طالوت، وتحركوا نحو الجهاد مع أعدائهم ولما ﴿فصل﴾ خرج
 وانفصل عن المدينة ﴿طالوت بالجنود﴾ الذين كانوا معه ﴿قال﴾
 طالوت ممتحناً للجنود حتى يتبين مقدار صبرهم وثباتهم على المكاره
 وأنهم إن جازوا من نهر الماء عطاشاً يوثق بهم في الحرب وإن لم
 يسمعوا ولم يتمكنوا من الصبر على عطش قليل فهم أخرى بأن
 لا يصبروا أمام السيوف والرماح ﴿إن الله مبتليكم﴾ ممتحنكم ﴿بنهر﴾
 من ماء في طريقكم ﴿فمن شرب منه فليس مني﴾ ممن يتبعني

وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ
 فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ
 وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلْكُوا اللَّهَ كَم
 مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ
 مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٥٠﴾

ولينصرف ﴿ومن لم يطعمه﴾ أي لم يذق طعم ذلك الماء ﴿فإنه مني﴾
 ويتبعني ﴿إلا من اغترف غرفة﴾ واحدة ﴿بيده﴾ فشربها فقط لا أكثر
 من ذلك ﴿فشربوا منه﴾ من النهر ﴿إلا قليلاً منهم﴾ الذين أطاعوا أمر
 طالوت فلم يشربوا إلا غرفة واحدة وهؤلاء الذين أطاعوا هم الذين
 اتبعوا طالوت إلى الحرب أما من عصاه فلم يتبعه ﴿فلما جاوزه هو﴾
 أي جاوز طالوت النهر ﴿والذين آمنوا معه﴾ ممن تبعه ولم يشرب الماء
 إلا غرفة ﴿قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت﴾ وهو رئيس الكفار
 ﴿وجنوده﴾ لما رأوا من كثرتهم ﴿قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله﴾
 من أصحاب طالوت، وفي قوله «يظنون» إشارة إلى أن الظن بالمعاد
 كاف في تحفيز الإنسان نحو الجهاد والأعمال الصالحة، وملاقة الله
 كناية عن القيامة لأنهم يلاقون جزاء الله ﴿كم من فئة﴾ أي جماعة
 ﴿قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله﴾ أي بنصره ﴿والله مع الصابرين﴾
 الذين يصبرون على المكاره ويثبتون عند ملاقة الكفار، وبهذا الكلام
 شجعوا أنفسهم وأصحابهم لمقابلة جالوت وجنوده.

وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ
 عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
 الْكَافِرِينَ ﴿٢٥١﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ
 جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا
 يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ
 لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو

=====

[٢٥١] ﴿ولما برزوا﴾ أي ظهوروا في محل الحرب ﴿لجالوت وجنوده﴾
 الكثيرة ﴿قالوا﴾ أي قال طالوت والمؤمنون ﴿ربنا أفرغ﴾ أي أصب
 ﴿علينا صبراً﴾ لنكون صابرين في الحرب ﴿وثبت أقدامنا﴾ حتى
 لا نفر ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ فاستجاب الله سبحانه دعاءهم .

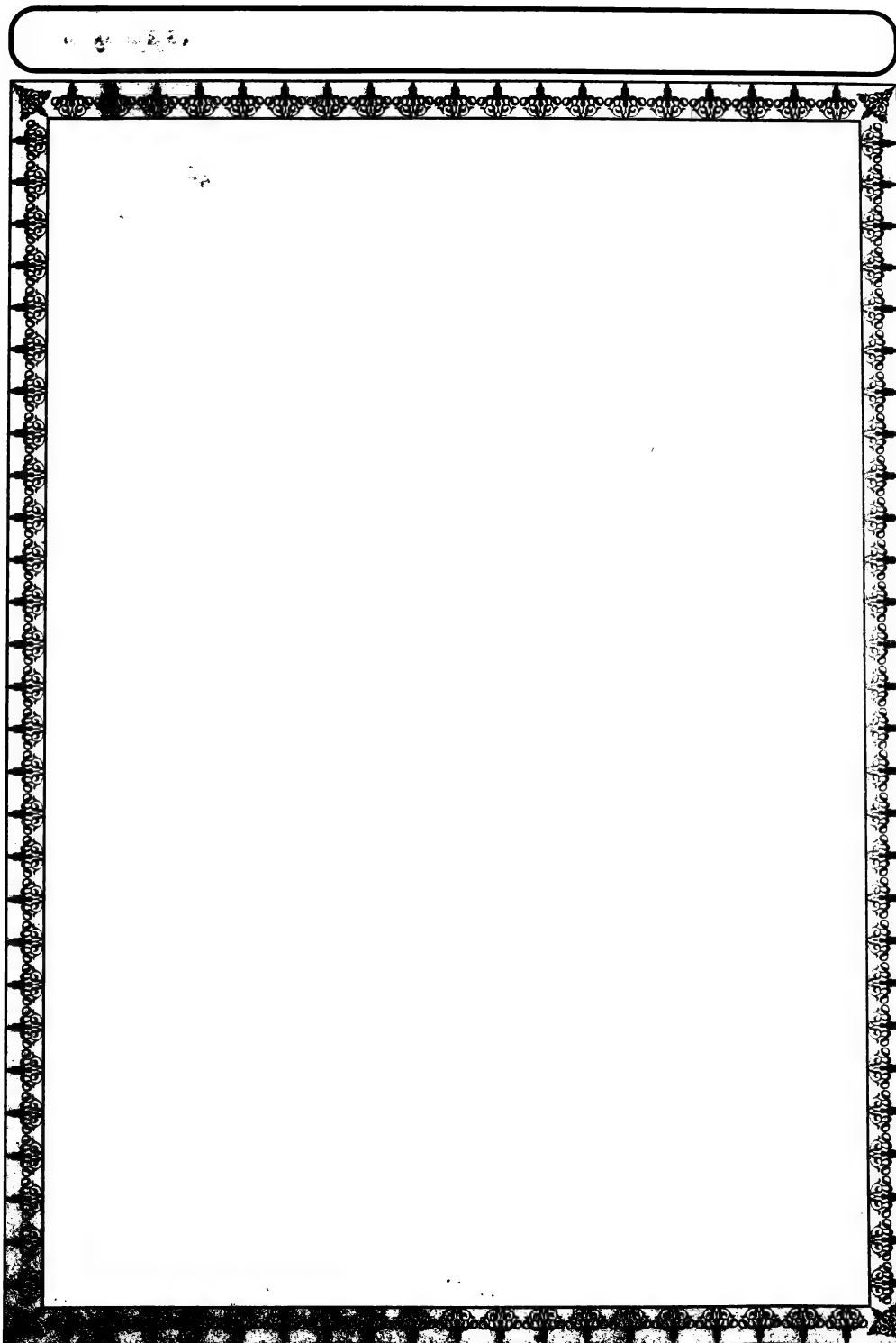
[٢٥٢] ﴿فهزموهم﴾ أي هزم طالوت والمؤمنون، جالوت والكفار ﴿بإذن
 الله﴾ ونصره ﴿وقتل داود﴾ النبي ﷺ وهو أبو سليمان عليه السلام
 ﴿جالوت﴾ رئيس الكفار فإن داود أخذ حصاة ورمها بالمقلاع نحو
 جالوت فأصابته جبهته وكانت فيها يا قوته فانتشرت ووصلت إلى
 دماغه وخر ميتاً وهزم الكفار ﴿وآتاه﴾ أي أعطى ﴿الله﴾ داود عليه السلام
 ﴿الملك والحكمة﴾ فصار نبياً وملكاً ﴿وعلمه مما يشاء﴾ من العلوم
 الدنيوية والأخروية ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ بأن يدفع
 الكافرين المفسدين بسبب المؤمنين المصلحين ﴿لفسدت الأرض﴾
 لما يوجدون فيها من القتل والحرق والسبي والإفساد ﴿ولكن الله ذو

فَضِّلْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥٢﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا
عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٣﴾

=====

فضل على العالمين ﴿﴾ فيدفع الفاسد بالصالح لتبقى الأرض عامرة
وينمو الزرع والضرع.

[٢٥٣] ﴿تلك آيات الله﴾ أي تلك التي ذكرت من إماتة الأحياء دفعة وإحياء
الموتى دفعة وتمليك طالوت ونصرة المؤمنين على أعدائهم دلالات
الله على وجوده وقدرته وعلمه وسائر صفاته ﴿نتلوها﴾ نقرأها
﴿عليك﴾ يا رسول الله ﴿بالحق﴾ أي بالصدق فلا كذب فيها وأنزلت
لأجل الصدق لا لأجل الباطل والكذب والغش ﴿وإنك لمن
المرسلين﴾ حيث تخبر بهذه الأخبار عن غيب بدلالة الله لك ووحيه
إياها إليك.



تَفْهِيمُ الْفِرَاقِ إِلَى الْأَنْهَاءِ

الجزء الثالث

من آية (٢٥٤) سورة البقرة
إلى (٩٣) سورة آل عمران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى
أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى
وَعْتَرَتِهِ الطَّاهِرِينَ.

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ
بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ
بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَلَكُمُ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ

=====

[٢٥٤] ﴿تلك الرسل﴾ الذين أشير إليهم في قوله «إنك لمن المرسلين» ﴿فضلنا بعضهم على بعض﴾ فهم وإن اشتركوا في أصل الرسالة إلا أنهم مختلفين في الفضيلة ﴿منهم من كلم الله﴾ إياه وهو موسى ﷺ وحيث أن هناك محل سؤال: هل يمكن للإنسان أن يرتقي هذا المرتقى العظيم حتى يكلمه الله سبحانه؟ ألمحت الآية إلى ذلك قائلة: ﴿ورفع بعضهم درجات﴾ لا درجة واحدة، حتى سببت تلك الرفعة أن يتمكن من مكالمة الله مباشرة ﴿وآتينا عيسى ابن مريم البينات﴾ وأنه لمن تفنن القرآن الحكيم في التعبير حيث لم يصرح باسم موسى وصرح باسم عيسى ﷺ والبينات هي الدلالات الواضحات على نبوته من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ﴿وأيدناه﴾ أي قويناه فإن التأييد بمعنى التقوية ﴿بروح القدس﴾ أي روح مقدسة، كما مر سابقاً فلم يكن إنساناً عادياً ولا خالقاً ورباً وإنما نبي مؤيد من عند الله سبحانه، وحيث كان هنا مجال سؤال هو أن الأنبياء ﷺ حيث أتوا بالدلالات لم يكن مجالاً لتشكيك الناس فيهم فكيف تقع الحروب بين الناس حول الأنبياء إثباتاً أو نفياً أو إثباتاً لنبي دون نبي؟ أتى السياق مشيراً إلى جواب ذلك ﴿ولو شاء الله﴾ بأن ألجأ الناس واضطهرهم على الانقياد والاهتداء ﴿ما اقتتل الذين من بعدهم﴾ أي من بعد الرسل أي بعد مجيء كل واحد منهم

مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ
وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا
يُرِيدُ ﴿٢٥٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّنْ قَبْلِ
أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ

﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي جاءت الناس الأدلة الواضحة
﴿ولكن اختلفوا﴾ أي الناس ﴿فمنهم من آمن ومنهم من كفر﴾
بالرسول ﴿ولو شاء الله ماقتتلوا﴾ تكريراً للتأكيد وأن المشيئة
الإلجائية لم تتعلق حول التشريع وإن تعلقت حول التكوين ﴿ولكن
الله يفعل ما يريد﴾ من إعطاء الاختيار بيد الإنسان ليؤمن من آمن
عن اختيار ويكفر من كفر عن اختيار ليثبت الجزاء والحساب ولم
يذكر الرسول ﷺ لأن الخطاب موجه إليه «وإنك لمن المرسلين».

[٢٥٥] وحيث أن القتال يحتاج إلى الإنفاق يزوج القرآن الحكيم في آياته
بين الأمرين كثيراً ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم﴾ من
مختلف أنواع الرزق، ولعل عمومته يشمل مثل التعليم والشفاعة
ونحوها فإن العلم والوجاهة من رزق الله سبحانه ﴿من قبل أن يأتي
يوم لا بيع فيه﴾ حتى يشتري الإنسان نفسه بشيء فينجيها من
عذاب الله سبحانه ﴿ولا خلة﴾ أي صداقة فيراعى الصديق المذنب
لأجل صديقه، أو صداقة بين الله وبين أحد حتى يراعيه ويغفر ذنبه
لصداقته ﴿ولا شفاعة﴾ كشفاعات الدنيا حيث أن الشفيع ينبعث من
نفسه فيشفع للمذنب، فإن هناك لا يشفعون إلا لمن ارتضى

وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ
لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا
الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ
وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ

﴿والكافرون هم الظالمون﴾ فليس حرمان الكافر في ذلك اليوم
لأجل الظلم من قبل الله سبحانه بل الكافر هو الظالم الذي استحق
العقاب بكفره وظلمه نفسه حيث حرّمها من نيل المثوبة .

[٢٥٦] ﴿الله لا إله إلا هو﴾ فالأمور في يوم القيامة كلها بيده لا يشارك فيما
يفعل ولعل هذا هو وجه الارتباط بين هذه الآية والآية السالفة
﴿الحي﴾ الذي لا يموت فلا يمكن التخلص منه ﴿القيوم﴾ القائم على
الأمر يعلمها جميعاً فلا يمكن الاختفاء منه .

﴿لا تأخذه سنة﴾ وهي النوم الخفيف المسمى بالنعاس ﴿ولا
نوم﴾ وقدم الأول لتقدمه في الخارج ﴿له ما في السماوات وما في
الأرض﴾ فهو الخالق والمالك الوحيد الذي لا يشاركه أحد، والظرف
هنا يتبع المظروف فليست السماوات والأرض خارجتين عن الملكية
﴿من ذا﴾ أي أي شخص ﴿الذي يشفع عنده﴾ يوم القيامة ﴿إلا بإذنه﴾
استفهام إنكاري فإنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴿يعلم ما بين
أيديهم وما خلفهم﴾ أي ما يقدمون من أعمال خير وشر وما يخلفون
من بعدهم كبناء مدرسة أو مخمر يبقيان بعده ﴿ولا يحيطون بشيء من
علمه﴾ أي بما يعلمه من الماضي والحاضر والآتي ﴿إلا بما شاء﴾ أي

لَا أَنْفِصَامَ لَهَا ۖ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٧﴾ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٨﴾

أو الطعام له عروة فالإيمان بالله عروة وثقى للخير لأنه ﴿لا انفصام لها﴾ ولا انقطاع بل تدوم الاستفادة من الخير بسبب الإيمان في الدنيا والآخرة بينما الإيمان بالطاغوت عروة واهية تنفصم إذا فارق الإنسان الحياة الدنيا ينقطع الخير الذي يناله الإنسان - فرضاً - بسبب الكفر ﴿والله سميع﴾ لأقوالكم ﴿عليم﴾ بنياتكم وأعمالكم.

[٢٥٨] ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ يلي أمورهم وينصرهم ويعينهم ﴿يخرجهم من الظلمات﴾ ظلمات الحياة ومشاكلها، من ظلمة العقيدة، وظلمة القول وظلمة الدنيا كلها ﴿إلى النور﴾ نور الهداية، ونور الآخرة ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾ أي أن جنس الطاغوت يكون أولياء لهم، فإن الطواغيت من الجن والإنس يتولون أمورهم وضلالهم وحيث أن الطاغوت أريد به الجنس جاز الإتيان بصيغة الجمع في «أوليائهم» صفة له ﴿يخرجونهم من النور﴾ الكامن في فطرتهم، ومن نور الدنيا ﴿إلى الظلمات﴾ ظلمات الكفر والظلال في الدنيا وعذاب الله في الآخرة ﴿أولئك﴾ الذين كفروا ﴿أصحاب النار هم خالدون﴾ إلى الأبد فلا منجي لهم ولا مخلص

[٢٥٩] سبق الحديث عن الإيمان والكفر، فلتناسب المقام قصة حوار

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ

=====

حول هذا الموضوع بين إبراهيم عليه السلام ونمرود ﴿ألم تر﴾ أي ألم تعلم، وقد تقدم أن هذه العبارة تذكر لإفادة العلم ﴿إلى الذي حاج﴾ من المحاجة بمعنى المجادلة والمخاصمة ﴿إبراهيم في ربه﴾ أي في باب رب إبراهيم عليه السلام الذي كان يعبد، أو رب الذي حاج وإن كان الأول أقرب ﴿أن آتاه الله الملك﴾ أي حيث أن الله أعطى نمرود الملك والسلطة بطر فأنكر وجود الخالق وجعل يجادل نبيه إبراهيم عليه السلام حول وجود الله سبحانه فقد قابل الإحسان بالإساءة ﴿إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت﴾ في جواب نمرود حيث قال له: من ربك؟ والمراد بالإحياء إحياء الجماد فإن كل حي أصله التراب والماء إذ التراب بسبب الماء ينقلب عشباً والعشب ينقلب نطفة إنساناً أو حيواناً ﴿قال﴾ نمرود ﴿أنا أحيي وأميت﴾ فأخرج نفرين من حبسه وضرب عنق أحدهما وأطلق الآخر وكان هذا مغالطة من نمرود إلا أن إبراهيم عليه السلام أراد أن يلزمه بحجة لا يتمكن حتى من المغالطة فيها ف ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق﴾ هكذا يظهر للأبصار سواء دارت هي أو دارت الأرض كما يقوله بعض علماء الفلك ﴿فأت بها من المغرب﴾ إن كنت إلهاً خالقاً ﴿فبهت الذي كفر﴾ أي تحير

وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٩﴾ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى
 قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ
 مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ
 لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتُ مِائَةَ عَامٍ

=====

نمرود ولم يحر جواباً ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الذين ظلموا
 أنفسهم بتعاميهم عن الحق فإنه سبحانه لا يلطف لطفه الخاص بمثل
 هؤلاء وإن أتم عليهم الحجة وأراهم الطريق.

[٢٦٠] ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ أي ألم تر إلى الذي مر على
 قرية، والمعنى إن شئت فانظر إلى الذي حاج وإن شئت فانظر
 إلى الذي مر على قرية وهو عزيز النبي ﷺ أو أرميا ﴿وهي
 خاوية على عروشها﴾ أي ساقطة حيطانها على سقوفها وأهلها
 موتى والسباع تأكل الجيف ففكر في نفسه ساعة ﴿قال أنى﴾
 أي كيف ﴿يحيي هذه﴾ الأموات ﴿الله بعد موتها﴾ وكان ذلك
 منه تعجباً لا إنكاراً ﴿فأماته الله مائة عام﴾ حتى بلي ونخرت
 عظامه ﴿ثم بعثه﴾ أحياء كما كان ﴿قال﴾ الله سبحانه له
 بإيجاد صوت في الجو ﴿كم لبثت﴾ في مبيتك ومنامك
 ﴿قال﴾ النبي ﴿لبثت يوماً﴾ ثم نظر فإذا هو نام صباحاً والآن
 قبل غروب الشمس فأضرب قائلاً ﴿أو بعض يوم قال﴾ الله
 سبحانه ﴿بل لبثت مائة عام﴾ وقد كان معه طعام وشراب
 وحمار، فكان الطعام والشراب باقيين كما هما وكان الحمار
 قد مات وتفرقت عظامه ونخرت دلالة على كمال قدرة الله

فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى
 حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى
 الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا
 تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦٠﴾
 وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى

سبحانه ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾ لم تغيره
 السنون، والإتيان بلفظ المفرد باعتبار كل واحد منهما ﴿وانظر
 إلى حمارك﴾ كيف مات ونخرت عظامه ﴿ولنجعلك﴾ أيها
 الرسول ﴿آية للناس﴾ أي حجة حيث أحييناك بعد مائة عام
 حتى يعرف الناس أن الله قادر على بعث الأموات ﴿وانظر إلى
 العظام﴾ لحمارك المتفتتة ﴿كيف ننشزها﴾ أي كيف نرفع بعضها
 إلى بعض لنركب منها الهيكل العظمي للحمار ﴿ثم نكسوها﴾
 أي نلبس العظام ﴿لحماً﴾ حتى يستوي حماراً حياً ﴿فلما تبين له﴾
 أي وضع له إحياء الأموات عياناً ﴿قال﴾ النبي ﷺ ﴿أعلم أن الله
 على كل شيء قدير﴾ أي علماً عياناً وإلا فقد كان يعلم ذلك
 قبل السؤال.

[٢٦١] ﴿و﴾ اذكر يا رسول الله ﴿إذ قال إبراهيم رب أريني كيف تحيي
 الموتى﴾ فإنه ﷺ رأى جيفة تمزقها السباع فيأكل منها سبع البر
 وسباع الهواء ودواب البحر فسأل الله إبراهيم ﷺ فقال: يارب قد
 علمت أنك تجمعها من بطون السباع والطير ودواب البر فأرني كيف

قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٣١﴾

تحبيها لأعين ذلك ﴿قال﴾ الله سبحانه ﴿أو لم تؤمن﴾ على نحو استفهام التقرير، ليقول آمنت، كقولهم: «ألستم خير من ركب المطايا» ﴿قال﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿بلى﴾ أنا مؤمن ﴿ولكن﴾ أسأل ذلك ﴿ليطمئن قلبي﴾ ويكون يقيني عين اليقين فإن الإنسان الذي يعلم أن النار - مثلاً - حارة، يسمى ذلك علم اليقين، فإذا رآها سمي حق اليقين، فإذا أدخل يده فيها فاحترقت سمي عين اليقين، وورد أنه عليه السلام علم أن الله يتخذ عبداً له خليلاً إذا سأله إحياء الموتى أحياءها فأراد أن يطمئن أنه هو ﴿قال﴾ الله سبحانه ﴿فخذ أربعة من الطير﴾ الطاووس والحمام والغراب والديك فاذبحهن وقطعهن واخبطهن بعضاً ببعض ﴿فصرهن إليك﴾ من صرته بمعنى قطعته و﴿إليك﴾ إنما هو من مستلزمات القطع، فإن الإنسان إذا أراد أن يقطع شيئاً قطعاً جيداً ويخلطه لا بد وأن يجذبه إليه ولعله كناية عن القطع الجيد والتخليط البالغ ﴿ثم اجعل على كل جبل﴾ من عشرة جبال ﴿منهن جزءاً﴾ وإنما ذلك يدل على أن الأجزاء الميته تجتمع من محلات متباعدة وقت الحشر ﴿ثم ادعهن﴾ بأن تأخذ بمنقار كل واحد من الطيور الأربعة في يدك وتدعوه باسمه ﴿يأتينك﴾ تجتمع الأجزاء من الجبال ﴿سعيًا﴾ مسرعات ﴿واعلم أن الله عزيز﴾ لا يمتنع عليه شيء ﴿حكيم﴾ فيما يفعل فلا يفعل شيئاً اعتباطاً وعبثاً، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك فتطائرت

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ
 أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ
 لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٢﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبَعُونَ مِمَّا أَنْفَقُوا مَنَّا

=====

الأجزاء بعضها إلى بعض حتى استوت الأبدان وجاء كل بدن حتى
 نظم إلى رقبته ورأسه فأطلقها إبراهيم عليه السلام فطرن فالتقطن الحب
 وشربن الماء ثم دعون لإبراهيم عليه السلام .

[٢٦٢] تقدم الكلام في الآيات السابقة عن من يقرض الله قرضاً حسناً، ثم
 تخلل الكلام دليل التوحيد والرسالة والمعاد والآن يرجع السياق إلى
 الإنفاق ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله﴾ لا رياءً أو سمعة
 وشهرة ونحوها ﴿كمثل حبة﴾ من الحنطة أو الشعير أو نحوهما
 ﴿أنبتت﴾ أي أخرجت ﴿سبع سنابل﴾ جمع سنبله وهي مجمع
 الحبات ﴿في كل سنبله مائة حبة﴾ فتكون النفقة في سبيل الله بسبعمائة
 ضعف ﴿والله يضاعف﴾ أي يزيد كل سبعمائة ﴿لمن يشاء﴾ من عباده
 من المنفقين ﴿والله واسع عليم﴾ يسع علمه وقدرته فيعلم المنفق
 والإنفاق، وقد مثل الإنفاق بهذا ليكون أوقع في النفس وأكثر في
 التأثير والتشويق .

[٢٦٣] ثم ذكر شرطاً آخر للإنفاق المثمر الموجب للأجر بقوله تعالى :
 ﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون﴾ أي لا يعقبون ﴿مما
 أنفقوا مناً﴾ على المعطى له بأن يمن عليه في إنفاقه كأن يقول له : إني

وَلَا أَذَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٣﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ
يَتَّبَعُهَا أَذَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٤﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا
يُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ

أعطيتك فكن شاكرًا ﴿ولا أذى﴾ بأن يؤذى المعطى له، كأن يقول:
ابتليت بفلان الفقير ﴿لهم أجرهم﴾ وجزاء إنفاقهم ﴿عند ربهم ولا
خوف عليهم﴾ من العذاب لأن من ينفق هكذا يكون مخلصاً في جميع
أعماله، أو لا خوف عليهم من فوت الأجر ﴿ولا هم يحزنون﴾ وهو
يحتمل الأمرين مثل - لاخوف -.

[٢٦٤] ﴿قول معروف﴾ بأن يرد به السائل، نحو الله يعطيك ﴿و مغفرة﴾
أي تجاوز عن السائل فيما إذا أساء ﴿خير من صدقة يتبعها أذى﴾
لأن الصدقة كذلك تجرح قلب السائل دونهما، ولأنها تتبع
العقاب، لأن هكذا صدقة محرمة، بخلافهما ﴿والله غني﴾ فلا
يحتاج إلى صدقاتكم أيها المعطون، وإنما انتم تحتاجون إليها،
فحث الله بالإِنفاق لكم، لا له ﴿حليم﴾ حليم عن عقابكم بسبب
صدقاتكم التي يتبعها الأذى.

[٢٦٥] ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن﴾ على السائل
﴿والأذى﴾ له فإن فيها إبطالاً للصدقة من حيث الثواب فلا ثواب لها عند
العرف لأن مثل هذه الصدقة لا تحسب جميلاً وإنما قبيحاً بشعاً، فإن من
يبطل صدقته بالمن والأذى فهو ﴿كالذي ينفق ماله رياء الناس﴾ لأجل

وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ
فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا
كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢١٥﴾

أن يراه الناس فيمدحوه ﴿و لا يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ بأن يكون
الداعي له إلى التصديق أمر الله سبحانه أو ثواب الآخرة ﴿فمثله كمثل
صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا﴾ الصفوان: الحجر
الأملس، والوابل: المطر الشديد الوقع، والصلد من الأرض ما لا ينبت
شيئاً لصلابته، فإن الإنسان الكافر كالحجر الصلب الذي لا يرجى منه
خير، وما يتحفظ به ظواهره بمنزلة تراب على الحجر يظن الناس أنه
محل قابل للنبت، والصدقة التي يرأى بها كالمطر الشديد، فإنه إذا نزل
بأرض صالحة كان مبعث الخير والنبات لكنه إذا نزل على الحجر
المغطى بالتراب أزال ترابه وأظهر صلاته وعدم قبوله لأي إنبات أو
عشب، وكذلك الكافر الذي يظن به الناس بعض الخير إذا أنفق رياءً
ظهر على الناس حقيقته المنحرفة فتكون الصدقة - التي هي بذاتها سبب
الخير والرحمة - معرية لحقيقة الكافر البشعة، ومن ناحية أخرى أنها
توجب سخط الله عليه أكثر من ذي قبل فتكون مذهباً لما يظن أنها حسنة
له من بعض أعماله الخيرية السابقة ﴿لا يقدرُونَ على شيء مما كسبوا﴾
من مكاسبهم السابقة لأن الصدقة برياء ذهاب بها كما أن المطر يذهب
بالتراب فلا يمكن إرجاعه وجمعه ﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ فلا
يلطف بهم اللطف الخاص لأنهم أسقطوا أنفسهم عن القابلية لجحودهم
بعد أن عرفوا الحق .

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَتَثْبِيئًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَتَأْتَّى أَكْطَاهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٦﴾ أَيُّودُ أَحَدَكُمُ أَن

[٢٦٦] ﴿ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله﴾ أي لأجل طلب
رضى الله سبحانه ﴿و تثبئاً من أنفسهم﴾ أي لأجل تثبيت أعمالهم
الحسنة وتركيزها، تثبئاً ناشئاً من أنفسهم فأنفسهم هي التي توصي
بذلك، لا كالمرائي الذي يحمله على الصدقة رؤية الناس، فهذه
الجملة «من أنفسهم» مقابل جملة «رئاء الناس» في الآية السابقة
﴿كمثل جنة بربرة﴾ أي بستان مرتفع ﴿أصابها وابل﴾ مطر غزير
﴿فأتت﴾ أي أعطت ﴿أكْلِهَا﴾ وثمرها ﴿ضعفين﴾ فإن الإنسان
المؤمن كالبستان الواقع في مرتفع يزهو للناس ويكون أقرب إلى
الاستفادة من الهواء والشمس والمطر، فإن المؤمن أقرب إلى
الخير فإذا تصدق تكون صدقته كالمطر الذي إذا نزل بالبستان
يوجب نمو ثمارها وازدهار أشجارها ﴿فإن لم يصبها وابل﴾ مطر
غزير ﴿ف﴾ يكفي لإثمارها وإنضارها ﴿طل﴾ رذاذ من مطر
قليل ﴿و الله بما تعملون بصير﴾ فيجازيكم على أعمالكم إن رياء
وإن قرية.

[٢٦٧] ولما مثل سبحانه لصدقة كل من المؤمن والكافر، مثل لصدقة
المؤمن الذي يمن بصدقته فيبطلها ﴿أيود﴾ أي هل يحب ﴿أحدكم أن

تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ
 ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ
 يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٧﴾ يَأْتِيهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا
 لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ

تكون له جنة من نخيل وأعنان تجري من تحتها الأنهار ﴿أي تحت أشجارها﴾ له فيها ﴿أي في تلك الجنة﴾ من كل الثمرات وأصابه الكبر ﴿أي الشيخوخة﴾ وله ذرية ضعفاء ﴿و له ذرية ضعفاء﴾ عاجزون عن كسب المأكل والملبس ﴿فأصابها﴾ أي أصاب الجنة ﴿إعصار فيه نار فاحترقت﴾ كلا لا يحب أحد ذلك إنه في أشد أوقات حاجته، فهل يرضى إصابة النار بأثمن ما يملك؟ إن مثل من ينفق عن إيمان واعتقاد مثل تلك الجنة، فإذا امتن بعد ذلك أو آذى السائل، يكون ذلك ناراً تحرق جنته في أشد أوقات حاجته، فالإنسان في أشد الحاجة إلى خيره في الآخرة، فإذا امتن بقي صفر اليدين هناك ﴿كذلك﴾ أي كهذا البيان الذي بين أمر الصدقة وغيرها ﴿يبين الله لكم الآيات﴾ بضرب الأمثال والمشوقات ﴿لعلكم تتفكرون﴾ فتستقيموا على الصراط المستقيم.

[٢٦٨] ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم﴾ طيباً واقعياً بكونه حلالاً وظاهرياً بكونه جيداً ﴿ومن﴾ طيبات ﴿ما أخرجنا لكم من الأرض﴾ أي

وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ
تَغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٨﴾ الشَّيْطَانُ
يَعِدُّكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُّكُمْ مَغْفِرَةً
مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٩﴾

طيب مكسبكم وطيب ثماركم، فلا تنفقوا من الربا ولا من الماء الآجن
ولا من حشف التمر - مثلاً - ﴿و لا تيمموا﴾ أي لا تقصدوا ﴿الخبيث﴾
الحرام الرديء ﴿منه تنفقون﴾ للناس ﴿و﴾ الحال أنكم ﴿لستم بآخذيهِ﴾
فإن أراد أحد إعطائكم من ذلك ما كنتم تأخذونه ﴿إلا أن تغمضوا فيه﴾
أي تغمضوا عيونكم كراهة له، فالإنسان إذا أستبشع شيئاً غمض عينه
حتى لا يراه، فكيف تنفقون مثل هذا الشيء الذي إذا أردتم أخذه غمضتم
عينكم استبشاعاً له ﴿و اعلموا أن الله غني﴾ عن صدقاتكم فلا يأخذ إلا
الطيب ولا يقبل إلا الحسن ﴿حميد﴾ أي مستحق للحمد على نعمه،
ومن حمده أن يعطي الإنسان الشيء الطيب في سبيله، فالإنسان إذا أراد
تقدير شخص دفع إليه أحسن ما يتمكن، لا أنه يدفع الرديء الخبيث.

[٢٦٩] ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾ إذا أردتم الإنفاق في سبيل الله ﴿و يأمركم
بالفحشاء﴾ إذا أردتم الإنفاق يقول لكم: أنفقوا من الرديء الخبيث،
وهو قسم من الفحشاء، أو المراد به الأعمال القبيحة مطلقاً، ﴿و الله
يعدكم مغفرة منه﴾ فإنه يغفر ذنوبكم بسبب الصدقة وسائر المبرات
﴿و فضلاً﴾ فيخلف ما أنفقتموه ﴿و الله واسع﴾ ليس ضيق المقدرة
حتى لا يتمكن من التعويض ﴿عليم﴾ بما تعطون فيجازيكم بالحسن

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا
كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٧٠﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ
مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا
لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧١﴾ إِنْ تَبَدُّوا لَصَّدَقَتِ

حسنًا وبالسيئ سيئًا.

[٢٧٠] إِنَّ الإنفاق في سبيل الله من الطيب بلا رياء ولا من ولا أذى من
الحكمة التي هي وضع الأشياء موضعها اللائق والله سبحانه ﴿يؤتي
الحكمة من يشاء﴾ ممن له قابلية بما سبق أن أخذ بالشرعية ﴿و من
يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾ وأي خير أعظم من أن يعمر
الإنسان دنياه وعقباه بأخذه بأوامر الله سبحانه وانتهاجه المنهج
المستقيم الموجب لسعادة النشأتين ﴿و ما يذكر﴾ أي ما يتذكر ولا
يفهم ذلك ﴿إلا أولوا الأبواب﴾ أصحاب العقول فصاحب العقل هو
الذي يتبع ما ينفعه ويذر ما يضره.

[٢٧١] ﴿وما أنفقتُم من نفقة﴾ قليلة أو كثيرة أي أية صدقة تصدقتم بها ﴿أو
نذرتُم من نذر﴾ أي ما أوجبتموه على أنفسكم لله بسبب النذر ﴿فإن الله
يعلمه﴾ فيجازيكم عليه ويكون ذلك سبباً للإحسان إلى النفس ﴿و ما
للظالمين﴾ الذين يظلمون أنفسهم بالشح ومنع الصدقات الواجبة
وحنث النذر والمن والأذى والرياء في الصدقة ﴿من أنصار﴾
ينصرونهم ويخلصونهم من عقاب الله سبحانه.

[٢٧٢] ﴿إن تبدوا﴾ أي تظهروا ﴿الصدقات﴾ حين إعطائها، بأن تعطوها

فَنِعْمًا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ
لَّكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿٢٧٢﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي
مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا
تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ

جهرًا، بقصد القربة لا بقصد الرياء ﴿فنعما هي﴾ أي فنعم الشيء
الصدقة الظاهرة فإنها توجب دفع التهمة وإقتداء الناس ﴿وإن
تخفوها﴾ أي الصدقات ﴿وتؤتوها﴾ أي تعطوها سرًا ﴿الفقراء فهو
خير لكم﴾ لأنه أقرب إلى القربة وأبعد عن الرياء وأحفظ لصون ماء
وجه الآخذ ﴿ويكفر﴾ أي يغفر ﴿عنكم من سيئاتكم﴾ أي بعض
ذنوبكم بواسطة إعطاء الصدقة فإن صدقة السر تطفي غضب الرب ﴿و
الله بما تعملون خبير﴾ فيجازيكم على أعمالكم، فليس التصديق سرًا
غائبًا عن الله سبحانه بل هو بكل شيء عليم.

[٢٧٣] امتنع بعض المسلمين عن التصديق إلى غير المسلم فنزلت ﴿ليس
عليك هداهم﴾ فإنك لست مجبوراً بأن تهديهم وإنما عليك الإرشاد
والبلاغ ﴿ولكن الله يهدي من يشاء﴾ إلى الصراط المستقيم، براءته
الطريق، أو بإيصاله المطلوب ﴿وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم﴾ فإن
نفعه الدنيوي والأخروي يعود إليكم ﴿وما تنفقون﴾ أي ليس إنفاقكم
﴿إلا ابتغاء وجه الله﴾ أي لأجله سبحانه، وأي شيء أحسن من أن
ينفق الإنسان في سبيل خالقه ومنعمه والمتفضل عليه ﴿وما تنفقوا من

خَيْرَ يُوفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٧٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ
الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا
فِي الْأَرْضِ يَحْسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ
تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا

=====

خير يوف إليكم أي يوفّر عليكم جزاءه وثوابه ﴿و أنتم لا تظلمون﴾ فتعطون جزاء إنفاقكم كاملاً غير منقوص، فالإنفاق لأنفسكم، وثوابه يعود عليكم، وهو في سبيل الله وما أجمل أن يعطي الإنسان شيئاً يعود نفعه إليه ثم يثاب به في الآخرة، ويرضى الله سبحانه عنه بذلك.

[٢٧٤] ولما بين الله سبحانه فضل الصدقة عقبه بأحسن مصارفها بقوله سبحانه: ﴿للفقراء﴾ أي أن النفقة لهؤلاء ﴿الذين أحصروا في سبيل الله﴾ أي منعوا والذي منعهم هو أنفسهم، لأجل سبيل الله وإطاعته، فقد نزلت الآية في أصحاب الصفة الذين تركوا كل شيء لأجل الإسلام وأحصروا أنفسهم للعبادة والجهاد بين يدي رسول الله ﷺ ﴿لا يستطيعون ضرباً في الأرض﴾ أي ذهاباً فيها وعدم الاستطاعة اختيارية لا اضطرارية ﴿يحسبهم الجاهل﴾ أي يظنهم الذي يجهل حالهم وباطن أمرهم ﴿أغنياء من التعفف﴾ الامتناع من السؤال فإن الناس إذا رأوا تعففهم ظنّوهم أغنياء لما عهدوا من سؤال الفقراء ﴿تعرفهم﴾ أي تعرف إنهم فقراء ﴿بسيماهم﴾ أي من وجوههم وأحوالهم يكون الفقر عليها باد ﴿لا يسألون الناس إلحافاً﴾ أي كما هو شأن كثير من الفقراء، بمعنى أنه ليس منهم سؤال فيكون إلحافاً،

وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٤﴾ الَّذِينَ
يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِآيِلٍ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ
أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٥﴾ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا
يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ

=====

لا إنهم يسألون من غير إلحاف ﴿و ما تنفقوا من خير﴾ كل شيء يطلق
عليه الخير من دار أو عقار أو درهم أو دينار أو غيرها ﴿فإن الله به
عليم﴾ لا يفوته شيء فيجازيكم جزاء حسناً.

[٢٧٥] ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية﴾ بالليل سرّاً وعلانية
وبالنهار سرّاً وعلانية ﴿فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم
يحزنون﴾ إن الآية وإن كانت عامة إلا إنها نزلت في علي عليه السلام حيث
كانت له أربعة دراهم فتصدق باثنين منها نهاراً سرّاً وعلانية وباثنين ليلاً
سرّاً وعلانية^(١)، وقد تقدم معنى لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

[٢٧٦] وحيث كانت الآيات حول الإنفاق، ناسب السياق ذكر الربا، فإنه
عكس الإنفاق إذ هو استيلاء على أموال الناس من غير مبرر، بخلاف
الإنفاق الذي هو إعطاء ماله للناس من غير مكسب وتجارة ﴿الذين
يأكلون الربا﴾ وأكله كناية عن أخذه وإن لم يتصرف فيه ﴿لا يقومون
إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس﴾ الرجل الذي مسه

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٢ ص ٢٨٨ .

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا

الشیطان فصرع وتغیر حاله ودارت عینه وزال توازن جسده وزید فمه إذا أراد أن يقوم لبقية ما فيه من الشعور يقوم بعض القيام بكل انحراف وتأرجح ثم يسقط على الأرض ، وهكذا الإنسان الذي يأكل الربا حتى اعتاد ذلك يكون أشبه شيء في عملية انتهاب أموال الناس بمن تخبطه الشیطان الذي يريد أن يقوم فإن تفكيره تفكير منحرف كتفكير المطروح وعینه تنظر بزیغ إلى أموال الناس كعین المصروع وفيه يلهج حول المال بانحراف كقم المصروع وإذا أراد أن يقوم من كبوته ويترك الربا ويأخذ بالجدادة المستقيمة حول المال لا يلبث أن يسقط في الربا كما اعتاد من أكله وصار الابتزاز لمال الناس ملكته ، وهذا تشبيه رائع مفرع وهكذا يكونون هؤلاء يوم القيامة . فقد روى الإمام الصادق عليه السلام عن الرسول ﷺ أنه قال : لما أسري بي إلى السماء رأيت أقواماً يريد أحدهم أن يقوم ولا يقدر عليه من عظم بطنه فقلت من هؤلاء يا جبريل فقال : هؤلاء الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشیطان من المس^(١) ، وقد ثبت في العلم أن الأرواح الشريرة قد تدخل في الإنسان فتسبب له صرعاً ﴿ذلك﴾ الأكل للربا الذي اعتادوه ﴿ب﴾ سبب ﴿أنهم قالوا﴾ ليس في أكل الربا بأس ف ﴿إنما البيع مثل الربا﴾ كلاهما تعامل برضى الطرفين ﴿و﴾ ليس كذلك فمنطقهم غلط فقد ﴿أحل الله البيع﴾ لما فيه من الفوائد ﴿و﴾ حرم الربا لما فيه من

(١) بحار الأنوار: ج ١٠ ص ١١٦ .

فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ
وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧٧﴾

المضار، ويكفي أن نلمح إلى ضرر واحد هو أن معطي الربا إما ساقته
الضرورة إلى الاقتراض كمرض أو نحوه مما ألجأ للاقتراض برباء فما
أقبح أن يستغل الإنسان أخيه في مثل هذا الموقع مما يجدر به أن يساعده
ويسعفه، ولما اقترض للتجارة وهذا لا يخلو من أحد أحوال ثلاثة:
الأول أن يخسر والثاني أن لا يربح ولا يخسر وما أقبح في هاتين
الصورتين أن يأخذ صاحب المال زيادة بينما خسر العامل في الأول ولم
يربح في الثاني والثالث أن يربح، وقد قرر الإسلام المضاربة والاشتراك
في المربح فيما يجبر المقرض أن يدفع بمقدار خاص إلى المقرض
بينما قد ربح بمقداره وقد ربح أقل وقد ربح أكثر.

﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ في تركه أخذ الربا ﴿فَانْتَهَى﴾ وتاب
﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ فكل ربا أكله الناس بجهالة وعدم علم بحرمة أو قبل
الإسلام لا يسترد منهم ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ سبحانه لا إلى الناس حتى
يقول من أعطاه الربا: ردّ عليّ ما أخذت مني، أو أمره في قبول الله
توبته إليه سبحانه ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى الربا بعد النهي والإسلام ﴿فَأُولَئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أبد الأبدين إلا أن يدركهم الله برحمته
كما قال سبحانه: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ
يَشَاءُ) (١).

بِمَحْضِ اللَّهِ الرَّبَّوْا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ
 أَثِيمٍ ﴿٢٧٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا
 الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
 عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا
 اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرَّبَّوْا

[٢٧٧] ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ أي ينقصه ويتلفه ويهلكه فما ظن المرابي أنه سبب زيادة أمواله يكون سبباً لهلاكه ونقصانه فإن الربا يسبب غضب الناس وسخطهم على المرابي مما يثير حرباً أو نهباً من الناس أو الحكومات لأمواله فيذهب الأصل والفرع ﴿وَيَرْبِي﴾ أي يزيد وينمي ﴿الْصَّدَقَاتِ﴾ فإنه وإن ذهب جزء من المال بالصدقة لكنها تسبب حب الناس والتفافهم وتعاونهم مع المتصدق مما ينجر إلى زيادة أمواله، وهذا مع الغض عن المحق والنماء الخارجين عن الطبيعة مما يشأهما الله سبحانه بلا واسطة عادية ﴿وَاللَّهُ لَا يَحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ كثير الكفر ﴿أَثِيمٍ﴾ أي مذنب وفي هذا دلالة على أن آكل الربا كفار أثيم.

[٢٧٨] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالأصول الاعتقادية ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بِأَنْ
أَتَوْا بِالْوَاجِبَاتِ وَتَرَكَوا الْمَحْرَمَاتِ ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾
تَخْصِيصَ بَعْدَ التَّعْمِيمِ لِأَهْمِيَّتِهِمَا ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وَقَدْ مَرَّ تَفْسِيرُ عَدَمِ الْخَوْفِ وَعَدَمِ الْحُزَنِ .

[٢٧٩] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوا من عقابه ﴿وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٩﴾ فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾

مما كنتم تطلبونه قبل الإسلام وقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: إن الوليد بن المغيرة كان يربي في الجاهلية وقد بقي له بقايا على ثقيف فأراد خالد بن الوليد المطالبة بها بعد أن أسلم فنزلت الآية ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بالإسلام حقاً فإن المؤمن هو الذي ياتمر بالأوامر وينزجر بالزواجر.

[٢٨٠] ﴿فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا﴾ ولم تنقادوا إلى هذا النهي بل أكلتم الربا بعد النهي ﴿فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي اعملوا القتال مع الله ورسوله ﷺ، فأكل الربا يكون كمن أعلن الحرب مع الإله والرسول ﷺ، وذلك من أفظع الجرائم، وعاقبته خسران الدين والدنيا، وحكم أكل الربا إنه يؤدب مرتين ثم يقتل في الثالثة كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام ^(١) ﴿وَإِنْ تُبْتُمْ﴾ ولم تأخذوا الربا ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ دون الزيادة التي حصلتوها بالربا ولا مفهوم للآية بأنهم إن لم يتوبوا فليس لهم رأس المال، بل المراد أن لكم رأس المال فما تبغون بالزيادة ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ الناس بأخذ الزيادة منهم ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بالنقصان من رأس المال.

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ٧٠.

وَأِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا
خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ وَأَتَّقُوا يَوْمًا
تَرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ
وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨٢﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ

[٢٨١] ﴿وَأِنْ كَانَ﴾ فيمن تطلبون منه - ممن ذكر أنه يرجع رأس المال - ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ بأن كان رأس مالكم الذي تطلبونه عند ذي عسرة لا يتمكن من أدائه لعسره وضيقه ﴿فَ﴾ اللازم ﴿نَظِرَةٌ﴾ إلى انتظار وتأخير ﴿إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ أي إلى حال يسار المديون والجملة خبرية معناها الأمر، أي فأنظروه إلى وقت يساره ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ على المعسر بما عليه من الدين بأن تجعلوا طلبكم صدقة له ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا يجلب المحبة والبركة من الله سبحانه وفي الآخرة بالثواب الجزيل ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي إن كنتم تعلمون الخير من الشر وتميزون ما ينفعكم مما يضركم لعلمتم أن هبة الدين للمعسر خير لكم .

[٢٨٢] ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تَرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ فلا تأكلوا الربا ولا تؤاخذوا المعسرين بل تصدقوا عليهم، فإن إتيان الحرام موجب للعقاب والتصدق موجب للثواب ﴿ثُمَّ تُوَفَّى﴾ أي تعطى وافيًا ﴿كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ شيئاً فلا ينقص من أجورهم شيء كما لا يزداد في عذابهم أكثر من استحقاقهم، ومعنى الرجوع إلى الله الرجوع إلى حكمه وأمره وقضائه وجزائه .

[٢٨٣] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ﴾ أي تعاملتم بالدين ودان بعضكم

بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ
كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ
اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلَأِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ
وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا

بعضاً في بيع أو غيره ﴿بدين﴾ إما تأكيد وإما لدفع توهم أن يكون المراد من المدينة المجازاة كما قال الشاعر «و لا أنت دياني فتجزيني» ﴿إلى أجل مسمى﴾ أي مدة قد سميت في العقد كما لو دأبته إلى سنة أو باعه نسيئة إلى ستة أشهر مثلاً ﴿فاكتبوه﴾ أي اكتبوا ذلك الدين في صك وأنه إلى أية مدة لثلا يقع فيه نسيان أو جحود أو خلاف ﴿و ليكتب بينكم﴾ كتاب الدين ﴿كاتب بالعدل﴾ بالحق لا يزيد في المقدار والأجل والوصف ولا ينقص منها ﴿و لا يأب﴾ أي لا يمتنع ﴿كاتب﴾ أي شخص كان من المتعاملين أو غيرهما ﴿أن يكتب﴾ الصك ﴿كما علمه الله﴾ بأن يبخل فلا يكتب، فالتكليف من الله سبحانه وهو في مقابل أن علمه تعالى الكتابة والعلم فلا يثقل أو يبطيء أو يبخل ﴿فليكتب﴾ الكاتب ﴿وليملأ﴾ بمعنى ليملاً فإن الإملال والإملاء بمعنى واحد يلقي صيغة الكتابة على الكاتب ﴿الذي عليه الحق﴾ أي المديون حتى يقر على نفسه أولاً، حتى لا يقول زائداً على الحق ثانياً، فالذي له الحق لو أملى كان معرضاً لأن يقول الزيادة ﴿و ليتق الله﴾ الكاتب أو المديون ﴿ربه﴾ فإنه رب له فكيف يخالف أمره ﴿و لا يبخس﴾ أي لا ينقص الكاتب أو المديون ﴿منه﴾ أي من الحق ﴿شيئاً﴾ أما نقص الكاتب فواضح وأما نقص المديون كأن يجعل

فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ
يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ
رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ
مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى

=====

الدينار والذي هو مقابل ثوب في مقابل ثوبين ﴿فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً﴾ بحيث لم يتمكن من الإملاء ﴿أو ضعيفاً﴾ لجنون أو كبر أو صغر أو نحوها ﴿أو لا يستطيع أن يمل هو﴾ لخرس أو عذر آخر مع عدم السفاهة والضعف ﴿فليمل وليه﴾ أي ولي من عليه الحق ﴿بالعدل﴾ بلا إفراط أو تفريط ﴿و استشهدوا﴾ أي اطلبوا شهادة ﴿شهيدين من رجالكم﴾ على المكتوب لينفع ذلك عند الترافع والمخاصمة لدى التخالف، ولعل قيد من رجالكم لإخراج الكفار ﴿فإن لم يكونا﴾ أي لم يكن الشاهدين ﴿رجلين﴾ لعدم حضورهما أو عدم إرادة المستشهد ﴿فرجل وامرأتان﴾ يشهدون على الكتابة، أو فليشهد رجل وامرأتان ﴿ممن ترضون من الشهداء﴾ لو ثاقتهم أو عدالتهم إذ لا تقبل شهادة من عداهم لدى المخالفة والتراخ، وإنما جعلت المرأتان مكان رجل واحد لأن المرأة لضعف ذاكرتها كما ثبت في العلم الحديث يتطرق إليها من النسيان ما لا يتطرق إلى الرجل، ولذا قال سبحانه: ﴿أن تضل إحداهما﴾ من الضلال أي تخطأ وتشتبه وتنسى ﴿فتذكر إحداهما﴾ التي لم تضل ﴿الأخرى﴾ التي نسيت وضلت، و«أن» إما بمعنى «لثلا» وتكون جملة «تذكر» منقطعة، أي إن ضلّت تذكر الثانية الأولى، وأما أصلها «إن» بالكسر، صفة

وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا
أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ
لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً

لامرأتان، والأول أقرب ﴿و لا يآب﴾ أي لا يمتنع ﴿الشهداء﴾ الذين
يراد إشهداهم للدين - وسموا شهداء بمجاز المشاركة - ﴿إذا ما دعوا﴾
لتحمل الشهادة وهذا أمر إيجابي أو استجابي، أو المراد الأعم من
التحمل والأداء.

﴿و لا تساموا﴾ أي لا تضجروا أيها المتدينون ﴿أن تكتبوه﴾ أي
تكتبوا الدين أو تكتبوا الحق ﴿صغيراً﴾ كان الحق والدين ﴿أو كبيراً﴾
وهذا تأديب لمن يترك كتابة الصغير لعدم الاهتمام به، فكثيراً ما يقع
التنازع في الصغير ﴿إلى أجله﴾ أي إلى أجل الدين ومدته، وفيه تنبيه
إلى أن الكتابة تبقى إلى الأجل فتتفع هناك، أو المعنى كتابة تتضمن
إلى الأجل، فيعين في المكتوب أجل الدين.

﴿ذلكم﴾ ذا إشارة إلى الكتاب الذي يكتب في المداينة «وكم»
خطاب إلى الذين آمنوا ﴿أقسط عند الله﴾ أي أعدل، بمعنى أقرب إلى
العدل وإلا فليس في العدل مفاضلة حقيقية ﴿و أقوم للشهادة﴾ فيه تقوم
الشهادة التي تؤمن عن الزيادة والنقصان ﴿و أدنى ألا ترتابوا﴾ أي أقرب
إلى عدم الريب في المبلغ والأجل فالله يريد أنتم لا تشكون، والشهادة
تستقيم، بسبب الكتابة والصك وما ذكر من الكتابة عامة لكل مكان ﴿إلا
أن تكون﴾ المعاملة - المفهوم من الكلام - ﴿تجارة حاضرة﴾ معجلة غير

تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا
وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ
تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ
وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

مؤجلة كغالب التجارات النقدية التي تجري في الأسواق ﴿تديرونها بينكم﴾ إدارة يد بيد، ومعنى الإدارة المناقلة، فينقل هذا ماله إلى ذاك وينقل ذاك عنه إلى هذا ﴿فليس عليكم جناح﴾ وخرج ﴿ألا تكتبوها﴾ فلا مانع من عدم كتابة التجارة النقدية إذ الكتابة للوثيقة وهنا لا يحتاج إلى الوثيقة ﴿وأشهدوا إذا تبايعتم﴾ فإنه يستحب للإنسان الذي يريد المبايعة أن يأخذ الشاهد، ففي المعاملة كثيراً ما يقع من نزاع وخصام فإذا كان هناك شهادة يقل وطى النزاع، والآية وإن كانت عامة لفظاً لكن لا يعد أن لا يراد بها الإطلاق من المعاملات الجزئية اليومية لعدم تعارف الأشهاد منذ زمان الرسول ﷺ ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ بأن يكلف الكاتب الكتابة ويكلف الشاهد الشهادة في حال يكون حرجاً عليهما وضرراً، كما تعارف الآن عند الحكومات المنحرفة فإنه يحضر الشاهد ويعنت ويضار فإن في مضاررتها زهادة للناس عن الكتابة والشهادة ﴿وإن تفعلوا﴾ المضارة بها ﴿فإنه فسوق بكم﴾ أي خروج عن أمر الله سبحانه لسببكم أيها المضارون ﴿واتقوا الله﴾ فيما أمركم ونهاكم ﴿ويعلمكم الله﴾ مصالحكم فاتبعوه ﴿والله بكل شيء عليم﴾ وأنتم لاتعلمون وما أجدر بالجاهل أن يتبع العالم، عن علي بن إبراهيم أن في

وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً فَإِنْ
 أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ
 رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عِندَ اللَّهِ
 قَلْبُهُ

سورة البقرة خمسمائة حكم وفي هذه الآية الكريمة وحدها خمسة عشر
 حكماً والآية كما تقرر في العلم الحديث من أعجب الآيات في باب
 المعاملة .

[٢٨٤] ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ﴾ أيها المتدانيون المتبايعون ﴿على سفر﴾ أي مسافرين
 والتعبير بلفظ «على» لركوب المسافرين غالباً ﴿و لم تجدوا كاتباً﴾
 يكتب الدين والمعاملة ﴿فرهان مقبوضة﴾ تقوم مقام الصك ورهان
 جمع رهن، وهو اسم للوثيقة ولذا جاءت الصفة بالتأنيث والقبض
 شرط في صحة الرهن، ولذا وصفه بالقبض ﴿فإن أمن بعضكم﴾
 وهو صاحب الحق ﴿بعضاً﴾ وهو من عليه الحق بأن وثق به وأنه
 يؤدي الدين بدون صك ولا رهن، فأعطاه الدين مجرداً عن الأمرين
 ﴿فليؤد الذي أؤتمن﴾ أي المديون ﴿أمانته﴾ فلا ينكر ولا يمتل،
 كفاء لما رآه أهلاً ﴿وليتق الله ربه﴾ فإن الله شهيد ويجازي فإن
 أنكر أو مطل أو بخس كان معرضاً نفسه لعقوبة الله سبحانه
 ﴿ولا تكتموا﴾ أيها الشهود ﴿الشهادة﴾ التي تحملتموها ﴿و من
 يكتمها﴾ أي يخفي الشهادة فلا يحضر لأدائها أو يؤديها على خلاف
 الواقع ﴿فإنه آثم قلبه﴾ فقد عزم القلب على الكتمان وأطاعته
 الجوارح واللسان ولأن الكتمان أنسب إلى القلب لكونه في محل

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٤﴾ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفَّوْهُ يُحَاسِبُكُمْ
 بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٥﴾

مكتوم ﴿و الله بما تعملون﴾ من إخفاء الشهادة وإبدائها ﴿عليم﴾ فلا
 تفعلوا ما يوجب عقابه وسخطه .

[٢٨٥] ﴿الله ما في السماوات وما في الأرض﴾ فما تعاطونه من الأملاك
 ليست لكم إلا مجازاً وإنما هي ملك له سبحانه فاعملوا فيها حسب ما
 أمركم ولا تخالفوا أمر المالك الحقيقي ﴿و إن تبدوا﴾ أي تظهروا ﴿ما
 في أنفسكم﴾ بما تعلمونه ويخفى على غيركم ﴿أو تخفوه﴾ فتكتمونه
 ﴿يحاسبكم به الله﴾ فإن جميع الأعمال والأقوال والأفكار تحت
 المحاسبة، أو أن الإبداء والإخفاء لما في النفس محسوب عليهما،
 وهذا العموم للتناسق مع إبداء الشهادة وكتمانها ﴿فيغفر لمن يشاء
 ويعذب من يشاء﴾ حسب ما تقتضيه الحكمة البالغة فالغفران والشفاعة
 ليسا اعتباطاً وإنما ينصبان على المحل القابل ﴿و الله على كل شيء
 قدير﴾ من المغفرة والعقاب ولا يخفى أن العذاب على ما في النفس لا
 ينافي ما دل على عدم العقاب، على العزم على المعصية لاختلاف
 المعاصي، واختلاف أنواع العقاب فلا شبهة في أن من يعزم على
 المعاصي وإن لم يفعلها أبعد عن قرب الحلال ممن لا يعزم إطلاقاً،
 وهذا البعد هو نوع من العذاب أو يجمع بنحو ذلك .

ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ
بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْ
رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ ﴿٢٨٦﴾

[٢٨٦] وهنا يرجع السياق إلى ذكر التوحيد والنبوة والشرائع جملة في لباسٍ
أنها لا تكلف الناس فوق الطاقة وسؤال المغفرة والعفو لتكون فذلكه
للسورة ﴿آمن الرسول﴾ محمد ﷺ ﴿بما أنزل إليه من ربه﴾ فهو أول
مؤمن بما أنزل إليه وليس كرؤساء الأديان المفتعلة والملوك والحكام
الذين لا يشملهم القانون ﴿والمؤمنون كل﴾ أي كل واحد منهم ﴿آمن
بالله وملائكته وكتبه ورسله﴾ فليس المؤمن أن يقتنع بجانب واحد من
جوانب الإسلام كما هو كثير في تابعي الأحزاب والمبادئ حيث أن ذا
النشاط المتفايض منهم يقتنع منه بجانب واحد وإن ترك سائر الجوانب
فإن لسان حال المؤمنين ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ فلسنا كاليهود
الذين لا يعترفون بالمسيح ﷺ ونبي الإسلام ﷺ ولا كالنصارى
الذين لا يعترفون بنبي الإسلام، فلا تكون كمن يؤمن ببعض ويكفر
ببعض ﴿وقالوا سمعنا﴾ آيات الله وأحكامه ﴿وأطعنا﴾ أوامره ونواهيه
لا كاليهود الذين قالوا سمعنا وعصينا، يقولون ﴿غفرانك﴾ أي نطلب
مغفرتك ﴿ربنا﴾ نعم أن ﴿إليك المصير﴾ فاغفر لنا حتى نكون في
ذلك اليوم سعداء .

[٢٨٧] إن الأحكام التي سلفت في السورة وفي غيرها ليست مما لا يطاق

لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا
 اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا
 تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا

فإنه ﴿لَا يَكُلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فإن أوامره ونواهيه مستطاعة
 للمكلف وليس في الدين من حرج، فلا يظن أحد أن الإيمان السابق
 ذكره في «والمؤمنون كل آمن بالله» يوجب مشقة وعنتاً وإرهاقاً ﴿لَهَا﴾
 أي للنفس ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ من الحسنات فالجزاء الحسن يجزى به من
 أحسن ﴿وَعَلَيْهَا﴾ أي على النفس ضرر ﴿مَا اكْتَسَبَتْ﴾ من الآثام
 والسيئات ولعل في مجيء الكسب من بابين «كسب» و«أكتسب» إفادة
 أن الطاعة طبيعية والمعصية تؤتي بالتكلف إذ للفظه الاكتساب ظلالاً
 يفيد التعب والغضب بخلاف الكسب وتؤيده قاعدة «زيادة المبنى تدل
 على زيادة المعنى» وهناك يتوجه المؤمنون إلى الله داعين سائلين
 ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ بلا نسيان وإنما تصح المؤاخذه
 فيهما لغلبة كون مقدماتهما اختيارية وما ينتهي إلى الاختيار يكون
 بالاختيار ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا﴾ أي ثقلاً فإن بعض التكاليف
 قد توجب ظروفها ثقلاً وعنتاً، فالمؤمن يسأل أن يجنبه الله سبحانه
 مثل هذا الثقل ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ فإنهم بلجاجتهم
 استحقوا تحميل الثقل كما تقدم في قصة بقرة بني إسرائيل وكما قال
 سبحانه: (فَظَلَمُوا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ)^(١)

رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا
وَأَرْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٧﴾

﴿ربنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به﴾ وإن كان مقدوراً لنا فإن عدم الطاقة ليس بمعنى عدم القدرة حتى يقال: إن الله لا يكلف غير المقدور فما وجه هذا الدعاء؟ ﴿و اعف عنا﴾ ذنوبنا ﴿واغفر لنا﴾ خطايانا أي استرها ولا تبدها ﴿و ارحمنا أنت مولانا﴾ سيدنا والأولى بالتصرف فينا ﴿فانصُرنا على القوم الكافرين﴾ حتى نغلب عليهم في الحكم كما نغلب عليهم في الحجة.



سورة آل عمران

مدنية / آياتها (٢٠١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

سميت بذلك لاشتغالها على لفظة آل عمران وقد نزلت بالمدينة .

[١] ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ مرّ تفسيرها في أول سورة الحمد .

اَلَمْ يَأْتِ الْفَيْيُومُ ﴿٣﴾ نَزَلَ عَلَيْكَ
 الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ
 ﴿٤﴾ مِّن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ
 اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ

[٢] ﴿آلم﴾ تقدم ما يحتمل أن يكون تفسيراً له .

[٣] ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ فليس له شريك وهو الحي الذي
 لا يموت وإن كانت الحياة بالنسبة إليه تعالى تخالف الحياة بالنسبة إلينا
 فإن حياتنا غير ذواتنا وإنما هي صفة قائمة بنا بخلاف الحياة فيه سبحانه
 فإنه عين ذاته والقيوم هو القائم على كل نفس بما كسبت وعلى كل
 شيء

[٤] ﴿نزل عليك﴾ يا رسول الله ﴿الكتاب﴾ أي القرآن ﴿بالحق﴾
 لا بالباطل فإن الإنزال قد يكون بالباطل وقد يكون بالحق ﴿مصدقاً﴾
 لما بين يديه وأنزل التوراة ﴿على موسى ﷺ﴾ و﴿الإنجيل﴾ على
 عيسى ﷺ .

[٥] ﴿من قبل﴾ إنزال القرآن عليك ، وكل هذه الكتب ﴿هدى للناس﴾ فإنها
 تهديهم من الظلمات إلى النور ومن الباطل إلى الحق ومن الضلال إلى
 الرشاد ﴿وأنزل الفرقان﴾ الفارق بين الحق والباطل وهو أعم من
 الكتب السابقة وسائر ما أنزل على أنبياء الله ورسله ﴿إن الذين كفروا﴾
 بآيات الله ﴿بحجج الله ودلالاته﴾ لهم عذاب شديد ﴿في الدنيا﴾
 بالفوضى والهرج والمرج والمشاكل كما قال تعالى (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنَّا)

وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي
الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ
كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٧﴾ هُوَ الَّذِي
أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ

=====

ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً^(١) وفي الآخرة بالعقاب ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ له
العزة والقدرة بأن يفعل ما يشاء ﴿ذُو انتقام﴾ ينتقم ممن حادّه وعصاه .

[٦] ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ فلا يظن عاص
أنه يخفى على الله سبحانه، فإنه يعلم كل شيء في الكون حتى
وساوس القلوب و هو اجس الصدور .

[٧] ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ﴾ أي يعطيكم الصورة في بطون أمهاتكم
﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من رجل وامرأة وجميل وقبيح وقصير وطويل وغيرها
فكيف يخفى عليه شيء وهو يفعل مثل هذا الفعل الدقيق في ذلك
المحل المظلم ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو وحده إله الكون وخالقه ﴿الْعَزِيزُ﴾
في سلطانه ﴿الْحَكِيمُ﴾ فما يفعل شيئاً عبثاً بل يفعل ما يفعل بالحكمة .

[٨] ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ﴾ يا رسول الله ﴿الْكِتَابَ﴾ أي القرآن ﴿مِنْهُ﴾ أي
قسم من الكتاب ﴿آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ﴾ غير متشابهات فالمفاد منها
واضحة لا يخفى على أهل اللسان كقوله سبحانه (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)^(٢)

(١) طه: ١٢٥ .

(٢) الإخلاص: ٢ .

هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَبِهَةٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ
فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ

﴿هن﴾ أي تلك الآيات المحكمات ﴿أم الكتاب﴾ أي أصله الذي يرجع إليه لدى الشك والخصام والجدال .

﴿وأخر﴾ أي آيات أخر ﴿متشابهات﴾ والمتشابه هو الذي يحتمل وجهين أو وجوهاً مما سبب عدم إدراك الناس كلهم لها، من تشابه، وإنما يؤتى به إما امتحاناً حتى يعرف المؤمن من المنافق أو لتقريب المطلب إلى أذهان الناس الذين لا يدركون الحقائق ككثير من آيات الصفات ونحوها كقوله سبحانه: (إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ)^(١) حيث أريد التفهيم من أن المؤمنين ينظرون إلى رحمة الله، أو كقوله: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ)^(٢) أو لأن المطلب دقيق لا تتحمله بعض العقول كآيات الجن والشيطان مما لا يتحملها عقل من إلف المادة فيشبه الأمر عليه أو لأنه جيء به لاعتبار كلامي فاشتبه الأمر نحو (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ)^(٣) أو غير ذلك، والمتشابه مما لا بد منه في الكلام الراقى كما لا يخفى بأدنى تأمل ﴿فأما الذين في قلوبهم زيغ﴾ أي ميل عن الحق وانحراف إما جهلاً أو عناداً ﴿فيتبعون ما تشابه منه﴾ اتباعاً على خلاف المراد منه ويوجهون المتشابه حسب أهوائهم ومشترياتهم كما يقول القائل

(١) القيامة: ٢٤ .

(٢) البقرة: ٣٠ .

(٣) التوبة: ٦٧ .

أَبْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَأَبْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ
وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ

بالتجسم من «إلى ربها ناظرة» وبالجبر من (وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) ^(١) وبمعصية الأنبياء ﷺ من (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) ^(٢) ويكون الإسلام خاصاً بالعرب من (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) ^(٣) وهكذا «أبتغاء الفتنة» أي لأجل تفتين الناس وإضلالهم «وأبتغاء تأويله» أي لأجل أن يكون له مجال في تأويل الكلام على غير المراد منه ليطابق هواه ومشتهاه «وما يعلم تأويله» التأويل هو ما يؤول وينتهي إليه الكلام فمثلاً ظاهر «إلى ربها ناظرة» إنهم ينظرون إلى الله لكن هذه الجملة تؤول إلى معنى أنهم ينظرون إلى رحمة الله ولطفه وثوابه، كما يقال في العرف «إني أنظر إلى العقل وهو يسير الإنسان» إنه لا يريد النظر بالعين وإنما عرفان ذلك «إلا الله» فهو سبحانه يعلم المراد من كلامه «والراسخون» أي الثابتون «في العلم» الذين لهم اطلاع على المعلومات وبأساليب الكلام وبما يدل عليه العقل والشرع وهذا ليس ببدع فإن القوانين المدنية لا يعرفها إلا من درسها وأتقنها وأساليب الكلام العربي لا يعرفها إلا من أتقن الأدب والبلاغة وهكذا، إن الراسخين يعلمون تأويل المتشابه في حال كونهم «يقولون آمنا به» أي بالمتشابه كما آمنا بالمحكم «كل» من المحكم والمتشابه

(١) الرعد: ٣٤ .

(٢) طه: ١٢٢ .

(٣) الزخرف: ٤٥ .

مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٨﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا

﴿من عند ربنا﴾ فإذا لم يظهر المعنى في بادئ النظر لا ينكرون ولا يقولون بالتناقض، فإنهم جمعوا بين فضيلتي العلم بالتأويل والإذعان بصحة المتشابه بخلاف الجاهل فإنهم يعترضون على المتشابه أولاً ويفسرون حسب أهوائهم ثانياً، وهكذا نجد الآن في العرف العالم الورع يجمع بين الفضيلتين والجاهل يشتمل على الرذيلتين ﴿وما يذكر﴾ أي يتذكر ويرد المتشابه إلى المحكم وإلى ما دل من العقل والنقل ﴿إلا أولوا الأبواب﴾ أي أصحاب العقول الحصيفة، ثم إنه ورد في الأحاديث أن المراد بالراسخين النبي والأئمة عليهم السلام ولا يخفى أنهم من أجل مصاديق الراسخين وذلك هو المراد لا الانحصار.

[٩] إن الراسخين في العلم يلتجئون إلى الله سبحانه قائلين ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾ أي لا تملها عن الحق وإنما نسب الزيف إليه سبحانه لأنه هو الذي هيأ الأسباب ليمتحن عباده فترك الإنسان - وعدم اللطف به - حتى يقع فريسة الشيطان من صنع الله سبحانه كما يقال أن الملك أفسد الرعية لا يراد أنه أفسدهم وإنما يراد تركهم حتى يفسدوا، ولا يخفى الفرق بينه سبحانه وبين الملك لرعيته فإن الله حيث خلق الدنيا للاختبار لا بد وأن يهيئ الوسيطتين ليظهر المطيع من العاصي كما قال: (كُلًّا تُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ) ^(١) بخلاف الملك فإنه لا يحق له أن يفسد الرعية حتى بتركهم وما يشاءون فإنه يأمر بالصلاح والإصلاح كما أن الله تعالى يسبل النعم على الجنات ولا يعاقبهم عقوبة ظاهرة في

بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٩﴾
 رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا
 يُخْلِفُ الْمِعَادَ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

الدنيا، وذلك ليس جائز للملوك فإنه يجب إيقاف الجاني عند حده وإجراء العقاب عليه ثم إن الإنسان مهما كان من الرسوخ في العلم فإنه معرض للزلة كما زل «بلعم» قال سبحانه (نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ) ^(١) ولذا يدعو الراسخون ربهم سبحانه أن لا يقطع عنهم لطفه الخاص ولا يتركهم ليلعب بهم الشيطان كما يشاء، إذ ﴿بعد إذ هديتنا﴾ إلى دينك ﴿وهب لنا من لدنك﴾ من عندك ﴿رحمة﴾ ولطفاً نثبت بها على دينك وطاعتك ﴿إنك أنت الوهاب﴾ الكثير الهبة لمن تشاء بما تشاء.

[١٠] ﴿ربنا إنك جامع الناس﴾ تجمعهم ﴿ليوم لا ريب فيه﴾ هو يوم القيامة الذي لا شك فيه عند ذوي العقول وإن شك فيه أناس لانصيب لهم من العلم والمعرفة وقد تقدم وجهه في أول سورة البقرة ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ أي الوعد الذي وعده أنبياءه والبشر بيوم القيامة، فلا تزغ قلوبنا حتى نكون ذلك اليوم من المطرودين أو هذا إظهار من الراسخين بالاعتراف بالبعث وإنهم جمعوا بين فضيلتي الاعتراف بالمبدأ والمعاد.

[١١] ﴿إن الذين كفروا﴾ من الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون المتشابه وغيرهم

لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١١﴾ كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٢﴾

من سائر الكفار ﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ﴾ كي يعطوها فينجون من عذاب الله سبحانه كما تنفع الفدية في الدنيا ﴿وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ﴾ أي من عذاب الله وسخطه ﴿شَيْئًا﴾ فلا يتمكن أولادهم أن يقفوا ليمنعوا عنهم العذاب ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الكفار ﴿هُمْ وَقُودُ﴾ الوقود الحطب وكل ما يوقد به النار ﴿النار﴾ يوم القيامة تنقد النار بأجسامهم كما تنقد النار بالحطب والنفط ونحوها .

[١٢] ﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ الدأب العادة، أي عادة هؤلاء الكفار في التكذيب بك وبما أنزل إليك كعادة آل فرعون الذين كذبوا الرسل ﴿و﴾ كعادة ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من سائر الكفار الذين كانوا يكفرون بآيات الله ويكذبون أنبياءه ﴿كَذَبُوا﴾ جميعاً ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي بدلائلنا الدالة على التوحيد وسائر الأصول ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي بسبب عصيانهم ومعاصيهم، ومعنى الأخذ العقاب أي عاقبهم، كقوله ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ ^(١) ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فليس عقابه كعقاب سائر الناس، وإنما نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ^(٢) .

(١) هود: ١٠٣ .

(٢) الكهف: ٣٠ .

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ
 الْمِهَادُ ﴿١٣﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ
 تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم
 مِّثْلِيهِمْ رَأَىٰ الْعَيْنُ

=====

[١٣] ﴿قُل﴾ يا رسول الله ﴿للذين كفروا ستغلبون﴾ أي بعد قليل يكونون مهزومين إما في الدنيا بغلبة الإسلام، كما صار وكما أخبر حيث إن الإسلام غلبهم وأخذ بلادهم ﴿وتحشرون إلى جهنم﴾ يوم القيامة، وإما في الآخرة بمعنى أنكم بعد قليل تهزمون أمام أمر الله سبحانه، ويقبضكم ملك الموت الذي وكل بكم، وبعد ذلك تحشرون إلى جهنم يوم القيامة ﴿وبئس المهاد﴾ أي بئسما مهد لكم أو ما مهدتم لأنفسكم.

[١٤] ولما بين سبحانه أن الكفار سيغلبون بين لذلك شاهداً محسوساً في قصة بدر حيث كان المسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً والكفار ألف رجل ولم يكن للمسلمين من العتاد إلا شيئاً ضئيلاً بينما كان الكفار بأكمل السلاح ومع ذلك فقد غلب المسلمون عليهم بنصر الله سبحانه ﴿قد كان لكم﴾ أيها المسلمون أو أيها الكفار ﴿آية﴾ أي علامة على صدق الرسول ﷺ وإن الله ينصره ويهزم الكفار ﴿في فئتين﴾ أي جماعتين جماعة المسلمين وجماعة الكفار ﴿التقتا﴾ من الملاقاة إذ اجتمعتا في بدر ﴿فئة تقاتل في سبيل الله﴾ وهم المسلمون ﴿و﴾ فئة ﴿أخرى كافرة﴾ وهم المشركون الذين أتوا من مكة ﴿يرونهم﴾ أي يرى المسلمون الكفار ﴿مثليهم﴾ أي ضعف أنفسهم ﴿رأى العين﴾

وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً
لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٤﴾ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ

فلم يكن ذلك خيالاً وإنما واقعاً فإن الكفار في الواقع كانوا أكثر، ومع ذلك فقد غلب المسلمون، ولعل النكتة في ذكر ذلك بيان أن المسلمين غلبوا مع أنهم كانوا يعلمون بزيادة الكفار عليهم وإن ذلك يدل أن الله نصرهم وإلا فإن الجيش إذا علم أن العدو أكثر منه وهن في عضده ويسبب ذلك انهزامه في أكثر الأحيان، وفي الآية أقوال آخر مذكورة في التفسيرات ﴿والله يؤيد بنصره من يشاء﴾ أي يقوي بنصره فلا يضرهم قلة عددهم وعدتهم ﴿إن في ذلك﴾ المذكور وهو غلبة المسلمين على المشركين مع أن الكفار كانوا ثلاثة أضعافهم ﴿لعبرة﴾ أي اعتبار وهي بمعنى الآية وإنما سميت الآية عبرة لأنها تعبر بالإنسان من الجهل والغفلة إلى العلم والتذكير ﴿لأولي الأبصار﴾ أي أصحاب العقول، وليس المراد بالبصر النظر بالعين وإنما النظر بالقلب كما يقال فلان بصير بالأمور أي يعرفها ويدركها.

[١٥] وهنا يتساءل الإنسان ماذا صرف الكفار عن الحق وهم يرونه؟ ويأتي الجواب إن الذي صرفهم هو جمال الدنيا ومالها كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام «لكنهم حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها»^(١) ﴿زين للناس حب الشهوات﴾ أي أن حب الإنسان للمشتبهات والملذات سبب لهم أن تتزين الدنيا في نفوسهم فيطلبون اللذائذ ولو

(١) نهج البلاغة: خطبة ٣ - ١٥ .

مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ
وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ
مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٥﴾

في المحرمات ولم يذكر الفاعل، لأنه ليس بمقصود وقد تقرر في علم البلاغة أن مقتضاه أن لا يذكر الفاعل أو المفعول حيث لم يكن مقصوداً ﴿من النساء﴾ بيان «الشهوات» ﴿والبنين﴾ فإن حب الأولاد يسبب إطاعتهم والتحفظ عليهم ولو بذهاب الدين ﴿والقناطر المقنطرة﴾ القناطر جمع «قنطار» وهو ملء مسك ثور ذهباً وإنما سمي قنطاراً لأنه يكفي للحياة فكأنه قنطرة يعبر بها مدة الحياة، والمقنطرة بمعنى المجتمعة المكدسة كقولهم دراهم مدرهمة ودنانير مدنرة ﴿من الذهب والفضة﴾ فإن الإنسان بحبه للأموال يعصي الله في جمعه وفي عدم إعطاء حقوقه ﴿والخيل﴾ عطف على النساء، والخيل الأفراس ﴿المسومة﴾ من سوم الخيل التي علمها ولا تعلم إلا الجيد الحسن منها ﴿والأنعام﴾ جمع نعم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿والحرث﴾ أي الزرع فهذه كلها محبة للناس، لكن ﴿ذلك﴾ كله ﴿متاع الحياة الدنيا﴾ أي ما يستمتع به في الدنيا ولا تنفع الآخرة إلا إذا بذلت في سبيل الله - كل حسب بذله - ﴿والله عنده حسن المتاب﴾ المرجع أي أن المرجع الحسن في الآخرة منوط بالله سبحانه فاللازم أن يتزهّد الإنسان في الملذات ولا يتناول المحرم منها رجاء ثواب الله ونعيمه المقيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال، فلا تسبب هذه المشتبهات عدول الإنسان عن الحق إلى الباطل وعن الرشاد إلى الضلال.

قُلْ أُوْنِبْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ
 جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ
 مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ
 الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا



[١٦] ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله للناس الذين زين لهم حب الشهوات
 ﴿أُوْنِبْتُكُمْ﴾ أي هل تريدون أن أخبركم ﴿بخير من ذلكم﴾ أي
 بأحسن من هذه الشهوات، و﴿كم﴾ خطاب للناس ﴿للذين اتقوا﴾
 المحرمات وعملوا حسب أوامر الله سبحانه ﴿عند ربهم﴾ في
 الآخرة ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من تحت أشجارها
 ونخلها وقصورها ﴿خالدين فيها﴾ فإنهم يسكنون الجنة أبد الآبدين
 لا زوال لهم ولا تحويل ﴿وأزواج مطهرة﴾ أي نساء طاهرة من
 الأقدار الظاهرية كالحيض والوساخة، والأقدار الباطنية كسوء الخلق
 والحقد والعداوة ﴿و﴾ أكبر من كل ذلك ﴿رضوان من الله﴾ فإن
 الله راض عنهم ومتى شعر الإنسان برضى الله سبحانه منه تنعم
 بأفضل نعمة نفسية كما لو علم فرد من الرعية أن الملك يحبه
 ويرضى عنه ﴿والله بصير بالعباد﴾ خبير بأفعالهم وأعمالهم فيجازيهم
 حسب ما يفعلون.

[١٧] ثم وصف سبحانه المتقين الذين سبق ذكرهم بقوله «الذين اتقوا»
 فالمتقون هم «الذين يقولون ربنا إننا آمنّا» أي صدقنا بك وبرسلك
 وبما أمرت ووعدت «فاغفر لنا ذنوبنا» أي تجاوز عما صدر منا من

وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٧﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ
وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٨﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ

=====

الخطايا ﴿وقنا﴾ أي احفظنا من «وقى» «يقي» بمعنى حفظ ﴿عذاب النار﴾ حتى لا نكون من أهلها.

[١٨] ﴿الصابرين﴾ صفة أخرى للمتقين فأولئك هم الصابرون في المصائب وعند الطاعة، ولدى المعصية ﴿والصادقين﴾ في نياتهم وأقوالهم وأفعالهم ﴿والقانتين﴾ من القنوت بمعنى الإطاعة والخضوع ﴿والمنفقين﴾ لأموالهم في سبيل الله سبحانه ﴿والمستغفرين﴾ الذين يطلبون غفران ذنوبهم ﴿بالأسحار﴾ جمع سحر وهو ما يقرب من طلوع الفجر آخر الليل.

[١٩] ويناسب السياق هنا الإشارة إلى صفات الباري عز اسمه حيث تقدم ذكر من اتقى وأوصاف المتقين الذين يعملون لله سبحانه ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو﴾ وشهادة الله لفظية وواقعية فإن الشهادة إظهار المطلب باللسان وقد أظهر الله سبحانه وحدته وسائر صفاته بما هو أقوى وأثبت وأولى من اللفظ، وهو خلق المصنوعات التي تشهد جميعها بصفاته كما قال الشاعر «وفي كل شيء له آية... تدل على أنه واحد» وإنما تشهد المصنوعات على الوحدة لأنه لو كان فيهما آلهة غير الله لفسدنا فعدم الفساد دليل الوحدة - كما تقرر في علم الكلام - ﴿والملائكة﴾ شهدوا بالوحدانية شهادة لفظية وحقيقية ﴿وأولوا العلم﴾ أصحاب العلم الذين يدركون، لا كل من يدعي العلم، فإنه من ينظر إلى الكون

قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٩﴾

نظر عالم معتبر لا بد له من الإذعان بالوحدانية ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي في حال كونه سبحانه قائماً بالعدل، فإن القسط بمعنى العدل، ومعنى قيامه سبحانه بالعدل أنه يفعل ما يفعل بالعدل فخلقه، وتقديره، وتشريعه، كل بالعدل ومعنى العدل الاستواء، مقابل الظلم الذي هو الاعوجاج والانحراف، فمثلاً جعل الشمس في السماء عدل لأنها تنير وتشرق وتقيم المجموعة الشمسية بينما عدمها انحراف وظلم، وكذلك تقدير هذا غنياً وذاك فقيراً، وهذا رئيساً وذاك مرؤوساً بالعدل، وما يشاهد في ذلك من الانحراف فإنه ليس من التقدير وإنما من سوء اختيار الناس، وكذلك تشريع الصلاة واجبة، والخمر محرمة بالعدل.

يقال أن رجلاً سأل كسرى عن سبب عدله قال: لعدة أسباب منها أني رأيت في الصحراء يوماً كلباً كسر رجل غزال، فما لبث أن رماه إنسان بحجر فكسر رجله فلم يمض على الرجل إلا برهة إذا بفرس رفسه فكسر رجله، فلم تمض على ذلك لحظات إلا بالفرس عثر فانكسرت رجله، وهناك علمت أن الظلم عاقبته وخيمة . . . والإنسان إذا لم يعرف الصلاح والعدل في بعض الأشياء فليس له أن يعترض، والحال أنه يجهل أكثر الأشياء، فهو كمن يعترض على أدوية وصفها الطبيب وهو لا يعرف من الطب شيئاً، ولفظة «قائماً» فيها إيماء لطيفة، فإن القائم يشاهد ما لا يشاهده القاعد، إذ هو مسيطر مشرف ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تكرر للتأكيد، فإن العالم قبل الإسلام كان مرتطمأ في أحوال الشرك حتى جاء الإسلام فأظهر التوحيد وجدد ما محي من سنن الأنبياء ﷺ وإرشادهم حول المبدأ تعالى ﴿العزيز﴾ في سلطانه ﴿الحكيم﴾ الذي يفعل كل شيء عن حكمة وعلم.

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ
يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠﴾

[٢٠] وبعدهما تقرر التوحيد والعدل أتى دور الدين الذي أرسله الله سبحانه إلى العباد ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ والدين هي الطريقة التي تؤمن السعادة للبشر دنياً وآخرة، إنه عند الله الإسلام، وإن كان عند غيره اليهودية والنصرانية والمجوسية وغيرها، فإن الله سبحانه لم يرسل إلا الإسلام والإسلام هو دين الأنبياء جميعاً فإنه عبارة عن تسليم منهج الأعمال إلى الله الذي خلق الكون وهو أعلم بالنظام السماوي له الذي إن تبعه البشر عاش سعيداً ومات حميداً، وقد ذكرنا سابقاً أن الاختلاف بين الأديان السماوية الواقعية في شرائط ومزايا لا في الجوهر والأصول ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي ليس اختلاف أهل الكتاب بعضهم مع بعض وجميعهم مع المسلمين ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ فعرفوا الصحيح من السقيم والحق من الباطل، وإنما اختلفوا ﴿بَغْيًا﴾ أي حسداً ﴿بَيْنَهُمْ﴾ فلم يقبل اليهود أن يرضخوا لعيسى عليه السلام حسداً، ولم يقبل النصارى أن يؤمنوا بنبي الإسلام ﷺ حسداً، كما قال سبحانه (أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) ^(١) ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ فلم يؤمن بها فلا يظن أنه ربح وتهناً بدنيا باقية بل خسر وذهبت دنياه وآخرته ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يحاسب الكفار

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢١﴾
 إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بَغْيًا
 حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ
 النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٢﴾

الحق وإلى طريق مستقيم ﴿وإن تولوا فإنما عليك البلاغ﴾ أن تبلغهم الإسلام وليس عليك إجبارهم حتى لا يتولوا وحتى لا يعرضوا ﴿والله بصير بالعباد﴾ لا يفوته شيء من أعمالهم فهو يجازيهم بكفرهم وميثاقهم كما يجزيهم على إيمانهم وإطاعتهم .

[٢٢] ثم بين سبحانه أن أهل الكتاب كفروا بالله قديماً وقتلوا الأنبياء ﷺ ، تسلياً للنبي ﷺ أن لا يضيق صدره بتكذيبهم ولجاجتهم ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله﴾ فلا يقبلونها بعد وضوحها وعلمهم بها ﴿ويقتلون النبيين بغير حق﴾ فإن قتل النبي مطلقاً ليس بحق وإنما يأتي القيد إفادة لأنه لا حجة لهم في قتل الأنبياء ﷺ حتى أنه ليس هناك حق مدعى أيضاً ﴿ويقتلون الذين يأمرون بالقسط﴾ أي بالعدل ﴿من الناس﴾ فإن أهل الظلم والباطل الذين تتمثل فيهم القوة غالباً يقتلون من ينهاهم عن ذلك ويأمر بالقسط والغدث ﴿فبشرهم بعذاب أليم﴾ وكلمة البشارة استهزاء أو بعلاقة استيعمال الضد في الضد كتسمية الزنجي بالكافور والأعمى بالبصير ، أو للمقابلة نحو (فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) ^(١) ، فإن

أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا
نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ

=====

المؤمن يبشر بالثواب والكافر يبشر بالعقاب .

[٢٣] ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ الخيرية فإن لكل إنسان أعمال خيرية وإن كان كافراً، ومعنى حبط العمل بطلانه وعدم إفادته ﴿في الدنيا﴾ فإن كفرهم سبب هدر دمهم فعملهم الخير لم ينفعهم في حقن دمهم أو أعمال الخير التي تدفع البلايا والآفات لا تنفع مع الكفر والانحراف ﴿والآخرة﴾ فلا تفيدهم أعمالهم الحسنة ثواباً كما قال سبحانه (وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا) ^(١) ﴿وما لهم﴾ أي ليس لهم ﴿من ناصرين﴾ ينصرونهم من عذاب الله وسخطه .

[٢٤] ﴿أَلَمْ تَرَى﴾ يا رسول الله، ومعناه إفادة العلم بهذا الاستفهام ﴿إلى الذين أُوتُوا﴾ أعطوا ﴿نصيباً من الكتاب﴾ أي بعضاً منه لأنهم بتحريفهم الكتاب قد فقدوا بعضه كما قال سبحانه (وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ) ^(٢) ﴿يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم﴾ يدعوهم الرسول ﷺ إلى كتاب الله ليجعل حكماً بينهم وأن محمداً ﷺ حق أم لا فقد كان في التوراة والإنجيل صفاته ﷺ، ولذا كان يدعوهم إلى تحكيم كتابهم في هذا الأمر لكنهم لم يقبلوا

(١) الفرقان: ٢٤ .

(٢) المائدة: ١٤ .

ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن
تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا
يَفْتَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ
وُوفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ

=====

﴿ثم يتولى فريق منهم﴾ أي يعرض عن تحكيم الكتاب وإنما قال فريق لأن بعضهم دخل في الإسلام بعدما تمت له الدلالة والإرشاد كعبد الله بن سلام وغيره ﴿وهم معرضون﴾ عن الحق وعن كتابهم وفي بعض الأحاديث أن الآية نزلت في مسألة زنا وقعت بين يهودي ويهودية وكان حكمهما الرجم في التوراة ورجعوا إلى الرسول ﷺ لعله يحكم بغير ذلك فحكم الرسول بينهم بما في التوراة فكرهوا ذلك.

[٢٥] ﴿ذلك﴾ الإعراض عن كتابهم وعن أوامر الله سبحانه ﴿ب﴾ سبب ﴿أنهم﴾ أمنوا العقوبة بما لفقوه من الكذب حيث ﴿قالوا لن تمسنا النار﴾ أي نار جهنم على فرض كفرنا وعصياننا ﴿إلا أياماً معدودات﴾ سبعة أيام أو أربعين يوماً وهذه المدة القليلة فلا ينبغي ترك الشهوات والرئاسة لأجلها ﴿وغرهم﴾ أي خدعهم ﴿في﴾ باب ﴿دينهم ما كانوا يفترون﴾ أي الذي افتروا ونسبوه إلى الدين من أن النار أيام معدودة فقط خدعهم وغرهم.

[٢٦] ﴿فكيف﴾ حالهم إذا انكشف غرورهم ﴿إذا جمعناهم ليوم﴾ القيامة الذي ﴿لا ريب فيه﴾ أي ليس محل ارتياب وشك ﴿ووفيت كل نفس

مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ
تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ
تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ
﴿٢٧﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ

ما كسبت ﴿أي يعطى كل إنسان جزاءه وافيًا غير منقوص﴾ وهم لا
يظلمون ﴿بل يجزون على حسب أعمالهم﴾.

[٢٧] وهنا يتوجه السياق إلى كون الملك لله فليس لأهل الكتاب أن يحسدوا
الرسول والمسلمين فيما أوتوا من حول وطول وعزة وملك، وفي
بعض الأحاديث أن الآية نزلت بعد ما بشر الرسول المسلمين بأنهم
يفتحون ملك فارس والروم، فاستهزأ الكفار بذلك وقالوا أنى يكون
لمثل هؤلاء أن يسيطروا على تلك الدولتين العظيمتين ﴿قل﴾ يا رسول
الله ﴿اللهم﴾ أي يا الله، والميم بدل عن حرف النداء ﴿مالك الملك﴾
مالك منصوب على أنه مناد مضاف أي يا مالك الملك فكل شيء لك
وحدك لا شريك وملك من عداك إنما هو مجازي اعتباري ﴿تؤتي﴾
أي تعطي ﴿الملك من تشاء﴾ أن تعطيه ﴿وتنزع الملك ممن تشاء﴾ أن
تنزعه من غير فرق بين أن يكون الملك سلطاناً أو ملكاً لشيء كالدار
والعقار ﴿وتعز من تشاء﴾ أن تعزه عزة ظاهرية أو باطنية بالإيمان
والطاعة ﴿وتذل من تشاء﴾ أن تذله ﴿بيدك الخير﴾ إنك على كل شيء
قدير ﴿فتقدر على الإعطاء والمنع وأن تعز وتذل﴾.

[٢٨] ﴿تولج﴾ أي تدخل ﴿الليل في النهار﴾ فيأخذ الليل مكان النهار، فيما

وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ
 الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٨﴾ لَا يَتَّخِذُ
 الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ
 ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّهُ

=====

ينقص اليوم ويزيد الليل ، أو فيما إذا جاء الليل وذهب النهار ، وهو
 كناية ، إذ ليس الإدخال حقيقة ﴿وتولج النهار في الليل﴾ بأحد المعنيين
 السابقين ﴿وتخرج الحي من الميت﴾ كما يخرج النبات الحي من الحب
 الميت والأرض الميتة ، أو يخرج الجنين الحي من الأم الميتة كما قد
 تموت الأم ويخرج الولد منها حياً ﴿وتخرج الميت من الحي﴾ كما
 يخرج الحب الميت من النبات الحي والبيضة الميتة من الدجاجة والولد
 الميت من المرأة الحية إذا مات الجنين في بطنها ، وفي التأويل إخراج
 المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ﴿وترزق من تشاء﴾ من عبادك
 وخلقك ﴿بغير حساب﴾ أي بغير تقتير كما يقال فلان ينفق بغير حساب ،
 أو بلا حساب من المنفق عليه وإن كان كل شيء عنده تعالى بحساب .

[٢٩] وحيث ثبت أن الملك بيد الله والعزة والذلة منه ف ﴿لا يتخذ المؤمنون
 الكافرين أولياء﴾ بأن يصادق المؤمن الكافر بزعم أنه ينفعه لأن بيد الكافر
 الملك أو أنه يسبب عزته وشوكته ﴿من دون المؤمنين﴾ أي من دون أن
 يتخذ المؤمنين أولياء بل اللازم أن يتخذ المؤمن المؤمن ولياً ، ويتخذ من
 الكافر عدواً ﴿ومن يفعل ذلك﴾ الإتيان للكافر ولياً ﴿فليس من الله في
 شيء﴾ أي ليس ذا قدر عند الله سبحانه ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ أي

وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۖ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٩﴾ قُلْ إِنْ تُخَفُوا
 مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْهُ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
 وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٠﴾ يَوْمَ تَجِدُ
 كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا

=====

تخافوا من الكفار فلا بأس باتخاذهم أولياء تقية ﴿ويحذركم الله نفسه﴾
 أي يخوفكم الله من نفسه فإن من يتخذ الكافر ولياً يشمله عقاب الله
 سبحانه ﴿وإلى الله المصير﴾ أي المرجع فمن عصاه يجازيه بالنار
 والعذاب .

[٣٠] ﴿قل﴾ يا رسول الله للمسلمين ﴿إن تخفوا ما في صدوركم﴾ أي نواياكم
 وما في قلوبكم ، كما لو اتخذتم الكافر ولياً في قلبكم مما لم يعلم به
 الناس ﴿أو تبذوه﴾ أي تظهروه ﴿يعلمه الله﴾ فإنه العالم بالنوايا وما في
 الصدور ﴿ويعلم ما في السماوات وما في الأرض﴾ فهو العالم بكل
 شيء فكيف لا يعلم ما في صدوركم ﴿والله على كل شيء قدير﴾ فهو
 العالم بالنوايا والقادر على العقاب فمن الجدير بالمسلم أن لا يتخذ
 الكافر ولياً أو المؤمن عدواً حتى في قلبه إذ يعلمه الله ويقدر على عقابه .

[٣١] اذكروا أيها الناس ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً﴾ أي
 تجد كل أعماله الخيرية حاضرة كما قال سبحانه (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا
 حَاضِرًا)^(١) ومعنى حضور العمل حضور حساباتها وثوابها وعقابها أو

وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا
وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ^{٣٢} وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣١﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ
تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٢﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ^{٣٣}

=====

تجسم الأعمال كما ذهب إلى ذلك بعض ﴿وما عملت من سوء﴾ أي
تجد أعماله السيئة حاضرة ﴿تود﴾ تلك النفس العاصية ﴿لو أن بينها﴾
أي بين النفس ﴿وبينه﴾ أي بين ما عملت من سوء ﴿أمداً بعيداً﴾ أي
مكاناً بعيداً تشبيه بالأمر المحسوس فكما أن المتباعدين لا يتلاقيان
فعلاً كذلك لو كان العمل السيئ بعيداً عن عامله ﴿ويحذركم الله﴾
نفسه ﴿حتى تخافوا من عقابه فتتقوه﴾ ﴿والله رؤوف﴾ ذو رأفة ورحمة
﴿بالعباد﴾ ومن رأفته يحذركم عن المعاصي حتى لا يأخذكم وبالها
وعاقبتها.

[٣٢] ﴿قل﴾ يا رسول الله ﴿إن كنتم﴾ أيها المسلمون، أو يا أهل الكتاب
﴿تحبون الله﴾ حقيقة وتصدقون في مقاتلكم هذه ﴿فاتبعوني﴾ فيما أمر
الله وأنهى ﴿يحببكم الله﴾ فإن الله لا يحب إلا من اتبع رسوله في
أوامره ونواهيه وإلا مجرد دعوى حب الله بلا شاهد وحقيقة لا يكفي
في حب الله تعالى للمدعي ﴿ويغفر لكم ذنوبكم﴾ فإن من أحسن
واتبع الرسول يغفر ذنبه ويمحي سيئته ﴿والله غفور رحيم﴾ بعباده.

[٣٣] ﴿قل﴾ يا رسول الله ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ وإطاعة الله سبحانه هي
إطاعة الرسول لكن ذكر ذلك تعظيماً للأمر وإردافاً لإطاعة الرسول

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ
وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٤﴾

=====

بذلك كما قال (فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ) ^(١) مع أن خمس الله إنما هو للرسول ويحتمل أن يكون ذكر الله والرسول لإفادة وحدة الجهة أي إن الله والرسول لهما إطاعة واحدة فهو من قبيل أطع العلماء لا من قبيل أطع العالم أو أطع أباك ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وأعرضوا فلم يطيعوا ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ الذين يعرضون عن أوامر الله ورسوله ومعنى لا يحبهم أنه يبغضهم لا النفي للحب فقط المجامع لعدم البغض .

[٣٤] وحيث كان الكلام حول وحدة الدين وأنه هو الإسلام والتعريض بالكفار وأخيراً انتهى المطاف إلى ميزان حب الله سبحانه ناسب السياق ذكر بعض الأفراد الذين اختارهم الله سبحانه أليسوا هم جميعاً قادة دين واحد المنتهي إلى المسلمين فمن اللازم أن يعرفوهم ويقدروهم ، فقال سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ﴾ أي اختار لرسالته ووحيه وجعلهم أنبياء مرشدين ﴿آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الأنبياء الذين من نسله إسحاق وإسماعيل ويعقوب ويوسف وعيسى ومحمد «صلوات الله عليهم أجمعين» ﴿وَآلَ عِمْرَانَ﴾ موسى وهارون ﴿وَعَلَى الْعَالَمِينَ﴾ وإنما خصص هؤلاء الأنبياء ، لكون آدم أبو البشر ، ونوح وآل إبراهيم بما فيهم إبراهيم - فإنه يقال آل فلان للأعم منه ومن آله - وآل عمران الذين فيهم الأنبياء ، أولوا العزم هم مدار الرسالات العالمية .

ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ
عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ
أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

=====

[٣٥] حال كون نوح وآل إبراهيم وآل عمران ﴿ذرية بعضها من بعض﴾ في أداء الرسالة ومناصرة الدين وإرشاد الناس ، فإن من خرج عن دين آبائه ليس منهم كما قال سبحانه (إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ)^(١) بخلاف من اتبع آباءه ﴿والله سميع﴾ لما تقوله الذرية ﴿عليم﴾ بضمايرهم وأعمالهم ولذا فضلهم على من سواهم إن هؤلاء الأنبياء كلهم ذووا خصائص واحدة موروثه من جدهم آدم ﷺ مما تؤهلهم لحمل الرسالة الواحدة التي هي رسالة الإسلام .

[٣٦] وفي هذا الجو يأتي ذكر والدة عيسى ﷺ وأنها كيف كانت طاهرة زكية بحيث أهلت لإيداع النبي العظيم عندها ، اذكر يا رسول الله ﴿إذ قالت امرأة عمران﴾ وهي حنة جدة عيسى ﷺ من الأم ﴿رب إنني نذرت لك ما في بطني محرراً﴾ وذلك حين حملت لم تكن تعلم أنها أنثى فنذرت أن تجعل ما في بطنها لخدمة المسجد ومعنى المحرر الفارغ من الأعمال الدنيوية الصارف جميع أوقاته في خدمة بيت الله سبحانه ، وهكذا كان قلب أم مريم عامراً بالإيمان جاعلة أعز شيء لديها لله وفي خدمة عباد الله ﴿فتقبل مني﴾ نذري ﴿إنك أنت السميع﴾ لدعائي ﴿العليم﴾ بما في ضميري من صدق وإخلاص .

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
 وَضَعْتُ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي
 أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٧﴾ فَتَقَبَّلَهَا
 رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا

=====

[٣٧] ﴿فلما وضعتها﴾ أي وضعت امرأة عمران جنيها خاب ظنها ورأت
 أنها أنثى ف ﴿قالت﴾ في يأس وتبتل ﴿رب إنني وضعتها أنثى﴾
 والأنثى لا تصلح للخدمة ﴿والله أعلم بما وضعت﴾ فإن الله كان
 يعلم ذلك منذ كانت جنيناً في بطنها بينما هي لا تعلم إلا بعد
 الوضع ﴿وليس الذكر كالأنثى﴾ فالذكر يأتي منه الخدمة ولا بأس
 بحشره في مكان العبادة في المسجد بخلاف الأنثى إذ لا تلائم
 الرجال ولا تلائم عاداتها النسائية المسجد، ثم قالت ﴿وإنني سميتها
 مريم﴾ أي جعلت اسمها «مريم» وهي في لغتهم بمعنى العابدة
 ﴿وإنني أعيدها﴾ أي أجعلها في حفظك وحراستك ﴿بك و﴾
 أعيد ﴿ذريتها من الشيطان الرجيم﴾ أي المرجوم باللعن والمطرود
 عن الخير.

[٣٨] ﴿فتقبلها ربها﴾ أي تقبل الله سبحانه مريم مع أنوثتها ﴿بقبول
 حسن﴾ حيث قدر لها السعادة وأن يجعل منها عيسى المسيح ﷺ
 ﴿وأنبتها نباتاً حسناً﴾ أي جعل نشوءها نشأاً حسناً بالفضيلة والأخلاق
 والعفة والطهارة ﴿وكفلها زكريا﴾ أي جعل الله سبحانه كفيها زكريا
 وكان زوج خالة مريم، وهو من أنبياء الله سبحانه فإن أم مريم

كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُ
 أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ
 بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي
 مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾

ذهبت بها إلى المسجد وسلمتها إلى الأحبار فتنازعوا في كفالتها
 حتى اقترحوا عليها وخرجت القرعة باسم زكريا فكانت مريم تخدم
 في صغرها المسجد حتى إذا بلغت مبلغ النساء انفصلت عنهم في
 غرفة خاصة بها بناها لها زكريا في وسط المسجد عالية لا يمكن
 الوصول إليها إلا بسلم وكان يأتي بحوائجها كل يوم وكان من غريب
 أمرها أن ﴿كلما دخل عليها زكريا المحراب﴾ وهي غرفتها وسمي
 محراباً لأنه محل محاربة النفس والشيطان ﴿وجد عندها رزقاً﴾ فأكهة
 في غير حينها ﴿قال يا مريم أنى لك هذا﴾ أي من أين لك هذا
 الرزق ﴿قالت﴾ مريم ﴿هو من عند الله﴾ أرسله إلي الله تعالى من
 الجنة كرامة لي ﴿إن الله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي بغير تقتير
 أو محاسبة من المرزوق.

[٣٩] ﴿هنالك﴾ الذي رأى زكريا إكرام الله سبحانه لمريم نحو خرق
 العادة من إرسال الفاكهة إليها ﴿دعا زكريا ربه قال رب هب لي من
 لدنك﴾ أي من عندك ﴿ذرية طيبة﴾ أي نسلًا صالحاً ﴿إنك سميع
 الدعاء﴾ وكان زكريا يائساً من الأولاد حيث كبر وشاخ
 وكانت امرأته عاقراً لكن طلب ودعا مريداً على وجه الإعجاز
 وخرق العادة.

قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤١﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي
 آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا
 وَادَّكُرَ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤٢﴾ وَإِذْ قَالَتِ
 الْمَلَائِكَةُ يَمْرِيئِمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ

=====

ليس لها قابلية الولادة ﴿قال﴾ الملك في جوابه ﴿كذلك﴾ أي كالحال
 الذي أنتما عليه من الكبر والعقر ﴿الله يفعل ما يشاء﴾ فإنه قادر على
 كل شيء .

[٤٢] ﴿قال﴾ زكريا عليه السلام ﴿رب اجعل لي آية﴾ أي علامة أعرف بها وقت
 الحمل لأزيد شكراً وسروراً أو علامة أعرف بها استجابة دعائي
 ليطمئن قلبي وأجده محسوساً ملموساً بعدما وجدته سماعاً بالبشارة
 ﴿قال﴾ الملك، أو الله سبحانه بخلق الصوت في الفضاء ﴿آيتك﴾
 أي الدليل على ذلك ﴿أن لا تكلم الناس﴾ أي لا تقدر على التكلم
 معهم كلما توجهت إليهم بالكلام يعقد لسانك ﴿ثلاثة أيام إلا رمزا﴾
 بالإشارة باليد والرأس ﴿واذكر ربك كثيراً﴾ فإن لسانك لا ينعقد
 عن الذكر والتسبيح لله سبحانه ﴿وسبح﴾ أي نزه الباري تعالى
 ﴿بالعشي﴾ آخر النهار ﴿والإبكار﴾ أول النهار، من أبكر فهو اسم
 مفرد لا جمع .

[٤٣] ثم رجع السياق إلى بقية قصة مريم عليها السلام حيث كانت قصة
 زكريا عليه السلام توسطت في الموضوع لمناسبة ﴿و﴾ اذكر يا رسول الله
 ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاكِ اختارك لعبادته وإطاعته
 وأن تكوني وعاءاً لنبيه ﴿وطهرك﴾ من الآثام والذنوب والأدناس

وَأَصْطَفَاكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ يَمْرِيءُ أَقْنِي لِرَبِّكَ
وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٤﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ
نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ
يَكْفُلُ مَرِيماً

=====

والعادات النسائية ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾ وكرر الاصطفاء تأكيداً ومقدمة لذكر نساء العالمين فليس الاختيار لها في جملة مختارات وإنما هي مختارة على سائر نساء زمانها وعوالمها لا كل العالمين فإن فاطمة عليها السلام هي المختارة المطلقة على جميع النساء وقد تقدم أن مثل هذه العبارة تقال مراداً بها العوالم المعاصرة لا كل العوالم كما يقال إن الدولة الفلانية أقوى جميع الدول يراد الدول المعاصرة لها لا كل دولة في العالم أتت أو تأتي .

[٤٤] ﴿يا مريم اقنتي﴾ القنوت الخضوع والإخلاص في العبادة ﴿لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ أي في جملة الذين يركعون لله سبحانه .

[٤٥] ﴿ذلك﴾ الذي تقدم من قصص مريم وزكريا ويحيى ﴿من أنباء الغيب﴾ أي الأخبار الغائبة عن الحواس فإن كل شيء غاب عن الحواس يسمى غيباً ﴿نوحيه إليك﴾ أي نلقيه عليك ليدل على أنك من المرسلين فإن الإخبار عما لم يحضره الإنسان ولم يعلمه من طريق التاريخ يدل على كونه بالإعجاز وخالق للعادة ﴿وما كنت﴾ يا رسول الله ﴿لديهم﴾ أي عند الأخبار والمعاصرين لمريم عليها السلام ﴿إذ يلقون أقلامهم﴾ التي بها كانوا يكتبون التوراة ﴿أيهم يكفل مريم﴾ فإن زوجة

وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ
يَمْرِيُمْ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٦﴾ وَيُكَلِّمُ
النَّاسَ فِي الْمَهْدِ

عمران لما أتت بمريم إلى المسجد اختلفت الأخبار في من يكفلها
لأنها كانت بنت إمامهم وصاحب قربانهم فقال لهم زكريا: أنا أحق بها
لأن خالتي عندي فقال له الأخبار: إنها لو تركت لأحق الناس بها
لتركت لأُمها التي ولدتها ولكن نقترح عليها فتكون عند من خرج
سهمه، فانطلقوا وهم تسعة وعشرون رجلاً إلى نهر جار فألقوا
أقلامهم في الماء فأبرز قلم زكريا وارتفع فوق الماء ورسبت أقلامهم
ولذا أخذها زكريا ﴿وما كنت لديهم إذ يختصمون﴾ في شأنها وأن
أيهم يكفلها.

[٤٦] واذكريا رسول الله ﷺ ﴿إذ قالت الملائكة﴾ مخاطبة لمريم ﷺ ﴿يا
مريم إن الله يبشرك بكلمة منه﴾ أي بولد هو كلمة الله تلقى عليك
ويخرج منك بصورة عيسى المسيح ﷺ ﴿اسمه المسيح عيسى بن
مريم﴾ قيل سمي مسيحاً لأنه كان يمسح الأرض ويسير فيها، وذكر
في الكلام أمه دحساً لمن يفترى قائلاً: أنه ابن الله، في حال كونه
﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة﴾ أي ذا جاه وقدر وشرف ﴿ومن
المقربين﴾ لله تعالى قرب شرف وجاه لا زمان ومكان.

[٤٧] ﴿ويكلم الناس في المهد﴾ أي في حال كونه صغيراً قبل أوان تكلم

وَكَهَلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٧﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ
وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ
أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٨﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٩﴾

الأطفال والمهد هو الموضع الذي يوضع فيه الطفل ويهز من خشب أو
حديد أو ثوب أو نحوها ﴿وكهلاً﴾ أي يكلمهم كهلاً بالوحي والكهل
ما بين الشاب والشيخ أو يراد الإخبار عن بقائه إلى ذلك الوقت ﴿ومن
الصالحين﴾ الذين فيهم الصلاح دون الفساد.

[٤٨] ﴿قالت﴾ مريم لما سمعت هذا النبأ المدهش ﴿رب أنى يكون لى
ولد﴾ أي كيف يمكن أن ألد ولداً ﴿ولم يمسسني بشر﴾ أي لم يقترب
مني على نحو النكاح فإنها كانت دون زوج ﴿قال﴾ الملك في جواب
مريم ﴿كذلك﴾ أي هكذا بدون المس والزوج ﴿الله يخلق ما يشاء﴾
فإنه ليس بخارج عن قدرة الله سبحانه ﴿إذا قضى أمراً﴾ أراد خلقه
وتكوينه ﴿فإنما يقول له كن﴾ قولاً أو إرادة بدون تلفظ ﴿فيكون﴾ في
الخارج، فإن الله يوجد الأشياء بصرف الإرادة.

[٤٩] ﴿ويعلمه﴾ أي يعلم الله سبحانه المسيح ﴿الكتاب﴾ أي الكتابة أو
مطلق الكتاب المنزل من السماء ﴿والحكمة﴾ حتى يكون حكيماً
يعرف مواضع الأشياء أو المراد بالحكمة علم الشرائع من الحلال
والحرام وسائر الأحكام ﴿والتوراة﴾ وهو كتاب موسى عليه السلام
﴿والإنجيل﴾ وهو الكتاب الذي أنزل على المسيح بنفسه وقد ذكروا

وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
 أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ
 فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي
 الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي
 بُيُوتِكُمْ

أن معنى التوراة «التعليم والبشارة» ومعنى الإنجيل «البشارة والتعليم».

[٥٠] ﴿و﴾ نجعله ﴿رسولاً إلى بني إسرائيل﴾ لإرشادهم من الضلالة إلى الحق، وانتقل السياق إلى كلام عيسى عليه السلام الذي كان يتكلم به بعد النبوة، فكان يقول لبني إسرائيل ﴿أنني قد جئتكم بآية من ربكم﴾ أي بمعجزة وعلامة تدل على صدق دعواتي للنبوة وأني رسول إليكم ﴿أنني أخلق لكم﴾ أي أصنع لأجلكم ﴿من الطين كهية الطير﴾ أي على صورة الطائر ﴿فأنفخ فيه﴾ أي في الطائر المصنوع من الطين ﴿فيكون طيراً بإذن الله﴾ وإرادته وقدرته، فصنع صورة خفاش من الطين ونفخ فيه فطار ﴿وأبرئ﴾ أي أشفي ﴿الأكمه﴾ الذي ولد أعمى، أو مطلق الأعمى ﴿والأبرص﴾ الذي أصيب بمرض البرص وهو الوضح ﴿وأحيي الموتى﴾ كل ذلك ﴿بإذن الله﴾ فكان يقف على القبر ويقول للميت قم بإذن الله فيقوم ينفض عن جسمه الغبار كأنه لم يمّت أصلاً ﴿وأنبئكم﴾ أي أخبركم ﴿بما تأكلون﴾ إخباراً عن الغيب ﴿وما تدخرون﴾ من الادخار ﴿في بيوتكم﴾ فكان يقول

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٠﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا
بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحَدٍ لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ
عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

للشخص تغذية بكذا أو حفظت لليل كذا ﴿إن في ذلك﴾ الذي ذكرت من المعجزات ﴿لآية﴾ معجزة دالة على صدقي ﴿لكم إن كنتم مؤمنين﴾ بالله وإنما يقيد بالإيمان لأن من لا يؤمن بالله سبحانه لا يمكن أن يفرق بين المعجزة والسحر.

[٥١] ﴿و﴾ ذلك في حال كونه ﴿مصدقاً لما بين يدي﴾ أي ما تقدم علي وأنزل قبلي ﴿من التوراة﴾ فإنه من أسباب لزوم تصديقي حيث لا أبطل كتاب بني إسرائيل ﴿ولأحل لكم﴾ يا بني إسرائيل ﴿بعض الذي حرم عليكم﴾ في شريعة موسى ﷺ وهذا التحليل إنما كان لانقضاء ظرف التحريم ﴿وجئتكم بآية من ربكم﴾ أي بحجة تشهد بصديقي وأني من قبل الله سبحانه، وهي إما إجمال لما فصل في الآية السابقة، جمعاً لأعماله ﷺ في الأمور الثلاثة، التصديق، والتحليل، والإعجاز، وإما يراد به آية أخرى لم تذكر في القرآن ﴿فاتقوا الله﴾ وصدقوا برسالتي ﴿وأطيعون﴾ فيما أمركم به وأنهاكم عنه.

[٥٢] ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فلست أنا ابناً له ، قال ذلك ردّاً على النصارى الذين اتخذوه إلهاً ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده ولا تعبدوا من دونه الشركاء كما عبدت اليهود عزيزاً ، وعبدت النصارى المسيح ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ط
 قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا
 مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ
 فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٤﴾

=====

لا اعوجاج له ولا انحراف بخلاف سائر الطرائق التي هي طرق معوجة
 منحرفة زائغة .

[٥٣] وبعد هذه الحجج لم يزد بني إسرائيل إلا عناداً واستكباراً ﴿فلما
 أحس﴾ من الحس أي وجد ﴿عيسى﴾ ﷺ ﴿منهم الكفر﴾ وأنه لم
 تنفعهم الحجة والدليل ﴿قال من أنصاري إلى الله﴾ الذين ينصرون ديني
 للوصول إلى ثواب الله تعالى إذ المسلم يقطع طريق الوصول إلى الله
 لينتهي إلى ثوابه ﴿قال الحواريون﴾ هو جمع حواري من الحور بمعنى
 شدة البياض وسمي خاصة الإنسان بالحواري لنقاء قلبه وصفاء باطنه
 ﴿نحن أنصار الله﴾ الذين ننصر دينه ونتابعك على ما أنت عليه
 ﴿آمنّا بالله﴾ إيماناً لا يشوبه شرك ﴿واشهد﴾ يا عيسى ﴿بأنّا مسلمون﴾
 في أدياننا .

[٥٤] ثم توجهوا إلى الله سبحانه داعين قائلين ﴿ربنا﴾ أي يا ربنا ﴿آمنّا بما
 أنزلت﴾ على رسولك عيسى ﷺ ﴿واتبعنا الرسول﴾ فيما أمر ونهى
 ﴿فاكتبنا مع الشاهدين﴾ الذين يشهدون على الأمم كما قال سبحانه
 ﴿لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾^(١) فالرسل

وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٥﴾ إِذْ قَالَ
اللَّهُ يَٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ

شهداء على أصحابهم وهم شهداء على سائر الناس .

[٥٥] ذلك كان قول أنصار عيسى والمؤمنين به أما الكفار الذين جحدوه وأنكروه فلم يؤمنوا ﴿ومكروا﴾ لعيسى ﷺ بأن يقتلوه ﴿ومكر الله﴾ بإنقاذه منهم وقتل كبيرهم عوضه ، والمكر لغة بمعنى تطلب العلاج لأمر ما والغالب يستعمل في الشر ، ولعل نسبة المكر هنا إلى الله سبحانه للمقابلة نحو قوله (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ)^(١) مع أن الله سبحانه ليس له نفس ﴿والله خير الماكرين﴾ لأنه أعرف بطرق العلاج ، وفي بعض التفاسير أنه لما أراد ملك بني إسرائيل قتل عيسى ﷺ دخل خوخته وفيها كوة فرفعه جبرائيل من الكوة إلى السماء وقال الملك لرجل خبيث من الكفار ادخل عليه فاقتله فدخل الخوخة فألقى الله عليه شبه عيسى ﷺ فخرج إلى أصحابه يخبرهم أنه ليس في البيت فقتلوه بظن أنه عيسى وكان قتله على نحو الصلب وكلما صاح أنه ليس بعيسى لم يفد .

[٥٦] واذكر يا رسول الله ﴿إذ قال الله﴾ أو ذاك إذ قال ، أو ومكر الله إذ قال ﴿يا عيسى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي آخذك وافيأ فإن معنى توفاه أخذه وافيأ ويقال توفى الله فلان حين يأخذ روحه وافية من الوفاء وهو في أخذ الروح والجسد أقرب إلى الحقيقة من أخذ الروح فقط فإنه

وَرَأَفُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلَفُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا

بعلاقة الكل والجزء أي آخذك ﴿ورافعك إلي﴾ فإنه عليه رفع إلى السماء الرابعة كما في بعض الأحاديث وقد يظن أن ذلك ينافي ما اشتهر في العلم الحديث من عدم وجود سماوات ذات حجوم لكنه ظن غير تام إذ السماء حتى لو كان يراد بها المدار - كما هو معناه لغة - تكون هناك سماوات وللتوضيح راجع «الهيئة والإسلام» تأليف «العلامة الشهرستاني» ﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾ فإنهم أرجاس أنجاس فكما أن الجسم المحاط بالنجاسة إذا غسل يطهر عنها كذلك إن الإنسان الطيب في أناس كفرة عصاة إذا أخرج من بينهم كان تطهيراً له في المعنى عن لوثهم وكفرهم ﴿وجاعل الذين اتبعوك﴾ من النصارى ﴿فوق الذين كفروا﴾ بك من اليهود ﴿إلى يوم القيامة﴾ وهذا من معاجز القرآن الحكيم فإن النصارى دائماً فوق اليهود إلى يومنا هذا وسيكونون كذلك إلى يوم القيامة ﴿ثم إلي مرجعكم﴾ جميعاً أنت وأصحابك الكفار ، وذلك يوم القيامة ﴿فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾ من التوحيد والشرك ومن كونك نبياً وسائر الأصول والفروع التي كنت تنادي بها وتبشر من أجلها وكان اليهود يكفرون بها .

[٥٧] ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك وبما جئت به ﴿فَاعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا﴾

وَالْآخِرَةُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ
الْحَكِيمِ ﴿٥٩﴾

بضرب الذلة والمسكنة عليهم وإنهم دائماً تحت حكم أصحابك وأنه
لا تقوم لهم دولة إلا بحبل من الله وحبل من الناس وإنهم مكروهون
منفوروون أبد الآبدين ﴿والآخرة﴾ بإدخالهم ناراً أحاطت بهم سراقها
وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل ﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم
من بأس الله وعذابه .

[٥٨] ﴿وأما الذين آمنوا﴾ بك وبما بشرت به ﴿وعملوا الصالحات﴾ مما
أمرناهم به واجتنبوا عن المحرمات ، فإنه لا يقال يعمل فلان
الصالحات إلا إذا اجتنب الآثام إلى جنب إتيانه بالواجبات ﴿فيوفيههم﴾
أي يعطيهم الله ﴿أجورهم﴾ كاملة غير منقوصة فإن الوفاء إعطاء
المطلوب كاملاً ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ الذين ظلموا بالكفر أو
بعدم العمل الصالح .

[٥٩] ﴿ذلك﴾ المذکور هنا من أخبار زكريا وعيسى ويحيى ومريم عليهن السلام
﴿نتلوهُ عليك﴾ أي نقرأه عليك بسبب الوحي ﴿من الآيات﴾ أي من
جملة الآيات والحجج الدالة على صدقك وأنت نبى يوحى إليه ﴿و﴾
من ﴿الذكر﴾ إي القرآن ﴿الحكيم﴾ المحكم الذي لا يتطرق إليه
بطلان أو زيغ .

إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ
 قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٠﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ
 ﴿٦١﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ

[٦٠] وهنا تنهياً النفوس لإدراك حقيقة عيسى هل كان بشراً وكيف ولد من غير أب فقال سبحانه ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ فليس ولادة عيسى من غير أب عجيباً وبدعاً ولا يدل ذلك على أنه رب، فأدم أعجب منه أليس الله سبحانه ﴿خَلَقَهُ﴾ أي خلق آدم ﴿مِنَ تُرَابٍ﴾ صنعه وجسده ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ إنساناً حياً ﴿فَيَكُونُ﴾ كما قال ومقتضى القاعدة أن يقال «فكان» إلا أن هذه الجملة أخذت صيغة المثالية نحو الصيف ضيعت اللبن، ولذا يؤتى بها على لفظها وقد تقدم أن كلمة «كن» تعبر عن الإرادة الأزلية لا أن في اللفظ خصوصية.

[٦١] ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ يا رسول الله أي أن قصة عيسى هكذا أو خلقه كذلك حق من ربك ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي من الشاكين فإن امتري بمعنى شك والخطاب وإن كان للرسول لكنه عام لكل أحد، ومن المعلوم أن توجيه الخطاب لا يلزم احتمال وجود الصفة، وإنما أكد البيان بجملة «فلا تكن» لكثرة الشك والتشكيك لدى الناس في مختلف شؤون عيسى ﷺ.

[٦٢] ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ﴾ وجادلِكَ يا رسول الله ﴿فِيهِ﴾ أي في عيسى قائلًا أنه ليس بشراً وإنما هو رب انفصل عن الرب، ونزلت الآية في وفد نجران من المسيحيين الذين جاءوا للمجادلة مع الرسول ﷺ ولم تنفعهم الحجة والدليل فقرر الطرفان أن يخرجوا إلى الصحراء ليدعو

مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ
وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ
لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦٢﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ

كل من الطرفين على الكاذب فخرج الرسول ﷺ يوم الموعد مع علي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ فلما رأتهم النصارى أحجموا وقال كبيرهم: إني لأرى وجوهاً لو سألوها الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة وقال الرسول ﷺ: والذي نفسي بيده لو لاعنوني لمسخوا قردة وخنازير ولاضطرم الوادي عليهم ناراً، ولما حال الحول على النصارى حتى يهلكوا ﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ حول قصة عيسى ﷺ ﴿فقل﴾ لهم يا رسول الله ﴿تعالوا﴾ أي هلموا إلى حجة أخرى ليست محل نقاش وجدال ﴿ندع﴾ أي يدعو كل طائفة منا ﴿أبنائنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا﴾ أي من هو بمنزلة أنفسنا ﴿وأنفسكم﴾ أي من هو بمنزلة أنفسكم، والمراد دعوة كل طرف خواصه ومن يقترب إليه من الأبناء والنساء ومن هو بمنزلة نفسه ﴿ثم نبتهل﴾ الابتهاال طلب اللعنة من الله سبحانه أي تدعو كل طائفة على الأخرى قائلين: لعن الكاذب، وقد يستعمل الابتهاال بمعنى مطلق الدعاء خيراً كان أو شراً ﴿فنجعل﴾ في ابتهاالنا ﴿لعنة الله على الكاذبين﴾ وقد أجمع المفسرون أن الرسول ﷺ لم يخرج معه إلا ابنه الحسن والحسين وبنته فاطمة وابن عمه علياً ﷺ.

[٦٣] ﴿إن هذا﴾ الذي أوحينا إليك في أمر عيسى وغيره ﴿لهو القصص﴾

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٥﴾ يٰٓأَهْلَ
 الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِيٓ إِِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ
 وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾ هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ
 حَاجِّجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ

=====

اتخاذ الأحرار والرهبان آلهة في الإطاعة فيما خالف الله سبحانه كما
 قال : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا) ^(١) ﴿فإن تولوا﴾ أي أعرضوا
 عن ذلك ﴿فقولوا﴾ لهم ﴿اشهدوا بأنا مسلمون﴾ لله وحده نتبع طريقه
 ولا نبتغي غير الإسلام ديناً.

[٦٦] وقد كان أهل الكتاب يقولون أن إبراهيم كان على ديننا فاليهود منهم
 كانوا يقولون أنه ﷺ كان يهودياً والنصارى منهم كانوا يقولون
 أنه ﷺ كان مسيحياً فقال سبحانه في ردهم ﴿يا أهل الكتاب لم﴾ أي
 لماذا ﴿تُحَاجُّونَ﴾ وتجادلون ﴿في إبراهيم﴾ ﷺ وتنسبوه إلى
 اليهودية والنصرانية ﴿و﴾ الحال أنه متقدم زماناً على كلا الدينين ،
 فإبراهيم جد موسى وعيسى وهو سابق عليهما بقرون فإنه ﴿ما أنزلت
 التوراة﴾ على موسى ﴿والإنجيل﴾ على عيسى ﴿إلا من بعده﴾ أي بعد
 إبراهيم ﴿أفلا تعقلون﴾ أليس لكم عقل حتى تعرفون التاريخ .

[٦٧] ﴿ها﴾ تفيد التنبيه ﴿أنتم هؤلاء﴾ يا معشر أهل الكتاب
 ﴿حاججتم﴾ وجادلتم ﴿فيما لكم به علم﴾ مما تعلمون كالقبلة

فَلِمَ تَحَاجُّونَ فِي مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ
حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ
بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ

ونحوها ﴿فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم﴾ إذ لا تعلمون تاريخ إبراهيم وتجادلون في أنه كان يهودياً أو نصرانياً ﴿والله يعلم﴾ تاريخ إبراهيم ودينه ﴿وأنتم لا تعلمون﴾ فما هذه المخاصمة والمجادلة.

[٦٨] ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ فَإِنِهَا طَرِيقَتَانِ مُتَاخِرَتَانِ انْحَرَفَا عَنْ سُنَنِ الْأَنْبِيَاءِ حَتَّى أَنْ الْمَسِيحَ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَكُونَا مُتَصِفِينَ بِهَاتَيْنِ الْمَلَتَيْنِ ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾ مُسْتَقِيمًا فِي دِينِهِ لَا مُنْحَرَفًا ﴿مُسْلِمًا﴾ لَمَّا تَقَدَّمَ مِنْ أَنْ الْإِسْلَامَ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ كَشَرِكِ الْيَهُودِ الَّذِينَ جَعَلُوا عَزِيرَ ابْنِ اللَّهِ وَشَرِكِ النَّصَارَى الَّذِينَ جَعَلُوا الْمَسِيحَ إِلَهًا أَوْ ابْنَ اللَّهِ .

[٦٩] كانت اليهود تقول نحن أولى بإبراهيم لأنه على ديننا وكانت النصارى تقول مثل ذلك فنزلت ﴿إِن أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ الذي يحق أن يفخر به ويقول أنا على طريقته وأنه رئيس الملة لي ﴿لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ في زمانه وبعده إذ التابع يحق له أن يفخر برئيسه ومتبوعه لا من يتبع غيره كاليهود والنصارى الذين خالفوا إبراهيم ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ عطف على «الذين اتبعوه» فإن هذا النبي والمؤمنين هم الذين اتبعوا إبراهيم وهم على ملته فإن ملته التوحيد وخلع الأنداد ﴿وَاللَّهُ وَلِي

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٩﴾ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ
وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَأَهَّلَ
الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧١﴾
يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ

المؤمنين ﴿ يلي أمورهم وينصرهم على عدوهم .

[٧٠] ﴿ودت﴾ أي أحبت ورغبت ﴿طائفة من أهل الكتاب﴾ أي جماعة منهم فإن كثيراً من أهل الكتاب لم يكن يعينهم هذه الأمور ﴿لو يضلونكم﴾ عن دينكم حتى تدخلوا في دينهم أو ترجعوا كفاراً ﴿وما يضلون﴾ هؤلاء ﴿إلا أنفسهم﴾ فإنهم بتركهم الإسلام والتزامهم أديانهم المنحرفة سببوا ضلالاً لأنفسهم، أو المراد أنه لا يرجع وبال إضلالهم إلا على أنفسهم حيث يوجب ذلك لهم خزيًا في الدنيا وعذاباً في الآخرة ﴿وما يشعرون﴾ أي ما يعلمون أنهم أضلوا أنفسهم أو ما شعروا بأنه رجوع وبال إضلالهم إلى أنفسهم .

[٧١] ﴿يا أهل الكتاب﴾ هم اليهود والنصارى، والمجوس وإن كانوا أهل الكتاب إلا أن هذه المباحثات كانت مع الطائفتين فقط كما يستفاد من سياق الآيات ﴿لم﴾ أي لماذا ﴿تكفرون بآيات الله﴾ بدلائله وحججه التي أقامها على التوحيد والرسالة وسائر الأمور ﴿وأنتم تشهدون﴾ بلزوم الإقرار بها شهادة فيما بينكم، أو شهادة حسب كتبكم الدالة على التوحيد ورسالة محمد ﷺ وسائر الأمور المختلف فيها .

[٧٢] ﴿يا أهل الكتاب﴾ وخطابهم بهذا الخطاب إشعار بأنهم ينبغي أن

لَمْ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٢﴾
وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ
ءَامِنُوا وَجَهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٣﴾

لا يكونوا كذلك إذ هم أهل العلم والدراية وفيهم نزل كتاب الله سبحانه ﴿لم﴾ أي لماذا ﴿تلبسون الحق بالباطل﴾ أي تخلطون الحق بالباطل ففي أعمالكم قسم من الحق وقسم من الباطل فالإيمان بموسى وعيسى حق والكفر بمحمد ﷺ باطل وهكذا بعض كتابهم حق وبعضه الذي حرفوه باطل ﴿وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ أي تعلمون أنه حق فقد كان علماؤهم يكتمون صفات الرسول ﷺ حتى لا يميلوا نحوه وتذهب رئاستهم.

[٧٣] وقد صدرت مكيدة من أهل الكتاب لتضليل الناس وأن لا يتعلقوا بدين الإسلام، حيث يظهرون عملاً يصورهم عند الناس في صورة المنصف وأنهم إنما لم يتبعوا الإسلام لأنهم لم يجدوه حقاً ﴿وقالت طائفة﴾ أي جماعة ﴿من أهل الكتاب﴾ بعضهم لبعض ﴿آمنوا﴾ أي أظهروا الإيمان ﴿بالذي أنزل على الذين آمنوا﴾ أي بالقرآن ﴿وجه النهار﴾ أي أول الصبح، فقولوا إنا آمننا بمحمد وكتابه لأننا وجدناه في كتبنا ﴿واكفروا آخره﴾ أي آخر النهار فقولوا بعد أن آمننا رجعنا إلى صفات محمد ثانياً فوجدناها ليست كما ذكر في كتابنا، فإن هذا العمل يريكم في أعين الناس منصفين حيث آمنتم بمحمد بمجرد علمكم بحقيقته، وإنما رجعتكم حيث ظهر لكم عدم الحقيقة، فتوهمون الناس أنكم منصفون صادقون تريدون الحق ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي لعل هذا

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن
يُؤْتِيَ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ
الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٤﴾

العمل الخداعي يسبب رجوع المسلمين عن إسلامهم حيث يوجب ذلك تشكيكاً لهم .

[٧٤] ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ أي لا تظهروا الإيمان ﴿إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ فإيمانكم وجه النهار يكون عند أهل الكتاب لا عند المسلمين، أو لا تؤمنوا إيماناً صادقاً من قلوبكم إلا لأهل الكتاب، فلا تؤمنوا للمسلمين، ومعنى الإيمان لمن تبع دينهم أنهم يؤمنون بمثل ما آمن أهل الكتاب ﴿قُلْ﴾ لهم يا رسول الله ﴿إِنَّ الْهُدَى﴾ الحقيقي ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ لا هذا الهدى الاصطناعي الذين يريدون به خداع أصحابكم والمسلمين فلسنا في حاجة إلى هداكم كما لا نخاف من إضلالكم فإن الله إذا هدى شخصاً لا يرجع بخداعكم، ثم يرجع السياق إلى كلام اليهود بعضهم لبعض، ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا﴾ أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ﴿فَإِنَّمَا أُوتِيتُمْ أَيُّهَا الْيَهُودُ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا أُوتِيَ غَيْرُكُمْ﴾ فلا يكن إيمانكم بمحمد ﷺ إيماناً عن قلب أو صدق ﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي لا تؤمنوا أن يحاجكم المسلمون عند ربكم بمعنى أنه لا يمكن أن يكون ذلك إذ المحاجة لا تكون من المبطل - والمسلم مبطل بزعمهم - ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ردأ على قولهم «أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم» ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ فأى مانع من أن يعطي المسلمين مثل ما أعطى اليهود وأفضل منه ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ الفضل لا ينفد فضله بإعطائه لأحد ﴿عَلِيمٌ﴾ بمصالح الخلق

يَخْصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٥﴾
وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ
مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَنَ سَبِيلٌ

يعلم حيث يجعل رسالته .

[٧٥] ﴿يَخْصُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ فإن
فضله يبتدئ بالخلق وينتهي إلى حيث لا قابلية فوقه .

[٧٦] وقد جمع بعض أهل الكتاب إلى تلك الرذائل السابقة رذيلة الخيانة
﴿ومن أهل الكتاب﴾ أي بعض أهل الكتاب - والمراد به من آمن منهم
كعبد الله بن سلام - ﴿من إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ﴾ أي تجعله أميناً
على قنطار من مالٍ لا يخونه بل يؤديه إليك عند المطالبة، وقد ورد أن
عبد الله بن سلام أودعه رجل ألفاً ومائتي أوقية من ذهب فأداه إليه
فمدحه الله بهذه الآية ﴿ومنهم من إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ﴾ أي تجعله أميناً على
مالٍ قليل كدينار ﴿لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ﴾ عند المطالبة فإن رجلاً من قريش
استودع «فخاص» ديناراً فخانته ولم يردده إليه ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾
بالضغط والإلحاح والمراقبة ﴿ذلك﴾ الاستحلال والخيانة منهم لأموال
الناس ﴿بـ﴾ سبب ﴿أنهم﴾ أي الخائن من أهل الكتاب ﴿قالوا ليس
علينا في الأميين سبيل﴾ أي لا سبيل ولا غضاضة علينا في استحلالنا
أموال الأميين أي العرب حيث أنهم خرجوا عن دينهم أي غير الشرك
وقد أودعونا حال شركهم فإذا رفضوا طريقتهم إلى الإسلام سقط

وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ
بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ
بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ

حقهم كذا كانوا يقولون وينسبونه إلى كتبهم ﴿ويقولون على الله الكذب﴾ فإنه ليس ذلك في كتبهم، بل اللازم أداء الأمانة إلى البر والفاجر ﴿وهم يعلمون﴾ أنهم يكذبون على الله وأن عدم الأداء خيانة ورذيلة.

[٧٧] ﴿بلى﴾ فيه نفي لما قبله وإثبات لما بعده أي لم يجز الله الخيانة بل أوجب الأداء ف ﴿من أوفى بعهده﴾ وأدى الأمانة التي عنده ﴿واتقى﴾ من عذاب الله في الخيانة وغيرها ﴿فإن الله يحب المتقين﴾ لا الخائنين الكاذبين.

[٧٨] ﴿إن﴾ من يأكل الأمانة ويكذب على الله فقد باع دينه بثمان قليل و ﴿الذين يشترون﴾ مقابل ﴿عهد الله﴾ الذي هو الكتاب والدين ﴿و﴾ بـ ﴿أيمانهم﴾ أي أقسامهم الكاذبة التي يحلفون بها لأجل الباطل ﴿ثمناً قليلاً﴾ وقد تقدم أن الأمور الدنيوية مهما عظمت فإنها قليلة بالنسبة إلى الآخرة ﴿أولئك لا خلاق لهم في الآخرة﴾ أي لا نصيب لهم من رحمة الله وجنته في الآخرة ﴿ولا يكلمهم الله﴾ كلام لطف وحنان وهو كناية عن غضب الله عليهم كما أن من غضب على شخص لا يكلمه ﴿ولا ينظر إليهم﴾ أي لا يعمهم بلطفه وإحسانه وهو كناية أخرى عن

يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾

=====

الغضب كالذي يغضب على شخص فلا ينظر إليه ﴿يوم القيامة﴾ ذلك اليوم الذي يحتاج كل أحد إلى فضله وإحسانه تعالى ﴿ولا يزكيهم﴾ أي لا يطهرهم من الدنس فإن قلب الخائن الكاذب أقذر ما يكون فلا يشمل الله سبحانه بلطفه الخاص الذي يلطف به على المؤمنين ﴿ولهم عذاب أليم﴾ أي مؤلم موجه .

[٧٩] ﴿وإن منهم﴾ أي بعض أهل الكتاب ﴿لفريقاً﴾ أي جماعة ﴿يلوون ألسنتهم بالكتاب﴾ أي يطوون ألسنتهم عند قراءة الكتابة وطي لسانهم إنما هو بالزيادة والنقيصة فكما أن لي الشيء يخرجني عن الاستقامة بالزيادة في جانب والنقيصة في جانب كذلك لي اللسان بالكتاب، فإنهم أضافوا على التوراة والإنجيل في مواضع ونقصوا منهما في مواضع ﴿لتحسبوه﴾ أيها المسلمون ﴿من الكتاب﴾ فيكون شاهداً لأباطيلهم المخترعة ﴿وما هو من الكتاب﴾ بل من إضافاتهم وتحريفاتهم ﴿ويقولون هو﴾ ما يتلونه باسم الكتاب ﴿من عند الله﴾ تعالى ﴿وما هو من عند الله﴾ بل من مخترعاتهم الكاذبة ﴿ويقولون على الله الكذب﴾ في نسبتهم ذلك التحريف إليه سبحانه ﴿وهم يعلمون﴾ أنه ليس من الكتاب وأنهم كاذبون .

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ
ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ
كُونُوا رَبَّيَكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ
تَدْرُسُونَ ﴿٨٠﴾

[٨٠] وحيث أنه كان من أظهر تلك التحريفات تحريفهم حول المسيح عليه السلام وادعائهم أنه شريك مع الله وأن ذلك موجود في كتابهم، ردهم الله سبحانه بأن ذلك مستحيل في حق المسيح، لأن الله سبحانه لا يعطي النبوة لرجل كاذب يدعي لنفسه الربوبية فإنه ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله﴾ أي يعطيه ﴿الكتاب والحكم﴾ بين الناس ﴿والنبوة﴾ والرسالة ﴿ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله﴾ أي اعبدونني دونه سبحانه، أو المراد اعبدونني معه، فإن عبادة الشريك عبادة لمن دون الله، ولأن الشرك معناه عدم عبادة الله إطلاقاً إذ الله لا شريك له، فمن له شريك ليس هو بإله، وفي بعض التفاسير أن سبب نزول هذه الآية أن يهودياً سأل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ونزلت الآية ﴿ولكن﴾ اللازم على الرسول أن يقول للناس ﴿كونوا ربانيين﴾ منسوبيين إلى الرب ترشدون الناس إلى التوحيد وتعبدون إلهاً واحداً ﴿ب﴾ سبب ﴿ما كنتم﴾ أي كونكم ﴿تعلمون﴾ للناس ﴿الكتاب﴾ الذي أخذتموه من نبيكم ﴿وبما كنتم تدرسون﴾ أي بسبب درسكم إياه يعني أن الرسول يقول للناس إنكم بسبب كونكم علماء معلمين مدرسين يجب أن تكونوا ربانيين منسوبيين إلى الرب فقط لا إلى غيره من الأنداد والشركاء.

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ
بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ
النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ

=====

[٨١] ﴿ولا﴾ يكون للنبي أن ﴿يأمركم﴾ عطف على «ما كان لبشر أن يؤتيه الله» ﴿أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً﴾ فإن ذلك محال إذ من يختاره الله للرسالة لا يأمر بالكفر ﴿يأمركم﴾ أي هل يأمركم النبي ﴿بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾ أسلمتم بإيمانكم بالنبي، وهذا استفهام إنكاري أي لا يكون ذلك أبداً فقد أخرجكم النبي من الكفر إلى الإسلام فكيف يأمركم بالكفر ثانياً بأن تتخذوه شريكاً لله.

[٨٢] وإذ تم الكلام حول عيسى وأنه ليس بشريك لله سبحانه رجع السياق إلى نبي الإسلام وأنه النبي بعد عيسى ﷺ، ﴿و﴾ اذكر يا رسول الله ﴿إذ أخذ الله ميثاق النبيين﴾ عهدهم المؤكد ﴿لما آتيتكم من كتاب وحكمة﴾ «ما» بمعنى «مهما» أي أخذ الله عهد النبيين أنه مهما أعطاه الله الكتاب والحكمة والرسالة ﴿ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم﴾ يراد به نبي الإسلام، أو كل نبي يأتي بعدهم ﴿لتؤمنن به﴾ هذا جواب «مهما» فالله سبحانه كان يأخذ من النبيين الميثاق أنه مهما أعطى أحدهم الرسالة فإن عليه أن يؤمن برسول الإسلام، أو عليه أن يؤمن بالرسول الذي يتلوه وأن يناصره ويعاضده، وفي الوجه الأول إفادة أن الأنبياء جميعاً أقرؤا بالرسول ﷺ، واعترفوا به وآمنوا به وفي الوجه الثاني إفادة أن كل رسول كان يؤمن بالرسول الذي يأتي

وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ ءَاَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا
 أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ
 بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٣﴾

=====

من بعده حتى أن الأنبياء كلهم كسلسلة واحدة يؤمن سابقهم
 بلاحقهم ويصدق لاحقهم سابقهم ﴿وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ ومعنى نصره النبي
 السابق للاحق أن يأخذ له العهد من أمته ﴿قَالَ﴾ الله تأكيداً لأخذ
 الميثاق ﴿أَقْرَرْتُمْ﴾ أي هل أقررتُم أيها الأنبياء باستعدادكم للإيمان
 بالرسول ونصرته ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ الإيمان بالرسول ونصرته
 ﴿إِصْرِي﴾ أي عهدي الأكيد من أممكم حتى يؤمنوا بالرسول
 وينصروه ﴿قَالُوا﴾ أي قالت الأنبياء في جواب الله سبحانه ﴿أَقْرَرْنَا﴾
 بذلك وأخذنا الأمر ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه لهم ﴿فَاشْهَدُوا﴾ بذلك على
 أممكم أي كونوا شهداء عليهم حتى نحتج على المخالف يوم القيامة
 بشهادتكم ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ فإني أيضاً شهيد عليهم بأنهم
 أقروا بأن يؤمنوا بالرسول وينصروه، وقد روي عن الإمام أمير
 المؤمنين عليه السلام أنه لم يبعث الله نبياً آدم ومن بعده إلا أخذ عليه العهد
 بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وآله وأمره بأخذ العهد بذلك من أمته ^(١).

[٨٣] ﴿فَمَن تَوَلَّى﴾ وأعرض عن الإيمان والنصرة ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ العهد الذي
 أخذه نبيه منه ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الخارجون عن إطاعة الله
 سبحانه حيث نقضوا العهد وخالفوا الوعد.

أَفْغَيْرَ دِينَ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٤﴾ قُلْ
ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ

=====

[٨٤] إن عدم الإيمان بمحمد ﷺ خلاف عهدهم أولاً وخلاف الواجب عليهم ثانياً ﴿أفغير دين الله يبغون﴾ أي يطلبون ويريدون غير دين الله ودين الإسلام الذي ثبت بالآيات والحجج ﴿وله﴾ أي لله ﴿أسلم من في السماوات والأرض﴾ فكل شيء في الكون خاضع له سبحانه منقاد لأمره فما بال هؤلاء يخالفون دين الله الذي أذن له كل الكون ﴿طوعاً وكرهاً﴾ فإن ذوي العقول من الملائكة ونحوه أسلم لله طوعاً والجمادات أسلمت كرهاً بمعنى أنها مستمرة حسب مشيئة الله سبحانه ﴿وإليه يرجعون﴾ أي إلى حكمه وأمره وثوابه وعقابه يرجعون عند الموت أو في القيامة.

[٨٥] هنا يأتي دور إظهار الأمة المسلمة إيمانها بجميع الأنبياء، فإنه مقتضى وحدة الرسالات ومقتضى ما سلف من إيمان كل سابق باللاحق وتصديق كل لاحق للسابق ﴿قل﴾ يا رسول الله صيغة الإيمان التي يجب الاعتراف بها على كل أمتك ﴿آمنا بالله﴾ إلهاً واحداً ﴿و﴾ بـ ﴿ما أنزل علينا﴾ من القرآن الحكيم وسائر الأحكام ﴿و﴾ بـ ﴿ما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط﴾ أولاد يعقوب الذين

وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٥﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٦﴾ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ

كانوا أنبياء ﴿و﴾ ب ﴿ما أوتي﴾ أي أعطي ﴿موسى﴾ من التوراة ﴿وعيسى﴾ من الإنجيل ﴿و﴾ بما أعطي ﴿النبيون من﴾ قبل ﴿ربهم لا نفرق بين أحد منهم﴾ أي من هؤلاء الأنبياء لا كاليهود الذين لم يؤمنوا بعيسى ﷺ ومحمد ﷺ ولا كالنصارى الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ ﴿ونحن له﴾ أي لله ﴿مسلمون﴾ منقادون فيما أمرنا ونهانا.

[٨٦] ﴿ومن يبتغ﴾ يطلب ويريد ﴿غير الإسلام ديناً﴾ من الأديان السماوية أو المفتعلة ﴿فلن يقبل منه﴾ أبداً في الدنيا بل تجري عليه أحكام الكفار ﴿وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم جميعاً.

[٨٧] إن الذين أدركوا حقيقة وحدة الرسالات وحقيقة محمد ﷺ ودين الإسلام ثم أنكروا وعاندوا فقد ظلموا أنفسهم وأبعدوها عن لطف الله وهدايته فلا يلطف بهم الله لطفاً خاصاً ولا يهديهم بل يتركهم في ظلمات كفرهم ﴿كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم﴾ والمراد بالإيمان علمهم بحقيقة الرسول الإيمان في الظاهر، إلا إذا أخذنا بما ورد في بعض التفاسير والروايات من أنها نزلت في رجل آمن ثم ارتد ثم ندم فأرسل إلى الرسول ﷺ من يسأله عن قبول توبته فأجاب الرسول ﷺ

وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

بالإثبات فتاب وحسن إسلامه ، ولذا استثنى في آخر الآيات «إلا الذين تابوا» ﴿وشهدوا أن الرسول حق﴾ شهادة واقعية وإن لم يظهروها ولم يلتزموا بلوازمها ﴿وجاءهم البينات﴾ الأدلة الواضحة على صدق الرسول ﷺ وحقائق ما جاء به ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يُلطف بهم اللطف الخاص الذي يُلطف به بمن استقام ولم يظلم نفسه .

[٨٨] ﴿أولئك﴾ الذين كفروا بعد إيمانهم ﴿جزاؤهم أن عليهم لعنة الله﴾ بإبعادهم عن رحمته ومغفرته وثوابه ﴿والملائكة والناس أجمعين﴾ فإنهم يدعون عليهم بالعذاب ويلعنونهم .

[٨٩] ﴿خالدين فيها﴾ أي يخلدون في اللعنة والطرْد أبد الأبدين ﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ أي لا يسهل عليهم لأنهم بكفرهم استحقوا العقاب الدائم ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي لا يؤخر عنهم العذاب من وقت إلى وقت ، أو لا ينظر إليهم .

[٩٠] ﴿إلا الذين تابوا﴾ عن كفرهم ﴿من بعد ذلك﴾ الكفر بأن آمنوا ﴿وأصلحوا﴾ في أعمالهم أي عملوا الصالحات ﴿فإن الله غفور﴾

رَحِيمٌ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا
لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩١﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ

لَكَفَرَهُمْ وَذُنُوبُهُمْ ﴿رَحِيمٌ﴾ بِهِمْ فَلَا يُؤَاخِذُهُمْ بِسَيِّئَاتِهِمْ .

[٩١] هذا حال من آمن بعد ارتداده وتاب، أو آمن بعد علمه بالحق وكفره، أما من بقي على كفره بعد الإيمان فجزاؤه ما يأتي ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ بالنبي وبما جاء به ﴿ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ فَإِنَّ الْكَافِرَ بَبَقَائِهِ عَلَى الْكُفْرِ يَزْدَادُ كُفْرًا فَإِنْ كُلِّ سَاعَةٍ يَكُونُ كَافِرًا فِيهَا يَكُونُ أَكْثَرَ كُفْرًا مِنَ السَّاعَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، أَوِ الْمُرَادُ ازْدِيَادُ الْكُفْرِ بِاسْتِحْكَامِهِ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَمَا يَزْدَادُ إِيمَانًا كَلَّمَا رَأَى آيَاتِ اللَّهِ كَذَلِكَ يَزْدَادُ كُفْرًا كَلَّمَا أَعْرَضَ عَمَّا يَرَاهُ مِنَ الْآيَاتِ ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ الَّتِي تَأْتِي مِنْهُمْ حَالِ الْإِحْتِضَارِ فَإِنَّ الْمُحْتَضِرَ حَيْثُ يَرَى حَقِيقَةَ الْإِيمَانِ يَتُوبُ فِي قَلْبِهِ وَيَنْدِمُ وَلَكِنْ لَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) ^(١) ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ الَّذِينَ ضَلُّوا طَرِيقَ الْحَقِّ فِي الدُّنْيَا وَعَذَبُوا فِي الْآخِرَةِ .

[٩٢] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ مِمَّنْ لَمْ يَتُبْ حَتَّى فِي حَالِ الْإِحْتِضَارِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ (وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ) ^(٢) بَعْدَ الْآيَةِ

(١) النساء: ١٩ .

(٢) النساء: ١٩ .

فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَىٰ بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴿٩٢﴾ لَن نَّأْلُوا اللَّيْلَ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٣﴾

السابقة: «ولست التوبة» أو المراد التعقيب على «لن تقبل توبتهم» أي أن أولئك الذين لم تقبل توبتهم في الدنيا لا ينجون من عذاب الله يوم القيامة بإعطاء الفدية ﴿فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً﴾ أي مقدار ما يملأ الأرض من الذهب ﴿ولو افتدى به﴾ لا ينفعه ﴿أولئك لهم عذاب أليم﴾ مؤلم وموجع ﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم من عذاب الله وسخطه.

[٩٣] وحيث جرى حديث الإنفاق وأنه لن يقبل من الكافر يوم القيامة ناسب السياق بيان حكم الإنفاق وأنه ﴿لن تنالوا البر﴾ أي لن تدركوا النفع الذي تأملونه من رضى الله وثوابه والجنة وخير الدنيا وغيرها ﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾ لا أن تنفقوا ما لا تحبون كإنفاق ما تعانيه النفس كما قال سبحانه (وَلَسْتُمْ بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا)^(١) ﴿وما تنفقوا من شيء﴾ قليل أو كثير في مختلف أصناف الأشياء ﴿فإن الله به عليم﴾ فيجازيكم على قدره.

تَفْهِيمُ الْفَرَاغِ إِلَى الْإِسْمَاءِ

الْمَجْزِيَّةُ الرَّابِعَةُ

من آية (٩٤) من سورة آل عمران
إلى (٢٤) من سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على
أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى
وعترته الطاهرين.

كُلِّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ
 إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا
 بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى
 اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٥﴾

[٩٤] يرجع السياق هنا إلى ما كانت الآيات بصده من أحوال أهل الكتاب في أصولهم وفروعهم وعنادهم وجدالهم، وفي بعض التفاسير أنهم أنكروا على رسول الله ﷺ تحليل لحم الجوز وادعوا تحريمه على إبراهيم عليه السلام. وأن ذلك مذكور في التوراة فأنزل الله سبحانه رداً عليهم هذه الآية ﴿كل الطعام﴾ أي كل المأكولات، والمراد بـ«الكل» الإضافي في مقابل ما ادعوا تحريمه ﴿كان حلالاً﴾ أي حلالاً ﴿لبني إسرائيل﴾ اليهود ﴿إلا ما حرم إسرائيل﴾ أي يعقوب عليه السلام ﴿على نفسه﴾ وهو لحم الإبل كان إذا أكله هيج عليه «الخاصرة» فحرمه على نفسه. وكان ذلك ﴿من قبل أن تنزل التوراة﴾ على موسى عليه السلام فليس تحريمه على إسرائيل دليلاً على بقاءه على الحرمة فإن التوراة لما نزلت لم تحرمه فلماذا تقولون أيها اليهود بحرمة ﴿قل﴾ يا رسول الله لهم: ﴿فأتوا بالتوراة فاتلوها﴾ حتى يظهر أنه لم تحرمه التوراة كما ذكرت لكم ﴿إن كنتم صادقين﴾ في دعواكم أن التوراة حرمت الإبل، لكنهم لم يأتوا بالتوراة، فتبين كذبهم، وقد كان اليهود يظنون أن الرسول - لأنه أُمي - لا علم له بالتوراة فلهذا كانوا ينسبون إلى التوراة أشياء، لكن الوحي كان يفضحهم.

[٩٥] ﴿فمن افتري على الله الكذب من بعد ذلك﴾ البرهان الدال على عدم تحريم التوراة ﴿فأولئك هم الظالمون﴾ الذين ظلموا أنفسهم بمنعها عن

قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٦﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا

الهداية وظلموا غيرهم بمنعهم عن الحق .

[٩٦] ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لليهود ﴿صدق الله﴾ فيما نقلت لكم من عدم
تحريم الجزور وكذبتم أنتم، بل تبين أن كل الطعام كان حلالاً
﴿فاتبعوا﴾ أيها اليهود ﴿ملة إبراهيم حنيفاً﴾ أي مستقيماً، وملة إبراهيم
تحلل كل الطعام ﴿وما كان﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿من المشركين﴾ دحض
لافتراء آخر من أهل الكتاب حول إبراهيم عليه السلام، حيث كانوا يقولون
أنه كان يهودياً أو نصرانياً - وكلاهما مشرك - ففي السابق نقل افتراءهم
بالنسبة إلى الله في قصة الطعام، وهنا نقل افتراءهم على أنبيائه بالشرك .

[٩٧] إن أهل الكتاب دحضت حجتهم في باب التحليل والتحريم،
ودحضت حجتهم في باب دين إبراهيم، كما دحضت حجتهم من
ذي قبل في سائر الشؤون التي ناقشوا فيها، وبقيت الآن لهم حجة
أخرى هي: أن بيت المقدس أشرف من الكعبة، وأنه محل الأنبياء،
فالقرآن يدحض حجتهم هذه بأن الكعبة هي أشرف لأنها أول بيت
وضع للناس، ولأن إبراهيم عليه السلام الذي تنتسبون إليه هو الذي بناها،
ولأن الحج شرع إليها ﴿إن أول بيت وضع للناس﴾ أي بُني لأجل
انتفاع الناس ديناً وديناً، فإن الأرض دحيت من تحته، ولم يكن قبله
بيت مبنى ﴿للذي﴾ اللام للتأكيد أي هو البيت الذي ﴿ببكة﴾ وهو
اسم آخر لمكة، وسميت بكة لازدحام الناس في الطواف ونحوه
هناك، فإن بكَّ يبكُ بمعنى «زحم يزحم» ﴿مباركاً﴾ أي كثير البركة
والخير فإن فيه خير الدنيا، حيث الألفة والاجتماع والاقتصاد

وَهَدَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ فِيهِ آيَاتٌ يَبَيِّنُ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ ۚ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ

وغيرها، وخير الآخرة حيث غفران الذنوب ورفع الدرجات ﴿وهدى للعالمين﴾ أي سبباً لهدايتهم فإنه مذكّر بالله سبحانه وفيه ذكريات أنبيائه ومعالم عبادته .

[٩٨] ﴿فيه﴾ أي في ذلك البيت ﴿آيات بينات﴾ أي دلالات واضحة على التوحيد والنبوة ونصرة الإسلام ﴿مقام إبراهيم﴾ أي موضع قدمه حيث كان هناك حجر يضعه إبراهيم ويصعد عليه لبناء أعالي الكعبة حتى رسخت قدماه في ذلك الحجر، فإنه آية واضحة من آيات الله سبحانه، وخُصّ بالذكر لأهميته وتقديراً لإبراهيم الذي ضحّى بكل ما لديه في سبيل الله سبحانه ﴿ومن دخله كان آمناً﴾ إما ابتداءً، أو عطف أي أن من آيات البيت أنه سبحانه جعله حرماً آمناً فمن دخله فهو آمن على عرضه وماله ودمه لا يُمسّ بسوء وإن كان مجرمًا يستحق العقاب والحد ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ أي يجب على الناس أن يحجوا إلى البيت ﴿من استطاع إليه سبيلاً﴾ أي من وجد إليه طريقاً وذلك بأن يكون له ما يكفيه ذهاباً وإياباً لنفسه ولعائلته ويرجع إلى الكفاية، مع أمن الطريق وصحة الجسم، إلى غير ذلك من الشروط المذكورة في الفقه ^(١) ﴿ومن كفر﴾ فلم يحج مع الاستطاعة، وقد تقدم أن الكفر قسمان: كفر في الاعتقاد وهو إنكار أصل من أصول الدين، وكفر في

فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ
تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ
يَتَاهَلُ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنۢ ءَامَنَ
تَبَّعُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ

العمل وهو ترك واجب أو فعل محرم. وقد كثر في القرآن والحديث استعمال الكفر بهذا المعنى ﴿فإن الله غني عن العالمين﴾ فلا يظن العاصي أن كفره يضر الله شيئاً.

[٩٩] ويرجع السياق إلى أهل الكتاب ﴿قل﴾ يا رسول الله: ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله﴾ أدلته الواضحة الدالة على نبوة نبي الإسلام وما جاء به، الذي هو منه شؤون بيت الله الحرام ﴿والله شهيد﴾ أي يشهد ويعلم ﴿على ما تعملون﴾ فيجازيكم عليها.

[١٠٠] ﴿قل﴾ يا رسول الله: ﴿يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله﴾ أي تمنعون الناس عن الإيمان بالله، فإن أهل الكتاب كانوا يصدون لمن يريد الإيمان فيمنعونه، وكانوا يلقون الشكوك حول الإيمان والمؤمنين ﴿من آمن﴾ مفعول «تصدون» أي تمنعون من آمن عن سبيل الله، وعلى هذا فالصد هنا خاص بالمؤمنين إلا أن يراد بـ «من آمن» الأعم من المؤمن ومن يريد الإيمان ﴿تبغونها﴾ أي تطلبون السبيل ﴿عوجاً﴾ منحرفاً لا سبيلاً مستقيماً، أو تطلبون سبيل الله عوجاً، أي تريدون أن تكون السبيل عوجاً بإدخال الشكوك عليها، والعوج مفرد بمعنى الميل والانحراف ﴿وأنتم شهداء﴾ في واقع الأمر وإقرار

وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن
 تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ
 كَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ
 وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ
 مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠٢﴾

نفوسكم على عملكم الباطل ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل مطلع
 عليه عالم به، وسيعاقبكم عليه.

[١٠١] وحيث تقدم أن أهل الكتاب يصدّون من آمن عن سبيل الله، خاطب
 سبحانه المؤمنين أن لا يسمعوا إلى أهل الكتاب حتى يضلوا
 بتشكيكاتهم ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً﴾ جماعة ﴿من الذين
 أُوتوا الكتاب﴾ أعطوا التوراة والإنجيل ﴿يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾
 أي يرجعونكم كفاراً بعد أن آمنتم، وإنما خصّ فريقاً لأن أهل الكتاب
 لم يكونوا جميعهم سبب إضلال المؤمنين وإرجاعهم عن الإيمان.

[١٠٢] ﴿وكيف تكفرون﴾ أيها المؤمنون بعد الإيمان ﴿وأنتم تلىٰ عليكم
 آيات الله﴾ فإنكم قد عرفتم آيات الله ودلائله وعلمتم ذلك ومثل هذا
 الإنسان لا يمكن أن يكفر ﴿وفيكُم رسوله﴾ الذي يدعو إليه بالبراهين
 والمعاجز، وهذا استفهام إنكاري تعجبي، جيء به إبعاداً لهم عن الكفر
 وإلفاتاً لهم إلى الرصيد الإيماني الموجود عندهم ﴿ومن يعتصم بالله﴾
 أي يتمسك بآيات الله وكتابه ودينه ورسوله، فلا ينخرط إلى الشرك
 والكفر والعصيان ﴿فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ في الدنيا حيث

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٣﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ

يوصله إلى حياة حرة كريمة مرفهة المرافق، وفي الآخرة حيث يسعده في جنات النعيم.

[١٠٣] كانت الجماعات المنضوية تحت لواء الإسلام بما فيهم الأوس والخزرج معرضة للتطاحن والتشاحن وقد كان الكفار وأهل الكتاب يستغلون سوابق هؤلاء وطبيعة النفس البشرية في إلقاء الفتن والفرقة بينهم ليفتحوا ثغرة للنزاع بين أصحاب الرسول ﷺ ولذا نصحهم القرآن بأن يبقوا على وحدتهم وأن لا يتفرقوا ويتقوا الله فيما أمر ونهى ولا يطيعوا أهل الكتاب في أقوالهم المفرقة ودسائسهم المشتتة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ خافوا عقابه فأطيعوه فيما أمركم ونهاكم ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ من «وقيت» أي كما يحق أن تتقوه، فإن التقوى من الله سبحانه أمر صعب جداً، إذ يلزم الإنسان في جميع شؤون وأحواله ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فلا يغرنكم الشيطان بأن يخرجكم من الإيمان حتى تموتوا كافرين. ولعل المناسبة بين الجملتين أن من لا يتقي ينجر آخر أمره إلى الكفر كما قال سبحانه: (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ ءَسَاءُوا السُّوْءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ) (١).

[١٠٤] ﴿وَاعْتَصِمُوا﴾ أي تمسكوا ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ وحبل الله دينه وقرآنه، شبهه بالحبل لمناسبة أن من يتمسك بالحبل لا بد وأن يرتفع به إلى الأعلى، وكذلك من يتمسك بالإيمان يصعد به في الدنيا إلى المراتب الراقية وفي

جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا اَللّٰهُ عَلَيْكُمْ اِذْ كُنْتُمْ
 اَعْدَاءَ ۖ فَاَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ۖ فَاصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهٖٓ اِخْوَانًا ۚ وَكُنْتُمْ عَلٰى
 شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ ۖ فَاَنْقَذَكُمْ مِّنْهَا ۚ كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمْ
 اٰيَاتِهٖٓ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾

=====

الآخرة إلى جنات خالدة ﴿جميعاً﴾ أي جميعكم لا بعضكم دون بعض .

﴿ولا تفرقوا﴾ بأن يتمسك البعض بحبل الله والبعض بحبل الشيطان، وهذا تأكيد لقوله «جميعاً» ﴿واذكروا﴾ أي تذكروا ﴿نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء﴾ قبل الإسلام يعادي بعضكم بعضاً ﴿فألف بين قلوبكم﴾ جعلها قريبة بعضها إلى بعض، حيث أدخل الإيمان فيها فخرج ما كان فيها من الضغينة والإحن والحسد والعداوة ﴿فأصبحتم﴾ أيها المسلمون ﴿بنعمته﴾ أي بسبب نعمة الألفة التي وهبها الله إليكم ﴿إخواناً﴾ أحدكم أخ الآخر في الإيمان، له ما لأخيه وعليه ما عليه . وأن هذه النعمة قد خرقت المقاييس الجاهلية القبلية والعشائرية والعرقية وما أشبهها .

﴿وكنتم على شفا حفرة من النار﴾ الشفا: الطرف، والحفرة المكان المحفور من الأرض، أي كنتم أيها المسلمون على طرف حفرة من النار، نار الدنيا وهي العقوبات والاضطرابات، ونار الآخرة التي أوقدت لكم ﴿فأنقذكم منها﴾ بالإسلام الذي نظم أمور دنياكم وأخراكم، حتى لاتقعوا فيها ﴿كذلك﴾ أي كما بين لكم هذه الأمور واضحة وجلية ﴿يبين الله لكم آياته﴾ دلالاته وحججه ﴿لعلكم تهتدون﴾

وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ

=====

إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

وما ورد في بعض الأحاديث أن المراد من حبل الله الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أو الأئمة عليهم السلام أو القرآن^(١) ، فإنما هي مصاديق جلية .

[١٠٥] وحيث أنفذكُم الله من الهلاك، وهداكم فمن الجدير أن تهدوا سائر الناس ﴿ولتكن منكم أمة﴾ أي يجب أن يكون منكم جماعة ﴿يدعون إلى الخير﴾ كل خير من الإسلام والدين والأحكام وغيرها ﴿ويأمرُونَ بالمعروف﴾ والمعروف كل فعل استحسنة الشرع أو العقل سواء وصل إلى حد الوجوب أم إلى حد الندب، وإنما سمي معروفاً لأن الناس يعرفونه ﴿وينهون عن المنكر﴾ وهو بعكس المعروف، كل ما استقبحه الشرع أو العقل، وسمي منكراً لأن الناس ينكرونه ﴿وأولئك﴾ الذين يتصفون بهذه الصفات الثلاثة ﴿هم المفلحون﴾ أي الفائزون الناجون .

[١٠٦] ﴿ولا تكونوا﴾ أيها المسلمون بعد الألفة والأخوة ﴿كالذين﴾ من قبلكم تألفت قلوبهم بسبب الأنبياء ثم ﴿تفرقوا﴾ شيعاً وأحزاباً ومذاهب ومبادئ ﴿واختلفوا﴾ فأخذ كل فريق منهم جانباً ﴿من بعد ما جاءهم البينات﴾ الأدلة الواضحة على وحدة العقيدة والمبدأ وأركان الإيمان

(١) تفسير العياشي: ج ١ ص ١٩٤ وبحار الأنوار: ج ٣٦ ص ١٥ باب ٢٧، أنه (صلوات الله عليه) حبل الله والعروة الوثقى .

وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ

﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الذين اختلفوا وخالفوا الحق منهم ﴿لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ حيث بدلوا وغيروا وحزفوا.

[١٠٧] ثم بين سبحانه أن ذلك العذاب العظيم في أي وقت يكون؟ إنه يكون في ﴿يَوْمٍ﴾ هذه صفته ﴿تَبْيَضُّ﴾ فيه ﴿وُجُوهُ﴾ هي وجوه المؤمنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات وابتضاض الوجه كناية عن فرحه ونضارته وتنعمه ﴿وَتَسْوَدُّ﴾ فيه ﴿وُجُوهُ﴾ هي وجوه الكافرين، واسودادها حقيقة، فإن الوجه عند الهَم الكبير يميل لونه إلى السواد والكدره لتهاجم الدم ونحوه، أو كناية عن كلوحه وبؤسه وهمومه ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ يقال لهم: ﴿أَكْفَرْتُمْ﴾ على نحو الاستفهام التوبيخي ﴿بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ إما أن يراد بـ«الإيمان» الإيمان الحقيقي بأن يكون المراد منهم الذين اختلفوا وتفرقوا وارتدوا بعد الإيمان، وإما أن يراد به الإيمان الفطري فإن كل إنسان مؤمن فطرة كما قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»^(١) ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي بسبب كفركم.

[١٠٨] ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ وهم المؤمنون الذين عملوا

فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٨﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا
عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي
السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١٠﴾ كُنْتُمْ

الصالحات ﴿ففي رحمة الله﴾ ثوابه ورضوانه وجنته ﴿هم فيها خالدون﴾ أبد الأبدین .

[١٠٩] ﴿تلك﴾ الأمور التي ذكرت في أحوال المؤمنين والكافرين وغيرها ﴿آيات الله﴾ علامته ودلائله وحججه ﴿نتلوها عليك﴾ يا رسول الله ﴿بالحق﴾ فإن التلاوة قد تكون بالباطل إذا كان المتلو أو الغرض من التلاوة باطلاً ﴿وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ أي لا يريد أن يظلم أحداً . فقد تقرر في علم الكلام أن إرادة الظلم - كالظلم نفسه - قبيحة ، فما يصير إليه حال الكافرين من اسوداد الوجه ليس ظلماً لهم ، وإنما يكون بالعدل وجزاء لعملهم .

[١١٠] ﴿و﴾ كيف يريد الله ظلماً والحال أنه ﴿لله ما في السماوات وما في الأرض﴾ والظلم ينشأ من الافتقار وهو الغني المطلق ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أمور الخلق فإن الله سبحانه يعيد المخلوق ليجازيه ، وهذا تشبيه بالرجوع المادي «في الدنيا» الذي يكون بين الحاكم والمحكوم حيث يُساق المحكوم نحو الحاكم ليحكم عليه ، وحيث أن الأمر يرجع إلى الله فلا يظن الكافر أنه يتمكن من الفرار عنه سبحانه حتى لا يُعاقب بما عمل من السيئات .

[١١١] ويرجع السياق هنا إلى ما تقدم من لزوم الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ﴿كنتم﴾ أيها المسلمون ، و«كان» لمجرد

[illegible]

ثم بين سبحانه أن ليس كل الذين كانوا من أهل الكتاب بقوا على

مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١١﴾ لَّن يَضُرَّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ ۖ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١٢﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ

طريقتهم فإن ﴿منهم المؤمنون﴾ بالله وبالنبي ﷺ وبما جاء به كالنجاشي وابن سلام وغيرهما ﴿وأكثرهم الفاسقون﴾ الخارجون عن طاعة الله باتباع أهوائهم المضلة وطرائقهم الزائفة .

[١١٢] ولقد كان كفار أهل الكتاب يؤذون المؤمنين منهم خاصة وسائر المؤمنين عامة وكان المؤمنون من حيلهم ومؤامراتهم في قلق واضطراب، ولذا هدا الله سبحانه من روع المؤمنين بقوله: ﴿لَن يَضُرَّوكُمْ﴾ أي لن يضر أهل الكتاب إياكم أيها المؤمنون ﴿إِلَّا أَذًى﴾ يسيراً فإن مؤامراتهم تفشل وحيلهم تخسر ولا تبقى إلا تشويشات وإشاعات وهي مما لا تضر ضرراً معتداً به، أما ما يظن المسلمون أن أهل الكتاب يتمكنون من اقتلاع جذورهم وإبادة دينهم فلن يكون ذلك أبداً بل المسلمون هم المنصرون ﴿وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار﴾ جمع دبر وهو الظهر، أي ينهزمون فارين ﴿ثم لا ينصرون﴾ أي لاتنصرهم أقوالهن، لما ألقى في قلوبهم من رعب الإسلام وخوف الرسول ﷺ وكان مصب الآية الكريمة اليهود فهم المعنيون بهذا الكلام بقرينة الآية التالية .

[١١٣] ﴿ضربت عليهم الذلة﴾ أي ضربها الله عليهم فهم أذلاء إلى الأبد وهي ثابتة لهم ومحيطه بهم، وأية ذلة أعظم من أنه ليست لهم دولة مستقلة وهم مهانون دائماً، وجميع الدول تطاردهم إلا في ظرف مصلحتها الخاصة فهم كالعبيد المسخرين إن استفاد مولاهاهم أطعمهم

أَيْنَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبَغَضَ
مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا
يَكْفُرُونَ بِثَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ

وإلا طردهم ﴿أَيْنَ مَا تُقِفُوا﴾ أي وجدوا ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ﴾ أي إلا
إذا تمسكوا بحبل الله تعالى بالإيمان به وبمحمد ﷺ وبما جاء به
حتى يكونوا كالمسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم ﴿وَحَبْلِ مِنَ
النَّاسِ﴾ أي تمسكوا بحبل دولة قوية تحميهم، و«الواو» للتقسيم -
نحو: الكلمة اسم وفعل وحرف - لا للجمع ﴿وَبَاءُ﴾ رجعوا
﴿بَغَضَ مِنَ اللَّهِ﴾ فكان الناس جاءوا للاعتراف من مناهل الإسلام
وكانت اليهود فيهم فالتاس رجعوا بالإسلام وحب الله سبحانه وهؤلاء
رجعوا بالكفر وغضب الله تعالى ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ أي الفقر
الروحي الذي هو أعظم أقسام المسكنة فإن أرواحهم تهفو إلى المادة
أكثر من روح أي فقير مسكين وهم على ثروتهم الظاهرة من أفقر
الخلق نفساً وروحاً ﴿ذَلِكَ﴾ العقاب الدنيوي لهم ﴿بِ﴾ سبب ﴿أَنَّهُمْ
كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ فموسى ﷺ نبيهم كان منهم في نصب
وتعب فإنهم ما خرجوا من البحر إلا قالوا: يا موسى اجعل لنا إلهاً
كما لهم آلهة، واتخذوا العجل، وآذوا موسى إلى غير ذلك ﴿وَيَقْتُلُونَ
الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي كانوا يقتلونهم، و«بغير حق» تأكيد، إشارة إلى
أنه لم يكن لهم حق في قتلهم حتى ظاهراً، فإنهم يقتلون الأنبياء
لمجرد الدعوة إلى الله والإرشاد والوعظ، لا لأنهم قتلوا منهم أحداً
أو نهبوا مالا أو نحو ذلك - وإن كان الأنبياء لو فعلوا ذلك كان بأمر
الله وبالحق - لكن الأنبياء ﷺ لم يكونوا فعلوا ذلك - كما قال الإمام
الحسين ﷺ: «بِمَ تَسْتَحِلُّونَ دَمِي...؟ أَعَلَى قَتِيلٍ قَتَلْتَهُ مِنْكُمْ - إِلَى

ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٣﴾ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَابِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ
يَسْجُدُونَ ﴿١١٤﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ

آخر كلامه - «(١)» .

﴿ذلك﴾ أي كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء ﴿ب﴾ سبب ﴿ما
عصوا﴾ أي عصيانهم لأوامر الله سبحانه سبب الكفر والقتل وهما سببا
نقمة الله ولعنته ﴿وكانوا يعتدون﴾ يتجاوزون الحدود الدينية والبشرية .
[١١٤] ولمرة أخرى استثنى القرآن الحكيم من آمن من أهل الكتاب ، وأنه
ليس كغيره ممن بقي على كفره وعنده وقد نزلت - كما قيل - حين
أسلم جماعة من أهل الكتاب فقال الكفار منهم أنهم أشرارنا .

﴿ليسوا سواء﴾ أي ليس أهل الكتاب متساوين في ما تقدم من
أوصافهم ، ثم ابتدأ قوله سبحانه : ﴿من أهل الكتاب أمة قائمة﴾ على
الحق لا زائفة زائلة ، وهم الذين آمنوا بالإسلام ﴿يتلون آيات الله﴾
المنزلة في القرآن المجيد ﴿آناء الليل﴾ ساعاته وأوقاته ، فإن لقراءة
القرآن في الليل أثراً كبيراً حيث إن هدوء النفس وهدوء الجو يوجبان
وقوع الآيات في النفس أكثر منه في النهار ﴿وهم يسجدون﴾ لله
سبحانه ويخضعون له بالصلاة والتعفير .

[١١٥] ﴿يؤمنون بالله﴾ إيماناً صحيحاً ﴿و﴾ يؤمنون بـ ﴿اليوم الآخر﴾ عن حقيقة
فإن من آمن حقيقةً بالحساب انقلع عن الكفر والمعاصي ﴿ويأْمرون﴾

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ
 وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٥﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ
 يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا
 وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ

بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات ﴿١١٥﴾ فإن المعتقد بيوم الحساب يسارع في الخير حيث لا يدري أي يوم يموت فينقطع عمله ولا يتمكن من المزيد «وكان الإتيان بباب المفاعلة للإشارة إلى تسابق بعضهم بعضاً» ﴿وأولئك من الصالحين﴾ الذين يصلحون ولا يفسدون، وتعتبر آخر أعضاء صالحين في المجتمع، وليسوا كما ذكر الكفار من أهل الكتاب أنهم أشرارهم، بل هم من أفضل الأخيار والصلحاء.

[١١٦] ﴿وما يفعلوا﴾ أي ما يفعله هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب ﴿من خير﴾ من طاعة وعبادة ﴿فلن يكفروه﴾ أي لن يمنع عنهم جزاؤهم بخلاف سائر الكفار الذين تحبط أعمالهم لكفرهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف ﴿والله عليم بالمتقين﴾ يعلم أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم على حسناتهم.

[١١٧] ﴿إن الذين كفروا﴾ بالله ورسوله ﴿لن تغني عنهم﴾ أي لن تفيدهم ولن تدفع العذاب عنهم ﴿أموالهم ولا أولادهم﴾ فالمال والولد إنما ينفعان في الدنيا حيث يدفعان المكروه بالرشوة والهدية والصلة، والمدافعة والمناصرة ﴿من الله﴾ أي من عقاب الله وعذابه ﴿شيئاً﴾ ولو ضئيلاً ﴿وأولئك أصحاب النار﴾ الذين يلازمونها كما

هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٧﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا
أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ

يقال: صاحب فلان لمن يلازمه ﴿هم فيها خالدون﴾ إلى الأبد.
وقد تكرر أن الخلود للمعاند كما في دعاء كميل «من المعاندين» أما
القاصر فإنه يُمتحن هناك كما دلّ العقل والشرع.

[١١٨] وحيث تقدم حال المؤمن وحال الكافر، ذكر حال إنفاق الكافر مقابلة
لما تقدم من خير المؤمن في قوله: (وما يفعلوا من خير) ﴿مثل ما
ينفقون﴾ أي ينفقه الكفار ﴿في هذه الحياة الدنيا﴾ وكان ذكر «هذه»
الخصوصية مع وضوحها للإشارة إلى أن الحياة التي هي مزرعة ومن
المقتضي أن تنمو ويبقى أثرها للانتفاع به في الآخرة، لا ينفع الكافر
﴿كمثل ريح فيها صرر﴾ الصرر هو البرد الشديد، أو السموم الحارة
﴿أصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾ فإنفاقهم كالحرث، وكفرهم الموجب لبطلانه
كالريح السامة ﴿ظلموا أنفسهم﴾ بأن زرعوا في غير موقع الزراعة في
مهب الرياح أو في غير أوانه كالشتاء مثلاً لو زرعوا بذور الصيف، أو
المراد ظلموا أنفسهم بالمعصية فسلط الله عليهم الريح كما قال: «وَلَوْ
أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»^(١) وإنما أوتي بهذه الجملة
لظلم الكفار أنفسهم كظلم صاحب الحرث ﴿فأهلكته﴾ أي أهلك
الريح الحرث - وهو الزرع - ﴿وما ظلمهم الله﴾ في إبطال نفقاتهم، أو

وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ

في إهلاك الريح حرثهم ﴿ولكن أنفسهم يظلمون﴾ بكفرهم أو بظلمهم، ولا يخفى أن قوله: «مثل ما ينفقون» «كمثل ربح» ليس المراد أن الإنفاق كالربح، بل يضرب المثل فيما كان المجموع من «الأصل والشبه» مرتبططين وإن كانت مفردات الشبه لم تذكر حسب السياق اللفظي، كما تقول: «مثل زيد في تكلمه كمثل صوت الحمار» فالجملة شبهت بالجملة لأن الصوت شبه بزيد، والحمار بالتكلم، كما يقتضيه السياق اللفظي في الترتيب.

[١١٩] وفي سياق الكلام عن أحوال أهل الكتاب وبيان أنهم مختلفون مع المسلمين في العقيدة والعمل يأتي دور أن المسلم لا ينبغي له أن يتخذ صديقاً من هؤلاء ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم﴾ أي لا تتخذوا الكفار الذين هم غير المسلمين بطانة، وهي خاصة الرجل الذي يسرّ إليه بأمره ويستبطن خبره، من «بطانة الثوب» الذي يلي البدن لقربه منه، و«من» للتبيين كأنه قال: بطانة من المشركين، فقد كان المسلمون يواصلون رجالاً من أهل الكتاب لسابق صداقة أو قرابة أو جوار أو نحوها فنهّوا عن ذلك.

ثم بين سبحانه سبب ذلك، ويحتمل أن يكون المراد بـ«دونكم» المنافقين، كما في بعض التفاسير بدليل قوله: «قالوا آمنا» فإنهم ﴿لا يألونكم خبالاً﴾ لا يألونكم أي لا يقصرون بالنسبة إليكم، والخبال الفساد، أي هؤلاء البطانة لا يقصرون في فساد أمركم ولا يتركون جهدهم في مضرتكم ﴿ودّوا﴾ أي أحبوا ﴿ما عنتم﴾ أي عنتكم،

قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ
 قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٩﴾ هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ
 يُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقَاكُمْ
 قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا

=====

والعنت المشقة، وهذه كلها من صفات الأعداء ﴿قد بدت﴾ أي ظهرت
 ﴿البغضاء﴾ والعداوة ﴿من أفواههم﴾ فإن فلتات كلامهم تدل على
 عداوتهم الكامنة ﴿وما تخفي صدورهم﴾ من الحقد لكم والعداوة
 ﴿أكبر﴾ مما يظهر من ألسنتهم ﴿قد بينا لكم﴾ أيها المؤمنون
 ﴿الآيات﴾ والحجج التي تميزون بها الصديق من العدو ﴿إن كنتم
 تعقلون﴾ إن كان لكم عقل وإدراك.

[١٢٠] ثم بين سبحانه أنه كيف يمكن أن يحب المؤمن هؤلاء مع أنهم
 أعداؤه ومع الاختلاف بينهم في العقيدة ﴿ها﴾ تنبيه ﴿أنتم أولاء﴾ أي
 الذين ﴿تحبونهم﴾ أي تحبون أولئك الكفار ﴿ولا يحبونكم﴾ لأنهم
 يريدون لكم الكفر والضلالة ﴿وتؤمنون﴾ أنتم ﴿بالكتاب كله﴾ وهم
 لا يؤمنون إلا ببعض الكتاب، أما البعض الآخر الذي فيه أوصاف
 محمد ﷺ والإيمان به فلا يؤمنون به، أو المراد بـ«كله» أي جنس ما
 نزل على أنبياء الله، بخلافهم فإنهم لا يؤمنون بكتاب محمد ﷺ ﴿وإذا
 لقوكم﴾ من الملاقاة أي رأوكم ﴿قالوا آمنا﴾ نفاقاً منهم لا أن الإيمان
 دخل قلوبهم، ويحتمل أن يراد الكفار، فإن من يتظاهر بالصدقة كثيراً ما
 يظهر قبول ماعليه صديقه مع أنه ليس بصيغة صديقه، وهذا بناء على
 قوله: «من دونكم» للكفار لا للمنافقين ﴿وإذا خلوا﴾ أي خلا بعضهم

عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ
 عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٢٠﴾ إِنْ تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ
 تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا
 يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢١﴾

مع بعض ﴿عضوا عليكم الأنامل﴾ أي يعضون أطراف أصابعهم ﴿من الغيظ﴾ عليكم كيف تقدّمتم وقوي دينكم .

﴿قل﴾ يا رسول الله لهم ﴿موتوا بغيظكم﴾ فإن الغيظ لا يبرحكم لأن المسلمين يتقدمون ويستمرون في أعمالهم . أو هو دعاء عليهم ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ التي تضمن النفاق والكيد للمسلمين ، فيجازيهم بما اقترفوه من الآثام والذنوب و«بذات الصدور» بمعنى : بتلك الصدور .

[١٢١] وكيف تتخذونهم بطانة والحال أن صفتهم هكذا ﴿إن تمسّسكم حسنة﴾ أي يصيبكم خير ، من «المس» بمعنى الإصابة ﴿تسؤهم﴾ أي تحزنهم ﴿وإن تصيبكم سيئة﴾ أي بليّة ومصيبة بإصابة العدو منكم أو فقر أو موت أو نحوها ﴿يفرحوا بها﴾ أي بسببها - كما هو حال العدو مع عدوه - ﴿وإن تصبروا﴾ على أذيتهم ، وعلى مقاطعتكم إياهم التي تجر إليكم عداؤهم الظاهري ، فإن كثيراً من الناس يخافون من مقاطعة المنافقين لئلا يبتلوا بعدائهم في الظاهر ﴿وتتقوا﴾ الله سبحانه حتى يكون هو نصيركم ﴿لا يضرركم﴾ أيها المؤمنون ﴿كيدهم﴾ ومكرهم وحيلتهم ضدكم ﴿شيئاً﴾ لأنه سبحانه ينصركم ﴿إن الله بما يعملون﴾ هم جميعاً المؤمنون والمنافقون ﴿محيط﴾ أي عالم بجميع أعمالهم ،

وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ

كالمحيط من الأجسام الذي لا يخلو منه طرف من المُحاط، فيجازيهم بأعمالهم.

[١٢٢] وهنا يستعرض القرآن الحكيم قصة واحدة تدل على مدى تطبيق أحوال المنافقين التي سبقت على الواقع الخارجي، وأن الله كيف ينصر المسلمين في أخرج الساعات وأهلك الظروف، وذلك في غزوة أحد حين خرجت قريش من مكة يريدون حرب النبي ﷺ فانتخب الرسول ﷺ موضعاً للقتال وعُباد أصحابه الذين بلغوا سبعمائة رجل فجعل عبد الله بن جبير في خمسين من الرماة على باب شعب في الجبل ليحفظوه حتى لا يهاجم العدو من خلف المسلمين فقال لهم: «لا تبرحوا من هذا المكان والزموا مراكزكم، إن غلبنا أو غلبنا». فلما انهزمت قريش وأخذ المسلمون ينهبون ثقلهم قال أصحاب ابن جبير له: قد غنم أصحابنا ونحن نبقي بغير غنيمة. فقال لهم: اتقوا الله فإن رسول الله ﷺ نهانا أن نبرح أماكننا. فلم يقبلوا منه وأخذوا ينسل الرجل منهم فالرجل حتى خلت المراكز وبقي عبد الله في اثني عشر رجلاً، واغتنم الكفار هذا الأمر فجاء خالد بن الوليد مع أصحابه وفرقوا من تبقى من المسلمين وقتلوه على الشعب وهجموا على المسلمين من خلفهم وهم مشغولون بالنهب ورجع الكفار فطوقوا المسلمين من جوانبهم ففر المسلمون ولم يبق مع الرسول إلا علي ﷺ وأبو دجانة، وقتل من المسلمين جمع كثير بلغوا السبعين وفيهم حمزة عم النبي ﷺ أسد الله وأسد رسوله.

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ﴾ أي خرجت ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي من المدينة غدوة، يا رسول الله ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ﴾ أي تهبيء لهم مراكز ﴿لِلْقِتَالِ﴾

وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٢﴾ إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٣﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ

في قصة أحد ﴿والله سميع﴾ لأقوالك ﴿عليم﴾ بما تنويه من حب الخير والهداية للناس عامة .

[١٢٣] ﴿إذ همت﴾ وعزمت ﴿طائفتان﴾ أي جماعتان ﴿منكم﴾ أيها المسلمون، وهما بنو سلمة وبنو حارثة ﴿أن تفشلا﴾ وتجبنا وترجعا عن القتال وذلك لأن ابن أبي سلول المنافق جبنهما عن لقاء العدو فهما بالرجوع لكنهما لم يفعلا ﴿والله وليهما﴾ ناصرهما فلم الفشل والخوف ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ والتوكل معناه تفويض الأمر إليه سبحانه (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) ^(١) .

[١٢٤] ﴿ولقد نصركم الله﴾ أيها المسلمون ﴿ببدر﴾ في وقعة بدر وهي اسم بئر كانت هناك فسميت الغزوة باسمها ﴿وأنتم أذلة﴾ جمع ذليل لأن عددهم وعددهم كانت قليلة لا تقوى على المقاومة ﴿فاتقوا الله﴾ ولا تتوانوا عن الجهاد بعدما رأيتم نصره الله في بدر وهذا لأجل تقوية قلوبكم في «أحد» وتصديق لقوله: «والله وليهما» ﴿لعلكم تشكرون﴾ أي نصركم لتقوموا بشكر نعمه عليكم .

[١٢٥] ﴿إذ تقول﴾ يا رسول الله ﴿للمؤمنين﴾ في غزوة بدر ﴿ألن يكفيكم

أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزْلِينَ ﴿١٢٥﴾ بَلَىٰ
 إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ
 بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٦﴾

=====

أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة وذلك لتقوية قلوب المؤمنين، وبيان أن الله أرسل ملائكة لتقويتهم وتعزيز مركزهم، وهذا تذكير للمسلمين في أحد بسابق نصر الله لهم ﴿منزلين﴾ أنزلهم الله سبحانه لنصرة المسلمين ولقد حاربوا الكفار وقتلوا منهم.

[١٢٦] ﴿بلى﴾ ليس الإمداد في يوم بدر بثلاثة آلاف فقط، بل قال لهم الرسول ﷺ يوم بدر - تقوية لقلوبهم - : ﴿إِنْ تَصْبِرُوا﴾ على الجهاد ﴿وَتَتَّقُوا﴾ المعاصي ﴿وَيَأْتُوكُمْ﴾ الكفار ﴿مِنْ فُورِهِمْ﴾ أي فُورَانِهِمْ مندفعين عاجلاً نحوكم ﴿هَذَا﴾ الذي شاهدتموه إذ أتوكم كالسيل، فإن المسلمين خذلوهم عند مجيئهم لما رأوا من كثرتهم ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ والإمداد إرسال المدد ﴿بِخَمْسَةِ آلَافٍ﴾ آخر - غير الثلاثة آلاف - ﴿مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ من سوم الخيل إذا علّمه بعلامة، أو علّموا أنفسهم بعلامة حيث كانت عليهم عمام بيض وأرسلوا أذنانها على أكتافهم، وهناك قول آخر هو أن قوله تعالى: ﴿بلى﴾ لموضوع أحد، فإن الكفار هموا بالرجوع مرة ثانية بعد أن نالوا من المسلمين ما نالوا وخالف المسلمون فوعدهم الله تعالى أنهم إن رجعوا أمدهم بخمسة آلاف من الملائكة، لكن السياق يؤيد المعنى الأول، والله أعلم.

[١٢٧] ثم بيّن سبحانه أن إنزال الملائكة والوعد به ليس لأجل أنهم السبب في نصر المسلمين، بل لأجل البشارة وأما النصر فإنه من قبل الله وحده ولو بدون الملائكة، حتى تتقوى قلوب المسلمين في الجهاد

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ بِهِ وَمَا
النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٧﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا
مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَ الْإِيمَانُ فَإِنْ قَبِلْتُمْ فَبِعَلَمِكُمْ وَلَئِنْ
مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ

=====

﴿وما جعله الله﴾ أي ما جعل إنزال الملائكة والوعد به ﴿إلا بشرى لكم﴾ أي بشارة لكم أيها المسلمون ﴿ولنظمن قلوبكم به﴾ أي بهذا الإنزال والوعد ﴿وما النصر﴾ أي ليس العون ﴿إلا من عند الله العزيز﴾ في سلطانه ﴿الحكيم﴾ في أموره.

[١٢٨] أما حكمة نصر المسلمين على أعدائهم في هذه الغزوة وسائر الحروب فهي ﴿ليقطع﴾ أي يفصل ﴿طرفاً من الذين كفروا﴾ الطرف من الأنفس بالقتل، ومن الأراضي بالفتح ومن الأموال بالغنمة ﴿أو يكتسبهم﴾ أي يخزيهم حتى يرغموا وتقل شوكتهم ﴿فينقلبوا﴾ إلى أهلهم ﴿خائبين﴾ لم ينالوا بغنيمتهم بل انعكس الأمر فكتبوا وأرغموا.

[١٢٩] ﴿ليس لك﴾ يارسول الله ﴿من الأمر﴾ المرتبط بهؤلاء الكفار ﴿شيء﴾ فإن النصر والهزيمة والكبت كلها مرتبطة بإرادة الله سبحانه كما قال سبحانه: (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ) ^(١) وقال: (هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ) ^(٢) ثم رجع السياق إلى تميم قوله في الآية السابقة «أو يكتسبهم» ﴿أو يتوب عليهم﴾ بأن تكون نصرة المؤمنين على الكفار سبباً لهداية جماعة منهم إلى

(١) الأنفال: ١٨ .

(٢) الحشر: ٣ .

أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣٠﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ أَوْ يَضْعَفُ أَمْوَالَكُمْ أَمْ يَضْعَفُ

=====

الإيمان فيتوب الله سبحانه عليهم فيما فعلوا سابقاً من الكفر والعصيان ﴿أو يعذبهم﴾ بأن تظفروا عليهم فتأسروهم ﴿فإنهم ظالمون﴾ فتعذيبهم ليس ظلماً من الله عليهم بل لظلمهم أنفسهم فالأمر ليس بيدك يا رسول الله، وإنما ينصر الله المؤمنين لأحد أغراض أربعة: قطع طرف منهم، أو هزيمتهم وإرغامهم، أو هدايتهم، أو تعذيبهم. والاعتراض بجملة «ليس لك» لتركيز كون النصر من عند الله، فإن اعتراض جملة في وسط جملة متسقة توجب إلفات الذهن وتركيز المطلب أكثر من بيان الجملة في موقعها الطبيعي.

[١٣٠] ليس لك شيء ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض﴾ فيفعل ما يشاء بمن يشاء فإنه تصرف في ملكه لحكمة وغاية ﴿يغفر لمن يشاء﴾ ممن استحق الغفران بالطاعة والتوبة ﴿ويعذب من يشاء﴾ ممن استحق العذاب بالكفر والعصيان ﴿والله غفور رحيم﴾ فتعذيبه أقل من غفرانه فقد سبقت رحمته غضبه.

[١٣١] ويرجع السياق هنا إلى الربا والإنفاق مما مر بنا سابقاً، لمناسبة أن الربا من أسباب العذاب، والإنفاق، من أسباب الغفران ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة﴾ فإن من شأن الربا أن يتضاعف مرات ومرات فإن ربا الألف لو كان خمسيناً يصبح ربا الألف

وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ
 لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣٢﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ
 ﴿١٣٣﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
 السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٤﴾

=====

والخمسين - في سنة ثانية - ألفاً ومائة واثنين ونصف ، وهكذا يتضاعف
 الربا، ويمتص مال الفقراء وعملهم الذي يؤدون به الدين والربا معاً
 ﴿واتقوا الله﴾ خافوا عقابه ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي لكي تفوزوا بالثواب
 والنعيم .

[١٣٢] ﴿واتقوا النار﴾ فلا تفعلوا ما يوجبها ﴿التي أعدت﴾ وهيأت
 ﴿للكافرين﴾ الذين يكفرون في الاعتقاد أو في العمل، أو المراد الكفار
 العقائديون، والتخصيص بهم من أن العصاة أيضاً يذهبون إلى النار،
 وأن دوامها وبقاءها عليهم، أو أنهم معظمهم أهلها .

[١٣٣] ﴿وأطيعوا الله والرسول﴾ فيما يأمركم وينهاكم، وذكر الرسول ﷺ
 للتعظيم وإفادة أمره أمر الله سبحانه ﴿لعلكم ترحمون﴾ أي لكي ترحموا
 في الدنيا والآخرة .

[١٣٤] ﴿وسارعوا﴾ أي بادروا ﴿إلى مغفرة من ربكم﴾ أي سبب المغفرة
 وهو الأعمال الصالحة الموجبة لغفرانه سبحانه ﴿و﴾ إلى ﴿جنة
 عرضها﴾ أي سعتها - لا العرض مقابل الطول - ﴿السموات والأرض﴾
 فهي واسعة وسع السموات والأرض التي لا نهاية لها في التصور - فإن
 الفضاء الذي يعبر عنه بالسماء مما لا يصل الفكر إلى آخره ونهايته -
 ﴿أعدت﴾ وهيأت ﴿للمتقين﴾ أي الذين يتقون المعاصي .

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُطَيْبِ الْغَيْظِ
وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٥﴾
وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ
فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ
يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٦﴾

=====

[١٣٥] ثم بين المتقين بقوله سبحانه: ﴿الذين ينفقون﴾ أموالهم ﴿في السراء والضراء﴾ أي في حالتي اليسر والعسر، أو حالتي السرور والاعتماد ﴿والكاظمين الغيظ﴾ الذين يكظمون غيظهم ﴿والعافين عن الناس﴾ يعفون عنهم إذا ظلموهم ﴿و﴾ من فعل ذلك فهو محسن إلى نفسه وإلى الناس و﴿اللله يحب المحسنين﴾ ولا يخفى أن المتقي هو الذي يجمع الصفات الحميدة كلها لكنها نثرت في القرآن الحكيم بمناسبات . وسوف نفسر «المتقي» في كل مكان ببعض صفاته .

[١٣٦] ﴿والذين﴾ عطف على «الذين ينفقون» أي أن المتقين هم الذين ﴿إذا فعلوا فاحشة﴾ أي معصية تفحش، أي تتجاوز الحد ﴿أو ظلموا أنفسهم﴾ بما لا يبلغ حد الفاحشة، من سائر أقسام المعاصي، فالفاحشة أخذ من مفهومها كون المعصية كبيرة ﴿ذكروا الله﴾ أي تذكروا نهي الله وعقابه ﴿فاستغفروا لذنوبهم﴾ أي طلبوا غفران الله وندموا على ما فعلوا ﴿ومن يغفر الذنوب إلا الله﴾ وهو استغفار استعطافي فالقرآن الحكيم يستعطف المذنبين نحو التوبة والاستغفار ﴿ولم يصروا على ما فعلوا﴾ من المعاصي، بل أقبلوا وندموا ﴿وهم يعلمون﴾ أي يعلمون كون الفعل خطيئة، فلا يصرون

أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٧﴾ قَدْ خَلَتْ
 مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ
 عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٨﴾ هَذَا

=====

على الذنب مع علمهم به .

[١٣٧] ﴿أولئك﴾ المتقون الذين هذه صفاتهم ﴿جزاؤهم مغفرة من ربهم﴾
 يغفر ذنوبهم في الدنيا بسترها، وفي الآخرة بالعفو عنها ﴿وجنات
 تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من تحت نخيلها وأشجارها ﴿خالدين
 فيها﴾ أبد الآبدين ﴿ونعم أجر العاملين﴾ فإن الغفران والثواب من
 أفضل أجر العامل فإن أي أجر لا يبلغ مثل هذا الأمر الدائم الوارف .

[١٣٨] ﴿قد خلت﴾ أي مضت وسبقت ﴿من قبلكم﴾ أيها المخاطبون
 ﴿سنن﴾ جمع سُنَّة بمعنى الطريقة، فقد كانت في الأمم السالفة
 طرائق، طريقة الحق وطريقة الباطل، طريقة الخير وطريقة الشر .
 وهكذا ﴿فسيروا في الأرض﴾ اذهبوا إلى البلاد التي كانت فيها تلك
 الأمم المنقرضة ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ أي تعرفوا على
 أخبارهم حتى تعلموا أنهم لم يربحوا وإنما أتوا وكذبوا الرسل وتأمرؤا
 ثم ماتوا ودفنوا ولم يبقى لهم ذكر طيب في الدنيا ولم تدم لهم النعمة
 التي من أجلها عملوا ما عملوا وإنما انتقلوا إلى عذاب الله سبحانه،
 ليكون في ذلك عبرة لكم فلا تكونوا من المكذبين بل من المؤمنين
 المصدقين .

[١٣٩] ﴿هذا﴾ القرآن، أو هذا الذي ذكرنا من أحوال المؤمن والكافر، وما

بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٩﴾ وَلَا تَهِنُوا
وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٠﴾ إِن
يَمْسِكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ

قدمنا من العظة والإنذار ﴿بيان للناس﴾ دلالة وحجة وتوضيح لهم
كيف ينبغي أن يسلكوا ويعملوا ﴿وهدى﴾ يهديهم إلى الحق
﴿وموعظة﴾ وعظ وإرشاد ﴿للمتقين﴾ فإنهم هم الذين يستفيدون منه،
وإن كان بياناً للناس عامة.

[١٤٠] وهنا يرجع السياق إلى ذكر غزوة أحد، لتشجيع المؤمنين وتصبيرهم
على تحمّل المكاره، بعدما بين أحوال المؤمن والكافر، حتى تقوى
عزيمتهم، وتطمئن قلوبهم ﴿ولا تهنوا﴾ من الوهن أي لا تضعفوا عن
قتال الأعداء ﴿ولا تحزنوا﴾ مما نالكم من القتل والجرح والهزيمة
﴿وأنتم الأعلون﴾ الظافرون الغالبون فإن الظفر يذهب بحرارة الخسارة
﴿إن كنتم مؤمنين﴾ فإن من كان مؤمناً لا يهن ولا يحزن فإن طاقة
الإيمان تؤمن الإنسان بالقوة والفرح أما القوة فهي مستمدة من الله
سبحانه وأما الفرح فللغلبة أو لثواب الله سبحانه فيما لو غلب.

[١٤١] ثم بين سبحانه أن ما أصابهم من المكاره ليس خاصاً بهم بل
أصاب الكافرين مثل ما أصابهم فهم في ذلك سواء، لكن المؤمنين
يرجون ثواب الله سبحانه مما لا يترقبه الكافرون فهم أجدر بالصبر
والثبات وعدم الوهن والحزن ﴿إن يمسسكم﴾ أي يصبكم أيها
المسلمون في غزوة أحد ﴿قرح﴾ جرح وألم في أحد ﴿فقد مس
القوم﴾ الكافرين ﴿قرح مثله﴾ في أحد حيث أصيب الكفار بالألم
والجرح أيضاً، أو المراد مسهم القرح في بدر حيث قُتل المشركون

وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤١﴾

=====

وهُزِمُوا ﴿وتلك الأيام﴾ أيام النصر والهزيمة وأيام القرح ﴿نداولها﴾ أي نصرَها ﴿بين الناس﴾ فيوم لهؤلاء على أولئك، ويوم لأولئك على هؤلاء، فإذا نصرنا المؤمنين كان ذلك لإيمانهم وإذا هُزِمُوا كان امتحاناً لهم.

﴿وليعلم الله الذين آمنوا﴾ أي أن صرف الأيام ليطيّر المؤمنين الحقيقي من غيره فإنه «عند تقلب الأحوال تعرف جواهر الرجال»^(١) و«عند الامتحان يُكرم الرجل أو يهان»^(٢)، ومعنى «ليعلم» أن معلومه سبحانه يقع في الخارج، لا أنه كان جاهلاً - سبحانه - ثم علم، فإن العلم لما كان أمراً إضافياً بين العالم والمعلوم، يقال علم باعتبارين، أما باعتبار العالم فيما كان جاهلاً ثم علم، وأما باعتبار المعلوم فيما كان المعلوم غير خارجي ثم صار خارجياً ﴿و﴾ ﴿يتخذ منكم شهداء﴾ أي أن مداولة الأيام لفوائد ومن جملة تلك الفوائد أن يتخذ الله سبحانه منكم مقتولين يستشهدون في سبيل الله ويبلغون الدرجات الراقية بالشهادة، أو ليكون جماعة شهداء على آخرين بالصبر أو الجزع، بالثبات أو الهزيمة، فإن إيصال جماعة قابلة إلى مرتبة أن يكونوا شهداء نعمة وغرض رفيع، لكن المعنى الأول أقرب ﴿والله لا يحب الظالمين﴾ الذين يظلمون أنفسهم بالكفر، أو بالهزيمة.

(١) راجع بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٦٣ .

(٢) غرر الحكم: ص ١٠٠ .

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٢﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٣﴾

=====

[١٤٢] ﴿و﴾ من فوائد تداول الأيام بين الناس أنه ﴿ليمحص الله الذين آمنوا﴾ أي يخلصهم من المنافقين فيتبين المؤمن من المنافق، أو يخلصهم من الذنوب، فإن بالأهوال تذاب الذنوب، وبالشدائد تكفر الخطايا ﴿و﴾ ﴿لمحوق الكافرين﴾ يهلكهم، فإن الكفار ينقصون شيئاً فشيئاً حتى يهلكوا جميعاً.

[١٤٣] ثم يبين سبحانه فائدة أخرى لتداول الأيام وهي أن المؤمن لا يدخل الجنة بمجرد إظهار الشهادتين وإنما اللازم أن يجاهد ويعمل وفي تداول الأيام يحصل هذا العمل وهذا الامتحان المؤهل لدخول الجنة، لكنه جاء الكلام في صورة الاستفهام تلويحاً في الكلام، وتفناً في التعبير ﴿أم حسبتم﴾ أي هل حسبتم وظننتم أيها المسلمون ﴿أن تدخلوا الجنة﴾ بمجرد الإيمان بدون الامتحان ﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ أي لم يقع منكم جهاد حتى يتعلق علم الله به ﴿و﴾ لما ﴿يعلم الصابرين﴾ فلم يقع منهم صبر حتى يتعلق به علم الله سبحانه ودخول الجنة بدون الجهاد والصبر لا يكون، فتداول الأيام يوجب جهاد المؤمنين وصبرهم حتى يتأهلوا لدخول الجنة.

[١٤٤] ثم يشير القرآن الحكيم إلى تأنيب المؤمنين في موقفهم يوم أحد، حيث أن جماعة منهم قبل الغزوة كانوا يتطلعون إلى الجهاد ويتمنون الاستشهاد ثم فروا منهزمين، وفوق ذلك أن إيمان بعضهم كان بدرجة

وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ
تَنْظُرُونَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ
أَفَاِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى
عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

من الوهن حتى أنهم لما سمعوا بموت الرسول ﷺ كادوا أن يرتدوا
﴿ولقد كنتم﴾ أيها المؤمنون ﴿تمنون الموت من قبل أن تلقوه﴾ ولقاء
الموت كناية عن لقاء مقدماته والوقوع في الأهوال المنتهية إليه ﴿فقد
رأيتموه﴾ في الغزوة إذ رأيتم غلبة الكفار وقتل جماعة من المؤمنين
﴿وأنتم تنظرون﴾ أي تشاهدون المعركة، وهذا تأكيد لمعنى «رأيتموه»
حتى لا يتوهم أحد أن الرؤية كانت بالقلب، فإن «رأى» يستعمل بمعنى
«علم».

[١٤٥] ﴿وما محمد﴾ ﷺ ﴿إلا رسول﴾ أي ليس هو إلهاً لا يموت إنما
هو بشر اختاره الله للرسالة فيجري عليه ما يجري على البشر من
الموت والقتل، وليس بدعاً من الرسل بل ﴿قد خلت﴾ أي مضت
وتقدمت ﴿من قبله الرسل﴾ الذين جرت عليهم سنة الله من الموت
ومفارقة الحياة ﴿أفإن مات﴾ موتاً اعتيادياً ﴿أو قتل﴾ واستشهد
﴿انقلبتم على أعقابكم﴾ استفهام إنكاري توبيخي أي لم يكن حالكم
هكذا، حتى ترتدوا بموت النبي، وكفى عن الارتداد بالمشي القهقري
«الانقلاب على الأعقاب» الذي هو رجوع نحو الوراء ﴿ومن ينقلب
على عقبه﴾ أي من يرتد عن دينه ﴿فلن يضر الله شيئاً﴾ إذ الله
سبحانه غني مطلق لا يحتاج إلى إيمان أحد حتى يضره ارتداده
﴿وسيجزي الله الشاكرين﴾ الذين يشكرون نعمة الإيمان ويثبتون عليه

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا
وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ
الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٦﴾

وَكَايْنٍ مِّنْ نَّبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۖ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٧﴾
 وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا
 فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٨﴾

=====

[١٤٧] وما لكم أيها المسلمون وهتم في غزوة أحد وفررتم؟ ألم يمكنكم الاقتداء بالمؤمنين السابقين الذين كانوا مع الأنبياء يصمدون في وجه الباطل؟ ﴿وكاين من نبي قاتل معه ربيون كثير﴾ فإن كثيراً من الأنبياء عليهم السلام قاتلوا، وجاهد معهم وتحت لوائهم أناس من المؤمنين ربانيين منسوبون إلى الرب تعالى بالطاعة والعبادة والإيمان، أو بمعنى اختيار فقهاء ﴿فما وهنوا﴾ أي ما فتروا ﴿لما أصابهم﴾ من القتل والسلب والجروح والقروح ﴿في سبيل الله﴾ للتنبيه على شدائدهم التي كانت في سبيل الله سبحانه ﴿وما ضعفوا﴾ عن عدوهم ﴿وما استكانوا﴾ أي ما خضعوا ولا تضرعوا لعدوهم ﴿والله يحب الصابرين﴾ الذين يصبرون في الشدائد وفي الحروب.

[١٤٨] ﴿وما كان قولهم﴾ أي قول أولئك الربانيون عند الجهاد وملاقاة الأعداء ﴿إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا﴾ فكانوا يستغفرون عند اللقاء مما فات منهم من الذنوب استعداداً للقاء الله سبحانه طاهرين ﴿وإسرافنا في أمرنا﴾ أي تجاوزنا الحدود وتفريطنا وتقصيرنا ﴿وثبت أقدامنا﴾ حتى لا تزل أمام الأعداء فننهزم ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ فهم جاهدوا وجلين من ذنوبهم لم يطلبوا إلا العفو في تواضع وخشوع، ولم يقصدوا إلا نصره الدين على القوم الكافرين.

فَعَالَتْهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا
 الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا
 خَاسِرِينَ ﴿١٥٠﴾

[١٤٩] ﴿ف﴾ جزاء على ما سلف منهم من الصبر والثبات والجهاد في خشوع وتواضع ﴿آتاهم الله﴾ أي أعطاهم الله سبحانه ﴿ثواب الدنيا﴾ بالفتح والغلبة والعزة والرفاه ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ بجنت تجري من تحتها الأنهار، أي ثواب الآخرة الحسن، والإتيان بكلمة «حسن» هنا دون «ثواب الدنيا» لعله للإشارة إلى أن ثواب الآخرة هو الذي يوصف بالحسن، أما الدنيا فإنها زائلة فلا قيمة لثوابها، أو المراد «أحسن» أقسام ثواب الآخرة الذي لا يعطى إلا للمجاهدين، بخلاف الدنيا فإن ثوابها عام للبرّ والفاجر ﴿والله يحب المحسنين﴾ ومحبة الله سبحانه فوق كل ثواب كما قال: (وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ) ^(١).

[١٥٠] لما اشتد الأمر يوم أحد أخذ جماعة من المنافقين يدعون الناس إلى الارتداد عن دينهم حتى يستريحوا فأنزل الله فيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من المنافقين، أو من اليهود والنصارى الذين أخذوا يشيعون أن محمداً ﷺ قتل فارجعوا إلى دينكم وعشائركم ﴿يردوكم على أعقابكم﴾ كفاراً كما كنتم ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ قد خسرت الدنيا والدين، فإن دنيا الجاهلية كانت فوضى وفقراً ورذيلة.

بَلِ اللَّهِ مَوْلَانَكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥١﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ۖ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا ۖ وَمَأْوَهُمُ النَّارُ ۖ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥٢﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ ۖ

=====

[١٥١] ﴿بل الله مولاكم﴾ أي هو أولى بكم من الكفار والمنافقين، وهو ينصركم على أعدائكم ﴿وهو خير الناصرين﴾ لأن في نصرته خيراً للدارين بخلاف نصره غيره.

[١٥٢] ﴿سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب﴾ أي نقذف الخوف والفرع في قلوبهم حتى تغلبوهم وهكذا ينصركم الله تعالى ﴿بما أشركوا بالله﴾ أي بسبب شركهم ﴿ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي برهاناً وحجة، فإن شركهم كان تقليداً لا عن دليل وحجة ﴿ومأواهم﴾ أي محلهم ومستقرهم ﴿النار﴾ في الآخرة ﴿وبئس مثوى الظالمين﴾ أي أن النار بئس مقام الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر. وقد ورد أن الآية نزلت حين هم المشركون - يوم أحد - بالرجوع إلى المسلمين لاستئصالهم عن آخرهم فلما عزموا ذلك ألقى الله في قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما هموا به، ولا يخفى أن إلقاء الرعب في قلب الكافر أمر طبيعي فإن المسلم يستمد القوة من الله سبحانه أما الكافر فحيث لا يعتقد به سبحانه يكون قلبه هواء فيتسرب إليه الخوف.

[١٥٣] ثم بين سبحانه أن هزيمتهم يوم أحد لم تكن إلا بسبب مخالفتهم أوامر الله والرسول ﷺ، وإلا فالله سبحانه نصرهم كما وعد، حتى هزموا المشركين ﴿ولقد صدقكم الله وعده﴾ وفي لكم بما وعد من نصرتكم

إِذْ تَحْسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي
الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَّا تَحِبُّونَ
مِّنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ
الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُم عَنْهُمْ

=====

على الكفار ﴿إذ تحسونهم بإذنه﴾ أي تقتلونهم، فإن «حسه» بمعنى قتله وأبطل حسه وحياته، ومعنى «بإذنه»: بأمره، فإن الله أذن لهم في القتال كما قال: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلِمُوا) ^(١)، ﴿حتى إذا فشلت﴾ جبتم وكفتم وخالفتم أمر الرسول ﴿وتنازعتم في الأمر﴾ هل يبقى الرماة الخمسون في الشعب كما أمرهم الرسول أم يخرجوا يجمعون الغنائم؟ - كما تقدم - ﴿و﴾ بالآخر ﴿عصيت﴾ أمر الرسول في لزوم أماكنكم فتخليتم عن الشعب، فقد تخلى من الخمسين سبع وثلاثون ﴿من بعد ما أراكم﴾ الله سبحانه ﴿ما تحبون﴾ من هزيمة الكفار ونصرة المسلمين ﴿منكم﴾ أيها المسلمون ﴿من يريد الدنيا﴾ وهم الذين خالفوا الرسول طلباً للغنيمة ﴿ومنكم من يريد الآخرة﴾ وهم: عبد الله رئيس الرماة في الشعب واثنى عشر من أصحابه الذين ثبتوا في أماكنهم ﴿ثم صرفكم﴾ أيها المسلمون ﴿عنهم﴾ أي عن الكفار، بل توجهتم إلى الغنائم عوض أن تحتفظوا بأماكنكم، فإن في حفظ المكان كان توجهاً نحو الكفار لئلا يرجعوا إلى المسلمين من ورائهم، بخلاف التوجه نحو الغنيمة فإنه كان صرفاً عن الكفار، وإضافته إليه سبحانه كسائر الإضافات نحو «ومن يضل» أو باعتبار أن الصرف كان عقوبة لهم على إرادتهم للدنيا

لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٣﴾ إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ
 وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَتَّبَكُمُ غَمًّا بَغَمٍ
 لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ
 وَاللَّهُ خَبِيرٌ

﴿ليبتليكم﴾ أي يمتحنكم ويختبركم ، حتى يظهر ما أنتم عاملون ﴿ولقد عفا﴾ الله سبحانه ﴿عنكم﴾ خطيئتك بمخالفة الرسول ﷺ ﴿والله ذو فضل على المؤمنين﴾ ينصرهم على أعدائهم ويعفو عن ذنوبهم ، ومعنى الفضل : المن والنعمة ، فإنه يعطيهم فضلاً أي فوق استحقاقهم .

[١٥٤] ولقد عفا عنكم ﴿إذ تصعدون﴾ أي تذهبون في وادي أحد للانزمام ، فإن الإصعاد الذهاب في الأرض ﴿ولا تلوون على أحد﴾ أي لا تلتفتون إلى أحد من ورائكم بل كل همكم السرعة في الفرار حتى لا يأتاكم الطلب ﴿والرسول﴾ محمد ﷺ ﴿يدعوكم﴾ يناديكم ﴿في أخراكم﴾ أي من ورائكم ، يقال : جاء فلان في آخر الناس أي من ورائهم ﴿فأتابكم﴾ أي جازاكم الله على فراركم ﴿غماً﴾ متصلاً ﴿بغم﴾ غم الهزيمة وغم القتلى الذين قتلوا منكم - ويحتمل في اللفظين أمور - ﴿لكي لا تحزنوا على ما فاتكم﴾ من الخير ﴿ولا ما أصابكم﴾ من الضرر ، فإن الإنسان إذا وقع في الشدائد وجربها ومارسها تصلب نفسه وتقوى روحه فلا تتزعزع بمصيبة ولا تهتز بكارثة ، وهكذا كانت هزيمة أحد درساً وعبرة حتى يصغر في نفوس المسلمين كل ما يفوتهم من خيرات وكل ما يصيبهم من شرور وآلام ﴿والله خبير﴾ ذو خبر واطلاع

بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٤﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً
نُفَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ
يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ
الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا
لَا يُبْدُونَ لَكَ

=====

﴿بما تعملون﴾ فيجازيكم على حسب أعمالكم .

[١٥٥] ﴿ثم أنزل﴾ الله ﴿عليكم من بعد الغم﴾ الذي غشيكم لهزيمتكم
﴿أمنة﴾ أي أمناً ﴿نعاساً﴾ أي نوماً ، وهو بدل اشتغال لـ «أمنة» فإنهم ناموا
من شدة التعب والنصب بعدما ذهب خوفهم وذهب الكفار ، و«أمنة»
مصدر كالعظمة والغلبة . لكن هذا النعاس كان ﴿يغشى طائفة منكم﴾ فقط
الذين كانوا يعلمون أن محمداً ﷺ حق وأن الله لا يتركه وأن ما أصابهم
يوجب الثواب والفائدة لهم ﴿و﴾ هناك ﴿طائفة﴾ ثانية كانوا مع النبي
منافقين ﴿قد أهمتهم أنفسهم﴾ يفكرون في هزيمتهم لا ينامون من الحزن
والخوف حين انتشر بينهم أن الكفار عازمون على الرجوع وكانوا يشكون
في نصرته الله ولذا لم يتمكنوا أن يناموا خوفاً ﴿يظنون بالله غير الحق﴾ وأنه
لا ينصر نبيه ﴿ظن الجاهلية﴾ من الكفار المكذبين بوعد الله سبحانه
﴿يقولون﴾ ما في نفوسهم من ظنون الجاهلية : ﴿هل لنا من الأمر﴾ أمر
الغلبة والنصرة ﴿من شيء﴾ في مقام الاستنكار والتعجب أن ينتصروا على
الكفار إذا رجعوا ﴿قل﴾ لهم يا رسول الله : ﴿إن الأمر كله لله﴾ ينصر من
يشاء ، فللمسلمين النصر والغلبة بإعطاء الله لهم إياها ﴿يخفون﴾
هؤلاء المنافقين ﴿في أنفسهم﴾ النفاق والكفر ﴿ما لا يبدون لك﴾

يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ
 كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى
 مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي
 قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا
 مِنْكُمْ

=====

أي لا يتجربون على إظهاره ﴿يقولون لو كان لنا من الأمر﴾ أي من النصره
 والغلبة ﴿شيء﴾ وكنا حقيقة منصورين ﴿ما قُتلنا﴾ أي ما قتل أصحابنا
 ﴿هاهنا﴾ في غزوة أحد ﴿قل﴾ يا رسول الله في جوابهم: إن كون
 الأمر لنا لا يلزم أن لا يُقتل منا أحد فإن الإنسان يموت إذا جاء أجله
 ولو كان في داره ومنزله ﴿لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم
 القتل إلى مضاجعهم﴾ أي خرج الذين كتب عليهم القتل - بأن رُقِم
 موتهم في اللوح المحفوظ - إلى مصارعهم. و«مضاجع» جمع مضجع
 بمعنى محل النوم ﴿وليبتلي الله ما في صدوركم﴾ يختبر الله ما في
 صدوركم، فإن ما في الصدور من الإخلاص والنفاق، والثبات
 والوهن، إنما يظهر عند الشدائد والمحن، وهذا عطف على قوله:
 «ليبتليكم» أو مستأنفة، أي فعل الله سبحانه ما فعل ليبتلي
 ﴿وليمحص﴾ أي يخلص ﴿ما في قلوبكم﴾ بأن يكشفه للناس ولكم،
 حيث أن الإنسان يظن أشياء فإذا حدث الحادث يظهر له خلاف ما كان
 يظن بنفسه ﴿والله عليم بذات الصدور﴾ فليس الامتحان لأن يعلم هو
 تعالى، بل لأن يظهر ما يعلمه.

[١٥٦] ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾ أدبروا وانهزموا ﴿منكم﴾ أيها المسلمون

يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا
 كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٦﴾
 يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
 إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَّوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا
 وَمَا قُتِلُوا

=====

﴿يوم التقى الجمعان﴾ يوم أحد الذي التقى فيه جمع المسلمين
 بقيادة الرسول ﷺ بجمع المشركين بقيادة أبي سفيان
 ﴿إنما استزلهم الشيطان﴾ طلب زلتهم وعصيانهم ﴿ببعض ما
 كسبوا﴾ أي بسبب بعض المعاصي التي كانوا يعملونها فأخذتهم
 عاقبتها وشؤمها ﴿ولقد عفا الله عنهم﴾ بعدما ندموا ورجعوا ﴿إن
 الله غفور﴾ يغفر للمذنب إذا تاب ﴿حليم﴾ لا يعجل بالعقوبة بل
 يمهل المذنب كي يتوب ويثوب.

[١٥٧] ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا﴾ اعتقاداً، وهم الكفار
 الذين لا يدينون بما وراء الغيب، أو كفروا عملاً وهم المنافقون ومن
 أشبههم ﴿وقالوا لإخوانهم﴾ في العقيدة، أو في الإنسانية، حتى يشمل
 قول الكافرين للمؤمنين وقوله: «لإخوانهم» أي قالوا بالنسبة إلى الإخوان
 الذين سافروا فماتوا، أو حاربوا فقتلوا ﴿إذا ضربوا في الأرض﴾ أي
 ذهبوا لأجل التجارة ونحوها، يقال: ضرب فلان في الأرض إذا سافر،
 وتخصيص الأرض بالذكر، لكون السفر غالباً عن طريق البر ﴿أو كانوا
 غُزًى﴾ جمع «غاز»، أي حاربوا الأعداء: ﴿لو كانوا عندنا﴾ مقيمين في
 أوطانهم ﴿ما ماتوا وما قتلوا﴾ فقد حسبوا أن الموت والقتل إنما هما

لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يَخِيءُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٧﴾

=====

بالأسباب الطبيعية بما وراء المادة والإحساس . مع أن الموت والقتل لا يكونان إلا بتقدير وقضاء وليس يفيد في ذلك البقاء ، وفي هذا رد لإرجاف المنافقين الذين كانوا يُلقون تبعة قتل المؤمنين في أحد على النبي وأنه ﷺ أخرجهم فقتلوا ، ومعنى القضاء والقدر في الأمور التكوينية : التخطيط وتهيئة الأسباب ، فكما أن المهندس الذي يريد بناء دار يخطط شكل الدار المراد بنائها ثم يحضر مواد البناء من آجر وجص وحديد وخشب ، كذلك ما في العالم من الأمور التكوينية خُططت وعلمها الله سبحانه وأحضرت موادها . لكن ليس معنى ذلك أن الأمور خارجة عن أيدي البشر وإنما جعل الدعاء والصدقة والأسباب الظاهرة مستثنيات للتخطيط والآلات والأسباب وكل ذلك أيضاً بعلمه سبحانه ، وعلى كل فليس الموت والقتل مما يكون سببهما السفر والغزو كما زعمه الكفار بل هناك أسباب خفية تدير هذين الأمرين إلى جنب الأسباب الظاهرية ، فليس كل سفر وغزو موجباً للموت كما ليس كل إقامة موجباً للبقاء ، والكفار إنما قالوا ذلك يريدون تثبيط الناس عن الجهاد ﴿ليجعل الله ذلك﴾ الاعتقاد - المفهوم من الكلام - ﴿حسرة في قلوبهم﴾ لما حصل لهم من الخيبة حيث رأوا رجوع إخوانهم من السفر والجهاد بالربح والظفر ، ومن الطبيعي أن يحزن ويخسر الشخص الجامد لما ناله الشخص المتحرك من الخير والتقدم المحتمومين ، واللام في «ليجعل» إما لام الأمر ، لبيان التأكيد ، أو لام العاقبة ، أي كانت عاقبة هذا الاعتقاد الحسرة والحزن ﴿والله يحيي﴾ الأرض والجماد والإنسان ﴿ويميت﴾ فليس السفر والغزو تمام سبب الموت ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فارغبوا في الطاعة

وَلَيْنَ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ
 خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٨﴾ وَلَيْنَ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ
 تُحْشَرُونَ ﴿١٥٩﴾ فِيمَا رَحِمَهُ مِّنَ اللَّهِ لَئِنْ لَّهُمْ

والجهاد، واحذروا من المخالفة والفرار، فإن الله سبحانه يعلم أعمالكم، ويُبصر صُنْعَكُمْ.

[١٥٨] ثم لنفرض أن السفر والغزو سبب الموت فهل الموت مع المغفرة خير أم الحياة لجمع الأموال التي يحياها الكافر الذي يبقى في بلده ﴿ولئن قُتِلْتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿في سبيل الله﴾ وجهاد أعدائه ﴿أو مُتُّمْ﴾ في سبيل اكتساب الرزق والتجارة والضرب في الأرض ﴿لمغفرة من الله ورحمة﴾ حيث يغفر لكم ويرحمكم حيث كنتم مطيعين له ممثلين أمره ﴿خير مما يجمعون﴾ أي يجمع هؤلاء الكفار الباقون في بلدكم خوفاً من الخروج، فإن من يبقى يكتسب ويجمع مالا.

[١٥٩] ثم أن الموت والقتل لا يسببان انقطاع الحياة حتى يخشاها الإنسان ويرفع اليد عن مقاصده العالية من خشيتها ﴿ولئن مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم فخير لكم أن تطيعوه حتى تكونوا مُراداً لثوابه وفضله.

[١٦٠] وهنا يلتفت السياق ليشير في النبي ﷺ عاطفته الكامنة نحو المؤمنين حتى يعفو عن خطأهم في أحد، حيث أدخلوا الشعب حتى سيطر المشركون على المعركة، وفعلوا تلك الأفاعيل بالنبي ﷺ وأصحابه من جرح وقتل وتمثيل ﴿فبما رحمة من الله﴾ «ما» زائدة أي بسبب رحمة من الله سبحانه على المؤمنين ﴿لئن لهم﴾ أي كنت لينا رحيماً بهم فقد

XX

[١٦١] ﴿إِنْ يَنْصَرِكُمْ اللَّهُ﴾ أيها المؤمنون، وذلك إذا استحققتُم ذلك بإيجاد أسباب النصر وإطاعة أوامره سبحانه ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أي لا يقدر أحد على أن يغلبكم ﴿وَأِنْ يَخْذَلْكُمْ﴾ وخذلان الله سبحانه أن يكلمهم إلى أنفسهم ولا يُعينهم في أمورهم ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصَرِكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ استفهام استنكاري، أي لا يكون ناصر لكم ينصركم من بعده سبحانه

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦١﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ
وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ
مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٢﴾ أَفَمِنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ
كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا لَهُ جَهَنَّمَ وَيُسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٦٣﴾

﴿وعلى الله فليتكول المؤمنون﴾ يثقون به ويعتمدون عليه .

[١٦٢] لقد كان من أسباب تخلي المسلمين عن مكانهم من الجبل - يوم
أحد - خوفهم ألا يقسم لهم الرسول ﷺ من الغنائم ، وقد تكلم بعض
المنافقين في وقعة بدر حول قطيفة حمراء فقدت فقالوا بأن الرسول
أخذها ، ولذا نزلت الآية نافية أن يغل الأنبياء ويخونوا ﴿وما كان لنبي أن
يغل﴾ أي لا يجوز للأنبياء الغلول أي الخيانة ، والخيانة محرمة مطلقاً
لكن المورد أتى خاصاً حيث أن الكلام كان حوله ﴿ومن يغلل﴾ شريفاً
كان أو ضيعاً قليلاً كان غلوله أو كثيراً ﴿يأت بما غل يوم القيامة﴾ وفي
الحديث : «يأتي به على ظهره»^(١) . ﴿ثم توفى كل نفس ما كسبت﴾ أي
تعطى جزاء كسبها كاملاً غير منقوص ﴿وهم لا يظلمون﴾ فلا ينقص من
أجورهم شيء ولا يعذبون فوق استحقاقهم .

[١٦٣] ﴿أفمن اتبع رضوان الله﴾ باتباع أوامره واجتناب نواهيه ﴿كمن باء﴾
أي رجع ﴿بسخط من الله﴾ فكأنه رجع إلى أعماله الدنيئة بعد أن ذهب
إلى الله سبحانه فعلم ماذا يريد ، فقد رجع مع السخط بينما رجع غيره
مع الرضوان ﴿وماواه﴾ أي مرجعه ومصيره ﴿جهنم وبئس المصير﴾ أي

(١) بحار الأنوار: ج ٧ ص ٦٨ .

هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٤﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ

أن المحل الذي صار إليه محل سيئ، فعلى الإنسان أن لا يفر من الحرب ولا يتخلف عن أمر الله والرسول ﷺ حتى يئو بالغضب والسخط ويكون مصيره النار.

[١٦٤] ﴿هُمْ﴾ أي هؤلاء الذين باءوا بالسخط والذين اتبعوا رضوان الله، ذوو ﴿درجات عند الله﴾ فللمؤمنين درجات رفيعة ولغيرهم درجات بذية، أو أن لكل فريق درجات من حيث القرب والبعد، وحذف كلمة «ذوو» لما تعارف من المجاز في هذه التعبيرات بعلاقة الحال والمحل فيقال عند العد: زيد الدرجة الأولى، عمرو الدرجة الثانية، وهكذا ﴿والله بصير بما يعملون﴾ فيجازيهم حسب أعمالهم فلا يزهّد الإنسان في الإحسان لأنه لا يُقدَّر، ولا يجري العاصي في المعصية لأنه لا يرى.

[١٦٥] إن النعمة التي أنعم الله بها على المسلمين مما يوجب شكرها والتضحية في سبيلها فهي نعمة كبيرة جداً لا تماثلها نعمة ولا يبلغ شأنها إحسان ومِنَّة ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ﴾ أي أنعم الله، فإن المَنَّ القطع، وتسمى النعمة مَنَّةً لأنها تقطع الإنسان عن البلية والفاقة ﴿على المؤمنين﴾ إنما خصوا بالذكر مع أن المنة عامة لأنهم هم الذين استفادوا منها دون سواهم ﴿إذ بعث فيهم رسولاً﴾ فإنه أعظم النعم، ولذا لم يمن الله على الإنسان بأية نعمة سواها، فإن في الإرسال صلاح الدين والدنيا والآخرة وإكمال البشر حسب قابلياتهم ﴿من أنفسهم﴾ تذكير بنعمة أخرى، إذ كون الرسول ﷺ من جنس البشر -

يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٥﴾ أَوْ
لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا

=====

لا الملائكة والجن - تشریف لهم وإظهار لفضل هذا النوع، وحيث أن السياق حول مؤمن الأنس لا يستشكل بأن المؤمنين أعم من الجن وليس الرسول من أنفسهم ﴿يتلو﴾ الرسول ﴿عليهم آياته﴾ تلاوة، كما يتلو المعلم الدرس على التلميذ ﴿ويزكيهم﴾ يطهرهم من الأدناس الظاهرية بأوامر النظافة وما أشبه، والأقذار الخلقية والاعتقادية بإرشادهم إلى الحق والفضيلة ﴿ويعلمهم الكتاب﴾ يفهمهم معانيه، وهو غير التلاوة ﴿والحكمة﴾ وهو علم الشريعة، أو مطلقاً، بمعنى أنه يعلمهم مواضع الأشياء خيرها وشرها فإن الحكمة كما قالوا: «وضع الشيء موضعه». ﴿وإن كانوا من قبل﴾ أي قبل أن يأتيهم الرسول ﴿لفي ضلال مبين﴾ أي انحراف واضح في عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، فعلى المؤمنين أن يضحوا في سبيل هذه النعمة بكل غالٍ ورخيص، فما فعلوا يوم أحد كان خلاف الشكر، وما ضحوا فيه لم يكن كثيراً مقابل هذه النعمة العظمى.

[١٦٦] ﴿أو لما أصابتكم مصيبة﴾ أي هل أنتم بحيث لما أصابتكم مصيبة في أحد والحال أنكم في بدر ﴿قد أصبتم﴾ من الكفار ﴿مثلها﴾ فإنه قتل منكم في أحد سبعين، وقد أصبتم من الكفار مائة وأربعين إذ قتلتم منهم سبعين وأسرتم منهم سبعين في واقعة بدر ﴿قلتم أنى هذا﴾ أي من أي وجه أصابنا هذا ونحن مسلمون، وهذه الجملة «أولما..» استنكارية أي كيف تستنكرون إصابتكم بأحد والحال أنكم قد أصبتم

قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٦﴾
وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَيِّ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ
﴿١٦٧﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

في بدر مثلي ما أصابكم، ثم أن هذه الإصابة كانت لضعف نفوسكم حيث أغراكم المال وأخلتكم أماكنكم في الجبل ﴿قل﴾ يا رسول الله: ﴿هو﴾ أي ما أصابكم ﴿من عند أنفسكم﴾ الجشعة إلى حب الغنيمة والمال ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ يقدر أن ينصركم على أعدائكم كما يقدر أن يخذلكم حين تتركون أوامره، وفي بعض الأحاديث: أنهم في بدر خيروا بين أخذ الفدية من الأسرى على أن يقتل منهم في العام القابل سبعون بعدد الأسرى، وبين أن يقتلوا الأسرى ولا يأخذون الفدية. فطلبهم للمال أوجب اختيار الأول، وعلى هذا كان ما أصابهم في أحد «من عند أنفسهم».

[١٦٧] ﴿وما أصابكم﴾ أيها المسلمون ﴿يوم التقي الجمعان﴾ أي حين تلاقى المسلمون والكفار في يوم أحد ﴿فبإذن الله﴾ أي بعلمه، أو بأنه لم يخل بين الكفار وبينكم حتى أصابوا منكم. وهذا كالأذن تكويناً، وقد أذن سبحانه لفائدة التمييز بين المؤمن والمنافق ﴿وليعلم﴾ أي يتحصل علمه في الخارج ﴿المؤمنين﴾ الذين جاهدوا.

[١٦٨] ﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ أظهروا الإسلام وأبطنوا النفاق وهم ابن أبي سلول وجماعته حيث أنهم انخذلوا يوم أحد نحواً من ثلاثمائة رجل قالوا: علام نقتل أنفسنا؟! ﴿وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله﴾ فإن عمرو بن حزام الأنصاري قال لهم هذه المقالة

أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ
يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي
قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٨﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا

=====

﴿أو ادفعوا﴾ عن حريمكم وأنفسكم فإن الكفار إذا غلبوا نكلوا بكم
﴿قالوا﴾ أي قال أولئك المنافقون في جواب المؤمنين: ﴿لو نعلم قتالاً
لاتبعناكم﴾ فإن هذا الذي تخوضونه ليس بقتال إذ لو كان قتالاً لأخذتم
برأينا فيه، أو تريدون إلقاء النفس في التهلكة فليس هذا قتالاً يتكافأ فيه
الجانبان، ﴿هم﴾ أي هؤلاء المنافقون ﴿للكفر يومئذ أقرب منهم
للإيمان﴾ فكلما عمل المنافق بالخلاف كان أقرب إلى الكفر وكلما عمل
بالوفاق كان أقرب إلى الإيمان ﴿يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم﴾
فأفواههم تنطق بالإيمان وقلوبهم تضمّر الكفر والعصيان ﴿والله أعلم بما
يكتُمون﴾ في قلوبهم فيجازيهم حسب نفاقهم المضمّر.

أقول: الظاهر أن قوله: «وليعلم» إلى آخره، ليس عطفاً على
«بإذن الله» إذ يكون المعنى حينئذ أن الإصابة علة للتمييز، والحال أن
إعلان الجهاد كان علة ذلك، فقوله: «ليعلم» جملة مستأنفة، أي أن
حرب أحد كانت لأجل التمييز بين المؤمن والمنافق، في جملة فوائدها
الأخرى.

[١٦٩] ثم ذكر سبحانه صفة أخرى للذين نافقوا بأنهم هم ﴿الذين قالوا
لإخوانهم﴾ أي قالوا حول إخوانهم الذين ذهبوا إلى ساحات الجهاد
فقتلوا ﴿وقعدوا﴾ أي قعد هؤلاء المنافقون عن القتال ﴿لو أطاعونا﴾

مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٩﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٧٠﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ

=====

في تركهم الخروج ﴿ما قتلوا﴾ جملة «لو أطاعونا ما قتلوا» مقول قولهم. ﴿قل﴾ لهم يا رسول الله: ﴿فادرءوا﴾ أي ادفعوا ﴿عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين﴾ في مقالكم أن البقاء في البيت موجب لعدم موت الإنسان، فمن أين لكم أن من يبقى في بيته لا يموت، فكم من الذين بقوا في بيوتهم وماتوا وكم خرجوا في القتال ورجعوا سالمين؟!

[١٧٠] ولو فرضنا أن الخارج إلى الجهاد قتل، فما يضره ذلك، فإن من استشهد في سبيل الله لا تنتهي حياته بل يبقى حياً يرزق ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أَمْوَاتًا﴾ فكما أن هذه الحياة المادية ذات مراتب، فمرتبة منها كاملة فيمن كان سعيداً فرحاً، ومرتبة منها ناقصة فيمن كان شقيماً حزيناً. كذلك من مات يكون على قسمين - بعد بقاء كليهما في حياة من لون آخر - قسم يكون حياً هناك أي سعيداً فرحاً، وقسم يكون ميتاً هناك أي شقيماً حزيناً، فليس للآية الكريمة مفهوم أن غير المقتول لا حياة له هناك ﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ حياة غير مادية بل حياة عند ربهم ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً.

[١٧١] في حال كونهم ﴿فرحين بما آتاهم الله من فضله﴾ من الحياة الباقية والسعادة والخير ﴿ويستبشرون﴾ أي يُسرّ هؤلاء المقتولون في سبيل

بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
يَحْزَنُونَ ﴿١٧١﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ
لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾

الله ﴿بالذين لم يلحقوا بهم﴾ من المؤمنين الذين بقوا في الحياة وبقوا
﴿من خلفهم﴾ واستبشارهم بهؤلاء من جهة ﴿ألا خوف عليهم﴾ إذ الله
سبحانه يتولى أمورهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ بالنسبة إلى من خلفهم،
فهؤلاء المقتولون جمعوا بين خيرين خير أنفسهم حيث تنعموا بنعمة
الله سبحانه وخير إخوانهم الذين من خلفهم حيث علموا بأنهم لا خوف
عليهم، وذلك بخلاف من بقي ولم يجاهد فإنهم جمعوا بين شرين
مشاكل حياة أنفسهم ومشاكل حياة إخوانهم، حيث لا يعلمون ماذا
تكون عاقبة أمر أنفسهم وأمر إخوانهم.

[١٧٢] ﴿يستبشرون﴾ أي هؤلاء المقتولون يُسرّون ويفرحون ﴿بنعمة من
الله﴾ ينعمها عليهم في الآخرة ﴿وفضل﴾ أي الزيادة على قدر
استحقاقهم أو على ما يترقبون ﴿وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين﴾ فإن
من علم أن حقه وأجره مضمون فرح واستبشر، فهؤلاء يرون عياناً أن
حقهم محفوظ بخلاف الإنسان في الدنيا فإنه يعلم ذلك دون أن يراه.
وفي تكرار المطلب زيادة تمكين المعنى في النفس، ومثله كثير في
التحذيرات والترغيبات المستقبلية وبالأخص إذا لم يشاهد الإنسان أمثاله
بل كان غيباً محضاً فإن في التكرار تركيز المطلب في النفس حتى تعمل
تلقائياً كالذي شاهد وحضر.

[١٧٣] لما انصرف أبو سفيان وأصحابه من «أحد» وبلغوا «الروحاء» ندموا

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ
لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٣﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ
النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ

على انصرافهم عن المسلمين وتلاوموا فيما بينهم قائلين بعضهم لبعض: لا محمداً قتلتم ولا الكواعب أردفتن، قتلتموهن حتى لم يبق منهن إلا الشريد وتركتموهن، فارجعوا فاستأصلوهم. فبلغ ذلك الخبر الرسول ﷺ فأراد إرهابهم فخرج ﷺ ومعه من به جرح من أحد حتى بلغ «حمراء الأسد» وبلغ الخبر المشركين فخافوا خوفاً شديداً وولوا منهزمين.

ووجه اتصال الآية أنه سبحانه بعد ما بين أجر الشهداء وأنهم يستبشرون بالأحياء ذكر وصف الأحياء الذين يستبشر بهم المقتولون أنهم أولئك الذين لم تزلزلهم المحنة ولم تقعدهم الجراحات عن مواصلة الكفاح ولم يرهبهم تجمع الأعداء وإرجافهم بهذا التجمع وهم مثخنون بهذه الجراحات ﴿الذين استجابوا لله والرسول﴾ أطاعوهما في أمرهما، وقد ذكرنا سابقاً أن ذكر الرسول ﷺ للتشريف وأن بيان أمره أمر الله سبحانه وإلا فالأمر واحد ﴿من بعد ما أصابهم القرح﴾ أي نالتهم الجراحات يوم أحد ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ بعد الاستجابة ﴿واتقوا﴾ معاصي الله سبحانه ﴿أجر عظيم﴾ لأنهم أطاعوا في ثلاث دفعات حضورهم في أحد واستجابتهم ثانياً وإحسانهم وتقواهم ثالثاً.

[١٧٤] ثم وصفهم سبحانه بوصف آخر أنهم هم ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم﴾ فقد قال الناس لأصحاب الرسول ﷺ بعد

فَأَخَشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ
 الْوَكِيلُ ﴿١٧٤﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّهِمْ
 سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٥﴾

=====

رجوعهم من أحد: إن «الناس» وهم أبو سفيان والمشركون قد جمعوا لكم، أي جمعوا المشركين لأجل محاربتكم ﴿فاخشوهم﴾ أي خافوا منهم لأنهم إذا رجعوا إليكم وأنتم - أيها المسلمون - مشخون بالجراح من أحد لن يُبقوا منكم باقية ﴿فزادهم﴾ تجمع الناس عليهم ﴿إيماناً﴾ فإن عند كل كارثة يتذكر المؤمن الله سبحانه فتقوى نفسه بمعونته وتشتد عزمته بنصره ﴿وقالوا حسبنا الله﴾ أي كافينا الله يكفيننا شر أعدائنا ﴿ونعم الوكيل﴾ فإنه خير من جعله الإنسان وكيلاً لعلمه بمواقع النفع والضرر وقدرته على جلب النفع ودفع الضرر عن الموكل.

[١٧٥] ﴿فانقلبوا بنعمة من الله وفضل﴾ أي رجع هؤلاء المؤمنون الذين استجابوا لله والرسول ﷺ، تصحبهم نعمة الله وفضله ﴿لم يمسسهم سوء﴾ فهم بعدما خرجوا في طلب أبي سفيان، هرب أبو سفيان فرجع المسلمون وهم مرهوبوا الجانب أشداء النفوس ﴿و﴾ قد ﴿اتبعوا رضوان الله﴾ باتباع أمره في تعقب المشركين ﴿والله ذو فضل عظيم﴾ على من اتبع أمره فهو يُسعد في الدنيا والآخرة.

روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: عجبت لمن خاف كيف لا يفرع إلى قوله: «حسبنا الله ونعم الوكيل» فإني سمعت الله يقول بعقبها: «فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء»^(١).

(١) من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ٣٩٢.

إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ ۖ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٦﴾ وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا

=====

[١٧٦] ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ﴾ «كم» للخطاب، و«ذا» إشارة إلى التخويف من الأعداء أي أن التخويف الذي صدر عن بعض الناس بالنسبة إلى المسلمين من عمل الشيطان فإنه ﴿الشيطان يخوف أولياءه﴾ فإن المؤمنين لا يخافون وإنما أولياء الشيطان يخافون لأنهم بانقطاع صلتهم من الله سبحانه يخافون من كل شيء كما قال سبحانه في وصف المنافقين: (يَخْشَوْنَ كُلَّ صَنِيعَةٍ عَلَيْهِمْ)^(١)، ﴿فلا تخافوهم﴾ أي لا تخافوا الناس الذين جمعوا لكم، أو لا تخافوا الشيطان وأولياءه ﴿وخافون﴾ والخوف من الله سبحانه بمعنى إطاعته وترك عصيانه فإن في ترك ذلك، النار والعقاب ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ فإن الإيمان يوجب أن لا يخاف الإنسان إلا من الله سبحانه، وليس المراد عدم الخوف مطلقاً فإنه قهراً للإنسان وإنما المراد ترتيب الأثر على الخوف.

[١٧٧] ﴿ولا يحزنك﴾ يا رسول الله ﴿الذين يسارعون في الكفر﴾ أي يتسابقون في أعمالهم الكافرة كأنهم في سباق من كثرة نشاطهم ﴿إنهم لن يضرروا الله﴾ فإن دعوتك التي هي مرتبطة بالله سبحانه لا بد وأن تنجح وتتقدم وهذه المسارعات الكافرة لا تضرها، فقد نسب موقف الدعوة إلى الله سبحانه، إفادة لعلوها وقوة المدافع والمتولي لها ﴿شيئاً﴾ أصلاً لا صغيراً ولا كبيراً، بل إنهم يضررون بذلك أنفسهم فإن

يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٧﴾
 إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا
 وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِ
 لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ
 عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٩﴾

إعطاء الله القدرة لهم في أن يفعلوا ما يشاءون لأنه ﴿يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة﴾ وإنما أراد ذلك لأنهم أعرضوا عن الحق كما أنك إذا أديت إلى عبدك مالاً ليتاجر به، ثم ذهب يقامر به، وأمهلته فلم تضرب على يده تقول: أريد أن أبدي سوءته وأعاقبه بعقاب كبير ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ بكفرهم ومسارعتهم ونشاطهم ضد الإسلام.

[١٧٨] ﴿إن الذين اشتروا﴾ أي بدّلوا ﴿الكفر بالإيمان لن يضرّوا الله﴾ بتبديلهم الكفر بالإيمان ﴿شيئاً﴾ أي شيء أبداً ﴿ولهم﴾ أي للذين بدّلوا الكفر بالإيمان ﴿عذاب أليم﴾ بما بدّلوا.

[١٧٩] ﴿ولا يحسبن﴾ أي لا يظن ﴿الذين كفروا أنما نملي لهم خير لأنفسهم﴾ الإملاء الإمهال، أي أن إطالنا لأعمارهم وإمهالنا إياهم وتوفير المال والجاه لهم ليس خيراً لهم فإن الخير هو الذي لا يسبب شراً وعقاباً ﴿إنما نملي لهم﴾ نُطِيل أعمارهم ونعطيهم ما نعطيهم ﴿ليزدادوا إثماً﴾ ومعصية، فإنهم بإعراضهم عن الحق وخبث بواطنهم استحقوا العقاب والعذاب لكن حيث لا عقاب على الخبث الباطني فقط كان الإمهال مظهراً لذلك الخبث، فبقاؤهم موجب لزيادة عقوبتهم ﴿ولهم عذاب مهين﴾ يهينهم علاوة على ألمه وكربه وربما يقال: إن

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ
الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ
اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِنْ رُسُلِهِ مَن يَشَاءُ

=====

«اللام» في قوله «ليزدادوا» لام العاقبة كقوله تعالى: (فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا)^(١).

[١٨٠] ثم يترد السياق إلى قصة أحد حيث انكشف هناك المؤمن الذي تبع الرسول ﷺ في الحرب من المنافق الذي تخلف عن الجهاد كعبد الله ابن أبي سلول بمن تخلف معه ﴿ما كان الله﴾ أي ليس من سنته سبحانه أن لا يمتحن ﴿ليذر المؤمنين﴾ أي يدعهم ويتركهم ﴿على ما أنتم عليه﴾ من ظاهر الإيمان الذي يتساوى فيه المؤمن والمنافق ﴿حتى يميز الخبيث من الطيب﴾ لكي يظهر ما يضمه كل فريق. وفي بعض التفاسير: أن المشركين قالوا لأبي طالب: إن كان محمد صادقاً فليخبرنا من يؤمن منا ومن يكفر؟ فإن وجدنا خبره صادقاً آمنا به. فنزلت الآية^(٢).

وعلى هذا فمعنى «على ما أنتم عليه» أي حالكم قبل الإيمان، فلا يترك سبحانه المؤمن على كفره بين سائر الكفار ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب﴾ حتى تعلموا أن هذا مؤمن وهذا منافق، بدون الاختبار الخارجي المظهر للضمائر ﴿ولكن الله يجتبي﴾ أي يختار لاطلاعه على الغيب ﴿من رسله﴾ وأنبيائه ﴿من يشاء﴾ وهذا كقوله

(١) القصص: ٩.

(٢) مجمع البيان: ج ٢ ص ٤٥٦.

فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٨٠﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

تعالى: (فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ) ^(١) ولا ينافي ذلك اطلاع بعض الملائكة والأئمة وبعض المؤمنين على بعض المغيبات إذ الملائكة خارج عن المستثنى منه والباقون إما بتعليم النبي أو بإلهام منه سبحانه وعدم استثنائه لئدرته خارجاً، والقضايا الطبيعية - كما نحن فيه - لا تنافيها النواذر.

وحيث عرفتم قيمة الإيمان ﴿فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إيماناً حقيقياً لا يشوبه شقاق وخبث ضمير ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا﴾ إيماناً صادقاً ﴿وَتَتَّقُوا﴾ المعاصي وتعملوا الصالحات ﴿فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يبقى إلى الأبد في جنة عرضها السماوات والأرض ورضوان من الله.

[١٨١] وحيث تقدم الكلام حول الجهاد والتضحية عقبه سبحانه بذكر المال فهما يذكran غالباً مقترنين إذ الجهاد يحتاج إلى بذل المال والدين إنما يقام ببذل النفس وبذل المال معاً، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي أعطاهم سبحانه فضلاً وإحساناً فإن المال وإن اجتهد الإنسان وكذ في جمعه إنما هو فضل من الله سبحانه لأنه من خلقه وصنعه فالنقدان مثلاً معدنان مخلوقان له وسائر الأموال من نبات الأرض وما أشبه كله له، هذا بالإضافة إلى أن أجهزة الإنسان التي بها يتمكن من كسب المال كلها منه سبحانه. والمراد بالبخل هنا هو الحرام منه مما يجب إعطاؤه فيمنع

هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

=====

﴿هو خيراً لهم﴾ حيث يزعمون أن البخل يوفر عليهم المال فيبقى عندهم ولا يخرج من أيديهم و«خيراً» مفعول «يحسبن» ﴿بل هو شر لهم﴾ إن ذلك البخل شر لهم يعود عليهم في الدنيا بالشر حيث أن ذلك موجب لسوء السمعة الذي بدوره يوجب عدم التمكن من اكتساب المزيد من المال ويوجب ذهاب الكائن منه بمصادرات الحكام وثورات الفقراء، والأسوأ من ذلك أنهم ﴿سيطوقون ما بخلوا به﴾ أي يجعل المال الذي بخلوا به طوقاً في أعناقهم ﴿يوم القيامة﴾ وهذا كناية عن لزوم تبعة المال، كما يقال: المرأة طوق في عنق الإنسان، والذين طوق في عنق المدين، وهكذا، وفي الأحاديث الواردة عن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام أنه: «ما من أحد يمنع من زكاة ماله شيئاً إلا جعل الله ذلك يوم القيامة ثعباناً من نار مطوقاً في عنقه ينهش من لحمه حتى يفرغ من الحساب»^(١) وفي بعضها تفسير الآية الكريمة بذلك.

ثم ما بال هؤلاء ييخلون؟ فإنه لا يبقى المال عندهم إلى الأبد، بل يذهبون ويذرون المال ﴿ولله ميراث السماوات والأرض﴾ فكل من يموت فيهما ويخلف شيئاً فلا بد وأن يرثه الله سبحانه حيث تبقى الأموال له وحده بعد فناء الجميع فما بخل به عنه سبحانه ولم يُصرف في سبيله لا بد وأن يرجع إليه، وليس للبخليل إلا الإثم

(١) الكافي: ج ٣ ص ٥٠٢ .

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٢﴾ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ
قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمْ
الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ

=====

﴿والله بما تعملون خبير﴾ فما أنفقتم من نفقة يعلمها الله سبحانه
فيجازيكم عليها جزاء حسناً.

[١٨٢] وقد كان من بخلاء اليهود من لا ينفق مما آتاه الله، ثم يزيد على ذلك
فيقول: إن الله فقير لأنه يستقرض - تعريضاً بقوله سبحانه: (مَنْ ذَا الَّذِي
يُقْرِضُ اللَّهَ) ^(١) - وأنا غني لما لدي من الأموال ﴿لقد سمع الله قول الذين
قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ ويكفيه تهديداً أن الله سمع قوله فلينتظر
الجزاء العادل والعقاب الأليم ﴿سنكتب ما قالوا﴾ حتى يكون كتاباً
مسجلاً عليهم لا مجال لإنكاره يوم يعطى كل امرئ كتابه، وقد كان
منطق اليهود منحرفاً إلى أبعد الحدود، وكيف يكون الله سبحانه فقيراً
وهو الذي يملك كل شيء حتى روح هذا القائل؟! وإنما استقرضه
امتحاناً وطلبه المال ابتلاء واختبار، وكيف يكون هو غنياً والحال أنه
لا يملك روحه فكيف بماله؟! ﴿و﴾ سنكتب ﴿قتلهم﴾ أي قتل هؤلاء
اليهود ﴿الأنبياء بغير حق﴾ وإنما غيرهم الله سبحانه مع أن آبائهم هم
الذين فعلوا، لرضاهم بذلك أولاً ولبيان أن هؤلاء خلفاً عن سلف
مجرمون فلا عجب أن يقول الخلف كفراً بعدما عمل السلف أفضح من
ذلك ثانياً، ودخول «السين» في سنكتب، لعله لبيان أن الكتابة لا تثبت
إلا بعد أن يموتوا غير مؤمنين بمحمد ﷺ وإلا فالكتابة لا تنضر إذا محيت

وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨٢﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ
أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٣﴾

بالإيمان ، وهذا يصح بالنسبة إلى قولهم ، أما بالنسبة إلى قتل أسلافهم ، وقد كُتِبَ قتلهم ، فلأن كتابة ذلك عائد على الأخلاف إذا بقوا على الكفر ، ولعل العطف على المعنى أي «وكتبنا قتلهم الأنبياء» من قبيل «نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض» وقوله : «علفته تبناً وماءً بارداً» .

﴿ونقول﴾ حين عقابهم في الآخرة ﴿ذوقوا عذاب الحريق﴾ الذي يحرق أجسادكم بفعلكم وقولكم .

[١٨٣] ﴿ذلك﴾ العذاب إنما يكون ﴿بما قدمت أيديكم﴾ من الكفر والعصيان ، وإنما عبّر بتقديم الأيدي لأن الإنسان غالباً يُقَدِّمُ الأشياء بيده ، فيكون ذلك من باب التشبيه للمعقول بالمحسوس ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾ فأنتم عبيده خالفتم أوامره فاستحققت هذا العقاب ، و«ظلام» ليست لفظة مبالغة على غرار «علام» وإنما للنسبة نحو «تمار» بمعنى ذي تمر ، كما قال ابن مالك :

ومع فاعل وفَعَّال فَعِلْ

في نسب أغنى عن اليا فُقِبِلْ

ولعل اختيار هذه الكلمة لردّ التوهم وهو أن الإحراق بالنار إنما يصدر من إنسان كثير الظلم ، فيكون الإتيان به للمجانسة اللفظية كقوله :

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخة

قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ
حَتَّى يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ
قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿١٨٤﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ

=====

[١٨٤] إن الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، والذين قتلوا أنبياءهم، هم الذين لم يؤمنوا بالرسول ﷺ بحجة مكذوبة، فقد قالوا: يا محمد إن الله عهد إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن زعمت أن الله بعثك إلينا فجئنا بالقربان حتى نصدقك، فنزلت الآية ﴿الذين قالوا﴾ للرسول ﷺ و﴿الذين﴾ في موضع الجر عطفاً على ﴿الذين قالوا إن الله فقير﴾: ﴿إن الله عهد إلينا﴾ أمرنا ووصانا في الكتب المنزلة ﴿ألا نؤمن لرسول﴾ بأن لا نصدق بنبوته ﴿حتى يأتينا بقربان﴾ أي ما يتقرب به إلى الله سبحانه ﴿تأكله النار﴾ تأتي نار من الغيب فتحرقه، وقد كان ذلك علامة لصدق نبوة أنبياء بني إسرائيل ﴿قل﴾ يا رسول الله في جوابهم: ﴿قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات﴾ الأدلة الواضحة ﴿وبالذي قلتم﴾ من القران الذي أكلته النار ﴿فلم قتلتموهم﴾ فإنهم قتلوا ذكريا ويحيى وغيرهما ﴿إن كنتم صادقين﴾ في دعوكم أنكم تؤمنون بالرسول إذا جاءكم بقربان تأكله النار؟ وإنما ينسب فعل الأسلاف إلى الأخلاف لأن الطبيعة فيهم واحدة والاتجاه واحد فلا يمكن أن يقال: إن معاصري الرسول لم يكونوا يظهرون الرضا بفعل أسلافهم في قتل الأنبياء.

[١٨٥] ﴿فإن كذبوك﴾ يا رسول الله ولم يؤمنوا برسالتك ﴿فقد كذب رسل من قبلك﴾ فلست بدعاً في ذلك ولا يضيق صدرك بتكذيبهم، فإن

جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۖ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٥﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا

=====

الناس قد كذبوا رسلاً قبلك والحال أنهم ﴿جاءوا بالبينات﴾ الأدلة الواضحة ﴿والزبر﴾ أي الصحف التي فيها الأحكام والشرائع ﴿والكتاب المنير﴾ وهو الكتاب الجامع للأحكام. والفرق بينهما أن الزبر صحائف متفرقة فيها أحكام متشتتة بخلاف الكتاب الذي هو الجامع المتسلسل، كما أنه نزل على الرسول ﷺ الأحاديث القدسية والقرآن الحكيم.. وهنا سؤال هو: إن النبي ﷺ لِمَ لَمْ يَأْتْ بقرآن تأكله النار؟ والجواب: إنهم سألوا ذلك تعنتاً لا استرشاداً، وإلا فقد كان يكفيهم سائر الأدلة، وليس شأن الأنبياء أن يفعلوا فوق اللازم من المعجزة لكل متعنت ومجادل، وهذا هو السر في رد كثير ممن سأل المعجزة.

[١٨٦] إن عدم الجهاد لخوف الموت، وعدم الإيمان لخوف ذهاب الرئاسة، وعدم الإنفاق لخوف الفقر، مما له عاقبة سيئة هي النار، فكل إنسان يموت وتذهب حياته وراثته وماله، فما أجدر أن يفعل ما يُسبب له حسن العاقبة ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ تذوقه وتلاقيه ﴿وإنما توفون﴾ أيها الناس ﴿أجوركم﴾ الحسنة أو السيئة ﴿يوم القيامة﴾ فهنا عمل ولا حساب وغداً حساب وجزاء بلا عمل ﴿فمن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ﴾ أي بُوعِدَ عنها ﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ لأنه سرور وراحة لا انقطاع لهما ولا تكدر فيها ﴿وما الحياة الدنيا﴾ بلذاتها وشهواتها

إِلَّا مَتَعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٦﴾ تَتَّبَلُّوْا فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ
الَّذِينَ أُشْرِكُوا أذًى كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا
فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٧﴾

=====

﴿إلا متاع الغرور﴾ تسبب غرور الإنسان وغفلته عن الخير الدائم
الباقى . فمن الجدير بالإنسان أن يحصل بحياته وراثته وماله تلك
الدار الباقية لا أن يغتر بالدنيا ويعصى الله سبحانه حتى يدخل النار .

[١٨٧] إن الدنيا دار محنة وابتلاء لا دار راحة وسعادة فاعلموا أيها المسلمون
﴿تتبلون﴾ أي تقع عليكم المحن والبلايا بكل تأكيد ﴿في أموالكم﴾
بذهابها ونقصانها ووجوب الإنفاق منها ﴿و﴾ في ﴿أنفسكم﴾
بالأمراض والشدائد والقتل في الجهاد ونحوه ﴿ولتسمعن من الذين
أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ اليهود والنصارى والمجوس ﴿ومن الذين
أشركوا﴾ من سائر أقسام الكفار ﴿أذى كثيراً﴾ سباً وشتماً وتهمة
ووقية واستهزاء ﴿وإن تصبروا﴾ في البلايا والأذى ﴿وتتقوا﴾
فلا تحملنكم البلية والأذى على الابتعاد عن الدين وعمل المحرم
﴿فإن ذلك﴾ الصبر والتقوى ﴿من عزم الأمور﴾ أي الأمور التي يجب
العزم عليها والمضي فيها . وفي الكلام مجاز إذ نسب العزم الذي هو
للإنسان إلى الأمر ، مثل نسبة الإصرار إلى الأمر في قولك : «أصرت
الأمر علي» لبيان أن الأمر قد صار عزمًا ، من شدة لزومه ، وفرض
وجوبه .

[١٨٨] ثم يأتي السياق إلى ذكر صفة أخرى من أهل الكتاب مناسبة للمقام

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا
تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا
فَبُئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٨﴾

حيث أنهم يعلمون رسالة الرسول وهي موجودة في كتبهم، لكنهم بدل
أن يؤمنوا ويظهروا ذلك للناس يصرون على الجدل والعناد ويخفون
الكتاب على الناس ﴿و﴾ اذكر يا رسول الله ﴿إذ أخذ الله ميثاق الذين
أوتوا الكتاب﴾ أخذ عهدهم الأكيد بواسطة الأنبياء ﷺ ﴿لتبيننه
للناس﴾ أي تبينون الكتاب الذي فيه الأحكام والبشارة برسالة
الرسول ﷺ ﴿ولا تكتُمونه﴾ أي لا تخفونه ﴿فنبذوه﴾ أي طرحوا
الميثاق ﴿وراء ظهورهم﴾ كناية عن إهمالهم له وعدم اعتنائهم به كما أن
الذي يريد إهمال متاع يلقيه وراء ظهره ﴿واشترؤا به ثمنًا قليلًا﴾ أي
بدلوا بأحكام الكتاب رئاسة قليلة في الدنيا وأموالاً قليلة كانوا يتقاضونها
من سائر اليهود ﴿فبئس ما يشترون﴾ من الثمن حيث يستحقون بذلك
العذاب الدائم.

[١٨٩] ومن الناس من لا يدخل في عمل الخير مع العاملين، فإذا خسر
العاملون ما أرادوا وصفوا أنفسهم بالحصانة والتعقل، وإذا ربحوا
جعلوا أنفسهم من المؤيدين لهم، وتوقعوا أن يُثنى عليهم ثناء
العاملين، إن أمثال هؤلاء الذين لا يشتركون فيما يجب الاشتراك فيه،
لا بد وأن ينالهم العذاب لتركهم الواجب، وغالباً يكونون من
المنافقين، ومن الذين يقعدون عن الجهاد، وعن واجب الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر، ول هؤلاء ميزة أخرى وهي أنهم يفرحون
بما يأتون من الأعمال حقاً كان أو باطلاً، بخلاف المؤمنين الذين إذا

لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ
يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٨٩﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩٠﴾

عصوا استغفروا، وإذا أحسنوا خافوا، كما قال سبحانه: (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ
مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ) ^(١).

﴿لا تحسبن﴾ يا رسول الله ﴿الذين يفرحون بما آتوا﴾ من
الأعمال صالحة كانت أو طالحة ﴿ويحبون أن يحمدوا﴾ أي يحمدهم
الناس ﴿بما لم يفعلوا﴾ من الأعمال الخيرية ﴿فلا تحسبنهم﴾ يا رسول
الله ﴿بمفازة﴾ من الفوز، أي النجاة ﴿من العذاب﴾ فإنهم يُعذبون بكل
تأكيد لهذه الأفعال والصفات ﴿ولهم عذاب أليم﴾ مؤلم. وهذه الآية كما
تراها عامة، فتفسيرها بالمنافق أو نحوه من باب ذكر المصدق.

[١٩٠] أين المفر لهؤلاء من عذاب الله ﴿ولله ملك السماوات والأرض﴾
فلا يمكن لأحد الفرار من حكومته ﴿والله على كل شيء قدير﴾
فلا يفوته ما يريد ويفعل ما يشاء.

[١٩١] وهنا ينتهي السياق بأدلة الإيمان وأحوال المؤمنين وأن أعمال
الكافرين في انهيار، مناسبةً للجو العام من السورة الذي كان في
الإيمان والعقيدة وأحوال المؤمنين والكافرين، ومرتبطة بالآية السابقة

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ
لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩١﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا
وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩٢﴾

=====

«ولله ملك السماوات» ﴿إن في خلق السماوات والأرض﴾ أي في إيجادهما بما تشتملان عليه من العجائب ومختلف صنوف الخلق والإبداع ﴿واختلاف الليل والنهار﴾ تعاقبهما ومجيء أحدهما خلف الآخر بكل إتقان وانتظام ﴿لآيات﴾ دلالات وبراهين على وجود الله سبحانه وصفاته ﴿لأولي الأبواب﴾ أي أصحاب العقول فإن كل من نظر إلى الأثر لابد أن يعقل وجود المؤثر وكلما كان الأثر أتقن وأجمل دلّ على كمال علم المؤثر وقدرته وإرادته وغيرها من الصفات الجمالية.

[١٩٢] ثم بين صفات أولي الأبواب بقوله سبحانه: ﴿الذين يذكرون الله﴾ ذكراً بالقلب، أي تذكراً له سبحانه ﴿قياماً﴾ في حال القيام ﴿وقعوداً﴾ في حال القعود ﴿وعلى جنوبهم﴾ في حال الاضطجاع، يعني أنهم دائماً في التفكر بالله سبحانه وذكره سواء كانوا قائمين أو قاعدين أو مضطجعين ﴿ويتفكرون في خلق السماوات والأرض﴾ كيف خلقتا بهذا النحو المتقن المدهش، وكيف جريتا، وكيف كانتا، وكيف ستكونان، وفي حال التفكير والدهشة لسان حال هؤلاء يقول: ﴿ربنا ما خلقت هذا الكون، والخلق﴾ بطلاً ﴿عبثاً ولغواً، بلا غاية ومقصود﴾ ﴿سبحانك﴾ أي أنت منزّه عن الباطل واللغو، وهو مفعول لفعل مقدر، أي نسبحك سبحانك ﴿فقنا﴾ أي احفظنا من ﴿عذاب النار﴾

رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ
 أَنْصَارٍ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ
 ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا
 سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩٤﴾ رَبَّنَا وَءَاثِنَا مَا وَعَدْتَنَا

ولعل دخول الفاء في «فنا» لبيان أنهم يطلبون جزاء تصديقهم وإيمانهم
 وتفكرهم.

[١٩٣] ويقولون أيضاً: ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيتهُ﴾ فضحته
 وأهلكته ﴿وما للظالمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم في دار الدنيا بالكفر أو
 العصيان ﴿من أنصار﴾ ينصرونهم من عذاب الله سبحانه.

[١٩٤] ﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ هو الرسول ﷺ وكل من
 نادى الناس للإيمان بالله سبحانه، فإن أولي الأبواب يعترفون لله سبحانه
 بأنهم استجابوا لمنادي الإيمان ولم يلوا عن نداء الحق فقد سمعوا
 المنادي ينادي: ﴿أن آمنوا بربكم﴾ ولا تكفروا ولا تشركوا ﴿فآمنا﴾ بك
 يا سيدنا ﴿ربنا فاغفر لنا ذنوبنا﴾ التي صدرت منا ﴿وكفر عنا سيئاتنا﴾
 وربما يقال بأن الفرق أن الذنوب هي الكبائر لأنها ذات أذنب وتبعات،
 والسيئات هي الصغائر لأنها تُسيء إلى الإنسان وإن لم تكن ذات تبعه
 لأنها مكفرة لمن اجتنب عن الكبائر، وهناك في الفرق أقوال أخرى،
 ولعل التكرار للتأكيد إظهاراً لكمال الخوف من الذنوب ﴿وتوفنا﴾ أي
 اقبضنا إليك عند موتنا ﴿مع الأبرار﴾ في جملتهم، والأبرار جمع «بر»
 وهو الذي يبر الله بطاعته إياه.

[١٩٥] ﴿ربنا وآتانا﴾ أي أعطنا ﴿ما وعدتنا﴾ من الخير والسعادة في الدنيا

عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٥﴾
 فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ
 أَنثَىٰ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ
 وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقُتِلُوا وَقُتِلُوا لَا كُفْرَنَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
 وَلَا دُخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ

﴿على﴾ لسان ﴿رسلك﴾ وأنبيائك ﴿ولا نخزنا﴾ أي لا تفضحنا ﴿يوم
 القيامة﴾ على رؤوس الأشهاد ﴿إنك لا تخلف الميعاد﴾ الذي وعده
 للمؤمنين بسعادة الدنيا وخير الآخرة.

[١٩٦] ﴿فاستجاب لهم﴾ أي لهؤلاء المؤمنين الذين دعوا بالأدعية السابقة
 ﴿ربهم﴾ أي لبي دعوتهم وقبل كلامهم، قائلاً: ﴿أنى لا أضيع عمل
 عامل منكم﴾ أيها المؤمنون ﴿من ذكر أو أنثى﴾ فكل مؤمن محفوظ
 عمله ليعطى جزاءه ﴿بعضكم﴾ أيها المؤمنون ﴿من بعض﴾ فكلكم
 من جنس واحد في نُصرة بعضكم ولستم كالكافرين الذين ليس
 بعضهم من بعض بل بعضهم يباين بعضاً فلكل فئة منهم لون وصبغة
 ﴿فالذين هاجروا﴾ إلى المدينة ﴿وأخرجوا من ديارهم﴾ أخرجهم
 المشركون من مكة. والآية عامة لكل مهاجر عن دياره، ومخرج من
 بلاده ﴿وأودوا في سبيلي﴾ لأنهم آمنوا وأطاعوا ﴿وقاتلوا﴾ لأجل الله
 سبحانه ﴿وقتلوا﴾ قتلهم الكفار ﴿لأكفرن﴾ أي أمحو عنهم
 سيئاتهم ﴿فلا آخذهم بها﴾ ولأدخلهم جنات تجري من تحتها
 الأنهار ﴿أي تحت نخيلها وقصورها - كما تقدم -﴾ ﴿ثواباً﴾ أي جزاء
 لهم ﴿من عند الله﴾ على أعمالهم ومشاقهم في سبيله

وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٦﴾ لَا يَغْرَنَكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا
 فِي الْبَلَدِ ﴿١٩٧﴾ مَتَعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ
 ﴿١٩٨﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا
 الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ
 لِلْأَبْرَارِ ﴿١٩٩﴾

=====

﴿والله عنده حسن الثواب﴾ أي الجزاء الحسن، وليس كغيره ممن لا
 يقدر ولا يملك الثواب الحسن.

[١٩٧] وهنا يتأمل الإنسان كيف يكون الكفار في هذه النعمة والراحة
 والسياحة والأسفار والثمار، والمسلمون مضطهدين يُخرجون من
 بلادهم ويؤذون، مع أن الله سبحانه ناصرهم وظهيرهم؟ ويأتي
 الجواب: ﴿لا يغرّنك﴾ وأصل الغرور إيهاً حال السرور فيما الأمر
 بخلافه، فالمعنى لا يوهمنك يا رسول الله أن الكفار في سرور ﴿تقلب
 الذين كفروا في البلاد﴾ فإن تقلبهم لا يعود إليهم بنفع.

[١٩٨] فإن ذلك ﴿متاع قليل﴾ أي يتمتعون بذلك في زمان قليل ﴿ثم
 مأواهم﴾ مصيرهم ﴿جهنم وبئس المهاد﴾ أي ساء ذلك المستقر لهم.

[١٩٩] ﴿لكن الذين اتقوا ربهم﴾ بأن آمنوا وأطاعوا فإنهم وإن كانوا في أذية
 وضغط فعلاً ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ الجارية ﴿خالدين
 فيها﴾ أبداً لا متاع قليل كمتاع الكفار في الدنيا ﴿نزلاً من عند الله﴾
 النزل ما يُعدّ للضيف من الكرامة والبرّ والطعام والشراب ﴿وما عند
 الله﴾ من الثواب والكرامة ﴿خير للأبرار﴾ من تقلب الكفار.

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا
 أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا
 قَلِيلًا ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
 الْحِسَابِ ﴿٢٠٠﴾ يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا

=====

[٢٠٠] ثم يرجع السياق إلى أهل الكتاب الذين تقدم أنهم يكفرون ويمكرون
 ﴿وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله﴾ يصدق بوحدانيته ويعترف بما
 يعترف به المؤمنون ﴿و﴾ بـ ﴿ما أنزل إليكم﴾ من القرآن الحكيم
 ﴿و﴾ بـ ﴿ما أنزل إليهم﴾ بخلاف سائر أهل الكتاب الذين لا يؤمنون بما
 أنزل إليهم إذ أنهم يحلون ويحرمون ويخالفون كتابهم في أحكامه، في
 حال كونهم ﴿خاشعين﴾ خاضعين ﴿لله﴾ سبحانه فيما أمر ونهى
 ﴿لا يشترون بآيات الله﴾ أي بمقابل آيات الله ودلائله وبراهينه ﴿ثمنًا
 قليلاً﴾ كما كان يفعل ذلك رؤسائهم الذين كانوا يرتشون ويخفون
 الكتاب لئلا تزول رئاستهم ﴿أولئك﴾ الذين لهم هذه الصفات الخيرة
 من أهل الكتاب ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ يجازيهم بما فعلوا من
 الخيرات وآمنوا وصدقوا ﴿إن الله سريع الحساب﴾ فليس أجرهم بعيداً
 عنهم فإن أمد الدنيا ولو طال قليل كما قال الشاعر:

ألا إنما الدنيا كمنزل راكب

أناخ عشياً وهو في الصبح يرحل

[٢٠١] وأخيراً يتوجه الخطاب للمؤمنين وتنتهي السورة بهذه العظة البليغة

﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا﴾ على الإيمان والمكارة ﴿وصابروا﴾ أي

غالبوا في الصبر، ولعل المراد مصابرة الأعداء فكلما صبر الكفار زاد

وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠﴾

المؤمنون صبراً على صبر أولئك حتى يغلبوا ويأخذوا المعركة ﴿ورابطوا﴾ وهو المراقبة في ثغور المسلمين للتطلع على أحوال الكفار ﴿واتقوا الله﴾ في أعمالكم فلا تأتوا بالمعاصي ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي كي تفوزوا وتتجحوا في الدنيا والآخرة.



سورة النساء

مدنية / آياتها (١٧٧)

نزلت كلها في المدينة على المشهور وسميت بهذا الاسم ، لأنها بينت كثيراً من حقوق النساء في الشريعة الإسلامية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ تقدم تفسيرها .

يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا
زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ
بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿٢﴾ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

[٢] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ بإطاعة أوامره ونواهيه، وهذه الفاتحة ثلاثم خاتمة سورة آل عمران حيث قال سبحانه: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ هي نفس آدم أبي البشر ﷺ ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا﴾ أي من تلك النفس، إما بالخلق من فضلة طينته، أو المراد من جنس تلك النفس ﴿زَوْجَهَا﴾ وهي حواء ﷺ، فإن هذا الإله الخالق القادر حقيق بالتقوى، ولا يخفى أن ذلك لا ينافي خلق زوجتين جديدتين لهابيل وقابيل حتى نشأ منهما أبناء عمّ - كما عن الأئمة ﷺ - إذ الكلام في ابتداء الخلقة ﴿وَبِثْ﴾ أي نشر وفرق ﴿مِنْهُمَا﴾ أي من هاتين النفسين ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ وهذا أيضاً لا ينافي إذ أصل البث منهما، ولعل عدم ذكر لفظة «كثير» هنا لمعلومية ذلك، أو للتفنن في العبارة والذي هو من أساليب البلاغة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً بسببه فتقولون: أسألك بالله إلا ما فعلت كذا، وصنعت كذا ﴿وَالْأَرْحَامُ﴾ أي اتقوا الأرحام، وتقوى الله عدم مخالفته، وتقوى الأرحام عدم قطعها، وهذا مناسب لما سبق من خلقهم جميعاً من نفس واحدة، فهم متشابكون من أسرة واحدة، فلا ينبغي لبعضكم أن يقطع بعضاً ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ يرقب أعمالكم وأقوالكم ونياتكم، فلا تفعلوا ما يوجب سخطه وعذابه وعقابه.

[٣] ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي أعطوا اليتامى الذين فقدوا آباءهم أو أمهاتهم وورثوا منهم أموالهم التي بأيديكم أيها الأوصياء، أو كل من

وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٣﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَنْمَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعَ

=====

كان مالهم بيده، والمراد عدم أكل أموالهم، و«الإتيان» في حال صغرهم الصرف عليهم، وفي حال كبرهم إعطاؤهم إياها ﴿ولا تبدلوا الخبيث بالطيب﴾ أي لا تعطوهم الرديء في مقابل الجيد كأن تأخذوا أراضيتهم الجيدة وتعطوهم أراضى رديئة وهكذا ﴿ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم﴾ أي بضمها إلى أموالكم بأن تخلطوا بعضها مع بعض وتأكلوها جميعاً ﴿إنه﴾ أي أن كل واحد من التبديل والأكل ﴿كان حوباً﴾ أي إثماً ﴿كبيراً﴾.

[٤] وقد كانت تحت وصاية الرجل يتيمة فيأخذها طمعاً في مالها، فنهى الله عن ذلك بقوله: ﴿وإن خفتم ألا تقسطوا﴾ أي لا تعدلوا ﴿في اليتامى﴾ أي لا تعملوا بالعدل في زواجهن فتظلموهن - بإبقائها معلقة - تريدون بذلك أكل أموالهم بحجة الزواج ﴿فانكحوا﴾ غيرهن من ﴿ما طاب لكم من النساء﴾ فإن اليتيمة لعدم كفيل لها معرضة للظلم والحيف أما غيرها فليست كذلك، ثم بمناسبته حكم النكاح يمتد الكلام إلى موضوع تعدد الزوجات ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ أي انكحوا اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة أو أربعة أربعة، والمراد تزويج نوع الرجل هكذا لاتزويج كل فرد لذلك العدد، إذ لا يجوز تزويج ثلاثة وثلاثة - مثلاً - في وقت واحد، وذلك مثل: باع القوم أمتعتهم لأهل البلد، يراد أن ذلك وقع في الجملة لا أن كل فرد فعل ذلك سواء في طرف البيع أو الشراء. ولا يخفى أن خوف عدم القسط لا يوجب حرمة النكاح وضعاً بمعنى

فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٤﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ

بطلانه إذا نكح بل النهي عنه تكليفاً، وهل هو حرام أو إرشاد احتمالان، كما لا يخفى أن جواز النكاح مثنى وثلاث ورباع لمن أمن من نفسه وأنه يتمكن من أن يعدل فيما فرض الله لهن من الحقوق ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ بينهن في ما فرض الله تعالى ﴿فواحدة﴾ وهذا من باب المثال وإلا فمن علم أنه يتمكن أن يعدل بين اثنتين فله أن ينكح اثنتين لا أزيد وهكذا بالنسبة إلى الثلاث.

وهذه الآية لا تنافي قوله تعالى: (وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ) ^(١) إذ المراد بها العدل في كل شيء حتى الميل القلبي ﴿أو ما ملكت أيمانكم﴾ أي اقتصروا على الإماء فإنهن لا يحتجن إلى القسم ونحوه من الحقوق الواجبة على الرجال في مقابل الحرائر، والملك نسب إلى اليمين لأن اليد هي الغالبة في العمل، واليمين من اليدين أكثر عملاً من اليسرى ﴿ذلك﴾ الزواج من الواحدة أو الاقتصار على ما ملكت اليمين ﴿أدنى﴾ أقرب ﴿ألا تعولوا﴾ أي لا تميلوا عن الحق ولا تجوروا.

[٥] ﴿وآتوا النساء صدقاتهن﴾ أي مهورهن ﴿نحلة﴾ أي عطية فإن الله سبحانه أعطاهن إياهن في مقابل الاستمتاع بهن لا على نحو الابتياح ونحوه ولعل في كلمة «نحلة» إشارة إلى تقدير المرأة ورفعها عن مستوى المعاملة ﴿فإن طبن لكم﴾ أيها الأزواج ﴿عن

شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٥﴾ وَلَا تَوْتُوا السُّفَهَاءَ
 أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَمًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا
 لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٦﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ

=====

شيء منه ﴿٥﴾ أي من المهر ﴿نفساً﴾ تمييز لـ «طبن» أي أعطين عن طيب نفس لا بالجبر والإكراه ﴿فكلوه هنيئاً مريئاً﴾ الهنيء الطيب المستساغ، والمريء المحمود العاقبة.

[٦] ولما تقدم الأمر بدفع أموال الأيتام، عقب ذلك بعدم الدفع إلى السفیه ﴿ولا توتوا﴾ أي لا تعطوا ﴿السفهاء أموالكم﴾ وإنما أضاف المال إليهم لأن المال إنما هو للمجتمع بصورة عامة فإذا دُفع إلى السفیه أتلغه وكان نقصاً بالنتيجة لمال المجتمع. وليس المراد بكون المال للمجتمع عدم الملكية الفردية بل المراد أن هذا المجموع من الأموال لا يتفاد المجموع فإذا تلف منه شيء كان نقصاً على المجموع ﴿التي جعل الله لكم قياماً﴾ فإن بالمال يقوم أمر البشر إذ لولا المال لم تستقم أمور الناس ومعاشهم والمعاملة بينهم ﴿وارزقوهم فيها﴾ أي في تلك الأموال، ولعل عدم ذكر «منها» بدل «فيها» مع أنه الأنسب، لإفادة لزوم أن لا يُقتطع من المال قطعة ثم قطعة حتى تفنى بل يكون الرزق في المال بأن يبقى المال على أصله، وذلك لا يكون إلا بتدبيره باتجار ونحوه حتى لا ينقص منه ﴿واكسوهم﴾ وذكر هذين من باب المثال وإلا فاللزام القيام بجميع نفقاتهم ﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ بأن تتلفظوا لهم في القول، وذلك لأن اليتيم والسفیه معرضان للمخاشنة والنهر.

[٧] ﴿وابتلوا﴾ أي امتحنوا ﴿اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح﴾ أي السن الذي يتمكنون من النكاح والمواقعة فيه وهو سن البلوغ الشرعي

فَإِنْ ءَانَسْتُمْ مِنْهُمْ زُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٧﴾

﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ﴾ أي وجدتم ﴿منهم زُشْدًا﴾ والرشد عبارة عن تمكّن الشخص من إصلاح أمواله بلا سرف ولا تبذير ولا سفه ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ المودعة عندهم ﴿ولا تأكلوها﴾ أي لا تأكلوا أموال اليتامى ﴿إسرافاً﴾ أي زيادة على قدر أجرتكم في حفظها فإن الإسراف التعدي عن الحد ﴿وبداراً أن يكبروا﴾ أي لا تأكلوا أموالهم سريعاً من جهة خوف أن يكبروا فيأخذوها منكم فقد كان بعض الأولياء يتلف مال اليتيم قبل أن يكبر حتى إذا كبر قال له: أنفقتك عليك ﴿ومن كان﴾ من الأولياء ﴿غنياً﴾ يجد مؤونة سنة كاملة ﴿فليستعفف﴾ يقال: استعفف من الشيء إذا امتنع منه، والمعنى: أن الولي الغني لا يأخذ شيئاً لنفسه من مال اليتيم بعنوان الأجرة والعوض ﴿ومن كان﴾ من الأولياء ﴿فقيراً﴾ لا يملك مؤونته لا قوة ولا فعلاً ﴿فله﴾ الحق في أن ﴿يأكل﴾ من مال اليتيم ﴿بالمعروف﴾ الذي هو قدر أجرته على حفظ أمواله لا أزيد من ذلك ﴿فإذا دفعتم﴾ أيها الأولياء ﴿إليهم﴾ أي إلى الأيتام الذين بلغوا ورشدوا ﴿أموالهم فأشهدوا عليهم﴾ حتى لا ينكروا في المستقبل فإن الشهود حينئذ يكونون في جانبكم لدى الإنكار ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي محاسباً وشاهداً، فارقبوه في أعمالكم، فإنه يعلم ما تفعلونه بأموال الأيتام.

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرُ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٨﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٩﴾ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً

[٨] وقد كان أهل الجاهلية لا يورثون البنات، فكان الولي يدفع المال كله إلى أولاد الميت دون بناته فهني الله عن ذلك بقوله: ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ أي أقرباء الرجال، فلا يعطى الرجل أكثر من حظه ونصيبه ﴿ولللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ فلا تحرم من نصيبها كما لا تعطى أكثر من حصتها ﴿مما قل منه﴾ أي مما ترك ﴿أو كثر﴾ فالمهم أن يعطى كل واحد نصيبه على أن لا يكون ما يُعطى كثيراً أو قليلاً ﴿نصيباً مفروضاً﴾ فرضه الله سبحانه وأوجبه فلا يُزاد عليه ولا يُنقص منه.

[٩] ﴿وَإِذَا حضر القسمة﴾ أي شهد وقت قسمة التركة ﴿أولو القربى﴾ أقرباء الميت الذين لا يرثون ﴿والبتامى والمساكين﴾ من غير أقربائه ﴿فارزقوهم منه﴾ أي أعطوهم شيئاً من المال الموروث ﴿وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ حسناً غير خشن حتى يطيب خاطرهم ويجبر كسر عدم إرثهم وكسر يُتهمهم ومسكتهم.

[١٠] ثم بيّن سبحانه أن من يأكل مال اليتيم أو يظلمه لا بد وأن يفعل ذلك بذريته اليتامى من بعده ﴿وليشخس الذين لو تركوا من خلفهم ذرية

فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢﴾
 وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ
 وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ
 مِن بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٌ وَلَهُنَّ
 الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ
 لَكُمْ وَلَدٌ

=====

فإنكم لا تعلمون أيهم أقرب نفعاً، والله الذي هو يعلم الأشياء يقرر الحق كما تقدم فلا تخالفوا تحديده في أنصبة الميراث جرياً وراء العاطفة والأوهام، فإنكم لا تعلمون أنكم بأيهما أسعد في الدنيا والآخرة ﴿فريضة من الله﴾ أي فرض الله هذه الأنصبة فريضة واجبة ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ فهو عالم بالمصالح حكيم فيما يفعل ويقرر.

[١٣] ﴿ولكم﴾ أيها الأزواج ﴿نصف ما ترك أزواجكم﴾ أي زوجاتكم، فإن ماتت زوجة أحدكم فللزوجة النصف ﴿إن لم يكن لهن﴾ أي للزوجات ﴿ولد﴾ سواء كان من هذا الزوج أو من غيره ﴿فإن كان لهن ولد﴾ واحد أو متعدد ﴿فلكم﴾ أيها الأزواج ﴿الرربع مما تركن﴾ من ميراثهن ﴿من بعد وصية يوصين بها أو دين﴾ فأولاً يُخرج الدين ثم تُخرج الوصية إلى حد الثلث ثم تقسم التركة فللزوجة الربع والبقية للأولاد ﴿ولهن﴾ أي للزوجة التي بقيت بعد وفاة زوجها ﴿الرربع مما تركتم﴾ من الميراث ﴿إن لم يكن لكم﴾ أيها الأزواج ﴿ولد﴾ وقد دلت الشريعة أن الزوجة لا ترث من الأرض ﴿فإن كان لكم ولد﴾ واحد أو متعدد،

فَلَهَنَّ الثُّمْنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ

ذكر أو أنثى، من تلك الزوجة الباقية أو من غيرها ﴿فلهن الثمن مما تركتم﴾ من الميراث ﴿من بعد وصية توصون بها﴾ أيها الأزواج ﴿أو دين﴾ ولعل تقديم الوصية في الآيات - مع أن الدين مقدم في الإخراج - أن الغالب وجود الوصية بخلاف الدين. ﴿وإن كان رجل يورث كلاله﴾ الكلاله هم: الأخوة سواء كانوا من الأب أو الأبوين أو الأم، والمعنى أنه إن كان الوارث كلاله بأن لم تكن المرتبة الأولى موجودة، فإن الأبوين والأولاد في المرتبة الأولى، والأخوة والأجداد في المرتبة الثانية، والأعمام والأخوال والعمات والخالات في المرتبة الثالثة، والزوجان يرثان مع كل مرتبة. و«كلالة» في الإعراب منصوب على الحالية، فالمعنى إن وجد رجل يرثه قريب له في حال كون ذلك القريب كلاله له ﴿أو﴾ إن كان ﴿امرأة﴾ تورث كلاله، أي وجدت امرأة يرثها قريب لها في حال كون ذلك القريب كلاله لها، والحاصل أنه لو مات رجل أو امرأة ﴿وله﴾ أي لكل واحد من الرجل والمرأة الذين ماتا ﴿أخ أو أخت﴾ والمراد هنا كلاله الأمي خاصة بأن كان الوارث شريكاً مع الميت في الأم فقط، بأن بقي أخوه أو أخته الأميان ﴿فلكل واحد منهما السدس﴾ من تركه الميت ﴿فإن كانوا﴾ أي كانت الكلاله ﴿أكثر من ذلك﴾ الواحد، بأن كانت الكلاله اثنين فصاعداً ﴿فهم شركاء في الثلث﴾ يقسمونه بينهم بالسوية فإن الكلاله الأمي يرثون متساوين،

مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً
 مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٣﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
 وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ
 الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾

للمذكر مثل حظ الأنثى ﴿من بعد وصية يوصى بها﴾ من قبل الميت ﴿أو دين﴾ فإن الدين والوصية يُخرجان من المال ثم يُعطى للواحد من الكلاله السدس وللأثنين فصاعداً الثلث ﴿غير مضار﴾ أي لا يُضار الكلاله بأن يحرموه من الثلث، أو يكون المعنى: إنما تنفذ الوصية إذا كان الموصي غير مضار بأن لم يوصي بأكثر من الثلث وإلا لم تنفذ الوصية فيما زاد على الثلث ﴿وصية من الله﴾ أي هذه الأنصبة يوصيكم الله بها وصية ﴿والله عليم﴾ فيقدر الأنصبة حسب ما يعلم من المصالح ﴿حليم﴾ لا يعاجل العصاة بالعقوبة فمن خالفه في الإرث ولم ير عقوبة عاجلة فذلك لحلمه سبحانه فلا يغرّه ذلك.

[١٤] ﴿تلك﴾ التي بُيِّنَت في أمر الإرث ﴿حدود الله﴾ أي الحدود التي جعلها الله سبحانه لمقادير الإرث فلا يجوز التجاوز عنها ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ بتطبيق أوامرهما والاجتناب عن مخالفتها ﴿يدخله﴾ الله سبحانه ﴿جنان تجري من تحتها الأنهار﴾ أي من تحت قصورها وأشجارها ﴿خالدين فيها﴾ فلا زوال لهم عنها بالموت أو الإخراج أو ما أشبه ﴿وذلك﴾ أي نيل الجنة والخلود فيها ﴿الفوز﴾ والفلاح ﴿العظيم﴾ الذي لا يماثله شيء فلا يحسب أحد أن الفوز ببعض التركة

وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا
خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٥﴾ وَالَّتِي
يَأْتِيَنَّ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَأَسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ
مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّهِنَّ
الْمَوْتُ

ظلماً شيء يُعتدّ به فإنه لا فوز كفوز الجنة الدائمة .

[١٥] ﴿ومن يعص الله ورسوله﴾ بمخالفة أوامرهما وارتكاب نواهيهما
﴿ويتعد حدوده﴾ فيتجاوز ما حدّ له من الطاعات ﴿يدخله ناراً خالداً
فيها﴾ أي دائماً . ومن المعلوم أن ذلك لمن خالف جميع الأوامر
لابعضها التي دل الدليل على عدم خلوده، ولعل عموم «حدوده» حيث
أنه جمع مضاف، يدل على ذلك ﴿وله عذاب مهين﴾ فيُهان في العذاب
حتى يجتمع عليه عذاب الروح وعذاب الجسد .

[١٦] وحيث بيّن سبحانه حكم الرجال والنساء في باب النكاح والميراث بيّن
حكم الحدود فيهن إذا ارتكبن الحرام فقال سبحانه: ﴿واللاتي﴾ جمع
«التي» أي النساء اللاتي ﴿يأتين الفاحشة﴾ أي الزنا، وإنما سميت
بالفاحشة لأنه أمر يفحش ويتجاوز الحد ﴿من نسائكم﴾ سواء كنّ
ذوات أزواج أو لا ﴿فاستشهدوا عليهن أربعة منكم﴾ أي اطلبوا شهادة
أربعة رجال رأوا الزنا كالميل في المكحلة ﴿فإن شهدوا﴾ أربعة عدول
على ذلك ﴿فأمسكوهن في البيوت﴾ أي فاحبسوهن فيها . وقد كان
ذلك حكم الإسلام بالنسبة إلى الزانية ابتداءً ﴿حتى يتوفاهن الموت﴾

أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٦﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنِهَا مِنْكُمْ
فَأَذَوْهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ
كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٧﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ

أي حتى تموت ﴿أو يجعل الله لهن سبيلاً﴾ أي يجعل لهن أمراً آخر غير الحبس. وقد نزلت آية الحدود وهي قوله تعالى: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ) ^(١) فارتفع حكم الحبس في البيت. وما ورد في الأخبار من أن آية الحد ناسخة لآية الحبس، يراد به أن حكم الحبس ارتفع لانقضاء أمده، لأنه كان مؤقتاً بجعل السبيل.

[١٧] ﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ﴾ لعل المراد بـ «الذَّانِ» اللائط والملوط به فالضمير يرجع إلى الفاحشة لا بمعناها الأول بل بالمعنى المنطبق، أما تفسيره بالزانيين - فإن لم يرد بذلك حديث عن المعصوم عليه السلام - فبعيد. ﴿فَأَذَوْهُمَا﴾ الأذية أعم من الحد فلا حاجة إلى القول بنسخ الحكم - إن لم يرد بذلك حديث معتبر - ﴿فَإِن تَابَا﴾ من فعلهما ﴿وَأَصْلَحَا﴾ والمراد بالإصلاح الإتيان بالأعمال الصالحة ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ ولا تتعرضوا لهما بسوء ﴿إِن اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾.

[١٨] ثم بيّن سبحانه ممن تُقبل التوبة وممن لا تقبل؟ لمناسبة قوله: «فإن تابا» فقال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي أن قبول التوبة حق عليه سبحانه - جعله على نفسه - أو المراد توبة الله أي رجوعه عن المعاصي، فإن كلاً من الله والعبد تَوَّاب بمعنى راجع إلى الآخر، فإن رجوع العبد بمعنى إقلاعه عن الذنب ورجوع الله بمعنى لطفه وإحسانه

لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ
 فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٨﴾
 وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا
 حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْكُنَّ وَلَا الَّذِينَ

=====

وإعادة نظره إلى العبد ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾ العمل المحرم
 ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ الظاهر أنه ليس المراد بالجهالة الجهل مقابل العلم، بل
 المراد مطلق العصيان، فإنها وإن صدرت عن عمد، لكن حيث أنها
 يدعو إليها الجهل بما يترتب عليه الذنب، يصح أن يقال: أنها عن
 جهل، وليس القيد احترازياً حتى يقال: فما هو سوء بغير جهالة؟ بل
 فائدته أن السوء لا يصدر إلا عن جهل ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ قبل أن
 يروا علائم الموت ﴿فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يرجع عليهم بمحو
 ذنوبهم وإعادة لطفه عليهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بمصالح العباد فيحكم
 بمقتضى علمه ﴿حَكِيمًا﴾ يضع الأشياء في مواضعها حسب ما تقتضيه
 الحكمة.

[١٩] ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ﴾ المقبولة النافعة ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾
 المعاصي، وإنما سميت سيئة لأنها تُسيء إلى صاحبها ﴿حَتَّىٰ إِذَا
 حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ بأن رأى آثاره من مشاهدة ملك الموت
 ونحوه ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾ فإنها توبة المضطر الذي يريد الخلاص
 من العقاب لاتوبة النادم المطيع، كما قال سبحانه في قصة فرعون:
 (الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) ^(١) ﴿وَالَّذِينَ

يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا
 أَلِيمًا ﴿١٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا
 النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ
 إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ

=====

يموتون وهم كفار ﴿ فقد انقطعت الحياة التي هي محل العمل وجاءت دار الحساب التي فيها حساب ولا عمل ﴾ أولئك ﴿ الطائفتان ﴾ أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴿ أي هيأنا لهم عذاباً يؤلمهم بسبب ما فعلوا من المعصية، ولا يخفى أنه بالنسبة إلى من عمل السيئات حتى جاءه الموت لا يكون العصيان سبباً موجباً للعقاب، فإن ذلك معلق بعدم الشفاعة والعفو.

[٢٠] ثم انتقل السياق إلى حكم آخر من الأحكام المرتبطة بالعائلة، وهو حكم المهر، فقال سبحانه: ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ والحكم وإن كان عاماً للمؤمن وغير المؤمن لكن الإصغاء حيث كان خاصاً بالمؤمنين توجه الخطاب إليهم ﴿ لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا ﴾ فقد كان أهل الجاهلية إذا مات بعض ذويهم حبسوا زوجته حتى تموت عندهم ويرثونها أي يأخذون ميراثها ولم تكن المرأة تريد ذلك بل تريد الزواج من رجل آخر فيمنعونها عن ذلك ﴿ ولا تعضلوهن ﴾ العضل: هو إمساك المرأة في البيت دون تزويج، فإنه لغة بمعنى المنع ﴿ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ﴾ فقد كان أهل الجاهلية إذا لم يرغبوا في زوجاتهم لم يطلقوهن وتركوهن ومنعهن عن الزواج حتى تفقدي ببعض مهرها أو سائر أموالها ﴿ إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾ أي بمعصية ظاهرة من زنا

وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿٢٠﴾ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢١﴾

أو غيره فإنه يحق حينئذ لكم أن تضيقوا عليهن حتى يفتدين ببعض ما آتيتموهن ﴿وعاشروهن﴾ أي عاشروا النساء - مطلقاً - ﴿بالمعروف﴾ الذي يعرفه أهل العقل والدين ﴿فإن كرهتموهن﴾ فلا تعجلوا بالطلاق ﴿فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ من ائتلاف وحب في المستقبل، أو أولاد صالحين، أو نحو ذلك. فإنه كثيراً ما تقع نفرة بين الزوجين وتنتهي بوثام وسلام ووداد وحب وألفة.

[٢١] ﴿وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج﴾ بأن أردتم طلاق امرأة وأخذ امرأة أخرى مكانها ﴿وآتيتم﴾ أي أعطيتم من باب المهر ﴿إحداهن﴾ وهي المرأة السابقة ﴿قنطاراً﴾ ملء جلد ثور ذهباً ﴿فلا تأخذوا منه شيئاً﴾ أي من ذلك المعطى لها مهرأ، فقد كان الرجل في الجاهلية إذا أراد طلاق امرأة وأخذ أخرى مكانها ضيق على زوجته الأولى أو بهتها بفاحشة حتى يجبرها أن تفتدي نفسها فيجعل فداءها مهرأ للزوجة الثانية ﴿أتأخذونه بهتاناً﴾ هو مصدر في مكان الحال، وهذا استفهام استنكاري، أي هل تأخذون بعض مالها بالبهتان؟! ﴿وإثماً مبيناً﴾ أي بالإثم الواضح.

وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ
وَأَخَذْتَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا
نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ
فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٣﴾

=====

[٢٢] ﴿وكيف تأخذونه﴾ تعجب من أخذ بعض مهر المرأة بهذا النحو المشين ﴿وقد أفضى بعضكم إلى بعض﴾ هو كناية عن الجماع، أي والحال أنكم اقتربتم منهن فذهب المهر لما حصلتم عليه من البضع، والإفضاء هو الوصول إلى شيء بالملامسة ﴿وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ والميثاق هو العهد الذي أخذته الزوجة من الزوج بالعقد لأن العقد معناه مقابلة المهر بما تستحل من نفسها له، وقد كان لازم العقد الإمساك بالمعروف أو التيسير بالإحسان.

[٢٣] ﴿ولا تنكحوا﴾ أيها المؤمنون ﴿ما نكح آبائكم من النساء﴾ فقد كان أهل الجاهلية ينكحون زوجات آبائهم بعد وفاتهم، فنهى الله سبحانه عن ذلك سواء دخل الأب بها أم لا ﴿إلا ما قد سلف﴾ قبل إسلامكم فلا تؤاخذون بذلك الذنب، فإن الإسلام يجب ما قبله، يعني أن ذنب أخذكم نساء آبائكم قبل الإسلام معفو عنه ﴿إنه كان فاحشة﴾ أي زناً فإن زوجة الأب من محارم الابن فمقاربتها زناً ﴿ومقْتاً﴾ أي موجباً لمقت الله وغضبه ﴿وساء سبيلاً﴾ فإنه سبيل الكفار والعصاة.

[٢٤] ثم ذكر سبحانه سائر أصناف المحرمات من النساء، ومن المعلوم أن التحريم يقوم بالطرفين فكما تحرم المرأة على الرجل كذلك يحرم الرجل على المرأة، وقد كانت هذه المحرمات، محللات عند بعض

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ
وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ
وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضْعَةِ

الناس كالمجوس، ولذا صرح القرآن الكريم بتحريمها، فقال: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ وهي كل امرأة يرجع نسبك إليها بالولادة كالأم والجدة من الطرفين ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾ وهي كل امرأة يرجع نسبها إليك بالولادة بنتاً أو بنت أولادك الذكور أو الإناث ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾ وهن اللاتي جمعك وإياهن رحم أم أو صلب ذكر ﴿وَعَمَاتُكُمْ﴾ وهن أخوات لذكر يرجع نسبك إليه من طرف الأب، كأخت الأب وأخت الجد الأبوي، أو من طرف الأم كعمة الأم التي هي أخت لأب الأم ﴿وَأَخَالَاتُكُمْ﴾ وهن اللاتي يكن أخوات لأنثى يرجع نسبك إليها من طرف الأم كأخت الأم وأخت الجدة الأُمِّيَّة، أو من طرف الأب كأخت أم الأب التي هي خالة أبيك ﴿وَبَنَاتُ الْأَخِ﴾ بلا واسطة أو مع الواسطة كحفيدة الأخ ﴿وَبَنَاتُ الْأَخْتِ﴾ بلا واسطة أو مع الواسطة كحفيدة الأخت. وهذه السبعة هي أصناف المحرمات بالنسب.

ثم بين سبحانه المحرمات بالسبب فقال: ﴿وَأُمّهَاتِكُمُ اللَّائِي
أَرْضَعْنَكُمْ﴾ بلا واسطة كأُمك بالرضاع، أو مع الواسطة كالأُم بالرضاع
للأب، والأُم بالرضاع للأُم وهكذا ﴿وَأَخَوَاتِكُم مِّن الرِّضَاعَةِ﴾ ولم
يذكر الأصناف الأخرى من المحرمات بالرضاع كالعمة والخالة، إما
لفهم ذلك من السياق أو لدخولهن في «أَخَوَاتِكُم» فإن العمة أخت
الأب والخالة أخت الأُم، وإذا تحققت حرمة الأخت تحققت حرمة
بنت الأخ وبنت الأخت.

وَأَمَّهَتْ نِسَائِكُمْ وَرَبَّيْكُمُ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ
نِّسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ
بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ
مِّنْ أَصْلَابِكُمْ

=====

﴿وَأَمَّهَات نِسَائِكُمْ﴾ أم الزوجة مباشرة كانت أو لا، كأُم أب الزوجة، وأُم أم الزوجة، وحيث أطلق سبحانه، تبين أنه بمجرد العقد على المرأة تحرم أمها سواء دخل بالزوجة أو لا ﴿وَرَبَائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ الرِّبَائ: جمع «رَبِيَّة» وهي بنت زوجة الرجل من غيره سواء كانت قبل هذا الزوج أم بعد هذا الزوج، وقيد «اللَّاتِي» للغلبة فإن الغالب أن الرجل إذا تزوج بامرأة لها بنت رباها في حجره، والحجور جمع حجر. ثم إنه لا فرق في الرَبِيَّة بين أن تكون بلا واسطة كبنت الزوجة، أم مع الواسطة كبنت الرَبِيَّة، أو بنت ابنها، أو أخت بنتها ﴿مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ أي حصل منكم جماع لهن، فإن الرَبِيَّة لا تحرم بمجرد العقد على أمها، وإنما تحرم لو دخل بأمها، فلو تزوج بامرأة ولم يدخل بها، ثم فارقها بطلاق أو فسخ أو انقضاء مدة في العدة أو نحو ذلك، حل له أن يأخذ ربيبتها. وهذا هو الفارق بين «أم المرأة» وبين «بنت المرأة» ﴿فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ في نكاح بناتهن، بعد خروج الأمهات عن حبالنكم ﴿وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ﴾ حلائل: جمع حليلة، وهي الزوجة، أي زوجات أبنائكم، سواء كان الإبن بلا واسطة، أو مع الواسطة كإبن الإبن، وابن البنت ﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ﴾ وذلك مقابل «الدعي» وهو من يتبناه الإنسان،

وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا

=====

فإنه لا يحرم على الأب المتبني زوجة الإبن الذي تبناه، لقوله سبحانه: (وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ) ^(١) أما الإبن الرضاعي فإنه بمنزلة الإبن النسبي لقوله ﷺ: «الرضاع لحمه كلحمه النسب» ^(٢).

﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ﴾ أي يحرم الجمع بين الأختين بأن تكونا في حبالته معاً، ويجوز أخذ واحدة ثم إخراجها عن حبالته ونكاح الأخرى ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ فإن أعمالكم في الجاهلية بالنسبة إلى نكاح المحرمات غير مؤاخذين عليها في الإسلام، لأن الإسلام يجب ما قبله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ يغفر ذنوبكم السابقة ﴿رَحِيمًا﴾ يرحم بكم فلا يجازيكم بسيئاتكم.

(١) الأحزاب: ٥ .

(٢) الوسيلة إلى نيل الفضيلة: ص ٣٠١ .

نَفِيرٌ بِالْفُرْجَانِ إِلَى الْإِلَهِ هَاتَا

رَبِّهِمْ يُخَوِّفُهُمْ

سورة النساء

من آية (٢٥) الى (١٤٨)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على
أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى
وعترته الطاهرين

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ ۖ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ

[٢٥] ﴿وَالْمَحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي النساء اللاتي أحصن بالأزواج، أي حرمت عليكم النساء ذوات الأزواج، يقال: أحصن الرجل زوجته، أي حفظها من الفجور ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ وهن الإماء ذوات الأزواج التي يسيههن المسلمون، فإن السبي يقطع عصمتهم بأزواجهن الكفار ويحل للمسلم إيقاعهن ﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي كتب الله - تحريم النساء المذكورات - عليكم كتاباً، فهو منصوب على المصدر بفعل محذوف ﴿وَأَحْلَ لَكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ المذكور فإن كل امرأة لا يقع عليها أحد العناوين المذكورة سابقاً قريبة كانت أو لا، فهي محللة على الشخص أن يتزوجها ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ أي تطلبوا بأموالكم - التي تجعلونها مهراً لهن - نكاحهن في حال كونهم ﴿مَحْصَنِينَ﴾ أي تحصنون إياهن بالزواج ﴿غَيْرِ مَسَافِحِينَ﴾ السفاح هو الزنا، بأن لا تبتغوا بالأموال السفاح كما يفعله الزانون حيث يسافحون بالنساء في مقابل المال، ففي ما وراء ذلك التحريم المتقدم حلال أن تبتغوا النساء بالمال لكن من طريق الزواج لا عن طريق السفاح ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ﴾ «ما» موصولة يراد بها المرأة، والضمير في «به» عائذ إلى «ما» أي النساء اللاتي استمتعتم بهن ﴿مِنْهُنَّ﴾ أي من النساء، وهذا بيان «ما» والمراد الاستمتاع طلب المتعة أي اللذة ﴿فَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي: فالنساء اللاتي استمتعتم بهن من طريق الإحصان والزواج يجب

فَرِيضَةٌ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيْمَا تَرَاٰضَيْتُمْ بِهٖ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ اِنَّ اللّٰهَ كَانَ عَلِيْمًا حَكِيْمًا ﴿٢٥﴾

عليكم إعطاءهن أجورهن . وهذه الآية وردت في نكاح المتعة، والمعبّر عنه بالنكاح المنقطع، كما ورد بذلك الروايات^(١)، والفرق بينه وبين الدائم أنه محدّد بمدة طالت أو قصرت، فإذا انتهى أمده انفسخ من نفسه، بخلاف الدائم الذي يحتاج فسخه إلى الطلاق أو نحوه، ويؤيد كون الآية في النكاح المنقطع لا الدائم، ذكر كلمة الاستمتاع التي هي ظاهرة في المتعة، وذكر الأجور فإن المنصرف من الأجر ما يُعطى لقاء الاستمتاع لا النكاح الدائم، ولا ينافي أن يكون السابق على هذه الجملة عاماً يشمل الدائم والمنقطع، وهذه الجملة خاصة للمنقطع، فإنه كثيراً ما يذكر الخاص بعد العام، فالمنقطع مصداق من مصاديق «محصلين غير مسافحين» وفي ذلك فائدة لطيفة، حيث تنبه الآية على عدم الاحتياج إلى الزنا والحال أن النكاح المنقطع بمكان من الإمكان ﴿فريضة﴾ أي فرضت ووجبت الأجور فريضة فلا يجوز للرجل عدم إعطاء الأجور للمستمتع بها.

﴿ولا جناح عليكم﴾ أيها المستمتعون ﴿فيما تراضيتُم به﴾ أي في المقدار الذي تراضيتُم به ﴿من بعد الفريضة﴾ أي المقدار السابق من المهر، فإذا تراضيتُم بزيادة المدة بعقد جديد أو إنقاصها بالهبة، بزيادة المهر أو نقصانه جاز لكما ذلك، والحاصل أن ما تباينا عليه سابقاً فريضة، لا يجوز العدول عنها إلا برضاً جديد ﴿إن الله كان عليماً﴾ بالمصالح ﴿حكيماً﴾ فيما شرع من الأحكام، التي منها المتعة التي تفيد

وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ
 الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ فَنِيَتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ
 وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ

=====

المسافرين والغرباء ومن لا يتمكن من الدائم، فإن ذلك وقاية للمجتمع من فتح أبواب الزنا والسفاح واللواط والسحق وما أشبه إذا ما سد باب المتعة.

[٢٦] ﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿طَوْلاً﴾ أي من جهة الغنى والثروة، بأن لم يكن له مال يكفيه ﴿أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي الحرائر ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ وإنما قيل لهن محصنات لإحضانهن أنفسهن عن البغاء كما قال سبحانه: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾^(١) فالمرأة العفيفة «محصنة» بالكسر، و«محصنة» بالفتح، بالاعتبارين، والمعنى: أن الرجل لو كان فقيراً لا يقدر على مهر الحرة ونفقتها ﴿فَذَكَرْنَا لَكُمْ﴾ ﴿مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ ينكح أمة ملكتها يمين أخيه المسلم ﴿مِنْ فَنِيَاتِكُمْ﴾ جمع فتاة وهي المرأة الشابة، والمراد بها هنا الأمة، فقد ورد «أن الرسول نهى - تنزيهاً - أن يقول أحد: عبدي وأمتي بل يقول: فتاتي وفتاتي»^(٢) جبراً لخطأهما ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ فإن مهر الأمة أقل وتكاليفها أيسر ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ﴾ فليس المراد التنقيب عن حقيقة إيمان الأمة المراد تزوجها بل يكفي الظاهر، أما الإيمان الراسخ القلبي فليس إلى ذلك سبيل بل الله أعلم به.

(١) التحريم: ١٣ .

(٢) كنز العمال: ج ٣ ص ٦٥٦ .

بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَاَنكِحُوهُنَّ بِاِذْنِ اَهْلِهِنَّ وَاَتَوْهُنَّ اُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَفِّحَاتٍ

﴿بعضكم من بعض﴾ فليس الرجل الحر بأعلى إيماناً من الأمة المؤمنة بل المؤمنون سواء كانوا أحراراً أو عبيداً أمة واحدة بعضهم من بعض، من طبقة أعلى من طبقة الآخرين، وإنما شرعت أحكام العبيد والإماء لمصالح خاصة، كما شرعت أحكام الرجال والنساء مختلفة لمصالح خاصة ﴿فانكحوهن﴾ أي تزوجوا بالفتيات المؤمنات ﴿بإذن أهلهن﴾ أي سادتهن ومواليهن فإنه لا يجوز نكاحهن بدون رضى السادة ﴿وأتوهن﴾ أي أعطوا الفتيات المؤمنات ﴿أجورهن﴾ أي مهورهن، وإعطاء الفتيات لا يراد به إلا الدفع إلى تلك الجهة، وإن كان المولى يستحق المهر ﴿بالمعروف﴾ من دون عطل وإضرار، وليكن نكاحكم إياهن بإذن أهلهن في حال كونهن ﴿محصنات﴾ عفيفات ﴿غير مسافحات﴾ أي غير زانيات، وإنما قيد بذلك لأن «النكاح» يطلق على الوطء، كما يطلق على العقد الشرعي، قال سبحانه: (الرَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ) ^(١) أي لا يزني بها، ولا تزني به، وقد كان في الجاهلية من يجبر إمامه على الزنا، فكان نكاحاً - أي جماعاً - بأجر، بإذن الأهل كما قال سبحانه: (وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْتُمْ تَحْصِنَ) ^(٢) ولعل ذلك لمقابلة قوله سبحانه بالنسبة إلى الحرائر: «محصنين غير مسافحين».

(١) النور: ٤ .

(٢) النور: ٣٤ .

وَلَا تُتَّخَذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصِنَّ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ
فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ
خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ

=====

﴿ولا متخذات أخدان﴾ أي لتكن الفتاة عفيفة غير متخذة لصديق، فإن الأخدان جمع خدن وهو الصديق، والحاصل أن تكون الأمة التي تريدون الزواج بها غير زانية ولا صديقة لأحد، وقد كُنَّ بعض الإماء في الجاهلية كذلك، فنهى الله سبحانه عن التزوج بهن ﴿فإذا أحصن﴾ أي تزوجن فأحصنهن أزواجهن ﴿فإن أتين بفاحشة﴾ أي بالزنا ﴿فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب﴾ أي إن حذهن نصف حد الحرة الزانية وهو خمسون جلدة، وقد كان من حكمة الإسلام أن جعل المحاربين مع المسلمين - إذا غلبوا عليهم - عبيداً وإماء، لا أن يقتل الجميع أو يسجنهم، ثم جعل العبودية تمشي في أعقابهم، حتى لا يجروا أحد على محاربة المسلمين خوفاً من ذلك، أو على الأقل يحد من نشاط الحروب، فأئى إنسان يسوّغ العبودية؟ مع العلم أن كثيراً من الناس يستسيغون القتل والسجن. ثم بعد ذلك جعل للعبيد أحكاماً خاصة تشديداً تارة وتخفيفاً تارة أخرى ليقابل التخفيف التشديد، ثم ليكون لهم بصورة عامة ميزة خاصة يعرفون بها عن الأحرار، وتفصيل فلسفة الأمرين يُطلب من الكتب الخاصة بهذا الشأن^(١).

﴿ذلك﴾ النكاح للإماء ﴿لمن خشي العنت منكم﴾ العنت هو

(١) في بعض الاعداد من نشرة «الاخلاق والآداب» الكربلاية تفصيل للجهة الأولى اي فلسفة تشريع العبد والإماء وانه بمعناه الاسلامي - لا الغربي السائد في الأذهان - لم يُلغ ولا يلغى الى يوم القيامة، كسائر احكام الإسلام.

وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٦﴾ يُرِيدُ اللَّهُ
لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ
عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ
عَلَيْكُمْ

=====

الجهد والشدة، أي خاف أن يقع في جهد وشدة من جهة ترك الزواج،
أو خاف الوقوع في الزنا لشدة رغبته الجنسية ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا﴾ فلا
تتزوجوا بالإماء ﴿خير لكم﴾ فإنه لو اعتاد نكاح الإماء بقيت الحرائر
بلا أزواج لقلة الكلفة بالنسبة إلى الأمة، وكثرة الكلفة بالنسبة إلى
الحرّة، فيقبل الناس على تزوّجهن، وليس أمر العبيد والإماء والفروع
المتصلة به قصة تاريخية لظروف خاصة، كما يقوله بعض من بهرته
الثقافة الغربية، ولو جاز ذلك في هذا الحكم لجاز في كل حكم
إسلامي، ولم يبق للإسلام اسم ولا رسم. ﴿والله غفور﴾ لذنوبكم
﴿رحيم﴾ بكم فلا تيأسوا من رحمته لما اقترفت من المحرمات
المرتبطة بهذا الباب بعد عزمكم على التوبة منها.

[٢٧] ثم بين سبحانه أن هذه المحرمات إنما حرمت لمصلحة البشر لا اعتباراً
فقال: ﴿يريد الله ليبين لكم﴾ أحكام دينكم ودنياكم ﴿ويهديكم﴾
يرشدكم ﴿سنن الذين من قبلكم﴾ السنن جمع سنة، وهي طريقة
الأنبياء ﷺ والمرسلين وعباد الله الصالحين ﴿ويتوب عليكم﴾ أي
يرجع عليكم بلطفه ومته حيث أنكم تعملون بطاعته - بعد ما كنتم في
زمان الجاهلية تعملون بالمعاصي والآثام - فبين لكم الأحكام لتعملوا بها
فيتوب عليكم ﴿والله عليم﴾ بمصالحكم ﴿حكيم﴾ فيما يأمر وينهي.

[٢٨] ﴿والله يريد أن يتوب عليكم﴾ كرّر لفائدة المقابلة بقوله سبحانه:

وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا
عَظِيمًا ﴿٢٨﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ
ضَعِيفًا ﴿٢٩﴾

=====

﴿ويريد الذين يتبعون الشهوات﴾ في مواجهة كل امرأة من غير نظر إلى
الحِلِّ والحرمة والمصلحة والمفسدة ﴿أن تميلوا﴾ عن الحق ﴿مِيلًا
عظيمًا﴾ أي انحرافاً، فإن اقرار محرمات النكاح من أكبر الآثام.
والآية وإن كانت عامة لكل باطل ولكل ميل إلا أن قرينة السياق
تخصصها بما ذكرنا.

[٢٩] ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ في أمور دينكم ودنياكم ولذا أحلَّ
كل النساء إلا ما فيه مضرة، ويقبل توبتكم، ولو أراد التشديد لم
يقبل توبتكم، وحرم عليكم أقساماً أخرى من النساء كما قال
سبحانه: (فَظَلَمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ) ^(١) وفيه إفادة
أن تحريم ما ذُكِرَ ليس تثقيلاً وإنما هو تخفيف، فإن التخفيف قد
يكون بالنسبة إلى الشيء وقد يكون بالنسبة إلى نتائجه، وتحريم
المحرمات المذكورة تخفيف بالنسبة إلى النتائج لما تشتمل عليه
المحرمات من وخامة العاقبة في الدنيا والآخرة التي منها ضعف
النسل بالنسبة إلى نكاح المحرمات كما ثبت في الطب الحديث
﴿وخلق الإنسان ضعيفاً﴾ فهو لا يصبر على شهواته ويريد اقرار آثام
الزنا مما يضره في دنياه وآخرته

[٣٠] ولما بيّن سبحانه محرمات النساء مما يتعلق بـ «الفرج»، بيّن محرمات

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ
بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا
تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ

=====

الأموال مما يتعلق بـ «البطن» فقد ورد عن رسول الله ﷺ أن: «من وقى شر لقلقه وقببه وذنبه فقد وقى الشر كله»^(١)، والمراد بقلقه: لسانه وقببه: بطنه، وذنبه: فرجه. فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ تقدم أن الحكم وإن كان عاماً للمؤمن وغيره إلا أن إصغاء المؤمن فقط أوجب توجيه الخطاب إليه فقط ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ والمراد بالأكل مطلق التصرف، وأتى بلفظ الأكل لشيوع هذا النوع من التصرف، فهو من استعمال الخاص وإرادة العام، وكلمة «بينكم» إنما أتت بها لإفادة أن الأكل بالباطل إنما يعود ضرره إليهم أجمع فليس الأكل لمال غيرهم، وإنما أكل لأموالهم فيما بينهم، ويعود ضرره إلى مجتمعهم، والباطل هو خلاف الحق الذي لا يقره الشرع والعقل، أما أخذ الخمس والزكاة وسائر الحقوق المالية والواجبات فليس أكلاً بالباطل ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ الاستثناء منقطع لأنه ليس أكلاً للمال بالباطل. وكثيراً ما يأتي مثل هذا الاستثناء في الكلام فيقال: لا تجالس الأشرار إلا الأخيار، ولا تأكل المضر إلا المفيد، وقوله «عن تراض» يفيد عدم جواز أكل المال مقابل التجارة الجبرية بدون الرضا ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي لا يقتل بعضكم بعضاً فإن القتل مهما وقع على العدو فإنه واقع على الجنس البشري، والمناسبة بين القتل وأكل المال، أن الله سبحانه حرم انتهاك الأعراض، وأكل الأموال وإراقة الدماء،

إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا
وِظْلَمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يَسِيرًا ﴿٣١﴾ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ
عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ

=====

فحيث ذكر الأولين، أشار إلى الثالث ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ومن رحمته بكم أن جعل أموالكم وأعراضكم ودماءكم محترمة لا يجوز لأحد أن يتصرف فيها.

[٣١] ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ القتل، أو أكل المال والقتل، أو انتهاك العرض وأكل المال والقتل، والسياق يؤيد المعنى الثالث، وإن كان قرب اللفظ يؤيد المعنى الأول ﴿عُدْوَانًا وَظْلَمًا﴾ فإنه تعدُّ للحدود وظلم للنفس وللغير، وفي ذلك إخراج للسهو والنسيان والخطأ ﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ﴾ من أصلاه أي أدخله، ﴿نَارًا﴾ في الآخرة ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الإدخال في النار لمن فعل ذلك ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ فلا يمنعه مانع ولا يُسأل عما يفعل.

[٣٢] إِنَّ الْإِنْسَانَ لَابِدٌ وَأَنْ تَقَعَ مِنْهُ مَخَالَفَاتٌ، وحيث أن المخالفات مختلفة: من كبيرة، كقتل النفس، وصغيرة ككذبة عفوياً ونحوها. لذا يختم الله سبحانه تلك الآيات المحذرة عن المحرمات المذكورة بقوله سبحانه: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ كانتهاك الأعراض وأكل أموال الناس بالباطل وإراقة دماء الأبرياء ﴿نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ومعنى التكفير: الستر والغفران، أن نغفر سائر سيئاتكم، ولا نؤاخذكم بما لا بد وأن يقع في الحياة

وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣٢﴾

﴿وَنُدْخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ أي مكاناً حسناً طيباً يُكرم صاحبه فيه، و«كريم» صفة الإنسان، يطلق على المحل بعلاقة الحال والمحل، والمراد بـ «المدخل الكريم» الجنة.

[٣٣] وحيث سبق الكلام حول أكل الأموال بالباطل، جرى السياق في موضوع أدق وهو تمتي بعض الناس أن يكون نصيبهم كنصيب الآخرين، والتمني قد يكون مقروناً بزوال النعمة من الآخر، وهذا هو الحسد المذموم الذي تُهي عنه في هذه الآية، وقد يكون طلباً لأن يكون للإنسان مثل ما لأخيه وهذه هي الغبطة، وهذه وإن كانت خلاف الأدب - بالنسبة إلى الأمور الدنيوية - لأنها تكشف عن ضعة في النفس، لكنها ليست بمحرمة.

وذكر صاحب «مجمع البيان» في سبب النزول ما لفظه: «قيل: جاءت وافدة النساء إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله! أليس الله رب الرجال والنساء وأنت رسول الله إليهم جميعاً، فما بالناس يذكر الله الرجال ولا يذكرنا، نخشى أن لا يكون فينا خير ولا لله فينا حاجة. فنزلت هذه الآية. وقيل: إن أم سلمة قالت: يا رسول الله يغزوا الرجال ولا تغزوا النساء. فنزلت الآية. عن مجاهد، وقيل: لما نزلت آية المواريث قال الرجال: نرجو أن نُفَضَّلَ على النساء بحسناتنا في الآخرة كما فُضِّلنا عليهن في الميراث فيكون أجراً على الضعف من أجر النساء. وقالت النساء: إنا نرجو أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال في الآخرة كما لنا الميراث على النصف من نصيبهم في الدنيا. فنزلت الآية»^(١).

وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ
نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا
اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾

=====

وعلى أي حال فقد كان هناك تمنى من أحد الجانبين فهى الله عن ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فإن التمنى مع قطع النظر عن عدم جدواه يكشف عن ضعف النفس وعدم تبصر الإنسان بالأمور إذ التفضيل لم يقع اعتباطاً، وإنما خلقه كل واحد من الرجال والنساء، وسائر الملابس الاجتماعية، أوجبت هذه المفاضلة من عليم حكيم، فلا يقل أحدكم: ليت ما أعطي فلاناً من المال والجاه والتشريع كان من نصيبي ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا﴾ من المال والجاه والعمل ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ من الأمور المذكورة. ثم ليس كل ما اكتسبه الرجل له، بل قسم منه لله سبحانه يجب صرفه في سبيله من مال أو جاه أو طاقة، ولذا قال: «مما اكتسبوا» وكذلك بالنسبة إلى النساء. فهذا النصيب الذي قدره سبحانه هو الذي ينبغي لكل منهما أن يقنع به ولا يتوقع أن يكون له مثل ما للصنف الآخر ﴿وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أن يعطيكم ما تريدون لا أن تحسدوا وتتمنوا زوال نعمة الآخرين وانتقالها إليكم فإنه سبحانه هو القاسم والمعطي ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلم ما تضررونه من التمنى والحسد، أو ما تنوون في قلوبكم من الالتجاء إليه سبحانه في أن يوفر عليكم الناقص الذي تريدون كماله. ثم إن ظاهر قوله سبحانه: «لِلرِّجَالِ . . إلخ» أن التمنى كان بالنسبة إلى الأمور الاكتسابية لا الأمور التكوينية.

وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ
وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاعْتَوْهُمْ نَصَيْبُهُمْ^{٣٤} إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٤﴾

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى
بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَلِحْتُ قَنِينَتُ
حَافِظَتٌ لِلْغَيْبِ

الوارث وارثاً بعقد اليمين، أو عدم إعطاء «الذين عقدت أيمانكم» نصيبهم المقرر في الشريعة.

[٣٥] وحيث تقدم إن لكل من الرجال والنساء نصيب، أراد سبحانه أن يبين علة زيادة الرجل في نصيب الإرث، ونصيب الأمر والنهي، على المرأة، فقال: ﴿الرجال قوامون﴾ جمع قوام وهو القائم بالأمر المسلط على الشيء ﴿على النساء﴾ ومن المعلوم أن المراد قوامة الرجل في الجملة، لا أن كل رجل قريب قوام على كل امرأة قريبة ﴿بما فضل الله﴾ أي أن القوامة بسبب تفضيل الله سبحانه ﴿بعضهم على بعض﴾ فإن الله سبحانه فضل الرجل على المرأة عقلاً وجسماً وتحملاً - كما هو واضح وقد ثبت في العلم الحديث - ولم يكن تفضيل الله سبحانه اعتباراً فقد خلقت المرأة لغاية غير ما خلق لها الرجل فمثلهما مثل «مركبتين» صغيرة تحمل الركاب، وكبيرة تحمل الحديد والأخشاب ﴿وب﴾ سبب ﴿ما أنفقوا من أموالهم﴾ فإن نفقة الزوجة واجبة على الزوج، ومن المعلوم أن هذا الواجب يلزم أن يُعَوَّض بحق فأعطي للزوج القوامة في قبال ما وجب عليه من النفقة، وكذلك بالنسبة إلى المهر.

﴿فالصالحات قانتات حافظات للغيب﴾ وإذ ثبتت هذه القوامة، فالنساء الصالحات الخيرات سيحافظن على الهدوء والسكون والموافقة لأزواجهن ويتجنبن الشغب والتمرد والاستعلاء وتجاوز الحدود

بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ
وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ

والنشوز، والقنوت بمعنى الإطاعة، أي فهن مطيعات للأزواج يحفظنهم في حضورهم وغيابهم كما أن ذلك مقتضى كونهن مؤلّى عليهن، والمراد بالغيب حالة غيبوبة الزوج بخروج أو سفر أو نحوهما، فلا يُخْتَمُ في أنفسهم أو أموالهم أو نحو ذلك، ويكون هذا الحفظ منهن لهم ﴿ب﴾ سبب ﴿ما حفظ الله﴾ لهن من الكرامة والحقوق، أو مستعينات بحفظ الله تعالى فإن الإنسان لا يتمكن من حفظ شيء إلا إذا شاء الله حفظه، أو بمقابلة حفظ الله، كأن يكون حفظ الله عوضاً لحفظهن إياهم، فالباء سببية، أو استعانة أو مقابلة.

أما المرأة التي لا تقنت وتريد الاستعلاء على الزوج، ولا تراعي حقوق الرجل، فلها حكم خاص بيّنه سبحانه في قوله: ﴿وَاللَّي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ من نشز إذا ارتفع، أي عصيانهن، فكأنها ارتفعت عن حذها ﴿فعظوهن﴾ من الوعظ، بالنصح والإرشاد، وما أشبهها ﴿واهجروهن في المضاجع﴾ إن لم يفد الوعظ، و«المضاجع» جمع مضجع، وهو محل النوم وفراشه، وذلك بتحويل الظهر، أو بعزل فراشه عن فراشها ﴿واضربوهن﴾ وفي بعض الأخبار أن الضرب بالسواك، ولا يخفى أن هذه المراتب بالتدرّج وإن كانت الواو العاطفة لا تفيد ذلك - كما قالوا - كما أن المرأة كثيراً ما تتأدّب بالهجر والضرب الخفيف لأنهما يبعثان فيها العاطفة نحو الزوج ويتطلبان منها تحسين سلوكها ليرجع إليها قلب الزوج ﴿فإن أطعنكم﴾ ومن المقرّر في

فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا
 ﴿٣٥﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ
 وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٦﴾

الشريعة أن الإطاعة الواجبة على المرأة ليست إلا عدم خروجها بدون
 إذنه ومطاوعتها له في الاستمتاع بها متى أراد ﴿فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾
 أي لا تطلبوا لضررهن طريقاً، بإيذائهن وعدم القيام باللطف والعطف
 المترقب من الزوج، بل سامحوهن، فقد قال الرسول ﷺ: «إن من
 حق المرأة على الرجل أن يغفر لها إذا جهلت»^(١)، ﴿إن الله كان عليماً﴾
 فلا يتعال عليه أحد بقوته ﴿كبيراً﴾ فلا أكبر منه .

[٣٦] ﴿وإن خفتم﴾ أيها الناس المحيطون بالزوجين ﴿شقاق بينهما﴾ أي
 المخالفة والعداوة بين الزوجين، كأن كل واحد منهما في شق
 وجانب، غير شق الآخر وجانبه ﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من
 أهلها﴾ فإن الحكمين حيث يعرفان ملابسات الزوجين يتمكنان من
 فصل الأمر على أحسن الوجوه، وللحكمين الإصلاح وليس لهما
 الطلاق إلا برضى الزوج أو وكالة سابقة ﴿إن يريدَا﴾ يعني الحكمين
 ﴿إصلاحاً﴾ بينهما ﴿يوفق الله بينهما﴾ والضمير عائد إلى الحكمين
 لقرب اللفظ، وربما يقال: عائد إلى الزوجين. ﴿إن الله كان عليماً﴾
 بمصالح العباد ﴿خبيراً﴾ بما يضره الحكمين ويفعلانه في أمر

وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَنًا
وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ

الإصلاح والإفساد.

[٣٧] ثم يتوجه البيان إلى العلاقات الإنسانية العامة بما فيها الأقربون وغيرهم، بعدما فرغ من نظام الأسرة، وربطها بعبادة الله سبحانه الذي أمر بذلك، ويبين ما يجب على الإنسان تجاه الخالق وتجاه المخلوق، فقال: ﴿واعبدوا الله﴾ ومعنى العبادة منتهى الخضوع مما يطلب من العبد قبال سيده، فإن العبادة والعبد من مادة واحدة ﴿ولا تشركوا به﴾ أي بالله ﴿شيئاً﴾ أي لا تجعلوا له شريكاً من حجر أو مدر، أو جماد أو نبات، أو ملائكة أو بشر، فإنه هو الإله الواحد الذي لا شريك له ﴿و﴾ أحسنوا ﴿بالوالدين إحساناً﴾ فإنهما واسطة خلقكم، وكثيراً ما يُقرن الإحسان إليهما بعبادة الله سبحانه في القرآن الكريم، لإفادة تأكيد لزوم الإحسان إليهما ﴿و﴾ أحسنوا ﴿بذي القربى﴾ القربى كاليسرى من اليسر، أي أصحاب القرابة، وهذا تعميم بعد التخصيص ﴿واليتامى﴾ وهم الذين مات آباؤهم، أو الأعم منهم ومن ماتت أمه ﴿والمساكين﴾ هم الفقراء بصورة عامة ﴿والجار ذي القربى﴾ ولمثله حقان: حق الجوار، وحق القرابة ﴿والجار الجنب﴾ جُنُب بضم الأولين كعنق، صفة بمعنى الغريب، وكأنه باعتبار أن كلاً من الطرفين في جُنُب ﴿والصاحب بالجنب﴾ أي صاحبك الذي بجانبك، سواء كان في مدرسة أو دكان أو سفر أو حضر، أو غيرها ﴿وابن السبيل﴾ أي المنقطع عن بلده سواء كان ثرياً أو لا، ويسمى «ابن السبيل» لأنه لا يعرف شيئاً من

وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنْ أَلَّهِ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا
فَخُورًا ﴿٣٧﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ
وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ

ملايساته إلا السفر، يقال ابن البلد وابن السبيل وابن العمل لمن يرتبط
بهذه الأمور ﴿وما ملكت أيمانكم﴾ من العبيد والإماء.

وقد أطلق سبحانه الإحسان إلى هؤلاء ليشمل مطلق صنوف
الحفاوة والإكرام، وقد كان تأكيد الإسلام بالإحسان إلى هؤلاء تمشياً
مع روحه العامة في توثيق صلة البشر بعضهم مع بعض، وجمعهم في
رباط الود والحب والوئام ﴿إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾
المختال: المتبخر المتكبر، والفخور: الذي يفخر بمناقبه كبراً
واعترازاً وتطاولاً. ذكر هذه الجملة هنا بمناسبة أن من أمره سبحانه
بالإحسان إلى الأصناف المذكورة كثيراً ما يتطاول ويتكبر، فلا يخضع
للإحسان، كما هو المشاهد إلى الآن، فنهى سبحانه عن ذلك بعدما
أمر بالإحسان ليؤكد إثباتاً ونفياً.

[٣٨] وحيث أن الإحسان إلى هؤلاء كثيراً ما يحتاج إلى بذل المال، ذم
سبحانه الذين لا يبذلون أموالهم في سبيل الله بقوله: ﴿الذين﴾ صفة
«من كان مختالاً فخوراً» ﴿يبخلون﴾ فلا ينفقون الأموال في سبيله
سبحانه ﴿ويأمرون الناس بالبخل﴾ وكأن هذا ملازم لصفة البخل فإن
البخل حيث جُبِل على حب المال لا يتمكن أن يرى غيره ينفق ماله،
وقد تشدد هذه الصفة في البخل حتى يبخل على نفسه، فلو أنفق عليه
غيره نهاه وأمره بالكف. ﴿ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾ فإن

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ
أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ

البخلاء يكتُمون أموالهم لئلا يُعرفون فيذمهم الناس بعدم إنفاقهم في سبل المعروف، أما ما اشتهر من «استر ذهبك وذهابك ومذهبك» فإنه في محل الخوف لا مطلقاً ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ أي هَيَّئْنَا ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ الذين يكفرون بنعم الله سبحانه ولا يعملون بما أمرهم الله سبحانه من إنفاق أموالهم ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾ يُهينهم ويكسر كبرياءهم، كما تكبروا في الدنيا ولم يُحسنوا إلى من وجب الإحسان إليه، اختيلاً وافتخاراً، كما قال سبحانه: (ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ) ^(١)

[٣٩] وهناك صفة أخرى ملازمة لعدم الإحسان إلى الأصناف السابقة، فإن المختال الذي لا يُحسن ويبخل، لا بد وأن يكون إنفاقه رِئَاءَ وَسَمْعَةً، لأن كبريائه يجبره على أن يشوب إنفاقه بما يلائم صفته. فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ وهذه الجملة عطف على قوله «الذين يبخلون» يعني أن إنفاقهم لأجل أن يراهم الناس، حتى يعظمون في نفوسهم، ويمدحونهم بأنهم أهل خير وإنفاق، والمراد بالرياء المثال، وإلا فالسمعة كذلك ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ حتى يكون حافزهم على الإنفاق أمر الله سبحانه ورضاه ﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ حتى يكون باعثهم على البذل رجاء الثواب وخوف العقاب.

ثم إنه كثيراً ما يعبر بهذا التعبير عن عدم الإيمان الكامل، لا مطلق الإيمان، أو عدم الإيمان من هذه الجهة، وإن كان هناك إيمان من سائر

وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٩﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ
 لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ
 اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

الجهات، إذ أن الإيمان الكامل والإيمان من جميع الجهات، يقتضي أن يكون باعث كل حركة وسكون هو الإيمان لا غيره، وذلك كما يقال: فلان لا يطيع أباه، إذا لم يطعه إطاعة كاملة، أو إطاعة من جميع الجهات، فإنه لا يراد بذلك عدم الإطاعة مطلقاً، بل عدم الإطاعة الكاملة من جميع النواحي.

﴿ومن يكن الشيطان له قريناً﴾ مقترناً، بأن صاحبه ولازمه وأتمر بأوامره في البخل والرياء وعدم الإيمان ﴿فساء قريناً﴾ لأنه يدعوه إلى المعصية الموجبة لذهاب دينه ودنياه.

[٤٠] ﴿وماذا عليهم﴾ أي: أي شيء يكون عليهم وأي ضرر يتوجه إلى هؤلاء الذين لا يؤمنون ولا ينفقون ﴿لو آمنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله﴾؟! فإنه بالعكس مما يظنون من أن الإيمان والإنفاق يسببان أضراراً ومشاكل، إذ الإيمان يوجب الهدوء والسكينة والاطمئنان وخير الدارين، والإنفاق يوجب تقدم المجتمع وازدهاره مما يعود إلى المنفق بأكثر مما أنفقه ﴿وكان الله بهم﴾ أي بهؤلاء، سواء أنفقوا وآمنوا، أم لا ﴿عليماً﴾ فيجازيهم بأعمالهم إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

[٤١] ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ المثقال الثقل، والذرة هي واحدة «الهباء» التي يرى إذا دخل شعاع الشمس من الكوة، فمن أنفق

وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤١﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤٢﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ

فلا يظن أن إنفاقه يذهب هباءً، فإن الله سبحانه يجازيه على إنفاقه ولا يظلمه قدر مثقال ذرة ﴿وَإِنْ تَكَ﴾ الذرة التي أتى بها العبد ﴿حَسَنَةً﴾ عملاً خيراً ﴿يُضَاعِفْهَا﴾ فإن من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴿وَيُؤْتِ﴾ لمن أحسن ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ دلالة على صدق الوعد وعظمه حيث أنه من لدن صادق كريم ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وهو الثواب الباقي أبد الأبد.

[٤٢] وإذا كان الله تعالى بهذه المثابة من العلم والعدل ﴿فَكَيْفَ﴾ بحال الناس الذين انحرفوا عن الجادة، وكفروا وبخلوا وعصوا ﴿إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾ يشهد على أعمالهم، وهم أنبياءهم ومن جعله الله سبحانه واسطة بينه وبينهم في التبليغ وبلاغ الأحكام ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا رسول الله ﴿عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ القوم الذين أنت فيهم ﴿شَهِيدًا﴾ تشهد على أعمالهم في ذلك الموقف الرهيب.

[٤٣] ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي في يوم القيامة ﴿يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ﴾ «الواو» إما للتقسيم، أي يود كل واحد منهما، أو للجمع أي يود الكافر العاصي ﴿لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ أي يجعلون متساوين مع الأرض كما قال سبحانه: (وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا)^(١)

وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٣﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا
الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا
إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ

﴿و﴾ في ذلك اليوم ﴿لا يكتُمون الله﴾ أي لا يخفون عن الله
﴿حديثاً﴾ بل تشهد عليهم ألسنتهم وجوارحهم بكل ما عملوا من
الكفر والسيئات والشُرور، ففي مقابل تكبرهم في الحياة يتمنون بلع
الأرض لهم هناك، وفي مقابل كتمانهم الحق في الدنيا لا يتمكنون
من الكتمان هناك.

[٤٤] قد تقدم الأمر بعبادة الله سبحانه فارتد السياق هنا إلى بعض مصاديق
العبادة وهي الصلاة والغسل فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا
الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ﴾ والنهي عنه «الاقتراب من الصلاة حال السكر»
كالنهي عن نفس الشيء «الصلاة حال السكر» لكن للمبالغة في التنزيه،
كما قال سبحانه: (لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ)^(١) و«سكارى» جمع سكران.
ومن المعلوم أنه لا منافاة «تكويناً لاشرعاً» بين السكر الخفيف
والصلاة، وإنما السكر الشديد المزيل للعقل تماماً لا يجتمع مع الصلاة
﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾ فإن الصلاة إنما شرعت للإقبال والسكران
لا يعلم ما يقول ولا يحضر قلبه فيما ينطق به لسانه، و«حتى» هنا تصلح
علة للحكم كما تصلح غاية فإذا شرب أحد الخمر - والعياذ بالله - فلا
يُقبل على الصلاة إلا وقد زال أثرها بحيث يعلم ما يقول ﴿ولا﴾ تقربوا
الصلاة ﴿جنباً﴾ بالإدخال أو الإنزال ﴿إلا عابري سبيل﴾ أي في حال

حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ
مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً
فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ

السفر فإن الغالب أن المسافر - قديماً - كان لا يجد الماء فيصلي جنباً
بتيمم إذ التيمم لا يرفع جميع أثر الجنابة ولذا لو وجد الماء بطل تيممه
ويلزم عليه الغسل ﴿حتى تغتسلوا﴾ أي لا تقربوا الصلاة جنباً حتى
تغتسلوا. والاعتسال: غسل للرأس والرقبة ثم الطرف الأيمن ثم
الأيسر مع النية، أو الارتماس في الماء دفعة واحدة مع النية ﴿وإن كنتم
مرضى﴾ جمع مريض، والمراد به المرض الذي يضر معه الماء وإن
كان جرحاً أو نحوه ﴿أو﴾ كنتم ﴿على سفر﴾ أي مسافرين وكان الإتيان
بلفظة «على» لما يكون المسافر عليه من الركوب على شيء وقد تقدم
أن الكون على السفر لا يبيح بنفسه التيمم، وإنما لغلبة صعوبة الماء
فيه - في السابق - ﴿أو جاء أحد منكم﴾ أيha المريدون للصلاة ﴿من
الغائط﴾ الغائط هو المكان المنخفض من الأرض، وسمي «البراز» به
لعلاقة الحال والمحل، والمراد أن أحدكم لو قضى حاجته ثم أراد
الصلاة ﴿أو لامستم النساء﴾ أي جامعتم معهن فإن الملامسة كناية عن
الجماع ﴿فلم تجدوا ماء﴾ مرتبط بالثلاثة المتقدمة المسافر والمحدث
والمجامع ﴿فتيمموا﴾ أي اقصداوا ﴿صعيداً﴾ أي أرضاً، سواء كان
عليها تراب أو لا ﴿طيباً﴾ أي طاهراً حلالاً إذ كل واحد من النجس
والمغصوب خبيث غير طيب. والتيمم هو معناه التقصد ثم غلب في
الشريعة على الأعمال المخصوصة حتى إذا قيل: «تيمم» لا يتبادر منه
إلا الأعمال المخصوصة شرعاً ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم﴾ وقد



إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ

دلت الشريعة على أن كفيته أن يضرب الإنسان بيديه معاً وجه الأرض - ما لم يخرج عن اسم الأرضية لكونه معدناً أو نحوه - ثم يمسح بهما جبهته من قصاص الشعر إلى طرف الأنف الأعلى، ثم يمسح بباطن الكف اليسرى ظهر الكف اليمنى من الزند إلى رؤوس الأصابع، ثم يمسح بباطن الكف اليمنى ظاهر الكف اليسرى من الزند إلى رؤوس الأصابع. وهناك احتياط بالضرب ثانياً ومسح اليدين. وقد ثبت في الطب الحديث أن الأرض تطهر الجراثيم في مرتبة أدنى من تطهير الماء، فقد كان من حكمة الشارع أن جعلها مطهرة في المشي عليها والتعفير بها، في النجاسة الخبيثة، والتميم بها في النجاسة الحديثة ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا﴾ يعفو عن الذي له حرج في استعمال الماء، ويظهر جمال العفو إذا قايست الإنسان أحكامه سبحانه بأحكام الملوك والحكومات والسادة الذين لا يبالون بالناس فهم يطلقون أوامرهم مهما كلف الأمر ﴿غفوراً﴾ يغفر الذنوب التي يتعرض لها الإنسان في تكاليفه، وهذا كالتسلية لمن أفلت منه ذنب لثلاث يئأس من مغفرته سبحانه.

[٤٥] ثم يعود السياق إلى الذين كفروا وعصوا الرسول وأن قسماً من أهل الكتاب يبيعون أنفسهم بالضلالة ويحرفون الكلم ويؤذون الرسول ﷺ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي ألا تتعجب يا رسول الله وتنظر ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أي قسماً منه، وهم اليهود الذين أعطاهم الله التوراة وإنما ذكر «نصيباً» لأنهم لم يعطوا الكتاب - أي الأحكام - كاملاً، وإنما أعطوا

يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٥﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٦﴾ مِنَ الَّذِينَ
هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا
وَعَصَيْنَا

وَأَسْمَعَ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِيَّا بِالسِّنَنِهِمْ وَطَعَنَّا فِي الدِّينِ وَلَوْ
أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعَ وَأَنْظَرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ

يحتمل أن يكون المراد عصيانهم عملاً لا قولاً فإن «القول» يراد به تارة الكلام وتارة العمل، يقال: «قال بيده كذا» أي أشار.

﴿و﴾ يقول هؤلاء اليهود للرسول ﷺ: ﴿اسمع غير مسمع﴾ يقصدون الدعاء على الرسول بأنه لا يسمع، كما يقال: اسمع لا أسمعك الله. فإنهم كانوا يقصدون بهذا الكلام السب والدعاء عليه ويظهرون أنهم يريدون معنى آخر وهو: اسمع غير مأمور بالسمع، فإنه يقال: الكلام للرجل العظيم احتراماً وإشعاراً بأن أمره بـ «اسمع» ليس أمراً فهو لا يؤمر بالاستماع لأنه أجل من الأمر.

﴿و﴾ يقول هؤلاء اليهود للرسول: ﴿راعنا﴾ يقصدون بذلك السب باطنياً ويظهرون أنهم يتأدبون حيث أن ظاهر لفظة «راعنا» طلب المراعاة ﴿لياً بالسنتهم﴾ من «لوى يلوي» إذا حرف وأمال، والألسنة جمع لسان، ولّي اللسان قد يكون ظاهرياً بأن يحرف لسانه، وقد يكون باطنياً بأن يقول شيئاً ظاهره أمر، وهو لا يريد ظاهره ﴿وطعننا في الدين﴾ فإن الطعن في رئيس الدين طعن في الدين، لوهنه بسبب وهن رئيسه.

﴿ولو أنهم﴾ أي أن هؤلاء اليهود ﴿قالوا سمعنا وأطعنا﴾ ما جئت به، بأن صاروا متدينين بالإسلام ﴿واسمع﴾ بدون أن يضيفوا «غير مسمع» ﴿وانظرنا﴾ عوض قولهم «راعنا» مما فيه إيمان وأدب واستقامة ﴿لكان خيراً لهم﴾ في دنياهم حيث ينعمون براحة المسلمين ورفاههم

وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعْنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٧﴾
يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ

وتقدمهم، وفي آخرتهم حيث يسعدون بجنات النعيم ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أي أكثر عدلاً واستقامةً.

﴿ولكن لعنهم الله﴾ أي أبعدهم عن رحمته ولطفه وفضله ﴿بكفرهم﴾ فإن الإنسان إذا لم يقبل الإيمان بعدما عرفه طرده الله سبحانه عن فضله، كما أن الأب إذا رأى ولده لا يقبل نصحه طرده عن ألطافه ﴿فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ منهم كعبد الله بن سلام وأصحابه. وهذا ليس استثناء من قوله سبحانه «لعنهم الله بكفرهم» بل من أصل الكتاب. وقد ذكرنا سابقاً أن الاستثناء قد يراعى فيه أصل المطلب من دون النظر إلى قيوده، كقوله تعالى: (لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ) ^(١)، (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) ^(٢) ومن المحتمل مراعاة القيد في «إلا قليلاً» أي أن إيمان هؤلاء ممكن قبله حتى بعد لعن الله لهم إذا تيقظ ضميرهم ورجعوا عن الغفلة إلى الحق.

[٤٨] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي نزل على نبيهم الكتاب السماوي والتزموا به، وتخصيص الخطاب بهم مع أن الأمر بالإيمان عام، لكونهم محل الحوار والبحث ﴿آمنوا بما نزلنا﴾ من الفرقان على رسولنا محمد ﷺ في حال كونه ﴿مصدقاً لما معكم﴾ فإن القرآن

(١) النساء: ٣٠ .

(٢) الأنعام: ١٥٢ .

مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ
 كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٨﴾ إِنَّ
 اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ

=====

يصدق بالكتب السماوية السابقة ﴿من قبل أن نطمس وجوها﴾ طمس
 الشيء إذهاب أثره ﴿فنردها على أدبارها﴾ جمع «دبر» وهو الخلف،
 والظاهر من الآية أنه في يوم القيامة إذ تطمس فيه الوجوه من بعض
 الناس حتى تتساوى جميع أجزاء الوجه فلا نتوء فيها، ثم يجعل الوجه
 إلى الخلف، كما ورد في بعض الأحاديث. وفي بعض الروايات:
 طمسها عن الهدى وردها على أدبارها في ضلالتها^(١) ﴿أو نلعنهم﴾
 عاجلاً قبل يوم القيامة فنجعل منهم القردة والخنازير ﴿كما لعنا أصحاب
 السبت﴾ وهم اليهود الذين اعتدوا في السبت باصطياد السمك (فَقُلْنَا
 لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)^(٢) وفي بعض الأحاديث: أنه في آخر الزمان
 يتلى بعض الفساق بالمسح^(٣) - والعياذ بالله - ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾
 كائناتاً فلا تظنوا أنه لا يكون ذلك وإنما هذا مجرد تهديد وتوعد.

[٤٩] ولا يظن أهل الكتاب أنهم إن بقوا على شركهم حتى ماتوا يشملهم
 غفران الله سبحانه فيبقوا على كفرهم وشركهم ﴿إن الله لا يغفر أن
 يشرك به﴾ فإن الإنسان إذا مات مشركاً لم يكن له الخلاص ﴿ويغفر
 ما دون ذلك﴾ أي دون الشرك من المعاصي ﴿لمن يشاء﴾ ممن يكون
 أهلاً للغفران، فلا يقاس الشرك بسائر المعاصي والذنوب

(١) بحار الأنوار: ج ٧ ص ١٤١ .

(٢) البقرة: ٦٦ .

(٣) راجع تأويل الآيات الظاهرة: ص ٥٢٨ .

وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكِي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٥٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥١﴾

=====

﴿ومن يشرك بالله﴾ أي يجعل له شريكاً ﴿فقد افترى إثماً عظيماً﴾ فإنه افتراء على مقام الألوهية بأن له شريك، وأي إثم أعظم من ذلك.

[٥٠] ﴿ألم تر﴾ يا رسول الله وهو استفهام تعجبي ﴿إلى﴾ اليهود ﴿الذين يزكون أنفسهم﴾ أي يمدحونها ويصفونها بالطهارة والزكاة والنزاهة فقد كانوا يقولون عن أنفسهم أنهم نزيهين وأنهم أبناء الله وأحباؤه ﴿بل الله يزكي من يشاء﴾ فإن الطهارة بيد الله فمن شاء غفر ذنوبه وبرّاه من العيوب ومن شاء لم يغفر ذنبه فيبقى في أدران المعصية، إنه سبحانه هو الذي يختار أمة ما ولا يختار أخرى ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ الفتيل هو ما في شق النواة من خيط ضعيف، والمعنى أنه سبحانه بعدم تطهيرهم لا يظلمهم وإنما ذلك بسبب عدم إيمانهم وعصيانهم.

[٥١] ﴿انظر﴾ يا رسول الله - وليس المراد النظر بالعين بل ملاحظتهم، فإن النظر كما يقع بالعين كذلك يقع على ملاحظة الأشياء بسائر القوى والحواس - ﴿كيف يفترون﴾ أي يفترى هؤلاء اليهود ﴿على الله الكذب﴾ في قولهم: نحن أبناء الله وشعبه المختار وأحباؤه ولن تمسنا النار إلا أياماً معدودة، وإنهم المزكون من عنده، وفي تحريفهم أحكامه ﴿وكفى به﴾ أي بكذبهم عليه سبحانه ﴿إثماً﴾ معصية ﴿مبيناً﴾ واضحاً وأي عصيان أعظم من التجرؤ على ساحة الله سبحانه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ
بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى
مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن
يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٣﴾

[٥٢] كانت اليهود تفضل المشركين على المسلمين وقد قال كعب - وهو أحد رؤسائهم - لأبي سفيان: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد، فنزل قوله تعالى: ﴿ألم تر﴾ يا رسول الله وهو استفهام تعجبي ﴿إلى الذين أوتوا﴾ أي أعطوا ﴿نصيباً من الكتاب﴾ وهم اليهود الذين أنزل الله على نبيهم الكتاب فبقي بعضه في يدهم ﴿يؤمنون بالجبث والطاغوت﴾ هما صنمان لقريش، فقد سجد كعب للصنمين استمالَةً لقلوب المشركين ﴿ويقولون للذين كفروا﴾ أي أبو سفيان وأصحابه ﴿هؤلاء﴾ المشركون ﴿أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ أي أن سبيل المشركين أحسن من سبيل محمد ﷺ وأصحابه، فقد أوجب حقه على الإسلام أن يفضل الكفار الذين لا يعترفون حتى بموسى عليه السلام على المسلمين الذين يشتركون معهم في كثير من الأصول والفروع.

[٥٣] ﴿أولئك الذين لعنهم الله﴾ أي أبعدهم عن رحمته وطردهم عن الخير ﴿ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً﴾ ينصره فيدفع اللعنة عنه ويُنجيه من عقاب يوم القيامة.

[٥٤] إن اليهود الذين حكموا بأن المشركين أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، لاقيمة ولا وزن لحكمهم هذا، فإنهم لا يملكون تفضيلاً حتى يفضلوا الكفار على المؤمنين، ولو فرض أنهم ملكوا أتفه شيء من الأمور

وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٧﴾

بإبراهيم عليه السلام وصدق نبوته . والمراد من آل إبراهيم «مرجع الضمير» إما قومه الذين بُعث إليهم، أو عشيرته وأحفاده ﴿ومنها من صد عنه﴾ أي أعرض عن الإيمان أو عن إبراهيم عليه السلام ، وهؤلاء اليهود كأولئك في أن بعضهم آمن بالرسول وبعضهم صد عنه . ﴿وكفى بجهنم سعيراً﴾ أي يكفي هؤلاء الصادقين سعير جهنم، والمراد بالسعير: الاشتعال واللهب .

[٥٧] ثم ذكر سبحانه عاقبة كل واحد من المكذب والمصدق ﴿إن الذين كفروا بآياتنا﴾ أي بدلائلنا التي أقمناها على رسولنا وما جاء به ﴿سوف نصليهم نارا﴾ من «أصلى يصلي» يقال: أصلاه النار إذا ألقاه فيها ﴿كلما نضجت جلودهم﴾ واحترقت بالنار ﴿بدلناهم جلوداً غيرها﴾ أي جعلنا لهم جلوداً جديدة مكان الجلود المحترقة ﴿ليذوقوا العذاب﴾ ولا ينقطع عنهم، والجلود الجديدة هي الجلود القديمة التي خلقت من جديد، إذ الشيء المحترق تتفرق أجزأؤه في الفضاء فيجمعها سبحانه ويُعطِيها الصورة الجلدية من جديد، هذا بالإضافة إلى أنه لو خلقت جلود جديدة لم يكن بذلك بأس إذ المتألم هو الروح فلا يقال: بما استحق الجلد الجديد العذاب؟ ﴿إن الله كان عزيزاً﴾ فلا يفوته شيء ولا يمتنع عليه شيء فإن العزة تلازمها الغلبة والقدرة ﴿حكيماً﴾ يصنع

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ
وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ
إِلَىٰ أَهْلِهَا

كل شيء بحكمة ويضع الأشياء في مواضعها، فليس تعذيب هؤلاء
بهذه الكيفية خارجاً عن نطاق قدرته ولا مخالفاً للحكمة والمصلحة.

[٥٨] ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسوله وما جاء به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي
الأعمال الصالحة ﴿سَنُدْخِلُهُمْ﴾ ولعل دخول الـ «س» هنا و«سوف»
هناك للدلالة على أن الجنة أقرب إلى المؤمنين من النار إلى الكافرين،
فإن الكفار حيث أنهم يقضون برزخاً مؤلماً يطول عليهم الأمد بخلاف
المؤمنين الذين يقضون برزخاً مريحاً، فإن الإنسان إذا كان في راحة
زعم أن الوقت انقضى بسرعة بخلاف من كان في تعب وأذية فإنه يطول
عليه الوقت ﴿جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ البساتين ذات القصور
التي تجري من تحت أشجارها أنهار الماء ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ كما أن
الكفار خالدون في النار وكلما نضجت جلودهم بُدلت بغيرها ﴿لَهُمْ
فِيهَا﴾ أي في الجنات ﴿أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ من القذارات الخُلُقِيَّةِ
والقذارات الخُلُقِيَّةِ ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا﴾ هو الوقاية من نور الشمس ونحوه
﴿ظَلِيلًا﴾ أي ليس فيه حرّ ولا برد، وهو مبالغة حسن الظل كقولهم:
ليلٌ أَيْلٍ.

[٥٩] ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ﴾ أيها الناس ﴿أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ تامة غير
ناقصة، ولعل الارتباط بين هذه الآية وما سبقها أن أهل الكتاب خالفوا

وَلِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ
 بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ
 وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ

ما أمروا به وخانوا الأمانة الإلهية كما قال سبحانه: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ) ^(١) في حين أن الله تعالى يأمر بأداء الأمانة المادية، فكيف بأعظم الأمانات الروحية؟! كما أنهم حكموا بالجور حين قالوا: إن المشركين أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، بينما يحكم الله تعالى الحكم بالعدل ﴿وَلِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ﴾ في أمور دينهم أو دنياهم ﴿أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ فلا تميلوا إلى ناحية دون ناحية لمجرد الهوى أو الرشوة أو العاطفة أو ما أشبه ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ أي نعم الشيء الذي يعظكم به وهو أداء الأمانة والحكم بالعدل وضمير «به» راجع إلى «ما» ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا﴾ يسمع كلامكم ﴿بَصِيرًا﴾ يبصر حركاتكم وأعمالكم، فإنكم إذا خنتم الأمانة أو حكمتم بالجور فإنه لا يذهب ذلك على السميع البصير.

[٦٠] وحيث بين سبحانه ما يجب على الحاكم من العدل، بين ما يجب على الأمة تجاه الحاكم العادل من الطاعة والسمع، وبين الحاكم الذي يحق له أن يحكم، بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ بالانتمار بأوامره والانزجار عن زواجه ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ قد تقدم سابقاً أن إطاعة الرسول ﷺ هي إطاعة الله وإنما يذكران معاً تبجيلاً للرسول ولإفادة أن أوامره كأوامر الله سبحانه ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أي أصحاب ﴿أُولِيَ الْأَمْرِ﴾ أي أصحاب

مِنْكُمْ فَإِنْ نَنْزَعْنَهُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

السلطة الذين بيدهم الأمر ﴿منكم﴾ وقد عُيِّنَ أولو الأمر في غير واحد من الأحاديث أنهم الأئمة الهداة الاثني عشر عليه السلام وهم: علي أمير المؤمنين، والحسن، والحسين، وعلي، ومحمد، وجعفر، وموسى، وعلي، ومحمد، وعلي، والحسن، والمهدي^(١). أما إطاعة العلماء المراجع فهي طاعة لأولي الأمر، إذ هم نوابهم.

أما من زعم أن المراد بأولي الأمر كل حاكم فهذا يستلزم التناقض، فكيف يمكن الجمع بين من يبيع الخمر، والله سبحانه الذي يحرمها؟ وهكذا... ولذا اشترطت الشيعة في النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام العصمة، وفي العلماء العدالة.

﴿فإن تنازعتم﴾ أي حدثت بينكم المنازعة والمخاصمة ﴿في شيء﴾ من أمور دينكم ﴿فردوه إلى الله والرسول﴾ حتى ترون أن القرآن والسنة مع أي جانب. ومن حسن الحظ أنه ليس هناك شيء تحتاج إليه الأمة في أي دور أو مصير يخلو منه الكتاب والسنة، إما بالخصوص أو بالعموم. ومن المعلوم أن «الرد» الرجوع إلى أحاديث أهل البيت عليهم السلام رجوع إلى الرسول صلى الله عليه وآله كما أن الرجوع إلى العلماء النواب لهم، رجوع إليهم كما قال عليه السلام: «أما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله»^(٢).

﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أما الرجوع إلى غيرهما

(١) بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ٢٨٣.

(٢) وسائل الشيعة: ج ٢٧ ص ١٤٠.

ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٦٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ
أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن
يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ

=====

فذلك من مقتضيات الكفر كما قال سبحانه: (وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا
أُنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)^(١)، ﴿ذلك﴾ الرجوع إلى الله
والرسول ﷺ في صورة التنازع ﴿خير﴾ لكم لأن إرشاداتهما لصلاح
دينكم ودنياكم ﴿وأحسن تأويلاً﴾ أي من جهة الأول والعاقبة، فإن
عاقبة الحق خير من عاقبة الباطل. والعاقبة تسمى تأويلاً لأنها مآل
الأمر ومرجعه، ويحتمل أن يكون المراد: أنه أحسن من تأويلكم
إياه.

[٦١] ولما بين سبحانه وجوب الرجوع في موارد النزاع إلى حكم الله
والرسول أبدى التعجب من الذين يدعون الإيمان ثم يرجعون في
قضاياهم إلى أحكام مخالفة لأحكام الله والرسول بقوله: ﴿ألم تر﴾ يا
رسول الله ﴿إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك﴾ ليعذوا
أنفسهم في زمرة المسلمين ﴿وما أنزل من قبلك﴾ فإنهم يظهرون
الإيمان بكل رسل الله وكتبه اتباعاً لقوله: (وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ...) ^(٢)، وهذا لتأكيد أنهم في سمات المؤمنين
بكل مقوماتها ﴿يريدون أن يتحاكموا﴾ أي يرفعوا مشاكلهم وقضاياهم
المتنازع فيها ﴿إلى الطاغوت﴾ مبالغة في الطغيان وكل حكم غير

(١) المائدة: ٤٥ .

(٢) البقرة: ١٣٧ .

فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ
جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٣﴾
أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ
عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٤﴾

=====

[٦٣] ﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حال هؤلاء المنافقين ﴿إذا﴾ اضطروا للرجوع إليك، وكيف لا يخلجون في مراجعتك لتخليصهم من مصائبهم، بعدما أعرضوا عنك في منازعاتهم؟! فيما إذا ﴿أصابتهُم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ أي بسبب أعمالهم، فإن الأعمال السيئة قد تورث المصائب والنكبات ﴿ثم جاءوك﴾ يا رسول الله يريدون منك إسعافهم في مصيبتهم معتردين عن مراجعتهم إلى الطاغوت من قبل ﴿يحلِفون بالله إن أردنا﴾ أي ما أردنا في مراجعتنا إلى الطاغوت ﴿إلا إحساناً﴾ إليك حتى لا نزاحمك ونأخذ من وقتك ﴿وتوفيقاً﴾ بين أمورنا، ولم يكن لنا غرض في الإعراض عنك.

[٦٤] ﴿أولئك﴾ المنافقون ﴿الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ وإن قصدهم لم يكن الإحسان والتوفيق وإنما الإعراض عنك لأنك تحكم بالحق ولا تقبل الرشوة ﴿فأعرض عنهم﴾ ولا تظهر لهم القبول حتى يتمادوا في غيهم ويظنون أنهم تمكنوا من إغوائك ﴿وعظهم﴾ بأن تبين لهم خطأ طريقتهم ﴿وقل لهم في أنفسهم﴾ أي قل لهم قولاً يبلغ قرارة نفوسهم، فإن من الأقوال ما يقال ولا ينفذ إلى القلب لعدم وجود حرارة وحماس في القول ليعيه القلب، ومن الأقوال ما يقال وينفذ في النفس فكان النفس محل إيداع القول ﴿قولاً بليغاً﴾ يبلغ نفوسهم.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٥﴾

=====

[٦٥] ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ فليس الرسول ﷺ مجرد الوعظ حتى يراجع الناس مهما شاءوا ويراجعوا غيره إذا لم يشاءوا مراجعته، بل إن الرسول أرسل لإطاعة الناس له في جميع شؤونهم فهو المأذون من قبل الله سبحانه في أن يطاع، أي ليس لأحد أن يطيع أحداً جبراً إلا إذا كانت السلطة ناشئة من قبل الله وإذنه، وإلا فآية سيطرة لأحد على أحد، مع العلم أن الأشياء كلها ملك الله سبحانه.

ثم إن الله سبحانه لا يقطع صلته بهؤلاء المنافقين بل يفتح لهم مجال الرجوع والإنابة ﴿ولو أنهم﴾ أي هؤلاء المنافقون والعصاة ﴿إذ ظلموا أنفسهم﴾ بالنفاق والمعصية، فإن العصيان يعود ضرره إلى العاصي ﴿جاءوك﴾ تائبين معتردين ﴿فاستغفروا الله﴾ أي طلبوا غفرانه وعفوه ﴿واستغفر لهم الرسول﴾ بأن وجدهم أهلاً لطلب المغفرة من الله لهم ﴿لوجدوا الله تواباً﴾ أي كثير التوبة. وقد تقدم أن معنى كون الله تواباً: أنه كثير الرجوع على عبده العاصي كلما تاب العبد ورجع ﴿رحيماً﴾ يرحمهم ويغفر ذنوبهم.

[٦٦] وهنا يتردد سؤال هو أنه: كيف يقال عن هؤلاء أنهم «يزعمون أنهم آمنوا بك»؟ أليس إيمانهم حقيقياً، فإنهم آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر والتزموا بشرائع الإسلام من صلاة وزكاة وصيام؟ والجواب:

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ
يَلْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ
وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٦﴾

=====

﴿فلا وربك﴾ أي ليسوا بمؤمنين - قسماً بربك - يا رسول الله ﴿لا يؤمنون﴾ إيماناً مرضياً أمر به الله ورتب عليه الجنة والثواب ﴿حتى يحكموك﴾ أي يجعلوك حاكماً ﴿فيما شجر بينهم﴾ أي فيما وقع بينهم من الخصومة ﴿ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً﴾ أي لا يجدوا في قلوبهم صعوبة من قضائك، كما هو شأن المغلوبين في القضاء حيث لا يتقبلون الحكم بسهولة بل يظنون أن الحاكم بخسهم حقهم ﴿مما قضيت﴾ وحكمت ﴿ويسلموا﴾ أي ينقادوا لقضائك وحكمك ﴿تسليماً﴾ مطلقاً بلا صعوبة ولا حرج يجدونه في نفوسهم.

فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لو أن قوماً عبدوا الله وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاموا شهر رمضان وحجوا البيت ثم قالوا لشيء صنع رسول الله: ألا صنع خلاف ما صنع؟ أو وجدوا من ذلك حرجاً في أنفسهم، لكانوا مشركين، ثم تلا هذه الآية»^(١).

وفي بعض التفاسير: إن الآية نزلت في الزبير وابن أبي بلتعة حيث تنازعا فحكم الرسول للزبير فخرجا وقال ابن أبي بلتعة متهماً الرسول ﷺ: إنه قضى لابن عمته، وعيّرهم بذلك يهودي فقال: كيف تعتقدون أنه رسول الله ثم تتهمونونه في قضاء قضاه^(٢)؟

(١) الكافي ج ٢ ص ٣٩٨ .

(٢) مجمع البيان ج ٣ ص ١٢١ .

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٦٧﴾ وَإِذَا لَاَتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا

=====

[٦٧] كيف أنهم يجدون حرجاً من قضاء قضاءه رسول الله ﷺ والحال أنه يجب إطاعة الرسول في كل شيء حتى لو أمر بأن يقتلوا أنفسهم، كما أمر موسى قومه: (فَتَوْبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)^(١) فتابوا وفعلوا ما أمرهم به ﴿ولو أنا كتبنا﴾ أي أوجبنا ﴿عليهم﴾ أي على هؤلاء الذين يجدون حرجاً في أنفسهم مما قضيت ﴿أن اقتلوا أنفسكم﴾ بأن يقتل بعضهم بعضاً أو يقتل الشخص نفسه ﴿أو اخرجوا من دياركم﴾ بأن تهجروا مساكنكم إلى بلاد الغربة، كما خرج قوم موسى إلى التيه من منازلهم التي كانت في مصر ﴿ما فعلوه إلا قليل منهم﴾ لما في ذلك من إهلاك النفس والمشقة ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به﴾ من عدم الحرج في قضاء رسول الله واتباع أوامره وأحكامه ﴿لكان﴾ فعلهم ذلك ﴿خيراً لهم﴾ في دنياهم وآخرتهم ﴿وأشد تثبيثاً﴾ فإن الإنسان كلما أطاع ثبت دينه وقوى ملكة عقيدته، فإن العقيدة بتكرار التعقل وتكرار التذكر والاستسلام تقوى وتشد، فما أمروا به ليس فيه جهد قتل النفس وإخراجها من الديار، ومع ذلك فهو خير لهم وتثبيت لعقيدتهم المؤدية لكل سعادة.

[٦٨] ﴿وإذا﴾ أي إذا فعلوا ما يوعظون به ﴿لآتيناهم﴾ أي أعطيناهم ﴿من لدنا﴾ أي لدن أنفسنا. وهذه الكلمة تفيد تأكيد الوعد، إذ أن الله تعالى

أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٨﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٩﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ

=====

ليس عاجزاً لا يتمكن من إنجاز وعده ولا بخيلاً أو مخلفاً لوعده حتى لا يفي بما قال ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي كبيراً. وفي الأحاديث: إن نعيم الجنة بنحو «لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(١).

[٦٩] ﴿ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ أي ثبّناهم، وقد تقدم في سورة الحمد (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) أن المعنى «ثبّتنا» - بالتقريب الذي سبق - أو المراد هدايتهم صراط يوم القيامة الذي هو جسر على جهنم.

[٧٠] ثم ينتهي السياق إلى القاعدة العامة التي توجب خير الدنيا والآخرة ﴿ومن يطع الله والرسول﴾ باتباع أو امرهما ونواهيهما بصورة عامة ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم﴾ في الدنيا في المكانة الرفيعة في القلوب والذكر الرفيع والنصرة، كما قال سبحانه: (إِنَّا لَنُضَرِّسُ لِرُسُلْنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)^(٢) ﴿من النبيين والصديقين﴾ الصديق هو الملازم للصدق في أقواله وأعماله، أو هو المداوم على التصديق بما يوجبه الحق ﴿والشهداء﴾ الذين استشهدوا في سبيل الله، ويسمى الشهيد شهيداً لشهادة الملائكة والناس له بأنه من أهل الجنة ﴿والصالحين﴾ الفاعلين للصالح الملازمين له ﴿وحسن أولئك﴾

(١) بحار الأنوار: ج ٨ ص ٩٢ .

(٢) غافر: ٥٢ .

رَفِيقًا ﴿٧٠﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا
 ﴿٧١﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ
 انْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَن لَّيَبْطِئُ

الأشخاص ﴿رفيقاً﴾ أي مرافقين لمن يطع الله والرسول ﷺ .

[٧١] ﴿ذلك﴾ التوفيق للإطاعة المعقب لكون رفقاء الإنسان النبيين وسائر من ذكر ﴿الفضل من الله﴾ أي تفضل منه سبحانه لمن اهتدى بمثل هذه الهداية ﴿وكفى بالله عليمًا﴾ أي يكفي الله سبحانه عالماً بما يفعله الإنسان من خير وشر، فإنه إذا علم شيئاً رتب عليه الأثر.

[٧٢] وإذا انتهى الكلام حول الإطاعة المطلقة لله والرسول ﷺ يلتفت السياق إلى حكم شاق من أحكام الإسلام هو القتال لتدريب المؤمنين على هذا العمل الجهادي العظيم، وتقرير الواجب عليهم فقال سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ - ذكرنا سابقاً أن أحكام الإسلام عامة لكل شخص، وتخصيص المؤمنين بالخطاب لأنهم المستفيدون من ذلك - ﴿خذوا حذركم﴾ يقال: خذ حذرك، أي احذر وتأهب لملاقاة الأمر بالمكروه، أو المراد بالاحذر: الأسلحة - مجازاً - لأنه آلة الحذر فيكون من باب المجاز ﴿فانفروا ثبات﴾ أي أخرجوا إلى الجهاد. و«ثبات» جمع مفردة «ثبة» الجماعة في فرقة، أي ليكن خروجكم فرقة بعد فرقة، كما تخرج السرايا سرية إلى هنا وسرية إلى هناك، أو جماعة إثر جماعة ﴿أو انفروا﴾ وأخرجوا ﴿جميعاً﴾ في عسكر واحد.

[٧٣] ﴿وإن منكم﴾ أيها المسلمون ﴿لمن ليبطئن﴾ أي يتأخر عن الخروج استئقلاً من الجهاد، وإرادة للفرار، كما كان ذلك حال المنافقين فإنهم

فَإِنْ أَصَابَكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٣﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ فَلْيَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ

=====

كانوا لا يريدون الجهاد، ولذا كانوا يستثقلونه رجاء الفرار ﴿فإن أصابتكم مصيبة﴾ من هزيمة أو قتل لبعض أفرادكم ﴿قال﴾ ذلك المنافق المبطل وهو مسرور جداً: ﴿قد أنعم الله علي إذ لم أكن معهم شهيداً﴾ أي شاهداً حاضراً في القتال، حتى يصيبني ما أصابهم، وهذا دائماً عادة المنافقين في كل حركة، أنهم يبطئون حتى يذهب الناس، ويتربعون الأنباء حتى إذا وجدوا في الذاهبين كسراً سُرّوا بأنهم كانوا بُعداء عن المعركة.

[٧٤] ﴿ولئن أصابكم﴾ في جهادكم ﴿فضل من الله﴾ بالفتح والغنيمة ﴿ليقولن﴾ ذلك المبطل متحسراً - ﴿كأن لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ جملة معترضة ليست مقولة للقول، وإنما هي حكاية حال المنافق الذي لا يريد إلا النفع والمادة، ولا يخلص للدين والدعوة -: ﴿يا ليتني كنت معهم﴾ حاضراً في الجهاد، لأنال مالاً وفخراً ﴿فأفوز فوزاً عظيماً﴾ فإنه يتمنى الحضور لا لنصرتكم بل لأن يفوز هو بشرف الجهاد وغنيمة الفاتحين.

[٧٥] لما تقدم ذكر المنافقين الذين يبطئون عن القتال، بين سبحانه ما هو واجب المسلم بالنسبة إلى هذا الأمر المهم فقال: ﴿فليقاتل في سبيل الله﴾ أي لأجل أمره وإعلاء كلمته ﴿الذين يشرون

وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴿٧٦﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٧﴾ أَلَمْ تَرَ

﴿ولياً﴾ يلي أمورنا ويسير بنا بالعدل والإحسان ﴿واجعل لنا من لدنك﴾ عندك ﴿نصيراً﴾ ينصرنا على الظالمين .

[٧٧] ثم شجع سبحانه المجاهدين بأنهم أقوى من أعدائهم فإن ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله﴾ ولمرضاته وإعلاء كلمته ﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ الذي هو طاغ متجاوز للحد، فإن الذين كفروا لا يريدون بقتالهم إلا الظلم والطغيان وإبقاء الأنظمة الفاسدة والعادات والتقاليد الزائفة ﴿فقاتلوا﴾ أيها المؤمنون ﴿أولياء الشيطان﴾ وأحبابه الذين يتولونه ﴿إن كيد الشيطان﴾ ومكره وحيلته في سبيل إبقاء أمره وتقوية جيشه ﴿كان ضعيفاً﴾ فيغلبه نصر الله وولاية للمؤمنين . ولا مجال لأن يقال : فكيف نرى غلبة الكفار في كثير من الأحيان؟ فإن الجواب : إن ذلك لعدم توفر شروط المقاتلة في المؤمنين، إذ أن الله سبحانه لم يعد النصر مطلقاً بل مشروطاً بأن يعدوا لهم ما استطاعوا من قوة، وأن يصدقوا في الجهاد والمثابرة إلى غير ذلك، نعم مع توفر الشروط لا يفيد الأعداء جمعهم وكثرتهم، كما دلت التجارب على ذلك وصدق الخبرُ الخبر .

[٧٨] كان المسلمون وهم بمكة يطلبون من الرسول ﷺ الإذن لهم في قتال الكفار حينما كانوا يلاقون منهم الأذى ولما جاء دور القتال في المدينة تولى بعضهم، كما هو العادة عند الناس غالباً حيث أنهم يحرضون الرؤساء على الإقدام فلما أن أقدموا كانوا أول المنهزمين ﴿ألم تر﴾

إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ
فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ
اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا
أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ

=====

يا رسول الله استفهام تعجبي ﴿إِلَى﴾ المسلمين ﴿الذين قيل لهم﴾ بمكة
- والقائل هو الرسول ﷺ -: ﴿كفوا أيديكم﴾ أي امسكوها واقبضوها
عن القتال ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ فإنه لا يجب عليكم الجهاد
الآن، وكان النهي عن الجهاد لقلتهم وعدم تمكنهم من مقابلة العدو،
وأنهم إن قاتلوا أبعدوا واجتثت جذور الإسلام، بالإضافة إلى إرادة
رسوخ الإيمان في قلوبهم، فإن الإنسان مهما ابتلي بالمشقات والشدائد
يصفو جوهره وتصلق نفسه ﴿فلما﴾ أتوا إلى المدينة و﴿كتب عليهم
القتال﴾ أي فرض عليهم ﴿إذا فريق منهم﴾ أي من هؤلاء المسلمين
الذين كانوا يطلبون الإذن بالقتال ﴿يخشون الناس﴾ الكفار أن يقتلوهم
إذا بارزوا ﴿كخشية الله﴾ كما يخافون من الله سبحانه أن يميتهم ﴿أو
أشد خشية﴾ إذ خوف الإنسان من الموت غالباً أقل من خوفه من القتل،
إذ القتل يكتنف في الأغلب بالأهوال والمرعبات بخلاف الموت.

﴿وقالوا﴾ أي قال هؤلاء الفريق: ﴿ربنا لم كتبت علينا القتال﴾
أي لأي علة فرضت علينا أن نقاتل فعلاً؟! ﴿لولا أخرتنا إلى أجل
قريب﴾ أي لماذا لم تؤخر الأمر بالقتال إلى زمان آخر قريب، حتى
نستعد للحرب. فقد ورد في بعض التفاسير: أنه كان بالنسبة إلى
«حرب بدر» حيث كان بعض المسلمين يكرهون ذلك لأنهم لم

قُلْ مَنْعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تَظْلُمُونَ فَنِيلاً
 ﴿٧٨﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ
 وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ

يستعدوا ويطلبون التأخير إلى أجل قريب ليستعدوا.

﴿قل﴾ يا رسول الله لهؤلاء: إن كان خوفكم من الحرب لأجل احتمال القتل فما فائدة البقاء في الدنيا؟ إذ ﴿متاع الدنيا﴾ أي ما يستمتع به في الدنيا ﴿قليل﴾ الأمد يفنى بعد مدة ﴿والآخرة خير لمن اتقى﴾ المعاصي وعمل بالواجبات ﴿ولا تظلمون فتيلاً﴾ أي مقدار فتيل، وهو ما في شق النواة فإذا قتلتم، لا تُهدر أتعابكم وأعمالكم.

[٧٩] ثم لماذا الفرار من القتال، أخوف الموت؟ فإن الموت لا محالة يدرك الإنسان ﴿أينما تكونوا﴾ من الأماكن ﴿يدرككم الموت﴾ أي يلحقكم وينزل بكم ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ البروج جمع برج، وهو القصر أو البناء المستحكم الذي يُرصد فيه للأعداء ويشرف منه على القادم والذاهب، وال«مشيدة» هي التي شُيدت وبنيت بإحكام، أي أن الموت لا يهاب البروج والقلاع والحصون والمراصد.

ثم وصف سبحانه حالة هؤلاء الضعاف الإيمان من المسلمين الذين قالوا: «لم كتب علينا القتال» فإن دوائر نفوسهم تتلوى ولا تبقى في جهة واحدة وإيمان راسخ ﴿و﴾ ذلك لأنه ﴿إن تصبهم حسنة﴾ من نماء وزرع وبركة وتقدم في الحرب وصحة وما أشبه ﴿يقولوا هذه﴾ الحسنة ﴿من عند الله﴾ فإنه المتفضل المحسن ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ من غلاء وقحط وتأخر ومرض وما أشبه

يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ
لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٩﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ
وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا

=====

﴿يقولوا هذه من عندك﴾ يا رسول الله، فإنه أصابنا بسببك، كما حكي
الله سبحانه عن قدم ذلك، حيث قال سبحانه: (وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَطْرُقُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ) ^(١).

﴿قل﴾ يا رسول الله لهم: ﴿كل من عند الله﴾ فهو الذي يجذب
وهو الذي يخلص وهو الذي يمرض وهو الذي يشفي... وهكذا،
فليس مصدر الكوارث الرسول ﷺ ﴿فما لهؤلاء القوم﴾ أي ما شأن
هؤلاء الضعاف الإيمان؟ ﴿لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ أي بعداء عن
فهم ما نحدثهم به من القرآن الحكيم.

[٨٠] وحيث تبين أن مصدر الخير والشر هو الله سبحانه يبقى السؤال: ما
هو سبب الشر؟ ولماذا يتبلي الله تعالى الإنسان بالشر، والحال أنه
سبحانه لا يريد بعباده إلا الخير؟ ويأتي الجواب: ﴿ما أصابك﴾ أيها
الإنسان ﴿من حسنة﴾ كالزرع والرخص والصحة والغنى ﴿فمن الله﴾
إنه يفضل عليك بلا سبب، وإن كان قسم منها أيضاً بسبب الأعمال
الصالحة ﴿وما أصابك﴾ أيها الإنسان ﴿من سيئة﴾ قحط وغلاء ومرض
وما أشبه ﴿فمن نفسك﴾ فإن أعمالك الشريرة هي التي سببت ابتلاءك
بالسيئات والمصائب ﴿وأرسلناك﴾ يا رسول الله ﴿للناس رسولا﴾
فمهمتك تخص التبليغ ولا يرتبط وجودك بالمصائب والآفات - كما

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

(٢) الغاشية: ٢٢ و ٢٣ .

عِنْدَكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨٢﴾
 أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ
 اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴿٨٣﴾

عندك بيت ﴿أي قدر ليلاً﴾ طائفة ﴿أي جماعة﴾ منهم ﴿أي من هؤلاء المنافقين﴾ غير الذي تقول ﴿فيتشاورون بينهم بالليل ليخالفوك وينقضوا أمرك﴾ واللّه يكتب ما يبيتون ﴿أي ما يتواطئون عليه ليلاً، من نقض أمرك، فيجازيهم على المخالفة والعصيان﴾ فأعرض ﴿يا رسول الله﴾ عنهم ﴿فلا تؤاخذهم بأعمالهم حتى تنشق صفوف المسلمين، فإنهم إن ظهرت خباياهم شقوا الصفوف وخالفوا﴾ وتوكل على الله ﴿فهو الذي ينصرك ويعينك في جهادك الأعداء﴾ وكفى بالله وكيلاً ﴿فمن وكل إليه سبحانه أمره أنجزه أحسن إنجاز وأكمّله أحسن إكمال.

[٨٣] فهل يظن هؤلاء العصاة الذين يخالفون الرسول ويبيتون غير ما يقول، أن الرسول يأمر وينهى عن نفسه، دون أن يكون كلامه من الوحي، وأن القرآن من كلامه لا من كلام الله سبحانه، ولذا يسهل مخالفته؟ فإن كان هذا ظنهم فهو خطأ محض، إذ القرآن الذي يقرأه الرسول إنما هو من عند الله، لا من كلام الرسول ﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾ تدبراً عميقاً حتى يعرفوا أنه فوق كلام البشر ولا يمكن للبشر أن يأتوا بمثله ﴿ولو كان من عند غير الله﴾ حتى لو كان من عند الرسول - على عظّمته - ﴿لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ لأن البشر مهما أوتوا من الموهبة لا بد وأن تختلف تعبيراتهم وتتفاوت أفكارهم حسب الأزمان

وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ

=====

والظروف، فعدم الاختلاف في القرآن من جهة من الجهات، أدل دليل على أنه ليس من كلام البشر وإنما هو من عند إله حكيم.

[٨٤] ويعود السياق إلى حالة هؤلاء المنافقين الذين تقدمت بعض صفاتهم، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ﴾ أي جاء هؤلاء ﴿أمر﴾ أي شيء ﴿من الأمن أو الخوف﴾ من ظهور المؤمنين على عددهم الموجب للأمن، أو انهزام المسلمين الموجب للخوف، ونحو ذلك من كل شيء يوجب أمناً أو خوفاً ﴿أذاعوا به﴾ أي أفسوه في الأوساط، فقد كانت الأخبار المختلفة تُداع وتُنشر في المدينة لغرض الدعاية للمسلمين أو عليهم، فكان هؤلاء الضعاف الإيمان يتلقفونها فوراً ويأخذون في إشاعتها، من دون نظر إلى عاقبة الأمر، وإلى أن الخبر هل هو صحيح أو لا. ومن الأمور الضرورية بالنسبة إلى الحركات أن تكون أخبارها طي الدرس عند القادة، ليروا هل من الصلاح إشاعتها أم لا إذ كثيراً ما يكون الخبر مكذوباً وكثيراً ما تكون إشاعة خبر الأمن، ضد المصلحة - ولو كان صحيحاً - حينما يقتضي الحال الحذر والاستعداد، وكثيراً ما تكون إشاعة خبر الخوف ضد الصلاح - ولو كان صادقاً - حينما يقتضي الحال الأمن والأمان، لئلا يجبن الناس عن الاستعداد والحركة.

﴿ولو ردوه﴾ أي أرجعوا ذلك الخبر الذي سمعوه ﴿إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم﴾ والمراد به الأئمة عليهم السلام، والذين هم معيتون من قبل الرسول والأئمة، فإنه لا أولي أمر إلا هؤلاء كما تقدم ذلك ﴿لعلهم﴾ أي: لعلم ذلك الأمر صدقه وكذبه وكون الصلاح في نشره أو

الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ
لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٤﴾ فَقَتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا
تُكَلِّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسَ

=====

كتمانهم ﴿الذين يستنبطونه﴾ أي يستخرجونه ﴿منهم﴾ أي من أولي الأمر
فلا يبقى الخبر مردداً بين الصدق والكذب، ولا بين الصلاح في إشاعته
وعدمه، ولم يكن محل للظنون والأوهام ولم ترج - بعد - الأكاذيب
لأنها تحت الرقابة. ولم يقل «لعلموه» للإشارة إلى علة علمهم وأنهم
بسبب استنباطهم يعلمونه.

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ أيها المسلمون، حيث
يرشدكم إلى مواقع الزلل ومهاوي الخطأ ﴿لاتبعتم الشيطان﴾ في ما
يُلقيهِ عليكم مما يوجب بلبلة صفوفكم وانشطار كلمتكم ﴿إلا قليلاً﴾
من الذين قويت عقولهم فلا يتبعون خطوات الشيطان، حتى إذا لم
يكن رسول، كما كان ذلك في زمن الجاهلية حيث أن بعضهم لم يكن
يتبع الشيطان بما أوتي من قوة في العقل وسداد في الرأي فليس
المراد - لولا فضل الله إطلاقاً - بل المراد الفضل الخاص.

[٨٥] وعندما بين القرآن سلوك القوم في الجهاد وأن الله هو الذي يتفضل
على المؤمنين، يتوجه السياق إلى الرسول ﷺ قائلاً: ﴿فقاتل﴾ يا أيها
الرسول ﴿في سبيل الله﴾ وإعلاء كلمته وتنفيذ حكمه ﴿لا تكلف إلا
نفسك﴾ فإنك لا تتضرر بفعل المنافقين وإرجافهم وما يبدو منهم، فإنك
لست مكلفاً بأفعالهم وأعمالهم كما أنك لست مسؤولاً عن المؤمنين إلا
بقدر نطاق التبليغ والإرشاد ﴿وحرّض المؤمنين﴾ أي حثهم على القتال
﴿عسى الله﴾ أي لعل الله ﴿أن يكف﴾ ويمنع بسبب قتالك ﴿بأس﴾

الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٥﴾
 يَشْفَعُ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ
 شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 مُّقْبِلًا ﴿٨٦﴾ وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِنَحِيَةٍ

=====

الذين كفروا» أي شدة الكفار وقوتهم بأن يُغلبك عليهم فيعودوا خائبين
 «والله أشد بأساً» فأنتم بقوة الله وشدته تتقدمون وهو أشد من الكفار
 قوة «وأشد تنكيلاً» أي أشد من حيث العقوبة والنكال .

[٨٦] وحيث تقدم أن الرسول ﷺ لا يكلف إلا نفسه، استدرك الأمر بأن
 ليس المراد بذلك أن الإنسان الوسيط لا يكون له شيء بالنسبة إلى ما
 توسط فيه بل «من يشفع شفاعاً حسنة» أي يكون قد شفع صاحبه في
 الأمور الخيرية، وذلك إما بالتوسط، أو بالتحريض أو بالإرشاد «يكن
 له» أي للشفيع «نصيب» وحصّة «منها» أي من تلك الحسنة فإن
 الدال على الخير كفاعله «ومن يشفع شفاعاً سيئة» بأن توسط في الأمر
 السيئ أو حرّض أو دلّ على ذلك «يكن له» أي للشفيع «كفل» أي
 نصيب «منها» لأنه قد تعاون على الإثم والعدوان «وكان الله على كل
 شيء مقبلاً» أي مقتدرأ فهو القادر في أن يعطي الشفيع نصيباً من الحسنة
 أو كفلاً من السيئة . أو معنى المُقْبِل: المجازي، أي يجازي على
 الأمرين .

[٨٧] وقد ناسب الكلام الذي هو حول القتال والجهاد، الكلام حول السلام
 والكف عن القتال، لتقابل الضدين بين الأمر، ويأتي الجو عاماً
 لا يخص سلام الحرب، بل السلام المطلق، فقال سبحانه: «وإذا
 حييتم» أيها المسلمون «بتحية» والتحية: السلام، يقال: «حيّ

فَحْيُوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
حَسِيبًا ﴿٨٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ
لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٨﴾

يُحيي» إذا سلم ﴿فحيوا بأحسن منها﴾ أي من تلك التحية . والآية عامة تشمل كل تحية . قال في «المجمع»: «فلما أمر سبحانه بقتال المشركين عقبه بأن قال: من مال إلى السلم وأعطى ذاك من نفسه وحي المؤمنين بتحية فاقبلوا منه»^(١). ﴿أو ردوها﴾ بمقدارها فإذا قال أحد لك: «السلام عليكم» فالرد الأحسن أن تقول: «السلام عليكم ورحمة الله» والرد المساوي أن تقول: «السلام عليكم» ﴿إن الله كان على كل شيء حسيباً﴾ أي حفيظاً محاسباً، فيحسب ردكم إن كان بالأحسن أو بالمساوي ليجازيكم عليه .

[٨٨] ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فهو المالك المطلق ذو الصفات الكمالية ﴿ليجمعنكم﴾ ببعثكم بعد الممات ويحشرنكم ﴿إلى يوم القيامة﴾ أي إلى موقف الحساب ليجازيكم بأعمالكم فما عملتم في دنياكم من حرب وسلم أو غيرهما لا بد وأن تجاوزوا عليه هناك ﴿لا ريب فيه﴾ أي ليس محلاً للريب وإن ارتاب فيه المبطلون، أو أنه بالنظر إلى الواقع ليس فيه ريب وشك، فهو أمر واقع لا محالة منه ﴿ومن أصدق من الله حديثاً﴾ فحديثه صادق لا خلف فيه، وليأتينكم يوم القيامة وتجاوزون بما عملتم في الدنيا .

[٨٩] ثم يرد السياق إلى الجهاد وما يتخلله من الاختلاف والانشقاق ويذكر

فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكْسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا
أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ
لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٩﴾

الله سبحانه المؤمنين بأنه لا ينبغي لهم أن يختلفوا في جهاد الكفار
والمنافقين لأعداء واهية، فقال سبحانه: ﴿فَمَا لَكُمْ﴾ أيها المسلمون
صرتم ﴿في المنافقين﴾ أمر المنافقين ﴿فتتين﴾ فئة تؤيد محاربتهم
لأنهم كفار واقعاً، وفئة لا تؤيد لأنهم أظهروا الإسلام في يوم ما ﴿و﴾
الحال أن ﴿الله أركسهم﴾ أي ردهم إلى حكم الكفر ﴿بما كسبوا﴾ أي
بسبب كسبهم للنفاق والشقاق ﴿أتريدون﴾ أي هل تريدون أيها
المسلمون ﴿أن تهدوا من أضل الله﴾؟ أي: أطمعون في هداية هؤلاء
المرتدين، وقد أضلهم الله؟ وقد تقدم أن معنى إضلال الله تركهم
وضلالهم، بعد أن عرفوا الحق فأعرضوا عنه ﴿ومن يضلل الله﴾
فيتركه على كفره وضلاله ﴿فلن تجد له سبيلاً﴾ لإنقاذه، وكيف يمكن
إنقاذه وهو معاند يتعمى عن الحق عمداً.

وقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام: «أن هذه الآية نزلت في قوم
قدموا المدينة من مكة فأظهروا للمسلمين الإسلام ثم رجعوا إلى مكة،
لأنهم استوخموا المدينة فأظهروا الشرك، ثم سافروا ببضائع المشركين
إلى اليمامة، فأراد المسلمون أن يغزوهم فاختلفوا فقال بعضهم: لانفعل
فإنهم مؤمنون، وقال آخرون: إنهم مشركون. فأنزل الله فيهم هذه
الآية»^(١).

وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ
أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ

وهذا الأمر عام دائماً في كثير من الحركات فإن قسماً من الذين يؤمنون لا بد وأن ينقلبوا ثم يختلف فيهم الباقون، هل أنهم خارجون حقيقة أم لا، والآية تبين وجوب وحدة الصف أمام هؤلاء بعدما ظهر منهم الارتداد. ثم لا يخفى أن تعبير الآية بالمنافقين لا يدل على أنهم لم يكفروا إذ النفاق أعم من الكفر، ومن المحتمل أن الآية تريد بيان وجوب وحدة الصف أمام المنافقين، حتى يكون التجنب عنهم عاماً وليقروا بالعزلة، وهذا أقرب إلى ظاهر الآية بمناسبة ما سبق من أحكام المنافقين كما أن صريح الرواية وظاهر الآية اللاحقة «ودوا لو تكفرون» يدل على المعنى الأول، وأنه أريد بالنفاق الكفر.

[٩٠] ﴿ودوا﴾ أي أحب هؤلاء المنافقين الذين ارتدوا عن الإسلام وأظهروا الشرك ﴿لو تكفرون﴾ أنتم أيها المسلمون ﴿كما كفروا﴾ هم ﴿فتكونون سواء﴾ في الكفر ومثل هؤلاء لا ينبغي أن ينقسم المسلمون بالنسبة إليهم قسمين ﴿فلا تتخذوا﴾ أيها المسلمون ﴿منهم أولياء﴾ أحماء وأخلاء، فإن المسلم لا يصادق الكافر كما قال سبحانه: (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) ^(١) ﴿حتى يهاجروا﴾ من دار الكفر إلى دار السلام ﴿في سبيل الله﴾ وذلك يلزم الإيمان، إذ الهجرة لا تكون إلا بعد الإيمان ﴿فإن تولوا﴾ وأعرضوا عن الإيمان الملازم للهجرة ﴿فخذوهم

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا
 نَصِيرًا ﴿٩١﴾ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ
 جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ

=====

واقتلوهم حيث وجدتموهم ﴿٩١﴾ أي أينما أصبتموهم من جل أو حرم،
 ولا إشكال في محاربة الجاني في الحرم، أو المراد أينما كانوا من
 الأرض ﴿ولا تتخذوا منهم ولياً﴾ أي صديقاً خليلاً ﴿ولا نصيراً﴾ أي
 ناصراً ينصركم على أعدائكم، فإن الكافر لا ينصر المسلم ولو نصره
 في الظاهر فإنه لا يؤمن شراً.

[٩١] ثم استثنى سبحانه عن وجوب مقاتلة هؤلاء من كان داخلياً في حلف
 قوم بينهم وبين المسلمين معاهدة، فإن دخوله في ذلك الحلف يحقن
 دمه، ومن لا يريد محاربة المسلمين وإنما يريد معاهدتهم، فقال
 سبحانه - مستثنياً من قوله «فخذوهم . .» - : ﴿إلا الذين يصلون إلى
 قوم﴾ أي لهم مواصلة وأحلاف مع قوم ﴿بينكم وبينهم﴾ أي بين
 أولئك القوم ﴿ميثاق﴾ . وفي الحديث: «أن هلال بن عويمر السلمي
 واثق الرسول ﷺ أن لا يتعرض هو لأحد أتاه من المسلمين، ولا
 يتعرض الرسول لمن أتى هلال بن عويمر. فأنزل الله هذه الآية ناهياً أن
 يمس من يأتي هلال من الكفار بسوء»^(١).

﴿أو﴾ الذين ﴿جاءوكم﴾ أي أتوا إليكم أيها المسلمون ﴿حصرت
 صدورهم﴾ أي ضاقت صدورهم - والسبب أن من يهمله أمر تنتفخ رئته
 لتجلب أكبر قدر من الهواء، ليرفقه على القلب الذي حمي بواسطة

أَنْ يُقْنِلُوكُمْ أَوْ يُقْنِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقْنَسُلُوكُمْ فَإِنْ أَعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقْنِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمْ أَلْسَلَمَ

غليان الدم، فيضيق الصدر لتوسع الرئة - ﴿أَنْ يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم﴾ أي تضيق صدورهم من قتالكم وقاتل قومهم فلا يكونون لكم ولا عليكم.

وفي «المجمع»، قال: «إنما عنى به بني أشجع، فإنهم قدموا المدينة في سبعمائة يقودهم مسعود بن دخيلة فأخرج إليهم النبي ﷺ أحمال التمر ضيافة، وقال: نعم الشيء الهدية أمام الحاجة وقال لهم: ما جاء بكم؟ قالوا: لقرب ديارنا منك، وكرهنا حربك وحرب قومنا - يعنون بني حمزة الذين بينهم وبينهم عهد - فقلّطنا فيهم، فجئنا لنوادعك، فقبل النبي ﷺ ذلك منهم ووادعهم فرجعوا إلى بلادهم»^(١).

﴿ولو شاء الله لسلطهم﴾ أي سلط هؤلاء الكفار ﴿عليكم﴾ بأن لم يُلْقَ في قلوبهم رعبكم أيها المسلمون حتى يخافوكم فيسلموكم، فقد كان هذا من فضل الله سبحانه أن يجعلكم محل هيبة ومنعة، مع أن عددكم وعددكم لا يقتضيان ذلك، ولو لم يلطف بكم ﴿فلقاتلوكم﴾ لكن حيث أنعم الله عليكم بذلك فلا تمدوا إليهم يد المحاربة ﴿فإن اعتزلوكم﴾ هؤلاء الذين ذكروا وهم «الذين يصلون إلى قوم..» أو «جاءوكم حصرت صدورهم..» ﴿فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم﴾ أيها المسلمون ﴿السلم﴾ يعني صالحوكم واستسلموا لكم

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ١٥٣ .

[illegible]

[٩٢] ﴿ستجدون﴾ أيها المسلمون جماعة ﴿آخرين﴾ ممن يبطنون الكفر ويظهرون الإسلام ﴿يريدون أن يأمنوكم﴾ أي يأمنوا من طرفكم ﴿ويأمنوا قومهم﴾ أي يأمنوا من طرف قومهم الكافرين، وهؤلاء ﴿كل ما﴾ أتوكم أظهروا الإسلام وإذا ﴿ردوا إلى الفتنة﴾ بأن رجعوا إلى قومهم ودعوهم إلى الكفر - وهو المراد بالفتنة هنا - ﴿أركسوا فيها﴾ أي وقعوا فيها وارتدوا عن إسلامهم والإسلام لا يعترف بهكذا أناس، فإن مثلهم خطرون على سلامة المسلمين فلا بد وأن يحدد هؤلاء موقفهم، إما أن يعلنوا سلمهم العام واعتزالهم - حيادياً - عن المشاركة في التحركات ضد المسلمين، ولا يشتركوا في حرب عليهم، فهم في أمان من جانب الدولة الإسلامية، وإما أن يحاربهم المسلمون كسائر الكفار، لا فضل لهم ولا حرمة ﴿فإن لم يعتزلوكم﴾ أي لم يعتزل هؤلاء الكفار عن المؤمنين ﴿و﴾ لم ﴿يلقوا إليكم السلم﴾ بأن يسالموكم ويصالحوكم ﴿و﴾ لم ﴿يكفوا

أَيَّدِيَهُمْ فَخَذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ
 جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩٢﴾ وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ
 يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً

=====

أيديهم ﴿﴾ بأن لا يشاركوا في حرب وتحرك ضدكم ﴿فخذوهم﴾ أي
 فأسروهم، ولا تراعوا نفاقهم في إظهارهم الإسلام إذا جاءوكم
 ﴿واقتلوهم حيث ثقفتموهم﴾ أي أينما وجدتموهم ﴿وأولئك﴾ أي
 هؤلاء المذبذبون ﴿جعلنا لكم﴾ أيها المسلمون ﴿عليهم سلطاناً
 مبيناً﴾ أي برهاناً واضحاً، فإنه لا وسط بين الحرب والحياد، فإن
 أخذوا جانب الحياد فهو، وإلا فالحرب حالهم حال سائر الكفار.

ومن المحتمل أن لا يكون المراد من «يأمنوكم» إظهارهم
 الإسلام، بل إظهارهم المودعة والمسالمة، وسوق الآية إلى آخرها -
 على هذا المعنى واضح - وهذا هو الذي يؤيده ما في بعض التفاسير
 من: «أن الآية نزلت في عيينه بن حصين الفزاري، أجذبت بلادهم
 فجاء إلى رسول الله ووادعه على أن يقيم ببطن نخل ولا يتعرض له،
 وكان منافقاً ملعوناً، وهو الذي سماه رسول الله الأحمق المطاع».
 وعلى هذا يكون الفرق بينه وبين ما تقدم في قوله سبحانه: «أن
 يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم» أن الأولين جاءوا بحسن نية وصدق طوية،
 بخلاف هؤلاء حيث جاءوا نفاقاً ومكرراً، فقبل من أولئك دون هؤلاء.

[٩٣] هذا ما كان حول معارك المسلمين مع غيرهم، وحكم إراقة الدماء
 بالنسبة إلى الطرفين. أما المسلمون بعضهم مع بعض فلا يحق لأحد
 أن يريق قطرة من دم أحد ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ﴾

[illegible]

﴿فَإِنْ كَانَ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾ أي كان من طائفة هم أعداء للمسلمين، بأن كانوا كفاراً محاربين ﴿وَهُوَ﴾ أي القتيل ﴿مُؤْمِنٌ﴾ وكان قتله له خطأ - كما يقتضيه العطف على الجملة الأولى - ﴿فَ﴾ على قاتله كفارة هي ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أما الدية فلا تجب إذ ليس للمقتول أهل مسلمون. ومن المعلوم أن الحربي لا يرث المسلم

وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ
 مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَّمْ
 يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ
 وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٣﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
 مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا

=====

﴿وإن كان﴾ المقتول كافراً ليس بمسلم ولكنه كان ﴿من قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ ومعاهدة وقتله المسلم خطأ ﴿ف﴾ على القاتل ﴿دية مسلمة إلى أهله﴾ أي أهل المقتول ﴿وتحرير رقبة مؤمنة﴾ وذلك لأنه لا يجوز قتل المعاهد كما لا يجوز قتل المؤمن ﴿فمن لم يجد﴾ العبد ولا ثمنه ﴿ف﴾ عليه ﴿صيام شهرين متتابعين﴾ أي متواليين فلا يصح التفريق في أيام الشهرين، لكن إذا صام شهراً ويوماً كفاه في التتابع، وجاز أن يصوم البقية بعد زمان غير متصل بالأول ﴿توبة من الله﴾ أي شرع ذلك في القتل لأجل التوبة والرجوع من الله سبحانه على العبد القاتل، والقاتل وإن كان مخطئاً مما يوجب عدم الذنب عليه، إلا أن بعده الطبيعي بسبب هذا العمل القبيح يعدّ ذنباً، فإن بعض الأعمال لها آثار وضعية، كمن شرب الخمر جهلاً، فإنه يسكر وتصيبه الأمراض الملازمة للخمر ﴿وكان الله عليماً﴾ يعلم مصالحكم ﴿حكيماً﴾ فيما يأمر وينهى.

[٩٤] قد تقدم حكم القتل الخطأ ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً﴾ ظاهر الآية أن القتل وقع عمداً مقابل قتل الخطأ ﴿فجزاؤه جهنم خالداً فيها﴾ أبد

وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا
 ﴿٩٤﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا
 وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ

الآبدین، إلا أن تدركه شفاعة أو عفو، وهذا الاستثناء بدليل قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) (١) ﴿وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ والمراد في مثل هذه الصفات نتائجها، وإلا فالله سبحانه ليس محلاً للحوادث ﴿وَلَعَنَهُ﴾ أي طرده عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ وفي آية أخرى: (مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا) (٢).

[٩٥] ثم أشار القرآن الحكيم إلى بعض الاحتياطات اللازمة على المجاهدين، لئلا يقتلوا مسلماً خطأ، وذلك إثر وقوع حادثة وهي أن أسامة بن زيد وأصحابه بعثهم النبي ﷺ في سرية فلقوا رجلاً قد انحاز بغنم له إلى الجبل وكان قد أسلم فقال لهم: السلام عليكم، لا إله إلا الله محمد رسول الله، فبدر إليه أسامة فقتله واستاقوا غنمه، فلما رجع إلى رسول الله ﷺ أخبره بذلك، فقال ﷺ: «أفلا شققت الغطاء عن قلبه، لا ما قال بلسانه قبلت ولا ما في نفسه علمت» (٣)، ونزلت الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي خرجتم للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، فإن الضرب بمعنى السفر، لأن المسافر يضرب برجله الأرض ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ أي ميزوا بين الكافر والمؤمن ليكون أمركم واضحاً مبيناً ولا تفعلوا شيئاً بدون التثبت والتبين والتأني ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ

(٣) بحار الأنوار: ج ٦٥ ص ٢٣٤ .

(١) النساء: ٤٩ .

(٢) المائدة: ٣٣ .

الْسَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا
فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ ۖ كَذَٰلِكَ كُنْتُمْ مِّن قَبْلُ
فَمِنَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا
تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٥﴾

السلام ﴿أي حياكم بتحية الإسلام وأظهر لكم أنه مسلم واعتزلكم فلم يقاتلكم: ﴿لست مؤمناً﴾ حقيقة وإنما إيمانك صرف لقلقة لسان خوفاً من القتل ﴿تبتغون عرض الحياة الدنيا﴾ أي هل تطلبون الغنيمة والمال، حيث تنكرون إسلام من ألقى إليكم السلام؟ فيكون الكلام على الاستفهام التوبيخي، أي لماذا تقتلون مظهر الإسلام لغنيمة الزائلة التي هي عرض الحياة الدنيا؟ أو أن الاستفهام ليس توبيخياً بل على ظاهره، أي إن كنتم تطلبون المال ﴿فعند الله مغانم كثيرة﴾ جمع «مغنم» وهي الغنيمة في الدنيا بما ستحوزونه من الكفار، وفي الآخرة، وفسرت الغنيمة لغة بأنها الفائدة ﴿كذلك﴾ الذي ألقى إليكم السلام ﴿كنتم من قبل﴾ فإنكم كنتم كفاراً كما كان هو كذلك ﴿فمن الله عليكم﴾ بأن هداكم إلى الإيمان، فكما لم يصح لأحد أن يقول: إن إيمانكم عن خوف، كذلك لم يصح لكم أن تقولوا: إن إيمان من ألقى إليكم السلام عن خوف، وإذا علمتم خطأكم في هذه المرة ﴿فتبينوا﴾ من بعد. وقد كرر اللفظ تأكيداً، ولكي يقع الكلام موقع القبول بعد قيام الحجة، فكان «تبينوا» في الأول مجرد أمر و«تبينوا» هنا بعد الدليل والبرهان على لزوم التبين عقلاً ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ فهو يعلم أعمالكم وبواعثها، فراقبوا الله في كل عمل تقومون به.

[٩٦] ثم يأتي السياق لبيان فضل المجاهدين تحريضاً على الجهاد وتحفيزاً

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى

للقاعدين على النهوض ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين﴾ الذين يقعدون في محلهم ولا ينهضون لمقاتلة الأعداء ﴿غير أولي الضرر﴾ يعني القاعدين الذين ليس بهم ضرر يمنعهم عن الجهاد كالأعمى والأعرج ونحوهما، أما من بهم ضرر فهم معذورون ليس عليهم حرج. ولعل المفهوم من الآية أن من به ضرر، وكان مستعداً نفسياً أن يجاهد لولا الضرر، كان له أجر المجاهدين حسب الحديث المأثور: «نية المؤمن خير من عمله»^(١).

وعليه فإن هؤلاء القاعدون لا يستوون ﴿والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾ بأن أنفقوا أموالهم للجهاد وقدموا أنفسهم للقاء الكفار في سبيل إعلاء كلمة الإسلام. وسمي الجهاد جهاداً لما يستلزمه من الجهد والمشقة، فإن في بذل المال والنفس أعظم المشقات ﴿فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة﴾ إذ المجاهد يفضل على القاعد بالجهاد، ولكن لكل منهما فضل الإيمان والصلاة والصيام وسائر شرائع الإسلام ﴿وكلاً وعد الله الحسنى﴾ أي المجاهد والقاعد، فإن الجهاد فرض كفاية، فإذا قام به البعض سقط عن الآخرين، ولذا فكلاهما موعود بالصفة الحسنى من الخير والسعادة وإن كان المجاهد أفضل.

(١) الكافي: ج ٢ ص ٨٤.

وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٦﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً

وفي تفسير «الأصفي» ورد: «لقد خلفتم في المدينة أقواماً ما سرتهم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم، وهم الذين صحت نياتهم ونضجت جيوبهم وهوت أفئدتهم إلى الجهاد، وقد منعهم من المسير ضرر أو غير ضرر». أقول: كان هذا في غزوة تبوك.

﴿وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً﴾ فقد ورد: «إن فوق كل برٍّ برٌّ إلا الجهاد في سبيل الله»^(١)، كما ورد: «إن الأجر على قدر المشقة»^(٢)، وورد: «ما أعمال البر كلها... إلا كنفة في بحر لجي»^(٣) وكان قوله «أجراً عظيماً» لدفع وهم ربما يُتوهم من قوله «درجة» فيقال: أنه لا فرق بين المجاهد والقاعد إلا درجة، فيقال في الجواب: أنه لأهمية للدرجة في مقابل تعب الجهاد ومشقته فقد جعل الله له أجراً عظيماً.

[٩٧] ثم بيّن سبحانه الأجر العظيم بقوله: ذلك الأجر هو ﴿درجات منه﴾ أي من قبل الله سبحانه، وهذا تعظيم للأمر، فإن الدرجة لو كانت من غيره لكانت هينة، إذ الدنيا عرض زائل أما التي منه سبحانه فإنها شيء عظيم باق. وفي الحديث: «إن الله فضل المجاهدين على القاعدين سبعين درجة، بين كل درجتين مسيرة سبعين خريفاً للفرس الجواد المضمّر»^(٤).

﴿ومغفرة﴾ أي غفراناً لذنوب المجاهد ﴿ورحمة﴾ أي يرحم الله

(٣) نهج البلاغة: حكمة رقم ٣٧٣.

(١) راجع بحار الانوار: ج ٧١ ص ٨٣.

(٤) كنز الدقائق: ج ٢ ص ٥٨٣.

(٢) بحار الانوار: ج ٧٠ ص ٢٧٥.

وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ
 أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ
 تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا

=====

المجاهد بإعطائه النعم الكثيرة ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فيغفر
 للمجاهد ذنوبه السابقة ويرحمه برحمته الواسعة . قال البعض : إن المراد
 بالدرجة الأولى علو المنزلة ، كما يقال : فلان أعلى درجة عند الخليفة
 من فلان ، وأراد بالثانية الدرجات في الجنة التي بها يتفاضل المؤمنون .

[٩٨] ثم يأتي السياق إلى طائفة أخرى من القاعدين الذين لم يعذبهم الله
 الحسنی، بل وعدهم العذاب لأنهم هم السبب في ظلم الكفار لهم
 وسلبهم حقوقهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي تقبض الملائكة
 أرواحهم ، فإن لملك الموت أعواناً ، كما ورد في السنة ، ودلت عليه
 هذه الآية ﴿ظالمني أنفسهم﴾ أي في حال كونهم ظالمين لأنفسهم ،
 لأنهم بقوا في دار الهوان حيث يسومهم الكفار العذاب ويمنعوهم من
 الإيمان بالله والرسول ، وقد كان بإمكان هؤلاء أن يهاجروا إلى دار
 الإيمان ويؤمنوا . ولعل الآية أعم منهم ومن المؤمنين الذين بقوا في دار
 الكفر ولا يتمكنون من إظهار واجبات الإسلام والعمل بما أوجبه الله
 سبحانه ﴿قَالُوا﴾ أي قالت الملائكة لهم عند قبض أرواحهم : ﴿فِيمَ
 كُنْتُمْ﴾ أي في أي شيء كنتم من أمر دينكم ، وهو استفهام تقريری
 توبيخي ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ يستضعفنا أهل الشرك في
 بلادنا فلا يتركوننا لأن نؤمن ، أو لا يتركوننا نعمل بالإسلام ﴿قَالُوا﴾
 أي قالت الملائكة لهم : ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾
 حتى تخرجوا من سلطة الكفار ، وتتمكنوا من العمل بالإسلام

فَأُولَٰئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٨﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ
 مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ
 سَبِيلًا ﴿٩٩﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا
 غَفُورًا ﴿١٠٠﴾

=====

وبشرائعه. ﴿فأولئك﴾ الذين سبق وصفهم ﴿مأواهم﴾ مرجعهم
 ومحلهم ﴿جهنم وساءت مصيراً﴾ أي أنها مصير سيئ لعذابها
 وأهوالها.

[٩٩] ثم استثنى سبحانه من هؤلاء من لا يتمكن من المهاجرة فإنه ليس
 مكلفاً، وإنما أمره إلى الله تعالى ﴿إلا المستضعفين﴾ الذين استضعفهم
 الكفار في بلادهم ﴿من الرجال﴾ العجزة ﴿والنساء والولدان﴾ وهاتان
 الطائفتان في طبيعتهم العجز عن الفرار والهجرة ﴿لا يستطيعون حيلة﴾
 أي علاجاً لأمرهم وفكاً لأنفسهم من سلطة المشركين ﴿ولا يهتدون
 سبيلاً﴾ للفرار والهجرة.

[١٠٠] ﴿فأولئك﴾ العاجزون من المستضعفين ﴿عسى الله أن يعفو عنهم﴾
 أي لعل الله سبحانه يغفر لهم ذنبهم، ودخول «عسى» في مثل هذه
 الآية للدلالة على كون الأمر بيد الله سبحانه، وأنه كان قادراً أن يأمرهم
 بما يُخرجهم من وجوب خروجهم وإظهار دينهم، وإن بلغ بهم الأمر
 ما بلغ، ولا يقال: إن كان المراد بالمستضعفين الكفار فكيف يُعفى عن
 الكفر؟ لأن الدليل العقلي والنقلي قد دلَّ على امتحان الضعفاء والعجزة
 والبُله ومن إليهم في الآخرة، وذلك بخلاف الكافر المعاند الذي
 مصيره النار حتماً ﴿وكان الله عفواً﴾ يعفو عمن يشاء ﴿غفوراً﴾ يغفر

وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً^١
وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ
فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠١﴾

=====

الذنوب. ولعلَّ الفرق بين العفو والغفران: أن العفو غفران بلا ستر،
والغفران عفو مع الستر، فإن عدم العقاب لا يلزم الستر.

[١٠١] وقد يمنع عن الهجرة خوف أن لا يجد الإنسان في محله الجديد ما
يلائم مسكنه ومكسبه، ولكنه ليس إلا توهمًا، فإن الأرض واسعة
والكسب ممكن في كل مكان ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لأمره
سبحانه ومن أجله ﴿يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا﴾ «المراغم» مصدر
بمعنى «الْمُتَحَوِّل» وأصله من الرغام وهو التراب ﴿وَسَعَةً﴾ أي في
الكسب وسائر شؤون الحياة ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا﴾ يهجر وطنه
ومحله، وينقطع عنه ﴿إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ والهجرة إلى الله بمعنى: إلى
محل أمره، والهجرة إلى الرسول إما حقيقية كما في زمان حياته ﷺ،
وإما مجازية كما إذا هاجر إلى بلاد الإسلام حسب أمر الرسول ﴿ثُمَّ
يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ﴾ أي يموت في طريقه ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ لأنه
خرج في سبيله وحسب أمره فأجره وثوابه عليه سبحانه ﴿وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا﴾ يغفر ذنوب المهاجر ﴿رَحِيمًا﴾ يرحمه بإعطائه الثواب.

وفي الحديث: «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً
من الأرض، استوجب الجنة، وكان رفيق إبراهيم ومحمد ﷺ»^(١).

وقد ورد في بعض التفاسير: أن السبب في نزول هذه الآية أنه لما

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ

نزلت آيات الهجرة سمعها رجل من المسلمين كان بمكة يسمى «جندب بن حمزة» فقال: والله ما أنا مما استثنى الله إني لأجد قوة، وإني لعالم بالطريق، وكان مريضاً شديد المرض فقال لبنيه: والله لأبيت بمكة حتى أخرج منها، فإني أخاف أن أموت فيها، فخرجوا يحملونه على سرير حتى إذا بلغ التنعيم مات، فنزلت الآية^(١).

[١٠٢] ولما أمر سبحانه بالجهاد والهجرة، بيّن كيفية الصلاة في السفر والخوف إشفاقاً على الأمة ورحمةً بهم وتفضلاً عليهم، والآية وإن كانت ظاهرة في الخوف فقط لأنه سبحانه قال: «إن خفتم» لكن القيد على الغالب في ذلك الزمان عند نزول الآية، وإنما الاعتبار بالضرب في الأرض، وقد، كثر في القرآن الحكيم «القيد الغالبي» كقوله تعالى: (وَرَبَّائِكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ)^(٢) مع أن كونهن «في حجوركم» ليس بشرط، وكقوله: (وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا)^(٣) وغيرهما.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ﴾ أي سافرتُم أيها المسلمون ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ ومن المعلوم أن السفر مشروط بأمر أخرى مذكورة في الكتب الفقهية ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ليس لفظ «ليس عليكم جناح» للإباحة كما هو الظاهر منه، بل في مقام دفع توهم «الحضر»، كقوله: (فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا) (٤) فقد كان التمام واجباً، وفي السفر، حيث يُتوهم بقاؤه على الوجوب،

(٣) النور : ٣٤ .

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ١٧١ .

(٤) البقرة: ١٥٩ .

(٢) النساء : ٢٤ .

إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠٣﴾

نفى سبحانه وجوبه وأجاز القصر، وذلك لا ينافي وجوب القصر، على ما دل الدليل عليه، والمراد بالقصر تنصيف الرباعية بأن يصلي الظهر والعصر والعشاء ركعتين، فإذا تشهد التشهد الوسط سلم ولم يقم للركعتين الباقيتين، أما الصبح والمغرب فتبقيان على ما كانتا عليه ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي خفتهم فتنة الذين كفروا، والفتنة: العذاب والقتل وما أشبه، فإنهم إذا أرادوا الصلاة أربعاً، طال الأمد عليهم وأمكن أن يهجم عليهم الكفار ويعذبوهم أو يقتلوهم، فمن الله عليهم بالقصر ليقل الأمد ولا يبقى للكفار - في ساحة الحرب - مهلة ينتهزونها للهجوم. ولصلاة السفر والخوف والمطاردة تفصيل مذكور في الكتب الفقهية.

﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا﴾ ليس معنى «كان» الماضي، بل مجرد الربط كما في مثل: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا)^(١) وما أشبهها ﴿لَكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ أي واضحاً لظهور عداوتهم للمسلمين، فإذا لم تقصروا من الصلاة انتهزوا مدة انشغالكم بها فرصة للعدو أن يفتنكم.

[١٠٣] ثم بيّن سبحانه صلاة الخوف إذا أرادوا أن يصلوها جماعة فإن المجاهدين ينقسمون إلى طائفتين، طائفة تقتدي بالإمام، وطائفة تبقى في الميدان، فإذا سجد الإمام السجدة الأولى، تقوم الطائفة المقتدية للركعة الثانية وتأتي بها فرادى وتتشهد وتسلم والإمام بعد

وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ

ليكونوا حذرين متأهبين للقتال آخذين أسلحتهم، ولعل إضافة كلمة «حذرهم» هنا بخلاف الجملة الأولى، أن هجوم العدو على هؤلاء أقرب من هجومهم على الطائفة الأولى، لأنه بمجرد الانقسام إلى طائفتين وانسحاب طائفة من الحرب لأجل الصلاة لا يدرك العدو الأمر، ولذا لا يأخذ استعدادده الكامل للهجوم - بظن كون الجميع في حال القتال - بخلاف الأمر إذا طال الأمد وتبين الأمر، وأن قسماً من المسلمين رفعوا أيديهم عن الحرب لأجل الصلاة. وإنما حكم بانقسام الجيش طائفتين لما بينه سبحانه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من المحاربين لكم، أي تمنوا ﴿لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾ فلا تحملوها ﴿وَأَمْتَعْتَكُمْ﴾ فتبتعدون عنها ﴿فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي يحملون عليكم حملة واحدة وأنتم متشاغلون بأجمعكم بالصلاة فيقضون عليكم قضاءً مبرماً حيث أصابوكم على غرة بلا سلاح يقيكم ولا متاع يمدكم، ولذا فقد أمروا بأن ينقسموا طائفتين حالة الصلاة ويحملوا أسلحتهم وهم في الصلاة ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ أي لا حرج ولا إيجاب لحمل السلاح ﴿إِنْ كَانَ بِكُمْ﴾ أيها المجاهدون الذين تريدون الصلاة جماعة ﴿أَذَى﴾ وصعوبة ﴿مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ﴾ فلا تحملوها في حال الصلاة للاستراحة بقدر الصلاة من ثقل السلاح، أما المريض فواضح أذية السلاح له، وأما المطر فلأن هطوله يثقل على

وَحٰذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٣﴾
فَإِذَا قُضِيَتْهُ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ

الإنسان، فإذا اجتمع مع السلاح كان أثقل وأتعب وهكذا بالنسبة إلى حمل الدرع الموحد حال السجود ونحو ذلك ﴿و﴾ لكن إذا وضعت سلاحكم لجهة الأذى ﴿خذوا حذرکم﴾ أي احترسوا عن هجوم الكفار حتى إذا هاجموكم تكونون على استعداد لا أن تكونوا غافلين ﴿إن الله أعد للكافرين﴾ أي هيأ لهم ﴿عذاباً مهيناً﴾ أي يذلهم، عذاباً في الدنيا بأيديكم وفي الآخرة بالنار والجحيم.

قال في «المجمع»: وفي الآية دلالة على صدق النبي وصحة نبوته وذلك أنها نزلت والنبي بعسفان والمشركون بضجنان فتوافقوا فصلّى النبي وأصحابه صلاة الظهر بتمام الركوع والسجود فهم المشركون بأن يغيروا عليهم، فقال بعضهم: إن لهم صلاة أخرى أحب إليهم من هذه يعنون صلاة العصر، فأنزل الله عليه هذه الآية فصلّى بهم العصر صلاة خوف^(١).

[١٠٤] ﴿فإذا قضيتكم﴾ أي أدبتم أيها المجاهدون ﴿الصلاة﴾ المأتى بها على نحو الخوف ﴿فاذكروا الله قياماً وقعوداً﴾ أي في حال كونكم قائمين وقاعدين، وهما جمعان لـ «قائم وقاعد» ﴿وعلى جنوبكم﴾ أي في حال الاضطجاع ﴿فإذا اطمأننتم﴾ وذهب الخوف ﴿فأقيموا الصلاة﴾ كاملة بحدودها وشروطها ﴿إن الصلاة كانت

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ١٧٧ .

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٥﴾

على المؤمنين كتاباً أي كتبت كتاباً، بمعنى فرضت فريضة ﴿موقوتاً﴾ أي ذات وقت محدد لأدائها.

[١٠٥] ثم كرر سبحانه الحث على لزوم الجهاد فقال: ﴿ولا تهنوا﴾ من «وهن يهن» بمعنى ضعف، أي لا تضعفوا ولا تكاسلوا ﴿في ابتغاء القوم﴾ أي طلب الكفار ومحاربتهم ﴿إن تكونوا﴾ أنتم أيها المسلمون ﴿تألمون﴾ مما ينالكم من الجرح والمشقة في الحرب ﴿فإنهم﴾ أي القوم الكفار ﴿يألمون﴾ مما ينالهم من الجرح والمشقة ﴿كما تألمون﴾ فكلما ساء في التألم ﴿وترجون﴾ أنتم أيها المؤمنون ﴿من الله﴾ أي من قبل الله سبحانه الفتح والظفر والثواب ﴿ما لا يرجون﴾ هم، فأنتم أولى وأحرى أن تطلبوهم وتجذوا في قتالهم من أولئك، حيث ليس لهم وعد بالنصر ولا بالثواب ﴿وكان الله عليماً﴾ بكم فأنتم بعلم الله سبحانه - كما تعتقدون - وهم وإن كانوا بعلم الله لكنهم لا يعتقدون بذلك ﴿حكيماً﴾ فأوامره ونواهيه عن تدبير وتقدير.

وورد أن المسلمين قالوا يوم أحد للمشركين: لا سواء، قتلنا في الجنة وقتلاكم في النار، فقال أبو سفيان: نحن لنا العزى ولا عزى لكم، فقال النبي ﷺ للمسلمين: قولوا الله أعلى وأجل.

وروى القمي: أن الآية نزلت بعد رجوع النبي ﷺ من واقعة أحد، فإن الرسول ﷺ لما رجع إلى المدينة نزل جبرائيل عليه السلام فقال:

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَاسْتَغْفِرِ
 اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٧﴾

=====

يا محمد إن الله يأمرك أن تخرج في أثر القوم ولا يخرج معك إلا من به جراحة، فأقبلوا يضمّدون جراحاتهم ويداوونها فخرجوا على ما بهم من الألم والجراح^(١).

[١٠٦] وبعد ذكر جملة من الأحكام المتعلقة بالحرب والجهاد يرجع السياق إلى ما تقدم من لزوم العدل في الحكم كما قال: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)^(٢) فإن الجهاد لم يشرع إلا للعدل، والنبى ﷺ لم يبعث إلا لإقامة العدل ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ يا رسول الله ﴿الكتاب بالحق﴾ أي إنزالاً مقارناً بكونه بالحق فإن الإنزال قد يكون بالباطل إذا كان من غير المستحق، أو إلى غير المستحق، وبما هو باطل ﴿لتحكم بين الناس بما أراك الله﴾ من الشريعة العادلة ﴿ولا تكن﴾ يا رسول الله ﴿للخائنين خصيماً﴾ أي لأجل الخائنين خصيماً على الأبرياء بمعنى لا تأخذ جانب الخائن على البريء فتعطي الحكم للمجرم.

[١٠٧] ﴿واستغفر الله﴾ أي اطلب غفرانه، وهذا تنبيه للأمة حيث يريدون القضاء، فإن القضاء يحتاج إلى ستر الله سبحانه حتى لا يزل القاضي ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ يستر العيوب ويرحم المسترحم.

(١) تفسير القمي: ج ١ ص ١٢٤ .

(٢) النساء: ٥٩ .

وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٨﴾

=====

وقد ورد في سبب نزول هاتين الآيتين وما بعدهما ما مجمله : أن بني أبيرق المسمون بشيراً ومبشراً وبشراً وكانوا منافقين نقبوا على عم قتادة بن النعمان فأخرجوا طعاماً وسيفاً ودرعاً، فشكا قتادة ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال بنو أبيرق : هذا عمل لبید بن سهل وكان لبید مؤمناً فخرج عليهم بالسيف، وقال : أترمونني بالسرقة وأنتم أولى بها مني وأنتم المنافقون تهجون رسول الله ﷺ وتنسبون الهجاء إلى قريش، فداروه، ثم جاء رجل من رهط بني أبيرق وكان منطقياً بليغاً إلى رسول الله ﷺ فقال : إن قتادة عمد إلى أهل بيت منا أهل شرف وحسب ونسب فرماهم بالسرقة، فاغتم رسول الله وعاتب قتادة عتاباً شديداً فاغتم قتادة وكان بدرياً. فنزلت الآيات تبرئ قتادة وتدين بني أبيرق، فبلغ بشير ما نزل فيه من القرآن - وأنه الخائن - فهرب إلى مكة وارتمد كافراً^(١).

[١٠٨] ﴿وَلَا تُجَادِلْ﴾ يا رسول الله، وكون النهي للرسول لا ينافي مقام العصمة إذ النواهي تتوجه إلى الرسول ﷺ كما تتوجه إلى سائر المسلمين، والأوامر تعنيه كما تعني غيره ﴿عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ﴾ اختان بمعنى خان، أي لا تخاصم عن طرف الخائنين الذين يخونون ﴿أَنْفُسَهُمْ﴾ فإن الإنسان إذا صرف نفسه في المعصية فقد خانها، لأنها ديدة يجب أن تُرد، وردّها بصرفها في الطاعة شيئاً فشيئاً حتى ينتهي الأمد ويأتي الأجل ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا﴾ هو «فعال» من الخيانة ﴿أَثِيمًا﴾ أي

يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٩﴾ هَآأَنَآ هَآؤُلَآءِ جَدَلْتُمْ عَنْهُمْ

عاصياً، ومعنى «لا يحب» يكره، لأنه لا واسطة، فالعاصي مكروه والمطيع محبوب.

[١٠٩] ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾ من «استخفى» بمعنى كتم، أي يكتُمون أعمالهم السيئة ﴿من الناس﴾ فإن السراق في قصة ابن أبيرق كانوا يكتُمون عملهم من الناس خوف الفضيحة ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ﴾ أي لا يكتُمون عملهم الإجرامي من الله، ومعنى الاستخفاء من الله عدم العمل، لا العمل مكتوماً عنه، إذ لا يخفى عليه سبحانه خافية، وإنما جاءت لفظة يستخفون للمقابلة نحو: (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ)^(١) ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ أي والحال أن الله تعالى معهم بالإحاطة والعلم فهو يعلم أقوالهم وأعمالهم ﴿إِذْ يَبَيِّتُونَ﴾ أي يدبرون بالليل ﴿مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ﴾ فإن أبناء أبيرق دبروا بالليل أقوالاً وطبخوها ليتظاهروا بتلك الأقوال عند الرسول ﷺ والمسلمين ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ فهو مطلع على أقوالهم محيط بأعمالهم، ومعنى الإحاطة: العلم الشامل بحيث لا يفوته شيء كالمحيط بالشيء الذي لا يخرج منه جانب من جوانب الشيء المحيط.

[١١٠] ﴿هَآ أَنْتُمْ﴾ «ها» للتنبيه هنا وفي هؤلاء ﴿هَؤُلَآءِ﴾ أي أنتم الذين دافعتم و﴿جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ أي عن أولئك المجرمين الذين سرقوا

فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١١٠﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ
 يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا
 وَمَنْ ﴿١١١﴾

﴿في الحياة الدنيا﴾ هنا حيث يمكن الإخفاء والمجادلة بما يظن الناس أنه حق وهو في الواقع باطل ﴿فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة﴾ استفهام إنكاري، أي ليس هنالك من يجادل عنهم في محضر عدل الله سبحانه الذي يطلع على السرائر والواقعات ﴿أم من يكون عليهم وكيلاً﴾ يتوكل عنهم في إنقاذهم من عملهم الذي صنعوه خفية. والاستفهام في معنى الإنكار، أي ليس هناك وكيلاً يدافع عنهم، ولعل الفرق بين «من يجادل» و«من يكون» أن المجادل لا يلزم أن يكون وكيلاً فقد يوكل الإنسان من يدافع عنه، وقد يدافع عنه شخص تبرعاً.

[١١١] ثم بين سبحانه أن لا يأس من روح الله، وأن الآثم لا يظن أنه قد انقطعت الصلة، بل باب التوبة مفتوح ﴿ومن يعمل سوءاً﴾ بإتيان معصية تتعداه إلى غيره كالزنا والسرقة ﴿أو يظلم نفسه﴾ بمعصية لاتتعداه، كشرب الخمر وترك الصلاة. ومن المعلوم أن كل ظلم للنفس وكل سوء ظلم، لكن حيث تقابلا في التعبير فرقنا بينهما بما لعله المستفاد من السياق ﴿ثم يستغفر الله﴾ يطلب غفرانه بما أمر من التوبة والتدارك، إن كان للعصيان له تدارك ﴿يجد الله غفوراً رحيماً﴾ يغفر ذنبه ويتفضل عليه بالرحمة والمن.

[١١٢] ﴿و﴾ لا يظن الآثم أنه أضر الغير وربح نفسه، بل بالعكس فإنه ﴿من

يَكْسِبُ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١١٢﴾ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا
فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٣﴾

=====

يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه ﴿١﴾ إذ كل خير يفعله الإنسان يعود إلى نفسه، وكل عصيان يأتي به يعود إلى نفسه، و﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(١) ﴿وكان الله عليماً﴾ بما يكسبه الإنسان ﴿حَكِيمًا﴾ في عقابه وثوابه يضع الأشياء مواضعها، فلا يظن أحد أنه يعصي ثم يفر من عدل الله، أو أنه ما الفائدة من الخير الذي لا يعود نفعه إليه؟ إنه سبحانه حكيم، وقد تقدم أن الحكمة وضع الأشياء مواضعها.

[١١٣] ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا﴾ لعل الفرق بينهما كون الأول لا عن عمد، والثاني عن عمد، وهذا الفرق إنما هو في المقام حيث تقابلا، وإلا فالخطيئة تطلق على كل إثم. ﴿ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا﴾ من «رمى يرمي» أي ينسب ذنبه إلى إنسان بريء، كما سبق في قصة ابن أبيرق ﴿فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا﴾ أي إثم البهتان، وهو رمي الناس بالذنب كذباً ﴿وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي معصية واضحة، فهو يتحمل إثمين إثم العمل وإثم البهتان. وهذا لا ينافي ما احتملنا في الخطيئة إذ الخطأ ينقلب إثماً إذا تمادى الإنسان في توابعه، ولم يتداركه.

[١١٤] في بعض التفاسير: أن وفداً من ثقيف قدموا على رسول الله ﷺ وقالوا: يا محمد جئناك نبايعك على أن لا تكسر أصنامنا بأيدينا، وعلى أن نُمَتَّعَ بالعزى سنة. فلم يقبل الرسول ﷺ طلبهم، وإنما قبل منهم

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ
أَنْ يُّضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ
مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

=====

الإسلام بجميع شرائطه^(١)، فأنزل الله سبحانه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ﴾ بتأييدك من لدنه وتثبيتك على الصحيح الحق ﴿لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ أي قصدت وأضمرت جماعة من هؤلاء - والضمير عائد إلى المقدر، نحو: (وَلَا بُؤْيُوهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ)^(٢) - ﴿أَنْ يُّضِلُّوكَ﴾ بأن تجيز لهم ما أرادوا. وقيل إن الآية من تنمة قصة ابن أبيرق وما أراده المزكي من تركية السراق وإلقاء التهمة على البريء.

﴿وَمَا يَضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ إذ وبال كلامهم يعود إلى أنفسهم فهم يزيلون أنفسهم عن الحق ويهلكونها، لا أنهم يزيلونك ويهلكونك، ثم المراد بقوله «لولا» نفي تأثير ما هم به أولئك في الرسول لا نفي همهم، فالمراد: أنه لولا فضل الله لأضلوك، لا أن المراد: لولا فضل الله لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ . . ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ فإنهم لا يضررونك - بكيدهم - في الدنيا لأن الله ناصرك، ولا في الآخرة ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ يارسول الله ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي علم وضع الأشياء مواضعها وتقدير الأشياء بأقدارها، فأنت العالم بالأشياء الحكيم في التطبيق، فكيف يمكن إضلالك - كما هم أولئك - فإن الإضلال يحصل لمن لا يعرف الأشياء أو لا يتمكن من وضع الأشياء مواضعها

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ١٨٨ .

(٢) النساء: ١٢ .

وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ
عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ
بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ

=====

﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾ من الأمور الخارجة عن نطاق الكتاب،
فإن الكتاب خاص بعلم بعض الأشياء - حسب الظاهر - ﴿وكان فضل
الله عليك﴾ يا رسول الله ﴿عظيماً﴾ وارتباط الآية بما قبلها على القول
الأول - أي كونها حول وفد ثقيف - كون القصتين من واد واحد حيث
حفظ الله الرسول في قصة السرقة وفي قصة الوفد حتى لا يقول
ولا يعمل إلا بالحق.

[١١٥] وبمناسبة الحديث عن المؤامرات التي تجري في السر، ويتناجى في
شأنها المبيتون، وحيث أن في مثل هذه القضايا لابد وأن تكثر النجوى
وغالبها حول النقد والرد والطعن، يذكر القرآن حكم النجوى، وأنه ﴿لا
خير في كثير من نجواهم﴾ أي حديث بعضهم مع بعض سراً وذكر
«كثير» إما من باب المورد، فإنه في مثل الموارد السابقة يكثر النجوى،
وإما أن المراد: الكثير من النجوى لا خير فيه، أما القليل الذي لا بد لكل
أحد حيث عنده بعض الأسرار التي يجب الإعلان عنها فلا بأس به، لكن
الظاهر المعنى الأول، وأن المفهوم المطلق للنجوى كما قال سبحانه:
(إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ) ^(١) ﴿إلا من أمر بصدقة﴾ بأي قسم منها من
المال على الفقراء، أو الوقف، أو الإحسان ﴿أو﴾ أمر بـ ﴿معروف﴾ من
أبواب البر الذي يعرفه الناس - ومنه سمي المعروف معروفاً مقابل المنكر

أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٥﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ
الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ
الْمُؤْمِنِينَ نُؤَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ

=====

الذي هو ما ينكره الناس - ﴿أو﴾ أمر بـ ﴿إصلاح بين الناس﴾ فإن الحاجة غالباً تدعو إلى الإصرار بهذه الأمور لتكامل ولا يمنع عنها مانع ﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي النجوى في هذه الأمور، أو المراد: من فعل أحد هذه الأمور ﴿ابتغاء مرضاة الله﴾ أي طلب رضاه سبحانه ﴿فسوف﴾ في القيامة ﴿نؤتيه﴾ أي نعطيه ﴿أجرًا عظيمًا﴾ مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر - كما هو كذلك في كل طاعة - .

[١١٦] وحيث تقدم في القصتين مخالفة الجماعتين للرسول ﷺ فيما أرادوا، بيّن سبحانه أن عاقبة المخالفة وخيمة ﴿ومن يشاقق الرسول﴾ أي يخالفه، ومعنى المشاققة أي يكون كل واحد في شق غير شق الآخر ﴿من بعد ما تبين له الهدى﴾ أي ظهر له الحق وأن الرسول لا يقول ولا يعمل إلا بالحق - أما من قبل التبيين فالمُشَاقُّ معذور لعدم تمام الحجة عليه - ﴿ويتبع غير سبيل المؤمنين﴾ أي غير طريقهم الذي هو دينهم، وهذا أعم من الأول، وإن كان في مخالفة الدين مشاققة للرسول بالنتيجة ﴿نؤله ما تولى﴾ أي نُخلي بينه وبين معتقده وعمله فلا نجبره على الرجوع، لأن الدنيا للاختبار والامتحان والجبر ينافي ذلك، كما قال سبحانه: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ^(١) ﴿ونصله جهنم﴾ من «أصله

وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ
مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
بَعِيدًا ﴿١١٧﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنثًا

=====

يصليه» أي أدخله النار، أي نتركه في الدنيا على حاله وندخله يوم القيامة النار ﴿وساءت﴾ جهنم ﴿مصيرًا﴾ أي محلاً يصير إليه المجرمون.

[١١٧] وبمناسبة ذكر مشاقة الرسول، يبين سبحانه أنه لا يأس من رحمة الله تعالى، فمن تاب كان الله غفوراً، فإذا أخطأ أحد فليرجع إلى الله تعالى، ليغفر ذنبه ويتوب عليه ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ إذا مات مشركاً كما دل الدليل ﴿ويغفر ما دون ذلك﴾ أي دون الشرك ﴿لمن يشاء﴾ إن تاب وإن لم يتب فذلك رهن إرادته سبحانه، والإرادة ليست اعتباطاً، بل حسب النفسيات والأعمال والقابليات وما أشبه ﴿ومن يشرك بالله﴾ أي يجعل له شريكاً ﴿فقد ضلّ ضلالاً بعيداً﴾ أي عن طريق الحق.

[١١٨] ثم يبين سبحانه وجه ضلال المشركين بصورة فردية قبيحة فقال تعالى: ﴿إن يدعون﴾ أي ما يدعون ويعبدون ﴿من دونه﴾ أي من دون الله ﴿إلا إناثاً﴾ جمع أنثى، فإنهم كانوا يعبدون اللات والعزى ومناة وأساف ونائلة، وكان لكل قبيلة صنم تعبد، وكانوا يسمون الأصنام أنثى فيقولون: أنثى قريش وأنثى تميم، وكان الشيطان يكلمهم منها أحياناً، كما أن قسماً منهم كان يعبد الملائكة ويقول: إنها بنات الله، كما حكى سبحانه عنهم: (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا)^(١)

وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٨﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ
لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٩﴾ وَلَا أَضِلَّهُمْ
وَلَا مُبِينَهُمْ وَلَا أُمِرْتَهُمْ فَلْيُبَيِّتْكُمْ أَذَانُ الْأَنْعَامِ

=====

﴿وإن يدعون﴾ أي ما يدعون ﴿إلا شيطاناً مریداً﴾ أي ماردأ، فإن «المريد والمارد والمتمرد» بمعنى واحد، وهو العاصي العاتي، وكانت عبادتهم للشيطان عين عبادتهم للأصنام إذ هي من صنع الشيطان وأمره فلا يُستشكل بأنه كيف يجمع بين النفيين؟

[١١٩] ﴿لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي طرد الله الشيطان عن رحمته وقربه، فهؤلاء يعبدون ويطيعون المطرود عن رحمة الله ﴿وقال﴾ الشيطان لله سبحانه حين طرده: ﴿لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ﴾ أي عبيدك ﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي معلوماً، والمراد من اتخاذه لهم: إضلالهم وإغوائهم عن الإيمان والعمل الصالح، وقد كان الشيطان يعلم ذلك حين قال له سبحانه: ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾^(١) و﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ﴾^(٢).

[١٢٠] ﴿وَلَا أَضِلَّهُمْ﴾ عن طريق الهداية، وهذا إما عطف بيان لقوله «اتخذن» أو المراد من الاتخاذ الاختصاص أي أختص بجملة من عبادك فأضلهم ﴿وَلَا أُمِينُهُمْ﴾ من الأمانة أي أمنيهم طول البقاء في الدنيا وحب الرئاسة والمال حتى يعصون ﴿وَلَا أُمِرْتَهُمْ﴾ بالوسوسة والإلقاء في قلوبهم ﴿فليبتكن آذان الأنعام﴾ من «بتك يبتك» بمعنى «قطع يقطع» فقد كان المشركون يقطعون آذان الأنعام علامة على حُرمة

(١) الإسراء: ٦٤ .

(٢) ص: ٨٦ .

وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ
 وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١٢٠﴾
 يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢١﴾

=====

ركوبها وأكلها وشرب لبنها، وكان ذلك حراماً إذ هو من المثلة وقد قال الرسول ﷺ: «إياكم والمثلة ولو بالكلب العقور»^(١) كما أن تحريمهم كان بدعة وتشريعاً محرماً ﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغْيِرْ خَلْقَ اللَّهِ﴾ من التغييرات المحرمة كإخصاء العبد وفقء عين الدابة والتمثيل بالأحياء والأموات وما أشبه ذلك. ويستفاد من الآية أن كل تغيير في الخلق حرام إلا ما دل عليه الدليل.

وبعد ما ذكر سبحانه بعض أقسام وساوس الشيطان التي كانت دارجة في ذلك الزمان وإلى زماننا هذا، جعل الكل في إطار عام، وأعطى القاعدة الكلية المنطبقة على كل جزئي بقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا﴾ يلي أموره ويطيع أوامره ﴿مَنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قيد توضيحي للتحويل، لا أنه من الممكن الجمع بين تولي الشيطان وتولي الله سبحانه ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ أي خسراناً ظاهراً.

[١٢١] ﴿يَعِدُهُمْ﴾ أي يعد الشيطان أوليائه النصر والسعادة إن اتبعوه ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ بالأمان الكاذبة الباطلة حتى يركنوا إلى الدنيا ويتركوا الآخرة ويرجعوا الشهوات على الأعمال الصالحة ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ فكل وعوده غرور وكذب يغتر به البسطاء الغافلين.

(١) وسائل الشيعة: ج ٢٩ ص ١٢٨.

أُولَٰئِكَ مَأْوَهُم جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢٢﴾
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا
وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٣﴾

=====

[١٢٢] ﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين اتخذوا الشيطان ولياً وناصراً ﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أي
مرجعهم ومحلهم ﴿جهنم ولا يجدون عنها﴾ أي عن جهنم، فإنها
«مؤنثة سماعية» ﴿محيصاً﴾ أي مخلصاً ومهرباً، من «حاص» بمعنى
عدل وانحرف.

[١٢٣] هذا لمن اتخذ الشيطان ولياً، أما من اتخذ الرحمن ولياً ﴿والذين
آمَنُوا﴾ بما يجب الإيمان به من أصول الدين ﴿وعملوا الصالحات﴾
أي الأعمال الحسنة ﴿سنُدْخِلُهُمْ﴾ قيل: إن «السين وسوف» بمعنى
واحد، وقيل: إن السين للمستقبل القريب، وتستعمل الكلمتان
بالنسبة إلى الجنة باعتبارين: فباعتبار أن كل آتٍ قريب تستعمل
السين، وباعتبار فصل البرزخ الطويل تستعمل سوف ﴿جَنَّاتٍ﴾ جمع
«جنة» وهي البستان، سمي بها لكونها مستورة بالأشجار من «جن»
بمعنى ستر، ومنه «الجنّ والجِنين والجنة» ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾
أي من تحت أشجارها وقصورها ﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا انقطاع لها
ولا زوال ﴿وعد الله حقاً﴾ أي وعد الله ذلك وعداً في حال كونه
حقاً، أو متصفاً بكونه حقاً، لا خلف فيه ولا كذب ﴿ومن أَصْدَقُ مِنَ
اللَّهِ قِيلًا﴾ أي من حيث القول، فهو أَصْدَقُ القائلين، خبيراً ومخبِراً،
والاستفهام في معنى النفي، أي لأصدق من الله، والسبب أن

لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

=====

الإنسان مهما أوتي من الصدق، فإنه قد يجهل وقد لا يقدر وقد يشتهه، والله منزّه عن جميع ذلك.

[١٢٤] ثم يبين السياق القاعدة الكلية للعمل والجزاء، بعدما بيّن ما لمن أشرك وما لمن آمن؟ فقال سبحانه: ﴿لَيْسَ﴾ أمر الثواب والعقاب والسعادة والخسران ﴿بِأَمَانِيَّتِكُمْ﴾ جمع «أمنية» بمعنى رغبة النفس، فلا ينال الإنسان خيراً بالأمانى فيما إذا كان عمله خلاف ذلك، والخطاب للمسلمين ﴿وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ في «المجمع» قيل: تفاخر المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم. فقال المسلمون: نبينا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على الكتب، وديننا الإسلام. فنزلت الآية، فقال أهل الكتاب: نحن وأنتم سواء. فأنزل الله الآية التي بعدها «ومن يعمل من الصالحات...» ففلح المسلمون^(١).

﴿من يعمل سوءاً يُجْزَى بِهِ﴾ فإن الذي ينفع عند الله هو العمل الصالح، أما الأنساب والأحساب وما أشبه فلا تنفع إلا بقدر ما يرجع إلى العمل أيضاً كما قال ﷺ: «المرء يُحَفِّظُ فِي وَلَدِهِ»^(٢) ولذا من عمل عملاً سيئاً يُجْزَى بِهِ. وبما ذكرنا تبين أن حفظ نسب النبي ﷺ إنما يرجع إلى أتعاب النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام.

﴿وَلَا يَجِدْ﴾ العامل للسوء ﴿لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ غير الله

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ١٩٧.

(٢) البحار: ج ٢٨ ص ٣٠٢.

وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ
ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٥﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ
وَجْهَهُ لِلَّهِ

﴿ولياً ولا نصيراً﴾ فلا أحد يتولى أمره وينصره .

[١٢٥] ولما كان الأمر محتملاً لأن يشمل أهل الكتاب إذا لم يعملوا سوءاً طبقاً للمفهوم من الآية السابقة، ذكر سبحانه أن من شروط قبول الأعمال الخيرة الإيمان الكامل ﴿ومن يعمل من الصالحات﴾ أي بعض الصالحات فإن الصالحات كلها لا يمكن أن يؤتى بها ﴿من ذكر أو أنثى﴾ ولعل التنصيص هنا لإفادة العموم، ولدفع وهم جزي التقاليد الجاهلية، التي كانت تقضي بأكل الرجال ثمار الأعمال الطيبة للنساء، وحرمان النساء من الحقوق ﴿وهو مؤمن﴾ - بما في الكلمة من معنى - لا إيمان ببعض الأصول دون بعض ﴿فأولئك﴾ العاملون المؤمنون ﴿يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً﴾ أي قدر نقير، وهو النكتة الصغيرة المنخفضة في ظهر النواة التي منها تنبت .

[١٢٦] ثم بيّن سبحانه فوائد الإيمان ومزاياه وأنه أحسن من جميع الطرق والمذاهب ﴿ومن أحسن ديناً﴾ الدين هو الطريقة التي يسلكها الإنسان في حياته لأجل نيل السعادة، والاستفهام في معنى الإنكار أي ليس أحد أحسن طريقة ﴿ممن أسلم﴾ وأخضع ﴿وجهه لله﴾ والمراد بالوجه: الذات والنفس، وإنما ذكر الوجه لأن خضوع الوجه كاشف عن خضوع الذات، ومعنى إسلام الوجه الإيمان بالله حيث أنه اعترف

وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ
 خَلِيلًا ﴿١٢٦﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ
 اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٧﴾

به وخضع له ﴿وهو محسن﴾ أي يُحسن العمل فيتبع الأوامر والنواهي،
 وإنما لم يكن أحد أحسن ديناً من هذا الإنسان لأن الإيمان اعتراف
 بالحقيقة الكبرى، والإحسان، عمل بما هو الأصلح، إذ ما يقرره الإله
 العليم الحكيم أحسن مما يقرره الإنسان الجاهل ذو الطيش والسفه
 ﴿واتبع ملة إبراهيم﴾ أي طريقته ﴿حنيفاً﴾ أي في حال كون
 إبراهيم ﷺ مستقيماً في الطريق عقيدة وعملاً فإيمان وإحسان واتباع
 طريقة صحيحة. وقد تكرر في الكتاب والسنة لزوم اتباع إبراهيم ﷺ
 لأن دينه لم يكن يتطرق إليه التحريف الذي تطرق إلى كتابي الكليم
 والمسيح ﷺ بالإضافة إلى أن موسى وعيسى ﷺ كانا بعد
 إبراهيم ﷺ وأنه ﷺ بصفته أب المسلمين العرب، كان ذكره محفزاً
 لهم على الإيمان، إنه طريقة جدهم كما قال سبحانه: (مِلَّةَ أَبِيكُمْ
 إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ)^(١) ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾ من
 الخلّة، بمعنى الحب والود لإبراهيم ﷺ بإطاعته لله صار خليل الله،
 فما يمنع الناس أن يتبعوا طريقة إبراهيم، كي ينالوا حب الله ورضاه.

[١٢٧] وأخيراً فمن الأحسن اتباع طريقة الإله الذي له كل شيء وهو العالم
 بكل شيء ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض﴾ فهو المالك لكل
 شيء، وإذا أراد الإنسان اتباع طريقة للنفع فليتبّع طريقة من له كل نفع
 ﴿وكان الله بكل شيء محيطاً﴾ أي إحاطة علمية لا يعزب عنه شيء،

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ

واحاطة بالقدرة، إذ المحيط بالشيء يقدر عليه.

[١٢٨] قد سبق قوله سبحانه: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ)^(١) وقد سبق الكلام في الآيات التالية حول هذا الموضوع مع شيء من الاستطراد. ثم يأتي السياق ليبين بعض أحكام النساء، فإنه من الحكم بين الناس بما أراه الله سبحانه ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾ يا رسول الله ﴿فِي النِّسَاءِ﴾ أي يسألونك الفتوى - وهو تبين المشكل من الأحكام - فقد سألوا الرسول ﷺ عن الواجب لهن وعليهن وكيفية معاشرتهن ﴿قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ أي في النساء وإنما نسب الجواب إلى الله سبحانه لتقوية إفادة أن الحكم لا يصح إلا من الله سبحانه، فليس لأحد أن يحكم إطلاقاً، وقد سئل مثل هذه الأسئلة في غير الأحكام فجاء الجواب بدون النسبة إليه تعالى، نحو: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)^(٢) (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ)^(٣) (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ)^(٤) وهكذا.

﴿وما يتلى عليكم في الكتاب﴾ عطف على «الله» أي أن الفتوى في باب النساء تأخذونه من الله سبحانه بما سيأتي، وتأخذونه بما تلي عليكم في القرآن سابقاً، فقد سبق في ابتداء السورة (وَأِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكُحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ)^(٥)، (وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ

(١) النساء: ١٠٦ .

(٢) الإسراء: ٨٦ .

(٣) البقرة: ٢١٦ .

(٤) البقرة: ٢١٦ .

(٥) البقرة: ١٩٠ .

فِي يَتَمَى الْنِسَاءَ الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ
أَنْ تَكْحُوهُنَّ الْمُسْتَضْعَيْنَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا
لِلْيَتَمَى بِالْقِسْطِ

وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٨﴾ وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ

يفتيكم به أيضاً، ثم جمع سبحانه الكل في إطار عام فقال: ﴿وما تفعلوا﴾ أيها المؤمنون ﴿من خير﴾ عدل وإحسان بالنسبة إلى النساء ﴿فإن الله كان به عليماً﴾ يعلمه ويجازيكم عليه بحسن الثواب.

[١٢٩] ثم توجه السياق إلى بعض أحكام النساء إيفاء لقوله سبحانه: «قل الله يفتيكم فيهن» وذلك حكم خوف النشوز، فقد كانت بنت محمد بن سلمة عند رافع بن خديج وكانت قد دخلت في السن وكانت عنده امرأة شابة سواها فطلقها تطليقة حتى إذا أبقى من أجلها يسيراً، قال إن شئت راجعتك وصبرت على الأثرة، وإن شئت تركتك. قالت: بلى راجعني وأصبر على الأثرة فراجعها، فنزلت ﴿وإن امرأة خافت من بعلها﴾ أي من زوجها ﴿نشوزاً﴾ ارتفاعاً عليها بأن لا يعاملها معاملة الأزواج، بل يعاملها وكأنه أرفع منها ﴿أو إعراضاً﴾ أي يعرض عنها إطلاقاً، أو طلاقاً، وقد خافت لظهور إمارات ذلك ﴿فلا جناح عليهما﴾ أي على الزوجين ﴿أن يصلحا بينهما﴾ الضمير في «يصلحا» راجع إلى الزوجين، أي يصطلحا فيما بينهما ﴿صلحاً﴾ أي نوع من أنواع الصلح الجائز، فتتنازل هي عن بعض حقوقها ليبقى النكاح على حاله ولا تحصل الفرقة، أو نحوها ﴿والصلح﴾ بينهما ببقاء عقد الزواج والألفة ﴿خير﴾ من الافتراق والشقاق ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ الشح البخل وعدم التنازل عن الحقوق، أي أن الأنفس يُخالطها الشح، فلا هي ترغب أن تتنازل عن بعض حقوقها لتبقى

وَأِنْ تَحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا
 ﴿١٢٩﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ
 فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ

الألفة، ولا الزوج مستعد لأن يعاشرها معاشرة صالحة لئلا ينتهي الأمر إلى الطلاق ﴿وإن تحسنوا﴾ يحسن أحد الزوجين إلى الآخر ﴿وتتقوا﴾ فلا تفعلوا ما يوجب سخط الله، فإن الغالب أن يرتكب أحد الطرفين الحرام، فيما إذا حدث بينهما صدام ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ فيجازيكم عليه. ولا مفهوم للآية بأنه «إن لم تحسنوا فلا يعلم الله» كما هو واضح، بل الشرط أتى به للتحريض والترغيب.

[١٣٠] ثم ذكر سبحانه حكم تعدد الأزواج، وأنه لا يمكن التسوية بينهما في الحب والود، فإذا كان الميل القلبي يميل كلياً إلى جهة، فاللازم حفظ العدالة بين الزوجات، لئلا يبقى بعضهن كالمعلقة ﴿ولن تستطيعوا﴾ أيها الرجال أبداً ﴿أن تعدلوا بين النساء﴾ عدالة في المودة والحب، فإنه ليس بأيديكم، ولا بد أن تكون بعض النساء أقرب إلى قلوبكم من بعض ﴿ولو حرصتم﴾ في العدالة القلبية ﴿فلا تميلوا كل الميل﴾ إلى جانب امرأة من زوجاتكم المتعددات ﴿فتذروها﴾ أي المرأة التي لا تميلون إليها ﴿كالمعلقة﴾ التي علقت فلا هي مستريحة بالزوج ولا هي مستريحة بعدم الزوج، فتكون في عذاب وشقاء، وإذا لم يكن باستطاعتكم العدالة فباستطاعتكم عدم الميل الكلي.

وقد روي عن الرسول ﷺ أنه كان يقسم بين نسائه ويقول:

وَأِنْ تَصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٣٠﴾
وَأِنْ يَفْرَقَا يَغْنِ اللَّهُ كِلَا مِّن سَعَتِهِ ۚ

«اللهم هذه قسمتي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»^(١) .

وقد ورد أنه سئل الصادق عليه السلام عن الجمع بين هذه الآية وبين قوله: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً»^(٢) فقال أما قوله: «فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا» فإنه عني في النفقة، وأما قوله: «ولن تستطيعوا أن تعدلوا» فإنه عني في المودة، فإنه لا يقدر أحد أن يعدل بين امرأتين في المودة^(٣) .

﴿وإن تصلحوا﴾ بالتسوية في القسمة والنفقة الواجبتين ﴿وتتقوا﴾ باجتناب المحرمات، وذلك بترك الميل الكلي الذي نهى الله عنه ﴿فإن الله كان غفورا﴾ يغفر ما صدر منكم من الذنوب ﴿رحيماً﴾ يرحمكم بلطفه ويسبغ عليكم فضله .

[١٣١] ﴿وإن يفرقا﴾ فيما إذا لم يصطلح الزوجان، بل طالبت هذه بكل حقوقها وأراد الرجل الميل، فخيرها بين الطلاق والتنازل عن بعض حقوقها، فاختارت الطلاق، ففرقا ووقع الافتراق ﴿يغن الله كلا﴾ من الزوجين ﴿من سعته﴾ أي سعة فضله ورحمته، فليس بابه مرتجأ في وجه أي من الطرفين، بل الرجل يستغني عن هذه المرأة بامرأة أخرى وعيشة أخرى، والمرأة تستغني عن هذا الرجل برجل آخر وسعادة هنيئة . وفي هذه الجملة لفظة مشرقة لجبر انكسار قلبي الطرفين، إذ من المعلوم أن كلا منهما ينكسر قلبه حين الافتراق، ولو كان هو السبب

(٣) بحار الأنوار: ج ١٠ ص ٢٠٢ .

(١) تفسير التبيان: ج ٣ ص ٣٤٩ .

(٢) النساء: ٤ .

وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣٢﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

=====

في الفراق ﴿وكان الله واسعا﴾ في فضله ﴿حكيما﴾ فيما يأمر وينهي ويفعل ويريد، ونسبة السعة إليه يُراد به السعة في فضله «مجازاً».

[١٣٢] ثم ذكر سبحانه أنه يملك كل شيء فهو يقدر على إغناء الزوجين من فضله ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض﴾ قد تقدم أن المراد بـ «ما في» الأعم من الظرف والمظروف ﴿ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب﴾ أي اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم ﴿من قبلكم﴾ إشارة إلى كون الوصية لم تزل من القديم ﴿وإياكم﴾ أي وصيناكم أيها المسلمون ﴿أن اتقوا الله﴾ أي خافوا عقابه، فاعملوا بالأوامر والنواهي ﴿وإن تكفروا﴾ كفراً في العقيدة بإنكار الأصول، أو كفراً في الفروع بالعصيان ﴿فإن لله ما في السماوات وما في الأرض﴾ فلا يضره كفركم ولا ينفعه إيمانكم وعملكم ﴿وكان الله غنيا﴾ لا يحتاج إلى إيمانكم ولا إلى أعمالكم وإنما أنتم تحتاجون إلى ذلك ﴿حميداً﴾ أي مستوجباً عليكم الحمد له لصنائه الحميدة.

[١٣٣] ثم يؤكد غناه سبحانه وأن له كل شيء بقوله: ﴿ولله ما في السماوات وما في الأرض﴾ ليس شيء لغيره، فإذا قطع عنكم رحمته لا تحصلون

وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٣﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ
بِآخَرِينَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ
ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَكَانَ اللَّهُ
سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٥﴾

على ما تريدون من غيره ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ أي أنه أحسن وكيل وأكفى وكيل، فلا يحتاج الإنسان إلى وكيل آخر إذا وكله سبحانه في أمره. وقد قيل في وجه التكرار في الآيتين ثلاث مرات أن الأولى: لإيجاب طاعته، حيث له كل شيء والمالك تجب طاعته على المملوك، والثانية: لأن الخلق محتاجون إليه وهو الحميد المطلق، فإن ذلك لا يكون إلا لمن له كل شيء، والثالثة: لبيان أنه يكفي توكيله مطلقاً، فإن ذلك لا يكون إلا لمن يملك كل شيء.

[١٣٤] ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ إنه في غنى عنكم، وقدرته تعمكم فناء وإيجاداً، فإن أراد أذهبكم وأفناكم وأهلككم ﴿ويأت بآخرين﴾ أناساً آخرين يوجههم من العدم ﴿وكان الله على ذلك قديراً﴾ يقدر على إنفاذه.

[١٣٥] ولقد كان المنافقون يتبعون النبي ﷺ للغنيمة وللتحفظ على دنياهم، وحيث تقدم أن لله ما في السماوات والأرض، ذكرهم بأن الإطاعة توجب خير الدنيا والآخرة، فلم لا يسلكون أنفسهم في سلكها ﴿من كان يريد ثواب الدنيا﴾ أي منافعها، فإن الثواب من «ثاب» بمعنى رجع، لأن الثواب جزاء العمل الصادر من الإنسان، يرجع إليه ﴿فعند الله ثواب الدنيا والآخرة﴾ إذ يملك الجميع وييده أزمة الكل، فلم لا يطيعون حتى ينالوا الأمرين ﴿وكان الله سميعاً﴾ لأقوالهم ﴿بصيراً﴾ بأعمالهم.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَاقِرًا فَإِنَّ اللَّهَ أَوْلَىٰ بِهِمَا

[١٣٦] ولما ذكر سبحانه أن عنده ثواب الدنيا والآخرة، عقّبه بالأمر بالعدل وعدم الجور كي ينالوا الثوابين، وقد سبق الأمر بالعدل في قوله: (وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ)^(١) فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قد تقدم أن الخطاب إنما خُصص بالمؤمنين لأنهم المنتفعون السامعون، وإلا فالأوامر والنواهي عامة للجميع ﴿كونوا قوامين﴾ جمع «قوام» وهو كثير القيام ﴿بالقسط﴾ هو العدل، أي كونوا دائمين في القيام بالعدل، بأن تكون عادتكم على ذلك قولاً وعملاً، ولعلّ في ذلك إشارة تنبيهه إلى ما اعتاده الناس من أنهم لا بد وأن يزيغوا عن العدل إذا تمادت بهم الأزمان، ولذا نرى من الحكام من يتنزه عن الجور في أول أمره ثم إذا امتد به الزمان زاغ وانحرف ﴿شهداء﴾ جمع شهيد ﴿لله ولو على أنفسكم﴾ أي اشهدوا بالحق - لأجل أمر الله ورضاه - ولو كانت الشهادة في ضرركم ونفع الغير ﴿أو﴾ على ﴿الوالدين﴾ أي في ضررهما لنفع الغير، إذا كان الحق مع الغير ﴿و﴾ على ﴿الأقربين﴾ أي من يتقرب إليكم بنسب، فلا تميلوا عن الحق لنزوات أنفسكم، أو ملاحظة مصلحة الوالدين، أو رعاية الأقربين ﴿إن يكن﴾ المشهود له أو المشهود عليه ﴿غنياً أو فقيراً﴾ فلا تشهدوا للغني أو للفقير باطلاً، مراعاةً لغناه أو شفقةً عليه لفقره ﴿فأله أولى بهما﴾ إنه

فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَّ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ
كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ ءَالِ الْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ ءَالِ الْكِتَابِ الَّذِي

=====

سبحانه أولى بالغني والفقير وأنظر لحالهما من سائر الناس ، ومع ذلك
فقد أمركم بالشهادة على الحق فلا بد من ملاحظة أمره ، لا مراعاة
الغني لغناه والفقير شفقةً عليه ﴿فلا تتبعوا الهوى﴾ أي هوى النفس في
الحكم الجائر ﴿أن تعدلوا﴾ أي لأن تعدلوا ، قالوا : وذلك كقولهم :
«لا تتبع هواك لترضي ربك» ، أو المعنى : «لا تتبعوا الهوى في أن
تعدلوا من الحق» ﴿وإن تلوه﴾ من «لوى يلوي» ، بمعنى الانحراف ،
أي أن تنحرفوا أيها المؤمنون - في حال الحكم - عن الحق ﴿أو
تعرضوا﴾ عن الحق إطلاقاً . ولعل الفرق أن «اللى» الانحراف
اليسير ، و«الإعراض» الانحراف مطلقاً ﴿فإن الله كان بما تعملون
خبيراً﴾ فيعلم الانحراف والإعراض ويجازيكم عليهما ، كما يعلم
إقامتكم للحق .

[١٣٧] ثم أنه سبحانه بعد أن ذكر لزوم القيام بالقسط ، بين لزوم
الإيمان الحقيقي عن قلب وعقيدة ، ولا يكون ذلك القيام بالقسط
إلا إذا توفر في الإنسان ذلك الإيمان ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ في
الظاهر ، فإن الخطاب موجّه إلى كل من أظهر شهادة أن لا إله إلا
الله ، وأن محمداً رسول الله ، ومن المعلوم أن كثيراً منهم كانوا
مؤمنين لفظاً فقط ﴿آمنوا﴾ إيماناً راسخاً وعقيدة في الجوارح
والجوانح ﴿بالله ورسوله﴾ محمد ﷺ ﴿و﴾ آمنوا بـ ﴿الكتاب الذي
نزل على رسوله﴾ وهو القرآن الكريم ﴿والكتاب الذي

أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا
ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنْ
اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ

=====

أنزل من قبل ﴿أي جنس الكتاب، فإن من شرائط الإيمان، الإيمان بكتب الله جميعاً﴾ ومن يكفر بالله وملائكته ﴿بأن يجحدهم أو يُعاديهم أو يُنزلهم عن المنزلة اللائقة بهم﴾ وكتبه ورسله ﴿وإن كان يجحد أحد من الرسل أو أحد من الكتب﴾ واليوم الآخر ﴿بأن جحد أو شك في الميعاد﴾ فقد ضل ضلالاً بعيداً ﴿عن الحق كمن يضل الطريق ويبعد عنه كثيراً، وذلك في قبال من يعمل محرماً أو ما أشبه، فإنه قد ضل ضلالاً، لكن لا بذلك البعد.

[١٣٨] وبعدما ذكر سبحانه لزوم الإيمان واقعاً، بيّن حالة أولئك الذين لا يؤمنون إلا إيماناً سطحياً، ولذا يميلون مع كل جانب قوي، فإذا قوى الإسلام آمنوا وإذا ضعف كفروا، وهكذا يراوحدون بين الإيمان والكفر حتى يموتون وهم كفار لتغلب الطبيعة الكافرة فيهم ﴿إن الذين آمنوا ثم كفروا﴾ إما كفر باللفظ أو بالقلب، فإن كثيراً من الأشخاص الذين يقدمون على الإيمان يقدمون عليه سطحياً، وبمجرد هبوب ريح الكفر يكفرون قلباً، وإن بقوا في الظاهر مؤمنين ﴿ثم آمنوا ثم كفروا﴾ وهذا من باب المثال، وإلا فليس للتكرار أربع مرات مزية لا توجد في المرتين، أو في الست، أو ما أشبه ﴿ثم ازدادوا كفراً﴾ بأن تطبعت قلوبهم بالكفر فلم يؤمنوا ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ لأنهم بقوا كافرين

وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٨﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا
 أَلِيمًا ﴿١٣٩﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
 الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَتُنْغُوتَ عِنْدَهُمْ الْعِزَّةُ

=====

و(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) ^(١) ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ أي طريقاً إلى
 الجنة والخلاص، كما قال سبحانه: (وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ
 جَهَنَّمَ) ^(٢) ويحتمل أن يكون المعنى: «أنه يخذلهم في الدنيا ولا يلفظ
 بهم عقوبة لهم على كفرهم، فلا يهتدون إلى الحق بعد ما تكرر منهم
 الإيمان والكفر».

[١٣٩] ﴿بَشِّرِ﴾ يا رسول الله ﴿الْمُنَافِقِينَ﴾ الذين هم يظهرون الإسلام
 ويبطنون الكفر - خلافا لما تقدم من قوله: «يا أيها الذين آمنوا» والبشارة
 هنا مجاز للاستهزاء، كما يقال للزنجي: كافور ﴿بأن لهم عذاباً أليماً﴾
 يؤلمهم جسدياً ونفسياً. ولعل هذه الآية تدل على كون الآية المتقدمة في
 شأن المنافقين، وأن المراد بالكفر، الكفر القلبي الذي كانوا يراوون فيه
 بين الإذعان والكفر، مع التحفظ على ظاهرهم في الإيمان.

[١٤٠] وبمناسبة النفاق، ذكر الله سبحانه أظهر ميزات المنافق، فقال:
 ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ وأحباء من صميم القلب ﴿مِنْ دُونِ
 الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لا يتخذون المؤمنين أولياء، بل يعاملونهم معاملة
 ظاهرية فقط لتأمين حياتهم، وإنما قلوبهم مع الكفار وميلهم إليهم
 ﴿أَيْبَتُنْغُوتَ﴾ أي هل يطلبون ﴿عندهم﴾ أي عند الكفار ﴿العِزَّةُ﴾

(١) النساء: ٤٩.

(٢) النساء: ١٦٩ و ١٧٠.

فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٤١﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ

=====

الدنيوية، فإن الغالب أن المنافق إنما ينافق تحفظاً على دنياه، أي على عزته المزعومة التي يجدها في ضلال الكفر وبمؤاخاة وصدقة الكافرين ﴿فإن العزة لله جميعاً﴾ إذ بيده الدنيا بجمع ما فيها، فلو آمنوا حقيقةً لكان لهم من العزة ما ليس للمنافقين، لأن دنياهم بالإضافة إلى عزتهم الظاهرية حاصلة عند المؤمنين، فإن المنافق منبوذ لا عزة له بين المؤمنين.

[١٤١] ثم ذكر سبحانه خصلة أخرى للمنافقين، فقد كانوا يُجالسون أهل الكتاب، فيسخر أولئك من القرآن والرسول، والمنافقون ساكتون حيث يوافقونهم قلباً، بخلاف المؤمنين الذين لم يكن أهل الكتاب يجرون مثل ذلك أمامهم، وهذه صفة المؤمن والمنافق في كل زمان ﴿وقد نزل عليكم في الكتاب﴾ أي في القرآن في قوله: (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) ^(١) بمعنى أنه إذا خاضوا في غيره حال مجالستهم ﴿أن إذا سمعتم﴾ أيها المسلمون ﴿آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها﴾ والفرق بينهما واضح فإن الكفر بها إنكارها، والاستهزاء بها السخر والاستهانة بها ﴿فلا تقعدوا معهم﴾ بل قوموا واذهبوا ﴿حتى يخوضوا في حديث غيره﴾ الخوض في الحديث

إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَفِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤١﴾ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ

الدخول فيه كالخوض في الماء، و«حتى» للغاية، وهي غير داخلة في المعنى، يعني يجوز لكم مجالستهم إذا خاضوا في حديث غير الكفر بالآيات والاستهزاء بها ﴿إِنكُمْ﴾ أيها المسلمون إذا جالستم الكفار وهم يكفرون ويستهزءون ﴿إِذَا مَثَلُهُمْ﴾ حيث لم تنكروا عليهم، مع قدرتكم على الإنكار، ومن رضي بعمل قوم قلباً أو تظاهراً فهو منهم ﴿إِن اللّٰهُ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ﴾ الذين أبطنوا الكفر ﴿وَالْكَافِرِينَ﴾ الذين أظهروا الكفر ﴿فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً﴾ لأن كليهما كافر، وإن كان في الظاهر تجري أحكام الإسلام على المنافق.

[١٤٢] ثم وصف سبحانه المنافقين بما هي السمة الظاهرة لهم في كل حال وزمان ﴿الذين يترصدون بك﴾ التربص الانتظار والترقب، يعني أنهم ينتظرون لأموركم ويراقبون أحوالكم ﴿فإن كان لكم فتح من الله﴾ بالظفر والغلبة والغنيمة ﴿قالوا﴾ أي أولئك المنافقون: ﴿ألم نكن معكم﴾ أيها المؤمنون، فإننا آمنا وغزونا ووصلينا وعملنا تحت لواء الإسلام، يريدون بذلك التحفظ على أنفسهم في مستوى المؤمنين جاهاً وغنيمةً ﴿وإن كان للكافرين نصيب﴾ بأن تقدم الكفار أو دارت الدائرة على المؤمنين ﴿قالوا﴾ أولئك المنافقون للكافرين الذين كان لهم نصيب: ﴿ألم نستحوذ عليكم﴾ أي نسيطر عليكم ونرشدكم مواقع

وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤٢﴾ إِنَّ
الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ

=====

صلاحكم ﴿ونمنعكم من﴾ بأس ﴿المؤمنين﴾ بدلالتكم على مواقع
الهلكة، وكنا نُلقي الرعب في قلوب المؤمنين منكم، حتى نلتهم أيها
الكافرون ما نلتهم بسببنا، ولذا فلنا ما لكم، يريدون بذلك إشراك
أنفسهم في جاه الكفار وأرباحهم ﴿فالله يحكم بينكم يوم القيامة﴾
ويعطي كلا جزاءه، ثم لا يظن المسلمون أن المنافقين يتمكنون بنفاقهم
أن يحدثوا ثغرة بينهم، فإن الكافر لا يُسلط على المؤمن أبداً لا في
الحجة ولا في غيرها، ما دام المؤمنون ملتزمين بشرائط الإيمان عقيدةً
وعملاً ﴿ولن يجعل الله﴾ أبداً ﴿للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ نعم
إذا خرج المؤمنون عن شرائط الإيمان عقيدةً أو عملاً، صار للكفار
عليهم سبيل. وقد نرى في طول التاريخ أنه لم يتغلب الكفار على
المؤمنين إلا إذا خرج المؤمنون عن طاعة الله ورسوله، كما رأينا في
قصة أحد حين ترك الرماة مواقعهم، وهذا لا يُنافي تسلط بعض أفراد
الكفار على بعض أفراد المؤمنين قتلاً ونحوه، لأن قضية «لن يجعل»
طبيعية كسائر القضايا الواردة في مثل هذا المقام.

[١٤٣] ولما ذكر سبحانه أن المنافقين يراوون بين المؤمنين والكافرين
لإرضاء كليهما ولأن يهيئوا لهم حياة سعيدة مهما تقلبت الظروف
والأحوال، بيّن أن خداعهم هذا لا ينطلي على الله سبحانه ﴿إن
المنافقين يخادعون الله﴾ حيث يُظهرون الإيمان لحقن دمائهم وحفظ
أموالهم وأعراضهم، بينما هم كفار غير مؤمنين ﴿وهو خادعهم﴾ إذ

وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا
يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٣﴾ مُذَبِّدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ
وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٤﴾

يُلْزِمُهُم أَحْكَامَ الْمُسْلِمِينَ فِي الدُّنْيَا وَيُجَازِيهِمْ جَزَاءَ الْكَافِرِينَ فِي الْآخِرَةِ ﴿و﴾ مِنْ صِفَاتِهِمُ الظَّاهِرَةِ أَنَّهُمْ ﴿إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالً﴾ جَمَعَ «كُسَلَان» أَيِ مُتَثَاقِلِينَ ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْتَقِدُونَ بِالصَّلَاةِ حَتَّى يَقُومُوا إِلَيْهَا قِيَامَ نَشَاطٍ وَفَرَحٍ كَمَا يَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ إِلَيْهَا ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ أَيِ أَنْ أَصْلَ عَمَلِهِمْ لِأَجْلِ الرِّيَاءِ وَأَنْ يُظْهِرُوا لِلْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ لَا لِأَجْلِ اللَّهِ ، وَلِذَا لَوْ تَمَكَّنُوا مِنْ تَرْكِهَا تَرَكُوهَا ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فِي مَوَاقِعِ الشَّدَةِ وَالْمَحْنَةِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ : (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ) ^(١) بخلاف المؤمنين الذين يعتقدون بالله فإنهم ذاكرون له دائماً .

[١٤٤] ﴿مُذَبِّدِينَ﴾ يُقَالُ : «ذَبَذَبْتَهُ» أَيِ حَرَكْتَهُ ، أَيِ أَنْ الْمُنَافِقِينَ مُتَرَدِّدِينَ ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الْمَجْتَمَعِ الْمُنْقَسِمِ إِلَى الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ﴿لَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيِ لَا مَعَ هَؤُلَاءِ تَمَاماً ﴿وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ الْكَافِرِينَ ، وَدُخُولُ كَلِمَةِ «إِلَى» بِاعْتِبَارِ أَنْ مَنْ يَكُونُ مَعَ قَوْمٍ يَنْتَهِي إِلَيْهِمْ فِي حَرَكَاتِهِمْ وَسُكُنَاتِهِمْ ، بِخِلَافِ الْمُنَافِقِ الَّذِي هُوَ فِي الْوَسْطِ لَا يَنْتَهِي إِلَى أَحَدٍ الْجَانِبِينَ ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾ وَإِضْلَالُهُ بِتَرْكِ لُطْفِهِ الْخَاصِّ بِهِ ، بَعْدَمَا أَرَاهُ الطَّرِيقَ فَلَمْ يَسْلُكْهُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى الْإِضْلَالِ مِنَ اللَّهِ ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ إِلَى الْحَقِّ لِأَنَّهُ قَدْ رَانَ عَلَى قَلْبِهِ مَا كَسَبَهُ مِنَ السَّيِّئَاتِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ .

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ
 الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا
 ﴿١٤٥﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَدَ
 لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٦﴾

[١٤٥] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ أي أنصاراً وأخلاء
 يتولّون شؤونكم ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بأن تتركوا ولاية المؤمنين إلى
 ولاية الكافرين ﴿أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾
 السلطان: الحجة والمبين، بمعنى الواضح، فيُنكَل بكم حيث انحرفتم
 عن طريقته إلى طريقة الكفار، إن المنافقين قد اتخذوا الكافرين أولياء،
 فأنتم أيها المؤمنون لا تكونوا مثلهم، لتتم عليكم الحجة فيصح عقابكم
 لأنه جاء بعد البيان والإنذار، والاستفهام بمعنى الإنكار، أي لا تجعلوا
 لله سلطاناً عليكم.

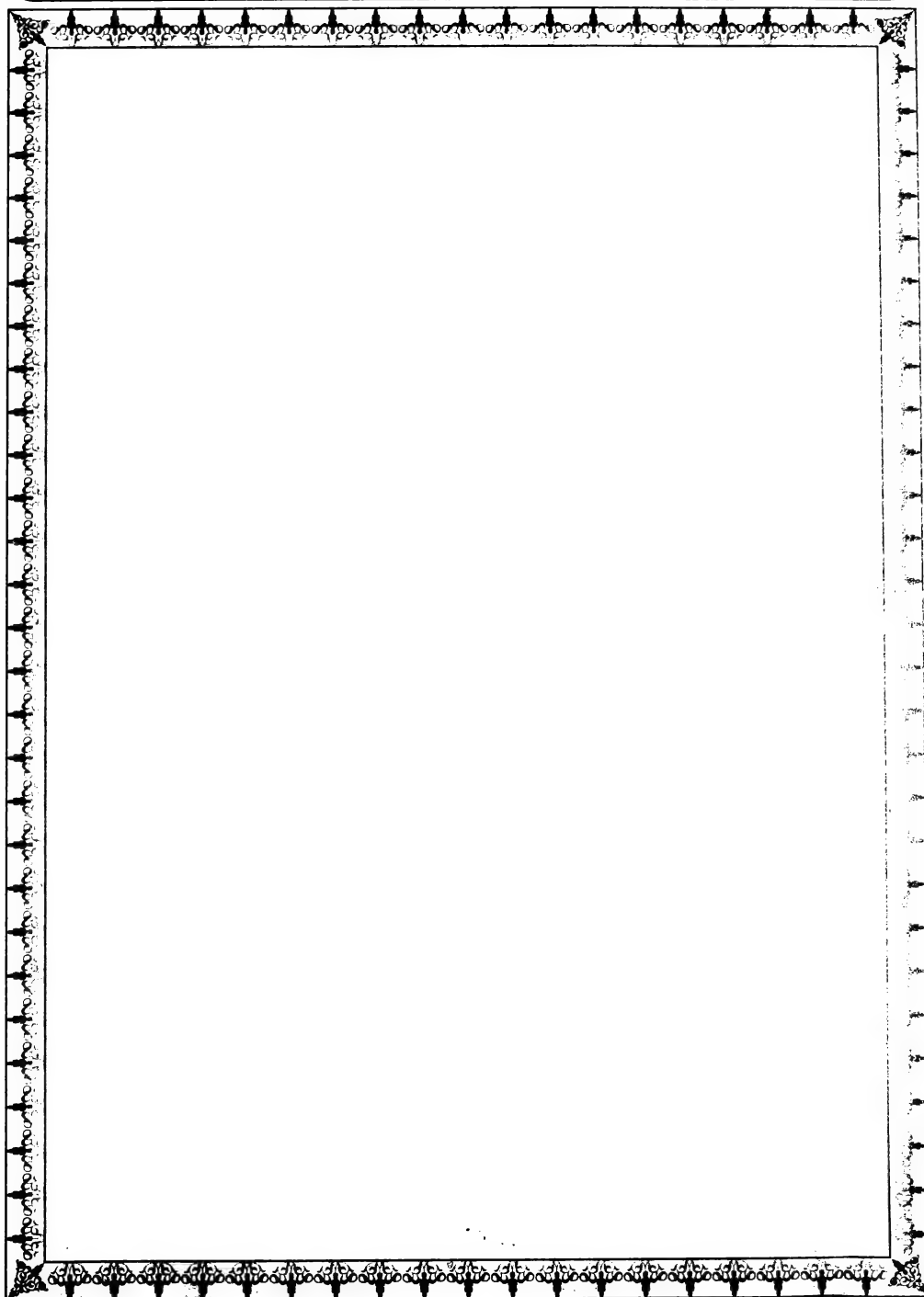
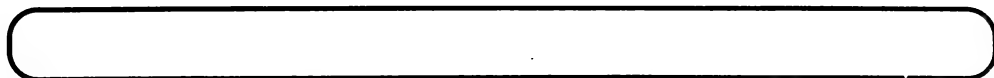
[١٤٦] ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ أي في الطبقة السفلى،
 وذلك لأن المنافق شرٌّ من الكافر، إذ هو كافر بإضافة أنه في المسلمين
 فيطلع على عوراتهم ويُعين الأعداء عليهم. وفي آية أخرى قال تعالى
 بالنسبة إلى المنافقين: (هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُوهُمْ) ^(١) على نحو الحصر، ولعلّ
 السبب في قبول المنافق بعد العلم بباطنه رجاء زوال نفاقه، وأنه لو وكل
 الأمر إلى الناس لأخذوا كثيراً من المؤمنين بأنهم منافقين ﴿وَلَنْ يَجْعَدَ﴾ يا
 رسول الله ﴿لَهُمْ﴾ أي للمنافقين ﴿نَصِيرًا﴾ من بأس الله وعقابه.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا
 دِينَهُمُ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ
 الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٧﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ
 شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾

=====

[١٤٧] ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ من نفاقهم ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ نياتهم وأعمالهم كسائر
 المؤمنين ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمُ لِلَّهِ﴾ أي تمسكوا به
 وأخلصوا طريقهم لله، بخلاف المنافق الذي يُبْعِضُ في طريقته،
 فبعضها لله وبعضها للأصنام ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في دنياهم
 وآخرتهم ﴿وَسَوْفَ﴾ في الآخرة ﴿يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو
 النعيم المقيم الذي لا زوال له ولا اضمحلال.

[١٤٨] ولما ذكر سبحانه أن المنافقين في الدرك الأسفل، بين أنه ليس من
 حاجة له إلى عذاب أحد، وإنما ذلك لسوء صنيعهم، فلو بذلوا
 صنيعهم لكان خيراً لهم ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ﴾ أيها الناس،
 والاستفهام في معنى الإنكار، أي لا حاجة إلى عذابكم إذ لا ينتفع الله
 بذلك كما لا يتضرر بتركه ﴿إِنْ شَكَرْتُمْ﴾ نعمة سبحانه ﴿وَأَمَنْتُمْ﴾ إيماناً
 صحيحاً ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا﴾ لمن شكره، ومعنى كونه شاكراً: أنه
 يفعل فعل الشاكر من الحفاوة إلى المشكور له ﴿عَلِيمًا﴾ بكم
 وبأعمالكم، فلا يفوته شيء منها.



نَفِيرٌ إِلَى الْفِرَارِ إِلَى الْكَافَّةِ هَـ

الْمَجْزُءُ السَّاحِشُ

من آية (١٤٩) من سورة النساء.

إلى (٨٣) من سورة المائدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على
أشرف الأنبياء والمرسلين محمد المصطفى
وعترته الطاهرين.

XX

(١) الحجرات: ١٣ .

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً قَدِيراً ﴿١٥٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا
نُؤْمِنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ
ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا

لاتجهروا بالقول السيئ بالنسبة إلى من ظلمكم ﴿فإن الله كان عفواً﴾
كثير العفو عن خلقه ممن أساء وظلم ﴿قديراً﴾ على الانتقام منهم، فما
أجدر أن يتصف الخلق بصفة الخالق.

[١٥١] ولما ذكر سبحانه في الآيات السابقة حال المنافقين، أتم الكلام في
الآيات التالية حول حال الكافرين والمؤمنين، فالناس ينقسمون أمام
الدعوة الجديدة إلى مؤمن وكافر ومنافق بين أولئك ﴿إن الذين يكفرون
بالله ورسله﴾ وإن كان كفراً برسول واحد، والكفر إما بالإنكار أو نحو
ذلك ﴿ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله﴾ لعلهم طائفة أخرى حيث
أنهم يؤمنون بالله ويكفرون بالرسول، فهذه الصفة أنهم يفرقون بين الله
بالإيمان وبين الرسل بالكفر ﴿ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض﴾ فإن
هناك المنكر المطلق والذي لا ينكر الله ولكن ينكر الأنبياء جملةً،
والذي يُبعض في الأنبياء ﴿ويريدون أن يتخذوا بين ذلك﴾ الحق الواقع
﴿سبيلاً﴾ طريقاً لا الإنكار المطلق ولا الإذعان المطلق، وإنما يفعلون
ذلك لأغراض نفسية وتقاليد بالية.

[١٥٢] ﴿أولئك هم الكافرون حَقًّا﴾ أي حقيقةً، فلا يخرج إيمانهم ببعض عن
كونهم كافرين، كما قد ينطبق على البعض الذين لا يعرفون معيار الكفر
والإيمان، فإن الكفر هو إنكار أحد الأصول والإيمان هو الإقرار بها

وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّهِ
 وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ
 يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٣﴾ يَسْأَلُكَ
 أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا

=====

أجمع ﴿وأعدنا للكافرين﴾ أي هيننا لهم ﴿عذاباً مهيناً﴾ يهينهم ويذلهم .

[١٥٣] ﴿والذين آمنوا بالله ورسوله﴾ جميعاً ﴿ولم يفرقوا بين أحد منهم﴾
 لفظ «أحد» إذا دخل عليه النفي أو كان في معناه أفاد العموم، ولذا صحَّ
 إدخال «بين» عليه وليس كذلك إذا كان للإثبات ﴿أولئك سوف
 يؤتيهم﴾ الله ﴿أجورهم﴾ في الآخرة ﴿وكان الله غفوراً﴾ يغفر ما صدر
 منهم من ذنب ﴿رحيماً﴾ يرحم بلطفه ورحمته .

[١٥٤] وإذا تقدم الكلام عن الذين يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ومن
 أظهر مصاديق أولئك أهل الكتاب الذين آمنوا بالأنبياء السالفة ولم
 يؤمنوا بمحمد ﷺ بحجج واهية، انتقل السياق إلى هؤلاء مبيناً أنهم
 كاذبون في زعمهم الإيمان بموسى ﷺ بأسئلة وأعمال بشعة
 ﴿يسألك﴾ يا رسول الله ﴿أهل الكتاب﴾ والمراد بهم هنا اليهود ﴿أن
 تنزل عليهم كتاباً من السماء﴾ كما نزل على موسى التوراة، مكتوباً
 جملة، لا أن تأتي الآيات على نحو الوحي .

وفي بعض التفاسير: أن كعب الأشرف وجماعة من
 اليهود قالوا: يا محمد إن كنت نبياً فأتنا بكتاب من السماء
 جملة كما أتى موسى بالتوراة جملة^(١) ﴿فقد سألوا

مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ
الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَأَتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٥٤﴾
وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ

موسى أكبر من ذلك ﴿فهل آمنوا بموسى ﷺ﴾ لما آتاهم الكتاب من السماء؟ كلا بل سألوه شيئاً أكبر من ذلك ﴿فقالوا﴾ له ﷺ : ﴿أرنا الله جهرة﴾ حتى نشاهده بأعيننا ﴿فأخذتهم الصاعقة بـ﴾ سبب ﴿ظلمهم﴾ وتجرؤهم على ساحة قدس الله وجلاله، فقد جاءت صاعقة وأماتهم جميعاً - كما تقدم في سورة البقرة (١) - ﴿ثم اتخذوا العجل﴾ إلهاً عبده من دون الله سبحانه ﴿من بعد ما جاءتهم البينات﴾ أي الأدلة الواضحة على الربوبية والنبوة، من نجاتهم من بني إسرائيل، وتفريق البحر لهم، وما رأوا من معجزات العصا وغير ذلك ﴿فعفونا عن ذلك﴾ بما تقدم في سورة البقرة من أمرهم بقتل بعضهم بعضاً، ولكن لم ينفعهم ذلك أيضاً بل بقوا معاندين قساة جفاة ﴿وأتينا موسى﴾ أي أعطيناه ﴿سلطاناً مبيناً﴾ أي حجة واضحة تبين صدقه ونبوته، ومع ذلك لم يؤمنوا.

[١٥٥] ﴿ورفعنا فوقهم الطور﴾ أي جبل الطور حيث اقتلع جزء منه وُرفِع فوق رؤوس بني إسرائيل تخويفاً لهم حتى يأخذوا الأحكام ويقبلوا التعاليم ﴿بـ﴾ سبب ﴿ميثاقهم﴾ أي عهدهم، ولعل المراد: حين إرادة

وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ
وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٥٥﴾ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِّيثَقَهُمْ وَكُفِّرِهِمْ
بَيَّأْتِ اللَّهُ وَقَلِيلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ

=====

أخذ الميثاق منهم ﴿وقلنا لهم ادخلوا الباب﴾ أي باب القرية ﴿سجدا﴾ أي في حال السجود، اسجدوا وادخلوا الباب ﴿وقلنا لهم لا تعدوا﴾ أي تعتدوا ﴿في السبت﴾ باصطياد السمك، فقد كان ذلك محرماً عليهم ﴿وأخذنا منهم﴾ أي من أهل الكتاب المتقدم ذكرهم ﴿ميثاقاً غليظاً﴾ أي عهداً أكيداً بأن يسمعوا الأوامر وينزجروا عن النواهي. وقد تقدم بعض الكلام حول الأمور المذكورة في سورة البقرة.

[١٥٦] ثم ذكر سبحانه أن اليهود بأعمالهم القبيحة استحقوا عقاب الدنيا وعقاب الآخرة أما عقاب الدنيا فتحريم الطيبات عليهم وأما عقاب الآخرة فالنار المهيأة لهم، فقوله سبحانه: «فبما نقضهم.. إلى آخر الآيات» متعلق بقوله: «حرمنا عليهم طيبات أحلت..» ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ أي بسبب نقض اليهود معاهدتهم مع الله بأن يعملوا بكل ما في التوراة من الأحكام فإنهم لم يعملوا بغالب أحكامها أصولاً وفروعاً ﴿وكفرهم بآيات الله﴾ التي أقامها على صدق أنبيائه ككفرهم بأدلة نبوة عيسى ﷺ ﴿وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾ فإنهم كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً يقتلون وفريقاً يكذبون وكلمة «بغير حق» للتوضيح للتأكيد إذ قتل الأنبياء لا يكون بالحق أبداً ﴿و﴾ بسبب ﴿قولهم قلوبنا غلف﴾ جمع «أغلف» أي في غلاف من دعوتك يا محمد، فلا نفهم ما تقول، كالشيء المغلف الذي لا يصل إليه شيء من الخارج، فقد كانوا

بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٦﴾
وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴿١٥٧﴾

يقولون ذلك للرسول ﷺ حتى لا يدعوهم إلى الهدى. ثم جاء سبحانه بجملة معترضة في الكلام رداً لقولهم «قلوبنا غلف» بقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فإن الإنسان إذا رأى الحق فأنكره وتكرر منه العصيان يكون قلبه في معزل عن الحق، وصار الإنكار كالملكة له فإنه يعرف الحق كلما رآه لكنه ينكره، لا لأنه لا يرى الحق - لأن قلبه في غلاف - وعلى هذا يكون معنى بكفرهم: لسبب كفرهم ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إذ قلماً يرتدع من صار الإنكار ملكة له بسبب غيه وضلاله، ثم إن نسبة الطبع إلى الله تعالى إما حقيقة لأنه خلق القلب كذلك، بحيث يصير الأمر المتكرر ملكة له، وإما مجازاً يراد بذلك: تركهم وشأنهم.

[١٥٧] ﴿وَبِ﴾ سبب ﴿كُفْرِهِمْ﴾ بعيسى المسيح ﷺ أو المراد: الكفر المطلق، كرّر تأكيداً أو هو إرهاب لقوله «وقولهم على مريم» يريد بذلك أنهم صاروا كفاراً بسبب هذه التهمة لعظمتها ﴿وقولهم على مريم﴾ الصديقة المعصومة أم المسيح ﷺ ﴿بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ حيث نسبوها إلى الزنا لما ولد عيسى ﷺ منها من غير أب.

عن «الكلبي» أن عيسى ﷺ مر برهط فقال بعضهم لبعض: جاءكم الساحر ابن الساحرة. فقفوه بأمه فسمع ذلك عيسى فقال: اللهم أنت ربي ولم آتهم من تلقاء نفسي، اللهم العن من سبني وسب والدتي فاستجاب الله دعوته فمسخهم خنازير^(١).

وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٨﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ

[١٥٨] ﴿و﴾ بسبب ﴿قولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم﴾ وهذا القول موجب لسخط الله تعالى لأنه ﷺ رسوله، وقوله: ﴿رسول الله﴾ إما قول اليهود على وجه الاستهزاء، وإما قول الله تعالى، فليس «مقول قولهم» وإما أنه اعتراف منهم بأنه الرسول، كما اعترف أهل الكوفة بأن الحسين إمام وقتلوه لهوى النفس. ثم ردهم الله سبحانه بقوله: ﴿وما قتلوه وما صلبوه﴾ لأنهم كانوا يقولون: قتلناه صلباً ﴿ولكن شبه لهم﴾ بأن ألقى الله شبه عيسى على بعض اليهود، فقتلوا ذلك الشبيه لعيسى ﷺ لا أنهم قتلوا نفس المسيح ﴿وإن الذين اختلفوا فيه﴾ أي في المسيح ﷺ هل أنه قتل أم لم يقتل؟ ﴿لفي شك منه﴾ فإنهم صاروا فريقين: قسم يقولون قتلناه، وقسم يقولون لم نقتله وإنما قتلنا شبيهاً له، ولم يكن قولهم عن يقين وإنما عن شك وتردد ﴿ما لهم به﴾ أي لهؤلاء القائلين بقتله ﴿من علم إلا اتباع الظن﴾ هذا الاستثناء منقطع، فإنه كثيراً ما يُستثنى من أصل الكلام لا من قيوده، فكأنه قال هنا: «ما لهم من حالة نفسية حول هذا الموضوع إلا اتباع الظن» فمن يقول قتلناه يظن ذلك لا أنه يستيقن. ولا يخفى أن الشك بمعناه اللغوي يلائم الظن، وليس الشك بمعنى تساوي الطرفين حتى ينافي الظن الذي بمعنى ترجيح أحد الطرفين. ﴿وما قتلوه يقيناً﴾ أي: باليقين والقطع لم يقتلوا عيسى.

[١٥٩] ﴿بل رفعه الله إليه﴾ أي إلى محل تشريفه وهو السماء، فإنه قد ثبت

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٩﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا
لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٦٠﴾
فِيُظْلَمُ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا

في علم الكلام أنه سبحانه لا محل له . ثم إن رفعه له إلى السماء يمكن أن يكون في بعض الكواكب فإنها - كما في الحديث - «مدن كمدنكم»^(١) ﴿وكان الله عزيزاً﴾ ذا عزة وسلطة يتمكن مما أراد وأمر ﴿حكيماً﴾ يضع الأشياء مواضعها وتقديراته عن حكمة وبصيرة .

[١٦٠] ﴿وإن من أهل الكتاب﴾ أي ما من أحد من أهل الكتاب من اليهود ﴿إلا ليؤمنن به﴾ أي بالمسيح ﷺ ﴿قبل موته﴾ أي قبل موت المسيح ﷺ ينزل من السماء ويصلي خلف الإمام المهدي ﷺ فيؤمن به كل يهودي^(٢) . ومن المعلوم أن المراد بكل يهودي من كان في ذلك الوقت ، لا كل يهود العالم الذين ماتوا من قبل . وهذه العبارة عرفية فيقال : يعرف أهل البلد الفلاني جميعهم حتى إذا خرجت منها ، يريد بذلك : من كان منهم فيها ، لا كل من مات أو خرج قبل رحلته ﴿ويوم القيامة يكون﴾ المسيح ﷺ ﴿عليهم﴾ أي على اليهود ﴿شهداء﴾ بأنه قد بلغ رسالات ربه ، وأنهم آذوه وطردهوه ولم يقبلوا منه .

وهناك احتمال أن يعود الضمير «به» إلى محمد ﷺ الذي هو محل البعث مع الكفار ، وضمير «موته» إلى الكتابي ، أي كل كتابي يؤمن بالرسول قبل أن يموت حين الاحتضار حيث ينكشف له الواقع .

[١٦١] ولما ذكر سبحانه اليهود قال : ﴿فبظلم من الذين هادوا﴾ أي بسبب

(١) بحار الانوار : ج ٢ ص ٢١٩ .

(٢) العمدة : ص ٤٣٨ .

حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 كَثِيرًا ﴿١٦١﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ النَّاسِ
 بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦٢﴾

ظلم اليهود لأنبيائهم ولأنفسهم ولغيرهم. بما تقدم من أقسام الظلم
 ﴿حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ فقد أحل قسم من الطيبات
 لهم، لكنهم لما ظلموا حرّم عليهم تلك الطيبات جزاءً على
 أعمالهم. والمحرمات هي ما بُيّن في قوله تعالى: (وَعَلَى الَّذِينَ
 هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ ..) ^(١)، ﴿وبصدهم﴾
 أي بمنعهم ﴿عن سبيل الله كثيراً﴾ عطف على قوله: «فبظلم»
 فإنهم كانوا يصدون عن سبيل الله ويمنعون الناس عن التدين بدين
 المسيح ومحمد ﷺ كما كانوا يحرفون التوراة حسب رغباتهم
 وأهوائهم.

[١٦٢] ﴿و﴾ بـ ﴿أخذهم الربا﴾ وهو أخذ الزيادة من المُقترض، فقد كان
 حراماً حتى في شريعتهم ولكنهم لم يكونوا يأبهُون بالشرعية ﴿وقد
 نهوا عنه﴾ أي والحال أنهم كانوا قد نهوا عن أخذ الربا ﴿و﴾
 بـ ﴿أكلهم أموال الناس بالباطل﴾ فقد كانوا يأخذون الرشوة في الحكم
 ويسيطرون على أموال الآخرين بالمكر أو القوة ﴿وأعتدنا للكافرين
 منهم﴾ الذين لم يؤمنوا بالرسول ﷺ ﴿عذاباً أليماً﴾ يؤلم أجسامهم
 وأرواحهم.

[١٦٣] ولما ذكر سبحانه «للكافرين منهم» فهم أن بعضهم ليس كذلك، وقد

لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ

=====

بَيِّنْ ذَلِكَ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ﴾ كَعَبْدِ اللَّهِ بِنِ سَلَامٍ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ رَسَخُوا فِي الْعِلْمِ وَثَبَتُوا فِيهِ وَعَرَفُوا الْعِلْمَ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ يَعْنِي أَصْحَابَ الرِّسُولِ ﷺ، وَالْمَحْتَمَلُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِمْ: الْمُؤْمِنُونَ بِمُوسَى حَقِيقَةً، مُقَابِلَ سَائِرِ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانَ إِيْمَانُهُمْ مُزَيِّفًا كَاذِبًا ﴿يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يَا رَسُولَ اللَّهِ مِنَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ مِنْ كِتَابِ مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِخِلَافِ الْيَهُودِ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا إِطْلَاقًا، وَكَانَ إِيْمَانُهُمْ بِالتَّوْرَةِ كَذِبًا، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا)^(١).

وَهُنَا قَدْ يَتَسَاءَلُ الْبَعْضُ: أَنَّ الْيَهُودَ إِنْ كَانَ فِي طَبِيعَتِهِمُ الْانْحِرَافُ كَمَا هُوَ الْمَشْهُورُ بَيْنَ النَّاسِ وَالظَّاهِرُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: (فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً)^(٢) وَقَوْلِهِ: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ)^(٣) وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مَعَ أَنْبِيَائِهِمْ وَبِالْأَخْصِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَكَيْفَ يُمْكِنُ لَهُمُ التَّخَلِّيُّ عَنْ هَذِهِ الطَّبِيعَةِ؟ وَكَيْفَ يَقْبَلُونَ بِالْإِسْلَامِ إِذَا أَسْلَمُوا؟ وَكَيْفَ يُمَكِّنُ التَّفْرِيقَ بَيْنَ مَنْ كَفَرَ مِنْهُمْ وَبَيْنَ مَنْ قَالَ سُبْحَانَهُ عَنْهُ «لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ..»؟

وَالْجَوَابُ: أَنَّ الْيَهُودَ لَهُمْ جِهَتَانِ انْحِرَافٍ: الْأُولَى طَبِيعَتُهُمُ الْمَتَحَجَّرَةُ، وَالثَّانِيَةُ دِينُهُمُ الْبَاطِلُ الَّذِي يَأْمُرُهُمْ بِكُلِّ مَنْكَرٍ، وَتَقَالِيدُهُمْ

(٣) المائدة: ٨٣ .

(١) الجمعة: ٦ .

(٢) البقرة: ٧٥ .

وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

البالية السخيفة. ومن المعلوم أن اليهودي إذا أسلم رُوضت طبيعته وصُقلت بالإسلام، كالجبان الذي يشجع نفسه حتى تصبح له ملكة الشجاعة، والفاسق الذي يسلك الصلاح حتى تحصل له ملكة العدالة. وكذلك تذهب تقاليده ودينه المُحرّف فلا يكون حافز له على الإجرام والرذيلة، بالإضافة إلى أن الانحراف ليس من طبيعة الكل مطلقاً بل الأغلب، كما لا يخفى.

﴿والمقيمِينَ الصلاة﴾ عطف على «الراسخون» أي الذين يقيمون الصلاة من اليهود فإن لكل دين صلاة، وإنما عطف بالنصب والقاعدة الرفع أي «المقيمون» لأنه نصب على المدح، وهذا تفتن في الكلام لإزالة الضجر النفسي الذي يحصل من سبك واحد. وقد كانت إقامة الصلاة الدائمة من أقوى العوامل للإيمان بالرسول ﷺ لأنها مذكورة مستمرة توجب ملكة طيبة ﴿والمؤتون الزكاة﴾ فقد كان كل دين يأمر بالزكاة بمعناها الأعم ﴿والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ إيماناً حقيقياً لا صورياً. كما كان عند غالب اليهود - ﴿أولئك﴾ المتصفون بهذه الصفات ﴿سنؤتيهم﴾ في الآخرة ﴿أجراً عظيماً﴾ في جنات النعيم التي فيها ما تشتهي الأنفس وتلد الأعين وهم فيها خالدون.

ويمكن أن يكون الكلام من قوله: «والمقيمِينَ» استثناءً إلى أن الراسخين في العلم من اليهود والمؤمنين الذين يقيمون الصلاة - من المسلمين - أولئك نعطيهم الأجر العظيم، فلا يكون «المقيمِينَ» إلخ من صفات اليهود الراسخين في العلم، وربما يؤيد هذا الوجه نصب

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ
وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ
وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٤﴾

=====

«المقيمين» كأنه أراد بيان الانقطاع عما قبله وأنه في حكم الضمير في
«سنؤتيهم» أي سنؤتي المقيمين . . سنؤتيهم أجراً عظيماً، كباب
الاشتغال .

[١٦٤] ثم ذكر سبحانه أن مجادلات اليهود باطلة وأن الرسول ﷺ أوحى
إليه كما أوحى من قبله إلى سائر الأنبياء، وقولهم بإنزال الكتاب عليهم
بحيث قد كثر في الأنبياء السابقين من أوحى إليه، قال تعالى: ﴿إِنَّا
أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا رسول الله «الوحي» هو الإلقاء في القلب بواسطة
ملك، أو ابتداء بدون ملك في اليقظة أو المنام ﴿كما أوحينا إلى نوح
والنبيين من بعده﴾ أي من بعد نوح ﷺ . ثم ذكر بعض الأنبياء بالاسم
تعظيماً وإن كانوا داخلين في عموم النبيين ﴿وأوحينا إلى إبراهيم
وإسماعيل وإسحاق﴾ وقدم إسماعيل لأنه أرفع شأنًا في الإيمان، وإن
كان الثاني أكبر سنًا - كما هو المشهور - ﴿ويعقوب﴾ وهو حفيد إبراهيم
ابن إسحاق جد اليهود، كما أن إسماعيل جد الرسول ﷺ
﴿والأسباط﴾ أي: الأنبياء المبعوثون من أولاد يعقوب، ويُسَمَّونَ
الأسباط لأنهم أحفاد يعقوب كيوسف وغيره ﷺ ﴿وعيسى وأيوب
ويونس وهارون وسليمان﴾ ولم يذكر موسى ﷺ لأنه نزل عليه الكتاب
من السماء الذي كان محل احتجاج اليهود - كما تقدم - ﴿وأتينَا داود
زبوراً﴾ جمع «زُبر» أي شيئاً فشيئاً، ولم ننزل على هؤلاء الأنبياء كتاباً

وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ
عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١٦٥﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ
وَمُنْذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ
وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٦﴾

كاملاً بل إما وحياً وإما جزءاً، كداود عليه السلام .

[١٦٥] ﴿و﴾ أرسلنا ﴿رسلاً﴾ بالوحي إليهم ﴿قد قصصناهم عليك﴾
كيونس عليه السلام ﴿من قبل﴾ في سائر القرآن ﴿ورسلاً لم نقصصهم عليك﴾
فقد كان عدد الأنبياء - على المشهور - مائة وأربعة وعشرين ألفاً^(١)
﴿وكلم الله موسى تكليماً﴾ فلم يكن كل ما أتاه بشكل الكتاب،
فموسى عليه السلام الذي هو محل احتجاج اليهود كان الله قد كلمه، والكلام
قسم من الوحي، ولا يخفى أن كلام الله سبحانه إنما هو بخلق الصوت
في الفضاء لأنه سبحانه منزّه عن الجسمية ولوازمها.

[١٦٦] ﴿رسلاً مبشرين﴾ لمن آمن وأطاع بالثواب ﴿ومنذرين﴾ لمن كفر
وعصى بالعقاب ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد﴾ إرسال
﴿الرسل﴾ بل لله الحجة البالغة، والمراد بالناس الغالب لا الكل إذ
بعضهم لم تدركه الدعوة كما هو معلوم بالضرورة، وصرحت بذلك
بعض الأحاديث ﴿وكان الله عزيزاً﴾ مقتدراً للعقاب والثواب
﴿حكيماً﴾ يفعل الأفعال عن مصلحة وحكمة.

[١٦٧] إن اليهود إن لم يشهدوا لك يا رسول الله بالنبوة بحجة مختلقة

لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ
وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا
﴿١٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا

﴿لكن الله يشهد بما أنزل إليك﴾ وشهادة الله هي إجراء المعجزة على يد الرسول ولا يكون ذلك إلا لله وحده، والفرق بين السحر والمعجزة أن السحر يوصل بالأسباب إلى مسبباتها ولو كانت الأسباب ختوماً وأوراداً، والمعجزة خرق لنواميس الطبيعة بمجرد إرادة الرسول ومن آتاه الله ذلك. ولا يفرق بين الأمرين إلا أهل المعرفة، فالرسول يتمكن من إحياء الميت بينما لا يتمكن الساحر من ذلك وهكذا. ﴿أنزله بعلمه﴾ أي بعلمه أنك أهل للنبوة، أو أنزله مقترناً بالعلم الذي من لدنه، أو أن الإنزال كان معلوماً لله تعالى لا كما يأمر الأمر وهو غافل أو جاهل أو ناس أو ساء، والأول أقرب ﴿والملائكة يشهدون﴾ بما أنزل إليك، ولعل ذكر الملائكة تشريعي، أي بشهادة واقعية وإن لم يكن لها أثر، أو أن الأثر نصره الملائكة كما رأوا في يوم بدر وكما ظهر بعض الآثار لنزول الملائكة ﴿وكفى بالله شهيداً﴾ يشهد بأنك رسوله.

[١٦٨] ثم ذكر سبحانه جزاء الكافرين بالرسول بقوله تعالى: ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله﴾ أي منعوا الناس عن الإيمان ومنعوا الإسلام عن التقدم ﴿قد ضلوا﴾ طريق الحق ﴿ضلالاً بعيداً﴾ متباعداً عن الطريق السوي.

[١٦٩] ﴿إن الذين كفروا﴾ بالله ورسوله وما جاءوا به ﴿وظلموا﴾ أنفسهم

لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٩﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٧٠﴾ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ

=====

بالعصيان والناس بالحرمان عن طريق الهداية ﴿لم يكن الله ليغفر لهم﴾ إذا ماتوا على الكفر، كما يظهر القيد من سائر الآيات ﴿ولا ليهديهم طريقاً﴾ والمراد طريق الجنة.

[١٧٠] ﴿إلا طريق جهنم﴾ جزاء لما فعلوا من الكفر والظلم ﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا زوال للعذاب ولا انقطاع. وقد يتساءل البعض: ولِمَ العذاب الدائم مقابل العمل الذي كانت له مدة محدودة له؟ والجواب: أن العذاب للشر الكامن الذي كان له مظهر، وذلك باقٍ أبداً، ولذا قال سبحانه: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾^(١)، ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ لقدرته الكاملة وسلطانه المطلق.

[١٧١] ثم خاطب سبحانه جميع الناس بوجوب الإيمان والتنكب عن طريق الكفر بقوله: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم الرسول﴾ محمد ﷺ ﴿بالحق﴾ أي مجيئه بالحق، أو بالدين الذي ارتضاه الله لعباده ﴿من ربكم﴾ أي من طرفه وجانبه، فربكم هو الباعث له. وفيه تأكيد لوجوب القبول ﴿فآمنوا﴾ بما أتى به من الأصول، وأتوا ﴿خيراً لكم﴾ أي خيراً تعود فائدته إلى أنفسكم ﴿وإن تكفروا﴾ فلا تظنوا أن ذلك يضر الله تعالى ﴿فإن لله ما في السماوات

وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيًّا حَكِيمًا ﴿١٧١﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا
تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا
الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ

والأرض ﴿ فلا ينقصه كفركم شيئاً ﴾ وكان الله عليماً ﴿ بمصالحكم
ومفاسدكم، فالرسول آتٍ بما هو الصلاح لكم ﴾ ﴿حكيماً﴾ في أمره
ونهيهِ وتديبره وتقديره.

[١٧٢] ثم توجه السياق إلى أهل الكتاب الذين تقدم الكلام عنهم، لكن هنا
يراد بهم النصارى فقط، فقال سبحانه: ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في
دينكم﴾ الغلو: هو مجاوزة الحد والارتفاع، ومنه «غلا في دينه» أي
تجاوز الحد إلى الارتفاع، فقد كان المسيحيون يقولون بتعدد الآلهة:
الأب والابن وروح القدس، ويريدون بالأول هو الله، وبالثاني
المسيح، وبالثالث جبرائيل عليه السلام ﴿ولا تقولوا على الله﴾ أي لا تفتروا
على الله بأن تقولوا: إن الله أمرنا بعبادة آلهة ثلاثة، أو المعنى: لا تقولوا
بالنسبة إلى الله ما ينافي عظمته من قولكم إن له شريكاً ﴿إلا الحق﴾
وهو أنه لا شريك له ولم يأمر إلا بذلك ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم
رسول الله﴾ قيل: إنما سمي بالمسيح لأنه كان يمسح الأرض ويسيح
في البلاد، و«عيسى ابن مريم» بيان لقوله «المسيح» يعني أنه ابن مريم،
لا أنه ابن الله، و«رسول الله» خبر لقوله «المسيح» ﴿وكلمته﴾ أي كلمة
الله، وهذا تشبيه، فكما أن المتكلم إذا قال القول، حدث منه في
الخارج شبه إلقاء، كذلك الله سبحانه يُلقِي الأشياء إلى الخارج فهي
كلماته، ولذا يقال للمخلوقات «كلمات الله» و«إنما» هنا للحصر
الإضافي مقابل النبوة والألوهية.

لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧٣﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ

=====

الناس - إذا أراد تشریفهم - : «فلان ولدي» فإن ذلك لا يجوز بالنسبة إلى الله سبحانه إذ شؤونه كلها توقيفية، فقد أذن أن يقال : «فلان خليله» ولم يأذن أن يقال : «ابنه أو ولده». والمراد بالآية هو المعنى الأول.

﴿له﴾ أي الله تعالى ﴿ما في السماوات وما في الأرض﴾ ومن يكون كل شيء ملكه، لا يمكن أن يكون شيء ولدًا له، إذ الولد من جنس الوالد، وهو جسم فعلٌ لله فليس له نظير ولا شبيه ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ للرسول ﷺ في نفاذ أمره، وهو وعيد للقائلين بالتثليث.

[١٧٣] ثم ذكر سبحانه أن المسيح ﷺ يعترف بأنه عبد الله فلم يقل هو لاء بأنه ابن الله أو شريك الله؟ ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾ أي لن يأنف عيسى ﷺ ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ بل اعترف هو ﷺ حين ولادته بذلك (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا)^(١)، ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ الذين قربهم سبحانه من ساحة لطفه. ولعل هذا إشارة إلى رد من زعم أنهم أولاد الله كما حكى سبحانه بقوله : (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً)^(٢)، ﴿ومَنْ يَسْتَنْكِفْ﴾ يأنف ويمتنع ﴿عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ فيرى نفسه أكبر وأعظم من أن يعترف لله بالعبودية

(١) مريم : ٣١ .

(٢) الزخرف : ٢٠ .

فَسِيحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٣﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ؕ وَأَمَّا
 الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا
 يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٤﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ
 جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٥﴾

﴿فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ الحشر هو الجمع ، أي يجمعهم يوم القيامة
 جميعاً ليُجازيهم باستكبارهم . و«إليه» ليس للمكان لأنه سبحانه منزّه
 عنه ، بل المراد : المحل المُعدّ لقضائه وجزائه .

[١٧٤] ﴿فأما الذين آمنوا﴾ إيماناً صحيحاً ﴿وعملوا الصالحات﴾ أي
 الأعمال الصالحات ﴿فيوفيهم﴾ أي يعطيهم عطاءً كاملاً تاماً
 ﴿أجورهم﴾ التي وعد الله لهم ﴿ويزيدهم من فضله﴾ أي يزيدهم
 على ما كان قد وعدهم به من الجزاء على أعمالهم الحسنة تفضلاً
 منه وكرماً ﴿وأما الذين استنكفوا واستكبروا﴾ عن عبادته وطاعته
 ﴿فيُعذبهم عذاباً أليماً﴾ أي مؤلماً ﴿ولا يجدون لهم من دون الله
 ولياً﴾ يتولى أمورهم ويُنجيهم من عذاب الله ﴿ولا نصيراً﴾
 ينصرهم .

[١٧٥] ﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم﴾ أي حجة ودليل يدلّكم
 على الحق ﴿وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً﴾ أي نوراً واضحاً وهو القرآن ،
 فكما أن النور يهدي الإنسان إلى طريقه في ظلمات الليل ونحوه ،
 كذلك القرآن يهدي الإنسان إلى طريقه في ظلمات الحياة ، وبهذا

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي
رَحْمَةِ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٦﴾
يَسْتَفْتُونَكَ

المعنى يعني (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)^(١) .

[١٧٦] ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ إيماناً صحيحاً كما أمر العقل والشرع
﴿واعتصموا به﴾ أي تمسكوا بالله في أمورهم، أو أن الضمير «به»
يرجع إلى النور ﴿فسيدخلهم﴾ يوم القيامة ﴿في رحمة منه﴾ سبحانه
يرحمهم بها ويفضل عليهم بالجنة ﴿وفضل﴾ أي زيادة على ما استحقوا
﴿ويهديهم إليه﴾ أي يرشدهم إلى نفسه، كما قال سبحانه : (وَالَّذِينَ
اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى)^(٢) ، ﴿صراطاً مستقيماً﴾ أي جادة مستقيمة، فهم
يصلون إلى الحقائق والسعادة في صراط مستقيم، حيث أنهم اتبعوا
الدعوة ولتبوا الداعي. ومفهوم الآية : أن الذين كفروا بالله واعتصموا
بسواه فسيدخلهم جهنم كلما خبت زنادهم سعيراً ويضلهم ضلالاً
بعيداً. وما في بعض الأخبار من تفسير «النور» بأمر المؤمنين والأئمة
الطاهرين عليهم السلام فإن ذلك من باب أظهر المصاديق، كما قد تكرر بيانه .

[١٧٧] في حديث أن جابر بن عبد الله الأنصاري كان مريضاً فعاده رسول
الله ﷺ فسأل الرسول ﷺ قائلاً : إن لي كلاله - أي أخوات - فكيف
أصنع في مالي بالنسبة إلى ميراثهن؟ فنزلت الآية^(٣) ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ أي
يطلبون منك الفتوى يا رسول الله، ولهذه الآية ربط بما سبق في حكم

(٣) راجع كتاب فقه القرآن : ج ٢ ص ٣٣٨ .

(١) النور : ٣٦ .

(٢) محمد : ١٨ .

قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ

=====

الكلالة (وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً)^(١)، ﴿قل الله يفتيكم﴾ أي يبين لكم الحكم ﴿في﴾ مسألة ﴿الكلالة إن امرؤا هلك﴾ أي مات، وليس معنى «الهلاك» ما يتبادر غالباً من كونه هلاكاً سيئاً بل مطلقاً، كما قال في قصة يوسف عليه السلام (حَتَّى إِذَا هَلَكَ)^(٢)، ﴿ليس له ولد﴾ ولا أبوان حتى لا يكون هناك من في الطبقة الأولى كما دل عليه النص والإجماع ﴿وله أخت﴾ واحدة ﴿فلها نصف ما ترك﴾ فرضاً، والنصف الآخر رداً ﴿وهو يرثها﴾ أي الأخ يرث الأخت، لو كانت الأخت ميتة والأخ حياً يرث جميع أموالها فرضاً ﴿إن لم يكن لها ولد﴾ ولا والدان، وهذا مع قطع النظر عن الزوجين، وإلا فهما يرثان نصيبهما الأعلى والباقي للكلالة.

﴿فإن كانتا اثنتين﴾ أي كان للرجل الميت أختان ﴿فلهما الثلثان مما ترك﴾ فرضاً والثلث الآخر قرابة ﴿وإن كانوا﴾ أي الكلالة التي تراث الميت ﴿إخوة﴾ أي جماعة أكثر من الاثنين ﴿رجالاً ونساء﴾ بعضهم أخوان وبعضهم أخوات ﴿فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ لكل أنثى سهم واحد ولكل ذكر سهمان اثنان، وهذا كله في الأخوة من الجانبين

(١) النساء: ١٣ .

(٢) غافر: ٣٥ .



سورة المائدة

مدنية - آياتها ١٢١

سميت السورة بالمائدة لاشتغالها على كلمة «المائدة»، وحيث ختمت السورة المقدمة ببيان الحكم بين الميت والحي، تبتدئ هذه السورة ببيان الحكم بين الأحياء، فقال سبحانه:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

[١] ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وقد كان لتكرار البسمة أول كل سورة تعليماً للناس أنهم إذا أرادوا أن يبتدئوا بعمل أن يقولوا هذه الجملة المباركة.

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ
الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ

[٢] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ سبق أن الأحكام عامة، وإنما يُخاطب المؤمنون بها لكونهم المستفيدين منها ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ «الجمع المحلّي بأل» يفيد العموم، أي كل العقود و«عقود» جمع عقد، وهو كل التزام وميثاق بين جانبيين، فتشمل عقود الناس بعضهم مع بعض والمعاهدات الدولية والمواثيق التي بين الله وبين خلقه، وحيث كانت المواثيق بين الله والخلق أولى العهود بالوفاء، ابتدأ بها بقوله سبحانه: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ فإن الحلال والحرام وسائر الأحكام عقود بين الله والخلق، أن يعمل الخلق بالأوامر ويجزيهم الله عوض ذلك الجنة، كما قال سبحانه: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾^(١)، والبهيمة من «الإبهام» يراد بها كل دابة، والأنعام هي الإبل والبقر والغنم وما أشبهها كالظبأ واليحمور، وسميت بهيمة لأنها لا تُمَيِّز، والأنعام من «النعم» لأنها من نعم الله على الخلق، والمراد بـ«الحلية» الحلية ذبحاً وأكلاً وانتفاعاً.

﴿إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ أي يُقرأ عليكم مما هو محرم وهو قوله سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾^(٢)، ﴿غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ حال من «أُحِلَّتْ» أي أن التحليل في حال كونكم لا تحلون الصيد في حال الإحرام، وهذا الحال استثناء يأتي بهذه الصورة كما تقول: «يجوز لك أن تتصرف في أموالك في حال

(١) التوبة: ١١١ .

(٢) المائدة: ٤ .

إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿٢﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ

كونك لا يجوز لك التصرف في النفائس منها» تريد أن الجواز في غيرها ﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ من تحليل وتحريم وسائر الأحكام مما يراه صلاحاً .

[٣] ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ الشعائر جمع شعيرة، وهي الأمر المرتبط بشي كأنه من علائمه ومزاياه، فشعائر الحج: الأمور المرتبطة بالحج، وشعائر الله الأمور المرتبطة بالله، ولعل اشتقاقها من «الشعر» بمعنى ما ينبت من الإنسان، كأن الشعيرة تلازم الشيء تلازم الشعر، أو تلازم الشعار - الذي هو الثوب الذي على الجسد مقابل الدثار الذي هو الثوب الفوقاني - لبدن الإنسان . والشعائر في الآية - لكونها مطلقة - تشمل كل شيء كان أو أصبح من الأمور المرتبطة بالله مما لم ينه عنه، فمعالم الحج من الشعائر، كما أن تشييد القباب على أضرحة الأئمة الطاهرين من الشعائر . والمراد من عدم إحلال الشعائر: خرق حرمان الله .

وقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «نزلت هذه الآية في رجل من بني ربيعة يقال له الحطم، وقيل أنه أتى النبي ﷺ وسأله عن معالم الإيمان، ثم أخبر النبي ﷺ بأنه دخل بوجه كافر وخرج بعقب غادر، ولما وصل إلى سرح ساقه معه بها وأقبل في القابل حاجاً قد قلد هدياً، فلما قصد الرسول ﷺ معاقبته نزلت الآية»^(١) يريد بذلك «آمِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامَ» .

وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَمْثِلَ الْبَيْتِ
الْحَرَامَ يَنْتَفِعُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا

﴿ولا﴾ تحلوا ﴿الشهر الحرام﴾ بأن تقاتلوا فيه، والأشهر الحرم هي: رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم ﴿ولا﴾ تحلوا ﴿الهدي﴾ وهو الشيء الذي يهديه الحاج إلى بيت الله الحرام للذبح من إبل أو بقر أو غنم، والمراد: لا تحولوا دون بلوغ ذلك إلى محله ﴿ولا﴾ تحلوا ﴿القلائد﴾ وهي جمع قلادة، ما يُقلد به الهدى من الإبل، وهو أن يُقلد في عنقها شيء ليُعلم أنه هدي لا يجوز تحليلها إذ بعد تقليدها تكون لله ولا يجوز الرجوع فيها ﴿ولا﴾ تحلوا حال كونكم ﴿أمين البيت الحرام﴾ جمع ﴿أمّ﴾ على وزن ﴿مادّة﴾ من ﴿أمّ﴾ بمعنى قصد أي لا تتعرضوا لمن قصد البيت الحرام لأداء الحج ﴿يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً﴾ أي يطلبون بقصدهم الحج الفضل - أي الزيادة في الثواب أو المال أو غيرهما - من الله ورضاه مقابل من قصد الحج للإفساد فإن صده جائز.

﴿وَإِذَا حُلِلْتُمْ﴾ عن الإحرام ﴿فَاصْطَادُوا﴾ الصيد الذي حرمه الإحرام، والأمر هنا للجواز لأنه في مقام توهم الحظر، وهذا دفع لما تقدم من قوله سبحانه: «غير محلي الصيد وأنتم حرم» فقد كان السياق لبيان المحرمات، ولذا أتت الآية الثانية لبيان سائر المحرمات مما أشير إلى بعضها في الآية الأولى وهو «غير محلي الصيد».

ثم إنه لما أنهى سبحانه عن تحليل تلك الحرمات، بين أن هذه الحرمات لا فرق فيها بين من اعتدى عليكم وبين من لم يعتد عليكم،

وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا نَعَاوَنُوا
عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٣﴾
حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ

=====

بقوله: ﴿ولا يجرمَنَّكم﴾ أي لا يحملنَّكم من «جرمني فلان على أن صنعت كذا» أي حملني ﴿شَنَاٰنُ﴾ أي بغضاء وعداوة ﴿قَوْمٍ﴾ لكم ﴿أن صدوكم عن المسجد الحرام﴾ أي منعوكم عنه كما في عام الحديبية .

﴿أن تعتدوا﴾ عليهم بتحليل المحرمات المذكورة بالنسبة إليهم ﴿وتعاونوا﴾ أيها المسلمون ﴿على البر﴾ أي الخير واجباً كان أو غير واجب ﴿والتقوى﴾ وهو اجتناب المحرمات ، بأن يُعين بعضكم بعضاً في الأعمال الخيرية وترك الآثام ﴿ولا تعاونوا﴾ أيها المسلمون ﴿على الإثم﴾ فإذا أراد أحد منكم أن يعمل إثماً فلا تُعينوه ﴿والعدوان﴾ أي الظلم والتعدي ، وهذا مرتبط بقوله : ﴿أن تعتدوا﴾ فقد جرت العادة أن يتعاون الناس على الإثم والظلم ، ولذا نهى الله المسلمين عنه ﴿واتقوا الله﴾ اجتنبوا مخالفته وعصيانَه ﴿إن الله شديد العقاب﴾ لمن خالفه وعصاه .

[٤] وفي سياق المحرمات المرتبطة بالحج - غالباً - ذكر سبحانه قسماً آخر من المحرمات وهو ما استثناه سبحانه في الآية السابقة بقوله : «إلا ما يتلى عليكم» فقال : ﴿حرمت عليكم﴾ أيها المسلمون ﴿الميتة﴾ وهي التي لم تمت بسبب شرعي من ذبح ونحر وغيره ، وذلك مختلف ففي

وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ

=====

الأنعام مثلاً تحتاج التذكية إلى فري الأوداج وسائر الشرائط، وفي الصيد رميه، وفي السمك موته خارج الماء، وهكذا.. والمراد بالتحريم: أكلها، فإن التحريم الشرعي يراد منه: بحسب الأمر المتوقع منه، فتحريم الحرير يراد به لبسه، وتحريم الأم يراد به اقترابها، وتحريم المسكن يراد به سكناه ﴿والدم﴾ وهو ما بينه سبحانه في آية أخرى بقوله: (دَمًا مَسْفُوحًا)^(١)، أما المقدار المتبقي في اللحم فلا حرمة فيه ﴿ولحم الخنزير﴾ وخُصص بالذكر مع كثرة تحريم اللحوم لاعتياد الناس أكله وظنهم طيبه.

ثم لا يخفى أن المحرمات تنقسم إلى قسمين: قسم لما فيه من الأضرار.

أما ما يذكره بعض الناس - الآن من العلم الحديث - من إمكان التخلص من أضرار لحم الخنزير بالتعقيم، فليس بمحرم إذا عُمِّم. فالجواب عنه: أنه أي دليل لعدم وجود أضرار أخرى فيه بعد التعقيم لم يكشف عنها العلم إلى الآن، كما لم يهتد العلم طيلة أربعة عشر قرناً لهذا الضرر الذي اكتشف الآن.

وقسم حرم لجهة معنوية، كالذي لم يُسمَّ عليه اسم الله سبحانه، وهذا لا يتوقف تحريمه على الضرر الجسدي بل يحرم لانحرافه عن الميزان المستقيم.

﴿وما أهل لغير الله﴾ الإهلال بالشيء الابتداء به ﴿به﴾ أي

وَالْمُنْحَقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ
إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا

الذبيحة التي ذكر اسم غير الله عليها عند الذبح - كما تقدم في سورة البقرة^(١) ﴿وَالْمُنْحَقَةُ﴾ وهي ما خُنقت بأي نحو كان ﴿وَالْمَوْقُوذَةُ﴾ الوقذ هو الضرب، أي التي ضربت حتى ماتت ﴿وَالْمُتَرَدِّيَةُ﴾ التردي: الوقوع من مكان عال، والمراد بها: التي وقعت من مكان عال فماتت، وقد كان أهل الجاهلية يقتلون الحيوان بهذه الكيفيات ﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ وهي التي ينطحها غيرها فتموت ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ فريسة السبع: وهي التي أكل الحيوان المفترس بعضها وأبقى بعضاً، فإنه يحرم أكل الباقي ﴿إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ﴾ التذكية لغة هي «تمام الشيء» والمراد بها هنا: تحليل الحيوان بإجراء السنن الشرعية عليه من كون الذابح مسلماً، والتوجه إلى القبلة بالذبيحة، وكون آلة التذكية من حديد، وذكر الله حالة الذبح، وفري الأوداج الأربعة، والمراد: الاستثناء من «ما أكل السبع» وإن كان الحكم عاماً أي أنه لو أدركتم ما أكله السبع فذكيتموه فهو حلال.

وإدراكها ما عن الباقرين عليه السلام حيث قالوا: «إن أدنى ما يدرك به الذكاة أن تدركه يتحرك أذنه أو ذنبه أو تطرف عينه»^(٢).

﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ جمع «نصاب» وهي الحجارة التي كانوا يعبدونها، أي التي تذبح باسم الأوثان تقريباً إليها ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا

(١) البقرة: ١٧٤.

(٢) بحار الأنوار: ج ٦٢ ص ١٠٧.

بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمَ يَسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ

=====

بالأزلام﴾ الاستقسام طلب القسمة، والأزلام جمع «زلم» وهو القدح أي السهام، فقد كان أهل الجاهلية يشترون جزوراً ثم يكتبون على سهام عشرة أسماء خاصة، فليسهم حصّة واحدة، وليسهم حصتان، وهكذا إلى سبعة حصص، ويتركون ثلاثة أسهم لا حصّة لها، ثم يجتمعون عشرة أشخاص فيخرج سهم باسم شخص ويعطى بمقدار حصّة السهم لذلك الشخص وهكذا. . بعدما كانوا يقسمون الجذور ثمانية وعشرين قسماً، أما ثمن الجزور فقد كان على من يخرج باسم السهام التي لا حصّة لها. وهذا نوع من القمار فحرمه الإسلام.

﴿ذلكم﴾ أي الاستقسام بالأزلام أو جميع ما سبق من المحرمات، إتيانها ﴿فسق﴾ والفسق هو الخروج عن الطاعة وارتكاب المعصية ﴿اليوم يشس الذين كفروا من دينكم﴾ قال في «مجمع البيان»: ليس يريد يوماً بعينه، بل معناه: «الآن يشس الكافرون من دينكم»^(١). وروى القمي: إنه يوم نصب الإمام عليه السلام^(٢) وهذا هو الأوفق بما تواترت به النصوص وذكره المفسرون من شأن نزول آية الإكمال، فقد كان الكفار يترقبون أن يترك الرسول الأمر سدئ حتى إذا قبض ولم يقم له خلف انقضوا على الإسلام يهدمونه، فلما نصب الرسول ﷺ الإمام يشسوا من ذلك حيث كانوا يعلمون كفاية الإمام وقدرته العظيمة، ولذا لما مات الرسول ﷺ وعلم الكفار والمنافقين باغتصاب الخلافة انقضوا على الإسلام يريدون

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ٢٧٣ .

(٢) تفسير القمي: ج ١ ص ١٦٢ .

فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا

=====

اقتلاع جذوره وقد علم الرسول ﷺ ذلك حين وصى الإمام بالصبر وإلا قامت حروب داخلية وخارجية تذهب بالإسلام.

وهنا يتساءل البعض: كيف أن الإمام لما نهض بالأمر نكتت طائفة ومرقت أخرى وقسط آخرون؟ والجواب: أن الظروف التي تقدمت على نهضة الإمام غيّرت معالم الإسلام، ولذا احتاج الإمام إلى إرساء قواعد الدين من جديد، وذلك مما يوجب اضطراباً واختلافاً شأن الأنبياء حين يدعون أممهم إلى الخير، لكن الخطر الخارجي كان حين ذاك بعيداً حيث أن الكفار انكمشوا وقوي الإسلام - ولو الصوري منه - والحروب الداخلية لم تكن تؤثر شيئاً بالنسبة إلى انعكاس كفة الإسلام والكفر، لتميل الكفة الثانية على حساب خفة الكفة الأولى.

﴿فلا تخشوهم﴾ أن يظهروا على دين الإسلام كما كنتم تخشونهم من قبل ﴿واخشون﴾ في أن ترتكبوا العصيان وتخالفوا أمر الله والرسول. ﴿اليوم﴾ أي يوم الغدير ﴿أكملت لكم دينكم﴾ بنصب علي عليه السلام خليفة من بعد الرسول ﷺ ﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ فإن نعمة الإسلام دون نعمة الإيمان بالولاية ناقصة ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ فإن الإسلام ذو درجات، واليوم رقيتم الدرجة القصوى فرضي الله عن المسلمين بالحال التي وصلوا إليها، و«الرضى» هنا ليس في مقابل السخط بل في مقابل النقص الأثري، كما أن من يريد بناء دار إذا بلغ منتصفها يقول: لم أرض بعد، أي لم يكمل رضاي، وإنما يقول: رضيت الآن، إذا تم بناء الدار.

فَمِنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤﴾

=====

وقد كان ذلك عند نصب الرسول للإمام أمير المؤمنين خليفته الرسمي بعد منصرفه من حجة الوداع بمحضر مائه وعشرين ألف من الأصحاب من الرجال والنساء، فصعد المنبر وخطب خطبة طويلة ثم قال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله»^(١) وهو أخذ بكف علي. ونزل عن المنبر وأمر المسلمين أن يسلموا عليه بإمرة المؤمنين، وبقوا هناك ثلاثة أيام حتى تمت البيعة ثم قفلوا راجعين إلى المدينة.

﴿فمن اضطر﴾ إلى أكل المحرمات المذكورة ﴿في مخمصة﴾ وهي «القحط» يسمى بذلك لإيجابه خمص البطون جوعاً ﴿غير متجانف﴾ أي في حال كون المضطر لم يمل ﴿لإثم﴾ فإن «الجنف» بمعنى الميل، فلا يفرط في الأكل، كأن يكون محتاجاً إلى شرب نصف رطل من الخمر - مثلاً - فيشرب رطلاً، وكذا بالنسبة إلى الميتة وسائر المحرمات ﴿فإن الله غفور﴾ يستر هذه السيئة الذاتية بمعنى عدم العقاب عليها ﴿رحيم﴾ يرحم الناس فلا يجبرهم على الترك حتى عند أشد الضرورات.

[٥] وبعد بيان قسم من المحرمات، يأتي السياق لبيان قسم من المحلات لتتبادل الكفتان، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية: أن النبي ﷺ أمر بقتل الكلاب^(٢)، فسُئل عن الاستثناء، فنزلت الآية تحلل ما يصطاده

(١) الكافي: ج ١ ص ٢٩٥ .

(٢) فقه القرآن: ج ٢ ص ٢٤٥ .

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أَحَلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ

=====

الكلاب المعلمة والتي فيها نفع، ونهت عن إمساك ما لا نفع فيه وأمرت بقتل الكلب العقور وما يضر ويؤذي ﴿يسألونك﴾ يا رسول الله ﴿ماذا أحل لهم﴾ من المأكولات بقرينة السياق ﴿قل﴾ يا رسول الله: ﴿أحل لكم الطيبات﴾ والطيب هو الشيء الذي لا خبث فيه مما لا ينفر منه الطبع، وإذن الشارع في بعض المأكولات دون بعض لهذا الميزان، وإن لم يعرف العرف أن هذا طيب وهذا خبيث، فما أباحه الشارع فهو طيب وإن ظنه العرف خبيثاً، وما حرمه الشارع فهو خبيث وإن ظنه العرف طيباً.

﴿و﴾ أحل لكم صيد ﴿ما علمتم من الجوارح﴾ وحذف المضاف أي «صيد» لدلاله قوله: «مما أمسكن عليكم»، و«الجوارح» جمع جارحة، سمي بذلك الكلب وسائر السباع لأنها تجرح الصيد، ثم خصص سبحانه عموم الجوارح بقوله: ﴿مكلبين﴾ أي في حال كونكم أصحاب كلاب معلّمة، يقال: «كَلَبَ الكلب» إذا علّمه الصيد ﴿تعلمونهن﴾ أي الكلاب الجارحة.

﴿مما علمكم الله﴾ فإن الله قد علمكم تعليمهن، ولعل الإتيان بضمير «هن» الذي هو للمؤنث العاقل لانسجام سياق التعليم والتعلم مع ذلك، وإلا فالقاعدة «تعلموها» كما أن فائدة «مما علمكم الله» لإيقاظ الضمير وتوجيهه إلى الله سبحانه، فإن القرآن الحكيم يربط الأحكام والقصص بذاك الرباط العام وهو معرفة الله وسوق النفس إليه في كل مقام ومناسبة ﴿فكلوا﴾ أيها الصائدون ﴿مما أمسكن﴾ أي

عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ

الْحِسَابِ

=====

حفظن واصطدن تلك الكلاب ﴿عليكم﴾ أي لأجلكم لا لأنفسهن، فإن ذلك حرام ﴿واذكروا اسم الله عليه﴾ أي على «ما أمسكن» حين إرسال الكلب. ولا يخفى أن بهذا القيد أي «مكلبين» خرج صيد سائر الجوارح إذا لم يدرك الإنسان ذكاته.

روى الحضرمي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: سألته عن صيد البزاة والصقور والفهود والكلاب؟ فقال: «لا تأكل إلا ما ذكيت إلا الكلاب». فقلت: فإن قتله؟ قال: «كل»، فإن الله يقول: وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه ثم قال عليه السلام: «كل شيء من السباع تمسك الصيد على نفسها إلا الكلاب المعلمة فإنها تمسك على صاحبها»^(١) وإنما تعدى الإمساك بـ «على» لإفادة الإمساك ثقلًا ومشقة، أو يتضمن معنى «الرد» فالكلب يرد بعض الحيوان لصاحبه وقد أكل بعضه، كما قال سبحانه: (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ)^(٢).

﴿واتقوا الله﴾ فيما أمركم ونهاكم فلا تتناولوا ما حرمه ﴿إن الله سريع الحساب﴾ فإن الإنسان وإن ظنَّ طول المدة في الدنيا وأنه بعيد جزاؤه، لكن لا تمض إلا مدة يسيره وإذا به يرى نفسه أمام الحساب. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فكأنهم لم يكونوا للدنيا عماراً وكأن الآخرة لم تزل لهم داراً»^(٣).

(٣) نهج البلاغة: خطبة ١٨٦ ص ٣٨٥.

(١) وسائل الشيعة ج ٢٣ ص ٣٣٣.

(٢) الأحزاب: ٣٨.

أَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ

[٦] ﴿اليوم﴾ الذي تمّ فيه بيان كل الأحكام، ونوجز المحللات فنقول: ﴿أحل لكم الطيبات﴾ وهذا عام يشمل الطيب من المأكّل والمناخ والمساكن والملابس وغيرها بقرينة «والمحصنات» بخلاف الآية السابقة التي كانت خاصة بالمأكّل بحكم السياق، وهذه الآية تدل على كون الأصل في كل الأشياء الحِلّ إلا ما خُبث، ومن المعلوم أن الخُبث لا يميّز إلا بالشرع أو بالعقل نادراً ﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب﴾ أي الذين أرسل لهم الكتاب السماوي كاليهود والنصارى والمجوس ﴿حل لكم﴾ والطعام إما المراد به الحبوب، كما هو المروي والمتعارف إلى اليوم، فإن كلمة «باعة الأطعمة» أو ما أشبهها تنصرف إلى باعة الحبوب، أو المراد به العام لكل طعام، وقد استثني من ذلك الذبائح، لقوله سبحانه: (وَمَا أَهْلٌ بِهِ لغيرِ الله) ^(١)، وألحق به غيره إجماعاً، كما استثني ما لامسه الكتابي برطوبته لأنهم مشركون لقوله سبحانه: (تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) ^(٢)، وفي آية أخرى حكم بنجاسة المشرك بقوله سبحانه: (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) ^(٣)، وتفصيل البحث في الفقه ^(٤).

وهنا سؤال يفرض نفسه وهو: ما الفائدة من هذا التنصيص والحال أن طعام غير أهل الكتاب حِلٌّ أيضاً؟ والجواب: إنه من باب المورد والقيد الغالب لابتلاء المسلمين به غالباً، كما يدل على ذلك ﴿وطعامكم حل لهم﴾ ومن المعلوم أن طعام المسلم حِلٌّ حتى

(٣) التوبة: ٢٨ .

(٤) موسوعة الفقه: ج ٣ .

(١) البقرة: ١٧٤ .

(٢) الأعراف: ١٩١ .



وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ

للمشرك الوثني، ثم لو قلنا: إن الجملة عامة لكل طعام، فهل معنى حلية طعامنا لهم الحلية بالنسبة إلينا أي أن طعامهم حل لنا، أو الحلية بالنسبة إليهم أي يجوز لهم أن يطعموه؟ الظاهر الثاني، وإن كان لا يبعد الأول لأن قاعدة «ألزموهم بما التزموا به» تقتضي كون الحرام عندهم من أطعمتنا كذبائحنا بالنسبة إلى اليهود مثلاً، لا يجوز لهم أن يطعموه. وفي الكلام مناقشه.

﴿و﴾ أحلت لكم ﴿المحصنات﴾ أي العفيفات اللاتي أحصن أنفسهن عن الحرام ﴿من﴾ النساء ﴿المؤمنات﴾ بأن تنكحوهن، أما الزانيات غير العفيفات فالمشهور بين العلماء جواز نكاحهن بالسنة، ولا مفهوم للآية حتى يمنع عن ذلك، لما ثبت في الأصول من عدم حجية مفهوم اللقب وإنما خُصصن لأنهن من «الطيبات». ﴿والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب﴾ أي أعطوا الكتاب ﴿من قبلكم﴾ وهم اليهود والنصارى والمجوس - والمجوس أهل كتاب على الأصح - وقد اختلف العلماء في جواز نكاحهن نكاحاً دائماً بعد كون المشهور جواز نكاحهن منقطعاً، ولو قلنا بعدم جواز الدائم فهو تخصيص بالسنة، وقد ثبت جواز تخصيص الكتاب بالسنة الواردة ﴿إذا آتيتموهن أجورهن﴾ أي أعطيتموهن مهورهن، وليس معنى «الإعطاء» الإعطاء الفعلي بل ذلك وإن كان في المستقبل، ولا مفهوم للآية بالنسبة إلى الحكم الوضعي حتى يكون: «من لا يريد الإعطاء إطلاقاً

مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْكَفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ
بِالْإِيمَنِ

ولم يعط تُحرم عليه المرأة المزوجة» بل المراد: الحكم التكليفي، أي أن ذلك حرام لا يجوز وهذا تحريض للإعطاء.

في حال كونهم ﴿محصنين﴾ بالمسلمة أو الكتابية، بأن كان اقترابكم منهن بالإحصان والنكاح ﴿غير مسافحين﴾ تأكيد لقوله «محصنين» والسفاح هو الزنا ﴿ولا متخذي أخدان﴾ الخِدن هو الصديق، وهو أن ينفرد الرجل بالمرأة يزني بها دائماً فهي وهو خدان، أي أنه لا يجوز للرجل بالنسبة إلى المسلمة والكتابية ذلك كما لا يجوز العكس. وقد تقدم شبه هذا في سورة النساء، ومعنى الآية جملة: أن مقاربة المرأة المسلمة العفيفة والكتابية العفيفة يجوز لكم ويطيب، وأعطوا مهورهن، لكن اللازم أن يكون الاقتراب بالنكاح لا بالسفاح أو باتخاذهن أخداناً كما يكثر الأمران عند غير المسلمين.

ثم إن ما ذكرناه من المحرمات والمحللات كلها من مقتضيات الإيمان الواجب التمسك به ﴿ومن يكفر بالإيمان﴾ تعبير آخر عن المعصية والخروج عن الطاعة، ولعل الإتيان بهذه اللفظة هنا لإفادة أن الكفر - في باب المحللات والمحرمات - ليس بالأصول وإنما هو بالفروع، وقد تقدم في بعض الآيات أن الكفر قسمان: كفر بالأصول هو الموجب لخروج الإنسان عن كونه مسلماً، وكفر بالفروع، كما قال سبحانه: (وَمَنْ كَفَرَ^(١))، وقال (وَلَيَنْ كَفَرُنَّ^(٢))، وهو الموجب لكون

(١) النور: ٥٦ .

(۲) إبراهيم : ۸ .

فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْأَخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٦﴾ يَتَأَيَّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ
وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ

الإنسان فاسقاً ﴿فقد حبط عمله﴾ معنى «الحبط» عدم استحقاق الثواب على العمل كما قال سبحانه: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) ^(١)، ﴿وهو﴾ الكافر بالإيمان ﴿في الآخرة من الخاسرين﴾ اللذين خسروا أنفسهم حيث استحقوا العقاب حين استحق سائر المطيعين الثواب.

[٧] وفي سياق ذكر الطيبات والملاذ الجسدية يأتي دور الطيبات والملاذ الروحية التي من أكثرها طيباً ولذة الصلاة بما لها من طهارة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي أردتم إياها فإن المريد لشيء يقوم إليه ليأتي به، ألا ترى أن الناس يقعدون إلى أشغالهم فإذا أذن المؤذن قاموا إلى الصلاة ليأتوا بها ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ من قصاص الشعر إلى الذقن طولاً، وما اشتملت عليه الإبهام والوسطى عرضاً، بالماء الطاهر المباح، غسلاً طبيعياً، من الأعلى إلى الأسفل ﴿وَأَغْسِلُوا أَيْدِيَكُمْ﴾ ولما كان المنصرف من «اليد»: تمام اليد إلى الكتف، أخرجه بقوله: ﴿إِلَى الْمِرْفَقِ﴾ فإن الغسل يستثنى منه غسل العضد ولذا لا يستفاد من «إلى» هذه كونها غاية للغسل بل المستفاد كونها غاية للمغسول، فإنك لو قلت لمصاب بالمرض: ادهن رجلك إلى الركبة. لم يستفد عرفاً منه لزوم كون التدهين من الإصبع إلى الركبة بل استفيد كون الفخذ خارجاً عن التدهين، وعلى هذا فاللازم الابتداء من الأعلى لأنه الغسل الطبيعي الذي وردت به السنة ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾

وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ
 كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَايَةِ أَوْ
 لَعَسْتُمْ مِنَ النِّسَاءِ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً

«الباء» للتبعيض أي: بعض رؤوسكم، وهو الربع المقدم من الرأس من المفرق إلى قصاص الشعر ﴿و﴾ امسحوا ﴿أرجلكم﴾ والمراد بهما ظههما ﴿إلى الكعبين﴾ وهما قبتا القدمين، وإنما قرء بالنصب مع أنه معطوف على المجرور باعتبار المحل، وقد كان الترتيب المجزي قطعاً في باب الوضوء غسل الوجه ثم اليد اليمنى ثم اليسرى ثم مسح الرأس ثم الرجل اليمنى ثم اليسرى، والمسح ببقية بلل الوضوء.

﴿وإن كنتم جنبا﴾ «الجُنْب» لفظ يقع على المفرد والمثنى والجمع، والمذكر والمؤنث، بلفظ واحد، هو من «البعء»، كأن الإنسان إذا اعترته هذه الحالة يبتعد من النظافة، وحصول الجنابة بالإنزال أو الإدخال ﴿فاطهروا﴾ من «تطهر» ثم أدغمت التاء في الطاء وجيء بهمزة الوصل لامتناع الابتداء بالساكن، والتطهير هو الاغتسال بالارتماس في الماء مرة واحدة، أو الترتيب بغسل الرأس والرقبة ثم الجانب الأيمن ثم الجانب الأيسر ﴿وإن كنتم مرضى﴾ لا تتمكنون من استعمال الماء للوضوء ﴿أو على سفر﴾ أي مسافرين - وقد سبق أن ذكر السفر لغلبة عدم وجود الماء فيه - ﴿أو جاء أحد منكم من الغائط﴾ و«الغائط» هو المحل المنخفض من الأرض وسمي البراز به بعلاقة الحال والمحل وذلك كناية عن الحدث ﴿أو لامستم النساء﴾ وهو كناية عن الجماع ﴿فلم تجدوا ماء﴾ هذا مرتبط بالسفر والحدث واللمس

فَتَيْمَمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَاَمْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَاَيْدِيكُمْ مِّنْهُ مَا
يُرِيدُ اللّٰهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ حَرَجٍ وَلٰكِنْ يُرِيدُ
لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧﴾

﴿فتيمموا﴾ معنى الآية بالجملة: إن مرید الصلاة يلزم عليه الوضوء والغسل إن كان جنباً. وإن كان مريضاً يضره الماء أو مسافراً أو مجامعاً، ولم يجد الماء للغسل أو الوضوء فليتيمم ويبقى قوله: «أو جاء أحد منكم من الغائط» فإنه ليس في مرتبة تلك الأمور، ولعل الإتيان به لمرعاة غلبة التخلي عند إرادة الصلاة.

وقد سبق أن التيمم مصدر باب التفعّل بمعنى القصد، أي اقصدوا ﴿صعيداً﴾ أي أرضاً ﴿طيباً﴾ ليس بنجس ولا مغصوب ﴿فامسحوا بوجوهكم﴾ الباء للتبعيض، أي بعض وجوهكم، وهو من قصاص الشعر إلى طرف الأنف الأعلى ﴿وأيديكم﴾ من الزند إلى رؤوس الأصابع ﴿منه﴾ أي مبتدئاً بالمسح من ذلك الصعيد، فاللزام أن يضرب باليدين على الأرض ثم يمسح بها ليصدق «منه».

﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾ من ضيق فأمره بالوضوء والغسل والتيمم ليس لأجل التضييق عليكم ﴿ولكن يريد﴾ الله سبحانه ﴿ليطهركم﴾ وينظفكم من الأدراّن والأوساخ الظاهرية والباطنية، أما تطهير الغسل والوضوء من الأدراّن فظاهر، وأما تطهير التيمم فقد ثبت في العلم الحديث أن التراب يقتل الجراثيم بمرتبة أضعف من مرتبة الماء ﴿وليتم نعمته عليكم﴾ بإرشادكم إلى مصالحكم كلها بعدما أرشدكم إلى أكبر النعم وهو الإيمان ﴿لعلكم تشكرون﴾ إياه بما أنعم

وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ
إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الْصُّدُورِ ﴿٨﴾

=====

عليكم وأرشدكم إلى مصالحكم وما يقربكم منه سبحانه .

[٨] ﴿و﴾ إذ أنتم سبحانه نعمته عليكم ﴿اذكروا نعمة الله عليكم و﴾ اذكروا
﴿ميثاقه الذي واثقكم به﴾ أي عهده الذي عاهدكم به من الإيمان
والسمع والطاعة ، فقد أخذ سبحانه ميثاق الأمم على يد الأنبياء ﴿إذ
قلتم﴾ بعد ما آمنتم : ﴿سمعنا وأطعنا﴾ فعليكم حسب المعاهدة السمع
والطاعة وعلى الله الإسعاد في الدنيا والآخرة ، والله سبحانه فعل ما
عليه فعليكم أن تفعلوا ما عليكم ﴿واتقوا الله﴾ فلا تخالفوا أوامره
ونواهيه ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ في «ظلال القرآن» قال : «ذات
الصدور» أي صاحبة الصدور الملازمة لها اللاصقة بها ، وهي كناية عن
النيات المقيمة والأسرار الدفينة والمشاعر التي لها صفة الملازمة
للقلوب والاستقرار في الصدور وهي على خفائها هناك مكشوفة لعلم
الله والله بها عليم .

[٩] ثم يرجع السياق إلى لزوم الجادة وعدم الاعتداء - كما سبق - في قوله :
(وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمَ أَنْ صَدُّوكُمْ) ^(١) ، كما تجد مثل ذلك كثيراً في
القرآن الحكيم حيث يلطف الجو بذكر الصلاة ونحوها ثم يرجع إلى
المطلب السابق بعدما لطف الجو وربطه بالطابع الإلهي العام وأخرج
الكلام عن كونه مملاً . ثم إن ما يأتي هو من الميثاق الذي واثق الله

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا
 يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا اُعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ
 لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾
 وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
 وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

عباده به ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله﴾ أي كثري القيام لأمر الله سبحانه ورضاه ﴿شهداء بالقسط﴾ أي بالعدل في كل أمر من الأمور ﴿ولا يجرمنكم﴾ أي لا يحملنكم ﴿شَنَاَنُ قَوْمٍ﴾ أي : عداؤهم لكم ﴿على ألا تعدلوا﴾ في الحكم عليهم وعند مخالطتهم ، فإن الإنسان إذا عادى شخصاً لا يعدل بالنسبة إليه - غالباً - انتقاماً وشفاء لما في صدره من الضغينة عليه ، ولذا كان من أسس الإسلام قول الحق في الرضى والغضب ﴿اعدلوا هو﴾ أي العدل ﴿أقرب للتقوى﴾ وليس المفهوم : أن الجور قريب إلى التقوى ، فإن التفضيل في مثل المقام ينسلخ عن معناه اللغوي ﴿واتقوا الله﴾ باجتنا نواهيه والإتيان بأوامره ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ فيجازيكم على أعمالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

[١٠] ﴿وعد الله الذين آمنوا﴾ بالله ورسله وما جاءوا به ﴿وعملوا﴾ الأعمال ﴿الصالحات﴾ وذلك يلزم ترك السيئات ﴿لهم مغفرة﴾ لذنوبهم ﴿وأجر عظيم﴾ وجملة «لهم مغفرة» في موضع نصب مفعولاً لـ «وعد» ولعل سر الإتيان بالجملة ، إفادة أن المطلب مقطوع به ، فإن الجملة الاسمية تفيد اليقين .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
 الْجَحِيمِ ﴿١١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ
 اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
 فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

=====

[١١] ﴿والذين كفروا﴾ فلم يؤمنوا إيماناً صحيحاً ﴿وكذبوا بآياتنا﴾ براهيننا وأدلتنا التي أقمناها على التوحيد وسائر الأصول ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ الذين يصاحبون النار ويخلدون فيها .

[١٢] ثم ذكر المؤمنين بنعمة من نعمه سبحانه وأنه كيف وفى لهم بميثاقه حيث أنقذهم من كيد أعدائهم ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم﴾ أي قصد وأراد ﴿قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم﴾ والمراد بـ «بسط اليد» إيذاؤهم وقتلهم واستئصالهم . قال القمي يعني : أهل مكة من قبل فتحها ، فكف أيديهم بالصلح يوم الحديبية^(١) . وقيل : إن المراد بذلك العموم ، أي من أراد السوء بالمسلمين . وقيل : المراد بالقوم خصوص بني النضير حيث أرادوا قتل النبي ﷺ فأخبر بذلك فنجى ﷺ من كيدهم . وقيل غير ذلك ﴿فكف أيديهم عنكم﴾ أي منعهم من الفتك بكم بل نصركم عليهم ﴿واتقوا الله﴾ بامتنال أوامره واجتناب زواجره ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ يكلون إليه سبحانه أمورهم ويجعلونه نصيراً وظهيراً لهم .

(١) تفسير القمي : ج ١ ص ١٦٣ .

وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ
اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ
الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ

=====

[١٣] لو كانت الآية السابقة حول بني النضير - وهم من اليهود - لكان الارتباط بين الآيتين واضحاً، إذ بين سبحانه هنا أنهم خانوا الأنبياء مع ما تفضل الله عليهم بكل خير ونعمة، فكيف لا يريدون خيانة الرسول ﷺ؟! ويحتمل أن يكون الارتباط من جهة الميثاق فيريد سبحانه أن يذكر المسلمين حتى لا يكونوا كاليهود الذين خانوا ونقضوا الميثاق بعد أخذه منهم إذ قد سبق قوله: (وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَّقَكُم بِهِ) ^(١) **﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾** العهد الأكيد الذي أخذه الله منهم على لسان أنبيائه **﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾** من «النقب» وهو الكشف، فكان النقيب - وهو كفيل القوم - ينقب عن أسرارهم ويكشف ضمائرهم ليسير بهم نحو الخير والصلاح في المجتمع. أي أمرنا موسى بأن يبعث من الأسباط الاثني عشر، اثني عشر رجلاً كالطلائع يتحسسون ويأتون بني إسرائيل بأخبار أرض الشام وأهلها الجبارين، فاختر من كل سبط رجلاً يكون لهم نقيباً - أي أميناً كفيلاً - فرجعوا يشنون قومهم عن قتالهم لما رأوا من شدة بأسهم وعظم خلقهم إلا رجلين منهم، بن يوقنا ويوشع بن نون **﴿وقال الله إني معكم﴾** أي قال لبني إسرائيل، وكونه معهم بمعنى أنه يؤيدهم وينصرهم ويهديهم **﴿لئن أقمتكم الصلاة﴾** يا معشر بني إسرائيل **﴿وآتيتم الزكاة﴾** أي أعطيتموها

وَأَمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا
لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٣﴾ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ
لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً

﴿وَأَمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ الذين يأتون من بعد موسى ﷺ ولذا أُنْزِلَ الْإِيمَانُ
عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ﴿وَعَزَّرْتُمُوهُمْ﴾ أي عظمتموهم، أو
نصرتموهم ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي أنفقتم في سبيله، فإنه
كالقرض الذي يُعْطَى ثم يُؤْخَذ، والمراد بكونه «حسنًا» أن لا يكون فيه
مَنْ وَلَا أذى ولا دواعٍ غير الله سبحانه ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ﴾ أي أذهب،
ومعنى «التكفير» التغطية، أي أُغْطَى بِالْغُفْرَانِ ﴿سَيِّئَاتِكُمْ﴾ التي صدرت
منكم، وهو جواب «لئن أقمت الصلاة» ﴿وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي من تحت قصورها وبساتينها ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾
أي بعد أخذ الميثاق ﴿مِنْكُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾
أي أخطأ وسط الطريق، فإن سواء كل شيء وسطه.

[١٤] ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثاقَهُمْ﴾ أي بسبب نقض اليهود ميثاقهم الذي كان بيني
وبينهم حيث أنهم تركوا الصلاة ومنعوا الزكاة وكذبوا بالرسول وقتلوه
﴿لَعْنَاهُمْ﴾ أي طردناهم عن ساحة القرب وقطعنا رحمتنا عنهم حيث
جعلنا بعضهم قردة وخنازير وجعلناهم مشردين مطرودين دائماً لا تقوم
لهم قائمة ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ يابسة غليظة تنبو عن قبول الحق

وَأَصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا
 إِنَّا نَصْرَى أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا
 بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ

هؤلاء ﴿واصفح﴾ أي تجاوز، فإنك لست منتقماً، وأن ذلك ليس من شأنك ﴿إن الله يحب المحسنين﴾ فإن العفو والصفح إحسان، والإحسان محبوب حتى بالنسبة إلى المجرم.

[١٥] هذا كان شأن اليهود، أما النصارى فليسوا أحسن حالاً من اليهود في بعض الجهات ﴿ومن الذين قالوا إنا نصارى﴾ قولاً باللفظ لا اعتقاداً بالقلب، كما تقول: فلان يقول إني مسلم، تريد بذلك أنه ليس بمسلم حقيقة بل مسلم قولاً ﴿أخذنا ميثاقهم﴾ من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والإيمان بالرسول واتباع أوامر الله ﴿فنسوا حظاً مما ذكروا به﴾ كما نسي اليهود ذلك من ذي قبل ﴿فأغرينا﴾ التسليط والتحرش والتحريض ﴿بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ فإنهم انقسموا إلى أقسام وأخذ بعضهم يعادي بعضاً عداء لا مثيل له، حتى إن عداء بعضهم بلغ إلى حد لم يبلغ عداؤهم لليهود والمسلمين والوثنيين، وقد شهد التاريخ قديماً مذابح في فرق النصارى ومعاداة الكاثوليك والبروتستانت والأرثوذكس فعلاً لا يحتاج إلى برهان، وهذه إحدى معجزات القرآن الحكيم، كما أخبره عن ذلة اليهود (ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ) ^(١).

وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٥﴾
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ
كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو
عَنْ كَثِيرٍ ^{قُلْ}

وهنا سؤال وهو: كيف يكون إلى يوم القيامة، وفي زمان المهدي عليه السلام الكل يُسلم وجهه إلى الله؟ ثم إن يوم القيامة إنما يكون بعد موت الناس عشرات السنوات؟

والجواب: إن هذا معناه: بقاء العداوة ما بقوا، يُعبر عن استمرار الشيء إلى الآخر بمثل هذا التعبير.

﴿وسوف﴾ في يوم القيامة ﴿ينبئهم الله﴾ أي يخبرهم سبحانه
﴿بما كانوا يصنعون﴾ ويقف التعبير إلى هذا الحد ليرسم صورة من
التهديد، كما تقول للمجرم: غداً أنبئك بما عملت اليوم، تريد بذلك
تهديده بالعقاب القاسي.

[١٦] ثم خاطب سبحانه أهل الكتاب بصورة عامة لهدايتهم سواء السبيل:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أيها اليهود والنصارى - ولعل المجوس أيضاً داخلون في الخطاب - ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ ﴿يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ من أحكام الله سبحانه التي عارضت مصالحهم فأخفوه عن الناس إبقاءً على كياناتهم وانحرافهم ﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ مما استوجبوه من العقاب، أو يعفو عن بعض الأحكام التي أوجبت عليهم العقوبة، كما قال سبحانه: (فَيُظْلَمَ مِنْ

قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٦﴾
يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ
وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ
إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾

الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَّهُمْ^(١) ، فالفرصة سانحة الآن
لتتداركوا ما فات منكم .

﴿قد جاءكم﴾ يا أهل الكتاب ﴿من الله نور﴾ هو الرسول ﷺ فكما
أن النور الخارجي يهتدى به إلى الأمور المحسوسة في الظلمة ، كذلك
النور المعنوي يهتدى به إلى دروب الحياة في ظلمات الأهواء والجهل
﴿وكتاب مبين﴾ هو القرآن ، فإنه واضح لا لبس فيه ولا غموض .

[١٧] ﴿يهدي به﴾ أي بكل واحد من «النور والكتاب» ، كما قال سبحانه :
(فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ)^(٢) أي كل واحد منهما ﴿الله من
اتبع رضوانه﴾ أي من اتبع رضوان الله - أي رضاه - بقبول القرآن ونبوة
محمد ﷺ ﴿سبل السلام﴾ أي طُرُق السلامة في كل شيء ، السلامة في
الدين ، والسلامة في الدنيا ، والسلامة في الآخرة للفرد وللمجتمع
﴿ويخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ فإن الحياة ظلمات لا يدري الإنسان
كيف يسير في دروبها ، وبالقرآن والنبي يهتدي إلى الحق ويُنير طريقه
﴿بإذنه﴾ بإذن الله ولطفه ﴿ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾ يوصلهم إلى

(١) النساء : ١٦١ .

(٢) البقرة : ٢٦٠ .

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ

سعادة الدنيا والآخرة.

[١٨] إنه يهدي إلى الصراط المستقيم في العقيدة لا الاعتقاد بأن المسيح هو الله أو الاعتقاد بأن لله أبناء ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ فإنه سواء جعلوه إلهاً واحداً أو شريكاً له ، فقد كفروا ، إذ إنكار الله سبحانه والتشريك معه كلاهما كفر ﴿قل﴾ يا رسول الله في إبطال قولهم : ﴿فمن يملك من الله شيئاً﴾ أي من يقدر على أن يدفع أمراً من أوامر الله وإرادة من إرادته ﴿إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً﴾ إن النصارى يعترفون بذلك ، وأنه بإمكان الله أن يهلك كل أولئك ، فكيف يجتمع هذا الاعتراف مع الاعتقاد بالوهية المسيح؟ إن الإله لا يمكن لأحد مخالفة أمره التكويني فكيف يتمكن أحد إهلاكه؟

﴿ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما﴾ فكيف يمكن أن يكون له شريك مع أن كل شيء يُتصور فهو ملك لله؟ وهل يمكن أن يكون إله مملوك؟ ﴿يخلق ما يشاء﴾ إن شاء خلق من غير ذكر ولا أنثى كآدم وحواء عليهما السلام ، وإن شاء خلق من ذكر وأنثى كسائر الناس، وإن

وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى
نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ
أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ
وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

شاء خلق من أنثى دون ذكر كالْمَسِيحِ ﷺ ، فليس في خلقه دلالة على
الوهيته كما زعمت النصارى ﴿والله على كل شيء قدير﴾ ليست قدرته
منحصرة في شيء أو أشياء خاصة حتى إذا كان قد خلق بذلك الشكل
«بشكل عيسى» دل على أنه ليس من خلقه.

[١٩] ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ فإن النبي ﷺ لما
حذّره نعمة الله وعذابه قالوا: نحن أبناؤه، والابن الحبيب لا يخاف
من نعمة الأب الودود ﴿قل﴾ يا رسول الله لهؤلاء المفتريين: ﴿فلم
يعذبكم﴾ الله ﴿بذنوبكم﴾؟ حيث تعترفون بما حكى القرآن عنهم:
(وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً)^(١)، فإن كنتم أبناء أحياء لم يكن
معنى للعذاب، ولعل المراد من «المستقبل»: الماضي، أي لِمَ عذبكم
سابقاً بذنوبكم حيث جعل منكم القردة والخنازير وأشباه ذلك؟ ﴿بل
أنتم﴾ أيها اليهود والنصارى ﴿بشر ممن خلق﴾ تعالى إن أحسنتم
جُوزيتم وأن أسأتم جُوزيتم كما يُجازى غيركم من الناس ﴿يغفر لمن
يشاء﴾ من العصاة ﴿ويُعذب من يشاء﴾ منهم، لأنه لا بنوة ولا
عواطف خاصة بين الله وبينكم ﴿ولله ملك السماوات والأرض﴾ فليس

وَمَا بَيْنَهُمَا وَلِإِلَهِ الْمَصِيرُ ﴿١٩﴾ يَأْهَلْ أَلِكَنْبٍ قَدْ جَاءَكُمْ
رُسُولُنَا يَبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا
مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

شيء من نفس الله حتى لا يملكه سبحانه - كما تدعون أنتم من كونكم
أبناءه - ﴿وما بينهما﴾ من سائر المخلوقات والمراد بالسماء هنا:
الكواكب وما يرى في ناحيتها - كما هو المنصرف - حتى يتصور ما
بينهما، لا جهة العلو ﴿وليه﴾ سبحانه ﴿المصير﴾ المرجع والمآل،
فليس هناك غيره يملك شيء أو يرجع إليه في أمر.

[٢٠] ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا﴾ محمد بن عبد الله ﷺ ﴿يبين
لكم﴾ الأصول والفروع ﴿على﴾ حين ﴿فترة من الرسل﴾ أي انقطاع
منهم، فلم يكن قرب بعثة النبي ﷺ نبي، وقد كنتم في جهالة وضلالة،
والآن جاء المعلم المنقذ الهادي. ولعل سر «تبين الأمر» وبوضوح أن
الدنيا لا تستقيم إلا بهدى السماء، فإنه لما انقطع الوحي في الفترة ساد
العالم خراب وفوضى لا مثيل لها، وبذلك يكون تجربة عملية، وإنما جاء
الرسول لئلا تحتجوا و﴿أن تقولوا﴾ يوم القيامة: ﴿ما جاءنا من بشير ولا
نذير﴾ حتى نهتدي ونصلح ﴿فقد جاءكم بشير﴾ لمن آمن واتقى بالجنة
﴿ونذير﴾ لمن كفر أو عصى بالنار ﴿والله على كل شيء قدير﴾ يقدر على
أن يرسل الرسول، فليس لشخص أن يقول: كيف يكون هذا رسول؟

[٢١] ويرجع السياق إلى قصة بني إسرائيل الذين نقضوا كل المعاهدات
والمواثيق ولم يفوا لموسى نبيهم المعترف به، فكيف يفون لغيره ممن

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ

لا يعترفون به عناداً وحسداً؟! ﴿و﴾ اذكر ﴿إذ﴾ قال موسى لقومه يا قوم
اذكروا نعمة الله عليكم ﴿ف﴾ قابلوها بالإطاعة واتباع الأحكام ﴿إذ﴾ جعل
فيكم أنبياء ﴿فقد﴾ كان سبعون نبياً في عهد موسى ﷺ . ولعل سر
كثرة الأنبياء ﷺ في تلك الأزمنة كون البشر في مثل حال الأطفال
الذين يحتاجون إلى عدد من المربين ، بخلاف عهدي عيسى ﷺ
والرسول ﷺ حيث نضج البشر أكثر فأكثر ، كالكبار الذين لا يحتاجون
إلا إلى مرشد واحد .

وهنا نكتة لا بد من ذكرها وهي أن الانهزامية الغربية التي غزت
نفوس المسلمين جعلتهم يفكرون فيما يخص الأنبياء ﷺ والأمم كما
فكر «دارون» وتلاميذه القائلون بـ«نظرية التطور» مع العلم أن القرآن
والسنة يكذبون ذلك وأن أول بشر على وجه الأرض كان نبياً أوتي النبوة
من بين جميع أولاده وزوجته الذين بُعث إليهم نبياً . وهكذا تسلسلت
الأمم كلما ابتعدوا عن النبي توحشوا وكلما اقتربوا إليه ارتقوا في مدارج
الإنسانية . وبنو إسرائيل كانوا أمة بعيدة عن الإنسانية والفضيلة - بأنفسهم -
لا أن من هم قبلهم كانوا أكثر توحشاً كما يقول أصحاب «نظرية التطور»
ويتصورون كذباً واختلاقاً وتقليداً أن إنسان الغاب وقبله تطور من القرد ،
ومن حسن الحظ أن علماء الغرب نقدوا رأي «دارون» وأقاموا أدله على
بطلانه ، لكن المنهزمين عندنا لا زالوا في هزيمتهم النكراء يلحقون قصاص
«دارون» .

﴿وجعلكم ملوكاً﴾ فقد كان فيهم الملوك والساسة والقادة ﴿وآتاكم﴾

مَا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢١﴾ يَقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ
الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ
فَنَنْقَلِبُوكُمْ خَسِرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ
وَلَإِنَّا لَنَنْدَخُلُهَا حَتَّىٰ يُخْرِجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا
فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٢٣﴾

أي أعطاكم ﴿ما لم يؤت أحدًا من العالمين﴾ من إنزال المن والسلوى
والتفضيل على سائر الأمم الذين في زمانهم، بجعلهم من نسل الأنبياء،
ولبت الأنبياء فيهم، وجعلهم ملوكاً، وإغراق أعدائهم إلى غيرها.

[٢٢] ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾ وهي أرض الشام التي قدست
وطهرت من الشرك وبوركت بكثرة الأشجار والأنهار وطيب الهواء وكثرة
الأنبياء فيها، وقد كانوا في مصر عبيداً وهامهم قد نجوا من أعدائهم،
ويريد الله بهم أن يدخلوا الشام ليكونوا فيها سادة وملوكاً ﴿التي كتب الله
لكم﴾ فيها السيادة والسعادة ﴿ولا تترددوا على أدباركم﴾ أي لا ترجعوا
عن الأرض التي أمرتم بدخولها ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ سعادة الدنيا وثواب
الآخرة، بسبب تخييركم الأمكنة المريحة لكم في الدنيا، وعدم سماع أمر
الله الموجب لحرمانكم من الثواب في الآخرة.

[٢٣] ﴿قالوا يا موسى إن فيها﴾ في الأرض المقدسة ﴿قوماً جبارين﴾
شديدي البأس والبطش ﴿وإنا لن ندخلها﴾ أي الأرض المقدسة ﴿حتى
يخرجوا﴾ أي يخرج الجبارون ﴿منها﴾ هم بأنفسهم بدون تعب أو
نصب أو قتال ﴿فإن يخرجوا منها فإننا داخلون﴾ فيها.

قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابُ^١

=====

قال في «المجمع» - بتخليص - : قال المفسرون : لما عبر موسى وبنوا إسرائيل البحر وهلك فرعون ، أمرهم سبحانه بدخول الأرض المقدسة ، فلما نزلوا على نهر الأردن خافوا من الدخول ، فبعث موسى من كل سبط رجلاً وهم الذين ذكرهم الله في قوله : (وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً)^(١) ، فعاینوا من عظم شأنهم وقوتهم شيئاً عجيباً فرجعوا إلى بني إسرائيل فأخبروا موسى عليه السلام بذلك ، فأمرهم أن يكتموا ذلك فوفى اثنان منهم يوشع بن نون وكالب بن يوقنا وعصى العشرة وأخبروا بذلك وفشا الخبر في الناس ، فقالوا : إن دخلنا عليهم تكون نساؤنا وأهالينا غنيمة لهم ، وهموا بالانصراف إلى مصر وهموا بيوشع وكالب أن يرجموهما بالحجارة ، فاغتاظ لذلك موسى وقال : «إني لا أملك إلا نفسي وأخي» ، فأوحى الله إليهم : «إنهم يتيهون في الأرض أربعين سنة وإنما يخرج منهم من لم يعص الله في ذلك» . فبقوا في التيه أربعين سنة في ستة عشر فرسخاً وهم ستمائة ألف مقاتل لا تتخرق ثيابهم وتثبت معهم وينزل عليهم المن والسلوى ، ومات النقباء غير يوشع وكالب ، ومات أكثرهم ونشأت ذريتهم فخرجوا إلى حرب أريما وفتحوها^(٢) .

[٢٤] ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ هما يوشع وكالب ﴿مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ الله تعالى فيتبعون أوامره وزواجره ﴿أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بالدين والعقل ﴿ادْخُلُوا﴾ يا بني إسرائيل ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي على هؤلاء الجبارين ﴿الْبَابُ﴾ أي باب

(١) المائدة : ١٣ .

(٢) مجمع البيان : ج ٣ ص ٣٠٨ .

فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ
 كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا
 دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَهُنَا
 قَاعِدُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ

المدينة ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ﴾ أي الباب ﴿فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ﴾ فقد كان أخبرهم
 موسى ﷺ بالنصر ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ في نصرة الله لكم على
 الجبارين ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ إيماناً حقاً، فإن من توكل على الله كفاه.

[٢٥] ﴿قَالُوا﴾ أي قال بنو إسرائيل لموسى ﷺ : ﴿يَا مُوسَى إِنَّا لَن
 نَدْخُلُهَا﴾ أي لن ندخل المدينة ﴿أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا﴾ أي ما دام الجبارون
 في المدينة، فقد خافوا منهم ولم يثقوا بوعده الله النصر لهم ﴿فَاذْهَبْ﴾
 يا موسى ﴿أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا﴾ الجبارين. ولعل مرادهم ليس ما ينافي
 نزاهة الله عن التجسيم، بل قصدوا أن الرب يدفع عنهم، كما قال
 سبحانه : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(١)، وقال : ﴿وَجَاءَ
 رَبُّكَ﴾^(٢)، ولذا لم ينكر موسى ﷺ مقالته، أو أنهم قصدوا التجسيم
 وأنكر موسى لكن القرآن لم يخل ذلك لأنه ليس بصدد بيان الواقعة
 بكل مزاياها ﴿إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ ننتظر تطهير المدينة من الجبارين حتى
 ندخلها، أما أن نحارب الجبارين فلا طاقة لنا بذلك ولا نقدم عليه.

[٢٦] ﴿قَالَ﴾ موسى ﷺ معذراً لله عن مخالفة قومه مخاطباً الله سبحانه :

(١) الأنفال : ١٨

(٢) الفجر : ٢٣

رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي ۖ فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ
الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ
سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ ﴿٢٧﴾

=====

﴿رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي﴾ هارون فأنا وحدي الذي أطيع أوامرك وكذلك أخي هو الذي يطيعني ويسمعني إذا أمرته بشيء، أما هؤلاء فليسوا كذلك، أما يوشع عليه السلام ومن كان على شاكلته فلعلهم لم يكونوا حاضرين إذ ذاك عند هذا الحوار ﴿فافرق﴾ أي افصل اللهم ﴿بيننا﴾ أنا وأخي ﴿وبين القوم الفاسقين﴾ الذين لا يطيعون الأوامر. والمراد بـ «الفرق» عدم إجراء حكم واحد عليهم في الدنيا والآخرة، فإنهما عليهما السلام قد باينا قومهما بالإطاعة حين عصى أولئك.

[٢٧] ﴿قال﴾ الله تعالى لموسى عليه السلام : وإذ عصوني ولم يؤمنوا بوعدي ﴿فإنها﴾ أي الأرض المقدسة ﴿محرمة عليهم﴾ دخولها، أي نمنعهم عنها ﴿أربعين سنة يتيهون﴾ من «تاه» إذا ضلّ ولم يهتد الطريق إلى مقصده ﴿في الأرض﴾ فإنهم كانوا يمشون إلى الليل فإذا أرادوا في اليوم الثاني السفر رأوا أنفسهم في مكانهم السابق ﴿فلا تأس﴾ أي لا تحزن ﴿على القوم الفاسقين﴾ وأنهم كيف تاهوا أربعين سنة ووقعوا في هذه الصعوبة.

[٢٨] إن حال اليهود في نقض العهود وارتكاب الفواحش بلا مبرر حال ابني آدم عليهما السلام هابيل وقابيل، فإن الله أوحى إلى آدم أن يدفع الوصية واسم الله الأعظم إلى هابيل وكان قابيل أكبر، فبلغ قابيل فغضب فقال: أنا

وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٨﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ

أولى بالكرامة والوصية . فأمرهما أن يقربا قربانا بوحى من الله إليه ففعلا ، فتُقبَّل قربان هابيل حيث أخلص وقدم خير ماله ، ولم يُتقبَّل قربان قابيل حيث أساء النية وقدم شر ماله . ولما رأى قابيل أن قربانه لم يُقبل حسد وعمد إلى هابيل ووضع رأسه بين حجرين فشدخه فمات ، ولم يدر ماذا يصنع بجثته ، فجاء غرابان فقتل أحدهما الآخر ودفن جثته ، فتعلم قابيل فدفن جثة هابيل ﴿وَاتْلُ﴾ أي اقرأ ﴿عليهم﴾ أي على اليهود يا رسول الله ﴿نَبَأُ﴾ أي خبر ﴿ابني آدم﴾ هابيل الصالح وقابيل الطالح ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي تلاوةً بالحق والصدق ، فليس فيه كذب ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ القربان هو ما يقصد به التقرب إلى الله تعالى ﴿فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا﴾ وهو هابيل ﴿وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ وهو قابيل ، قالوا : وكانت علامة القبول أن تأتي نار من السماء فتأكل ما تقبل ، فأكلت النار قربان هابيل ولم تأكل قربان قابيل ﴿قَالَ﴾ قابيل الذي لم يُتقبَّل قربانه لهابيل عليه السلام : ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ حسداً وعناداً ﴿قَالَ﴾ هابيل عليه السلام : وما ذنبي ؟ ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ ولعل هذا كان تنبيهاً له لأن يتقي الله حتى يخبوه بكرامته ، ولم يكن تبجحاً قطعاً .

[٢٩] ثم قال هابيل عليه السلام لقابيل : ﴿لَئِنْ بَسَطْتَ﴾ أي مددت ﴿إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾ أي تريد قتلي ﴿مَا أَنَا بِبَاسِطٍ﴾ أي ماد ﴿يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ فإن

إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ
بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ
الظَّالِمِينَ ﴿٣٠﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ
مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣١﴾

=====

من يريد قتل إنسان ظلماً لا يجوز للمظلوم إلا المدافعة لا قتل الظالم، إلا إذا توقف الدفاع عليه. أو المراد: إن أردت قتلي ظلماً فإني لست أريد قتلك كذلك ﴿إني أخاف الله رب العالمين﴾ في أن أقتل أحداً ظلماً.

[٣٠] ﴿إني أريد أن تبوء﴾ أي ترجع أنت يا قابيل ﴿بإثمي﴾ أي إثم قتلي ﴿وإثمك﴾ أي وزرك الذي عليك من غير جهة القتل، ومعنى «الإرادة» هنا مجازي لأنه إرادة الفاعل، فإن الإنسان إذا أراد شيئاً يقول: أردت، وإذا لم يرد أن يفعله وأراد غيره فعله يقول: أردت أن يفعله غيري. فالتعبير بالإرادة هنا للمقابلة نحو قوله: (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ)^(١)، فقولنا: «أريد أن تذنّب» يراد به «أني لا أذنّب بل أنت تحمل الذنب» لا أنه إرادة حقيقية من المتكلم لذنّب المخاطب، فلا يقال: كيف يصح أن يريد هابيل عليه السلام أن يأثم قابيل؟! ﴿فتكون﴾ أنت يا قابيل ﴿من أصحاب النار﴾ الملازمين لها ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ الذين يظلمون أنفسهم.

[٣١] ﴿فطوَّعت﴾ أي شجعت ﴿له﴾ أي لقابيل ﴿نفسه قتل أخيه﴾ هابيل ﴿فقتله﴾ قالوا: قتله غيلة ﴿فأصبح﴾ قابيل ﴿من الخاسرين﴾ الذين

فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي
سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُتَوَلَّى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا
الْغُرَابِ فَأُورِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٢﴾

خسروا الدنيا والآخرة.

[٣٢] وحين قتله لم يدر كيف يصنع بجثته لأنه لم ير من قبل ذلك ميتاً ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض﴾ أي يطلب ويفتش ويشير التراب ليدفن غراباً آخر قد قتله، إذ جاء غرابان فاقتتلا فقتل أحدهما الآخر فدفنه ﴿ليريه﴾ أي يري الغراب قابيل ﴿كيف يوراي﴾ أي يستر ﴿سوءة﴾ أي جثة ﴿أخيه﴾ وإنما سمي البدن «سوءة» لأنه ساء وكره أن يرى بدنه المقتول ﴿قال﴾ قابيل لما رأى فعل الغراب: ﴿يا ويلتا﴾ أي يا ويلي و«الويل» بمعنى الهلاك، أي: يا هلاكي احضر فهذا أوانك، نحو: يا عجباً ﴿أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب﴾ في العلم بكيفية الخلاص من جثة الميت ﴿فأوراي﴾ أي استر بالتراب ﴿سوءة أخيه﴾ ثم دفنه ﴿فأصبح من النادمين﴾ على قتله، ولم يكن ندم توبة، وإنما ندم فعل، فلا يقال: كيف يعاقب وقد تاب؟

قال ابن عباس: لما قتل قابيل هابيل أشاك الشجر، وتغيرت الأطعمة، وحمضت الفواكه، وأمر الماء، واغبرت الأرض، فقال آدم: قد حدث في الأرض حدث فأتى الهند فإذا قابيل قد قتل هابيل، فانشأ يقول:

تغيرت البلاد ومن عليها

فوجه الأرض مغبرٌ قبيح

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا
بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ
جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا

=====

تغير كل ذي لون وطعم

وقل بشاشة الوجه الصبيح

[٣٣] ولما حكى سبحانه قصة ابني آدم وأظهر بشاعة الجريمة، ذكر جملة من الحدود على الجرائم، وابتدأ بالقتل للمناسبة، فقال تعالى: ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ﴾ «أجل» في اللغة بمعنى الجناية - على أحد الوجوه - يقال: «أجل عليهم شراً» أي جنى. أي من ابتداء تلك الجناية. ف«من» ابتدائية وذلك إشارة إلى قتل قابيل هابيل أي من وقت تلك الجناية قررنا الحكم الآتي وهو أن «من قتل نفساً» الآية. وبعض المفسرين يفسر «أجل» بالمعنى المتعارف، فالمعنى: من أجل الاعتداء الذي لا موجب له ولا مبرر على المسالمين المتورعين الذين لا يريدون شراً ولا مدافعة ﴿كُتِبْنَا﴾ أي فرضنا ﴿على بني إسرائيل﴾ وليس الحكم خاصاً بهم وإنما أتى بذكرهم لأنهم مورد البحث والكلام، وأنهم الذين عاكسوا أحكام الله وقتلوا أنبيائه.

﴿أنه من قتل نفساً﴾ أي إنساناً قتلاً ظلماً ﴿بغير نفس﴾ أي: لا بمقابل نفس حتى يخرج قتل القاتل نفساً من موضوع الحكم ﴿أو فساد في الأرض﴾ أي لم يكن المقتول مفسداً حتى يستحق بذلك أن يقتل ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ أنه باعتدائه على حياة نفس واحدة بلا مبرر كان كمن اعتدى على الحياة كلها ﴿ومن أحياها﴾ لا إحياء من

فَكَأَنَّهُمْ أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا
بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّا كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ
لُمُسْرِفُونَ ﴿٣٣﴾

=====

العدم، بل إحياء بمعنى التحفظ على حياتها وإنقاذها من الهلاك
﴿فكأنما أحيى الناس جميعاً﴾ حيث أن تحفظه على حياة نفس واحدة
يكون كتحفظه على الحياة كلها، لأن الحياة كل سارٍ في كل حي،
فالتعدي على فرد تعدي على الكل، كما أن التحفظ على فرد تحفظ
على الكل ﴿ولقد جاءتهم﴾ أي أتت إلى بني إسرائيل - الذين يدور
الكلام حولهم - ﴿رسلنا﴾ أنبيأؤنا إليهم ﴿بالبينات﴾ أي الأدلة الواضحة
الدالة على صدق نبوتهم.

﴿ثم إن كثيراً منهم﴾ أي من بني إسرائيل ﴿بعد ذلك﴾ أي بعد
مجيء الرسل إليهم ﴿في الأرض لمسرفون﴾ أي يجاوزون الحد، فقد
كانوا يستحلون المحارم ويسفكون الدماء.

[٣٤] وبمناسبة قتل النفس بغير حق، ذكر سبحانه حكم من يسعى في
الأرض فساداً. وقد ورد في شأن نزول هذه الآية: أن قوماً من بني
ضبة قدموا على رسول الله ﷺ مرضى فبعثهم إلى إبل الصدقة يشربون
من أبوالها ويأكلون من ألبانها فلما برءوا واشتدوا قتلوا ثلاثة ممن كانوا
في الإبل وساقوا الإبل، فبعث إليهم علياً عليه السلام فأسرهم، فنزلت هذه
الآية، فاختار رسول الله القطع، ففقط أرجلهم وأيديهم من خلاف^(١).

(١) الكافي: ج ٧ ص ٢٤٥.

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ

وفي بعض الروايات: أنها نزلت في قطاع الطرق. ولا منافاة بين الأمرين ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ﴾ أي يحاربون أوليائه فإن محاربة المتعلقين بشخص هو محاربة ذلك الشخص، كقوله تعالى: (يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)^(١)، ﴿وَرَسُولَهُ﴾ أي يحاربون رسوله. وهذا أيضاً كذلك فإن محاربة أولياء الرسول محاربة للرسول ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ بالإفساد وشهر السلاح للإخافة. ولا يخفى أنه لو لم نقل بعموم الآية لكل من صدق عليه هذا الموضوع، كان اللازم أن يُحمل على قطاع الطريق، لما ورد به الروايات، وكأنه اعتبر محاربة الناس وإخافتهم محاربة لله والرسول.

﴿أَنْ يُقَتَّلُوا﴾ تقتيلاً، وإنما عدّى بـ «التفعيل» لأن المراد منه قتلهم كلهم، وباب «التفعيل» يدلّ على التكثير كما قال تعالى: (وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ)^(٢)، أي غلقت كل باب ﴿أَوْ يُصَلَّبُوا﴾ بالمشنقة و«أو» هنا للتخيير، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، والاختيار إلى الإمام في ذلك ﴿أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ بأن تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، فيكون قطع كل واحدة خلاف الجهة التي يقع فيها قطع الأخرى ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي من بلد إلى بلد حتى يتوب

(١) الأحزاب: ٥٨ .

(٢) يوسف: ٢٤ .

ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٥﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٦﴾

ويرجع وقوله سبحانه «إنما» معناه: أن جزاءه ذلك فحسب، لا جزاء له سواه ﴿ذلك﴾ الذي ذكر أنه يُفعل بهم ﴿لهم خزي في الدنيا﴾ أي عقوبة وفضيحة ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ في النار.

[٣٥] ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ﴾ فإن التوبة قبل الوقوع في يد حاكم الشرع تُقبل، أما لو وقع ثم تاب فإنه لا تُقبل توبته بالنسبة إلى درء الحد، بل يجري عليه الحد ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ يغفر ذنبهم ﴿رَحِيمٌ﴾ لا يعاقبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

[٣٦] ثم يتوجه القرآن الحكيم إلى تربية الوجدان إلى جنب تربية الخارجين عن طاعته بالسيف والعقاب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ بإتيان أوامره واجتناب زواجره ﴿وَابْتَغُوا﴾ أي اطلبوا ﴿إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ السبب الذي يقربكم إليه سبحانه: من فعل الخيرات والأعمال الصالحة ﴿وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ الخارجين عن طاعته ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي رجاء أن تفلحوا، فإن الرجاء قائم في الفوز والفلاح ما دمتم تتقون وتجاهدون.

[٣٧] ولا تكونوا كالذين كفروا، الذين لم يتقوا ولم يجاهدوا ولا طلبوا

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
 جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَمَةِ
 مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٧﴾ يُرِيدُونَ أَن
 يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ
 مُّقِيمٌ ﴿٣٨﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ

رضاه سبحانه والوسيلة إليه ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
 جَمِيعًا﴾ من المال والجاه ﴿ومثله معه﴾ بأن كان لهم ضعف ما في
 الأرض، وهذا من باب المثل، وإلا فالمراد كل شيء، فإن اللفظ قد
 يأتي للكثرة لا للتحديد نحو: (إِنَّ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً) ^(١)،
 ﴿ليفتدوا به﴾ بما في الأرض ومثله، بمعنى: أن يجعلوه فداء لهم
 وبدلاً ﴿من عذاب يوم القيامة﴾ حتى ينجوا كما اعتادوا الفداء
 والخلاص في الدنيا ﴿ما تُقْبَلُ مِنْهُمْ﴾ الفداء ﴿ولهم عذاب أليم﴾ مؤلم
 موجه.

[٣٨] ﴿يريدون﴾ أي يريد الذين كفروا ويتمنون ﴿أن يخرجوا من النار وما
 هم بخارجين منها﴾ حيث أن عذابهم دائم لا انقطاع له ولا مدة ﴿ولهم
 عذاب مقيم﴾ دائم ثابت لا يزول.

[٣٩] وهنا يرجع السياق إلى بيان الحدود التي افتتحت بقصة ابني آدم
 ﴿والسارق والسارقة﴾ ذكر سبحانه كلاً على حدة حتى لا يُظن أن

فَاقْطِعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءُ بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٩﴾ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ
اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ

الحكم لا يشمل السارقة، وقدم السارق لأنه الغالب، وفي آية الزنا قدم الزانية لامتهان بعض النساء للزنا ﴿فاقطعوا أيديهما﴾ الأربع أصابع من اليد اليمنى، واليد تطلق على مجموع العضو، وإلى المرفق، وإلى الزند، وعلى الأصابع فقط. ولم يقل «يдахما» لما استحسن في العربية من أنه متى اجتمع تثنيتان وهو قوله «أيديهما» مضافة إحداهما إلى الأخرى جيء بالأول بلفظ الجمع، كقوله سبحانه: (فَقَدْ صَعَتَ قُلُوبُكُمَا) ^(١)، ولعل الأصل أن الجوارح في الإنسان أكثر من واحد فتكون في إنسانين جمعاً، و«الفاء» إنما أتت في «الخبر» دلالة على الترتب والجزاء. وللقطع شروط مذكورة في الفقه ﴿جزاء بما كسبا﴾ من السرقة ﴿نكالا﴾ من الله ﴿أي عقوبة على ما فعله﴾ ﴿والله عزيز حكيم﴾ يأخذ بعزته ويحكم بذلك بحكمته.

[٤٠] ﴿فمن تاب من بعد ظلمه﴾ بأن ندم عن السرقة ﴿وأصلح﴾ صار صالحاً ﴿فإن الله يتوب عليه﴾ ويغفر ذنبه ﴿إن الله غفور رحيم﴾ يغفر لمن تاب ويرحم عباده العصاة إذا ندموا وأقلعوا.

[٤١] إن ما ذكر من عقاب الله وغفرانه مقتضى سلطته المطلقة ﴿ألم تعلم﴾

أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ
وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

أيها الإنسان ﴿أن الله له ملك السماوات والأرض﴾ له التصرف في الجميع كما يشاء ﴿يعذب من يشاء﴾ ممن استحق العقاب ﴿ويغفر لمن يشاء﴾ حسب حكمته البالغة ﴿والله على كل شيء قدير﴾ فلا يعجزه شيء.

[٤٢] وفي سياق بيان الحدود وذكر مساويئ اليهود يتعرض القرآن الحكيم إلى قصة زنا وقعت في اليهود وراجعوا الرسول ﷺ في حكمها. فقد روي عن الإمام الباقر عليه السلام ما ملخصه: «أن امرأة شريفة من خيبر زنت وقد كان حكم زنى المحصن في التوراة الرجم، لكنهم راجعوا النبي ﷺ رجاء أن يخفف عنهم ويأخذوا بذلك، فأفتاهم النبي ﷺ بالرجم، وذكر أنه حكم التوراة أيضاً، لكن جماعة من علمائهم أنكروا ذلك فجعل الرسول ﷺ «ابن صوريا» أعلمهم حكماً فاعترف هو أن الحكم في التوراة هو الرجم وأنهم حرّفوا حكم التوراة فوضعوا مكانه أن يجلد أربعين جلدة ثم يسود وجهه ويطاف على حمار مقلوباً، تشهيراً به!»^(١).

وفي بعض التفاسير: أنه كان بين بني النضير وقريضة معاهدة في باب القتل على خلاف حكم التوراة، فقد كان حكم التوراة القتل للقاتل، ولكن كانت معاهدة بين القبيلتين أنه إن قتل بنو قريضة من بني النضير قتل القاتل، وإن قتل بنو النضير من بني قريضة أخذت الدية،

(١) راجع فقه القرآن: ج ٢ ص ٣٧٥.

يَتَّيْهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنَكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ
مِنَ الَّذِينَ قَالُوا ءَامَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ
وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ

فأراد بنو قريضة المراجعة إلى النبي ﷺ في الحكم ليحكم لهم بحكم التوراة وقال «ابن أبي» المنافق الصديق لهم: إن حَكَمَ محمد بما ترضون - يريد خلاف حكم التوراة - فارضوا به وإلا فلا تقبلوه^(١).

أقول: ومن المحتمل كون الآية إشارة إلى القصتين، وعلى أي حال فالله سبحانه يسلي الرسول ﷺ في مخالفة المنافقين واليهود له فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنَكَ﴾ أي لا يوجب حزنك وغمك ﴿الذين يسارعون في الكفر﴾ أي يسرعون للدخول فيه بالقيام على خلافك وعدم قبول حكمك ﴿من﴾ المنافقين ﴿الذين قالوا آمنا بأفواههم﴾ جمع «فوه» بمعنى «الفم» أي أن إيمانهم لفظي وبمجرد الشهادتين، لا عن قلب وعقيدة، والمقصود ابن أبي كما تقدم ﴿ولم تؤمن قلوبهم﴾ بل بقيت على كفرها وضلالها.

﴿ومن الذين هادوا﴾ أي اليهود والمراد بمسارعة اليهود في الكفر تركهم لأحكام التوراة وتمسكهم بالأحكام المخالفة لما أنزل الله فإنه كفر في مرتبة اليهودية وإن كان اليهود كفاراً من أصلهم وبمقتضى بقائهم على اليهودية ﴿سماعون للكذب﴾ أي هؤلاء اليهود - أو مع المنافقين - مبالغون في سماع الكذب وقبول ما يفتريه أحبارهم

(١) راجع مجمع البيان: ج ٣ ص ٣٣٦ .

سَمَّعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْرِفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ
مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ
فَأَحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا أُولَٰئِكَ

وشياطينهم ﴿سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ يا رسول الله، إنهم خاضعون لقول غيرك ممن لم يأتوك لتحكيملك في قصة الزنا أو في قصة القتل ﴿يحرفون الكلم﴾ جمع «كلمة» أي كلام الله تعالى ﴿من بعد مواضعه﴾ أي من بعد أن وضعه الله سبحانه في مواضعه، كما حرفوا حكم زنا المحصن الذي هو الرجم إلى الجلد، وكما حرفوا حكم القتل قصاصاً إلى الدية ﴿يقولون﴾ أي يقول المنافقون واليهود بعضهم لبعض ﴿إن أوتيتهم﴾ أي أعطاكم الرسول ﷺ ﴿هذا﴾ وهو الجلد في الزنا والدية في القتل ﴿فخذوه﴾ واقبلوه ﴿وإن لم تؤتوه﴾ هذا الحكم، بل حكم الرسول ﷺ بما في التوراة من رجم الزاني وقتل القاتل ﴿فاحذروا﴾ عن قبول قوله.

ثم توجه الخطاب إلى الرسول ﷺ تسلياً له عن نفاق المنافقين وتحريف اليهود قال سبحانه: ﴿ومن يرد الله فتنته﴾ أي امتحانه، فقد أراد الله سبحانه اختبار اليهود والمنافقين في هذه القضية ليتبين عنادهم وغيرهم وأنهم لا يرجعون إلى حكم الله، ويظهر كذبهم في قولهم أنهم متدينون ﴿فلن تملك له من الله شيئاً﴾ أي لن تستطيع يا رسول الله أن تدفع عنه من أمر الله شيئاً، بل إرادته نافذة وحكمه ماضٍ ﴿أولئك﴾

وَأِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ
فَأَحْكُ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٣﴾
وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ
يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

سبحانه وجهالة المجتمع به ﴿وإن تعرض عنهم﴾ فلم تحكم بينهم ﴿فلن يضروك شيئاً﴾ إذ النفع والضرر بيد الله سبحانه لا بيد غيره ﴿وإن حكمت﴾ يا رسول الله ﴿فاحكم بينهم بالقسط﴾ أي بالعدل الذي هو إجراء حكم الله من رجم الزاني المحصن وقتل القاتل شخصاً ما ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ أي العادلين الذين يعدلون في حكمهم .

[٤٤] إن أمر هؤلاء اليهود عجيب فإنهم لا يعترفون بك رسولاً ومع ذلك يحكمونك في قضيتهم وذلك ليس إلا أنهم يريدون فراراً من حكم التوراة إلى حكم يطابق أهواءهم ﴿وكيف يحكمونك﴾ أي يجعلونك حكماً يا رسول الله ﴿وعندهم التوراة﴾ أي والحال أن لديهم التوراة التي يعترفون بها كتاباً ﴿فيها حكم الله﴾ بالنسبة إلى الزنا والقتل ﴿ثم يتولون من بعد ذلك﴾ التحكيم، أو من بعد حكمك فلا يقبلون حكمك أيضاً ﴿وما أولئك﴾ اليهود والمنافقون الذين حكموك، ثم تولوا ﴿بالمؤمنين﴾ بالتوراة أو بحكمك، وإنما يظهرون الإيمان كذباً واختلاقاً.

[٤٥] ثم بين سبحانه أن التوراة التي أُعرض عن حكمها في قصة الزنا والقتل كتاب سماوي يجب العمل به، ومن المعلوم أنه ليس المراد بذلك

إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ
الَّذِينَ اسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا

التوراة المحرّفة التي بأيدي اليهود اليوم، فقد كان قسم من التوراة محفوظاً عن التحريف إلى زمان النبي ﷺ، كما أن المعلوم أن المراد كون التوراة في وقتها هدى ونور، أما إذا جاء أهدى منها وأكثر نوراً ونسخ قسماً من أحكامها لم يُعمل بالمنسوخ منها، وذلك كما لو قلنا: أن القرآن هدى ونور، يراد المجموع من حيث المجموع، لا أنه يعمل به حتى بالنسبة إلى الآيات المنسوخ حكمها على تقدير تسليم النسخ في القرآن.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى﴾ يَهْتَدِي بِهِ النَّاسُ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ
﴿وَنُورٍ﴾ يَنِيرُ دُرُوبَ الْحَيَاةِ الْمَظْلَمَةِ - وَلَعَلَّ الْعُظْفَ لِلْبَيَانِ - ﴿يُحْكَمُ
بِهَا﴾ أَيِ بِالتَّوْرَةِ ﴿النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ لِلَّهِ وَأُذِنُوا لِحُكْمِهِ، وَمِنْ
جَمَلَةِ أَوْلَئِكَ الْأَنْبِيَاءِ الرَّسُولُ ﷺ الَّذِي حَكَمَ عَلَى طَبَقِهَا فِي قِصَّةِ
الزَّانِي وَالْقَاتِلِ ﴿لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أَيِ أَنَّ الْحُكْمَ إِنَّمَا كَانَ لِلَّذِينَ هَادُوا أَمَا
غَيْرُهُمْ مِنَ النَّصَارَى وَالْمُسْلِمِينَ فَإِنَّمَا يُحْكَمُ بَيْنَهُمْ حَسَبَ مَعْتَقَدِهِمْ .
وَقَدْ ثَبَتَ فِي الشَّرِيعَةِ جَوَازَ الْحُكْمِ لِكُلِّ أَهْلِ كِتَابٍ بِكِتَابِهِمْ . قَالَ أَمِيرُ
الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «وَاللَّهِ لَوْ ثَنَيْتَ لِي الْوَسَادَةَ لِحُكْمَتِ بَيْنِ أَهْلِ التَّوْرَةِ
بِتَوْرَاتِهِمْ ، وَبَيْنِ أَهْلِ الْإِنْجِيلِ بِإِنْجِيلِهِمْ ، وَبَيْنِ أَهْلِ الزَّبُورِ بِزُبُورِهِمْ ،
وَبَيْنِ أَهْلِ الْقُرْآنِ بِقُرْآنِهِمْ»^(١) ، كَمَا ثَبَتَ قَوْلُهُمْ عَلَيْهِ السَّلَامُ : «أَلْزَمُوهُمْ بِمَا
أَلْزَمُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ»^(٢) .

(١) بحار الأنوار: ج ٣٠ ص ٦٧٢ .

(۲) تهذيب الاحكام: ج ۹ ص ۳۲۲ .

وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ
وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا الْكَاسَ وَأَخْشَوْنَ

لكن من المعلوم أنه ليس كل الأحكام كذلك، بل من الأحكام ما لا يجوز أن يحكم بها، والقاعدة الكلية: أنه كل ما أجاز الإسلام أن يحكم به الحاكم على طبق دياناتهم جاز ذلك، وكل ما لم يجز كان اللازم الرجوع إلى حكم الإسلام.

﴿و﴾ يحكم بالتوراة ﴿الربانيون﴾ وهم المتدينون فإن «رباني» منسوب إلى «الرب» من غير قياس ﴿والأحبار﴾ جمع «جبر» بالكسر و«خبر» بالفتح، وهو العالم، أي أن الأنبياء والأتقياء والعلماء يحكمون بالتوراة، وإنما يحكم هؤلاء بالتوراة ﴿ب﴾ سبب ﴿ما استحفظوا﴾ أي استدعوا ﴿من كتاب الله﴾ أي حيث أن الله سبحانه جعلهم حافظين للكتاب واثمنهم عليه في أن يحكمون بموجبه ﴿وكانوا عليه شهداء﴾ أي أن النبيين والربانيين والأحبار كانوا شهداء على أن ما في الكتاب حق وصدق. والحاصل أن هؤلاء يحكمون بالتوراة لأنه وديعة عندهم وهم يشهدون بصدقه.

وحيث بين سبحانه أن التوراة يحكم بها أولئك الصفوة وأنهم محل وديعة والشهداء على صحته، بين أن مقتضى ذلك أن يكون الإنسان المتصف بهذه الصفات شجاعاً في إظهار أحكامه فلا يخون ولا يكتُم ولا يخشى الناس ﴿فلا تخشوا الناس﴾ في إظهار أحكام التوراة ومنها مسألة رجم الزاني وقتل القاتل ﴿واخشون﴾ في ترك أمري

وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ
بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْأَنفِ وَالْأَنفَ بِالْأَنفِ

وتحريف حكمي فإن النفع والضرر بيدي ﴿ولا تشتروا ب﴾ مقابل ﴿آياتي﴾ وأحكامي ﴿ثمناً قليلاً﴾ حيث أنكم إذا كنتمم الأحكام لأجل الرشوة والرئاسة كنتم كمن يعطي السلعة ليأخذ المال، وكل شيء من المال والرئاسة في مقابل حكم الله ثمن قليل لأنه يزول وينتقل وتبقى تبعة التحريف والكتمان والحكم بخلاف ما أنزل الله ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ لعل وجه الإتيان بالنفي دون أن يقول «ومن حكم بغير ما أنزل الله» ليشمل الحاكم بالخلاف والساكت الكاتم، فإن من يعلم حكم الله ويسكت ويكتم يكون مصداقاً لـ «من لم يحكم بما أنزل الله» ﴿فأولئك هم الكافرون﴾ ومن المعلوم أن عدم الحكم كفر عملي لا كفر اعتقادي، إلا إذا رجع إلى الجحود لأصل من أصول الدين، وإنكار ضروري من ضروريات الإسلام، ويسمى كافراً لأنه ستر الحق، فإن الكفر لغة بمعنى الستر.

[٤٦] ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي على بني إسرائيل ﴿فِيهَا﴾ أي في التوراة ﴿أَنْ﴾ النفس ﴿تَقْتُلَ﴾ مقابل ﴿النَّفْسِ﴾ فإذا قُتِلَ الإنسان شخصاً عمداً، قُتِلَ القاتل في قبال ذلك، ولعل هذه الآية تؤيد كون الآيات السابقة كانت بشأن قصة بني النضير وبني قريضة - كما تقدم - ﴿وَالْعَيْنِ﴾ مَفْقُوءَةٌ ﴿بِالْعَيْنِ﴾ أو معمية بها ﴿وَالْأَنْفِ﴾ مجدوعة ﴿بِالْأَنْفِ﴾ أما

وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ
فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ
بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٦﴾

ذهاب حاسة الشم فلعله خلاف الظاهر وإن كان الحكم كذلك إذا أمكن
﴿والأذن﴾ مصلومة ﴿بالأذن﴾ وفي ذهاب السمع ما تقدم ﴿والسن﴾
مقلوعة ﴿بالسن﴾ ولذلك كله شرائط مذكورة في كتب الفقه^(١).

﴿والجروح﴾ فيها ﴿قصاص﴾ فمن جرح إنساناً جرح كما جرح،
ويدخل فيه الشفة والذکر والبيضتان واليدان والرجلان وسائر أقسام
الجروح. و«القصاص» مشتق من «قص» بمعنى اتّباع الأثر، كأن
المجروح يتبع أثر الجراح فيجرحه ﴿فمن تصدق به﴾ أي بالقصاص
بأن عفا عنه وأسقطه وتنازل عن حقه ﴿فهو﴾ أي التصدق ﴿كفارة﴾ أي
حط عن الذنوب ﴿له﴾ أي للمتصدق المجروح. قال الإمام
الصادق عليه السلام: «يُكَفِّرُ عَنْهُ مَنْ ذَنُوبَهُ بِقَدْرِ مَا عَفَا مِنْ جِرَاحٍ أَوْ غَيْرِهِ»^(٢).

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ تقدم الكلام فيه ﴿فأولئك هم
الظالمون﴾ الظلم هو ظلم النفس وظلم الغير، وقد اختلف التعبير هنا
عن الآية السابقة «الكافرون» والآية الآتية «الفاسقون» لإفادة أن من لم
يحكم بما أنزل الله يتصف بصفات ثلاث لأنه قد ستر حكم الله وكتمه
فهو «كافر» إذ الكافر بمعنى الساتر، كما تقول: الزارع كافر، لأنه يستر

(١) موسوعة الفقه: ج ٨٩ .

(٢) الكافي: ج ٧ ص ٣٥٨ .

وَقَفَيْنَا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ
التَّوْرَةِ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٧﴾

الحبة تحت الأرض، ولأن الكافر قد ظلم نفسه لأنه عصى الله سبحانه
في كتمان حكمه وظلم المترافعين والمجتمع لأن حكم الله هو الحق
وسواه انحراف وزيف فهو «ظالم» وأنه قد خرج بحكمه ذاك أو سكرته
عن الحق عن الجادة المستقيمة فهو «فاسق» إذ الفسق بمعنى الخروج
والمروق.

[٤٧] ولما ذكر سبحانه اليهود، اتجه الكلام إلى ذكر النصارى مبيناً أن الأنبياء
من سلسلة واحدة وأن كتبهم كلها هدى ونور، وأن بعضها يصدق بعضاً
﴿وقفينا﴾ من «التقفية» أصله «القفو» بمعنى اتباع الأثر يقال: قفيته بكذا
أي اتبعته به ﴿على آثارهم﴾ أي آثار الأنبياء حيث قال سبحانه: «يحكم
بها النبيون» ﴿بعيسى ابن مريم﴾ أي أتبعنا على آثار النبيين عيسى ابن
مريم فقد بعثناه رسولاً من بعدهم ﴿مصدقاً﴾ أي في حال كون
المسيح ﷺ يصدق ﴿لما بين يديه﴾ أي ما تقدمه ﴿من التوراة﴾ بيان «ما»
ويقال للسابق الزماني: «بين يديه» تشبيهاً بالسابق المكاني الذي هو «بين
يدي الإنسان» أي في قبالة ﴿وآتيناه﴾ أي أعطينا عيسى ﷺ ﴿الإنجيل﴾
أي أنزلناه عليه ﴿فيه هدى ونور﴾ تقدم معنى ذلك ﴿ومصدقاً﴾ أي في
حال كون الإنجيل مصدقاً ﴿لما بين يديه من التوراة﴾ فقد كان
عيسى ﷺ يصدق التوراة، وكتابه الإنجيل يصدقها أيضاً ﴿وهدى﴾ أي
أن الإنجيل كتاب هداية وإرشاد ﴿وموعظة﴾ أي واعظاً ﴿للمتقين﴾ الذين

وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ
بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ
وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ

=====

يتقون الآثام، فهو يحذّرهم من العقاب ويرشدهم ويحرضهم على
الثواب. وقد كرر التصديق والهداية، تأكيداً وتركيزاً.

[٤٨] ﴿وليحكم﴾ أي يجب أن يحكم ﴿أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ من
الأحكام والدلالات التي منها التبشير بالنبي ﷺ ووجوب اتباعه ﴿ومن
لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ أي أن الديانات كلها من
عند الله، وأن الأنبياء كلهم سفراء له وحده، وأن الكتب كلها منزلة من
عند الله، فمن الضروري أن يحكم الأنبياء بالكتب المنزلة ويتبع الناس
الأنبياء والكتب، أما ما حُرّف منها فليس من الله، كما أن ما نُسخ منها
فاللازم تركه واتباع الناسخ عوضه.

[٤٩] ولما أتم الكلام حول التوراة والإنجيل - وهما الكتابان المتداولان في
أيدي الناس - ذكر سبحانه القرآن الحكيم ﴿وأنزلنا إليك﴾ يا رسول الله
﴿الكتاب﴾ أي القرآن الحكيم ﴿بالحق﴾ كتاباً بالحق لأنه ليس فيه
باطل، أو إنزالاً بالحق، حيث كان المُنزّل والمُنزّل عليه لهما الحق في
ذلك، فالمُنزّل إله يحق له التنزيل والتشريع، والمُنزّل إليه رسول يحق
له الأخذ والقبول ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ اللام للجنس أي
أن القرآن يصدق ما سبقه من كتب الأنبياء ﴿ومهيماً عليه﴾ أي أن
القرآن مهيمن على الكتاب المتقدم، ومعنى الهيمنة السيطرة، فإن

فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا
جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا

القرآن الحكيم كشاهد مسيطر يدل على مواقع الخطأ والصواب من الكتب السابقة، كل ما حرفه دل عليه وكل ما زادوا أو أنقصوا منهما أشار إليه، وذلك لأن القرآن يبين كليات العقائد وأصول العبادة والمعاملة والأخلاق، وفي الكتب السابقة مواقع كثيرة قد زاغت عن الحق بأيادي أثيمة، يدل عليها القرآن ويشير إليها ﴿فأحكم﴾ يا رسول الله ﴿بينهم﴾ أي بين أهل الكتب السالفة، أو بين اليهود ﴿بما أنزل الله﴾ من الأحكام، ومنها في رجم زنا المحصن، وقتل القاتل ﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ أي ما يشتهون من خلاف حكم الله، فقد أحبوا أن يحكم الرسول بخلاف الحق، فيفتي بجلد المحصن الزاني، ودية القاتل ﴿عما جاءك من الحق﴾ أي لا تزغ عما جاءك، فإن معنى اتباع أهوائهم: الزيغ عن الحق. وكثيراً ما يشبه فعل معنى فعل آخر فيتعدى الفعل الأول بما يتعدى به الفعل الثاني، كما ذكره «المُغني».

ولما كان المقام يومهم اتحاد الديانات من جميع الحيشيات حيث أن الآيات السابقة أفادت تصديق كل نبي وكتاب لما سبقه، فأية حاجة إذاً لإيمان اليهود والنصارى بالنبي والقرآن، تعرّض السياق إلى اختلاف الشرائع والمناهج في الخصوصيات والمزايا وإن اتحد الجميع في الأصول والجوهر ﴿لكل جعلنا منكم﴾ أي لكل أمة منكم أيها اليهود والنصارى والمسلمون جميعاً جعلنا ﴿شريعة﴾ أي طريقة ﴿ومنهاجاً﴾ «الشريعة» أول الطريق، و«المنهاج» الطريق المستقيم الذي يلزمه

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا
 ءَاتَلَكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا
 فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٩﴾

الإنسان في حياته ليسير عليه، وكأن وجه تقديم «جعلنا» على «منكم» أن المقام مقام الجعل، لا مقام ذكر الأمم. وقد تقرر في علم البلاغة أن المقدم من الألفاظ هو الذي سيق له الكلام، يقال: «زيد جاء» إذا كان المقام مقام ذكر زيد وأعماله، ويقال: «جاء زيد» إذا كان المقام مقام ذكر الجائين. ﴿ولو شاء الله لجعلكم﴾ أيها الأمم الثلاث ﴿أمة واحدة﴾ بأن لا ينزل عليكم إلا كتاباً واحداً ولا يرسل إلا رسولاً واحداً ﴿ولكن﴾ جعلكم على شرائع مختلفة ﴿ليبلوكم﴾ أي يمتحنكم ﴿في ما آتاكم﴾ أي فيما فرضه عليكم وأعطاكم وشرع لكم حتى يتبين من يقبل الرسول اللاحق ومن لا يقبل، ومن يعمل بأوامره عملاً تاماً ومن لا يعمل ﴿فاستبقوا﴾ أيها الأمم ﴿الخيرات﴾ أي ليبادر بعضكم بعضاً في تحصيل الخيرات والعمل بما أمر الله ﴿إلى الله مرجعكم﴾ ومصيركم ﴿جميعاً﴾ أيها الأمم. وإنما سمي «مرجعاً» تشبيهاً للمعقول بالمحسوس، وإلا فلا مكان لله سبحانه حتى يكون مبدءاً ومرجعاً ﴿فينبئكم﴾ أي يخبركم ﴿بما كنتم فيه تختلفون﴾ من أمور دينكم. وفي الإجمال ما لا يخفى من التهويل - كما يقول الملك لبعض رعيته: أعلمك بما صنعت - ثم يجازيكم حسب أعمالكم وعقائدكم.

[٥٠] ثم كرر سبحانه وجوب الحكم بين اليهود بما أنزل الله، وقد كرر ذلك

وَأَن أٰحْكَمَ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَٱحْذَرَهُمْ
 أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنهَا
 يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ

لأنهم حكموه ﷺ في قصتين قصة الزنا وقصة القتل ﴿وَأَن أٰحْكَمَ﴾ عطف على قوله في الآية السابقة «فاحكم» أو عطف على «الكتاب» أي أنزلنا إليك الكتاب وأنزلنا إليك «أَن أٰحْكَمَ» ﴿بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم﴾ وما يشتهون من خلاف الحكم ﴿واحذرهم﴾ يا رسول الله، أي احذر اليهود ﴿أَن يفتنوك﴾ أي يضلوك ﴿عن بعض ما أنزل الله إليك﴾ بأن تفتي بغير ما أنزل الله. فقد ورد أن اليهود عرضوا على الرسول ﷺ أن يؤمنوا له إذا تصالح معهم على التسامح في أحكام خاصة، منها حكم الرجم في الزاني المحصن، وهذا التحذير للرسول ﷺ ليس معناه أنه كان يعمل على الخلاف، وإنما هو لبيان الحكم، كما يخاطب بقوله تعالى: (أَقِمِ الصَّلَاةَ)^(١)، ونحوه ﴿فإن تولوا﴾ أي أعرضوا عن الحق ولم يقبلوا قولك وحكمك ﴿فاعلم﴾ يا رسول الله ﴿أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم﴾ فإن التمرد على الله ورسوله يوجب نكال الله سبحانه، وتمردهم عن حكمك موجب لأن يسخط الله عليهم فيأخذهم ببعض ما سلف من ذنوبهم، أو نفس التمرد نكال سببه بعض ذنوبهم السابقة.

روي أن رجلاً قال للإمام أمير المؤمنين عليه السلام: إني حُرِّمت صلاة الليل؟ قال الإمام: «أنت رجل قيدتك ذنوبك»^(٢).

(١) هود: ١١٥ .

(٢) عوالي اللآلي: ج ٢ ص ٥٦ .

وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٥٠﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ
وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ

﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أي الخارجون عن طاعة الله ،
وهذا تسلية للنبي ﷺ أن لا يغتم لعدم نفوذ حكمه .

[٥١] ﴿أفحكم الجاهلية يبغون﴾ استفهام إنكاري ، أي هل يبغي هؤلاء
اليهود حكم الجاهلية ، والمراد بها جاهلية البشر التي لا يرجع حكمهم
فيها إلى قانون ثابت بل تحكم الأهواء والقبليات والعصبيات وما أشبه ،
فكل من يتبغي حكماً غير حكم الله فإنه يتبغي حكم الجاهلية ، حتى إذا
كان الحكم أكثرية «برلمانية» ﴿ومن أحسن من الله حكماً﴾ أي ليس
هناك حكماً أحسن من حكم الله ﴿لقوم يوقنون﴾ بالله واليوم الآخر ،
فإنهم يعلمون أن حكم الله أحسن الأحكام لأنه خال من جميع
الانحرافات التي تصيب حكم البشر .

[٥٢] وبعدهما بيّن سبحانه انحراف اليهود وضلالهم ، ذكر سبحانه هنا عدم
جواز اتخاذ اليهود أو النصارى أولياء . وقيل في سبب النزول : أنه لما
كانت وقعة أحد اشتد الأمر على طائفة من الناس فقال رجل من
المسلمين : أنا ألحق بفلان اليهودي وأخذ منه أماناً ، وقال آخر : أنا
ألحق بفلان النصراني فأخذ منه أماناً ، فنزلت الآية ﴿يا أيها الذين آمنوا
لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ فلا تصادقوهم مصادقة الولي لوليه
والحميم لحميمه ﴿بعضهم أولياء بعض﴾ فإن بعضهم ينصر بعضاً
ويُعينه عليه ، وقد ظهر انطباق كلامه سبحانه على الخارج طيلة أربعة

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ
 ﴿٥٢﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ

عشر قرناً فإن اليهود والنصارى لم يزالا ينصر أحدهما الآخر على المسلمين على ما بينهما من العدا والبغضاء ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾ أي يصادقهم وينتصر بهم ويجعلهم أولياء له ﴿فإِنَّهُمْ مِنْهُمْ﴾ فإنه كافر عملاً، من أهل النار، وهو خطر على المسلمين، فالذين تولوا الكفار كانوا من أخطر الناس على المسلمين، وكانوا في زمرة الكفار ينصرونهم وينتصرون بهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يظلمون أنفسهم بعدما علموا وعرفوا، فإنه سبحانه لا يُلطف بهم لطفه الخفية.

[٥٣] وبعد هذا القرار الجازم، الذي دل عليه منطق التاريخ السابق على الإسلام، حيث أن كل موالٍ لا بد وأن يكون هواه مع من يوالي، لا مع مجتمعه، والذي قد نُهي عنه صريحاً ﴿فَتَرَى﴾ يا رسول الله ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي شك ونفاق. قال ابن عباس: إن المراد بذلك عبد الله بن أبي، أن عبادة بن الصامت الخزرجي أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن لي أولياء من اليهود، كثير عددهم، قوية أنفسهم، شديدة شوكتهم، وأنا أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم ولا مولى لي إلا الله ورسوله. فقال عبد الله بن أبي: لكن لا أبرأ من ولاية اليهود لأنني أخاف الدوائر ولا بد لي منهم.

ثم أنه شبه النفاق بالمرض لأن كليهما موجب لانحراف الإنسان، فالمرض يوجب انحراف مزاجه، والنفاق يوجب انحراف سلوكه

يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ
يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِيهِ
أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٣﴾

المنبث من انحراف روحه ﴿يسارعون فيهم﴾ أي في تولي أهل الكتاب
واتخاذهم أولياء، ولعل الإتيان بلفظة «يسارعون» لإفادة أنهم يوالونهم
قبل ظهور علائم الاحتياج إليهم «من هزيمة المسلمين» فإنهم يحتاطون
باتخاذهم أولياء لئلا يأتي يوم يحتاجون إليهم، وذلك أسوأ حالاً ممن
يوالونهم إذا ظهرت علامة هزيمة في المسلمين ﴿يقولون﴾ أي قائلين
لتبرير موقفهم ﴿نخشى أن تصيبنا دائرة﴾ أي دوران الفلك الموجب لغلبة
الكفار على المسلمين فإننا نتخذهم من الآن أولياء لنكون في أمان إذا
دارت الدائرة ﴿فعسى الله﴾ أي لعل الله ﴿أن يأتي بالفتح﴾ للمسلمين
بأن يفتحوا بلاد الكفار ويكون الغلب لهم على الكفار ﴿أو أمر من عنده﴾
غير الفتح من إعزاز المسلمين وتكثير عددهم وجلاء الكفار
﴿فيصبحوا﴾ أي يصبح هؤلاء المنافقون الذين والوا الكفار خوف
غلبتهم ودوران الدائرة على المسلمين ﴿على ما أسروا في أنفسهم﴾ من
موالاة اليهود وتمني الغلبة لهم. ولعل ذكر «أسروا» مع أنهم أعلنوا عن
ولايتهم خوف الدائرة، لإفادة أنهم كانوا قد أسروا أشياء كثيرة في
أنفسهم، كما هو شأن النفاق والمنافقين ﴿نادمين﴾ وليس ندمهم من
جهة الحق، بل من جهة أنهم خسروا الطرفين، طرف المسلمين لأنهم
عرفوا نفاقهم، وطرف الكفار لأنهم هُزموا.

وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ
 إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَتَأْتِيهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ

[٥٤] ﴿و﴾ إذ قسم الله الفتح للمؤمنين ، أو أتاهم بأمرٍ من عنده ﴿يقول الذين آمنوا﴾ إيماناً صادقاً ، يقولون متعجبين من نفاق المنافقين واجترأهم على الله بالآيمان الكاذبة : ﴿أهؤلاء الذين أقسموا بالله﴾ أي : هل هؤلاء المنافقون الذين انكشفت حقائقهم هم الذين حلفوا بالله ﴿جهد أيمانهم﴾ أي جهدوا جهد أيمانهم ، بمعنى : حلفوا بأغلظ الأيمان ﴿إنهم لمعكم﴾ أي مع المؤمنين في صدق الإيمان والمناصرة؟ كيف حلفوا بتلك الآيمان المغلظة ، وقد ظهر نفاقهم خلال المعركة الحاسمة الموجهة لترجيح كفة المسلمين؟ فإن النفاق لا يظهر جيداً إلا في المعارك والمخاوف . وهناك حيث عرف المسلمون حقيقتهم تعجبوا من إيمانهم المزيف ، وأيمانهم المغلظة الكاذبة التي أرادوا بها دعم إيمانهم وإدخال أنفسهم في زمرة المؤمنين ﴿حبطت أعمالهم﴾ جملة مستأنفة ، أي أن المنافقين ضاعت أعمالهم الإيمانية بسبب النفاق ، أو : أنهم ضاعت مساعيهم في مصانعة الطرفين بسبب انهزام الكفار فلا ظهر لهم ، وكشف باطنهم للمسلمين فيتجنبون عنهم ﴿فأصبحوا خاسرين﴾ دنياً وآخرة .

[٥٥] ثم بعدما بيّن مضرّة النفاق ، توجه السياق إلى المؤمنين مبيّناً لهم أنهم إن ارتدوا فلا يظنوا أن ذلك يضر دين الله سبحانه فقد وكلّ الله بدينه في كل دور أناساً يقومون بشرائط الإيمان ، فالمرتد إنما يضر نفسه لا أنه يضر دين الله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه﴾

فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى
الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ

=====

ارتداداً إلى الكفر، أو إلى النفاق، فإن انقلاب الباطن عن الإسلام هو نوع من الارتداد أيضاً ﴿فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ فهو ذو صلة بهم وهم ذووا صلة به سبحانه. ولعل الإتيان بكلمة «سوف» لثلاً يظنون أن في تأخير الأمر انقطاعاً وانفصاماً للإيمان، بل قد يتأخر مجيء الصلحاء بعد ارتداد قسم من الناس عن الإيمان ﴿أذلة على المؤمنين﴾ أذلة من «الذل» بكسر الهمزة والضاد: ضد الصعوبة، وقد يكون من «الذل» بضم الهمزة: ضد العزة ﴿أعزة على الكافرين﴾ أي يكونون لثنين على المؤمنين، غلاظ شداد على الكافرين. وإنما كان ذلك مدحاً لأن اللين مع الكافر موجب لبقاء الكفر، بخلاف إظهار الشدة الذي يوجب حصر الكفر على نفسه وانكماشه، وعدم تعديه إلى المؤمنين الضعاف، كما قال سبحانه في آية أخرى: (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) ^(١)، ﴿يجاهدون في سبيل الله﴾ لإعلاء كلمته ﴿ولا يخافون لومة لائم﴾ فإن الجهاد يلزم لوم اللائمين من المؤمنين ومن الكافرين، أما «من الكافرين» فواضح، وأما «من المؤمنين» فلأن الآراء غالباً ما تختلف بسبب لوم بعضهم لبعض كما هو المشاهد المحسوس، وكثيراً من الناس يمنعه الجهاد والإقدام لوم اللائمين لا صعوبة الجهاد.

وقد نزلت هذه الآية في علي أمير المؤمنين عليه السلام وأصحابه الأكرمين، وإن كانت عامة بحسب اللفظ، كما هو شأن آيات القرآن غالباً.

ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾

ولعل وجه قوله: «يأتي» مع أن الإمام عليه السلام كان حاضراً وقت النزول، اعتبار الوصف أي قوله «يجاهدون». تقول: «سوف آتي بشخص يفعل كذا» تريد أن الفعل «سوف» يأتي لا الشخص.

﴿ذلك﴾ المذكور في أوصاف القوم من محبة الله لهم ومحبتهم لله ولينهم مع المؤمنين وشدتهم على الكافرين وجهادهم بدون خوف اللوم ﴿فضل الله﴾ حيث تفضل عليهم بهذه الصفات وهداهم إلى الحق ﴿يؤتيه﴾ أي يعطي هذا الفضل ﴿من يشاء﴾ ممن كان قابلاً وأهلاً ﴿والله واسع﴾ فضله فلا يخاف نفاده إن أعطى أحداً ﴿عليم﴾ بموضع فضله وجوده.

[٥٦] ولما ذكر سبحانه أنه لا يجوز أن يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء، بين ولي المؤمنين وأن اللازم أن يتخذوا الله ورسوله ومن نصبه الله ولياً. وقد أجمع المفسرون بأن هذه الآية نزلت في علي أمير المؤمنين عليه السلام ^(١). وقد يقال أن الأئمة الأحد عشر عليهم السلام ليسوا بمشمولين للآية، لدلالة «إنما» على الحصر؟ والجواب من وجهين:

الأول: إن الآية حصرت الأمر في وقت النزول، وكانت ولايتهم عليهم السلام بعد ذلك.

والثاني: وهو الأصح أن ولاية الأئمة من ولاية علي عليه السلام، كما لو قال: والي بلدكم فلان، فإن من عينه الوالي للأمر كان امتداداً لولاية فلان.

(١) مجمع البيان: ج ٣ ص ٣٦١ وتفسير العياشي: ج ١ ص ٣٢٧.

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ
 الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٦﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ
 حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٧﴾

﴿إنما وليكم الله﴾ فالله له الولاية المطلقة والسلطنة الكاملة من
 جميع الجهات عليكم ﴿ورسوله﴾ محمد بن عبد الله ﷺ ﴿والذين
 آمنوا﴾ المتصفون بكونهم ﴿الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾ أي
 الصدقة ﴿وهم راكعون﴾.

وقد روت العامة والخاصة أن هذه الآيات نزلت في علي أمير
 المؤمنين ﷺ لما تصدق بخاتمه وهو في الركوع. وفي بعض الأخبار
 أنه كان تصدق قبل ذلك أيضاً في صلاة أخرى بحلة قيمتها ألف دينار
 أرسلها النجاشي إلى النبي ﷺ فأهداها إلى علي ﷺ^(١).

[٥٧] ثم ذكر سبحانه أنه في تولي هؤلاء النجاح والغلبة، فمن ظن أن في
 تولي غيرهم النجاح فقد اشتبه، ودل التاريخ أنه كلما التزم المسلمون
 بهؤلاء نجحوا وتقدموا، وكلما تولوا غيرهم خسروا وتأخروا ﴿ومن
 يتولَّ الله﴾ أي يتخذ الله سبحانه ولياً ياتمر بأوامره وينتهي عن زواجه
 ﴿ورسوله﴾ يقتدي به في أعماله وأقواله ﴿والذين آمنوا﴾ علي والأئمة
 من ولده ﷺ - حسب النزول - أو كل مؤمن حسب العموم، في مقابل
 اتخاذ الكفار أولياء ﴿فإن حزب الله﴾ جنده وجماعته ﴿هم الغالبون﴾
 على من سواهم من الأحزاب والجنود، وفي قطع قوله: «فإن حزب

(١) الكافي: ج ١ ص ٢٨٨.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ

الله» عن الجملة السابقة، إذ لم يقل «فإنهم الغالبون»، إفادة أن المتولي
يُعدّ من حزب الله وجماعته، فليس الأمر من ناحية العبد فقط، بل من
ناحية الله أيضاً.

[٥٨] قد نُهي المسلمون عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، ثم الآن يأتي
السياق لينهى عن اتخاذ أي كافر أو كتابي - ولو لم يكن يهودياً أو
نصرانياً - ولياً. وقد ورد في سبب النزول أن زيد بن ثابت وسويد بن
الحارث قد أظهرَا الإسلام ثم كان رجال من المسلمين يوادونهما
فنزلت هذه الآية، ولو كان الأمر كذلك فالمراد، بمن دُكر في الآية أعم
من المنافق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا
وَلَعِبًا﴾ أي سخرية وتلاعباً، وذلك بأن أظهرُوا الإسلام باللسان وأبطنُوا
الكفر بالجنان، أو المراد جعله سخرية ولعب يستهزئون به ﴿مِنَ الَّذِينَ
أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أي أنزل عليهم الكتاب ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ وهم أهل الأديان
السابقة على الإسلام ﴿و﴾ من ﴿الْكَفَّارِ﴾ المراد بهم الأعم من
المنافقين - كما سبق - ولا يخفى أن الكفار أعم من أهل الكتاب، لكن
إذا ذكروا في كلام كان المراد بالكفار غيرهم ﴿أَوْلِيَاءَ﴾ تتولونهم
كاتخاذ المؤمنين لله ورسوله أولياء ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ فلا تخالفوه ﴿إِن
كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله وبما أمر به.

[٥٩] ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِلَى الصَّلَاةِ﴾ إي دعوتهم إليها

اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنَّا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ ﴿٦٠﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ

﴿اتخذوها﴾ أي اتخذوا الصلاة ﴿هزواً ولعباً﴾ مهزلة وتلاعياً فيتضحكون ويتغامزون بينهم - كما هي عادة منافقي اليوم أيضاً - ﴿ذلك بأنهم﴾ أي ذلك الاستهزاء بالصلاة بسبب أن الكفار ﴿قوم لا يعقلون﴾ منافع الصلاة وأنها موجبة للنجاة من النار.

[٦٠] وجاء قوم من اليهود يسألون الرسول ﷺ عمن يؤمن به من الرسل؟ فقال: أؤمن بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق . . إلى أن ذكر عيسى عليه السلام فلما سمعوا ذلك منه جحدوا نبوته وقالوا: ما نعلم أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم، فنزلت ﴿قل﴾ يا رسول الله لأهل الكتاب: ﴿يا أهل الكتاب هل تنقمون منا﴾ أي تسخطون علينا ﴿إلا أن آمنا بالله﴾ إيماناً لا يشوبه كفر - كمايمانكم - ﴿وما أنزل إلينا﴾ يعني القرآن الحكيم ﴿وما أنزل من قبل﴾ على جميع الأنبياء ﴿وأن أكثركم فاسقون﴾ فإن فسقكم - أي خروجكم - عن دين الله هو سبب نقمتكم علينا. وهذا كقولهم: «هل تنقم مني إلا أنني عفيف وأنت فاجر»، أو: «إلا أنني كريم وأنت بخيل»، فهو من باب الازدواج يحسن في الكلام لتعميم المقابلة، فهو عطف على قوله: «أن آمنا».

[٦١] ﴿قل﴾ يا رسول الله لهؤلاء المستهزئين: ﴿هل أنبئكم﴾ أي أخبركم ﴿بشر من ذلك﴾ أي إن كان إيماناً شراً عندكم فأننا أخبركم بشر من

مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ
وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ
السَّبِيلِ ﴿٦١﴾ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ

ذلك ﴿مَثُوبَةٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي جزاء من عنده سبحانه، وسمي «مَثُوبَةٌ» استهزاء بهم، وإنما سمي ما عند المؤمنين شراً - وإن لم يكن ما للمؤمنين إلا الخير - للمقابلة في الكلام ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ﴾ أي طرده عن رحمته، فلعنة الله لكم من شر إيماننا نحن ﴿وَوَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ بسبب عصيانه وتمرده عن الحق ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ﴾ جمع «قرد»، كما قال سبحانه: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾^(١)، ﴿وَالْخَنَازِيرَ﴾ بأن مسخهم على صور هذين الحيوانين النجسين ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ عطف على قوله: «لَعَنَهُ اللَّهُ» والطاغوت هو العجل الذي عبده ﴿أُولَئِكَ﴾ اليهود الذين هذه صفاتهم ﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ أي أن مكانهم في سقر الذي هو شر من مكان المؤمنين الذين نقموا منهم، وقد ذكرنا أن هذا الكلام من باب المشاكلة اللفظية وإلا فليس في مكان المؤمنين شر ﴿وَأَضَلُّ﴾ أي أكثر ضلالاً ﴿عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي وسط الطريق.

[٦٢] وحيث ابتدأ الكلام بعرض المنافق وأهل الكتاب في صف واحد، ذكر سبحانه صفة من صفات المنافقين، وأنهم كيف لا يؤثر فيهم الوعظ والإرشاد ﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ﴾ أي جاءكم المنافقون ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ إيماناً كإيمانكم ﴿وَو﴾ لكنهم في دعواهم تلك كاذبون، إذ ﴿قَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ﴾

وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ ﴿٦٢﴾ وَتَرَى كَثِيرًا
مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا
كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٣﴾

وهم قد خرجوا به ﴿﴾ أي بالكفر، كأن «الكفر» مادة يحملونها معهم فهم قد دخلوا بهذه المادة حينما دخلوا في المجلس، ثم خرجوا بهذه المادة كما دخلوا، لم تؤثر فيهم الموعظة والبلاغ، حيث كانت قلوبهم مع إخوانهم الكافرين لا معكم حتى تؤثر فيهم الموعظة ﴿والله أعلم﴾ منكم ﴿بما كانوا يكتُمون﴾ أي يخفون من الكفر والنفاق.

[٦٣] ثم إن هؤلاء الكفار يجمعون مع كفرهم صفات أخرى ذميمة هي من مستلزمات الانحراف، أشار إليها بقوله تعالى: ﴿وترى﴾ يا رسول الله ﴿كثيراً منهم﴾ أي من هؤلاء الكفار وهم الرؤساء وذووا الجاه والمنصب ﴿يسارعون في الإثم والعدوان﴾ فيسبق بعضهم بعضاً في فعل الإثم والتعدي على الناس، إنهم حيث لم يؤمنوا بالله وكانت ديانتهم - المزعومة - صورية كان همهم تحصيل أكثر ما يمكن من المال والجاه، لذا يتسابق بعضهم بعضاً في ذلك، إن الإثم لا أهمية له في نظرهم إذ لم يعمر قلوبهم الإيمان، والتعدي من شأن من يريد إعمار دنياه ﴿وأكلهم السحت﴾ كل مال حرام من رشوة وربا وأكل أموال اليتامى وأكل أموال الناس بالباطل ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ فإن أعمالهم توجب خزي الدنيا والآخرة.

[٦٤] وهنا يتوجه السياق إلى العلماء والمتدينون منهم، كيف يسكتون على هذه المنكرات البشعة التي ظهرت في اليهود؟ وما شأنهم إذا سكتوا عن

لَوْلَا يَنْهَهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ
السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٤﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ
مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا

كل تلكم الجرائم ﴿لولا﴾ كلمة تحضيض بمعنى «هلاً» أي: لماذا لا
﴿ينهاهم﴾ أي ينهى هؤلاء الذين يسارعون في الإثم والعدوان
﴿الربانيون﴾ جمع «رباني» وهو منسوب إلى الرب على غير القياس،
أي الإلهيون الذين يتورعون من خوف الله سبحانه ﴿والأحبار﴾ جمع
«حبر» بالفتح والكسر، وهو العالم ﴿عن قولهم الإثم﴾ وهو ما يقوله
الإنسان بغير حق من كذب وغيبة ونميمة وتحريف وغيرها ﴿وأكلهم
السحت﴾ من الربا والرشوة وغيرهما، و«السحت» هو أشد أنواع
الحرام ﴿لبئس ما كانوا﴾ أي كان هؤلاء الربانيون والأحبار ﴿يصنعون﴾
فإن سكوتهم عن الباطل ومجاملتهم لأهله نوع من الصنع.

[٦٥] ثم بين سبحانه مثلاً لـ ﴿قولهم الإثم﴾ بقوله: ﴿وقالت اليهود يد الله
مغلولة﴾ لا ينفق رزقاً ولا يعطي شيئاً، كأنهم قالوا ذلك تبريراً
لبخلهم، فإن الله لو كان لا ينفق فأجدر بهم أن لا ينفقوا، وقيل: إن
سبب نزول هذه الآية: أن اليهود كانوا من أكثر الناس مالاً وسعةً، فلما
جاء الرسول ﷺ وكذبوه ضيق الله عليهم فقال أحد اليهود: إن يد الله
مغلولة، فرد الله عليهم ﴿غلت أيديهم﴾ دعاء عليهم بأن تغل أيديهم
عن الخير، أو إخبار عنهم بأن اليهود بخلاء لؤماء، أي أنهم غلت
أيديهم، لا الله سبحانه ﴿ولعنوا بما قالوا﴾ لعنهم الله وطردهم عن
رحمته بسبب هذه المقالة.

بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيزِيدَ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا
 أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ
 وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ

﴿بل يده﴾ أي يدا الله سبحانه ﴿مبسوطتان﴾ كناية عن جوده وعطائه ، وإنما جاء بذكر اليد للمقابلة ، وذكر «يده» لإفادة تمام معنى الجود ﴿ينفق كيف يشاء﴾ فليس في تضيقه على اليهود دليل على أنه مغلول اليد بل إنما ينفق سبحانه كيف يشاء حسب الحكمة والمصلحة . ثم ذكر سبحانه أن نزول القرآن وفضحهم يزيد كثيراً من اليهود انحرافاً ﴿وليزیدن كثيراً منهم﴾ أي كثيراً من اليهود ، وإنما لم يذكر كلهم لأن بعضهم لا يعنيه الأمر ، وبعضهم يسبب القرآن هدايتهم ﴿ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ «ما» فاعل «يزیدن» و«كثيراً» مفعول مقدم أي طغيانهم وكفرهم يزداد بسبب القرآن ، أما أن كفرهم يزداد فلأنه كلما أنكروا آية وحكماً ازدادوا كفراً وسترأ للحق وأما أن طغيانهم يزداد ، فلأنهم يقاومون الدعوة أكثر فأكثر كلما رأوا تقدمها أكثر .

﴿وألقينا بينهم﴾ أي بين اليهود ﴿العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾ فإن طبيعتهم المتخمرة بحب الذات واعتقاد أنهم شعب الله المختار وبخلهم في الأموال ، لا بد وأن توجد بينهم العداوة والحزاة - ما داموا يهوداً يعتقدون بهذه الاعتقادات السخيفة - فإن أسباب النزاع في العالم يدور حول المنصب والمادة غالباً ، وهذان كامنان في كل يهودي ، وقد دل التاريخ على صدق ذلك ، فاليهود دائماً متحاربون متباغضون ، حتى في فلسطين اليوم تقوم الأحزاب اليهودية والمنظمات

كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٦﴾

بأشع أنواع العداوة والبغضاء فيما بينها وقد مر سابقاً تفسير «إلى يوم القيامة» وأنه كناية عن بقاء الحكم ما دام اليهود موجودين ﴿كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله﴾ أي كلما أرادوا محاربة المسلمين هزمهم الله ونصر المسلمين عليهم، وقد دل التاريخ على ذلك، فقد غلب النبي ﷺ على يهود بني «قريضة» و«النضير» و«خير» و«فدك» وغيرهم مع كثرة عددهم وعددهم، وبعد ذلك لم يتمكن اليهود من محاربة المسلمين، حتى في يومهم هذا في فلسطين إنما يستندون إلى «حبل من الناس». ثم ما هي إلا فترة حتى تراها قد انقشعوا انقشاع الضباب ﴿ويسعون في الأرض فساداً﴾ فهم المفسدون دائماً، حيث يريدون العلو على الناس، وجمع الأموال، ومن المعلوم أن ذلك لا يتهياً لهم إلا بالفساد ﴿والله لا يحب المفسدين﴾ أي يكرههم، لملازمة «كراهته» لـ «عدم حبه»، فإن كل مصلح محبوب وكل مفسد مكروه.

[٦٦] ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ إيماناً بما أنزل الله وتقوى من معاصي الله ﴿لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي سترنا سيئاتهم الماضية، لأن الإسلام يجب ما قبله ﴿وَلَأَدْخُلَنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي التي فيها أنواع النعم والكرامة.

وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ
لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ
وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾ يَأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ
إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ

=====

[٦٧] ﴿ولو أنهم﴾ أي أهل الكتاب ﴿أقاموا التوراة والإنجيل﴾ أي عملوا بما فيهما بدون تحريف وزيادة ونقيصة ﴿و﴾ أقاموا ﴿ما أنزل إليهم من ربهم﴾ أي القرآن، وكونه منزلاً إليهم باعتبار نزوله بين أوساطهم وفي زمانهم ﴿لأكلوا من فوقهم﴾ أي السماء، فإنه سبحانه ينزل «السماء مدراراً» لمن آمن واتقى ﴿ومن تحت أرجلهم﴾ بإعطاء الأرض خيرها وبركتها، كما قال سبحانه: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) ^(١)، ﴿منهم أمة مقتصة﴾ أي من هؤلاء «أهل الكتاب» جماعة معتدلون في العمل لا غلو عندهم ولا تقصير، كما نجد أن كل أمة بعضهم معتدلون، وبعضهم متطرفون، أو المراد بهم: الذين آمنوا بالرسول ﷺ، وإطلاق «منهم» على أولئك باعتبار الماضي ﴿وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ أي أن أكثرهم متطرفون يعملون الأعمال السيئة.

[٦٨] ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ هذه الآية نزلت بمناسبة استخلاف الرسول ﷺ علياً خليفة من بعده - كما أجمع عليه المفسرون - وقد كان الرسول ﷺ يخشى المنافقين من ذلك، فبين

وَأِنْ لَّمْ تَفْعَلْ مَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ
إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ

سبحانه عظم الأمر بقوله: ﴿وَأِنْ لَّمْ تَفْعَلْ﴾ أي لم تبلغ خلافة علي عليه السلام ﴿فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ لأن كل الرسالة رهن هذا التبليغ، وذلك واضح إذ عدم الاستخلاف معناه ذهاب جميع الأتعاب سدى، وقد أمّنه الله سبحانه مما كان يخشى منه فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ﴾ أي يحفظك ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فلا يتمكنون من الفتنة والانقلاب والإيذاء مما كان يخشاه الرسول ﷺ .

وحين ذاك، وعند منصرف الرسول من حجة الوداع في وسط الصحراء، أمر بنصب منبر له وخطب خطبة طويلة بليغة، ثم أخذ بكف علي عليه السلام وقال: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله»، وأنشد حسان:

يناديهم يوم الغدير نبيهم
بُخْمَ وَأَسْمَعَ بِالرَّسُولِ مَنَادِيَا

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ الذين يكفرون ببلاغك، ومعنى «لا يهديهم» أنه لا يلطف بهم اللطف الزائد بعدما أعرضوا عن الحق عناداً واستكباراً، ولعل الارتباط بين الآية وطرفيها أنه كما أن الناس مأمورون بالقبول، فالرسول مأمور بالبلاغ، مع تلطيف جو الكلام، بتغيير الأسلوب في وسط المطلب، تفتناً في البلاغ، وتنشيطاً للأذهان، كما تقدم في آيات أخرى مشابهة.

[٦٩] ﴿قُلْ﴾ يَا رَسُولَ اللَّهِ لِأَهْلِ الْكِتَابِ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ

لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ
إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ
رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٩﴾ إِنَّ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِثُونَ

لستم على شيء من الدين الصحيح الذي ارتضاه الله لعباده ﴿حتى تقيموا التوراة والإنجيل﴾ بالعمل بما فيهما بدون تحريف أو تحوير ﴿و﴾ تقيموا ﴿ما أنزل إليكم من ربكم﴾ يعني القرآن، وقد سبق وجه قوله: «أنزل إليكم» وأنه لجهة نزول القرآن في أوساطهم ﴿وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً﴾ فعوض أن يهتدوا بالقرآن يزيدهم طغياناً حيث كلما رأوا القرآن صمموا على مقابلتة وكفروا بكل ما ينزل منه، ولا يخفى أن نسبة الزيادة إلى القرآن مجازاً، وإلا فهو أنفسم هو الذي يزيدهم كفراً ﴿فلا تأس﴾ أي فلا تحزن يا رسول الله ﴿على القوم الكافرين﴾ الذين كفروا بعدما علموا الحق، وأعرضوا عن الهدى بعد أن رأوه وعرفوه.

[٧٠] وحيث تقدم أن الله لا يهدي القوم الكافرين، مما كان يوهم أن الكفار غير قابلين للهداية، ذكر سبحانه أنهم إن آمنوا - الملازم لإمكان الإيمان منهم - كان لهم ما لغيرهم من المؤمنين من الأجر والمثوبة ﴿إن الذين آمنوا﴾ إيماناً ظاهراً بالشهادتين ﴿والذين هادوا﴾ أي اليهود ﴿والصابثون﴾ وهم قسم من المسيحيين أو غيرهم - كما تقدم في سورة البقرة - ورفع «الصابثون» مع أنه عطف على المنصوب بـ«إن» للإلفات إلى أن الصابئ الذي لا يرجى فيه خير إن آمن قبل، فكيف بغيره؟! فهو معطوف على

وَالنَّصْرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا
خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٧٠﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ
بَنِي إِسْرَءِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ
بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧١﴾

محل اسم «إن» حيث كان مبتدأ قبل دخول الناسخ ﴿والنصارى﴾ ليس
اعتباراً بأسمائهم وصبغتهم العامة في النجاة والثواب، بل ﴿من آمن﴾
منهم ﴿بالله واليوم الآخر﴾ إيماناً حقيقياً من القلب، لا يشوبه شرك
ونحوه ﴿وعمل صالحاً﴾ أي عمل عملاً صالحاً ﴿فلا خوف عليهم ولا
هم يحزنون﴾ لا في الدنيا ولا في الآخرة، أما في الآخرة فواضح، وأما
في الدنيا فلأن الخوف الحقيقي والحزن الواقعي هو الذي لا يرجى دفعه
وتداركه، بينما خوف هؤلاء وحزنهم ليس كذلك، فإن خوف المؤمن
ليس كخوف الكافر، وكذلك بالنسبة إلى الحزن.

[٧١] إن اليهود لم يكن لهم إيمان صادق من يومهم الأول، فكيف تأس
عليهم يا رسول الله إن لم يؤمنوا بك؟! ف﴿لقد أخذنا ميثاق بني
إسرائيل﴾ عهدهم الأكيد حول الإيمان بالله وأنبيائه واتباع أوامره
﴿وأرسلنا إليهم رسلاً﴾ يهدونهم إلى الحق، لكنهم نقضوا الميثاق
وخالفوا الأوامر وتجروا على أشنع جريمة ف﴿كلما جاءهم رسول بما
لا تهوى أنفسهم﴾ ولا تميل إلى ما جاء به، بأن لم يكن يوافق مرادهم
﴿فريقاً﴾ من الرسل ﴿كذبوا﴾ كالْمَسِيحِ ﷺ، حيث نسبوه إلى
الكذب وأنهم ليسوا من قبل الله سبحانه ﴿وفريقاً﴾ من الرسل
﴿يقتلون﴾ كزكريا ﷺ.

وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا
يَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾

=====

[٧٢] ﴿وحسبوا﴾ أي ظن هؤلاء اليهود الذين كذبوا الأنبياء ﷺ وقتلوهم ﴿أن لا تكون فتنة﴾ أي لا يسبب قتل الأنبياء ﷺ وتكذيبهم فتنة، كما هو شأن كل من يقدم على جرم كبير يظن أن الأوضاع تبقى على ما يشتهي، تنتهي الأمر أن ما صدر عن بعض شهواته يزول ويمحى عن الوجود مع أن الأمر بالعكس، فإن بقاء المجتمع سليماً من الأخطار والآفات إنما هو بانتهاج تعاليم الأنبياء، فإذا أزيح النبي عن القيادة والتوجيه إما بقتله أو تكذيبه، فإنه سوف تحل بالمجتمع أشد الكوارث، وتقع أعظم الفتن ﴿فعموا وصموا﴾ عن مناهج الرشد، بقتلهم الأنبياء وتكذيبهم، فإن الإنسان يبصر طريقه ويسمع الحق الذي ينفعه ما دام هناك نور يضيء، ومرشد يدعو، أما إذا أزال النور، وأزاح المرشد، فإنه يعمى عن طريقه حتى يقع في المهالك، ويصم عن الحق حتى تحل به الكوارث ﴿ثم تاب الله عليهم﴾ بإرسال أنبياء آخرين، والمراد «التوبة» على هذا الجنس لا خصوص من قتل منهم الأنبياء ﴿ثم عموا وصموا﴾ أيضاً عن الحق، بأن تركوا تعاليم الأنبياء وأخذوا يتيهون في الضلالة ﴿كثير منهم﴾ إذ بعضهم آمن واهتدى، ولفظة «كثير» بدل «بعض» عن «كل» لا فاعل ثانٍ ﴿والله بصير بما يعملون﴾ فيجازيهم على ما اقترفوا من الآثام واحتقبا من الإجمام.

[٧٣] هكذا كان حال اليهود، حيث كفروا بعد أن أرشدهم الله الطريق، أما النصارى فإنهم كإخوانهم اليهود في العمى عن الحق بعد الرشاد

لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٣﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ وهؤلاء قالوا: إن الله اتحد بالمسيح فصار شيئاً واحداً، ولا يخفى أن الاتحاد غير معقول إذ لو بقي الشيطان اثنين بعد الاتحاد لم يكن اتحاد وإن عدم أحدهما، كان الله، بينما المسيح بنفسه اعترف بأنه عبدُ الله ﴿و﴾ الحال أنه ﴿قال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله﴾ وحده ﴿ربي وربكم﴾ فإننا جميعاً عبيده ﴿إنه من يشرك بالله﴾ ويجعل له شريكاً، سواء اعترف به وبالشريك، أم اتخذ إلهاً غيره، فإنه أيضاً من جعل الشريك لله ﴿فقد حرم الله عليه الجنة﴾ فلا يُدخله فيها أبداً ﴿ومأواه﴾ أي مصيره ﴿النار وما للظالمين﴾ الذين ظلموا أنفسهم بالشرك ﴿من أنصار﴾ ينصرونهم من بأس الله وعذابه.

[٧٤] وهناك قسم آخر من النصارى جعلوا الآلهة ثلاثة ﴿لقد كفر﴾ النصارى ﴿الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ أي أحد آلهة ثلاثة، وهم: «الأب» أي الله، و«الابن» أي المسيح، و«روح القدس»، قالوا: هذه الثلاثة واحد، وذاك الواحد ثلاثة، وحين يسألون: كيف يمكن ذلك وهو تناقض؟ يقولون: إنه فوق مستوى عقولنا، ولا يلزمنا معرفة الكيفية.

وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ
لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٤﴾ أَفَلَا
يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ

=====

وهناك سؤال هو أنه ما الفرق بينكم أنتم المسلمون حيث تقولون بأن الله لا يدرك كنهه، وبين الذين قالوا إن مشكلة التوحيد والتثليث فوق مستوى عقولنا؟

والجواب: إن الفرق من أوضح الواضحات، إذ أولئك يقولون بما لا يمكن ولا يعقل، وما لا يدرك ﴿وما من إله إلا إله واحد﴾ أي ليس للكون إلا إله واحد هو الله سبحانه ﴿وإن لم ينتهوا﴾ أي لم يرجع هؤلاء النصارى القائلون بالتثليث ﴿عما يقولون﴾ أي عن مقالتهم، وقولهم بالتثليث ﴿ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ في الدنيا والآخرة، وإنما لم يقل «ليمسنهم» لإفادة أنهم بمقالتهم هذه يكونون كفاراً، تأكيداً لما سبق من قوله: «لقد كفر» وهذا من أساليب البلاغة، يقال: «اترك هذا الأمر وإلا لسجنت الفاعل له» عوض أن يقول: «لسجنتك» لإفادة أن علة السجن هو الإتيان بذلك العمل.

[٧٥] ثم استفهم سبحانه استفهاماً تعجبياً، وقد تقرأ في الأصول أن أمثال هذه الاستفهامات والتعجبات إنما هي إنشاء مفهوم الاستفهام والتعجب وأمثالهما، لداعي آخر من ترغيب وإنكار وما أشبه، فليس استفهامه ولا تعجبه عن جهل وتعجب كما هو عندنا ﴿أفلا يتوبون﴾ هؤلاء اليهود والمسيحيون ﴿إلى الله﴾ ويرجعون عن عقائدهم السخيفة

قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ

=====

[٧٧] ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله لهؤلاء النصارى الذين يعبدون المسيح ويجعلونه إلهاً ﴿أتعبدون من دون الله﴾ أي غير الله ﴿ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً﴾ فإن شيئاً في الوجود لا يملك ضرر أحد ولا نفعه إلا بإذن الله، ومن أضرَّ أو نفع بالوسائل الطبيعية - كالقاتل والمعطي - أو بالوسائل الغيبية كالأنبياء والأئمة، فإنما ذلك حيث جعل الله المسببات تابعة لأسبابها الخاصة، وسلط الفاعل على الأسباب، فهي ترجع أيضاً إليه سبحانه ﴿والله هو السميع﴾ لأقوالكم ﴿العليم﴾ بضمائرکم وحركاتكم، فاحذروا مخالفته، كي لا تقعوا في عقوبته ونكاله.

[٧٨] ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله: ﴿يا أهل الكتاب﴾ إما عام يشمل اليهود والنصارى، فالمراد بغلو اليهود: قولهم عزيز ابن الله، وقولهم أن المسيح ليس نبياً، فإنه غلَوْ معكوس، أو المراد به النصارى فقط ﴿لا تغلوا في دينكم﴾ بأن تقولوا: المسيح هو الله، أو ثالث ثلاثة، أو إنه ابن الله ﴿غير الحق﴾ عطف بيان، إذ كل غلَوْ هو غير الحق ﴿ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ فإن أسلافكم لو ضلوا في اعتقادهم وغلوا، فلماذا تتبعونهم أنتم، إنهم كانوا من قبل وقد مضوا، فما بالكم أنتم تقتفون أثرهم الباطل ﴿وأضلوا كثيراً﴾ من الناس فأوقعوهم في ضلال الكفر والشرك ﴿وضلوا عن سواء

التَّكْوِيلِ ﴿٧٨﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ
عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا
وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٩﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ
مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٠﴾

السبيل ﴿٧٨﴾ أي الجادة المستقيمة . والتكرار إنما هو لاختلاف المتعلق ،
فقد تعدى أحدهما إلى «من قبل» وتعدى الآخر إلى «عن سواء
السبيل» أو المراد بـ«القوم» كبارهم الذين كانوا قبل النبي قائلين
بالوهمية عيسى ، وأدركوا فلم يؤمنوا ، فإنهم ضلوا من قبل بعثة
النبي ﷺ لقولهم بالتثليث ، وضلوا بعد بعثته لكفرهم به ﷺ .

[٧٩] ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ فاللعنة عليهم من قديم الزمان
حيث لم ينفكوا يعملون القبائح ويكفرون بالأنبياء وينسبون إلى الله ما
لا يليق به ﴿على لسان داود﴾ النبي ﷺ في الزبور ﴿و﴾ على لسان
﴿عيسى ابن مريم﴾ في الإنجيل ، فقد لعنهم داود ﷺ لما اعتدوا في
السبت فصاروا قردة ، ولعنهم عيسى ﷺ لما كفروا بعد فصاروا خنازير
﴿ذلك﴾ اللعن إنما استحقوه ﴿بما عصوا﴾ أي بسبب عصيانهم ﴿وكانوا
يعتدون﴾ أي يتجاوزون حدود الله سبحانه .

[٨٠] ثم بين سبحانه بعض عصيانهم واعتدائهم بقوله : ﴿كانوا﴾ أي كان بنو
إسرائيل ﴿لا يتناهون﴾ أي لا ينهى بعضهم بعضاً ﴿عن منكر فعلوه﴾
فقد تفشت فيهم المنكرات ولم يكن ينهاهم علمائهم ، فاستحق
الجميع العقاب ، أولئك بإتيان المنكر ، وهؤلاء بسكوتهم عن فاعليه
﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ من إتيان المنكر وعدم التناهي عنه .

تَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبَسِّ
مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي
الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ

=====

[٨١] ﴿ترى﴾ يا رسول الله أن تلك الطبيعة العاتية العاصية موجودة فيهم إلى الآن، فإن ﴿كثيراً منهم﴾ أي من بني إسرائيل - اليهود - ﴿يتولون الذين كفروا﴾ أي يتخذون الكفار أولياء لهم، فقد كان اليهود يتولون كفار مكة ويقولون: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾^(١)، في حين يجب على المؤمن أن يعادي الكافر الذي لا يعترف بالله وقوانينه ﴿لبس ما قدمت لهم﴾ أي لهؤلاء اليهود ﴿أنفسهم﴾ أي بئس ما قدموا لمعادهم من الأعمال السيئة ﴿أن سخط الله عليهم﴾ محله الرفع بـ«بئس» فهو كزيد في قولك: «بئس رجلاً زيد» أي بئس السخط الذي قدموه لأنفسهم ﴿وفي العذاب هم خالدون﴾ فالسخط يؤذي روحهم، كمن يعلم أن السلطان غاضب عليه، والنار تؤذي جسمهم كما قال سبحانه في عكس ذلك: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾^(٢)، فإن أهل النار يعذبون عذابين، وأهل الجنة ينعمون نعيمين.

[٨٢] ﴿ولو كانوا﴾ أي هؤلاء اليهود ﴿يؤمنون بالله﴾ إيماناً صادقاً ﴿و﴾ يؤمنون بـ﴿النبي﴾ محمد ﷺ ﴿وما أنزل إليه﴾ من القرآن الحكيم

(١) النساء: ٥٢ .

(٢) آل عمران: ١٦ .

ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٣﴾

=====

اللفظ (قَالُوا إِنَّا نَصَارَى) ^(١)، لا أنهم على تعاليم المسيح ودينه حقيقة، لكنهم من أقرب الناس حباً للمسلمين ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي سبب كونهم أقرب ﴿بأن منهم﴾ أي من النصارى ﴿قسييسين﴾ أي علماء من «القس» بمعنى نشر الحديث ﴿ورهباناً﴾ أي الزهاد أصحاب الصوامع من «رهب» بمعنى خاف ﴿وأنهم لا يستكبرون﴾ عن اتباع الحق والانقياد إليه إذا علموه. وبهذه الصفة خرج من لم يكن كذلك من النصارى، فإن القيد يُخصّص المطلق.

الفهرس

٥	المقدمة
١٠	كيفية الإعجاز
١٨	الشيعة والاهتمام البالغ بالقرآن الكريم
٤٠	بعض مفسري الشيعة
٧٦	المصادر
٨٠	المقدمة
٨١	المدخل
٨١	كتاب كل عصر ومصر
٨٩	تطبيق الفكر والعمل على القرآن
٩٥	فلسفة كاملة عن الحياة
١٠٢	سورة البقرة
٣١٠	سورة آل عمران
٤٣٩	سورة النساء
٥٩٥	سورة المائدة
٦٨٠	الفهرس